



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة 20 أوت 1955 سكيكدة



قسم اللغة والأدب العربي

كلية الآداب واللغات

أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه (الطور الثالث ل م د)

البلاغة في نظرية النظم ونظرية النحو الوظيفي

- دراسة مقارنة -

تخصص: بلاغة وأسلوبية

مدير الأطروحة: د. سفيان بوعنينة

إعداد الطالبة: سلى معلم

أعضاء لجنة المناقشة

الاسم واللقب	الرتبة	الجامعة	الصفة
د. عبود حميدة	أستاذ محاضر - أ -	جامعة 20 أوت 1955 - سكيكدة	رئيسا
د. سفيان بوعنينة	أستاذ محاضر - أ -	جامعة 20 أوت 1955 - سكيكدة	مشرفا ومقررا
د. زهير بوخيار	أستاذ محاضر - أ -	جامعة 20 أوت 1955 - سكيكدة	ممتحنا
د. جيهان بلمولود	أستاذ محاضر - أ -	جامعة 20 أوت 1955 - سكيكدة	ممتحنا
د. السبتي سلطاني	أستاذ محاضر - أ -	جامعة باجي مختار - عنابة	ممتحنا
د. عبد الحكيم سحالية	أستاذ محاضر - أ -	جامعة الشاذلي بن جديد - الطارف	ممتحنا

السنة الجامعية: 2021 م 2022 م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

شكر وعرفان

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

أوجه خالص الشكر والامتنان إلى الأستاذ المشرف الدكتور: سفيان بوعنينة الذي لم يذخر جهدا في سبيل توجيهنا وإمدادنا بالنصائح السديدة.

والشكر موصول لرئيس مشروع دكتوراه البلاغة والأسلوبية الأستاذ الفاضل الدكتور: عبود حميدة.

كما أشكر أستاذتي الدكتورة: هدى بن عزيزة على ما أسدته لي من عون ونصائح واقتراحات، فلها جزيل الشكر والاحترام والتقدير.

ولا يفوتني أن أتقدم بالشكر إلى الأساتذة الأفاضل أعضاء لجنة المناقشة الذين تجشموا عناء القراءة والسفر والمناقشة.

مقدمة

مقدمة:

عرفت دراسة اللغة عربيا وغربيا، قديما وحديثا تراكما معرفيا متنوعا؛ إذ تشعبت المعارف وتباينت إلا أنها اتسمت بخاصية التداخل، وذلك ما فرضه اشتراك الموضوع المتمثل في لغة البشر على اختلافها، وكذلك اشتراك الهدف؛ فقد انطلقت كلها - بغض النظر عن البعد الإيديولوجي الخاص - من مسعى دراسة تلك اللغة من خلال وصف نسقها، وتحديد مستوياته: المستوى الصوتي، والمستوى الصرفي، والمستوى المعجمي، والمستوى الدلالي، وتوضيح كيفية توظيفه السليم الناجح. حيث تمت العناية بالممارسة الخطابية التواصلية؛ أي الاستعمال اللغوي الوظيفي التواصلية، الذي يظهر عبر خطابات متنوعة متباينة شكلا، ومضمونا، وهدفا.

لقيت مسألة الممارسة الخطابية التواصلية اهتماما كبيرا لدى الدراسات العربية والغربية، وهو ما دعا إليه التركيز على خدمة مستعملي اللغة من أجل بلوغ أهدافهم، الصريحة منها أو المضمرة التي يسعون إلى تحقيقها، من خلال معاملاتهم الخطابية اليومية الاجتماعية، التي تكون بين الطابع العادي والطابع الفني الأدبي. وقد ارتبط الاهتمام بتلك المسألة بعدة مجالات معرفية لعل أهمها البلاغة؛ إذ عنيت هذه الأخيرة بتبيين آليات التشكيل الخطابي الفعال، الذي يمثله التشكيل البلاغي، وذلك حيث تعد البلاغة سمة بارزة في الخطاب ومكونا من مكوناته، لتكون بالنسبة لمستعمله ملكة تظهر عبر الممارسة.

شكل الوعي بدور البلاغة في الخطاب أبرز خصائص التفكير الخطابي، التي اشتركت من خلالها مختلف المجتمعات اللغوية البشرية، وهذا ما لوحظ على المجتمع اللغوي العربي القديم، فقد ولع مستعملو اللغة العربية بقوة التعبير وفنيته، وذلك ما ربطوه بالبلاغة إذ عدوا حضورها في خطاباتهم اليومية الشعرية منها والنثرية أمرا ضروريا، وهو ما يمكن القول على إثره إن هذا الأمر من أهم مكنيزات بنية العقل العربي، إنه نمطية معاملاتهم اللغوية الخطابية، التي جعلوا من خلالها ميدان البلاغة ميدان الإبداع والتميز.

لقد احتلت البلاغة في المجتمع الغربي القديم - كذلك - مكانة عالية، فقد عُدت مكونا حيويا مركزيا في الحياة اليومية، إذ يفيد وجوده مختلف الشؤون الاجتماعية لا سيما منها السياسية، وذلك ما نبه إليه السفستائيون حيث سعوا إلى تعميم استعمالها، باعتبارها ممارسة تعليمية، وهذا ما جاء كرد فعل على الأوضاع السياسية التي عرفت صقلية اليونانية، فكان هدفهم تعليم الناس البلاغة، من أجل استرجاع الحقوق المسلوبة والدفاع عنها، ولذلك تبوأ البلاغة مركزا اجتماعيا رئيسا أقر بطابعها التداولي، الذي امتد مع سقراط وأفلاطون وأرسطو إلى البعد الإنساني الأخلاقي، والبعد الجمالي، والبعد المعرفي، وقد تميزت البلاغة آنذاك بخاصية الارتباط بالفلسفة،

وكذلك ارتبطت بالأدب من خلال ما تمثله نظرية الأدب الأرسطية. وقد امتد الإقرار بمكانة البلاغة داخل المجتمع الغربي إلى العصر الحديث والراهن كذلك، وهو ما عززت له البحوث الإنسانية الحديثة، والمعاصرة التي تعددت وتباينت مجالاتها؛ حيث نجد منها: الفلسفية والسيمائية واللسانية..، وقد تولدت داخل كل مجال توجهات بلاغية جديدة، حيث أصبحت البلاغة بلاغات؛ فنجد البلاغة الفلسفية، والبلاغة السيميائية، والبلاغة اللسانية وداخل هذه الأخيرة نجد البلاغة الحديثة وتمثلها الأسلوبية، والبلاغة الجديدة وتمثلها الحجاج، والبلاغة المعاصرة وتمثلها التداولية.

وقد تطور التفكير البلاغي الغربي في العصر الحالي، الذي يمكن تسميته: بعصر البلاغة، حيث تكونت فيه إمبراطورية البلاغة، ومن ملامح ذلك التطور التركيز على صياغة نظرية بلاغية كلية شمولية، تعنى بدراسة كل الخطابات التواصلية البشرية اللغوية منها وغير اللغوية، إذ تهتم بالممارسة الخطابية بكل أنماطها، وأشكالها، وأجناسها بحيث تصلح لكل المجتمعات، فقد عرفت البلاغة جدّة؛ إذ لم تعد مجرد أسلوب أو صياغة، وإنما نظرية عالمية شاملة تعنى بدراسة بلاغة البشر، باعتبارها بلاغات متنوعة متباينة.

لقد أثبتت مختلف البحوث أن البلاغة في بعدها العام، تتناول الممارسة الخطابية التواصلية الاجتماعية على اختلاف أشكالها وأجناسها. وهو ما يعني الاهتمام بالملكة أو القدرة التواصلية، التي توضح بأن اللغة - أولاً وقبل أي خاصية من خصائصها - استعمال يظهر عبر خطابات البشر المتنوعة، التي نجد من بينها الخطاب البلاغي، الذي يعد خطاباً تواصلياً يجمع بين متكلم ومتلقي في ظروف سياقية معينة. وتبين هذه الحقيقة أن مجال البلاغة مجال واسع يجمع بين اللغوي وغير اللغوي، وذلك ما يعكس طبيعة الخطاب البلاغي، هذا إلى جانب كونه خطاباً خاصاً يقتضي توفر مجموعة من الشروط، التي تخص المتكلم حيث تتعلق بمرحلة الإنتاج، وكذلك المتلقي وهو ما يتعلق بمرحلة الفهم والتأويل.

يتطلب البحث في البلاغة - حسب رأينا - نظرية عامة شاملة، تكون ذات منهج كلي من مميزاته وصف وتبيين مختلف قضاياها؛ وذلك ما يتطلبه - في الحقيقة - موضوع بحثها؛ أي الخطاب التواصلية البلاغي الذي يتميز بخصائص ومكونات، ذات طبيعة شكلية تتعلق بسياقه الداخلي، وأخرى ذات طبيعة وظيفية تداولية تتعلق بسياقه الخارجي. ولذلك فإن الربط والملائمة بين الشكلي والوظيفي، أهم ما يجب العمل به داخل تلك النظرية، وذلك ما عملت به البلاغة العربية. وكذلك هو الحال بالنسبة للبلاغة الغربية، ولعل هذا ما تجلّى بوضوح من خلال أحد اتجاهاتها الجديدة، ونقصد بذلك الاتجاه التداولي، الذي تمخض على إثر تطور البحث اللساني الغربي

من البنية إلى الوظيفة، والانتقال عبر ذلك من دراسة اللغة إلى دراسة الخطاب، وقد بلور ذلك الاتجاه للنظريات الوظيفية التداولية، ومن أهمها نظرية النحو الوظيفي، التي عملت وفق مبدأ الوظيفية القاضي بربط بنية الخطاب بوظيفته التواصلية، مركزة على خدمة مستعملي اللغات الطبيعية، وقد توصلت الدراسات الحديثة إلى أن المنهج الذي اتبعته هذه النظرية، منهج كلي؛ ما يعني صلاحيتها لأن تكون نظرية عامة كلية.

وقد كشفت البحوث العربية الحديثة التي أعادت قراءة التراث اللغوي العربي القديم، وفق منظور البحث اللساني الغربي ونظرياته الحديثة، أن منهج الوظيفية الذي اعتمدته تلك النظرية، هو المنهج الذي اتسمت به بحوث ذلك التراث على اختلاف مجالاته، وذلك ما ينطبق على مجال البلاغة، وهو ما يكشف عنه مبدأ مطابقة الكلام لمقتضى الحال، باعتباره المبدأ الرئيس الذي ميزها، وهذا ما لوحظ على نظرية النظم الجرجانية؛ إذ يعد ذلك المبدأ عند عبد القاهر الجرجاني، من أهم شروط الخطاب البلاغي الفعال، وذلك ما يندرج في إطار المناسبة المقامية. وفي الواقع تعد نظرية النحو الوظيفي من أبرز النظريات اللسانية الغربية التي تتشاكل ونظرية النظم. فقد تداخلت أفكار النظريتين وانسجمتا معرفياً، على الرغم من الحدود الفاصلة، التي تؤكد التميز الإيديولوجي والمنهجي لكل نظرية.

لقد ارتأينا - من هذا المنطلق - أن ذلك الانسجام المعرفي، خليق بمعاينة فكرية ودراسة علمية منظمة، تعمل على تقصي أسس ومبادئ كل نظرية، وتقف على منهجية معالجة كل واحدة لموضوع الممارسة الخطابية بصفة عامة، والبلاغية منها بصفة خاصة. حيث تحاول تحديد ماهية البلاغة في كل نظرية، واستجلاء خصائص الرؤية البلاغية في كل واحدة. مع العلم بأن الحديث عن البلاغة قد تجلّى بوضوح في نظرية النظم، وذلك عكس ما نجده في نظرية النحو الوظيفي وهو ما ركزنا على استكشافه، إذ مما لا شك فيه أن وصفها بالنظرية اللسانية الوظيفية الكلية يشمل مجال البلاغة. إذ تدرس الخطاب البلاغي من خلال كافة مستوياته ومختلف أبعاده، التي يستدعيها البعد التواصلية الوظيفية التداولية، ويعد هذا الأخير البعد الرئيس الذي يبين مفهوم البلاغة ويحدد ماهيتها، فهي عملية وظيفية تداولية، مرتبطة حسب التفكير الإنساني بالجانب الإبداعي الفني. وقد تولدت في خضم ذلك الإشكالية الآتية:

كيف تجلت البلاغة في نظرية النظم ونظرية النحو الوظيفي؟ وما مدى تقاطع النظريتين بلاغياً؟ وهل يتوقف تحقيق البلاغة باعتبارها عملية وظيفية تداولية على الجانب الفني، أم أن البلاغة تتجاوز ذلك وتقتضي شروط أخرى؟، وقد ارتبط بذلك السؤال الآتي: هل تتطلب دراسة الخطاب البلاغي دراسة كلية، دراسته من خلال نظرية وظيفية

تداولية؟ وهل الشمولية، التي تقتضيها النظرية البلاغية العامة، تتوقف على توفر الرؤية الوظيفية التداولية؟، وإذا لم يكن الأمر متوقفاً على ذلك فما هي - إذن - شروط وخصائص تلك النظرية؟، وهذا ما يقود إلى التساؤل التالي: أي النظريتين يمكنها أن تتبوأ تلك المنزلة، هل هي نظرية النظم أم نظرية النحو الوظيفي؟ أم كلتاها؟، وذلك ما جعل هذه الدراسة تحمل عنوان: (البلاغة في نظرية النظم ونظرية النحو الوظيفي دراسة مقارنة).

انطلقت دراستنا من حقيقة أن خدمة مستعملي اللغة منتجين/ مؤولين، عبر بناء خطابات تواصلية بلاغية، هو ما عنيت به كل من نظرية النظم ونظرية النحو الوظيفي. غير أن الأمر الأكيد هو أن النظرية الأولى ذات بعد خاص، وهو ما ينطبق على البلاغة العربية بصفة عامة. أما النظرية الثانية فهي ذات بعد عام كلي. وفي خضم ذلك تبلورت الأسئلة الآتية: هل يمكن أن تكون البلاغة في نظرية النظم بلاغة عامة إلى جانب كونها بلاغة خاصة؟، هل تقتضي خاصية العام إقامة حوار بينها وبين النظريات الغربية؟ أم أنها خاصية كامنة فيها؟ وما علينا سوى فهمها فهما جيداً؟

تجلى أهمية موضوع بحث هذه الدراسة، في ارتباطه بمجال معرفي اجتماعي حيوي، تتداخل من خلاله مختلف أغراض البشر، ونقصد بذلك البلاغة، هذه الأخيرة التي فرضت أهميتها، ظهور سلطتها كمجال معرفي اجتماعي، متين الأصول، شديد التأثير على مستوى شتى المجالات الاجتماعية، ولعل ذلك ما دفع البحوث العربية الحديثة، لإعادة قراءة الموروث البلاغي العربي القديم، من أجل فهمه فهما صحيحا، والعمل على تحيينه من خلال تطوير آلياته، قصد استثمارها في الحياة التداولية اليومية. وقد شكلت المقارنة بين ذلك الموروث والمقاربات اللسانية والبلاغية الغربية، أبرز التقنيات التي اعتمدوا عليها، فكان قول - أغلبهم - بنجاعة آليات المقاربات الغربية، والدعوة إلى مواكبتها أهم ما انتهوا إليه، مفسرين هذا الرأي بقصور تصورات ذلك الموروث وعدم قدرتها على خدمة الإنسان المعاصر. ولذلك كان خليقا بنا البحث في مدى صحة آرائهم، من خلال وقوفنا على ما يمثل - حسب رأينا - أهم تصورات ذلك الموروث، والمتمثل في: نظرية النظم، ومقارنتها بنظرية النحو الوظيفي.

تسعى هذه الدراسة إلى تحقيق عدة أهداف أهمها:

- معرفة خصائص التفكير الإبستمولوجي البلاغي العربي ونظيره الغربي، وقد ركزنا في الأول على جانبه التراثي الذي وقفنا فيه على نظرية النظم، أما الثاني فقد ركزنا على جانبه الحداثي، الذي وقفنا فيه على نظرية النحو الوظيفي. ونشير هنا إلى أن بحثنا في هذا الجانب من هذه النظرية، يعد أول محاولة؛ وذلك باعتبار أن الدراسات التي تناولت النظرية، قد ركزت على المجال اللساني المحض دون العناية بالجانب البلاغي.

- الفصل في أمر أي النظريتين هي الأكثر نجاعة؛ وبمعنى آخر تحديد النظرية الكافية نظريا وإجرائيا، والتي يمكن لمستعملي الخطاب الاعتماد عليها، لتحقيق خطابات وظيفية بلاغية مثالية.

- تبيين أهمية ما جاءت به كل نظرية على حدة من خلال الحرص على مبدأ الإقسط وتلافي الإسقاط، وقد سعينا في خضم ذلك إلى الرد على بعض الآراء النقدية الحديثة، التي دعت إلى تحديد البلاغة العربية، فانتقدتها دون أن تقترح نظرية بديلة مناسبة، تسد النقائص التي رأتها على التراث البلاغي، حيث ركزت على المقارنة الإسقاطية، التي حاولت تأكيد أن كل ما توصلت إليه البحوث الغربية موجود في تراثنا. ومن هذا المنطلق حاولنا التنبيه إلى ضرورة الفهم الصحيح، للبلاغة العربية - ممثلة في نظرية النظم - باعتبارها بلاغة خاصة؛ إذ نجد من مظاهر ذلك ارتباطها الوثيق بالحدث الديني، المتعلق بالنص الديني القرآني، فالأولى أن نعمل على الاستثمار الناجع لجوانبها الإيجابية، التي تفتقدها البلاغة الغربية، ولعل هذا ما يتيح تنظيم هدف الاستفادة من الآليات الحديثة المتطورة، التي جاءت بها بلاغة الغرب.

- تأكيد دور البلاغة الاجتماعي متعدد الأبعاد، وهو ما يتماشى مع معاملاتنا اليومية المتنوعة المتباينة، فهو دور تأسيسي يقوم به الخطاب البلاغي التواصل، إذ يدخل دور البلاغة - حسب رأينا - في إطار التنمية البشرية العالمية.

- تحديد مفهوم البلاغة من منظور وظيفي اجتماعي إنساني شامل، يعمل على توجيه مستعملي الخطاب إلى التعامل الأخلاقي، وتفادي التعامل المادي المموه الخادع.

- توضيح مبادئ النظرية البلاغية الشمولية الصالحة لكل زمان ومكان، والتي يمكنها مواكبة تطور خطابات البشر البلاغية الإبداعية، والتصدي لعبوب التفكير البلاغي المادي، الذي يتوسل التطور التكنولوجي من أجل أغراض ومصالح غير صادقة.

ومن أجل تحقيق ما نصبو إليه قسمنا البحث إلى مقدمة وأربعة فصول وخاتمة تلخص مجموع ما توصلنا إليه من نتائج.

ركزنا في الفصل الأول الذي حمل عنوان: فصل تمهيدي في البلاغة العربية، على تتبع أبرز الأصول الإستيمولوجية التي ميزت البلاغة العربية، لتتطرق من خلال ذلك لنظرية النظم؛ حيث عملنا على توضيح أسسها وأبرز أصول نشأتها.

وقد عملنا في الفصل الثاني الموسوم ب: البلاغة في نظرية النظم، على استكشاف الطرح البلاغي الذي قدمته هذه النظرية، وقد اعتمدنا في ذلك على أهم مؤلفات عبد القاهر البلاغية، ونقصد بذلك: دلائل الإعجاز في علم المعاني، وأسرار البلاغة.

وعملنا في الفصل الثالث الموسوم ب: اللسانيات الغربية من البنية إلى الوظيفة، على تتبع أهم مراحل تطور اللسانيات الغربية. التي عرفت تطورات كثيرة أبرزها تطور البحث فيها من البنية إلى الوظيفة، وفي خضم ذلك تطرقنا لأسس ومبادئ نظرية النحو الوظيفي.

أما في الفصل الرابع والموسوم ب: البلاغة في نظرية النحو الوظيفي، فقد كان البحث فيه مقسماً إلى ثلاثة مباحث، ركزنا في الأول على تتبع أبرز محطات واتجاهات البلاغة الغربية، التي هي بين القديم والحديث، أما في الثاني فقد عملنا على استكشاف التصور البلاغي، الذي يمكن أن تتضمنه نظرية النحو الوظيفي، وهو ما اعتمدنا فيه على مؤلفات أحمد المتوكل باعتبارها ترجمة ونقلًا عربيًا، لتلك النظرية تعريفًا بها، إذ يعد المتوكل من أهم الباحثين في هذه النظرية، والمشاركين الفاعلين في تطويرها النظري والمراسي. لنذهب بعد كل ما قدمناه - في المبحث الثالث - إلى إجراء المقارنة. التي توصلنا من خلالها إلى أن لتلك النظرتين، نقاط تداخل فيما بينهما، ونقاط اختلاف وهو ما يمثل الجانب الخاص لكل نظرية.

وقد اتبعت هذه الدراسة المنهج الوصفي والمقارن، حيث تمكنا من الوقوف على أفكار كل نظرية، من خلال مؤلفاتها، ورصد خصائص التصور البلاغي الذي ميز كل نظرية، وكذا تمكنا من المقارنة.

وبالنسبة للدراسات السابقة، فلم نجد - حسب ما اطلعنا عليه - أي دراسة تناولت موضوع البلاغة بين نظرية النظم ونظرية النحو الوظيفي، ولذلك يمكننا عد دراستنا أول محاولة، فقد ركزت أغلب الدراسات على البحث في قضايا ومبادئ نظرية النحو الوظيفي في اللغة العربية، كأطروحة دكتوراه علوم للباحث: يحيى بعبطيش، بعنوان: نحو نظرية وظيفية للنحو العربي، جامعة منتوري قسنطينة 2006.

وقد اعتمدنا على مجموعة من المصادر والمراجع المتنوعة، التي كانت موزعة على نظرية النظم والبلاغة العربية، ونظرية النحو الوظيفي والبلاغة الغربية، وكذا النظريات اللسانية الغربية. نذكر من بينها:

- دلائل الإعجاز في علم المعاني، وأسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني. البلاغة العربية أصولها وامتداداتها لمحمد العمري، الوظائف التداولية في اللغة العربية، الوظيفة والبنية، الوظيفية بين الكلية والنمطية، الخطاب وخصائص

اللغة العربية، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية لـ أحمد المتوكل. نظرية النحو الوظيفي الأسس والنماذج والمفاهيم لـ محمد الحسين مليطان. تحليل الخطاب في نظرية النحو الوظيفي لـ الزهري نعيمة، قراءة جديدة للبلاغة القديمة لـ رولان بارت، ترجمة: عمر أوكان، بلاغة الإقناع في المناظرة لـ عبد اللطيف عادل.

ولا يخلو أي بحث من صعوبات تعترضه وأهم ما صادفنا منها في بحثنا هي: تشعب مباحث الموضوع حيث كانت بين القديم، والحديث، والمعاصر، والعربي، والغربي، وكذلك صعوبة التعامل مع مؤلفات أحمد المتوكل وذلك بسبب افتراضات نظرية النحو الوظيفي المختلفة، فكل مرة افتراضا جديدا، وذلك ما يؤول إلى عدم أخذها صيغة نهائية، إذ لا زالت في طور التطوير.

ولا يسعني في الأخير إلا أن أحمد الله على توفيقه ومنه وكرمه، وأتقدم بخالص الشكر والامتنان إلى الأستاذ المشرف الدكتور: سفيان بوعنينة الذي تولى الإشراف على هذا البحث، وقدم لنا التوجيه والدعم المتواصل، ونشكر كل من مد لنا يد العون من قريب أو من بعيد، كما أتقدم بالشكر إلى أعضاء لجنة المناقشة على قبولهم مناقشة وتقويم هذا العمل.

وختاما آمل أن أكون قد وفقت في تقديم بحث يخدم بلاغة البشر ويفيد مستعملي الخطابات البلاغية، والله من وراء القصد، وهو نعم المولى ونعم المعين، وهو ولي التوفيق.

فصل أول:

فصل تمهيدي في البلاغة

العربية

تمهيد:

لقيت البلاغة في المجتمع العربي القلم عناية كبيرة حيث شكلت جانبا مهما من نشاط العرب الفكري والاجتماعي، إذ تواجدت في شتى ممارساتهم التداولية، فرافقت تطور خصائص بنية العقل العربي، التي عرفت تحولات معرفية وإيديولوجية متباينة العوامل. ويعد اعتبار البلاغة من أشرف العلوم أهم دليل يوضح الدرجة البالغة لأهميتها في نظر العربي. فقد أكد أبو هلال العسكري: "أن أحق العلوم بالتعلم وأولاها بالتحفظ بعد المعرفة بالله جل ثناؤه، علم البلاغة ومعرفة الفصاحة، الذي به يعرف إعجاز كتاب الله تعالى الناطق بالحق الهادي إلى سبيل الرشاد، المدلول به على صدق الرسالة وصحة النبوة التي رفعت أعلام الحق وأنارت منار الدين، وأزالت شبه الكفر ببراهينها، وهتكت حُجب الشك بيقينها"¹، والواضح أن منطلق الإقرار بأهمية البلاغة في هذا النص منطلق ديني، يتمثل في فهم القرآن الكريم وتأكيد إعجازه والعمل به. وهذا ما لا ينفي قيامها بوظائف أخرى خارجة عن ذلك؛ فقد تم الاعتماد عليها في قضاء مختلف الأغراض التبليغية اليومية، التي أخذت أنماط خطابية كثيرة لا سيما منها الإبداعية الأدبية. فالبلاغة ممارسة اجتماعية تبليغية إبداعية تجمع بين الوضوح والفنية.

لقد اتسمت البلاغة العربية بطابع خاص حيث ارتبطت بخدمة مستعملي اللغة العربية، كما تميزت بمصطلحات وأصول إبستمولوجية محددة، مما يجعلها تختلف وتتميز عن أي بلاغة أخرى.

أولا: البلاغة دراسة في تحول المفهوم:

توضح المتابعة الدقيقة لأهم المراحل الحاسمة التي مرت بها البلاغة العربية، أن مفهوم البلاغة قد شهد قبل استقرار مصطلح (بلاغة)، وتداوله بصورة واضحة في الخطاب البلاغي العربي عدة تحولات عرف من خلالها تسميات (مصطلحات) مختلفة.

وذلك ما يعكس تطور الوعي العربي ببعد اللغة البلاغي، فقد انتقل العقل العربي في تعبيره عن مفهوم البلاغة من مصطلح لآخر، حيث ارتبط توظيف كل مصطلح بظروف وتحولات ثقافية معرفية معينة، وهذا ما حملته عناوين بعض كتب علمائنا القدماء؛ إذ "يجد المهتم أسرار البلاغة، ويعثر على البديع، ويواجه بالبيان والتبيين، ولكنه يجد في كل كتاب من الكتب حديثا عن العلوم الثلاثة. إلا أن التسمية بـ "علم البلاغة" فرضت نفسها بعد مجيء كتب القزويني إلى المغرب"².

¹ - أبو هلال العسكري، الصناعتين الكتابة والشعر، تح: مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1: 1981، ص 2.

² - محمد مفتاح، التلقي والتأويل مقارنة نسقية، المركز الثقافي العربي، ط 1: 1994، ص 15.

وأهم المصطلحات التي تم تداولها للتعبير عن مفهوم البلاغة هي:

- مصطلح البيان:

يعد مصطلح (البيان) من أهم المصطلحات التي وظفها الخطاب البلاغي العربي القديم لوصف التعابير اللغوية البليغة قبل استقرار مصطلح (بلاغة)، وهذا ما نجده خاصة عند الجاحظ (ت 255 هـ) الذي لطالما ارتبط به الحديث عن البيان.

ويمثل البيان ذلك النظام التبليغي الوظيفي البشري الذي تؤدي من خلاله المعاني وتبلغ الأغراض بوضوح، ولعل هذا ما يلخص فحوى البيان الجاحظي الذي تشترك في ظهوره أدوات وعناصر لغوية وأخرى غير لغوية، إذ إن تبليغ المعاني ومن ثمة الكشف عن المقاصد والأغراض هو ما يجعل المتكلم وبالتالي خطابه بليغا.

يعكس البيان عند الجاحظ دينامية اللغة وجانبها العلاقي الوظيفي أو التبليغي القائم أساسا على علاقة الخطيب (المتكلم) بالمخاطب، وهذا ما تحدث عنه ولخصه في ثنائية الفهم والإفهام حيث يقول في سياق توضيحه لماهية البيان قائلا: "البيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير حتى يفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصولة كائنا ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدليل، لأن مدار الأمر والغاية التي يجري إليها القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع".¹، ويبدو من خلال ذلك أن البيان الذي يدل على نجاح الخطاب التبليغي أمر متوقف على وجوب تحقيق الإفهام، الذي يرتبط بحصول الفهم الجيد أو التبين الذي يدل على تمام التلقي.

لقد ركز الجاحظ على توضيح ما يقتضيه البيان الذي اهتم فيه - خاصة - بالبيان اللغوي (التبليغ) - حيث انتقل من الحديث عن البيان بصفة عامة إلى البيان اللغوي - من شروط وعناصر تضمن التأثير في المخاطب؛ إفهامه وإقناعه، إذ من خلالها يمكن بلوغ الخطيب مرتبة التبليغ الفعال ليكون بناء على ذلك خطيبا بليغا، فحسب رأيه إن "البيان يحتاج إلى تمييز وسياسة، وإلى ترتيب ورياضة، وإلى تمام الآلة وإحكام الصنعة، وإلى سهولة المخرج، وجهارة المنطق، وتكميل الحروف..."²، وغير ذلك من الشروط التي تجعل الخطاب في قمة البيان

¹ - أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، ج 1، تحقيق: هارون عبد السلام،، مكتبة الخانجي، ط1: 1975، ص76.

² - المرجع نفسه، ص 14.

والتأثير (أو الإقناع)، فالبيان صناعة لا تكون إلا بتوفر مجموعة من الضوابط والأصول التي تجعلها صناعة مميزة، يمكن الاعتماد بها.

إن الجاحظ من خلال مشروع البيان - أو نظرية البيان كما أطلق عليها بعض الباحثين - "كان.. يقدم وسيلة للحوار في عصره بين الفرقاء في المجال الفكري والسياسي، الحوار من خلال الرصيد الخطابي العربي من جهة وأحوال المخاطبين من جهة أخرى، المهم: كيف يكون الخطاب ناجعا، فاعلا"¹، فقد عني بتحديد أساسيات العملية التواصلية؛ كيفية إنجاز الخطاب وتوجيه ما يحمله من مقاصد وأغراض إلى السامع على أتم وجه، وهذا ما جعل حديثه عن البيان وثيق الصلة بوظيفة اللغة التواصلية (أو الإبلاغية)، وقد نبه الجاحظ كذلك إلى أهمية الجانب الفني الذي يساهم في تشكيل بلاغة الخطاب وهو ما يعكس الوظيفة البلاغية للغة، مؤكدا على حاجة المتكلم (الخطيب) إليه، وهكذا يكون البيان الجاحظي قائما على الجمع بين الوظيفة التبليغية والوظيفة البلاغية.

ورغم ذلك نجد أنه لم يفرق في بعض المواضع بين البيان والبلاغة؛ إذ "لم يقدم أي بيان يرتب العلاقة بين المفهومين. كان يتحدث عن البيان باعتباره موضوعا للكتاب ثم صار يتحدث عن البلاغة باعتبارها الموضوع نفسه، غير أنه من جهة أخرى، لم يعتمد تعريف البيان .. تعريفا للبلاغة، بل صار يورد اقتراحات مختلفة منسوبة إلى الأمم، مثل الهند والفرس وإلى أعلام من الثقافة العربية"²، وربما ذلك ما يحسب عليه.

لقد تميز مشروع البيان عند الجاحظ ببحثه في الجنس الأدبي النثري المتمثل في الخطابة وهذا ما يتبينه القارئ من خلال مؤلف البيان والتبيين، الذي عني فيه بالحديث عن التبليغ والتواصل الناجح (البيان)، ليكون التأسيس لبلاغة الخطابة الهدف الأسمى الذي سعى إليه الجاحظ.

يؤول تركيز الجاحظ على الخطابة بالدرجة الأولى إلى الظروف السياسية التي ظهرت في عصره على إثر الخصومة بين العرب والشعوبية، وما أفضى إليه هذا الأمر من آراء شعوبية ادعت عدم معرفة العرب بمقتضيات البيان والبلاغة حيث تحاملت على فن الخطابة عند العرب وعاداتهم التي يوظفونها في هذا الفن، كعادة الإمساك بالعصا، وهو ما دفع الجاحظ إلى الرد عليهم وتفنيد آرائهم.

¹ - محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، أفريقيا الشرق، المغرب، ط: 2005، ص 39.

² - محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، أفريقيا الشرق، المغرب، ط: 1999، ص 200.

- مصطلح البديع:

تداول مصطلح البديع في المجتمع العربي للدلالة به على التعابير اللغوية المستعملة استعمالاً بلاغياً، وذلك قبل بروز مصطلح (بلاغة) وظهور الوعي به كعلم، ولعل هذا ما يبدو واضحاً على مؤلف البديع للشاعر والخليفة العباسي عبد الله بن المعتز (ت 296 هـ)، الذي ألفه قصد توضيح حقيقة أمر البديع بالنسبة لبعض الشعراء المحدثين، الذين ادعوا أسبقية توظيفهم لهذا النوع من الاستعمال اللغوي. الذي تمثله بعض صور التعبير الفني، إذ يرى ابن المعتز أن استعمال البديع من أهم السمات التي طبعت أشعار المتقدمين.

ويرجع أول توظيف لمصطلح (البديع) للجاحظ وهذا ما يظهر في البيان والتبيين في قوله "ومن الخطباء الشعراء ممن كان يجمع الخطابة والشعر الجيد والرسائل الفاخرة مع البيان الحسن: كلثوم بن عمرو العتابي، وكنيته أبو عمرو، وعلى ألفاظه وحذوه ومثاله في البديع يقول جميع من يتكلف ذلك من شعراء المولدين، كنعو منصور النمري، ومسلم بن الوليد الأنصاري وأشباههما، وكان العتابي يحتذي حذو بشار في البديع، ولم يكن في المولدين أصوب بديعاً من بشار، وابن هرمة"¹.

وليس علم البديع الذي عُرف عند البلاغيين في العصور المتأخرة من خلال تقسيم البلاغة إلى فروع ثلاثة، ما يقصده ابن المعتز من خلال كتاب البديع، فقد حدد معنى البديع عنده قائلاً: "البديع اسم موضوع لفنون من الشعر يذكرها الشعراء ونقاد المتأدين منهم فأما العلماء باللغة والشعر القديم فلا يعرفون هذا الاسم ولا يدرون ما هو"². ويبدو أن مفهوم البديع عند ابن المعتز قريب من البلاغة، لكن هذه "البلاغة كانت تجري من قبل على ألسنة الناس، فيتخلل كلامهم استعارة طريفة من هنا، أو جناس غريب من هناك، إلى أن جاء الشعراء المحدثون، الذين عاشوا في بيئة جديدة اختلفت عن البيئة البسيطة التي كانت تحيط باللغة في شبه جزيرة العرب، وقد نقلوا ذلك التغيير إلى اللغة ذاتها من خلال تعمد إلباسها أثواباً من هذا البديع، وذلك ما لقي ردود أفعال متباينة فبعض الذين يستحسنونها يظنون أنهم أمام لغة بلاغية جديدة لم تكن اللغة القديمة تعرف مثيلاً لها"³. وهذا ما عمل ابن المعتز على رده وتفنيد آراء أصحابه.

¹ - الجاحظ، البيان والتبيين، ج 1، تحقيق عبد السلام هارون، ص 51.

² - عبد الله ابن المعتز، كتاب البديع، تح: إغناطيوس كراتشوفسكي، دار المسيرة، الكويت، ط3: 1982، ص 3

³ - ينظر: أحمد درويش، النص البلاغي في التراث العربي والأوربي، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط: 1998، ص 77.

لقد عني بتبيين قدم ذلك النوع من الاستعمال اللغوي البلاغي وشيوعه المتقدم قبل مجيء الشعراء المحدثين، وقد استدلل على رأيه هذا بأمثلة استخرجها من "القرآن واللغة وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكلام الصحابة والأعراب وغيرهم. وأشعار المتقدمين من الكلام الذي سماه المحدثون البديع"¹، وذلك حسب رأيه "ليعلم أن بشارا ومسلما وأبا نواس ومن تقييلهم ومن سلك سبيلهم أن لم يسبقوا لهذا الفن"²، فقد أراد أن يؤكد أن البديع لم يكن بدعا مستحدثا، وإنما ترجع أسبقية وفضل الحديث عنه إلى القدماء.

إن البديع الذي يقصده ابن المعتز أسلوب وطريقة في الكلام، تتحقق من خلال صياغته وتقديمه في صورة شعرية تحوي سمات الجودة ووجوه الحسن والجمال، وذلك ما تعبر عنه محاسن الكلام التي تُميز الكلام العادي على الكلام الأدبي، ويتكون أسلوب البديع عنده³ من خمسة فنون هي: الاستعارة، والتجنيس، والمطابقة، ورد أعجاز الكلام على ما تقدمها، والمذهب الكلامي.

وقد أضاف أنواعا أخرى أطلق عليها محاسن الكلام والشعر⁴ وهي: الالتفات، الاعتراض، الرجوع، وحسن الخروج من معنى إلى معنى، وتأكيذ المدح بما يشبه الذم وتجاهل العارف وهزل يراد به الجد، وحسن التضمين، والتعريض، والكناية، والإفراط في الصفة، وحسن التشبيه، والإعانة، وحسن الإبتداءات. والواضح أن هذه الفنون أساس لظهور بلاغة الكلام عند ابن المعتز، غير أنها فنون تهتم بصورة الكلام بغض النظر عن عناصر وأبعاد البلاغة الخارجية (المقام مثلا).

ويمثل الشعر محور الرؤية البلاغية التي تبلورت من خلال كتاب البديع، فقد دارت جل آراء وتصورات ابن المعتز حول هذا الجنس الأدبي دون غيره من الأجناس الأدبية الأخرى، ولعل هذا ما يوضح أن كتاب البديع كتاب في بلاغة الشعر، فقد "قصر فنون البديع على الشعر برغم حرصه في أول الكتاب على إيراد ما وقع منها في النثر أيضا .. وهذا يؤكد إحساسه بأن صور البديع هي صور شعرية أصلا برغم ما دفعته إليه لاجحة الصراع من البحث عنها في النثر وجعل الفارق كميا والفارق أنه نوعي، إذ إن الشعر يحتل درجات من الخرق والتعقيد تفوق الوظيفة الخطابية"⁵.

¹ - ابن المعتز، كتاب البديع، ص 1.

² - المرجع نفسه.

³ - ينظر: المرجع نفسه.

⁴ - ينظر: المرجع نفسه.

⁵ - محمد العمري، المقام الخطابي والمقام الشعري في الدرس البلاغي، مجلة سال، العدد 4، 1991، ص 14.

لقد اهتم ابن المعتز باستنباط خصوصيات بلاغة النص الشعري والعمل على تسميتها والتمثيل لها، وفي الواقع يعد كتاب البديع أول محاولة رصدت مقومات الشعر العربي البلاغية بطريقة منظمة، إذ "يتمثل إنجاز عبد الله بن المعتز في وضعه في "البديع" سجلا لأهم الأدوات التعبيرية التي تميز النص الشعري في التراث العربي، وقد كان ذوقه دليلا في سبيل تحقيق هذه الغاية وهذا يعني أيضا ترجيحاً لكفة "الحسن" و"الانطباع" على حساب التنظير والتفصيل".¹، فقد بنى تصورات في "البديع" من منطلق نقدي بلاغي يقوم على أساس الذوق الفني الذي يتقصى سمات وتحليلات الجمال البلاغي في الشعر.

- مصطلح المجاز:

يعد مصطلح (المجاز) كذلك من بين المصطلحات التي تعكس وعي العقل العربي بالجانب البلاغي للغة، الذي تمثله استعمالات وتعابير لغوية مختلفة عن الاستعمال العادي، ويرتبط الظهور الأول لهذا المصطلح - خاصة - بمرحلة التفكير اللغوي البلاغي. الذي تبلور في خضم البحث اللغوي وأسئلته التي دارت حول النص الديني القرآني، وهي مرحلة التأسيس اللغوي للبلاغة العربية. وهذا ما يتضح من خلال ما قدمه أبو عبيدة (ت 209 هـ) في كتابه: المجاز في معاني القرآن.

إن منحى البحث اللغوي ورؤيته الشاملة عند أبي عبيدة من جهة، والسعي بناء على ذلك لشرح وتفسير آيات النص القرآني من جهة أخرى، قد جعل مصطلح المجاز يحمل دلالة واسعة إذ "إن أبا عبيدة أطلق لفظ المجاز، وأراد بها معناها الواسع الذي عرفه من الوضع اللغوي، وهو المعبر والممر والطريق، فكان معنى "مجاز القرآن" طريق الوصول إلى المعاني القرآنية، يستوي عنده أن يكون طريق ذلك تفسير الكلمات اللغوية التي تحتاج إلى تفسير بالجملة الشارحة، أو بالمرادف المفسر من المفردات، وما كان عن طريق الحقيقة بمعناها، أو عن طريق المجاز بمعناه عند البلاغيين"².

رغم أن قصد أبي عبيدة من مصطلح (المجاز) من خلال ورود عنوانه للكتاب قد كان التعبير به عن كل الوجوه والأساليب الكلامية، التي تضمنتها لغة النص القرآني، إلا أنه قد حمل في المتن معنى آخر، فقد استعمل ذلك المصطلح مرادفاً لمفهوم البلاغة، وذلك حيث يكون استعمال اللغة وتوظيف أساليبها التعبيرية وفق تقنيات

¹ - محمد الولي، الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي والنقدي، المركز الثقافي العربي، بيروت - لبنان، ط1: 1990، ص 36.

² - بدوي طبانة، البيان العربي دراسة تاريخية فنية في أصول البلاغة العربية، مكتبة الأنجلو المصرية، ط 2: 1958، ص 18.

وكيفيات لغوية بلاغية مختلفة متجاوزة لنمطية الشائع الثابت، سواء أكان ذلك التجاوز - أو ما يمكن أن يسمى تحويلاً أو عدولاً - تجاوزاً نحويًا أو صرفيًا أو دلاليًا. وذلك ما سنتطرق لتوضيحه في العناصر الموالية.

- مصطلحا البلاغة والفصاحة:

لم تعرف صورة الخلط والاضطراب المنهجي التي طبعت البحث البلاغي العربي القديم في مراحله المتطورة، على إثر هدف العمل على تحديد هوية البلاغة ومفهومها، وضبط منطقة أو مجال حصولها في الكلام طريقاً إلى التغيير إلا مع عبد القاهر الجرجاني (ت 471 هـ) وتصوراته البلاغية، التي نقلت البحث البلاغي من مرحلة الاضطراب إلى مرحلة الضبط المنهجي. حيث شاع قبل الجرجاني ما يمكن عده إشكالية اختلاف آراء البلاغيين حول مجال تحقق البلاغة. وذلك ما عبرت عنه ثنائية (لفظ، معنى)؛ حيث رأى بعض البلاغيين أن اللفظ مدار البلاغة في حين اعتقد البعض الآخر عكس ذلك، ليكون ذلك أيضاً عاملاً لظهور ثنائية (بلاغة، فصاحة). وربطهم من هذا المنطلق الفصاحة باللفظ والبلاغة بالمعنى؛ وذلك حسب رأيهم لأن "الفصاحة تمام آلة البيان فهي تتعلق بالألفاظ دون المعنى، والبلاغة إنما هي إنهاء المعنى إلى القلب فكأنها مقصورة على المعنى"¹.

لقد عالج عبد القاهر من خلال تصورات البلاغية الجديدة التي تأسست على مفهوم النظم ذلك الاضطراب الذي وقع فيه البلاغيين قبله، وقد كان مبدأ عدم التفريق المصطلحي بين البلاغة والفصاحة أهم ما ميز رؤيته البلاغية، وذلك ما عبر عنه "في تحقيق القول على البلاغة والفصاحة، والبيان والبراعة، وكل ما شاكل ذلك، مما يعبر به عن فضل بعض القائلين على بعض، من حيث نطقوا وتكلموا، وأخبروا السامعين عن الأغراض والمقاصد، وراموا أن يعلموهم ما في نفوسهم، ويكشفوا لهم عن ضمائر قلوبهم"².

وردت مصطلحات البلاغة، والفصاحة، والبيان، والبراعة عند الجرجاني جميعها بمعنى واحد؛ فهي عنده صفات للكلام الأدبي الرفيع وذلك حيث يرد الكلام في أجود وأجمل وأدل صورته، وكل ما يعبر عن "وصف الكلام بحسن الدلالة، وتامها فيما له كانت دلالة، ثم تبرجها في صورة هي أبهى وأزين، وأنق وأعجب..."³، وذلك

¹ - أبو هلال العسكري، الصناعتين، الكتابة والشعر، تح: مفيد قميحة، ص 7.

² - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تح: ياسين الأيوبي، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، ط: 2002، ص 97.

³ - المرجع نفسه.

ما يتحقق من خلال النظم الذي يعد معيار البيان والبراعة حيث تتميز استعمالات المتكلمين اللغوية، فيكون خطابا أدبيا أفضل من خطاب.

ومن المفيد الإشارة هنا إلى أن كل تلك المصطلحات (البيان، البديع، المجاز، البلاغة، الفصاحة، البراعة)، تجتمع حول مفهوم النشاط اللغوي الإبداعي الخاص. الذي يخرج فيه صاحبه عن مجال الشائع العام، ويتميز بقوة الأثر. وهو المفهوم الذي تأسس عليه الطرح البلاغي العربي، ويعد ذلك في الوقت نفسه جانبا من الخصائص الفكرية السوسiolوجية التي شكلت بنية العقل العربي؛ إذ انشغل تفكير مستعمل اللغة (الخطاب) بتحقيق خطاب إبداعي ناجع ومؤثر، ومما لا شك فيه أن ذلك ما يبين أن تلك المصطلحات تحيل على أن من شروط ذلك النشاط ضرورة وجود طرفين؛ المتكلم والمتلقي.

ثانيا: الأصول الإستيمولوجية للبلاغة العربية:

تمهيد:

يكشف البحث في أصول المعرفة البلاغية عند العرب والوقوف من خلال ذلك على أهم محطاتها ومراحل تشكيلها، أن تلك المعرفة نتاج لعدة عوامل وتأسيسات غير مباشرة، إذ لم يكن الغرض فيها التأسيس للمعرفة البلاغية أو لعلم البلاغة في ذاته، وإنما كان تأسيسا لعلوم أخرى ودراسة لمعارف لغوية مختلفة. وهذا ما يعبر بوضوح عن طبيعة النظام المعرفي الذي ميز نشأة العلوم العربية، ويُبين في نفس الوقت عن سمة الارتقاء والتدرج التي ميزت نشأة المعرفة البلاغية؛ فقد كانت نشأة ارتقائية عبر مراحل ارتبطت بظروف ثقافية وتحولات إستيمولوجية شهدتها المجتمع العربي، وذلك ما أفضى إلى تنوع واختلاف مظاهر وصور النشاط البلاغي العربي القديم الذي يرجع ظهوره إلى مصادر، وأصول إستيمولوجية متنوعة، لعل أهمها على الإطلاق: الأصل الإستيمولوجي النقدي، والأصل الإستيمولوجي اللغوي والأصل الإستيمولوجي الديني.

1 - الأصل الإستيمولوجي النقدي:

شكلت إستراتيجية الملاحظة التي مثلت أساس الدراسة النقدية الأدبية في المجتمع اللغوي العربي القديم، المصدر الرئيس، الذي انبثقت عنه أصول التفكير البلاغي الأولى عند العرب؛ حيث اعتمدها المتلقي (أو المخاطب) لتمحيص خطاب المتكلم (الكلام) ورصد أهم خصائصه، ومن ثمة الحكم عليه بالجودة أو الرداءة. فقد كانت البلاغة في إطار ذلك (ملاحظات ذاتية تقييمية) و(أحكام انطباعية ذوقية)، لا تتعدى حدود عملية

الرصد التي توقف من خلالها المتلقي على نقد الكلام ووصفه وصفا عشوائيا، ليبعد بذلك عن مجال التفسير وما يتطلبه من مقاييس وشروط تفضي إلى دقة الحكم وموضوعيته، وهو ما تبدأ من خلاله علمية البلاغة.

إن المنحى الذي سلكته البلاغة العربية من خلال آلية الرصد جعل منها مجرد عملية تذوقية لا ترقى إلى درجة العلمية، فقد تميزت تلك الممارسة بطابعها الفوضوي الذي افتقر إلى الضبط والتنظيم. وفي الواقع لم يكن مستعملي اللغة آنذاك في حاجة لضبط البلاغة لتكون أساس الأداء اللغوي الجيد، ولا لمعيرتها بجعلها علما، وليس هذا في الحقيقة إلا تعبيراً صريحا عن واقع المجتمع اللغوي العربي، ووجهة نظر مستعملي اللغة إلى البلاغة في تلك الفترة. حيث "كانت عندهم في أول النشأة بنت الفطرة التي تهديهم إلى الجميل من القول، والموجز من التعبير، والمعجب من الصورة، دون أن يكون لذلك عندهم علم نظري يؤولون إليه ويستهدون به"¹، فقد ارتبطت البلاغة بالأداء الفني الذي كان آداء فطريا، يبتغي صاحبه التأثير في الآخر دون أن يتقيد في ذلك بقواعد وضوابط محددة، فالأساس الذي يستعين عليه في ذلك يتمثل في قوة الطبع.

1 - أ تداخل النقد بالبلاغة:

تكشف محاولة الوقوف على تجليات البلاغة العربية القديمة في تلك الفترة عن طبيعة الأصول النقدية التي ميزت تلك البلاغة، وتؤكد في الوقت نفسه حقيقة احتواء النقد الأدبي لها؛ إذ لم تتجلى صورة البلاغة العربية في تلك المرحلة التي عدت (مرحلة النشأة) بوضوح، فقد كانت بلاغة ضمنية كامنة أو متضمنة في أحكام النقاد (المتلقين) وملاحظاتهم، لتكون بناء على ذلك بلاغة نقدية تتحرك فوق أرضية النقد الذي سارت معه جنباً إلى جنب. فقد نشأ "العرب على تذوق الأسلوب ونقده، والفطنة بجيده وريثه، ونشأ عن ذلك ظهور آراء نقدية كانت هي الأساس الأول للنقد الأدبي عند العرب، وكان هذا النقد هو أساس علم البلاغة العربية..."²، ومما لا شك فيه أنه أساس ما عرف فيما بعد بالنقد البلاغي، الذي اهتم برصد الإبداعات الأدبية الشعرية التي أصبحت من نصيب البلاغة.

لقد أدت طبيعة النظام المعرفي الذي حكم المجتمع اللغوي العربي، قبل عصر التدوين - والذي افتقدت في إطاره البحوث والمعارف سمة العلمية - إلى تداخل وارتباط تلك البحوث بطريقة تلقائية؛ نشأة، واتجاها، ودراسة،

¹ - نوال عبد الرزاق سلطان، العلاقة بين البلاغة والنقد حتى نهاية القرن الرابع الهجري، قدم له: مازن المبارك وعبد القادر حسين، دار البشائر، سورية، ط1: 2008، ص 06.

² - يوسف أبو العدوس، مدخل إلى البلاغة العربية، (علم المعاني - علم البيان - علم البديع)، عمان - الأردن، ط1: 2007، ص 13.

لتكون بناء على ذلك بحوثا متكاملة يمتح بعضها من بعض؛ وهذا ما يلاحظ جليا على البلاغة والنقد. فـ"لقد عاش النقد والبلاغة مختلطين منذ أقدم العصور، وليس هذا بالأمر الغريب بل هو أمر طبيعي، إذ إن كلا من النقد والبلاغة يدور حول تحقيق الصدق والقوة والجمال في الأداء والتعبير الأدبي، فالبلاغة تأخذ بيد الأديب وتهديه إلى الصواب، والنقد يوقفه على ما أصاب من حسن، وما تورط فيه من قبح فهما متحدان موضوعا"¹، وهو ما تمثله الإبداعات الفنية، التي ركز العربي على تقييمها والحكم عليه والفصل في أجودها.

يعد تداخل وارتباط الطابع البلاغي بالنقدي من أهم النتائج التي أسفرت عنها عملية الرصد والملاحظة، التي تمحورت - سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة - حول النص الشعري الذي احتل ذروة الإبداع الأدبي عند العرب. إذ إن المتابعة الدقيقة لأهم اللحظات التي مرت بها عملية التلقي النقدي للشعر، تكشف مدى رسوخ وتجذر هذه العملية في الثقافة العربية، ووجودها الضمني أو الصريح في الخطاب النقدي والبلاغي. والحقيقة إنها عملية تداولية فرضت وجودها بقوة لتكون أساس علاقة مستعملي اللغة مع النص الأدبي، لاسيما النص الشعري الذي استأثر برويتهم الأدبية الجمالية.

لقد اعتنوا بالشعر عناية فائقة إذ عدوا اللغة الشعرية مقياسا للتبليغ الأدبي المؤثر، وقد كان "النقد العربي في جملته نقدا يتصل بالجزئيات ولا ينفك عنها إلا قليلا، فقد كان محوره غالبا البيت أو العبارة، حيث كان نشاط العرب النقدي أقرب إلى البلاغة منه إلى النقد الخالص"²، الذي يكتفي بتمييز الشعر الجيد من الرديء، فقد ركز الناقد كذلك على تحليل سبب حكمه، من خلال ذكر عناصر الجودة وتوضيح أسباب الرداءة.

جعلت مكانة الشعر وأهميته في المجتمع العربي المتلقي يسعى دائما إلى رصد خصائص ما يتلقاه من الشعر، وإطلاق أحكام نقدية تقييمية، تتجاوز حدود التلقي المحض لتدخل بذلك مجال التلقي النقدي الذي ركز من خلال معيار الذوق الفني على قوة التأثير الجمالي في الشعر.

لقد ارتبط مفهوم الإبداع الأدبي - حتى كاد ينحصر - عند مستعملي اللغة بالشعر الذي مثل عندهم فن القول الرفيع، فهو ما يمكن من خلاله صياغة أجمل أساليب التعبير وأبلغها، وأقواها تأثيرا وصدى في نفس المتلقي. ولذلك عد الجنس الشعري مقياسا لبراعة المتكلم وفحولته، وهو ما جعله من أكثر الأجناس الأدبية حضورا في استعمالات المتكلم وأهمها. فقد وجه المجتمع العربي للشعر أهمية بالغة لتكون بذلك سلطة هذا الجنس الأدبي من

¹ - محمد كريم الكواز، البلاغة والنقد، المصطلح والنشأة والتجديد، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت - لبنان، ط1: ص 259.

² - ينظر: شوقي ضيف، في النقد الأدبي، دار المعارف، القاهرة، ط9، ص 21.

جهة وتمجيد الشاعر من جهة أخرى من أهم السمات التي طبعت ذلك المجتمع، وهذا ما يوضح أهم ميكانيزمات بنية العقل العربي في تلك الفترة، "فلقد كان الشعر أهم عنصر في بنية مجتمعهم الثقافية ونمط التعبير الذي شغلهم عن التفكير في أنماط أخرى"¹. ليجتوي هذا الجنس الأدبي بناء على ذلك حياة العربي، وثقافته الذاتية منها والاجتماعية على اختلاف صورها وتحليلاتها.

يعد التداخل بين النقد والبلاغة ضرورة اقتضتها طبيعة المجتمع العربي (النقد - بلاغية)، التي سيطر فيها الشعر على أغلب استعمالات العرب، ومعاملاتهم الاجتماعية الوظيفية التي جمعت بين الرؤية النقدية والبلاغية، ففرضت بذلك وجود متلق ناقد، إذ من شأنه نقد الشعر نقدا بلاغيا؛ وذلك من خلال الوقوف فيه على أهم سماته البلاغية وقد كان معياره الوحيد الذوق الفني.

وذلك رغم التمحيص والنقد الأولي الذي يقوم به الشاعر باعتباره أول ناقد لشعره، ساعيا إلى تحسينه وتجويده قبل دخوله مجال التلقي، الذي يخضع فيه إلى قراءة المتلقي ومعانيته التذوقية النقدية، التي يسعى من خلالها إلى تقييمه فيكون بناء على ذلك إما جيدا مقبولا أو رديئا مرفوضا، وتظهر أهم صور نقد الشعر في جانين:

أ - الجانب الأول:

ويتمثل في "عناية الشاعر بشعره، تلك العناية الفائقة، وحرص الشعراء على بلوغ تلك المرتبة الرفيعة في الفصاحة والبيان، وعلى بلوغ ما يريدون من استمالة القلوب، وجذب الأسماع. فقد كان الشاعر يقف عند اختيار ألفاظه ومعانيه وصوره"²، إذ يعتني بشعره فينشغل بتنقيحه تنقيحا جيدا من خلال إعادة النظر؛ حيث يكون ناقدًا لشعره، حتى يتسنى له أن يكون شاعرا فحلا خنديدا في رأي سامعيه.

يعد الشاعر بذلك أول متلقي ناقد لعمله الإبداعي الشعري؛ "فالنقد عملية ملازمة للنص الأدبي والإنتاج الفني عامة ذلك أن العملية الإنشائية عملية اختيار من بين إمكانيات عديدة. ولذلك يقال بأن الشاعر هو أول ناقد لعمله، أو أول متلق له وقد سمح الاطلاع على مسودات الشعراء والكتاب المحدثين بالتعرف على العمليات التي يجربها المنشئون على المقترحات الأولية التي لم تعن لهم، والتي تمثل بدورها اختيارا من إمكانيات لم تدون،

¹ - حمادي الصمود، التفكير البلاغي عند علماء العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس. (مشروع قراءة)، منشورات الجامعة التونسية، طبع بالمطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، ط1: 1981، ص 24.

² - ينظر: فوزي السيد عبد ربه، المقاييس البلاغية عند الجاحظ في البيان والتبيين، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط: 2005، ينظر: ص 46 و47.

وتقوم العمليات الإختيارية في الخطاطات على الحذف والإضافة والاستبدال... إلخ¹، وهذا ما يعبر عن الروح النقدية للشاعر والتي تجعله حريصا على نقد شعره قصد إخراجها في أتم بناء، وذلك قبل نقده من طرف السامعين له.

لقد ذكر الجاحظ في بيانه أن "من شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولا كريتا - تاما - وزمنا طويلا ويردد فيها نظره ويحيل فيها عقله ويقلب فيها رأيه اتحاما لعقله وتتبعها على نفسه، فيجعل عقله زمنا على رأيه ورأيه عيارا على شعره .. وكانوا يسمون تلك القصائد الحوليات والمقلدات والمنقحات والمحكمات ليصير قائلها فحلا خنديدا وشاعرا مفلقا"²، ومما لا شك فيه أن ذلك الشاعر هو المبدع الناقد، الذي يبذل جهدا فكريا إبداعيا فيختار، ويستبدل، ويلائم، وينقح؛ إذ يقوم بتقييم وتقويم شعره فيتفنن ليضع الأجود، الذي يرضى عنه قبل أن يرضى عنه غيره أين يتميز ويُعرف بين قومه وغيرهم.

ب - الجانب الثاني:

يكون هذا الجانب "حين يتضح الشعر، وتكتمل له صورته الفنية، ويرضى عنه صاحبه فإنه يخرجها على الناس، وهم من بني جلدته ولهم من الأذواق مثل ذوقه وطبيعي أن ينظروا فيه تلك النظرة الناقدة التي تفتش عما فيه من عناصر الحسن أو القبح"³، فقد عمد المتلقي كذلك في إطار "عملية النقد التقييمي" التي تمحضت عن ملاحظته المباشرة للنص الشعري، إلى تقويم ذلك النص من خلال الوقوف على مواطن الرداءة والنقص فيه، وهو ما يمكن عده (تفسيرا)؛ حيث عمد المتلقي من خلاله إلى توضيح سبب (أو أسباب) عدم استحسانه له. وتتمثل أهم أخطاء الشعراء التي تم نقدها فيما يلي:

1 - الخلل الفني: التناسب⁴

يتعلق الأمر فيه "بالمكون اللغوي الفني للشعر في جانبه المطرد المتمثل في: القافية والأوزان العروضية وما يتصل بذلك من صفات ونعوت وقد أمكن رصد هذا المستوى بسهولة منذ البداية، ذلك أن المرحلة الجاهلية التي وصلنا شعرها قد كانت مرحلة النضج والكمال الموسيقي حيث كان المستمع يلحظ بأذنه أي خلل يقع في

¹ - محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص 46.

² - الجاحظ، البيان والتبيين، ج 1، ص 349.

³ - ينظر: فوزي السيد عبد ربه، المقاييس البلاغية عند الجاحظ في البيان والتبيين، ص 49.

⁴ - محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص 57.

القصيدة"¹، فقد تعود سمع العربي آنذاك على القاعدة اللغوية الفنية التي يسير عليها الإبداع الشعري، ولذلك فإنه بمجرد ما يسمع شعرا ما يعرف مواطن الخلل، ويعبر هذا الأمر عن دقة الملاحظة السمعية التي تميز بها العربي آنذاك، وقد تولدت لديه من خلال الممارسة التذوقية الدائمة إذ لم يتلق ذلك تعليما.

لقد ذكرت الكتب النقدية والبلاغية بعض المواقف التي توضح هذا الجانب فقد "عاب العرب النابغة الذبياني وبشر بن أبي حازم الإقواء الذي في شعرهما، أي ائتلاف حركة الروي في القصيدة، ولم يستطع أن يصارح النابغة بهذا العيب حتى دخل يثرب فأسمعوه غناء قوله:

أمن آل مية رائح أو مغتدي عجلان ذا زاد، وغير مزود
زعم البوارح أن رهسا غدا وبذاك حدثنا الغداق الأسود

ففظن فلم يعد إلى ذلك"²، ولا شك أن ذلك ما يعكس الفائدة من العملية النقدية.

2 - الخلل المعرفي: الانسجام³

نجد من ذلك "انتباه طرفه وهو صبي إلى ما في شعر المسيب بن علس من مجافاة للواقع والمعرفة بالعالم، حين جعل الصيعرية على الحمل وهي سمة في عنق الناقة خاصة"⁴. لقد أفضى تعامل المتلقي مع الشعر من خلال ما يمكن أن نطلق عليه: "إستراتيجية التلقي النقدي"، إلى خلق الظروف الملائمة التي بدأت في خضمها ملامح الرؤية البلاغية تظهر، وهذا ما يلاحظه القارئ المتتبع لأهم تجليات تلك الإستراتيجية؛ لاسيما منها ما توسل فيها المتلقي آلية الموازنة بين شاعرين أو أكثر، وهي الآلية التي يكون المتلقي في إطارها مُتخَيِّرا لما يُعرض عليه من نصوص شعرية حيث يقوم بتمييز جيدها من رديئها ومن ثمة اختيار الأفضل منها.

ظهر هذا خاصة في إطار ما يعرف بالموازنات الشعرية التي تدوولت بين الشعراء والنقاد، ومدارها المقارنة بين مختلف النماذج الشعرية المعروضة، ليكون الاختيار الشعري بناء على ذلك الأساس الذي قامت عليه تلك الموازنات. التي مثلت الطابع الغالب على تلقي الشعر، وذلك لاسيما في خضم التلقي الجماعي الذي يمكن عد الموازنات الشعرية، التي أقيمت في سوق عكاظ مع النابغة الذبياني (ت 18 ق هـ) أول صوره.

¹ - ينظر: البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص 57.

² - طه أحمد إبراهيم، تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري، د/ بلد نشر، د/ تاريخ نشر، ص 19.

³ - محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص 57.

⁴ - المرجع نفسه.

مثلت المرحلة الفكرية التي عاشها العقل العربي في خضم الموازنات الشعرية المسار الأول للبلاغة العربية، وهو المسار الذي تشكلت من خلاله ملامح الرؤية البلاغية. التي ظهرت على شكل ملاحظات نقدية كانت العامل الرئيس، الذي ساهم في استكشاف الخصوصية البلاغية، وذلك ما يمكن الوقوف عليه من خلال النماذج المتطورة التي شهدتها الموازنات الشعرية، ولعل من أهمها: الموازنة التي أجراها (الآمدي ت 370 هـ) بين أبي تمام (231هـ) والبحري (284 هـ) .

لقد كان هدف الآمدي من خلال تلك الموازنة استخلاص معايير الشعر الجيد، والوصول بذلك إلى تحديد أيهما أشعر (أبو تمام أو البحري؟). وهو ما لم يصل إليه النقاد السابقين عليه؛ ذلك أنهم بحثوا في الفرق بين الشعر القديم والحديث، لاسيما وأن هذه الموازنة لم تكن في واقع الأمر بين شاعرين بقدر ما كانت بين مذهبين عرفهما الشعر العربي ألا وهما: مذهب القديم ومذهب الحديث.

وقد ركز الآمدي في موازنته على ثلاثة عناصر هي:

- الصياغة
- الموضوعات
- الأعاريض والأوزان

وضح الآمدي وفق رؤية نقدية فنية أن الشعر الجيد، الأكثر تأثيراً في متلقيه هو ما يُنظم ويُصاغ على منوال القدماء، وهو شعر يحتز فيه صاحبه مجموعة من الضوابط؛ كحسن التأني، وقرب المأخذ، واختيار الكلام، والعلم بمواضع القيم الجمالية التي تجعله معبراً عن البهاء والرونق، إذ يقول في صدد ذلك: "وليس الشعر عند أهل العلم به إلا حسن التأني وقرب المأخذ واختيار الكلام ووضع الألفاظ في مواضعها، وأن يورد المعنى باللفظ المعتاد فيه المستعمل في مثله، وأن تكون الاستعارات والتمثيلات لائقة بما استعيرت له وغير منافرة لمعناه فإن الكلام لا يكتسي البهاء والرونق إلا إذا كان بهذا الوصف وتلك طريقة البحري"¹، وقد شكل هذا الشاعر تيار المحافظين، حيث ركز على ضرورة خضوع الشعر لمعايير عمود الشعر.

تتمثل معايير بناء واختيار أجود الشعر حسب الآمدي في مختلف المقومات والخصائص التي قام عليها عمود الشعر العربي، وذلك ما ميز شعر البحري وغيره من الشعراء، الذين حافظوا على قيم الشعر العربي القديم.

¹ - أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي، الموازنة بين الطائيين، ج1، تح: السيد صقر، دار المعارف، مصر، ط: 1965، ص 423.

وفي الواقع "لقد انصب اهتمام الأمدي في موازنته على تأصيل متعلقات "أجود الشعر أعذبه" من خلال الكشف عن قيم الشعر العربي الموروثة، الجمالية والمعرفية، وما شاكلها من خصائص في شعر الشعراء المحافظين على تلك القيم، ممثلة في شعر البحري، ومن ماثله من الشعراء، وهي القيم التي أصلت مقومات الوضوح والقرب والتأني، والإسماح والتلاؤم، وغير ذلك من الصفات التي اهتمت بالقيم الجمالية"¹. فقد تبنى الأمدي مبدأً أفضلية النموذج الشعري القديم على الحديث، وحاول تأكيداً للنقاد والشعراء، إذ عده النموذج الوحيد القادر على احتواء جميع الشروط والمكونات، التي تدل على براعة صانعه أين تتحقق الجودة بمختلف صورها.

تشكل البلاغة عند الأمدي أحد أهم شروط وأركان الجودة إذ أقر "أن الشعر أجوده أبلغه والبلاغة إنما هي إصابة المعنى وإدراك الغرض، بألفاظ سهلة عذبة مستعملة سليمة من التكلف كافية لا تبلغ الهذر الزائد على قدر الحاجة ولا تنقص نقصاناً يقف دون الغاية، وذلك كما قال البحري:

والشعر لمح تكفي إشارته
وليس بالهذر طولت خطبه"².

لم تأخذ عملية ضبط الإبداع الأدبي الشعري بمقاييس - وذلك ما ينضوي تحت هدف تحديد أساسيات وركائز عمود الشعر، ليكون بذلك الاختيار الشعري موضوعياً معللاً - صيغتها الكاملة النهائية إلا مع المرزوقي (ت 421 هـ)، وذلك رغم ما قدمه الأمدي في موازنته. وهو ما اهتم به القاضي الجرجاني (392 هـ) أيضاً، إذ ذكر في كتاب: (الوساطة بين المتنبي وخصومه) بعض ركائز عمود الشعر؛ حيث يقول: "وكانت العرب إنما تفاضل بين الشعراء في الجودة والحسن بشرف المعنى وصحته وجزالة اللفظ واستقامته وتسلم السبق فيه لمن وصف فأصاب وشبه فقارب وبده فأغزر ولمن كثرت سوائر أمثاله وشوارد أبياته، ولم تكن تعباً بالتجنيس والمطابقة ولا تحفل بالإبداع والاستعارة إذا حصل لها عمود الشعر ونظام القريض"³.

لقد حدد (المرزوقي) في مقدمة شرحه لديوان الحماسة العناصر الأساسية التي تقوم عليها عمود الشعر، وهي ما تمثل في الوقت نفسه مقومات المفاضلة في اختيار الشعر ونقده، وتلك العناصر هي: "شرف المعنى وصحته وجزالة اللفظ واستقامته، والإصابة في الوصف والمقاربة في التشبيه والتحام أجزاء النظم والثامها على تخير من لذيذ الوزن، ومناسبة المستعار منه للمستعار له، ومشكلة اللفظ للمعنى، وشدة اقتضائهما للقافية حتى لا

¹ - محمد بن مريسي الحارثي، عمود الشعر العربي النشأة والمفهوم، نادي مكة الثقافي الأدبي، مكة المكرمة، ط1: 1996، ص 193.

² - أبو القاسم الحسن بن بشر الأمدي، الموازنة بين أبي تمام والبحري، ج1، تح: السيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر، ط4: د/ت، ص 424.

³ - القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد الجاوي، عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط: 1966، ص 33 و 34.

منافرة بينهما"¹، فالشاعر الفحل المفلق الذي تثبت له البراعة والتميز هو من تجتمع في شعره هذه العناصر، التي على أساسها يتم الحكم بجودة شعره بالمقارنة مع شعر آخر.

لقد كانت الأفكار التي تمحضت على إثر مناقشة النقاد لقضية عمود الشعر، خاصة ما جاء به المرزوقي (الشارح الناقد) - الذي جعل من الاختيار الشعري ممارسة نقدية منظمة - ذات أثر فاعل في بلورة التفكير البلاغي؛ وهذا ما يؤول إلى ارتباط الاختيار بالإبداع الأدبي بصفة عامة رغم اقتصره على الشعر؛ فـ "لقد كانت الأسئلة التي أثارها الاختيار في ذهن الشارح (المرزوقي)، أو في ذهن عصره أسئلة جوهرية؛ هي نفسها التي تطرح في كل عصر: ما الخصوصية الأدبية؟ ما الذي يميز الشعر عن غيره؟ لماذا يختلف الناس في تلقيهم للأدب ... غير أن اشتغال المرزوقي بالشروح لم يكن في وسعه أن يجيب عنها إجابة شافية، ولكنها لم تذهب دون صدى فيمكن اعتبار كتاب أسرار البلاغة للجرجاني محاولة للإجابة عن جانب جوهري منه"². ويبدو أن نتائج دراسة المرزوقي سواء منها المصريح بها أو المسكوت عنها، والتي تصب أغلبها في مجال الاستعمال اللغوي الأدبي، قد كانت دافعا إلى البحث في طاقة اللغة البلاغية والإجابة عن مختلف الأسئلة المتعلقة بها كتوضيح ظواهرها مثلا.

تعد المرحلة التي شهدها تاريخ الدرس البلاغي العربي القديم من خلال ارتباط النقد بالبلاغة، أحد أبرز المراحل الحاسمة، التي ساهمت في بناء معالمه وتحديد منطلقاته وأصوله الإستيمولوجية. ولعل كتاب البديع لابن المعتز الذي جمع فيه العديد من الظواهر أو الفنون البلاغية سواء منها عناصر البديع أو محاسن الشعر، أهم ما انتهت إليه البلاغة في إطار مختلف حركات وأعمال مرحلة تداخل النقد بالبلاغة.

توضح تلك المرحلة أن نوع التعبير اللغوي الذي شكل أساس التفكير البلاغي عند العرب، وكان سببا في ظهوره هو التعبير اللغوي الأدبي الذي هيمنت عليه لغة النص الشعري، إذ يعد الشعر الجنس الأدبي الرئيس الذي صدرت عنه أغلب الأصول البلاغية التراثية.

2- الأصل الإستيمولوجي اللغوي:

مثلت بحوث اللغويين ودراساتهم التي سعت إلى تقعيد اللغة وتقنينها، والعمل على صياغة ووضع المعيار اللغوي الذي يضبط تراكيب اللغة، ويوضح كيفية استعمالها ليوحه بذلك مستعمليها، ويمكنهم من التبليغ

¹ - المرزوقي، شرح ديوان الحماسة، ج 1، تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون، مصر، ط1: 1967، ص 8 و9.

² - ينظر: محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص 84.

والتواصل فيما بينهم. وذلك رغم اختلاف اللهجات وأساليب النصوص الأدبية (الشعر، النثر، القرآن الكريم)، أحد أبرز الأصول التي هيأت لظهور البلاغة العربية، فقد شارك اللغويون والنحاة في تأسيس البحث البلاغي وبناء بعض ركائزه وذلك من خلال تناولهم للغة وبعض سماتها من وجهة نظر بلاغية.

شهدت البلاغة العربية تأسيسا لغويا هيأت لظهوره جهود اللغويين، التي صدرت في إطار حركة جمع اللغة وتدوينها، وهو ما استأنفه النحويون انطلاقا من دراساتهم التي عنيت بضبط اللغة وتنظيم عملية استعمالها؛ وذلك من خلال وضع القاعدة (أو القواعد) النحوية المناسبة التي تُوجّه المتكلمين إلى الصواب، وهذا ما جاء تحت مشروع حماية القرآن الكريم ومن ثمة اللسان العربي من اللحن.

لقد عرف المجتمع العربي ذلك منذ بداية القرن الثاني للهجرة، حيث برزت في تلك الفترة العديد من التحولات التي أثرت على الثقافة العربية وعملت على توجيهها وجهة جديدة.

ولعل من بين تلك التحولات ما ظهر نتيجة لاتساع رقعة الدولة الإسلامية؛ ونقص ذلك انفتاح وتمازج الثقافة العربية مع ثقافات أخرى؛ وكذا دخول العديد من الأعاجم في الإسلام، وما ترتب على ذلك من تعرض اللسان العربي لظاهرة اللحن والخطأ، وما تبعه من خروج الكلام عن طبيعته الأولى؛ إذ في خضم ذلك يقول الخطابي (ت 388 هـ): "وقد زعم بعضهم أن الكلام كان باقيا على نجره الأول وعلى سنخ طبعه الأقدم إلى زمان بني أمية، ثم دخله الخلل فاختلف منه أشياء، ولذلك قال أبو عمرو حين أنشد بيت امرئ القيس :

نطعنهم سلكي ومخلوكة كرك لا مين على نابل

ذهب من يحسن هذا الكلام"¹، وقد قصد بذلك الكلام العربي الجيد السليم الذي يخلو من اللحن ويتميز بالفصاحة والبلاغة.

أفضى هذا الأمر إلى نشأة الوعي بضرورة الحفاظ على اللسان العربي، إذ "لما فسدت ملكة اللسان في الحركات المسماة - عند أهل النحو - بالإعراب واستنبطت القوانين لحفظها ... ثم استمر ذلك الفساد إلى موضوعات الألفاظ فاستعمل كثير من كلام العرب في غير موضوعه عندهم، ميولا عند هجئة المتعربين في اصطلاحاتهم المخالفة لصريح العربية فاحتيج إلى حفظ الموضوعات اللغوية بالكتاب والتدوين، خشية الدروس، وما ينشأ عنه من الجهل بالقرآن والحديث، فشرع الكثير من أئمة اللسان لذلك وأملوا فيه الدواوين"²، ويعد ظهور

¹ - أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي، بيان إعجاز القرآن مطبوع ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط3: 1976 ص 42.

² - ابن خلدون، المقدمة، ج 3، تح: علي عبد الواحد وافي، دار طبعة مصر للطبع والنشر، القاهرة، د/ تاريخ نشر، ط3، ص 1286.

تلك التحولات التي مست اللغة وطريقة استعمالها خاصة، من أهم العوامل التي تغيرت على إثرها انشغالات العقل العربي ومنهجية بحثه، وهو ما فرض صياغة أهداف جديدة أبرزها: تقعيد اللغة ووضع المعايير اللغوية التي يمكن من خلالها قياس استعمال المتكلمين، وتمييز الصحيح من الخاطئ .

لقد اعتمد النحاة في استنباط وصياغة تلك المعايير على تقنيات متعددة، من بينها قياس الاستعمالات اللغوية على الشائع المتداول الذي استخرجوه من مصادر متنوعة، لعل من أبرزها المصادر النصية التي مثل فيها النص الشعري والنص القرآني أهم نصين.

ارتكزت جل اهتمامات النحاة حول ذلك النصين، حيث أجريت العديد من الدراسات التجريدية الدقيقة، التي عمل من خلالها النحاة على صياغة واستنباط قوانين استعمال اللغة، بطريقة صحيحة وتوضيح صورها، وقد شمل ذلك البنية اللغوية لكل من النص الشعري والنص القرآني. وذلك باعتبارهما أهم نصين لغويين، وهو الفضاء الذي ظهرت في إطاره العديد من الملاحظات البلاغية، ليكون ذلك أحد المسارات المهمة التي شهدتها البلاغة العربية.

لم يكن التأسيس اللغوي للبلاغة العربية في الواقع تأسيسا مقصودا استهدفته دراسات اللغويين، وهذا ما تؤكد الظروف التي نشأت في إطارها تلك الدراسات، التي لم يكن فيها الوعي بالبلاغة كعلم قد تبلور بعد؛ وذلك رغم أن مفهوم البلاغة قد كان متداولاً موجوداً في الأذهان. ورغم ذلك فقد شارك اللغويون والنحاة - وإن كان ذلك بطريقة غير مباشرة - في بناء الصرح البلاغي وتطويره؛ إذ بدأت من خلال ذلك حدود البلاغة ومفاهيمها تظهر وتتطور.

2 (أ) النص الشعري:

توصل النحاة انطلاقاً من بحوث الرصد والتقصي التي تعاملوا فيها مع النص الشعري، إلى أن أغلب ما ميز معظم النصوص الشعرية التي تم الاستشهاد بها، هو عدم خضوع بعض صيغها وتراكيبها لضوابط اللغة وقواعدها النحوية التي تمثل - حسب رأيهم - الاستعمال اللغوي الصحيح، ف "قد حاول علماء النحو من أول الأمر أن يخضعوا اللغة لمقاييسهم تبعاً للقواعد والأصول التي أوجدوها، وعرضوا للشعراء، وأخذوا عليهم كلما رأوا منهم ميلاً إلى مخالفة تلك المقاييس أو انحرافاً، واتهموا المخالف باللحن، وشاعت هذه الكلمة معبرة عن الأخطاء اللغوية

وخاصة ما يتعلق منها بالإعراب"¹، فقد كان معيار استقامة الكلام عندهم خضوعه وتحقيقه للقواعد والأصول النحوية، وخروجه عنها يجعله كلاما فاسدا.

وفي الواقع لقد كان النحاة في تعاملهم مع هذه القضية على اتجاهين:

أ - **الاتجاه الأول:** تميز بموقفه "المتشدد في قبول كل شعر يخرج عن مقاييس النحو، وكان زعيم هذا الاتجاه ابن اسحق (ت 117هـ)"²، ويروى عنه "أنه سمع الفرزدق ينشد:

وغض زمان يا ابن مران لم يدع
من المال إلا مسحتا أو مجلف

فقال له: على أي شيء ترفع أو مجلف؟ فقال: على ما يسوءك وينوءك.

وساء الفرزدق كثرة تتبع أبي اسحق له في شعره، ولم يطق عليه صبرا فهجاه بقوله:

فلو كان عبد الله مولى هجوته
ولكن عبد الله مولى مواليا

فقال له ابن أبي اسحق: ولقد لحنت أيضا في قولك مولى مواليا: وكان ينبغي أن تقول: مولى موال"³، فقد تشدد في تتبع ونقد الشعر نقدا لغويا نحويا دقيقا، وهو لم يتقبله الشعراء حيث اعتبروا ذلك تقييدا وتضييقا لمجال لإبداع.

لقد عد ابن اسحق وغيره من النحاة وجوب تطبيق قواعد النحو، وإخضاع الكلام لمقاييسه شرطا ضروريا لا بد على المتكلم (الشاعر) مراعاته، وهو الشرط الأساس الذي يتوقف عليه - حسب رأيهم - استقامة الكلام (الشعر) وقبوله، ولهذا عد تجاوزه لحنا يدل على ضعف صاحبه وهو ما يحط من قيمته. وتكمن دقة الشاعر وقوة شعره - بناء على ذلك - في مدى قدرته على توخي قواعد النحو، وهو المعيار الذي رأى فيه الشعراء مبالغة وتضييقا لمجال الإبداع الشعري.

ب - **الاتجاه الثاني:** لقد كان هذا الاتجاه عكس السابق متسامحا في التعامل مع لغة الجنس الشعري، ويتزعمه أبو عمرو بن العلاء (ت 154هـ)، وهذا ما أصل له الخليل (175هـ) إذ يرى أن "الشعراء أمراء الكلام، يصرفونه أنى شاؤوا، ويجوز لهم ما لا يجوز لغيرهم من إطلاق المعنى، وتقييده، ومن تصريف اللفظ وتعقيده، ومد

¹ - محمد زغلول سلام، أثر القرآن في تطور النقد العربي إلى آخر القرن الرابع الهجري، قدم له: محمد خلف الله أحمد، مكتبة الشباب، ط: 1، ص 156.

² - عبد الجليل هنوش، التأسيس اللغوي للبلاغة العربية (دراسة في الجذور)، دار كنوز المعرفة، عمان، ط: 1، 2016، ص 98 و 99.

³ - ينظر: ابن الأنباري كمال الدين أبو البركات عبد الرحمن، نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية، القاهرة، ط: 1961، ص 26.

المقصود، وقصر الممدود، والجمع بين لغاته، والتفريق بين صفاته، واستخراج ما كلت الألسنة عن وصفه ونعته والأذهان عن فهمه وإيضاحه، فيقربون البعيد، ويبعدون القريب، ويحتج بهم، ولا يحتج عليهم¹، فقد حاول هذا الاتجاه إنصاف الشعراء إذ عد عدولهم إبداعا يكشف عن قدرتهم وشجاعتهم؛ حيث يقوم الشاعر بالخروج عن المألوف، ويأت بما لم يأت به غيره إذ إن ذلك ما تقتضيه الضرورة الشعرية.

تتولد حرية الشعراء في استعمال أساليب وآليات اللغة والتصرف في مستوياتها، في إطار ما تقتضيه لغة الشعر التي تتميز عن لغة الكلام العادي. ويبدو أن الخليل "قد منح الشعراء حرية واسعة في التصرف في الكلام دون أن يتعرضوا للإنكار والتخطئة"²، وهذا ما نجده عند سيبويه (180 هـ) كذلك حيث يقول في (باب ما يحتمل من الشعر)، "اعلم أنه يجوز في الشعر ما لا يجوز في الكلام"³، وهذا ما يدخل في مجال الضرورة الشعرية، فرغم أن مصطلح "الضرورة" لم يرد له ذكر في كتابه، فقد "سمى سيبويه الباب الذي أفرده للضرورة بباب ما يحتمل الشعر ولم يجر لمصطلح الضرورة ذكر في كتابه - على خلاف النحويين جميعا - وفي هذه التسمية يظهر الأساس الذي يعول عليه سيبويه في فهم هذا الباب"⁴، وهو ما يعني أنه كان مدركا لمقتضيات لغة الشعر التي يجوز من خلالها للشاعر ما لا يجوز لغيره، وإن لم يستعمل للتعبير عن ذلك لفظ ضرورة.

أقر ابن جني (ت 392 هـ) كذلك بإمكانية تجاوز الشاعر لنظام اللغة ومقاييسه المتداولة، وذلك من خلال دراساته التي عنيت بتقصي واستنباط خصائص اللغة العربية، قصد إظهار وجوه حكمته وشرفها، وهذا ما نجده واضحا في كتاب الخصائص تحت (باب شجاعة العربية)، الذي تطرق فيه لتوضيح مواضع الشجاعة وتحليلاتها، وذلك من خلال وقوفه على مجموعة من الظواهر اللغوية. التي استطاع من خلالها الكشف عن ماهية الشجاعة باعتبارها الطاقة الإبداعية الكامنة في اللغة، التي تمكن من "توليد العديد من الإمكانات التعبيرية، وكذا خلق استعمالات تتجاوز بمرونتها واتساعها كل القوالب الثابتة للنظام اللغوي المجرد"⁵، الذي يجوز تصرف المبدع فيه بما يخدم أغراضه الفنية الإبداعية التأثيرية.

¹ - حازم القرطاجي، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، دار الغرب الإسلامي، ط2: 1981، ص 143 و144.

² - عبد الحليل هنوش، التأسيس اللغوي للبلاغة العربية (دراسة في الجذور)، ص 101

³ - سيبويه أبو بشر عمرو بن عثمان، الكتاب، ج1، تح: عبد السلام هارون، دار الخانجي، القاهرة، ط3: 1988، ص 26.

⁴ - السيد إبراهيم محمد، الضرورة الشعرية، دار الأندلس، ط1: 1979، ص 19.

⁵ - ينظر: محمد مشبال، البلاغة والأصول دراسة في أسس التفكير البلاغي العربي نموذج ابن جني، أفريقيا الشرق، المغرب، ط: 2007، ص 113.

يتجلى هذا - حسب رأي ابن جني - في أتم صوره ويصل أعلى درجات التحقق من خلال النص الشعري؛ إذ تعد لغة الجنس الأدبي الشعري اللغة الأدبية الأكثر قابلية لعديد التحويلات والتجاوزات، التي يدخل من خلالها المتكلم مجال الإبداع بأساليب وتعابير لغوية جديدة، لا يخضع فيها لضوابط اللغة وقواعدها القياسية، وذلك لأن "الشعر موضع اضطرار، وموقف اعتذار، وكثيرا ما يحرف فيه الكلم عن أبنيته وتحال فيه المثل عن أوضاع صيغها لأجله"¹، وهو ما يفرض القول بحقيقة أنه يجوز للشاعر ما لا يجوز لغيره.

يعد تعسف الشاعر على قواعد النظام اللغوي الثابتة ومن ثمة خرقه للشائع المتداول، ضرورة حتمية تقتضيها الطبيعة الخاصة التي تميز لغة الشعر، وذلك باعتبارها مجموعة من المكونات التي تفرض سلطتها على مقاييس اللغة. وهو ما يتيح لمستعمليها (الشعراء) حرية التعامل مع اللغة، والتلاعب بمستوياتها: المستوى الصوتي، النحوي (التركيب).

ولعل من أهم تلك المكونات - حسب رأي ابن جني - المكون الإيقاعي (الوزن) والمكون الدلالي (أو المعنى)؛ إذ إن أولوية تحقيق المطالب التي يفرضها كل مكون، هو المبدأ الذي ينطلق منه الشاعر في بناء شعره واختيار الصيغ والتعابير الملائمة، وهذا ما يؤدي في الغالب الكثير إلى ضرورة تجاوز سلطة النحو وبالتالي عدم احتذاء وتطبيق قواعده.

لقد ذكر ابن جني بعض وجوه استعمال اللغة الأكثر ارتباطا بالجنس الشعري، أين تتحقق صورة الخرق والعبث بسلطة الإعراب، وذلك حسب ما يتماشى وغرض الشاعر سعيا منه لتحقيق بلاغة المعنى، ومن بينها:

أ - **الحمل على المعنى**: يقول ابن جني: "إن العرب قد تحمل على ألفاظها حتى تفسد الإعراب لصحة المعنى ومن الحمل على اللفظ للمعنى قوله: "يا بؤس للجهل ضرار الأقسام"، فتجشم الفصل بين المضاف والمضاف إليه بلام الجار، لما يعقبه من تأكيد معنى الإضافة، فهذا ونظائره يؤكد أن المعاني تتلعب بالألفاظ، تارة كذا، وأخرى كذا"²، وذلك ما يكون بسبب عوامل يفرضها السياق الخارجي التي نجد من بينها المتلقي، إذ إن قوة الدلالة وبالتالي قوة الأثر هي ما تجعل الشاعر يركز على اختيار المعنى المناسب للفظ المناسب للمقام المناسب. فيكون تطويع اللغة وكسر الإعراب لهذا السبب.

¹ - أبو عثمان ابن جني، الخصائص، ج: 3، تح: محمد علي النجار، طبعة مصورة عن دار الكتب المصرية، القاهرة، ط: 2، 1956، ص 188.

² - أبو عثمان ابن جني، المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، ج: 2، تح: علي النجدي ناصف وعبد الفتاح إسماعيل شبلي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ط: 1969، ص 211.

ب - حكاية القول: يرى ابن جني في قول الشاعر:

تنادوا بالرحيل غدا وفي ترحالهم نفسي

أن "نصب بالرحيل أو رفعه يجعلنا بإزاء حكاية تحتفظ بالعبارة كما جاءت على لسان ناطقيها، أما جرهما فيؤذن بأن الشاعر قد ترجم العبارة ولم يؤدها على حالها الأول. والتغيير قد يكون بواسطة الحركة الإعرابية، وقد يكون بواسطة فتح همزة (إن) الذي يؤذن هو أيضا بأن المتكلم قد ترجم القول أو أدى معناه لا لفظه"¹. ولا بد أن الشاعر الذي يقوم بهذه التجاوزات شاعرا ذو معرفة واسعة بمجاري النحو وقواعده، التي تبين ضوابط الإعراب، فيكون استعماله الذي يلجأ فيه إلى توظيف استراتيجية حكاية القول استعمالا وظيفيا مقصودا، يتمشى وغرضه ومقامه التواصل.

يساهم احتواء الشعر على هذه التجاوزات ومختلف الأنماط الأسلوبية حسب ابن جني في تعزيز قيمته، وهو ما يعبر في الوقت نفسه عن مهارة صانعه وقدرته على الخلق والإبداع، وذلك رغم الالتزامات والقيود التي يفرضها النظام اللغوي عليه.

لقد ساهم تعامل اللغويين مع الشعر وبحثهم في ما يجوز للشاعر وما لا يجوز - بالنظر إلى ما تنص عليه قوانين اللغة - في تعزيز عملية الإبداع والخلق الفني، وفتح أفق البلاغة، وذلك من خلال توضيح خصائص ومقتضيات البعد الإبداعي للغة (اللغة الشعرية) بعده بعدا بلاغيا. وهو ما أفضى إلى ظهور الضرائر الشعرية، ليعد بذلك خروجه عن القاعدة النحوية ومن ثمة انزياحه عن الشائع المألوف، الذي يمثل مجال المشترك العام (الصحة النحوية)، إلى مجال الخاص الذي يفرض على الشاعر التغيير والخروج عن الصورة النمطية، من خصائص الشعر إذ إن " لغة الشعر لغة لا تخضع أبدا لأنماط وقوالب معينة فالنمطية قد تصح مثلا في ضروب أخرى من النشاط البشري، لكنها لا تتفق مع الشعر الذي يعد ثورة مستمرة وتخطيط كلي لكل حواجز اللغة"²، فالشاعر المبدع هو الذي يستطيع تلبية مطالب لغة الشعر وتحقيقها والتمكن من مواجهة الصراع بين القاعدة اللغوية والضرورة الشعرية، وذلك ما عده ابن جني اقتدارا وشجاعة وهو ما يدخل في مجال البلاغة.

¹ - أبو عثمان ابن جني، الخصائص، ج 3، تح: محمد علي النجار، ص 46.

² - ينظر: عزيز السيد جاسم، دراسات نقدية في الأدب الحديث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط: 1995، ص 17 و 18.

2 (ب) النص القرآني:

ظهرت في إطار الدراسات النحوية التي عنيت بالنص القرآني مجموعة من الأسئلة الغامضة، التي أثارها ظاهرة خروج بعض صيغ وتعبير سور وآيات النص القرآني، عن المطرد في استعمالات كلام العرب. الذي تشكله مقاييس اللغة وقوانينها اللغوية، وهو ما دعا النحاة إلى تقديم تأويلات مختلفة حاولوا من خلالها تفسير تلك الظاهرة، وهذا ما يتضح جليا من خلال ما حملته بعض المؤلفات التي نجد من بينها: غريب القرآن، مشكل القرآن، مجاز القرآن. ويمكن توضيح ذلك من خلال ما يلي:

1 - مجاز القرآن لأبي عبيدة معمر بن المثنى:

انشغل أبو عبيدة (ت 209 هـ) في هذا المؤلف بدراسة أسلوب النص الديني القرآني، باعتباره نصا لغويا وتتبع أبرز استعمالاته وتراكيبه اللغوية، التي لم يتمكن العرب من فهم معانيها الحقيقية، وهو ما جعلها في نظر العديد منهم مخالفة لنظام كلام العرب غريبة عن العربية؛ إذ لا تتفق - حسب رأيهم - والشائع المطرد الذي شكل مختلف استعمالاتها وأساليبها.

لقد سعى أبو عبيدة بناء على ذلك إلى رد تلك الآراء وتأكيده عربية لغة النص القرآني، ومن ثمة موافقة صيغته وتراكيبه لنظام اللسان العربي، حيث يقول: "نزل القرآن بلسان عربي مبين، فمن زعم أن فيه غير العربية فقد أعظم القول"¹، فقد شكل هذا الهدف سبب تأليفه كتاب المجاز. وقد كان ذلك منذ سأل أحد كتّاب الفضل بن الربيع عن قوله تعالى: "طلعها كأنها رؤوس الشياطين"² قائلا: إنما يقع الوعد والإيعاد بما عرف مثله وهذا لم يعرف "فرد عليه أبو عبيدة: إنما كلم الله العرب على قدر كلامهم أما سمعت قول امرئ القيس:

أبقتني والمشرقي مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب أغوال

وهم لم يروا الغول قط. ولكنهم أوعدوا به"³.

عني أبو عبيدة انطلاقا من ذلك برصد واستخراج أساليب النص القرآني، وإثبات مطابقتها لأساليب كلام العرب، إذ يرى أن "في القرآن ما في الكلام العربي من وجوه الإعراب، والغريب، والمعاني، ومن المحتمل من مجاز ما

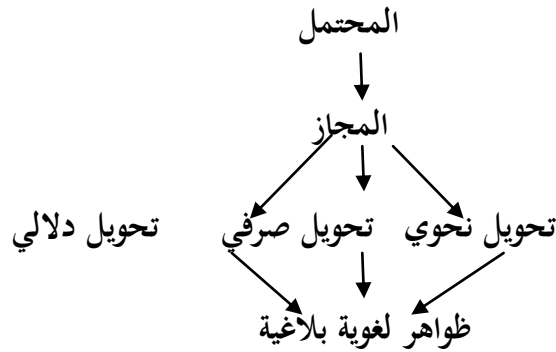
¹ - أبو عبيدة معمر بن المثنى، مجاز القرآن، ج 1، إعداد: محمد فؤاد سيزيكن، مكتبة الخانجي، مصر، ط 1: 1954، ص 17 و 18.

² - سورة الصافات، الآية، 65.

³ - ينظر: ياقوت الرومي، معجم الأدباء، ج 19، دار المأمون، القاهرة، د/ ت. نشر، ص 109.

اختصر ومجاز ما حذف... ومجاز المقدم والمؤخر... وكل هذا جائز قد تكلموا به"¹. فقد اشتمل النص القرآني على مختلف الظواهر اللغوية (صور التعبير)، التي تداولها العرب في كلامهم، مما يعني أن القرآن لم يخالف تجليات اللغة العربية واستعمالاتها الممكنة المتنوعة، وذلك ما يبدو جليا عند أبو عبيدة في: وجوه الإعراب، والغريب، والمعاني، والمحتمل.

ركز أبو عبيدة على ذلك النوع الأخير (المحتمل) ويضم عدة أنماط (احتمالات)، ويعني بها الوجوه والإمكانات التعبيرية التي جاز توظيفها في كلام العرب، وبالتالي من المحتمل أو من الممكن ورودها في القرآن. وقد أطلق عليها مصطلح مجاز، وهو المصطلح الذي أراد من خلاله تفسير ما أشكل فهمه وعد غريبا في القرآن؛ حيث عمل على تبين وكشف معانيه المضمرّة؛ أي معانيه الحقيقية، وذلك من خلال تتبع ورصد المحتمل (المجازات) في القرآن، واستخراج مختلف صوره. ويمكن تصنيف ما قدمه أبو عبيدة بخصوص هذه الظاهرة اللغوية بتجلياتها المختلفة التي تحمل معنى (التحويل) إلى ثلاثة أنواع رئيسة كما هو موضح في الشكل التالي:



أ - تحويل نحوي: و يتعلق الأمر بالتركيبة اللغوية التي أخذت بناء لغويا (نحويا) جديدا مخالفا للقاعدة النحوية الأصل، وذلك ما يوضحه مثلا: مجاز ما كف عن خبره، مجاز ما خبر عن الاثنين أو أكثر من ذلك فجعل الخبر للأول منهما ...

ب - تحويل صرفي: ويخص الصيغ الصرفية التي خرجت عن استعمالها الأصلي، الذي يجب أن ترد عليه مما أدى إلى تحول معناها المعهود إلى معنى آخر، وذلك مثل: مجاز ما جاء لفظه لفظ الواحد ووقع على الجميع ..

¹ - أبو عبيدة، مجاز القرآن ج1، ص 18 و19.

ج - تحويل دلالي: ويتعلق بالتراكيب التي نقلت عن معناها الأصلي، وذلك ما جعلها تحمل معنى مضمرًا مخالفًا لمعناها الظاهر، وذلك مثل: مجاز الجمل استغناء عن كثرة التكرير، مجاز المضمر استغناء عن ذكره، مجاز ما اختصر .. وغير ذلك مما ذكره أبو عبيدة في حديثه عن أنواع¹ المجاز.

يقول في قوله تعالى: "ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا"²: إن "العرب تختصر الكلام ليخففوه لعلم المستمع بتمامه، فكأنه في تمام القول: ويقولون: ربنا ما خلقت هذا باطلا"³، فقد عد التخفيف من أهم التقنيات اللغوية التي وظفها العربي في كلامه، سعيًا لتحقيق الإيجاز أو الاقتصاد اللغوي وهو ما يدخل في مجال البلاغة.

وفي قوله تعالى: "وأشربوا في قلوبهم العجل"⁴، يقول: سقوه حتى غلب عليهم مجازه مجاز المختصر، أشربوا في قلوبهم العجل: حب العجل، وفي القرية (و سل القرية)، مجازها: أهل القرية، وقال النابغة الذبياني:

كأنك من جمال بني أميش يقع خلف رجله بشن

أقيس: حي من الجن، أضمر جملاً يقع خلف رجله بشن، وقال الأسدي:

كذبتم وبيت الله لا تنكحونها بني شاب قرناها تصر وتحلب

أضمر التي شاب قرناها"⁵.

إذن تتضمن تلك الآية الكريمة إضماراً؛ وهو ما يعد حذفاً، ونشير هنا إلى أن العرب قد ركزوا في كلامهم على توظيف ذلك بدل الإظهار والذكر، فقد تميزت ظاهرة الإضمار بحضورها وتواترها القوي في خطابات مستعملي اللغة العربية إلى درجة كبيرة. وهو ما يمكن القول على إثره إنها من أبرز خصائص تفكيرهم اللغوي الخطابى التداولي، وذلك ما تضمنته بعض سياقات النص الديني القرآني الذي نزل بلسان عربي مبين.

يكشف ما قدمه أبو عبيدة من خلال كتاب "المجاز" عن الخاصية الإبدالية (أو التحويلية) للتراكيب، التي تتميز بها اللغة العربية؛ وهذا ما يظهر جلياً في ظاهرة تنوع الأساليب اللغوية وكثرة الإمكانات التعبيرية التي يمكن للمتكلم استعملها للتعبير عن المعنى الواحد. وذلك ما يعبر عنه المحتمل وتحققاته الممكنة (المجاز)، وهو ما اصطبغ به النص القرآني كذلك باعتباره نصاً لغوياً يوافق نظام العربية وخصائصه.

¹ - ينظر: كتاب المجاز.

² - سورة آل عمران الآية 191.

³ - أبو عبيدة، مجاز القرآن، ج1، ص331.

⁴ - سورة البقرة الآية 93.

⁵ - أبو عبيدة، مجاز القرآن، ج1، ص47.

لقد أفضت دراسة أبو عبيدة للنص القرآني، سعيًا منه لتأكيد عريية النسق اللغوي لذلك النص من خلال تفسير ظاهرة تجاوز الشائع المتداول، والعبث بنمطية الاستعمال اللغوي التي تعكس القاعدة الأصل (تركيبًا ودلالة)، إلى استكشاف الخصوصية البلاغية وظواهرها، إذ ليست تلك الظاهرة بأنواعها (المجازات) إلا تحقيقًا لطبيعة لغة العرب البلاغية، التي تجسدت في النص القرآني بأدق وأفضل صورها وأعلى مراتبها.

2 - معاني القرآن للفراء (ت 207 هـ) :

استهدفت دراسة الفراء للنص القرآني من خلال كتاب: (معاني القرآن) شرح وتبيين ما تحمله الآيات القرآنية من معان ودلالات، سواء ما كان ظاهرًا منها أو ما استغلق فهمه. فقد "كان السبب في إملاء الفراء كتاب معاني القرآن أن عمر بن بكير، وكان من أصحابه، كان مع الحسن بن سهل فكتب إليه: إن الأمير الحسن لا يزال يسألني عن أشياء من القرآن لا يحضرنني جواب عنها، فإن رأيت أن تجمع لي أصولًا، وتجعل في ذلك كتابًا فعلت. فلما قرأ الكتاب قال لأصحابه: اجتمعوا حتى أمل عليكم كتابًا في القرآن. وجعل لهم يومًا، فلما حضروا خرج إليهم وكان في المسجد رجلًا يؤذن فيه، وكان الفراء، فقال له اقرأ، فبدأ بفتحة الكتاب ففسرها، ثم مر في الكتاب كله على ذلك، يقرأ الرجل ويفسر الفراء"¹، ليوضح معاني ما استغلق فهمه من القرآن.

لقد وقف الفراء من خلال دراسته التفسيرية لآيات النص القرآني، على ما بدا في ظاهره مخالفًا لنظم وقواعد اللغة العربية؛ أي مسألة الانزياح اللغوي التي مثلتها بعض الألفاظ والتراكيب اللغوية، التي احتوى عليها النص القرآني، إذ فرضت عليه ثقافته النحوية الخوض في هذه المسألة ومناقشة تجلياتها وقد عد عمله على هذا الأساس تكميلًا لما جاء به أبو عبيدة؛ وذلك ما توضحه مختلف الوجوه والقضايا البلاغية التي انبثقت عن بحث الفراء اللغوي في تلك المسألة حيث قام بتأويل وشرح عدة وجوه بلاغية من بينها:

أ - التشبيه والمجاز:

عني الفراء بتقصي عديد التشبيهات وأنواع المجاز (كالاستعارة مثلاً) التي احتوت عليها التراكيب القرآنية؛ وذلك قصد توضيح معانيها الحقيقية وإزالة ما شابها من غموض، ورد اعتقاد خروجها وغرابتها عن العربية، وقد ركز في ذلك على تفسير علة ورودها محوَّلة عن نسقها المعتاد، مستدلًا بذلك بنماذج من كلام العرب.

¹ - أحمد بن محمد بن إبراهيم ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: محي الدين، مكتبة النهضة، د/بلد نشر، ط1: 1949، ج5، ص 325.

ففي قوله تعالى: "ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمي فهم لا يعقلون"¹.

يقول: "وقوله: "ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق .." أضاف المثل إلى الذين كفروا ، ثم شبههم بالراعي . ولم يقل: كالغنم . والمعنى - والله أعلم - مثل الذين كفروا (كمثل البهائم) التي لا تفقه ما يقول الراعي أكثر من الصوت، فلو قال لها: ارعي أو اشربي، لا تدر ما يقول لها. فكذلك مثل الذين كفروا فيما يأتيهم من القرآن وإنذار الرسول. فأضيف التشبيه إلى الراعي . والمعنى - والله أعلم - في المرعي"².
فالبحث عن المعنى الحقيقي بإعادة صياغة تلك البنيات التشبيهية صياغة تأويلية، يعتمد فيها على تتبع مقتضيات المعنى النحوي، هو ما شكل الأساس المنهجي عند الفراء.

ب - التقديم والتأخير:

وقف الفراء على البنيات اللغوية التي وردت وفق هذا النوع البلاغي؛ حيث عمل على تفسير معانيها من خلال إرجاعها إلى استعمالها العادي الذي يعكس القاعدة الأصل وتأويل الناقص، ففي قوله تعالى: "حتى إذا فشلتم وتنازعتم"³، يقول: "يقال: "إنه مقدم ومؤخر، معناه "حتى إذا تنازعتم في الأمر فشلتم" فهذه الواو معناها السقوط، كما يقال: "فلما أسلم وتل وجهه للجبين. و ناديناها"⁴ معناه ناديناها"⁵.

وفي قوله تعالى: "يسألونك كأنك حفي عنها"⁶، يقول: "كأنك حفي عنها مقدم ومؤخر، ومعناه يسألونك عنها كأنك حفي بها. ويقال في التفسير كأنك حفي أي كأنك عالم بها"⁷. فقد تضمنت آيات النص الديني القرآني وجوه كثيرة من ظاهرة التقديم والتأخير، التي تميزت بطابعها الوظيفي البلاغي الذي يخرج إلى عدة أبعاد دلالية فكرية إنسانية تأسيسية، وقد شكلت قوة الدلالة وبلاغتها سمة تلك الظاهرة.

¹ - سورة البقرة، الآية: 171.

² - أبو زكريا الفراء، معاني القرآن، تح: محمد علي النجار وأحمد يوسف نجاتي، دار الكتب المصرية، ط: 1955، ص 47.

³ - سورة آل عمران، الآية 152.

⁴ - سورة الصافات، الآية 103 و104.

⁵ - الفراء، معاني القرآن، ج 1، ص 238.

⁶ - سورة الأعراف، الآية: 187.

⁷ - الفراء، معاني القرآن، ج 1، ص 399.

ج - الاستفهام:

انشغل الفراء من خلال وقوفه على البنيات الاستفهامية في النص القرآني، بتأويل أغراض الاستفهام الحقيقية الثاوية أو المضمرة، التي تخرج عن الغرض الرئيس الذي تدل عليه البنية الحرفية الاستفهامية، إذ يرى، مثلاً، في قوله تعالى " كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم"¹، أن الاستفهام قد جاء "على وجه التعجب والتوبيخ لا على الاستفهام المحض، أي ويحكم كيف تكفرون"²، إن الله عز وجل في هذه الآية الكريمة يتعجب وفق أسلوب الاستفهام من كُفر الكافر، ويذكره بحالته وكيف أصبح، وهو استفهام إخباري توبيخي، وهذا ما تجلت من خلاله بلاغة الاستفهام.

وفي قوله تعالى: "وقل للذين أوتوا الكتاب والأمين أسلمتم"³، يرى بأن ذلك "استفهام ومعناه أمر"⁴. فليس الاستفهام المحض ما يقصده الله عز وجل، وإنما يخرج ذلك إلى غرض الأمر وكأنه يريد أن يأمر من نزل عليه الكتاب ولم يسلم بعد، إلى الدخول في الإسلام. ويعد استفهاماً بلاغياً حيث يخرج عن الطابع العادي إلى الطابع الفني البلاغي.

يتضح من ذلك أن دراسة الفراء للنص القرآني لم تقف عند حدود الوصف والتحليل اللغوي النحوي المحض، وإنما تعدت ذلك إلى مجال التحليل البلاغي، إذ كشف عن معاني القرآن بشحناتها وأبعادها وألوانها البلاغية، وذلك ما يؤكد روعة وجمالية الأساليب (أو التعابير) القرآنية.

يستوجب منا الأصل الإبستمولوجي اللغوي (التأسيس اللغوي للبلاغة العربية)، - الذي ظهر نتيجة الدراسة اللغوية النحوية للنص الشعري والنص القرآني. والتي ارتبطت بوصف وتفسير ظاهرة خروج أو انزياح بعض التراكيب اللغوية في كلا النصين. عن المعيار اللغوي الذي تمثله استعمالات العرب الشائعة المتداولة -، ضرورة الوقوف على ماهية العلاقة بين النحو والبلاغة.

¹ - سورة البقرة، الآية: 28.

² - الفراء، معاني القرآن، ج1، ص 23.

³ - سورة آل عمران، الآية: 20.

⁴ - الفراء، معاني القرآن، ص 99.

2- ج. علاقة النحو بالبلاغة:

تؤكد المشاركة النحوية ودورها في بناء واستكشاف بعض معالم البلاغة العربية، مدى ارتباط وتداخل النحو والبلاغة، وهذا ما يمكن الوقوف عليه من خلال البحوث التي قدمها النحاة المتقدمون لاسيما منهم الخليل وسيبويه.

تميز النحو الخليلي بمنهجه الدينامي الوظيفي في تعامله مع اللغة وتراكيبها، ليكون مفهوم النحو بناء على ذلك مفهوما شاملا يُعنى فيه النحوي بدراسة التركيب اللغوي بأبعاده المختلفة. وهو ما يعني الابتعاد عن تضيق المجال النحوي وحصره في عملية تتبع الحركات والعلامات اللغوية، وذلك ما جعل من أهم سماته المزج بين النحو والبلاغة، وهذا ما تبناه سيبويه؛ إذ لهذا الأخير دور بارز في معالجة التراكيب اللغوية وتحليلها من منظور نحوي بلاغي، ولعل هذا ما يمكن استقراؤه على تفسيره لخروج بعض الاستعمالات اللغوية، عن القاعدة النحوية بظاهرة: (الاتساع أو التجوز اللغوي).

لقد تطرق سيبويه في الكتاب إلى ذكر "العديد من فنون البلاغة: فعرفها، وتحدث عن خفة الألفاظ وسهولتها، وعن ثقلها واتساعها، وما يطرأ على حروف الكلمة من التنافر بسبب القرب أو البعد .. كما تحدث عن الحذف سواء كان في الفعل أو في جواب الشرط إذا علم المخاطب المراد .. لما في الحذف من الإيجاز والخفة".¹، وغيرها من القضايا التي توضح تعالق النحو بالبلاغة وتؤكد في الوقت نفسه التفكير اللغوي البلاغي عند النحاة. وفي الواقع "إن سيبويه قد ضمن كتابه عرضا لعدد من صور البلاغة، وفسرها تفسيرا بلاغيا، بل أحيانا نراه بعين الطريقة التي سلكها علماء البلاغة من بعد في مباحثهم، غاية الأمر أنه لم يذكر لها أسماء اصطلاحية، وذكر المصطلحات في عصر سيبويه لم يكن ذا شأن خطير، فالعلوم والفنون في القرن الثاني الهجري لم تكن قد تحددت بعد، وإنما كانت وقتئذ متداخلة يصب بعضها في بعض فاللغة والنحو والبلاغة كلها كانت بمثابة روافد متعددة تصب في مجرى واحد هو إثراء اللغة والمحافظة على سلامتها وإبراز جمالها"²، حيث تعمل كلها على توجيه مستعملي اللغة العربية للاستفادة منها، عبر بناء خطابات تعبيرية بأساليب فنية ذات فعالية، إذ يقتضي المستعمل أصول النحو ويحقق البلاغة بمختلف وجوهها، ولذلك لم يكن الفصل النظري بينها أمرا مشروطا.

¹ - عبد القادر حسين، أثر النحاة في الدرس البلاغي، دار غريب، ط: 1998، ص 65.

² - عبد القادر حسين، المختصر في تاريخ البلاغة، دار غريب، القاهرة، ط: 2001، ص 56.

يمكن فهم علاقة النحو بالبلاغة من خلال الوقوف على ما يقدمه كل من النحوي والبلاغي من بحوث، تمثل فيها قضية الاستعمال اللغوي محور الانطلاق، وذلك رغم الحدود الفاصلة بين كل واحد منهما؛ إذ "يشتركان في أن النحوي ينظر في دلالة الألفاظ على المعاني من جهة الوضع اللغوي، وتلك دلالة عامة. وصاحب البيان ينظر في فضيلة تلك الدلالة، وهي دلالة خاصة. والمراد منها أن تكون على هيئة مخصوصة من الحسن، وذلك أمر وراء النحو والإعراب، ألا ترى أن النحوي يفهم معنى الكلام المنظوم والمثور، ويعلم مواقع إعرابه، ومع ذلك لا يفهم ما فيه من الفصاحة والبلاغة ؟" ¹، إذ يحرص النحوي على ضرورة احترام قواعد النحو قصد إحراز صحة الكلام واستقامته؛ "فوظيفة النحو استخراج مبادئ اللغة ونظمها استنادا إلى الاستعمال المشترك وغايته القصوى حماية اللغة من الفساد والحرص على أن تواصل أداء وظيفتها الأصلية: الإبلاغ، ووسيلته في ذلك ضبط المعايير التي تفصل بها بين الخطأ والصواب ويطابق المتكلم باحترامها بينها وبين حاجته في التعبير المستقيم" ²، أما البلاغي فيركز بالإضافة إلى ذلك على البعد الجمالي فيه، وهذا ما تفرضه وظيفة البلاغة؛ إذ تهدف إلى "وصف الطرق الخاصة في استعمال اللغة وتصنيف الأساليب بحسب تمكنها في التعبير عن الغرض تعبيرا يتجاوز الإبلاغ، إلى التأثير في المتلقي أو إقناعه بما نقول أو إشراكه فيما نحس به، وغايتها مد المستعمل بما تعتبره أنجع طريقة في بلوغ المقاصد" ³، فمدار النحو الصياغة السليمة، أما البلاغة فتركز على الصياغة الإبداعية الفنية المتميزة، ورغم ذلك فإنه لا يمكن الفصل بينهما في استعمالنا التواصلية الناجعة.

يمكننا من هذا المنطلق القول إن الخطاب اللغوي المتكامل، الناجح؛ أي الأكثر تأثيرا وإفادة على المتلقين هو ما يقوم على توخي ما يفرضه النحو الذي يخضع لنظام اللغة، وما تستوجبه البلاغة من شروط تضمن التأثير في المخاطب، وهذا ما قامت عليه وعملت به النظرية اللغوية العربية القديمة. فـ "العلاقة بين النحو والبلاغة هي العلاقة بين الصحة والجمال، وليس هناك أبدا جمال بدون صحة، لكن الصحة قد توجد ولا يوجد الجمال في اللغة وفي كل شيء، ولهذا فالنحو يختص بالأسلوب "العادي" والبلاغة تختص بالأسلوب "العالي" ⁴، إذ يركز الأسلوب الأول على الصحة أما الأسلوب الثاني فيركز على الجودة.

¹ - ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، القسم الأول، قدمه وعلق عليه: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار نضمة مصر، ط2: 1973، ص 29.

² - حمادي الصمود، التفكير البلاغي عند علماء العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس. (مشروع قراءة)، ص 47.

³ - المرجع نفسه.

⁴ - صلاح عيد، الأسلوب الأدبي بين الاتجاهين النحوي والبلاغي، مكتبة الآداب، القاهرة، ط: 1993، ص 16.

شهد التراث اللغوي العربي القديم تداخل المنحى النحوي بالمنحى البلاغي، وهو الطابع "الذي تغير مع النحاة المتأخرين حيث أغفلوا دراسة الظواهر النحوية متصلة بالتركيب اللغوي، وقصروا مهمتهم على البحث في ضبط أواخر الكلمات ولم ينتبهوا إلى البناء وقيمتهم النحوية الفنية"¹، التي تتولد من خلال التوظيف الإبداعي لمعاني النحو أين نقف على بلاغة البناء وجماليته.

لقد قاد هذا التحول الذي عرفه النحو على إثر إستراتيجية المتأخرين وطريقة تفكيرهم إلى ابتعاده عن طبيعته الأولى، ليكون على إثر ذلك نحوًا جافًا مخالفًا بذلك لخصائص النحو الخليلي، إذ "لم يكن قصد الخليل وسيبويه الاقتصار على مسائل النحو والضبط الإعرابي كما آل إليه النحو من بعد، بل كانت أعمالهما أقرب إلى الدرس اللغوي الذي يشمل مستويات التحليل اللغوي المتعددة من الأصوات والكلمات والجمل والدلالة .. ولهذا فإن دارس سيبويه سيجد مبادئ لدراسات في علم الدلالة والبلاغة والشعر بلغته الخاصة وضروراته .. تتعاقب كلها مع الدرس النحوي التأصيلي الذي ابتدأه الخليل"². فالنحو الخليلي هو ما يعرف بالنحو البلاغي، الذي يتعلق بالتشكيل اللغوي الفني، وهو ما يتمحور حول معاني النحو وليس حركاته الإعرابية .

يرى محمد عبد المطلب في هذا السياق أن النحاة المتقدمين "قد ميزوا بين مستويين للدراسة النحوية: يتمثل المستوى الأول في رصد الصواب والخطأ في الأداء، أما المستوى الثاني فيتجاوز هذا المجال إلى ناحية الجمال والإبداع"³، ويمثل الطرح اللغوي البلاغي الخليلي، بمختلف خصائصه وإجراءاته - التي جعلت مستعمل اللغة في بناء خطابه يفهم أن التوفيق بين تطبيق قواعد النحو والسعي إلى تحقيق شروط البلاغة أساس الخطاب اللغوي الناجح - حسب رأي العديد من الباحثين المنحى العلمي الأول لظهور البلاغة. وذلك باعتبار أن وجودها الضمني داخل الممارسة النقدية لم يكن في عمومها وفق طريقة مضبوطة منظمة.

لقد تناولت الظاهرة البلاغية في إطار ذلك الطرح بصورة علمية واضحة، انتمت من خلالها إلى مجال التجوز أو الاتساع اللغوي - رغم غياب الضبط المصطلحي - إذ تعد البلاغة من منظوره مفهومًا شاملاً للاستعمال اللغوي الأدبي، الذي تتحد فيه كل مستويات اللغة. وهذا ما تبناه وعمل على ترسيخه والمحافظة عليه مجموعة من

¹ - رجاء عبد، فلسفة البلاغة، منشأة المعارف بالاسكندرية، د/ بلد نشر، ط2، ص 143.

² - السيد علي محمد خضر، البدايات النحوية لأصول البلاغة العربية، مجلة كلية التربية، جامعة المنصورة، العدد 79، الجزء الثاني، مايو 2012، ص 345.

³ - ينظر: محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت - لبنان، ط1: 1994، ص 38.

اللغويين الذين ساروا على نهج الخليل من خلال سيبويه أبرزهم: ابن جني، المبرد، عبد القاهر الجرجاني في نظرية النظم.

3 - الأصل الإبستمولوجي الديني القرآني:

نشأت في ظل التحولات الفكرية والإبستمولوجية التي عرفها المجتمع العربي، في خضم حضور النص الديني القرآني - وذلك لاسيما بعد تأكيد مشروعيته - اهتمامات وتوجهات بحثية جديدة، انطلق فيه الباحثون من أسئلة ومناقشات مستفيضة، حول ذلك النص الذي فرض عليهم الخضوع لدراسته، وهو ما ساهم في نقل العقل العربي من نمطية البحث والتفكير في مجال الطابع الكلامي البشري، إلى مجال الطابع الكلامي الإلهي المتمثل في القرآن الكريم، ف "لم يكن القرآن رؤية أو قراءة جديدة للإنسان والعالم وحسب. وإنما كان أيضا كتابة جديدة، على مستوى المعرفة، إذ مثل قطيعة معها على مستوى الشكل التعبيري. هكذا كان النص القرآني تحولا جذريا وشاملا"¹، ففي إطار هذه المرحلة الانتقالية شكل القرآن الكريم - باعتباره نصا دينيا - مدار البحث والدراسة، وقد عمل الباحثون من خلال ذلك على إبطال الشبهات التي وُجّهت إليه، وبالتالي تنزيهه من كل النقائص وتأكيد تفوق أسلوبه على مختلف أساليب كلام العرب.

و هذا ما فرضه - خاصة - هدف الإجابة عن مختلف الإشكالات المطروحة، التي ظهرت في خضم سؤال الإعجاز المتمثل في: ما هو سر تميز أسلوب القرآن الكريم على بقية أساليب كلام العرب ؟

لقد أفضى العمل على كشف سر الإعجاز والبحث في خضم ذلك عن خصائص النص القرآني، إلى بروز العديد من الدراسات المكثفة الدقيقة. التي عملت بدورها على جعل الطابع الفكري الديني الطابع الغالب على بنية العقل العربي، ومختلف بحوثه ونشاطاته التي تبلورت على يد المتكلمين خاصة.

قادت الإجابة عن سؤال الإعجاز ومن ثمة تحديد مقياس التميز، المتكلمين إلى إجراء العديد من القراءات التحليلية العميقة على النص الديني القرآني، وقد اعتمدت أغلب تلك القراءات التي شملت جميع جزئيات وعناصر ذلك النص (معانيه ومبانيه) على آلية المقارنة، التي أجريت بين القرآن الكريم ومختلف أجناس كلام العرب لاسيما منها الشعر.

¹ - أدونيس، الشعرية العربية، دار الآداب، بيروت، ط 1: 1985، ص 35.

ولعل أبرز ما ميز البحث الكلامي في النص الديني القرآني هو امتداده إلى مجالات أخرى. ومن أهمها ما قادت إلى ظهوره الطبيعة الأدبية البلاغية لذلك النص؛ إذ يعد القرآن الكريم - وذلك بالإضافة إلى كونه نصا دينيا - نصا أدبيا، وهو الجانب الذي استكشفت به بحوث المتكلمين وتوقفت على العديد من ظواهره، وذلك من خلال اهتمامها بتقصي النص القرآني واستجلاء أبرز سماته، سعيا لتفسير سبب (أو أسباب) إعجازه.

يعد ما قدمه المتكلمون من خلال امتداد دراساتهم للنص القرآني، والبحث عن سر أو أسرار إعجازه إلى البعد الأدبي البلاغي لذلك النص، من أهم الأصول الإبستمولوجية التي أسست للبلاغة العربية، إذ لتلك الدراسات دورا فاعلا في توسيع أفق التفكير البلاغي وتوضيح خصائصه ووضع أسسه المنهجية. فقد تم الكشف من خلال هذا التأسيس الذي شهدته البلاغة العربية - وإن كان ذلك في بدايته بطريقة عفوية - عن أهم مفاهيم البحث البلاغي وفنونه؛ أي بعض مظاهر وتحليلات البلاغة، وهذا ما يمكن توضيحه من خلال أعمال بعض علمائنا القدامى من بينهم:

1- ابن قتيبة (ت 276 هـ):

لابن قتيبة دور بارز في الكشف عن خصائص النص القرآني وتأكيد تفوق أسلوبه على مختلف أساليب كلام العرب، وهذا ما يعبر عنه كتاب: "تأويل مشكل القرآن" الذي خصص جزءا كبيرا منه لرد عديد الشكوك والشبهات التي أثارت حول أسلوبه وما حواه من ألفاظ وعبارات غريبة (التبس فهمها)، اتخذها البعض حجة للطعن في القرآن وادعاء مخالفة أسلوبه لأساليب لغة العرب. حيث يقول في هذا الصدد: "وقد اعترض كتاب الله بالطعن ملحدون ولغوا فيه، وهجروا وابتغوا ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله بأفهام كليلة وأبصار عليلة ونظر مدخول، فحرفوا الكلم عن مواضعه وعدلوه عن سبله ثم قضوا عليه بالتناقض والاستحالة واللحن وفساد النظم والاختلاف، وأدلوا في ذلك بعلل ربما أمالت الضعيف الغمر والحدث الغر وعرضت بالشبه في القلوب وقدحت بالشكوك في الصدور..."¹.

لقد دفع ذلك ابن قتيبة إلى تبني مهمة الدفاع عن النص القرآني وتنفيذ تيارات المشككين وطعون الملاحدة، حيث أثبت وفق منهج المتكلمين - وذلك باعتماده على الحجج - أن ما أُشكل في القرآن فهمه فكان على

¹ - عبد الله بن عبد المجيد بن مسلم بن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، تح: السيد أحمد صقر، دار إحياء الكتب العربية، مصر، ط1: 1954 ص 17.

أساسه ذهاب البعض إلى القول بفساد نظمه وابتعاده عن العربية، فعبروا عنه بالمشابه والغريب، ليس إلا فنونا وكيفيات تعبيرية نابعة من صميم كلام العرب ومذاهبه المختلفة.

والملاحظ على ما قدمه في سبيل تحقيق ما يصبو إليه في كتابه هذا هو تقارب توضيحاته بل وتشاكلها مع ما ورد عند أبي عبيدة، ويتضح ذلك خاصة في تبرير مشكل القرآن، وتأكيد عربية لغته وأساليبها من خلال ما أطلق عليه: (المجاز)، إذ يقول موضحاً ذلك: "وللعرب المجازات في الكلام ومعناها طرق القول ومآخذه ففيها: الاستعارة، والتمثيل، والقلب، والتقديم والتأخير، والحذف، والتكرار، والإخفاء، والإظهار، والتعريض، والإفصاح، والكناية، والإيضاح، ومخاطبة الواحد مخاطبة الجميع، والجميع خطاب الواحد، والواحد والجميع خطاب الاثنين، والقصد بلفظ الخصوص لمعنى العموم، وبلغف الخصوص لمعنى العموم، وبكل هذه المذاهب نزل القرآن"¹، فمجازات كلام العرب التي تعني الكيفيات والوجوه والطرق المتنوعة لاستعمال اللغة العربية، أهم الخصائص التي تميز بها أسلوب النص الديني القرآني، محاكيا بذلك تلك المجازات التي وردت في كلام العرب، وهو ما يعني خلوه من التحريف.

خرج وصف ابن قتيبة لنسق النص القرآني وتفسير استقامته وطبيعة لغته وأساليبها العربية، وبالتالي كشفه عن خطأ تأويل الطاعنين له واتهامهم له بالفساد، إلى مجال البحث اللغوي وتحديد مجال اللغوي البلاغي وذلك رغم منطلقه الكلامي. وهو ما يظهر من خلال ما عبر عنه بمصطلح مجاز الذي قصد به مذاهب وطرق كلام العرب. وقد ساهم بحثه في هذا الجانب في توسيع دائرة البلاغة وتعميق الوعي بها وصفا وتفسيرا، إذ تطرق في خضم حديثه عن المجاز لوصف وتحليل عدة فنون وأساليب بلاغية من بينها:

أ - الاستعارة:

عقد ابن قتيبة للاستعارة بابا في كتابه "تأويل مشكل القرآن"، وقد تطرق إلى تعريفها حيث يقول: "فالعرب تستعير الكلمة فتضعها مكان الكلمة، إذا كان المسمى بها بسبب من الأخرى، أو مجاورا لها، أو مشاكلا. فيقولون للنبات: نوء لأنه يكون عن النوء عندهم.

قال رؤية بن العجاج: وجف أنواء السحاب المرتزق

أي جف البقل. ويقولون للمطر سماء؛ لأنه من السماء ينزل، فيقال: ما نزلنا نطأ السماء حتى أتيناكم.

¹ - عبد الله بن عبد المجيد بن مسلم بن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، تح: السيد أحمد صقر، ص 15 و 16.

قال الشاعر: إذا سقط السماء بأرض قوم
رعيناه وإن كان غضابا¹.

ولقد كان لجوء العربي إلى توظيف الاستعارة في كلامه، مرتبطا في الغالب بمهدف تحقيق قوة الدلالة بطريقة موجزة بلاغية، وذلك ما يتولد خاصة عبر الاستعارات الجيدة المبتدعة، التي يتبع فيها العدول عن تحقيقها الشائعة العامة، على الرغم من أن هذه الأخيرة قد تميزت في فترة ما بالجدّة والابتداع، وهو الحال - مثلا - باستعارة السماء والمطر.

وقف ابن قتيبة على هذا النوع البلاغي في القرآن ساعيا من خلال ذلك إلى تبيين المعاني المضمرّة (الحقيقية)، ففي قوله تعالى: "ولا يظلمون فتيلا"² "ولا يظلمون نقيرا"³ يقول "والفتيل: ما يكون في شق النواة. والنقيير: النقرة في ظهرها. ولم يرد أنهم لا يظلمون ذلك بعينهن وإنما أراد أنهم إذا حوسبوا لم يظلموا في الحساب شيئا ولا مقدار هذين التافهين الحقييرين والعرب تقول: ما رزأته زبالا (والزبال) ما تحمله النملة في فمها، يريدون ما رزأته شيئا . وقال النابغة الذبياني:

يجمع الجيش ذا الألوف ويغزو
ثم لا يزرأ العدو فتيلا⁴.

وظف النص القرآني استعمالات مجازية متنوعة أبرزها الاستعارة، وقد وردت وفق طريقة بلاغية مميزة. إذ جمعت بين الوظيفة التواصلية البلاغية ووظائف أخرى، اختلفت من سياق لآخر باختلاف أسباب النزول. التي تخرج من خلالها العبارات الاستعارية إلى أبعاد أخرى، وهو حال قوله عز وجل: لا يظلمون فتيلا، حيث يعبر ذلك عن العدل الإلهي، الذي لا يضاهيه أي عدل إذ يراقب الله عز وجل أفعال البشر، فهو الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، فيحاسب كل بما يفعل فيعطي لكل حقه إذ لا يخفى عنه أي شيء ولو مقدار فتيل.

ب - القلب:

وضح ابن قتيبة معاني الآيات القرآنية التي جاءت وفق أسلوب القلب البلاغي، ففي تأويل قوله تعالى: "فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله"⁵، يقول: " أي مخلف رسله وعده؛ لأن الإخلاف قد يقع بالوعد كما يقع

¹ - ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص 102.

² - سورة النساء، الآية: 49.

³ - سورة النساء، الآية: 124.

⁴ - ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص 65 و 66.

⁵ - سورة إبراهيم، الآية: 47.

بالرسل، فتقول: أخلفت الوعد، وأخلفت الرسل. وكذلك قوله: "ثم دنا فتدلى"¹ أي: تدلى فدنا؛ لأنه تدلى للدنو، ودنا بالتدلي.

قال الشاعر:

ترى الثور فيها مدخل الظل رأسه وسائر باد إلى الشمس أجمع

أراد (مدخل رأسه الظل) فقلب؛ لأن الظل التبس برأسه فصار كل واحد منهما داخلا في صاحبه. والعرب تقول: (اعرض الناقة على الحوض) تريد: اعرض الحوض على الناقة؛ لأنك إذا أوردتها الحوض: اعترضت بكل واحد صاحبه².

فقد ورد أسلوب القلب في عدة سياقات من النص القرآني الكريم، ويكشف ذلك الأسلوب عن دقة التعبير وروعته وبلاغة معانيه التي تبعث في نفس القارئ والسماع له أريحية، ولا شك أن ذلك الأسلوب موظف بحكمة ترتبط بغرض أراده عز وجل، إذ يفهم من الآية وكأن التدلي والدنو قد وقعا في نفس الوقت، وربما ذلك ما لم يفهم إذا ورد الكلام على أصله. والواضح أن الاعتماد على كلام العرب خاصة منه الشعر، قد شكل منهج ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن.

2- الرماني (ت 384 هـ):

أسهم الرماني من خلال دراسته للنص القرآني الذي عني فيها بتقصي أهم سماته و بالتالي تحديد مواطن الإعجاز فيه، في وضع وتأسيس معالم البحث البلاغي، ولعل هذا ما يبدو جليا من خلال مؤلف: "النكت في إعجاز القرآن" الذي انتقل فيه من البحث في الإعجاز بصفة عامة، إلى الإعجاز البلاغي الذي جعله من أهم وجوه الإعجاز في القرآن.

لقد عمد الرماني إلى تحديد ماهية البلاغة والتطرق من خلال ذلك إلى وصف بلاغة القرآن، وهي - حسب رأيه - البلاغة المعجزة. التي تمثل أعلى طبقات البلاغة، إذ يقول: "وليس البلاغة إفهام المعنى، لأنه قد يفهم المعنى متكلمان أحدهما بليغ والآخر عبي، ولا البلاغة أيضا بتحقيق اللفظ على المعنى، لأنه قد يحقق اللفظ على المعنى، وهو غث مستكره ونافر متكلف، وإنما البلاغة إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ ... فأعلاها طبقة في الحسن بلاغة القرآن، وأعلى طبقات البلاغة للقرآن خاصة، وأعلى طبقات البلاغة معجز

¹ - سورة النجم، الآية: 8.

² - ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص 148 و 149.

للعرب والعجم كإعجاز الشعر المفخم، فهذا معجز للمفخم خاصة كما أن ذلك معجز للكافة"¹. وهذا ما يعني أن بلاغة القرآن بلاغة مستحيلة لا يمكن للعرب وغيرهم بأي طريقة من الطرق الوصول إلى مرتبتها، وذلك بخلاف بلاغة كلام العرب باعتبارها بلاغة ممكنة.

وقد جعل للبلاغة عشرة أقسام وهي: "الإيجاز، والتشبيه، والاستعارة، والتلاؤم، والفواصل، والتجانس، والتصريف، والتضمن، والمبالغة، وحسن البيان"²، فالخطاب البلاغي المتميز هو ما يحتوي على هذه المكونات. وفي الواقع لقد "ورد ذكر تلك الأقسام العشرة في بحوث السابقين في الدراسات القرآنية، أو في كتب البيان العربي، والدراسات اللغوية والشعرية .. فلاستعارة والتشبيه والإيجاز والمبالغة كلها وردت بأسمائها والفواصل والتصنيف، أو التجانس بألفاظها أو ألفاظ مغايرة، فالقراء سمي الفواصل رؤوس الآيات، وسمى ابن المعتز التجانس التصنيف، أما التلاؤم والتصريف والتضمن فكلها أبواب جديدة أضافها الرماني إلى بحوث البيان أو البلاغة في القرآن"³، فقد أفضى البحث الكلامي عنده إلى تطور الوعي العربي ببعد اللغة البلاغي؛ وذلك من خلال ضبط مفهوم البلاغة، ومراتبها، وتحديد صورها (فنونها)، التي اتسعت وتعددت عنده وذلك من خلال ما أضافه على ما جاء به سابقوه. وقد شكل عنده العمل على تحديد وجوه إعجاز القرآن منطلق الدراسة، ليكون الاهتمام فيه بالإعجاز البلاغي خاصة، والخروج من خلال ذلك إلى طرح ومعالجة قضايا لغوية بلاغية أخذت حيزا كبيرا من وصفه وتحليلاته

والواضح أن دراسة المتكلمين للنص القرآني تتقاطع ودراسة اللغويين لذلك النص؛ وهو ما يتجلى في اعتماد ممثلي كلا الدراستين على كلام العرب، خاصة الشعر، كحجة لإثبات عربية أسلوب القرآن. وذلك ما عده البعض إقرارا بطريقة غير مباشرة بأهمية الشعر وسلطته عند العرب، إذ يرى محمد مشبال " أن القراءة البلاغية التي تعتمد الشعر حجة لإثبات شرعية الأسلوب القرآني، فتقيس الشاهد على الغائب، منطلقة من قيمة هذا الغائب وسلطانه على المتلقين، وإن كانت تتوخى الدفاع عن النص الجديد وإظهار خصائصه التعبيرية، فإن المنهج

¹ - أبو الحسن علي بن عيسى الرماني، النكت في إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تح: محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط3: 1976، ص 76.

² - المرجع نفسه، ص 76.

³ - محمد زغلول سلام، أثر القرآن في تطور النقد العربي إلى آخر القرن الرابع الهجري، قدم له: محمد خلف الله أحمد، مكتبة الشباب، د/ بلد نشر، د/ سنة نشر، ط1، ص 236.

الدفاعي الإقناعي قادها في حقيقة الأمر إلى مناصرة النص الحجة، أي الشعر باعتباره معيارا أسلوبيا متفقا عليه"¹، على الرغم من أن ذلك لم يكن مقصودا.

يتضح من كل ما سبق تقديمه أن الصرح البلاغي العربي القديم تراكم معرفي شامل، يرجع الفضل في ظهوره إلى تصورات وجهود انتمت إلى دراسات وعلوم لم تكن المعرفة البلاغية موضوع بحثها، وذلك ما يعني أن الظهور الأول للبلاغة أين تم الوقوف على (الخصوصية البلاغية، فنونها) ورصدها، لم يكن من طرف باحثين وعلماء انتسبوا إلى مجال البلاغة، فقد تبلورت معالم وأسس ذلك الصرح، في خضم العديد من البحوث والمناقشات والأسئلة التي ارتبطت بدراسة قضايا متباينة. بناء على ذلك يمكن القول إن البلاغة العربية قد شهدت عدة تأسيسات أبرزها:

أ - التأسيس النقدي

ب - التأسيس اللغوي

ج - التأسيس الكلامي

لقد شكل النص الشعري والنص القرآني أهم نصين شغلا اهتمام العرب قراءة، وبحثا، وصفا، وتفسيرا، ليكون ذلك الأساس لظهور البلاغة، ومن هذا المنطلق يمكن القول إن أبرز عوامل نشأة البلاغة هي:

1 - نقد الشعر.

2 - تقعيد اللغة.

3 - الدفاع عن القرآن: ويشمل:

أ - إثبات شرعية أسلوبه.

ب - محاولة فهم نسقه وإثبات إعجازه.

وينبغي الإشارة هنا إلى أن ذكرنا لهذه العوامل لا ينفي وجود عوامل أخرى، ارتبطت بظروف وتحولات مختلفة عاشها العقل العربي، وهذا ما يوضحه العامل الأجنبي مثلا.

¹ - محمد مشبال، البلاغة والأصول دراسة في أسس التفكير البلاغي العربي نموذج ابن جني، أفريقيا الشرق، المغرب، ط: 2007، ص 23.

4 - العامل الأجنبي:

يتمثل هذا العامل في التأثير الذي فرضه احتكاك العقل العربي بعدد الثقافات الأجنبية: اليونانية، الفارسية، الهندية، وقراءاته لتراثها المعرفي اللغوي، الفلسفي، البلاغي..، فقد لاحظ الباحثون احتواء الخطاب البلاغي العربي القديم على بعض مظاهر تناول البلاغي الأجنبي. وذلك ما عد أحد الأسس المعرفية التي ساعدت على تنوع آليات البحث البلاغي العربي، وهذا ما ينطبق خاصة على الثقافة اليونانية.

فحسب ما أثبتته المصادر التاريخية والنصية¹، لقد اهتم البلاغيون العرب بقراءة وفهم منجزات ذلك النوع من الثقافة؛ حيث عملوا على ترجمتها ونقلها إلى اللغة العربية، وقد ركزوا في ذلك خاصة على ما يمثل محتواها البلاغي بمبادئه وآرائه، وذلك ما استطاعوا الوصول إليه من خلال مؤلفات أرسطو (aristot) لاسيما منها: (الخطابة) و (الشعر)، حيث "لقي هذان المؤلفان رواجاً كبيراً آنذاك وعكف العرب على ترجمتهما وشرحهما وتلخيصهما"².

فقد انكب علماء العرب على كتاب (الخطابة) قراءة وتأويلاً قصد فهمه وشرح مظانه وتقديمها في طابع عربي، وهذا ما يلاحظ على ما قدمه كل من الفراءني (ت 339 هـ)، وابن سينا (ت 427 هـ)، وابن رشد (ت 520 هـ)، وقد كان ذلك خاصة بعد ترجمته من طرف اسحق بن حنين (ت 299 هـ) الذي يعد أول من نقله من السرياني إلى العربي، فحسب ما يذهب إليه ابن النديم (ت 384 هـ) إن "الكلام على ريتوريكا ومعناها الخطابة يصاب بنقل قديم وقيل إن اسحق نقله إلى العربي ونقله إبراهيم بن عبد الله"³.

وقد حظي كتاب الشعر هو الآخر بنفس الاهتمام، إذ وضعت له منذ نقله من طرف أبو بشر متى بن يونس القنائي (ت 328) من السرياني إلى العربي عدة تلاخيص وشرح وتعليقات، أولها تلخيص الكندي (ت 259 هـ)، إذ يذكر ابن النديم أن "الكلام على أبو طيقا ومعناه الشعر نقله أبو بشر متى من السرياني إلى العربي ونقله يحيى بن عدي وقيل إن فيه كلاماً لثامسطيوس، ويقال أنه منحول عنه. وللكندي مختصر في هذا الكتاب"⁴.

¹ - ينظر: حمادي الصمود، التفكير البلاغي عند علماء العرب، ص 60 و 61 و 62.

² - المرجع نفسه، ص 62.

³ - ابن النديم، الفهرست، مكتبة خياط، لبنان، ط/ ت نشر، ص 250.

⁴ - المرجع نفسه.

وقد تعرض الفريابي كذلك من خلال مؤلفه: (رسالة في قوانين صناعة الشعراء) لتلخيص كتاب الشعر، إذ يقول "فهذه هي أصناف أشعار اليونانيين ومعانيها على ما تنهاى إلينا من العارفين بأشعارهم وعلى ما وجدناه في الأقاويل المنسوبة إلى الحكيم أرسطو في صناعة الشعر وإلى ثامسطيوس وغيرهما من القدماء والمفسرين لكتبهم"¹. ولابن سينا، أيضاً، تلخيص وهو ما أورده في كتاب الشفاء، وحسب رأي الباحثين إن أول تلخيص كامل لكتاب الشعر هو تلخيص ابن رشد.

لقد برزت مظاهر الاهتمام بالثقافة اليونانية والتأثر بها، خاصة، عند الفلاسفة والمتكلمين وذلك ما تعبر عنه ما أطلق عليه البعض (المدرسة الكلامية) في مقابل (المدرسة الأدبية)، إذ توجه البحث البلاغي من خلال تلك المدرسة وجهة فلسفية عقلية، و"قد شاعت هذه المدرسة الكلامية في المناطق الشرقية من الدولة الإسلامية حيث يقطن خليط من الفرس والترك والتتر وغيرهم من الأقوام غير العربية وكانت خوارزم أكبر المناطق التي ظهر فيها أقطاب هذه المدرسة كجار الله الزمخشري، وفخر الدين الرازي، وأبي الفتح ناصر أبي المكارم المطرزي، والسكاكي، وسعد الدين التفتازاني. وقد استطاعت هذه المدرسة السيطرة على الدراسات البلاغية بعد الشيخ عبد القاهر الجرجاني وبلغت ذروتها في عصور الشروح والتلخيص"²، حيث ظهر الاهتمام البالغ بالتحديد الدقيق والتقسيم العقلي، وقد كان تأليف الشرح البلاغي على شرح بلاغي آخر لكتاب بلاغي ما، والتلخيص البلاغي على تلخيص آخر، أهم ما عني به علماء هذه المدرسة.

وتتميز هذه المدرسة بمجموعة من الخصائص من بينها:³

أ - العناية العقلية البالغة بالتعريفات الجامعة المانعة، وبالتقسيمات المنطقية، وبالحدود التي يراد من المتلقي إقامتها لفهم معنى النص عند القراءة أو لإنتاج المعنى عند الكتابة.

ب - استعمال أساليب الفلاسفة وأهل المنطق في التحديد والتقسيم والحصص وتوجيه دلالات الألفاظ على المعاني، في الدلالات العقلية والوضعية وغيرهما، مما شاع عند الأصوليين على نحو خاص.

ج - الاحتكام إلى معايير الفلسفة الطبيعية، في تحديد مفاهيم؛ الخيال والوهم والحس المشترك والأسباب والمسببات والتعاليق بين المعاني في فنون المجاز.

¹ - أرسطو طاليس، فن الشعر مع الترجمة العربية القديمة وشروح الفريابي وابن سينا وابن رشد، ترجمه وشرحه وحقق نصوصه: عبد الرحمن بدوي، دار الثقافة، بيروت - لبنان، ط 2: 1973، ص 155.

² - أحمد مطلوب، دراسات بلاغية ونقدية، دار الرشيد للنشر، الجمهورية العراقية، د/ط، د/سنة نشر، ص 17 و18.

³ - ينظر: رهن غركان، نظرية البيان العربي خصائص النشأة ومعطيات النزوع التعليمي (تنظير وتطبيق)، ص 35.

د- الانتفاع من اصطلاحات الفلاسفة والمتكلمين، وقراءة النص في ضوءها؛ كالمحمول والموضوع والإيجاب والسلب والسبب والمسبب وغيرهما.

تبنت تلك المدرسة منهج البحث الفلسفي، حيث شكلت إجراءات ذلك المنهج؛ التقعيد، والتبويب، والتقسيم أبرز سماتها، لتطغى بذلك على حساب الرؤية الأدبية للبلاغة، وهو ما تسبب في غياب مفهوم الفنية والإبداعية التي ترتبط بتداولية الخطاب البلاغي. وقد كان هذا الأمر الطريق الذي جر البحث البلاغي العربي إلى الجمود، وقد صنف أغلب الدراسات العربية الحديثة أعمال هذه المدرسة تحت ما أطلقت عليه باسم: (المنهج التقعيدي).

ثالثا - البلاغة العربية القديمة في العصر الحديث:

استأثر التراث البلاغي العربي القديم بعناية الدراسات الحديثة، التي اهتمت بالتراث اللغوي بصفة عامة والبلاغي منه بصفة خاصة؛ إذ ركزت هذه الأخيرة على تمحيص ذلك النوع من التراث وإخضاعه لعدد الاختبارات، وذلك من خلال قراءاتها التحليلية الدقيقة، التي سعت إلى تتبع الخطاب البلاغي التراثي ومناقشة أفكار مثليه واستنطاق أهم مبادئه؛ قصد معرفة كيفية اشتغاله ومنهجية عمله وكذا الكشف عن أهم أصوله الإستيمولوجية.

اختصت الدراسات البلاغية العربية الحديثة بالبحث في التراث البلاغي (أو ما يعرف بالبلاغة العربية القديمة)، حيث عملت على توفير آليات التأصيل لذلك التراث والمحافظة عليه وكذا استمراره وتطويره. وهذا ما توضحه مختلف الأعمال البلاغية التي تبلورت في إطار منهجية إعادة القراءة، التي انتحاهها العديد من الباحثين المحدثين.

اختزلت هذه المنهجية أغلب صور النشاط البلاغي العربي في العصر الحديث، وقد ظلت من خلالها البلاغة العربية القديمة التي مثلت منطلق البحث والدراسة فيها حاضرة بقوة، إذ إن مساءلة هذه البلاغة عن أصولها ومنطلقاتها وأهم أسسها ومناهجها. التي جعلت التفكير البلاغي العربي القديم مختلفا عن غيره أساس البحث في هذه المنهجية، التي كانت بالنظر إلى أغراض وأبعاد الباحثين فيها نوعين:

(1) - منهجية إعادة قراءة التراث البلاغي قراءة داخلية:

وهي قراءة لم يخرج فيها الباحثون عن حدود الوقوف على منجزات البلاغيين على اختلاف توجهاتهم المعرفية، إذ حرص ممثلوها على تتبع مسار البلاغة العربية القديمة، والوقوف على أهم اللحظات والمراحل الحاسمة التي مرت بها. فقد قاد الوعي بأهمية الخطاب البلاغي العربي التراثي، وضرورة التعريف به إلى بروز هذا النوع من القراءة التي سعى ممثلوها إلى مسح التراث البلاغي مسحا كليا شاملا، وذلك قصد التمكين من فهمه واستيعاب جميع منجزاته، وهو ما دفعهم إلى العمل على إعادة هيكلة ذلك التراث وذلك من خلال تنظيم منجزاته تنظيما تاريخيا (زمنيا)، وكذا التعريف برواده وما قدموه من مؤلفات وآراء بلاغية.

نقف على ذلك من خلال ما قدمه بعض الباحثين من بينهم: أحمد مصطفى المراغي في كتاب (تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها)، الذي يذكر أنه ألفه سعيا لتوضيح "نشأة علوم البلاغة وشرح الأطوار التي مرت بها وإرشاد الناظر إلى ما طرأ من التحول في اتجاه أبحاث المؤلفين"¹.

وكذلك شوقي ضيف في كتاب (البلاغة تطور وتاريخ) الذي أدى دورا كبيرا في خدمة البلاغة العربية القديمة؛ حيث تعرض فيه لتقديم وسرد تاريخها العام، وعرض مختلف مؤسسيها على اختلاف توجهاتهم، موضحا بذلك تنوع مصادر نشأتها، ومدى التداخل بين الرؤية البلاغية والرؤية الأدبية، إذ يقول: "لم تكن غايتي أن أصور هذا التاريخ لبلاغتنا فحسب بل أيضا أن أصور الترابط الوثيق بينها وبين أدبنا في تطورها حتى انتهينا إلى التعقيد والجمود والجفاف، وأن أرسم في تضاعيف هذا التطور الوشائج بين كل بلاغي وسابقه ولاحقه"²، ويرى محمد العمري بخصوص هذا الكتاب أنه "مدرسة قائمة الذات وقد أطلق عليها: (مدرسة التمهيد)"³.

ويدخل في هذا النوع من القراءة - كذلك - العمل الذي قدمه بدوي طبانة في كتاب (البيان العربي)، ودراسة علي عشيري زايد في كتابه (البلاغة العربية تاريخها مصادرها مناهجها). إذ تصب مختلف آراء ومعلومات كلا الكتابين في إطار دائرة مسعى التعريف بالتراث البلاغي والتأريخ لأهم مراحله، من خلال تتبع مسار التأليف البلاغي.

¹ - ينظر: أحمد مصطفى المراغي، تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها، مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط1: 1950، ص 6.

² - شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص 6.

³ - ينظر: محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص 8.

(2) - منهجية إعادة قراءة التراث البلاغي قراءة خارجية:

نقصد بذلك قراءة التراث البلاغي من خلال ما قدمته البحوث الغربية، فقد أفضى انفتاح العديد من الباحثين على مختلف نظريات وطروحات الدرس اللساني الغربي الحديث. التي توزعت بين دراسة اللغة (البنوية، السيميائية) ودراسة الخطاب (تحليل الخطاب، التداولية)، من جهة، والتأثر بنتائجها من جهة أخرى، إلى ظهور أسئلة ذات آفاق جديدة حول التراث البلاغي العربي، ارتبطت بخصائصه وأسس الإستيمولوجية وكذا معاييرها. وقد تساءل فيها الباحثون عن مدى إمكانية تطوير ذلك التراث، وتفعيله بما يتماشى والحركة العلمية المعاصرة في شتى مجالاتها اللغوية والاجتماعية والإستيمولوجية (المعرفة) ..، ويواكب - كذلك - تطور مختلف المعاملات الاجتماعية اللغوية (التواصلية) لمستعمل اللغة.

فرض هذا الأمر ضرورة العمل على إعادة اسكتشاف التراث البلاغي من جديد ومن ثمة فهمه فهما جديدا، وذلك انطلاقا من قراءته وفق المنظور اللساني الغربي (نظرياته، نماذجه، طروحاته) ومقارنته به؛ أي قراءة حديثة تقوم على استثمار ما توصلت إليه الدراسات اللسانية من نتائج، أثبتت نجاعتها وفعاليتها في الوسط الاجتماعي البشري، بمبادئه اللغوية المتباينة، والاستفادة من تقنياتها وآلياتها المنهجية الجديدة، إذ "إن الاطلاع على الدوافع الفاعلة في إنتاج الدراسات الحديثة، ودراسة النتائج التي توصلت إليها قد يفيد في تأسيس نظرات جديدة، تلبي الحاجات الملحة، وتسد الفجوة بين المقولات القديمة والواقع الجديد، ذلك الواقع الذي تشده قوتان: قديمة وجديدة، - فهو مع الأولى - حصيلة الموروث الثقافي الذي ترسبت طبقاته، وتراكت بفعل نشاطات مختلفة، وهو - مع الثانية - تراكم نظريات حديثة، مختلفة الأصول، ظهرت في ثقافات متعددة ودخلت في بيئة الثقافة العربية"¹، فقد عرف ذلك الواقع ثراء معرفيا متنوع الأصول، إذ تتحرك بين الموروث العربي القديم والبحوث الحديثة التي اقتفت أثر النظريات الغربية.

لقد ركز الباحثون من وراء هذه القراءة على تقويم البلاغة العربية القديمة تقويما شاملا، يقف على جميع فروعها وعناصرها سواء منها الظاهرة أو المضمرة، وأهم من ذلك العمل على تحيينها واستثمار مكوناتها الفاعلة؛ قصد بناء نموذج بلاغي عربي جديد ومتطور، وقد مثل العمل الدقيق أولا على ضبط خصائص وأسس إستيمولوجيا البلاغة العربية القديمة؛ من خلال تتبع المسارات الكبرى التي مرت بها المعرفة البلاغية - التي تمخضت على إثر عدة تأسيسات وجهود - قاعدة البحث عند أغلب ممثلي هذه المنهجية.

¹ - محمد كريم الكواز، البلاغة والنقد المصطلح والنشأة والتجديد، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت - لبنان، ط1: 2006، ص 262 و 263.

ولعل من أهمهم: **حمادي الصمود**؛ حيث شارك هذا الأخير من خلال بحوثه التي اختصت بدراسة الخطاب البلاغي العربي القديم، ومناقشة أفكار باحثيه في مشاريع تقييم التراث التي استهدفت النهوض به من جديد وتقويمه، والحديث عن آلياته الإجرائية من منظور غربي حديثي، وقد تمكن من خلال ذلك من تقديم صورة جديدة عن التراث البلاغي، استطاع من خلالها توضيح أهم مبادئه.

عمد الصمود إلى دراسة البلاغة العربية القديمة وفق هذه المنهجية منتقدا بذلك مختلف الدراسات التاريخية، التي فشلت - حسب رأيه - في تقديم صورة عامة عن البلاغة، نتيجة خلطها بين التأريخ للبلاغة والتأريخ للتأليف البلاغي، إذ يرى "أن هذه الجهود لا تخلو، على أهميتها، من النقص، فالآثار التي تروم الإمام بمختلف أطوار البلاغة نشأة وتطورا واكتمالا قليلة، وما اتجه منها هذه الوجهة باشر المسألة من زاوية تاريخية حديثة أضعفت جانب التأليف والاستنتاج، كما أنها لم تعتن عناية كافية بالأسس التي يقوم عليها التفكير في جمالية اللغة عند العرب، فجاء كلها تاريخا للتأليف البلاغي لا للبلاغة ولا يخفى الفرق بين الوجهتين"¹.

لقد اهتم بناء على ذلك بدراسة التراث "من منطلق التفاعل بينه وبين الحداثة قصد فهمه في ذاته واستجلاء أبعاده النظرية الأدبية التي يتضمنها، ثم لمحاورة مظاهر المعاصرة فيه التي يمكن استحضارها، اليوم، للمساهمة بها في تغذية النقاش القائم، حولنا، في هذه القضايا."²، فإقامة الحوار المتبادل بين التراث البلاغي والبحوث الغربية الحديثة، يعد - حسب رأيه - من أهم الطرق الناجعة التي تمكن من معرفة وفهم البلاغة العربية والاستفادة منها.

نذكر في هذا السياق أيضا **محمد العمري**؛ حيث قدم عدة مشاريع ودراسات انشغل فيها بقراءة البلاغة العربية قراءة جديدة، ركز فيها على وصف مخاض نشأتها والعمل على تشريح جذورها واكتشاف منابتها، وتقديم منجزات علمائها وتصوراتهم البلاغية وفق منظور علمي حديثي، أوضح من خلاله دقة الطرح والتناول البلاغي العربي. الذي تميز بأبعاده المنهجية والعلمية التي بلورت لنظريات شاملة في المعرفة البلاغية سبقت عصرها بكثير؛ لتضاهي بذلك ببعض جوانبها، وتفوق من خلال جوانب أخرى عدة طروحات ونظريات غربية لسانية، بلاغية، وهذا ما تؤكد - على سبيل المثال لا الحصر - نظرية البيان الجاحظية ونظرية النظم الجرجانية.

¹ - حمادي الصمود، التفكير البلاغي عند علماء العرب، ص 10.

² - المرجع نفسه، ص 11.

ركز العمري على دراسة التراث البلاغي والاطلاع في الوقت نفسه على بحوث الغرب في مجال اللغة ودراسة الخطاب، لاسيما ما ينتمي إلى دراسات البلاغة، قديمها وحديثها، ومراقبة مستجدات هذه الأخيرة التي مثلتها نظرية الحجاج التداولية، وقد قام من خلال ذلك بترجمة العديد من المؤلفات من بينها: البلاغة والأسلوبية لهنريش بليث، اللغة الشعرية لجان كوهن .. وغيرها.

لقد سعى العمري إلى استثمار مقومات نجاح البحوث الغربية، وذلك في سبيل تطعيم البلاغة العربية القديمة بتقنياتها وتقديمها في طابع حديثي، وكذا بناء تصورات ومقاربات بلاغية جديدة لدراسة النصوص الأدبية، ولعل هذا ما يوضحه مشروع: (بلاغة السيرة الذاتية) مثلاً.

يلاحظ ذلك أيضاً على دراسات وأعمال الباحث محمد الولي، والباحث محمد مشبال، إذ تطرقا كليهما لقراءة البلاغة العربية القديمة من منظور لساني غربي حديثي، وقد شكل الاهتمام بالبلاغة الغربية الجديدة أبرز سمة ميزت منهج البحث عند كليهما.

ونحن نعتقد أن ما حملته منهجية إعادة قراءة البلاغة العربية قراءة خارجية (حدثية)، ليس إلا امتداداً - رغم وجود اختلافات - لما قدمه بعض الباحثين تحت ما عرف بمشاريع (أو مشروع) تجديد البلاغة العربية.

3 - مشروع تجديد البلاغة العربية:

ظهرت في إطار عمليات إعادة قراءة البلاغة العربية القديمة، التي سعت إلى إعادة اكتشافها من جديد، الكثير من البحوث التي تولت مهمة إصلاح البلاغة وتوسيع مجالاتها وفروعها، وقد مثل الوعي بضرورة تجديد البلاغة وتغيير الصورة النمطية التي ترسخت في ذهن القارئ العربي وغيره، عن البلاغة الإطار النظري الذي انطلقت منه تلك البحوث.

لاحظ العديد من الباحثين عدم قدرة النموذج البلاغي القديم على استيعاب جميع صور التبليغ في عصرنا الحديث، وكذلك عدم قدرته على الإجابة عن بعض الأسئلة التي تطرحها عملية الاستعمال اللغوي بأنماطها، وخطاباتها المختلفة التي تتطور بتطور الحياة، وهو ما فتح المجال لظهور التفكير في تجديد البلاغة؛ لاسيما وأنها "مفهوم تاريخي، أي أنه يتغير ويتطور ساعياً لاستيعاب كل الصور والتحليلات "المرصودة" عصراً بعد عصر. تلك الصور التي كرس التاريخ استعمال البلاغة (ورافدها وفروعها، وبدائلها: فصاحة، بديع، بيان، براعة...) وصفاً لها. فكلما تطورت الحياة، وتفاعلت الحضارات ظهرت خطابات جديدة (المقامات، الخرافات، الترسل... الخ)،

واقترضى الأمر تأطيرها نظرياً¹، وتجديدها من خلال وضع تقنيات جديدة (بديلة) من شأنها تنمية البحث البلاغي العربي بما يخدم مستعمل اللغة.

يعد التجديد - في الواقع - حتمية وشرط ضروري ملازم لحركة تطور العلوم، التي تختلف ظروف وأسباب نشأتها ومجالات استعمالها من عصر إلى عصر، وهذا ما أكد عليه العديد من علمائنا القدماء؛ حيث نجد ابن قتيبة في هذا الصدد يقول: "إن الله لم يقصر العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن، ولا خص به قوما دون قوم، بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده في كل دهر، وجعل كل قدم حديثا في عصره"².

تعد النظرة التقديسية للقدم قتل لعملية الخلق والإبداع التجديدي وتحميد لتطور العلوم، وهذا ما نبه إليه ابن بسام الشنتريني (ت 542 هـ) قائلا: "وليت شعري من قصر العلم على بعض الزمان، وخص أهل المشرق بالإحسان، والإحسان غير محصور، وليس الفضل على زمن بمقصور، وعزيز على الفضل أن ينكر؛ تقدم به الزمان أو تأخر، ولحي الله قولهم: الفضل للمتقدم؛ فكم دفن من إحسان، وأخمل من فلان، ولو اقتصر المتأخرون على ما كتب المتقدمين، لضاع علم كثير، وذهب أدب غزير"³. فقد طُرحت فكرة تجديد البلاغة وظهرت معالم التجديد في بحوثها لتختلف مناحيها وتتعد آليات بحثها منذ القدم، وهذا ما نلاحظه من خلال الانتقال من مرحلة لأخرى بل ومن بلاغي لآخر. ولعل ما قدمه عبد القاهر الجرجاني - على سبيل المثال - من بحوث وتصورات بلاغية جديدة خالف من خلالها بعض الآراء والمشاريع البلاغية السابقة عليه (من ذلك آراء ابن سنان الخفاجي)، وأضاف إلى بعض القضايا والمواضيع التي سبقه إليها غيره أهم ما يوضح ذلك، ليفتح باب التجديد في البلاغة.

وقد أشار في عدة سياقات من مؤلفاته البلاغية أن ما جاء به لا يمكن عده نهائيا غير قابل للإضافة، ففي نهاية حديثه عن الكناية والتعريض، مثلا، يقول: "وليس لشعب هذا الأصل وفروعه وأمثله وصوره وطرقه ومسالكه حد ونهاية"⁴، ومعنى ذلك أن ما قدمه من توضيحات وشروحات كشف من خلالها عن وجوه استعمال الكناية والتعريض، يقبل إضافات باعتبار تنوع شعبه وفروعه.

¹ - محمد العمري، البلاغة والخطاب، إعداد وتنسيق: محمد مشبال، دار الأمان، الرباط، ط1: 2014، ص 18.

² - ابن قتيبة، الشعر والشعراء، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، ج1، ص 63.

³ - أبو الحسن علي بن بسام التعلبي الشنتريني، الدخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تح: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت - لبنان، ط: 1997، ج1، ص 12 و13.

⁴ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 241.

يعد ما قدمه أبو يعقوب السكاكي (ت 626 هـ) في إطار المناخ المعرفي البلاغي المتأثر بالفلسفة والمنطق، ليدخل البحث البلاغي في مرحلة جديدة بطرائق وإجراءات غير معهودة؛ التقنين، والتقسيم، والتبويب، فيكون علم البلاغة بناء على ذلك ثلاثة فروع: المعاني، والبيان، والبديع، من صور ومظاهر التجديد التي طبعت البحث البلاغي العربي القديم.

ناقش المحدثون كذلك موضوع التجديد حيث تم طرح فكرة تجديد بعض العلوم اللغوية العربية القديمة، ومن بينها البلاغة التي أصر العديد من الباحثين على ضرورة تجديدها، وقد قدمت في خضم ذلك اقتراحات مختلفة ركزت أغلبها على تخلص البلاغة من قيود التعقيد، التي خلفتها البلاغة السكاكية وما جاء بعدها من تلاخيص وشروح تسببت - حسب رأي العديد من الباحثين - في تجميد البحث البلاغي وتضييق مجاله. ليكون التجديد خروجاً به إلى مجالات حديثة وآفاق أوسع.

وحسب ما يذهب إليه (عماد عبد اللطيف) "إن مأزق تحديث البلاغة يتعمق حين نعترف بحقيقة أن المعرفة البلاغية العربية لم تكن طوال الوقت مشغولة بالحياة العربية كما يجدر بها أن تكون. فكل معرفة لا تحث في أرض الحياة تظل معلقة - كالمشوقة - بين حبال التنظيرات. وقد عاشت البلاغة العربية أيام مجدها، حياة شاب جسور يصارع الواقع ويفاوضه، ويستجيب له، ويغيره؛ غير أن الحال انتهت بما عجزوا داخل صومعة الشروح والخواشي والتعليقات، معزولة عن فضائها الحيوي، حبسية سجن ماضيها العتيق. وبعد أن كانت كينونة نابضة، تستمد حيويتها من سيروية المجتمع وثرأ تحولاته، انكششت لتصبح حروفاً وكلمات مرتعشة داخل دفات كتب مولعة بالنقل، وقاعات درس مفعمة بالتلقين"¹. إن حاجة العقل العربي في إطار التحولات المعرفية وتنوع مجالات استعمال اللغة، وكذا تأثره بجديد المعرفة اللغوية الغربية التي أثبتت نجاعة آلياتها، جعله يسعى إلى تطوير المعرفة البلاغية العربية وتجديد محتواها القديم، وذلك من أجل أن يصبح علم البلاغة قادراً على تلبية مطالب الاستعمال اللغوي المعاصر.

فقد طبعت نزعة تجديد البلاغة العربية والدعوة إلى ضرورة ذلك أغلب بحوث البلاغة ومؤلفاتها في العصر الحديث، ويعد كتاب (الخواطر الحسان في المعاني والبيان) لجبر ضومط الذي أصدره سنة (1896م) أول صورها، ومداره التأسيس لبلاغة النص وتجاوز بلاغة الجملة.

¹ - عماد عبد اللطيف، بلاغة جديدة لعالم جديد، ضمن: موسوعة البلاغة، الجزء الأول، عدد: 2699، تحرير: توماس أ. سلوان، ترجمة: نخبة، إشراف وتقديم: عماد عبد اللطيف، مراجعة: عماد عبد اللطيف و مصطفى لبيب، ط1: 2016، ص 11.

وقد توالى بعده العديد من الدراسات التي سعت إلى وضع تصورات جديدة للبلاغة العربية نذكر من بينها: كتاب مقدمة لدراسة بلاغة العرب لأحمد ضيف، مقدمة لدرس لغة العرب لعبد الله العلايلي، البلاغة الواضحة لعلي الجارم ومصطفى أمين، الأسلوب لأحمد الشايب، فن القول لأمين الخولي، البلاغة العصرية واللغة العربية لسلامة موسى، البلاغة العربية في ثوبها الجديد لبكري شيخ أمين، البلاغة العربية تأصيل وتحديد لمصطفى الصاوي الجويني، نحو بلاغة جديدة لعبد المنعم الخفاجي، البلاغة العربية قراءة أخرى لمحمد عبد المطلب، البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية لجميل عبد المجيد .. وغيرهم، وتلتقي هذه الدراسات وغيرها في هدف العمل على بعث البلاغة من جديد وإصلاحها بما يتماشى ومتطلبات العصر الحديث، وهذا ما سنوضحه من خلال الوقوف على دراسة أحمد الشايب وأمين الخولي.

أ - أحمد الشايب:

سعى أحمد الشايب في خضم مشاركته في حركة تجديد البلاغة العربية إلى وضع وتأسيس نموذج بلاغي عربي جديد. وهو ما قاده إلى اقتراح العديد من التعديلات على تلك البلاغة، إذ من شأنها تجاوز الجمود الذي تعاني منه الدراسات البلاغية في عصرنا الحديث، نتيجة ترديد وإعادة ما جاء به القدماء وما انجر عن ذلك من توقف عملية الإبداع. إذ في خضم ذلك يقول: "أما بعد فيني أنا أيضا، أنتهز هذه الفرصة لأقرر أن الدراسات البلاغية لا تزال تحيا في فلك المنهج القديم: علومه ومسائله، وأن هذا العلم في حاجة ملحة إلى وضع جديد أشار به السابقون وأجملته أنا في غير هذا المكان، ورجوت أن ينهض به هذا الرعيل الجديد"¹.

لقد توقف البحث البلاغي عند المتأخرين عند حدود الشرح والتلخيص، ليسلك التأليف البلاغي بناء على ذلك منهجا واحدا، شكلت فيه البلاغة السكاكية الممثلة في مفتاح العلوم المحور والمنطلق، وهو ما فرض حسب رأي الشايب ضرورة العمل على تأسيس وضع علمي جديد للبلاغة العربية، يتجاوز حدود البلاغة المختزلة في علوم ثلاثة: المعاني والبيان والبديع، وطابعها الفلسفي بحدوده وتقسيماته، وقد مثلت البحوث الغربية ومناهجها الأساس الذي اعتمد عليه لتحقيق ذلك.

وتتضح أبرز معالم التجديد عند الشايب في بابين أو كتابين هما:²

¹ - وردت هذه العبارة في مقدمته على تحقيق حفي محمد شرف لكتاب ابن أبي الأصبع بدیع القرآن، وقد نشر بالقاهرة سنة 1957.

² - أحمد الشايب، الأسلوب دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط8: 1991، ص 3 و4.

أ - الأسلوب: وفي هذا القسم ندرس القواعد التي إذا اتبعت كان التعبير بليغا أي واضحا مؤثرا، فندرس الكلمة والصورة والجملة والفقرة والعبارة والأسلوب من حيث أنواعه وعناصره وصفاته ومقوماته وموسيقاه.

ب - الفنون الأدبية: ويسمى قسم الابتكار وتدرس فيه مادة الكلام من حيث اختيارها وتقسيمها، وما يلائم كل فن من الفنون الأدبية وقواعد هذه الفنون كالقصائد والمقالة والوصف والرسالة والمناظرة والتاريخ.

ب - أمين الخولي:

ركز أمين الخولي من خلال مشروعه في البلاغة العربية القديمة الذي تجلت أهدافه ومنهجية عمله في كتابه: (كتاب: مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب، وكتاب: فن القول)، على إصلاح تلك البلاغة وإعادة هيكلتها وتنظيمها، من خلال إبعاد بعض العناصر والجوانب الخارجة عن البحث البلاغي، والعمل على إضافة ما يتماشى والتطور الاجتماعي الحضاري؛ وذلك بالنظر إلى أهمية البلاغة ودورها الفاعل في الحياة الاجتماعية لمستعمل اللغة بمجالاتها المختلفة، ومن ثمة الحاجة إليها. وذلك باعتبارها - حسب ما يذهب إليه أمين الخولي - فن القول.

لقد لاحظ أمين الخولي غياب المفهوم الحقيقي للبلاغة، وذلك بسبب التداخل بين منهجها البحثي وبين مناهج عدة علوم لاسيما منها الفلسفة والمنطق، إذ وظف البحث البلاغي العربي مفاهيم وآليات بحث فلسفية، منطقية، وهو ما أفضى إلى ابتعاد وانحراف البلاغة عن مجالها وحدودها الأصلية وبالتالي عن موضوع دراستها.

كان ذلك من أهم الأسباب التي قادت إلى العمل على تخلص البلاغة من الرؤية (الفلسفية - المنطقية)، ولعل أهم خطوة نحو ذلك هي توضيح موضوعها المتمثل - حسب رأيه - في الكلام الأدبي الجميل. إذ في سياق ذلك يقول: "بدأت أشغل بدرس البلاغة العربية، وما البلاغة إلا البحث عن جمال القول، كيف وبما يكون؟ وهذه البلاغة هي روح الأدب، والأدب جسمها ومادتها: تعلم صنعه، وتبصر بنقده، وقد نظرت فإذا هذا الدرس الذي يعلم القول الأجمل، والكلام الأفضل ويصدر أحكاما وجدانية، بنصيب القول من الحسن، قد رده الأقدمون في العربية، ضربا من الحكم العقلي المنطقي النظري، بالصواب والخطأ، فأحلوا في تناوله ودرسه بالمنهج الفني إخلالا صارخا فشاعت فيهم دراسته .. بأساليب فلسفية عقلية، منطقية كلامية فكانت محاولتي الأولى متجهة إلى

تخليص البلاغة من برائن تلك الفلسفة، .. وبعبارة أخصر كانت محاولتي الأولى في سبيل البلاغة هي تحقيق فنية البلاغة"¹.

سعى الخولي انطلاقاً من مبدأ القول بفنية البلاغة إلى وضع خطة كفيلة بتحقيق تلك الفنية، وتوضيح ما تقتضيه من ضوابط وشروط؛ ليتمكن بذلك المتكلم من بناء كلام بلاغي فني يحوي عناصر الجمال والحسن الأدبي المؤثرين، ولعل أهم ما اقترحه لذلك ما عبر عنه بمصطلح التحلية ومصطلح التحلية، إذ إن "التحلية تخليص البلاغة من الجمود والجفاف والذبول، فإذا تم ذلك صُلحت بعده التحلية بأسباب الحسن، ووسائل التأثير، وزيادة ما يجب زيادته"².

ويرى أمين الخولي أن بحوث فن القول ينبغي أن تكون ثلاثة أبواب هي: المقدمات، والمبادئ، والبحوث وقد حدد محتوى كل باب على النحو التالي:³

الباب الأول: يدرس فيه تعريف فن القول وغايته وصلته بغيره من الدراسات.

الباب الثاني: يدرس فيه مقتبسات من القضايا النفسية التي تعين كثيراً في فهم الأدب وتذوقه والإحساس بما فيه من روعة وجمال.

الباب الثالث: يدرس فيه البحث في الكلمة الواحدة من حيث هي عنصر لغوي وما فيها من جمال وجرس موسيقي له أثر في التعبير، والبحث في الجملة وما فيها من تقدم وتأخير، وحذف وذكر. ويضم أيضاً البحث في الفقرة وما فيها من فصل ووصل وما تؤدي من معان وصور، والبحث في صور التعبير كالتشبيه والاستعارة والكناية والرمز والإيحاء والتورية.

يبدو أن أهم ما ميز مشروع تحديد البلاغة عند كل من الشايب والخولي، هو التركيز على النموذج البلاغي المتأخر، الذي شكلت معالمه البلاغة السكاكية وما جاء بعدها من تلاخيص وشروح؛ إذ إن العمل على تجاوز طرائق ذلك النموذج وتطهير البلاغة من قضايا وتعاليم المنطق والفلسفة قصد تكوين معرفة بلاغية خالصة، الهدف من وراء التجديد الذي تبناه كل من ذلك الباحثين، و لعل الاعتماد على ما أفرزته البحوث الغربية أهم الأدوات

¹ - أمين الخولي، مناهج تحديد في النحو والبلاغة والأدب، دار المعرفة، ط1: 1961، ص 323 و324.

² - أمين الخولي، فن القول، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ط: 1996، ص 227.

³ - المرجع نفسه.

المنهجية المعتمدة لتحقيق ذلك. وهذا ما يلاحظ خاصة على ما قدمه أحمد الشايب الذي اعتمد في مشروعه على الدراسات الأسلوبية.

تعد ضرورة الانفتاح على النظريات اللسانية الغربية - حسب الباحثين المحددين - لاسيما ما يرتبط بمجال البلاغة، والعمل على عقد الحوار بين نتائجها، ومنجزات البلاغة العربية - التي وصلنا عنها من علمائنا القدامى أنها لم تنضج ولم تحترق بعد - من أهم السبل التي يمكن الاعتماد عليها، قصد تحقيق هدف عصرنة وتحديث آليات بلاغتنا، وهذا ما أكدته الدراسات الحديثة؛ حيث تمكنت من خلال البحوث الغربية من معرفة وفهم طبيعة البلاغة العربية. وهو ما سيدفع مستعملي اللغة إلى إعادة صياغتها وفق رؤية حديثة، من أجل وضع مقاربات جديدة لدراسة الخطاب الأدبي سواء منه القديم، أو الحديث الذي يعبر عن متغيرات وحديد حياة مستعمل اللغة.

يتطلب اقتراح تحديد البلاغة العربية حسب رأينا صياغة نظرية بلاغية بديلة، يمكن لمستعملي الخطاب البلاغي الاستعانة عليها في العملية الخطابية البلاغية، ويبقى أمر الإقرار بأهمية التراث البلاغي؛ بإبداعية ما قدمه ممثليه على اختلافهم يفرض نفسه شئنا أو أبينا. فمنهج البلاغة السكاكية بآلياته المختلفة كالتقسيم والتبويب، وما جاء بعدها من تلاخيص وشروح، إنما هي نتائج حتمية لظروف تداولية؛ حيث تولدت مراعاة لمتطلبات تطور العقل العربي في تلك الفترة، وبغض النظر عن ذلك فقد احتوى التراث البلاغي أعمال متميزة سبقت عصرها بكثير، حيث استطاعت الوقوف جنباً لجنب مع النظريات الغربية الحديثة. وتعد نظرية النظم أبرز مثال على ذلك.

تعكس نظرية النظم صورة البلاغة العربية المتطورة، وقد ارتبطت نشأتها بأهم الأصول الإستيمولوجية، التي تشكلت من خلالها ملامح البلاغة، ونقصد بذلك الأصل الإستيمولوجي الديني، حيث ظهرت في إطار السياق التاريخي المعرفي لهذا الأصل أهم قضية بلورت للبلاغة المنظمة؛ ونقصد بذلك قضية الإعجاز القرآني. التي تمخضت على إثرها تصورات بلاغية جادة لعل أهمها ما تمثله نظرية النظم.

رابعا - قضية الإعجاز القرآني ودورها في نشأة نظرية النظم:

شهد تاريخ الدرس البلاغي العربي القديم تحولات مختلفة، مذ أن حاولت البلاغة في صورتها الأولى التي رصدت كملاحظات ذاتية ذوقية، معيارها الوحيد الذوق الفردي النسبي، الذي لا يسعى إلى الضبط والتقنين بقدر ما يسعى إلى إطلاق أحكام عشوائية، خالية من أية حجة عقلية أو أسباب (تعليلات) موضوعية، الولوج إلى بيئة الشعراء والنقاد والوجود ضمن جزئيات أحكامهم. إلى أن استطاعت الظهور كعلم لغوي قائم بذاته؛ ليحظى

بذلك النص أو الخطاب الأدبي (شعرا ونثرا)، بعلم جديد لدراسته دراسة موضوعية، لعل أسمى ما يهدف إليه تسييح عملية الإبداع الأدبي بمقاييس وشروط بالنسبة للمبدع البليغ من جهة، ووضع استراتيجيات ناجعة كفيلة بفهم النص الأدبي واستخراج تقنياته الجمالية البلاغية. وهذا ما يخدم المتلقي القارئ لذلك النص سواء أكانت قراءته قراءة نقدية أم تذوقية جمالية.

ولعل أهم تلك التحولات - على الإطلاق - ما كان مصاحبا للحدث الديني القرآني، الذي شكل ظهوره ميلادا جديدا للبلاغة العربية - ولعديد العلوم اللغوية العربية آنذاك - سواء من ناحية تمثيلها، أم ناحية المحاور والقضايا التي تنوالت في خضم ذلك الحدث. فقد كان النص القرآني حينها مدار البحث والتحليل مشاركا بذلك سلطة كان فيها الشعر سيد الكلام، ورمزا للإبداع الأدبي والجمال البلاغي، فقد "سيطر القرآن على الملكات الأدبية منذ نزل وسحر الألباب بجمال أسلوبه، حيث ترك آثاره في شعر صدر الإسلام إذ اقتنوا من فنون أساليبه كثيرا"¹، فقد أخذ منزلة الشعر حيث اعتبروه الخطاب العالي الذي لا يضاهيه أي خطاب، حتى وإن تعلق الأمر بأجود أشعار العرب وأشهرها.

1 - قضية الإعجاز القرآني بين البلاغيين:

عرفت الساحة اللغوية العربية بعامة والبلاغية منها بخاصة منعطفًا حاسمًا، بعد انقضاء زمن الملحنين الرافضين لقداسة القرآن الكريم، وانتهاء المحاولات الرافضة المعاندة، التي تحدّثها آيات قرآنية متتالية على الإتيان بعشر سور، فسورة، فآية في مثل أسلوب القرآن وبلاغته، فانتهدت بالعجز والإذعان لبيانه الباهر ونظمه الذي خرق جميع نظوم أساليب كلامهم، وقد تجسدت ملامح ذلك الانعطاف في جعل بنية النص الديني محورا لجهود البلاغيين وبحوثهم؛ لاسيما بعدما أجبرهم القرآن الكريم كنص لغوي عربي جديد مقارنة بنصوصهم الشعرية والنثرية التي عرفوها، وعرفوا من خلالها على طرح أسئلة بلاغية جديدة من بينها : ما الفرق بين القرآن وكلام العرب مادامت الألفاظ واحدة فيهما؟، ما هو سر تميز أو تفوق النص القرآني على بقية النصوص الأدبية؟، هل القرآن معجز بلفظه أم بمعناه؟ أم هناك وجوه أخرى تبرر إعجازه؟ ..

لقد عدت تلك الأسئلة وغيرها منطلقا لقضية الإعجاز القرآني، التي شغلت العديد من البلاغيين وأكثرهم فئة المتكلمين (أشاعرة ومعتزلة)؛ فقد "اتخذ المتكلمون لأنفسهم منهجا في البيان لتقريب حقيقة الإعجاز

¹ - ينظر: محمد زغلول سلام، أثر القرآن في تطور النقد العربي إلى آخر القرن الرابع الهجري، قدم له: محمد خلف الله أحمد، ص 334.

للعقول، واعتبروا لغة القرآن وأسلوبه في أعلى وأرقى طبقة في البلاغة وأنه المقياس الدقيق لشتى أنواع الأساليب الكلامية¹. حيث تم الانتقال بالنص القرآني من رؤية كانت تبحث له عن يؤر النقص والعجز، إلى رؤية مجمدة له مدافعة عنه مؤكدة على عظمتة وإعجازه، باحثة من خلال بنيته اللغوية عن أسرار بلاغته ودلائل إعجازه.

ولقضية الإعجاز القرآني التي يمكننا عدّها المحرك الرئيس الذي وجه الدرس البلاغي العربي القديم وجهة علمية؛ وصفا وتحليلا وتفسيرا، الدور الكبير في إضفاء خاصيتي الإبداع والتنوع على تراثنا البلاغي؛ تنوعا مس آراء وأفكار وتحليلات رواده؛ إذ إن عملهم على تشريح بنية النص القرآني التي لم تخالف نظام لغتهم وسنن قولهم لكنها اختلفت وأنماط كلامهم، قصد فهمه الفهم الصحيح والامتنال لأحكامه، وأهم من ذلك تحديد وجه المزية فيه وكشف سر أو أسرار إعجازه، أكسب البحث البلاغي العربي القديم طابعا إبستمولوجيا جديدا. وفي الواقع " لم يلتفت جمهور العلماء إلى البحث عن وجه الإعجاز والمعجزة القرآنية بل لم يبرز مصطلح إعجاز القرآن على الساحة إلا بعد أن نقل عن واصل بن عطاء المتوفى سنة 131 هـ شيخ المعتزلة في البصرة قول غريب وهو أن إعجاز القرآن ليس بشيء ذاتي فيه، وإنما هو بصرف الله تفكير الناس عن معارضته، وهو القول الذي تبناه فيما بعد إبراهيم بن سيار النظام المتوفى سنة 231 هـ أحد شيوخ المعتزلة في البصرة، وعرف هذا القول فيما بعد (بالصرف) عند ذلك بدأ العلماء يتعرضون في ثنايا كتبهم لوجه الإعجاز ويتحدثون عن إعجاز القرآن². فالقول بأن الله عز وجل قد صرف العرب عن النظم وفق أسلوب القرآن الكريم، ولو لم يكن ذلك لاستطاعوا الإتيان بمثله هو ما أثار نقاشا حادا في الوسط البلاغي.

دخل علماء البلاغة على إثر ذلك دائرة النقاش حول خصائص النص الديني، والبحث عن أسرار تفوقه عن سائر أجناسهم الكلامية، وقد كثرت في إطار ذلك أدبياتهم التي أفردوها لدراسة النص القرآني بصفة عامة وقضية الإعجاز بصفة خاصة، واختلفت تصوراتهم التي فسروا بها وجه أو وجوه الإعجاز. وقد نتج عن قضية الإعجاز القرآني ومختلف المحاور التي نوقشت في إطارها تطور الصرح البلاغي العربي، وهو ما تكشف عنه نظرية النظم. وقبل أن نتحدث عن نظرية النظم يجدر بنا الوقوف أولا على بعض الآراء البلاغية في تفسيرها لوجه الإعجاز.

¹ - وليد محمد مراد، نظرية النظم وقيمتها العلمية في الدراسات اللغوية عند الجرجاني، دار الفكر، دمشق - سورية، ط1: 1983، ص 24.

² - مصطفى مسلم، مباحث في إعجاز القرآن، دار المسلم للنشر والتوزيع، د/ بلد نشر، ط2: 1996، ص 46.

أ - إعجاز القرآن عند الجاحظ:

تولى الجاحظ الرد على مختلف الآراء التي ادعت الصرفة حجة مبررة لعجزه على الإتيان بمثل القرآن، و من ثمة دحض مختلف الادعاءات الباطلة التي وُجّهت للنص الديني، حيث نجده في حجج النبوة يقول: "... فكتبت كتابا أجهدت فيه نفسي، وبلغت منه أقصى ما يمكن لمثلي في الاحتجاج للقرآن، الرد على كل طعان، فلم أدع فيه مسألة لرافضي، ولحدثي، ولا لحشوي ولا لكافر مباد، ولا لمنافق مقموع، ولا لأصحاب النظام، ولا يمكن نجم بعد النظام ممن يزعم أن القرآن وليس تأليفه حجة وأنه تنزيل وليس ببرهان ولا دلالة"¹.

يكمن سر الإعجاز عند الجاحظ في نظمه الذي عجز العرب وهم أهل البيان والبلاغة على محاكاته، والنسج على منواله، فلم يستطع بذلك أجود أنواع كلام العرب مضاهاته. وفي خضم ذلك يقول: "لإن رجلا من العرب لو قرأ على رجل من خطبائهم وبلغائهم سورة واحدة طويلة أو قصيرة لتبين له في نظامها ومخرجها وفي لفظها وطبعها أنه عاجز عن مثلها ولو تحدى بها أبلغ العرب لظهر له عجزه عنها وليس ذلك في الحرف والحرفين والكلمة والكلمتين، ألا ترى أن الناس قد كان يتهياً قي طبائعهم ويجري على ألسنتهم أن يقول رجلت منهم: الحمد لله وإنا لله، وعلى الله توكلنا، وربنا الله، ونعم الوكيل، وهذا كله في القرآن غير أنه متفرق غير مجتمع، ولو أراد أنطق الناس أن يؤلف من هذا الضرب صورة واحدة طويلة أو قصيرة على نظم القرآن وطبعه وتأليفه ومخرجه لما قدر عليه ولو استعان بجميع قحطان ومعد بن عدنان"²، يؤكد الجاحظ من خلال هذا النص على إعجازية النظم القرآني الذي لا يستطيع البلوغ لمرتبه، ومحاكاته كل العرب ولو اجتمعوا واستعانوا ببعضهم البعض، وقد نفى بذلك أن يكون النص القرآني معجزا بحروفه أو كلماته.

ب - إعجاز القرآن عند ابن قتيبة:

تعرض ابن قتيبة في كتابه تأويل مشكل القرآن لقضية الإعجاز القرآني جاعلا وجه الإعجاز في نظمه، حيث يقول في مقدمة كتابه: "الحمد لله الذي نهج لنا سبيل الرشاد وهدانا بنور القرآن ولم يجعل له عوجا، بل أنزله قيما مفصلا، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم، وقطع بمعجز التأليف الكائدين وأبانه

¹ - أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الرسائل 1، تحقيق: عبد السلام هارون، القاهرة، د/ط، ص 287.

² - أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، 4، تحقيق: عبد السلام هارون، القاهرة، ط: 1948، ص 90.

بعجيب النظم حيل المتكلمين"¹، فقد بين أن ما أُشكل فهمه، وأُخذ حجة للطعن في القرآن، والقول بلحن كلماته واعوجاجه، ليس ذلك حقيقته إذ لم يخرج عن لسان العرب، وإنما هو النظم النادر الذي يعد مدار الإعجاز.

ويرى ابن قتيبة أن لهذا النظم أسرار تكمن فيما يلي:²

- ما فيه من الجمال التوقيعي الفريد والذوق الصوتي البديع الناشئ من تقسيم الحركة والسكون فيه تقسيما عادلا، وتوزيع حروف المد والغنة بالقسط من المستقيم فيتمكن القارئ له من ترجيح صوته والترنم به، حتى يصل إلى نهاية الفاصلة فتجد عندها راحته واستقراره، فلا يمل في قراءته ولا يسأم من تلاوته.
- ما فيه من معان خالدة، وما حواه من علوم خارجة عن متناول البشر، فهو عجيب لا تنقضي عجائبه ومفيد لا تنقضي فوائده.
- جمعه الكثير من المعاني في القليل من الألفاظ، وذلك معنى قوله رسول الله صلى الله عليه وسلم "أوتيت جوامع الكلم.

ج - إعجاز القرآن عند الرماني:

- تعددت وجوه الإعجاز القرآني عند الرماني حيث بلغت في رسالة النكت في إعجاز القرآن؛ التي ألفها جوابا لسؤال وجه إليه بخصوص تلك النكت حيث يقول: "سألت وفقك الله عن ذكر النكت في إعجاز القرآن دون التطويل بالحجاج، وأنا أجتهد في بلوغ محجتك والله الموفق للصواب بمنه ورحمته."³، سبعة أوجه تمثلت في:⁴
- ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة.
 - والتحدي للكافة
 - الصرفة
 - البلاغة
 - الأمور الصادقة عن الأمور المستقبلية

¹ - ابن قتيبة عبد الله بن مسلم، تأويل مشكل القرآن، علق عليه ووضع حواشيه وفهارسه: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط2: 2007، ص 11

² - ينظر: محمد زغلول سلام، أثر القرآن في تطور النقد العربي إلى آخر القرن الرابع الهجري، ص 108 و 109.

³ - الرماني، النكت في إعجاز القرآن للرماني مطبوع ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، ص 75.

⁴ - المرجع نفسه، ص 75.

- نقض العادة

- وقياسه بكل معجزة

ركز الرماني رغم هذا التعدد على الناحية البلاغية للنص القرآني فقد، فحسب ما يذهب إليه العديد من الباحثين "يبحث كتاب النكت في إعجاز القرآن البلاغي، وقد حدد المؤلف هدفه في مقدمة الكتاب حين تدرج من قضية الإعجاز عامة إلى الإعجاز البلاغي، وتناول هذه الناحية الأخيرة ووضعها في أعلى مراتب البلاغة، ووصف بلاغة القرآن في هذه الدرجة بأنها بلاغة معجزة لأنها بلغت أقصى ما يمكن أن يصله التعبير للسان العربي، فبلاغة البلغاء مهما بلغت ممكنة، لكن بلاغة القرآن معجزة وليست في مقدور أحد.¹" فقد وضح الرماني من خلال دراسته لبلاغة النص القرآني، أو إعجازه البلاغي، أن البلاغة طبقات ثلاث: عليا ووسطى ودنيا، أعلاها بلاغة القرآن، أما الوسطى والدنيا فهي بلاغة البلغاء على اختلافهم في البلاغة.

وقد أخذ على الرماني في كتابه أنه "جعل الصرفة وجها من وجوه الإعجاز. فعلى الرغم من أنه لم يدافع عن هذا الوجه ولم يشرحه، إلا أن مجرد ذكره بين وجوه الإعجاز أو تأييده بقوله: (هذا عندنا أحد وجوه الإعجاز التي يظهر منها العقول) وهو في واقع الأمر يتناقض مع ما ذهب إليه في وجه البلاغة"²؛ إذ إن مجرد تبني الصرفة التي تلغي إعجاز النص القرآني أساسا، وترى أن لا شيء يميز نظم القرآن وأسلوبه عن بقية الأساليب العربية الأخرى، وأن العرب لم يتمكنوا من معارضة القرآن لأن الله صرفهم عن ذلك وسلب علومهم به، ينفي كون القرآن معجز ببلاغته.

د - إعجاز القرآن عند أبو سليمان بن محمد بن إبراهيم الخطابي:

لقد تبني الخطابي من خلال وقوفه على آراء علماء البلاغة الإعجازيين السابقين له، فكرة الاعتداد بالنظم، والتأكيد على حقيقة كونه أساس إعجاز القرآن، وأنه سر تميزه على سائر نظوم الأساليب الكلامية التي عرفها العرب. ففي سياق حديثه عن إعجاز القرآن الذي ارتبط بتوضيحه لعناصر الكلام يقول: "وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة: لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم. وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية

¹ - محمد زغلول سلام، أثر القرآن في تطور النقد العربي إلى آخر القرن الرابع الهجري، ص 235.

² - مصطفى مسلم، مباحث في إعجاز القرآن، دار المسلم للنشر والتوزيع، الرياض، ط2: 1996، ص 51 و 52.

الشرف والفضيلة حتى لا ترى شيئا من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظما أحسن تأليفاً وأشد تلاؤماً وتشاكلاً من نظمه"¹.

يرى الخطابي أن الكلام أنماط ثلاثة: "فمنها البليغ الرصين، ومنها الفصيح القريب السهل، ومنها الجائز الطلق الرسل"²، وفي إطار ذلك يقول موضحاً: "فالقسم الأول أعلى طبقات الكلام وأرفعه، والقسم الثاني أوسطه وأقصده، والقسم الثالث أدناه وأقربه، فحازت بلاغات القرآن من كل قسم من هذه الأقسام حصّة، وأخذت من كل نوع من أنواعها شعبة. فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع بين صفتي الفخامة والعدوبة، وهما على الإنفراد في نوعهما كالمضادين. لأن العدوبة نتاج السهولة. والجزالة والمتانة في الكلام تعالجان نوعاً من العورة، فكان اجتماع الأمرين في نظمه مع بُؤ كل واحد منهما عن الآخر فضيلة خص بها القرآن"³، فرغم ما قدمه الرماني في حديثه عن طبقات البلاغة التي استحوذ فيها النص القرآني على أعلى الطبقات، إلا أن الخطابي استطاع من خلال هذا التصور أن يقدم طرحاً جديداً، تمثل في قدرة النظم القرآني على الإلمام بجميع تلك الأنماط بالإضافة إلى سميّ الفخامة والعدوبة.

هـ - إعجاز القرآن عند أبو بكر بن الطيب الباقلاني:

انشغل أبو بكر الباقلاني (403 هـ) في النصف الأخير من القرن الرابع بقضية الإعجاز القرآني، من خلال دراساته التي تولى فيها الدفاع عن العقيدة الإسلامية بصفة عامة، والنص القرآني الذي أكد عظّمته وإعجازه رداً على مزاعم الملحدين وآرائهم، التي استنقصوا من خلالها أسلوب القرآن بصفة خاصة.

وقد عد الباقلاني البحث في القرآن والكشف عن أسرارهِ أسمى وأهم ما يجب البحث فيه، حيث يقول: "إن أهم ما يجب على أهل دين الله كشفه، وأولى ما يلزم بحثه، ما كان لأصل دينهم قواماً، ولقاعدة توحيدهم عماداً ونظاماً، وعلى صدق نبيهم صلى الله عليه وسلم برهانا، ولمعجزته ثبوتاً وحجة، ولا سيما أن الجهل ممدود الرواة

¹ - أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي، بيان إعجاز القرآن مطبوع ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط3: 1976، ص 27.

² - المرجع نفسه، ص 26.

³ - المرجع نفسه، ص 26.

شديد النفاق، مستول على الآفاق"¹، ويبدو أن طرحه قائم حول أهمية الدين وهو ما يتعلق بالنص القرآني، باعتباره المرشد الهادي إلى القوام القاضي على الجهل.

ولعل أهم كتبه التي تلخص لنا آراءه حول قضية الإعجاز القرآني، كتاب: إعجاز القرآن، الذي تعرض فيه لتفنيد الصرفة، مؤكداً أن القرآن معجز بوجوه ثلاثة هي:²

أ - الإخبار عن الغيوب.

ب - الإنباء عن قصص الأولين وسر المتقدمين.

ج - براعة النظم والتأليف والرصف.

لقد اهتم الباقلاني بالنظم القرآني الذي يرى أنه "... مخالف للمألوف من كلام العرب، وله أسلوب يتميز به يباين أساليبهم في الكلام الموزون والمتنثر بضربيه من السجع والترسل، وهو أسلوب فريد، تطرد فيه البلاغة اطرادا يشمل جميع آياته دون تفاوت .. مقررًا أن الذكر الحكيم لا تتفاوت فيه آية ولا تتباين، بخلاف كلام الفصحاء، فإنه يتفاوت ويتخالف من موضوع إلى موضوع، ومن أجل ذلك كان النقاد يلاحظون على الشعراء تقصيرهم في بعض الموضوعات وأنهم يحسنون في بعضها دون بعض"³، فالمقارنة التي أجراها بين النص القرآني والنصوص الأدبية العربية الأخرى، لاسيما منها الشعر (أجود أشعار العرب كشعر امرئ القيس مثلاً)، جعلته يؤكد على جودة النظم القرآني وإعجازه البلاغي.

و - إعجاز القرآن عند القاضي عبد الجبار:

عمل القاضي عبد الجبار المعتزلي (ت 415 هـ) على استقراء آراء السابقين حول وجوه الإعجاز، وقد تأثر برأي أستاذه أبو هاشم الجبائي الذي يعتقد أن الكلام "إنما يكون فصيحاً بجزالة لفظه وحسن معناه، ولا بد من اعتبار الأمرين، لأنه لو كان جزل اللفظ ركيك المعنى لم يعد فصيحاً، وليس فصاحة الكلام بأن يكون له نظم"⁴ مخصوص، لأن الخطيب عندهم قد يكون أفصح من الشاعر والنظم مختلف إذا أريد بالنظم اختلاف الطريقة، وقد

¹ - أبو بكر الباقلاني، إعجاز القرآن، تحقيق: أحمد صقر، دار المعارف، مصر، ط: 5، د/ت نشر، ص 3 و 4.

² - ينظر: مصطفى مسلم، مباحث في إعجاز القرآن، ص 77.

³ - شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص 109.

⁴ - إن "النظم في هذا النص معناه الجنس الأدبي أو الشكل الأدبي كالحظابة، والشعر، ولما كان غرض أبي هاشم استنباط القوانين العامة التي تبين في كل نظم وكل طريقة. أي القوانين التي يمكن أن تنطبق على مختلف أنحاس الكلام وأشكاله رفض أن تكون الطريقة المخصوصة في الكتابة معيار للبلاغة". حمادي الصمود، التفكير البلاغي عند علماء العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس. (مشروع قراءة)، ص 492.

يكون واحدا، وتقع المزية في الفصاحة...¹؛ ومما لا شك فيه أن ذلك ما قاده إلى القول بالفصاحة كوجه للإعجاز؛ إذ لا يكفي النظم - حسب رأي أستاذه - لتفسير إعجازية النص الديني، حيث يقول: "لا يصح عندنا أن يكون اختصاص القرآن بطريقة من النظم دون الفصاحة التي هي جزالة اللفظ، وحسن المعنى، ومتى قال القائل: وإني وإن اعتبرت طريقة النظم، فلا بد من اعتبار المزية في الفصاحة. فقد دعا إلى ما أردناه؛ لأنه أوجب اعتبار ذلك، فمتى حصل مثل تلك المزية في أي نظم كان، فقد صحت المباينة"²، تجمع الفصاحة عند القاضي عبد الجبار كما هو واضح من كلامه بين اللفظ والمعنى، وهي بذلك تتقارب كثيرا مع مفهوم النظم كما ورد عند علماء البلاغة قبله في تفسيرهم لإعجاز القرآن.

ز - إعجاز القرآن عند عبد القاهر الجرجاني:

استدل عبد القاهر الجرجاني على إعجازية النص القرآني بطريقة عقلية دقيقة استطاع من خلالها تعليل الإعجاز، وتفسير حقيقة ذلك التحدي الضمني أو الصريح الذي تضمنه القرآن الكريم، معتمدا في ذلك على ما استنبطه من قراءاته التحليلية لآيات النص الديني، لاسيما منها آيات التحدي الثلاث. إذ نجده في سياق تفسير ذلك يقول: "يقال لهم إنكم تتلون قول الله تعالى: "قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله"³، وقوله عز وجل: "قل فأتوا بعشر سور مثله"⁴، وقوله: "بسورة من مثله"⁵، ثم يقول: "فقولوا الآن: أيجوز أن يكون تعالى قد أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يتحدى العرب إلى أن يعارضوا القرآن بمثله؟ ولا بد من "لا" لأنهم إن قالوا: يجوز، أبطلوا التحدي من حيث إن التحدي كما لا يخفى، مطالبة بأن يأتوا بكلام على وصف، ولا تصح المطالبة بالإتيان به على وصف من غير أن يكون ذلك الوصف معلوما للمطالب. ويبتل بذلك دعوى الإعجاز أيضا"⁷، فقد أراد الجرجاني إثبات حقيقة أن القرآن الكريم لم يتحدى العرب بما جهلوه ولم تدركه عقولهم، وإنما تحداهم بما عرفوه بل وبرعوا في مجاله، أي بكلامهم البليغ الذي شكل نمطية تفكيرهم. وقد تمكن من خلال التحليلات التحريضية الدقيقة التي أجراها على بنية النص الديني، من

¹ - القاضي عبد الجبار، المغني في أبواب التوحيد والعدل، تحقيق: أمين الخولي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، سلسلة تراثنا الجزء السادس عشر، (إعجاز القرآن)، ط: 1960، ص 197.

² - المرجع نفسه، ص 198.

³ - سورة الإسراء، الآية: 88.

⁴ - سورة هود، الآية: 13.

⁵ - سورة البقرة الآية: 23.

⁶ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص 369.

⁷ - المصدر نفسه.

الوصول إلى نتيجة مفادها: أن أهم دليل من دلائل الإعجاز إنما هو دليل بلاغي، محوره الأساس النظم الذي اختص به القرآن الكريم وباين من خلاله مختلف أساليب أجناس التعبير، التي عرفها وتداولها اللسان العربي.

لقد نفى - في إطار - ذلك أن يكون للفظ وحده أو المعنى مقياسا لجودة النص القرآني، ودليلا على إعجازه، إذ المزية فيما ينتج عن تفاعل هذين الجزأين وتلاحمهما، أي في النظم الذي يحوي أقوى الألفاظ وأصح المعاني، يقول عبد القاهر الجرجاني: "ثم إن هذا الوصف الذي ينبغي أن يكون وصفا قد تجدد بالقرآن، وأمر لم يوجد في غيره ولم يعرف قبل نزوله. وإذا كان كذلك، فقد وجب أن يعلم أنه لا يجوز أن يكون في الكلم المفردة، لأن تقدير كونه فيها يؤدي إلى الجمال ... ولا يجوز أن يكون في معاني الكلم المفردة التي هي لها بوضع اللغة، لأنه يؤدي إلى أن يكون قد تجدد في معنى الحمد، والرب، ومعنى العالمين، والمملك، واليوم، والدين، وهكذا؛ وصف لم يكن قبل نزول القرآن"¹، وهذا النفي ينطبق كذلك على حروفه؛ إذ لا يمكن البتة - حسب رأيه - أن تكون من وجوه إعجازه، فهو يذهب إلى أن النظم أساس ذلك.

ومن المفيد الإشارة هنا إلى أن مصطلح النظم عند عبد القاهر، لا يقف عند حدود النص القرآني كدليل لإعجازه ومقياسا لبلاغته، بل يتعدى ذلك ليكون مقياسا شاملا لبلاغة الكلام وفصاحته بصفة عامة؛ يجري على النص القرآني كما يجري على النصوص الأدبية الشعرية منها والنثرية، وذلك عبر مراتب ودرجات يتباين من خلالها النص القرآني - الذي يستحوذ على أعلى مرتبة - عن النصوص البشرية، كما تتباين هذه الأخيرة فيما بينها حيث تكون من الأدنى إلى الأعلى؛ من الضعيف إلى الحسن إلى الأحسن.

ركز عبد القاهر الجرجاني على تقييم الأعمال البلاغية السابقة له، ساعيا نحو تقويم البحث البلاغي العربي وتنظيمه وصفا وتفسيرا، وقد قاده ذلك إلى تجاوز مختلف الآراء التي أدرك عدم نجاعتها وضعف حججيتها؛ ولعل أهمها على الإطلاق ما خلفته قضية الإعجاز القرآني من جدليات مختلفة كجدلية اللفظ والمعنى. التي ظل البحث البلاغي في إطارها يدور بين تيار اللفظ وتيار المعنى. فقد أحدث عبد القاهر الجرجاني من خلال ما قام به "نقلة معرفية نوعية"، تجلت نتيجتها في نظرية النظم.

¹ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 370.

خامسا - قضية اللفظ والمعنى عند عبد القاهر الجرجاني:

ناقش عبد القاهر هذه القضية محاولا الفصل في جنس المزية وأمرها، وهو ما ارتبط ببحثه في موضوع البلاغة وقد جاء حديثه عن ذلك موزعا¹ على جانبين:

أ - **تبيين جنس المزية:** أكد من خلال ذلك أن المعنى هو ما يشكل المادة الأساس، الذي تقوم عليها الفصاحة والبلاغة والبيان والبراعة، التي يمكن أن يتميز بها الكلام، ولذلك فهو جنس المزية.

ب - **تبيين أمر المزية:** حيث تطرق لتحديد الأمور أو الظواهر اللغوية البلاغية التي ينبغي الاعتماد عليها لتحقيق بلاغة الكلام، وقد اعتمد في ذلك على تقسيم الكلام الفصيح أو البليغ إلى أقسام. وهذا ما سنوضحه في الفصل الموالي.

بين عبد القاهر وفق رؤية بلاغية واضحة أهمية اللفظ والمعنى، في عملية نظم الخطاب البلاغي نظما ناجحا، وقد كان حديثه عن اللفظ في مقابل المعنى مرتبطا بآراء السابقين، فكان عمله بين تفنيد التوجهات الخاطئة ومحاولة تبيين التصور الصحيح. وقد حاولنا توضيح مناقشته لتلك القضية من خلال النقطتين الآتيتين:

أ - اللفظ بمعنى الكلمة المفردة في مقابل المعنى.

ب - اللفظ بمعنى التصوير الفني البلاغي في مقابل المعنى باعتباره مضمونا للخطاب.

أ - اللفظ بمعنى الكلمة المفردة في مقابل المعنى:

أولى بعض علماء البلاغة عناية خاصة للفظ المفرد؛ حيث جعلوه مقياس ومدار الفصاحة وهو ما شكل مبدأهم في تقييم النصوص البلاغية الإبداعية، التي كانت بين النص الديني القرآني من خلال البحث في إعجازه والنصوص البشرية (الشعرية منها والنثرية)، وقد قادهم هذا التصور للابتعاد عن العناية بالجانب التركيبي الذي يتعلق ببلاغة نسق النص ككل، الذي يمثله مصطلح النظم، وبذلك "ضاق مجال البحث البلاغي حتى كاد ينحصر في دائرة الألفاظ المفردة؛ حيث كثر الحديث عن فصاحة اللفظ وتلاؤم حروفه في التأليف، وغير ذلك مما يحكم على بلاغة اللفظ المفرد."² وهذا ما نجد على سبيل المثال - لا الحصر - عند ابن سنان الخفاجي، الذي يكاد يشكل اللفظ المفرد المحور الرئيس لبحوثه البلاغية.

¹ - ينظر: للوقوف على ذلك: كتاب دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص 112.

² - جميل عبد المجيد، بلاغة النص "مدخل نظري" و "دراسة تطبيقية"، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، كلية الآداب، جامعة جلوان، د/ بلد نشر، ط: 1999، ص 16.

لقد فرق ابن سنان بين الفصاحة والبلاغة جاعلا من اللفظ المفرد موضوعا للفصاحة، على عكس البلاغة التي يجمع موضوعها - حسب رأيه - بين اللفظ والمعنى، كما جعل للفصاحة شروطا حيث يقول: "إن الفصاحة، على ما قدمناه، نعت للألفاظ إذا وجدت على شروط عدة ... وتلك الشروط تنقسم قسمين: الأول منها يوجد في اللفظة الواحدة على انفرادها، من غير أن ينضم إليها شيء من الأشياء. والقسم الثاني يوجد في الألفاظ المنظومة بعضها ببعض"¹، ويبدو أن الانشغال بمقياس الفصاحة من منطلق فصلها عن موضوع البلاغة، هو ما قام عليه هذا التصور.

لم يلق هذا التصور رأيا إيجابيا عند عبد القاهر إذ ركز على تفنيده وتأكيد غلط من قال به، فلا يجب البتة - حسب رأيه - اعتماد اللفظ المفرد معيار المزية والتفاضل، ولذلك بين "أن المزية التي من أجلها نصف اللفظ بأنه فصيح، مزية تحدث من بعد أن لا تكون، وتظهر في الكلم من بعد أن يدخلها النظم"²، فأهم ما ينبغي معرفته حسب الطرح الجرجاني هو أن الانشغال باللفظ المفرد، والاعتماد عليه كأساس لفصاحة الكلام وبلاغته رأي خاطئ. ولذلك عمل على تقويضه، وقد انطلق في ذلك من مبدأ عدم الفصل بين الفصاحة والبلاغة. إذ يُكوّنان مفهوما واحدا يتعلق بالخطاب (الكلام المركب)، حيث يتميز بجودة النظم وهو النظم الفني البلاغي، الذي يقوم على مكونات تساهم في تشكيل قوة الأثر البلاغي.

يمثل المعنى عند الجرجاني جنس المزية وعلى هذا الأساس فإن "الفصاحة والبلاغة وسائر ما يجري في طريقهما، أوصاف راجعة إلى المعاني وإلى ما يدل عليه بالألفاظ دون الألفاظ أنفسها"³، فمن الخطأ التسليم بمزية الألفاظ في ذاتها وجعلها مدار الحكم؛ وذلك ما يؤكد النظام الفكري للغة - وهذا ما انطلق منه الجرجاني - إذ يشرف المعنى على شكل الخطاب الظاهري، الذي يتم على أساسه الحكم بالبلاغة، "فإذا رأيت البصير بجواهر الكلام يستحسن شعرا أو يستجيد نثرا، ثم يجعل الثناء عليه من حيث اللفظ فيقول حلو رشيق، وحسن أنيق، وعذب سائغ، وخلوب رائع، فإنه لا ينبئ عن أحوال ترجع إلى أجراس الحروف وإلى ظاهر الوضع اللغوي بل إلى أمر يقع من المرء في فؤاده، وفضل يقتدحه العقل من زناده"⁴، ويعني ذلك أن صفة البلاغة التي يمكن أن تميز

¹ - ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: 1982، ص 63.

² - ينظر: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص 381.

³ - المصدر نفسه، ص 269.

⁴ - ينظر: عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، د/ ت نشر، ص 5 و 6.

خطابا ما، فيكون الحكم بالحسن والمزية، هي صفة لصيقة بالمعنى المنظوم، فهو أساس البلاغة الروحية - في نظرية النظم - التي تقوم على تسليم النفس وإقرار العقل.

يستند مبدأ أسبقية المعنى على اللفظ على تفسير علمي واضح؛ نقف على ذلك من خلال حديثه عن النظم ومقتضياته؛ إذ المقصود ببناء الخطاب نظمه. ويتمثل هذا الجانب في علاقات الوحدات اللغوية وترابط بعضها ببعض، وهو ما يتأسس على ثنائية لفظ - معنى، ولذلك عني الجرجاني بتبيين ماهية النظم؛ وهي - في الواقع - ماهية تتعلق قبل أي شيء بكيفية استعمال اللفظ والمعنى. وحسب ما أقره فإن المعنى هو الأساس الأول الذي يتعلق به النظم؛ ذلك أن هذا الأخير عملية نفسية (ذهنية) أولا؛ إذ يحدث النظم التجريدي للمعاني في الذهن قبل نظم الألفاظ في السياق اللغوي، فهو "صنعة يستعان عليها بالفكر لا محالة، وإذا كان مما يستعان عليه بالفكرة ويستخرج بالروية فينبغي أن ينظر في الفكر بما تلبس؟ أ بالمعاني أم بالألفاظ؟ فبأي شيء وجدته الذي تلبس به الفكر من بين المعاني والألفاظ فهو الذي تحدث فيه الصنعة، وتقع فيه الصياغة والنظم والتصوير"¹، وهنا يجب المنطق، وذلك بالنظر إلى كيفية اشتغال تفكيرنا في حياتنا اليومية، بمعاملاتها التعبيرية اللغوية العادية والأدبية، بأن المعاني أساس ذلك.

ب - اللفظ بمعنى التصوير الفني البلاغي في مقابل المعنى باعتباره مضمونا للخطاب:

وُظف مصطلح اللفظ بمعنى التصوير أو التشكيل الفني البلاغي للخطاب، من قبل مجموعة كثيرة من النقاد والبلاغيين قبل عبد القاهر، ولعل أهم ما يلاحظه القارئ المتبع لقضية اللفظ والمعنى في تراثنا البلاغي، هو أن التركيز على تأكيد أهمية اللفظ باعتباره أساس العملية البلاغية الإبداعية، قد برز بقوة عند بعض البلاغيين دون البعض الآخر منهم الذين ذهبوا خلاف ذلك؛ حيث جعلوا المعنى - وذلك بالنظر إلى شرفه - المكون الرئيس لبلاغة الخطاب وإبداعيته. وقد تم تبين ما ذهب إليه الاتجاه الأول، من خلال مجموعة من البلاغيين أبرزهم:

1 - الجاحظ:

اهتم الجاحظ كبلاغي وناقد عربي بقضية اللفظ والمعنى التي أخذت قسطا كبيرا من حديث مؤلفاته، وقد عُد الجاحظ رائدا لمدرسة اللفظ، والسبب في ذلك عند بعض الباحثين يرجع إلى ما ذكره الجاحظ في مؤلفه الحيوان "أن أبا عمرو الشيباني كان يستحسن قول الشاعر:

¹ - ينظر: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص 103.

لاتحسبن الموت موت البلى وإنما الموت سؤال الرجال
كلاهما موت لكن ذا أفضح من ذاك لذل السؤال

وقد بلغ من استجاداته لهُذين البيتين أنه وهو في المسجد يوم الجمعة كلف رجلاً أحضر له دواة وقرطاساً حتى كتبها له¹، وكان إعجاب أبي عمرو بالبيتين قائماً على استحسان ما تضمناه من المعنى، أما الجاحظ فقد رفضهما، ورأى أن صاحبهما لا يقول الشعر أبداً، و"لا عبرة لاستحسان أبي عمرو لمعانيهما، لأن المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العربي والعجمي والبدوي والقروي والمدني، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخفيف اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء، وفي صحة الطبع وجودة السبك، فإنما الشعر صناعة وضرب من النسيج وجنس من التصوير"²، فلكي تكون لرسالة الملقى وقعا وصدى في نفس المتلقي، يجب عليه حسب مذهب الجاحظ أن يركز على الصياغة التصويرية الجيدة، لأن القيمة تكمن في سبك ألفاظ العبارة ونظمها نظماً جيداً، هذا بالإضافة إلى التفنن في تجويد وزخرفة أسلوبه، زخرفة جديدة يخرق بها من الأساليب ما هو متداول وشائع بين الجميع، وهو ما يوحى حينها بقدرته ويجعله مختلفاً عن غيره.

وفي خضم حديثنا عن موقف الجاحظ من اللفظ والمعنى، تجدر الإشارة إلى أن موقفه قد خلف وراءه تبايناً بين آراء النقاد والباحثين قديمهم وحديثهم؛ حيث يذهب بعضهم إلى القول: إن الجاحظ قد اهتم باللفظ وأهمّل المعنى، في حين يرى البعض الآخر منهم أن الجاحظ ورغم أنه اهتم باللفظ، إلا أنه لم يهمل المعنى، وفي ما نقدمه من الآراء التالية ما يوضح ذلك.

– رأي حمادي الصمود:

لم ينكر حمادي صمود شدة تعلق الجاحظ بالصياغة والشكل في الخلق الفني، إذ بالإضافة لنصه المشهور الذي يوضح ذلك يجد آراء أخرى؛ فاستعصاء الشعر على الترجمة يرجع في تصور الجاحظ إلى بنيته، لأن الشعر "متى حوّل تقطع نظمه وبطل وزنه وذهب حسنه ويسقط موضع التعجب"³، أي موضع الإبداع الفني الذي يولد جمالية التلقي.

¹ – أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، مجلد 3، ص 132.

² – المرجع نفسه.

³ – ينظر: حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، ص 273.

لقد شبه الجاحظ المعاني بالجواري والألفاظ بالمعارض، حيث يقول: "أندركم حسن الألفاظ، وحلاوة مخارج الكلام، فإن المعنى إذا اكتسى لفظا حسنا أعاره البليغ مخرجا سهلا ومنحه المتكلم دلا متعشقا صار في قلبك أحلى ولصدرك أملاً. والمعاني إذا كسبت الألفاظ الكريمة وألبست الأوصاف الرفيعة. تحولت في العيون عن مقادير صورها. ورأيت على حقائق أقدارها، بقدر ما زينت وحسب ما زخرفت. فقد صارت الألفاظ في معاني المعارض، وصارت المعاني في معنى الجواري"¹، وقد تم فهم هذا القول من قبل البلاغيين اللذين جاؤوا بعده، أن الأدب قائم على الزينة التي تضيفها إلى المعنى.

يرى حمادي صمود أن موقف الجاحظ من قضية اللفظ والمعنى، "أبعد غورا وأكثر تشعبا إذ يمكن - حسب رأيه - مقابلة النصوص التي ذكرها بنصوص أخرى تعلّق صاحبها بالمعنى لا يقل عن تعلّقه باللفظ، فنجدّه يؤاخذ الأدباء والخطباء الذين يركبون استكراه المعاني، ويجرونها إلى لفظ يهيئوا رسمه قبل أن يهيئوا المعنى"². والغريب في موقف حمادي صمود أنه وبالرغم مما قدمه فإنه لم يقصد نفي تفضيل الجاحظ للفظ على المعنى، لأن ذلك - حسب رأيه - "منسجم مع أصول نظرية الجاحظ البلاغية ومواقفه من بعض المسائل الكبرى كإعجاز القرآن"³، حيث عد النظم مدار الإعجاز وهذا ما يعني وعيه بأهمية اللفظ والمعنى معا.

ويعتقد حمادي صمود أن لموقف الجاحظ "دافعا سياسيا يدعو إلى التركيز على سلطة الكلمة، وفي تأكيده أن المعاني يعرفها العربي والعجمي والقروي والبدوي إشارة ضمنية إلى أن الارتباط بالمعنى يقتضي الإقرار بتساوي حظوظ الأجناس المتعايشة في دار الإسلام على مختلف طبقاتها الاجتماعية في البلاغة. بينما تتفاوت تلك الحظوظ بالتركيز على جانب الشكل والصياغة"⁴، فالتحقيق الصوري للمعنى؛ من خلال صياغته صياغة دالة معبرة تخرج عن نطاق النمطي المتداول، فتكون جديدة تتميز بالفردة، معيار اختلاف درجات المتكلمين حيث يتّبع كل متكلم أسلوبا خاصا. ومعنى ذلك أن المعنى واحد لدى الجميع فما يختلف بينهم هو وجه الدلالة عليه وذلك ما يحيل على الصياغة.

¹ - أبو عثمان عمرو بن الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام هارون، مجلد: 2، ص 254.

² - حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، ص 274.

³ - المرجع نفسه.

⁴ - المرجع نفسه، ص 275.

- رأي إحسان عباس:

فهم إحسان عباس عبارة (المعاني مطروحة) في الطريق "أن الجاحظ ممن يقدمون ويفضلون اللفظ على المعنى؛ وقد فسر هذا الاتجاه الذي انتحاه الجاحظ، على الرغم من اعترافه بأن الجاحظ لم يكن من الشكليين في التطبيق بأسباب منها: أن الجاحظ يرى أن إعجاز القرآن لا يفسر إلا عن طريق النظم، ومن آمن بأن النظم حقيق برفع البيان إلى مستوى الإعجاز لم يعد قادرا على أن يتبنى نظرية تقدم المعنى على اللفظ، ومنها أن عصر الجاحظ كان يشهد بوادر حملة عنيفة يقوم بها النقاد لبيان السرقة في المعاني بين الشعراء، ومحاولة لرد هذا التيار أقر الجاحظ بأن الأفضلية للشكل لأن المعاني قدر مشترك بين الجميع"¹، فهو ما أراد من خلاله نفي القول بوقوع السرقة في المعاني، أما الشكل الذي يعد أساس التعبير الخاص فعكس ذلك؛ إذ هو ما يمكن أن تقع فيه السرقة بين المبدعين.

إذن فرغم أن الجاحظ كان ينح منحاً لفظياً، إلا أنه لم يهمل المعنى كما اعتقد بعض الباحثين، وكثيرة هي السياقات التي توضح أن نظرية الجاحظ البلاغية اهتمت باللفظ كما اهتمت بالمعنى، إذ يستحيل أن نتوقع من بلاغي مثل الجاحظ أن يغفل بأن البلاغة تقوم على اللفظ والمعنى، فـ "قد أشار كثيراً إلى المعنى الشريف، واللفظ الشريف، وإلى أن الأثر الجيد يتم بهما معا ومن ذلك قوله: أن المتكلم لا يكون بليغا حتى يعطي اللفظ حقه من البيان، ويحقق حظه من المعنى، ويضعها جميعها مواضعها"².

والقارئ لبيان الجاحظ يجد تعريفات عديدة للبلاغة، غير أن الجاحظ يستحسن هذا التعريف: "وقال بعضهم: هو أحسن ما اجتبيناه ودوناه ... لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة، حتى يسابق معناه لفظه، ولفظه معناه، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك"³. وحقيقة أن الجاحظ قد فضل اللفظ على المعنى، تؤول إلى أن الصياغة التي تخرج المعنى في صياغة مسبوكه سبكا جيدا، وصورة فنية جميلة هي وحدها القادرة على قوة الأداء وتحقيق الأغراض من قبيل: الإقناع، والتأثير الفني البلاغي، والفهم والإفهام.

¹ - ينظر: إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري، دار الثقافة، بيروت - لبنان، ط4: 1983، ص 98 و 99.

² - علي محمد حسن عمري، قضية اللفظ والمعنى وأثرها في تدوين البلاغة العربية (إلى عهد السكاكي 555 - 625 هـ)، أميرة للطباعة، ط1: 1999، ص 157.

³ - أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، مجلد: 1، ص 132.

2 - قدامة بن جعفر:

تطرق قدامة بن جعفر (ت 337 هـ) للحديث عن قضية اللفظ والمعنى، حديثاً أولى فيه اهتماماً كبيراً للألفاظ، وهو ما دفعه إلى الاعتقاد بأن "أحسن البلاغة: الترصيع والسجع، واتساق البناء، واعتدال الوزن، واشتقاق لفظ من لفظ، وعكس ما نظم من بناء، وتلخيص العبارة بألفاظ مستعارة، وإيراد الإقسام موفورة بالتمام، وتصحيح المقابلة بمعان متعادلة، وصحة التقسيم لإتقان المنظوم، وتلخيص الأوصاف بنفي الخلاف، والمبالغة في الوصف بتكرير الوصف، وتكافؤ المعاني في المقابلة والتوازي وإرداف اللواحق وتمثيل المعاني"¹، وفي كلامه هذا ما يدل دلالة صريحة، على أنه ممن يجعلون البلاغة مقصورة على الشكل والصياغة دون المعنى.

يعد المعنى لديه بمثابة المادة الخام، التي يمكن للمبدع تشكيلها بأشكال مختلفة، إذ نجده في هذا الصدد يقول: "المعاني كلها معرضة للشاعر، وله أن يتكلم منها فيما أحب وأثر، من غير أن يحظر عليه معنى يروم الكلام فيه، إذا كانت المعاني للشعر بمنزلة المادة الموضوعية، والشعر فيها كالصورة، كما يوجد في كل صناعة، من أنه لا بد فيها من شيء موضوع يقبل تأثير الصور منها، مثل الخشب للنجارة، والفضة للصياغة وعلى الشاعر إذ شرع في أي معنى - كان - من الرفعة والضعفة، والرفق والنزاهة، والبذخ والقناعة، والمدح، وغير ذلك من المعاني الحميدة أو الذميمة، أن يتوخى البلوغ من التجويد في ذلك الغاية المطلوبة"². وكما أن البلاغة عند قدامة مقصورة على الصياغة، فإن ميزان نقد الشعر عنده أيضاً يتمثل في شكله لا في معانيه التي يحملها.

3- أبو هلال العسكري:

يأخذنا الحديث عن قضية اللفظ والمعنى عند أبي هلال العسكري، إلى الحديث وبالضرورة عن جهوده التي قدمها خدمة للبلاغة العربية، خدمة لطالما أكدت على أهمية البلاغة وسعت لتنظيمها؛ وذلك بضبط فواعدها وتحديد أدواتها الكفيلة بجعل المتكلم قادراً على امتلاكها، فـ "فلم تكن البلاغة حتى منتصف القرن الرابع قد استقلت كعلم قائم بذاته، ولم تكن ظواهرها قد خضعت للتقسيم والتعقيد، على أنها أصبحت أكثر قرباً من مفهوم الصناعة والحرفة، وأصبح هناك ميل لتحديد أدواتها وقواعدها، مما دفع أبا هلال العسكري ليضع مؤلفه

¹ - قدامة بن جعفر، جواهر الألفاظ، تحقيق: محمد الديب عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر، ط1: 1932، ص 3.

² - قدامة بن جعفر، نقد الشعر، تحقيق: عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، د/ت نشر، ص 55 و 56.

(الصناعتين: الكتابة والشعر) مؤكداً أن البلاغة والحرفة تحتاج إلى التأمل والدرس حتى لا يمزج الصنف بالكدر، والغرر بالعرر¹، فقد أكد على أهمية البلاغة وهو ممن نبه إلى ضرورة تعليمها باعتبارها أحق العلوم بالتعلم.

كان للفصاحة كذلك نصيب من اهتمام العسكري وقد فصل بينها وبين البلاغة، إذ يرى أن الفصاحة هي تمام آلة البيان، وجعلها مقصورة على اللفظ دون المعنى، أما البلاغة فهي عنده "كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع فتمكنه في نفسه كتمكنه في نفسه مع صورة مقبولة ومعرض حسن"²، ورغم أن العسكري جعل المعنى ركناً هاماً من أركان البلاغة لكنه لم يكن جوهرها؛ إذ إن جوهر البلاغة في اعتقاده يكمن في الصورة المقبولة والمعرض الحسن، فلطالما أكد على أهميتها باعتبارها المكون الرئيس في البلاغة، إذ في خضم ذلك يقول: "إنما جعلنا حسن المعرض، وقبول الصورة شرطاً في البلاغة لأن الكلام إذا كانت عبارته رثة ومعرضة خلقاً، لم يُسم بليغاً، وإن كان مفهوم المعنى مكشوف المغزى"³، فلا بد أن يتصف الكلام بالإضافة إلى الوضوح والبيان بالجمالية والفنية وهو ما تقدمه الصورة.

تمثل الصورة أو الشكل الذي يظهر فيه المعاني مدار جودة الكلام وبلاغته عند أبي هلال العسكري، فقد سلك مسلك الجاحظ إلى درجة جعلته يردد نصه المشهور، حيث يقول: "وليس الشأن في إيراد المعاني... لأن المعاني يعرفها العربي والعجمي والقروي والبدوي... وإنما هو في جودة اللفظ وصفائه وحسنه وبهائه، ونزاهته ونقائه، وكثرة طلاوته ومائه، مع صحة السبك والتركيب والخلو من أود النظم والتأليف"⁴. فالعسكري ممن يلحون على ضرورة انتقاء الألفاظ القوية المعبرة، وعلى العناية بالصورة، فالعمل على تجويد العبارات وزخرفة الأساليب هو وحده الكفيل على إيصال المعنى إلى قلب السامع والتأثير فيه، أين تتوفر البلاغة.

لم يلق الاعتداد باللفظ رأياً إيجابياً عند بعض البلاغيين والنقاد، إذ رأوا بأن الأولوية للمعنى، ومن بين ممثلي هذا الرأي نجد أبو حيان التوحيدي (ت 414 هـ)؛ حيث عاب على بعض الكتاب احتفالهم باللفظ وإهمالهم المعنى، فقد لاحظ على ذي الكفایتین بن العمید بأنه "نزر المعاني، شديد الكلف باللفظ"⁵، كما أخذ على صاحب بن عباد تكلفه في تفضيل اللفظ، حيث ذكر أن من عيوبه في الكتابة "الذهاب مع اللفظ دون

¹ - ابتسام أحمد حمدان، الأسس الجمالية للإيقاع الجمالي في العصر العباسي، دار القلم العربي، ط1: 1997، ص 63 و 64.

² - أبو هلال العسكري، الصناعتين، تحقيق: مفيد قمحية، ص 19.

³ - المرجع نفسه.

⁴ - المرجع نفسه، ص 72.

⁵ - أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، ج1، قدم له وشرحه ووضع فهرسه: أحمد أمين وأحمد الزين، دار مكتبة الحياة، بيروت - لبنان، د/ ت نشر، ص 66.

المعنى"¹، وقد جعل أبو حيان المعنى الركن الأول الذي تقوم عليه العملية الإبداعية البلاغية؛ حيث يقول: "يجب أن يكون الغرض الأول في صحة المعنى، والغرض الثاني في تخير اللفظ، والغرض الثالث في تسهيل النظم، وحلاوة التأليف، واجتلاب الرونق"²، يوضح ذلك أن تركيز التوحيدي على تأكيد أهمية المعنى لا يعني إهماله للفظ، فقد بين حاجة الأول للثاني والعكس، إذ يشكلان معا أساس النظم الجيد الذي يتغني به صاحبه قوة التأثير والإمتاع.

يُقَدَّر الكلام بلفظه ومعناه معا وذلك ما أكدّه ابن رشيق القيرواني (ت 463 هـ) وفق تصور دقيق، بين فيه أن "اللفظ جسم، وروحه المعنى، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم، يضعف بضعفه، ويقوى بقوته، فإذا سلم المعنى واختل بعض اللفظ كان نقصا للشعر وهجنته عليه، كما يعرض لبعض الأجسام من العرج والشلل والعمور وما أشبه ذلك، من غير أن تذهب الروح، وكذلك إن ضعف المعنى واختل بعضه كان للفظ من ذلك أوفر حظ، كالذي يعرض للأجسام من المرض بمرض الأرواح، ولا تجد معنى يختل إلا من جهة اللفظ، وجريه فيه على غير الواجب... فإن اختل المعنى دله وفسد، بقي اللفظ مواتا لا فائدة فيه... وكذلك إن اختل اللفظ جملة وتلاشى لم يصح له"³، فالتركيز والاهتمام باللفظ دون المعنى أو العكس، يعني أن الكلام الأدبي البليغ شعرا كان أم نثرا، لن يتمكن بذلك منه من أراد الوصول إليه، بل ويستحيل عليه ذلك. وذلك ما فصل فيه عبد القاهر الجرجاني فقدم تصورا بلاغيا علميا تمثله نظرية النظم.

توضح المتابعة الدقيقة - للدلائل والأسرار - أن ورود مفهوم اللفظ عند عبد القاهر بمعنى التشكيل الفني

للكلام، يشمل جانبين:

- **التصوير الفني التخيلي:** وهو ما يتعلق بلطافة المعنى وفنيته، وقد ربط الجرجاني ذلك بظواهر العدول الدلالي كالاستعارة والكناية والتمثيل، وكل "ما كان فيه مجاز واتساع وعدول باللفظ عن الظاهر"⁴، مما يساهم في تفخيم الكلام وإضفاء جودته.

- **البديع:** كالتجنيس والمطابقة.

¹ - أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، ج1، قدم له وشرحه ووضع فهارسه: أحمد أمين وأحمد الزين، ص 64.

² - أبو حيان التوحيدي، أخلاق الوزيرين، حققه وعلق عليه: محمد بن تاووت الطنجي، دار صادر، بيروت، ط1: 1992 ص 135.

³ - ابن رشيق القيرواني، العمدة في صناعة الشعر ونقده، ج1، حققه وعلق عليه ووضع فهارسه: النبوي عبد الواحد شعلان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1: 2000، 124.

⁴ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 400.

أكد عبد القاهر على ضرورة العناية بجانب التشكيل اللغوي الفني الشعري للكلام، حيث يمكن إخراج المعنى متميزا خاصا، وقد جعل من أهم آليات تحقيق ذلك التصوير الفني - والبديع كذلك - باعتباره من أبرز مظاهر الإبداع؛ إذ يمكن على أساس ذلك أن تتفاوت درجات المبدعين، حيث يتميز بدوره التأثيري الفعال على المتلقي فيصنع أريجاً النفس وهزتها، وهو ما يعني التسليم والإقرار ببلاغة ما سمعه أو قرأه، ولعل ذلك ما يساهم في تحقيق (بلاغة تَبَيُّنة تذوقية)؛ تجمع بين التذوق الممتع والفهم الجيد؛ إذ يعمل على زيادة قوة المعنى، ولهذا بين "أن سبيل الكلام سبيل التصوير والصياغة، وأن سبيل المعنى الذي يعبر عنه، سبيل الشيء الذي يقع التصوير والصوغ فيه، كالفضة والذهب يصاغ منهما خاتم وسوار. فكما أن محالا إذا أردنا النظر في صوغ الخاتم وفي جودة العمل وردائه، أن ننظر إلى الفضة الحاملة لتلك الصورة، أو الذهب الذي وقع فيه العمل وتلك الصنعة، كذلك محال إذا أردنا أن نعرف مكان الفضل والمزية في الكلام أن ننظر في مجرد معناه"¹، ويبدو أن هذا الكلام موجه لطرفا العملية الإبداعية البلاغية، حيث يوصي المبدع بضرورة تصوير المعنى وصياغته صياغة فنية بديعة، كما ينبه المتلقي إلى أن يكون تعامله مع الخطاب في كليته تعاملًا دقيقًا شاملاً لا يقف فيه على المعنى فقط، بل يجب التركيز كذلك على جانبه الشكلي التركيبي وهو ما يرتبط باللفظ وكذلك بالنظم.

لم يكن رأي الجرجاني حول أهمية اللفظ نفياً لأهمية المعنى، فقد ظل متمسكاً بحقيقة دور المعنى مبيناً أن "الألفاظ خدام المعاني والمصرفة في حكمها، وأن المعاني هي المالكة سياستها، المستحقة طاعتها. فمن نصر اللفظ على المعنى كان كمن أزال الشيء عن جهته، وأحاله عن طبيعته، وذلك مظنة الاستكراه، وفيه فتح أبواب العيب، والتعرض للشين"²، فعلى المبدع التركيز في إنتاج خطابه على المعنى وهو ما يرتبط بشرفه، وسلامته وصحته، باعتبار ذلك من أهم أسس فن القول (البلاغة)؛ فقد أوضح تأكيداً وتعليلاً لذلك بأن "العارفين بجواهر الكلام لا يعرجون على هذا الفن إلا بعد الثقة بسلامة المعنى وصحته"³، فقد أراد التنبيه إلى عدم الحرص الزائد على جانب الزخرفة والتصوير مما يؤدي إلى الوقوع في الإيغال والتكلف، حيث يتسبب في البهجة الزائدة المملة والتعقيد بدل الوضوح، فالأولى أن نعتني بشرف المعنى، إذ يعد ذلك من أهم معايير البلاغة التي تجعل الخطاب بليغاً، وهذا ما يدخل في إطار البعد الأخلاقي.

¹ - ينظر: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 265.

² - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 8.

³ - المصدر نفسه، ص 9.

لقد صاحب رأي الجرجاني بخصوص المعنى رأي آخر، يتمثل في التشديد على عدم الاهتمام الزائد بالمعنى، وجعله مقياس البلاغة والبراعة على حساب اللفظ (الصياغة والتصوير)، فذلك مذهب خاطئ. وقد وضع أن ذلك سبب ذهاب الجاحظ إلى إهمال جانب المعاني والاهتمام بالصياغة والألفاظ، فقد "جعل العلم بالمعاني مشتركاً، وسوى فيه بين الخاصة والعامة"¹، و"وأما مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي، والقروي والبدوي، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ، وسهولة المخرج وصحة الطبع وكثرة الماء وجودة السبك... فقد تراه كيف أسقط أمر المعاني وأبى أن يجب لها فضل، فقال: "وهي مطروحة في الطريق" فأعلمك أن فضل الشعر بلفظه، لا بمعناه، وأنه إذا عدم الحسن في لفظه ونظمه لم يستحق هذا الاسم بالضرورة"²، ويبدو من خلال ذلك اتفاق الجرجاني مع الجاحظ فيما يتعلق بقيمة التصوير؛ باعتباره من أهم الأمور التي تُأسس لمزية الكلام إلى جانب النظم، وهو ما لوحظ على الإبداع الشعري مثلاً، إلا أن القول بأن المعاني مطروحة في الطريق شيء آخر، فالجرجاني لم يتبنى ذلك بل وركز على تبيين دور المعاني، حيث يجب أن يكون المبدع بين مطلب الفنية وشرط الوضوح الذي يرتبط بالبعد اللغوي (السلامة اللغوية)، والبعد الأخلاقي، وهذا ما يعبر عن منهجه التوفيقي.

تعد الموازنة والتوفيق بين اللفظ والنظم والمعنى الركيزة التي تقوم عليها البلاغة باعتبارها استعمالاً تبليغياً فنياً، ونشير هنا إلى أن بحث الجرجاني في اللفظ والمعنى قاده إلى طرح قضية الصدق والكذب، وهذا ما سنتطرق لتوضيحه في الفصل الثاني.

سادساً - أصول نظرية النظم:

رغم ارتباط تأسيس نظرية النظم بعبد القاهر الجرجاني، إلا أن الحديث أو الإشارة إلى النظم قد كان متداولاً قبله، فقد عرف التراث اللغوي العربي القديم على اختلاف مناحيه واتجاهات ممثليه، العديد من الآراء والمؤلفات التي أسهمت في نضج وتطور فكرة النظم، وهيأت بدرجات متفاوتة لتأسيس النظرية وبلورتها، فكانت بمثابة الأصول التي استمد منها الجرجاني واستند عليها في إرساء نظريته.

ويمكننا انطلاقاً من تقصينا لتلك الأصول واستقراءنا لها، الحديث عنها من خلال تصنيفها إلى ثلاثة أنماط:

¹ - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 9.

² - المصدر نفسه، ص 265 و 266.

- أصول كلامية.

- أصول نحوية.

- أصول بلاغية.

1 - الأصول الكلامية:

جمع البحث في قضية الإعجاز القرآني - كما سبق وأن رأينا - العديد من الدراسات البلاغية الكلامية، التي وقفت على مصطلح النظم وتحدثت عنه. وتجمع جل الدراسات على أن (الجاحظ) أول من استعمل ذلك المصطلح ووظفه في مؤلفاته.

ورد مصطلح النظم عند (الخطابي) أيضا وذلك ما يظهر من خلال توضيحه الدقيق لعناصر الكلام (لفظ، ومعنى، ورباط لهما ناظم). كذلك تطرق (القاضي عبد الجبار) إلى مفهوم النظم وهذا ما جاء في خضم التحليل المهم عن فصاحة الكلام، والأحوال التي تكون عليها الكلمة فيها، حيث يقول: "اعلم أن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام وإنما تظهر في الكلام بالضم على طريقة مخصوصة، ولا بد مع الضم أن يكون لكل كلمة صفة. وقد يجوز في هذه الصفة أن تكون بالمواضعة التي تتناول الضم، وقد تكون بالإعراب الذي له مدخل فيه، وقد تكون بالموقع. وليس لهذه الأقسام رابع، لأنه إما أن نعتبر فيه الكلمة أو حركاتها أو موقعها، ولا بد من هذا الاعتبار في كل كلمة، ولا بد من اعتبار مثله في الكلمات إذا انضم بعضها إلى بعض لأنه قد يكون لها عند الانضمام صفة، وكذلك لكيفية إعرابها وحركاتها وموقعها"¹، فقد أشار هنا إلى علاقة الوحدات اللغوية (الكلمات) إذ تتلاحم مكونة نسقا تركيبيا واحدا، وهو ما يُكوّنه المتكلم عبر آلية الضم التي ترتبط من خلاله الكلمة بكلمات أخرى وعبر ذلك يجب مراعاة الإعراب والحركات والموقع.

وترى العديد من الدراسات الحديثة أن "تحليلات القاضي عبد الجبار في هذا المجال تخطو بنا خطوة هائلة وحاسمة نحو نظرية النظم الجرجانية وذلك إلى درجة يصعب معها نسبة شيء آخر للجرجاني غير شرح الفكرة وتحليلها وإغنائها بالأمثلة."²، فما جاء به القاضي عبد الجبار الذي يرى أن الفصاحة تكون بالضم على طريقة مخصوصة، قوامها اعتبار الكلمة في ذاتها واعتبار حركاتها وإعرابها واعتبار موقعها في الكلام، إنما هو في الحقيقة ما ورد عند الجرجاني في حديثه عن النظم، لكن هذا الأخير قد طرحها بكيفية دقيقة منظمة تتصف بالعلمية.

¹ - القاضي عبد الجبار المعتزلي، المغني في أبواب التوحيد والعدل، ج 16، تح: أمين الخولي، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ط: 1960، ص 196.

² - محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي: دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية، ص 81.

ويعد كتاب (إعجاز القرآن في نظمته وتأليفه)، لأبي عبد الله محمد بن يزيد الواسطي (ت 306 هـ)، أهم الكتب التي فتحت المجال لعبد القاهر في النظم حيث قام بشرحه شرحين أحدهما صغير والآخر كبير. ويبدو أن أبرز سمة تميزت بها أغلب تلك الدراسات البلاغية (الكلامية)، هي غياب الشرح والتحليل لمصطلح النظم، إذ توقفت على مجرد الحديث عنه بالمرادف: كالتأليف، والنسج، والتركيب، والضم، من غير أن يحاول أي بلاغي إعطاء مفهوم علمي دقيق يوضح فكرة النظم.

2 - الأصول النحوية:

يتضمن التراث النحوي الكثير من الأفكار والتصورات التي تعد من أهم الأسس، التي ارتكز عليها عبد القاهر الجرجاني في بلورة تصوره للنظم وإرساء النظرية، فقد "ترددت كلمة النظم على أقلام النحاة قبل عبد القاهر بمئات السنين، وقبل أن يحيلها ... إلى نظرية بلاغية كبرى تنتسب إليه حتى عصرنا هذا"¹، كما تحمل تحليلات البعض منهم ما يشير إلى مفهوم النظم، إذ ورغم غياب مصطلح النظم فإن في دراساتهم التحليلية لبناء الجملة وتركيبها اللغوي ما يحيل على مفهومه.

نجد من بين أولئك النحاة الذين يمكننا من خلالهم توضيح ذلك: سيبويه؛ إذ في خضم كشف وتوضيح الكيفية التي يجب على المتكلم اقتفاؤها، قصد تأليف الكلام وفهم علاقة الألفاظ بعضها ببعض، أشار في كتابه تحت (باب الاستقامة من الكلام والإحالة)، إلى مفهوم النظم حيث يقول: "هذا باب من الكلام والإحالة فمنه مستقيم حسن، ومستقيم محال، ومستقيم كذب، ومستقيم قبيح، وما هو محال كذب، فأما المستقيم الحسن فقولك: سأتيك غدا ...، وأما المحال فأن تنقد أول كلامك بآخره فتقول: آتيك غدا ...، وأما المستقيم الكذب فقولك: حملت جبلا ...، وأما المستقيم القبيح كأن تضع اللفظ في غير موضعه نحو قد زيدا رأيت ...، وأما المحال الكذب فكأن تقول: سوف أشرب ماء البحر أمس"².

يتوقف حسن الكلام أو قبحه على ضرورة مراعاة المتكلم وتوجيه في تأليف كلامه للعلاقات الدلالية والنحوية، التي تقوم بين ما يستعمله من وحدات لغوية مختلفة، "وهكذا فإن سيبويه قد تحدث عن مفهوم النظم مراعيًا فيه أحوال النحو، ومعتمداً فيه على نوع من الدقة في الاستعمال حيث يذكر أن لكل استعمال معناه، وتغيير الاستعمال لابد أن ينشأ عنه تغيير المعنى وهو في ذلك لا يبتعد عن المراد من النظم في أدق ملاحظه. وإن لم

¹ - عبد القادر حسين، أثر النحاة في البحث البلاغي، ص 374.

² - سيبويه، الكتاب، ج1، تحقيق: عبد السلام هارون، ص 25.

يسميه باسمه"¹، إن مفهوم الاستقامة وما إليها من أهم الأسس المفاهيمية التي قامت عليها النظرية اللغوية عند سيبويه، وهي من أكثر المفاهيم خدمة لعملية التبليغ الفعال الذي يروم المتكلم البلوغ إليه، ولعل الوجوه التي أبان بها سيبويه عن مراتب الكلام، والتي يكون فيها المستقيم الحسن أعلى المراتب أهم ما يتشاكل ومفهوم النظم.

تحدث **السيرافي** (ت 368 هـ) كذلك في حوارهِ مع أبي بشر متى بن يونس، الذي دار حول النحو والمنطق ومكانة البلاغة بينهما، عن النظم، وهذا ما يستقرأ على توضيحه لحقيقة علم النحو إذ "ليس المقصود به حركات الإعراب فقط وإنما يتمثل في وضع الكلمات وترتيبها"²، وللسيرافي دور بارز في إضفاء مفهوم جديد لكلمة النظم، يتقارب من مفهوم النظم عند الجرجاني، إذ في حديثه عن معاني النحو يقول: "معاني النحو منقسمة بين حركات اللفظ وسكناته وبين وضع الحروف في مواضعها المقتضية لها، وبين تأليف الكلام بالتقديم والتأخير وتوحي الصواب في ذلك، وتجنب الخطأ في ذلك وإن زاغ شيء عن النعت فإنه لا يخلو أن يكون سائغا بالاستعمال النادر والتأويل البعيد أو مردودا لخروجه عن عادة القوم الجارية على فطرته"³.

لقد لوحظ مدى أهمية هذا النص ودوره الفعال في ظهور نظرية النظم، وهذا ما أكدته محمد عابد الجابري — مثلا — حيث يقول معلقا على هذا النص: "يكاد النص ... يلخص نظرية النظم الجرجانية بكاملها، بل إننا إذا نظرنا إلى هذه النظرية من منظور تفكيكي، فإننا نجد ما نعزوه من جديد لصاحبها عبد القاهر، إلا الجمع والتأليف بين آراء متناثرة، ولكن ناضجة، في مختلف قطاعات الدائرة البيانية، في النحو والكلام والبلاغة، حول ضرورة مراعاة التوافق والانسجام بين اللفظ والمعنى"⁴، وهو التوافق بين النحو الذي يتعلق بالتركيب والدلالة، إذ يتعلق الأمر بكل ذلك بتجلي البلاغة.

وظف **المبرد**، أيضا، مصطلح النظم في حديثه عن البلاغة قائلا: "فحق البلاغة إحاطة القول بالمعنى واختيار الكلام، وحسن النظم حتى تكون الكلمة مقاربة أختها معاضدة شكلها."⁵، ووضح من ذلك أن المقصود بالنظم عنده هو جودة التركيب أو البناء اللغوي، التي تنتج عن تفاعل وتلاحم مكوناته وسبكها سبكا جيدا.

¹ - عبد القادر حسين، أثر النحاة في البحث البلاغي، ص 374 و 375.

² - ينظر: أبو حيان التوحيدي، المقابسات، تح: حس السندوس، دار سعادة الصباح، الكويت، ط2: 1992، ص 68.

³ - أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، ج1، تح: أحمد أمين وأحمد الزين، ص 121.

⁴ - محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي: دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية، ص 83.

⁵ - أبو العباس محمد بن يزيد المبرد، البلاغة، تح: رمضان عبد التواب، مطبعة المدني، مصر، ط2: 1984، ص 81.

3 - الأصول البلاغية:

استثمر عبد القاهر الجرجاني ما ورد عند علماء البلاغة السابقين له في حديثهم الضمني أو الصريح عن النظم، عاملا من خلال منهجه العلمي في البحث والتحليل على سد النقائص، وتوضيح ما أغفله غيره وصفا وتفسيرا. فقد تدوّل النظم سواء مصطلحا أو معنا عند العديد من البلاغيين قبل الجرجاني.

أشار بشر بن المعتمر (ت 210 هـ) في إطار حديثه عن العلاقة التي تربط الألفاظ بمواقعها، والتي يجب على المتكلم من خلالها تخيير مواقع الكلم، ووضع كل كلمة في موضعها المناسب لها إلى مفهوم النظم، حيث يقول: "فإذا وجدت اللفظة لم يقع موقعها ولم تصل إلى قرارها، وإلى حقها من أماكنها المقسومة لها، والقافية لم تحل في مركزها وفي نصابها، ولم تتصل بشكلها وكانت قلقة في مكانها، نافرة من موضعها فلا تكرهها على اغتصاب الأماكن والنزول في غير أوطانها".¹ فالملاءمة بين اللفظ وموقعه أمر لا بد على المتكلم من توحيه، بغية الحصول على كلام أو نظم جيد بليغ، وهذا ما أكد أهميته عبد القاهر أثناء حديثه عن حسن تخيير الموقع كما سنلاحظ لاحقا.

تفرض وحدة النظام اللغوي على مستعملها ضرورة احترام العلاقة القائمة، بين الوحدات اللغوية ومعانيها، إذ بمجرد تغيير وحدة ما عن موقعها يتغير المعنى بل ويختل البناء اللغوي بأكمله. هذا ما تحدث عنه العتابي (ت 220 هـ) أثناء وصفه لعلاقة الألفاظ بالمعاني، حيث يقول: "الألفاظ أجساد، والمعاني أرواح، وإنما نراها بعيون القلوب، فإذا قدمت منها مؤخرًا، أو أخرت منها مقدما، أفسدت الصورة، وغيّرت المعنى، كما لو حول رأس إلى موضع يد، أو يد إلى موضع رجل، لتحولت الحلقة، وتغيّرت الحلية"²، فالقارئ لهذا النص يتبين مدى احتواء أو تضمن ما قاله العتابي لمفهوم النظم.

استعمل أبو هلال العسكري مصطلح النظم في كتابه الصناعتين وكذلك في كتابه الفروق اللغوية، أين تطرق لتوضيح الفرق بين معاني التأليف، والترتيب، والتنظيم (الذي يقصد به النظم)، إذ يقول في خضم ذلك: "الفرق بين التأليف، والترتيب، والتنظيم: أن التأليف يستعمل فيما يؤلف على استقامة، أو على اعوجاج، والتنظيم والترتيب لا يستعملان إلا فيما يؤلف على استقامة، ومع ذلك فإن الترتيب، والتنظيم فرقا، وهو أن الترتيب: هو وضع الشيء مع شكله، والتنظيم: هو وصفه مع ما يظهر به؛ ولهذا استعمل النظم في العقود،

¹ - أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص 13.

² - أبو هلال العسكري، الصناعتين الكتابة والشعر، ص 167.

والقلائد، لأن خرزها ألوان يوضع كل شيء منها مع ما يظهر به لونه"¹، وكما يبدو فإن أبي هلال العسكري في هذا النص قد توقف على الجانب السطحي لمعنى النظم، دون أن يبين المفهوم العميق للمصطلح كما جاء عند عبد القاهر الجرجاني.

يُلاحظ ذلك على أغلب الإشارات على اختلاف ممثليها، ولعل هذا ما يمكن الوقوف عليه من خلال ما ورد عند الجاحظ؛ فرغم أنه "صاحب مصطلح النظم وأول من تحدث عنه فإنه لم يقدم تفسيراً واضحاً له وإنما يفهم المصطلح عنده في إطار مذهبه الأدبي، الذي يهتم بالصياغة والألفاظ ويجعل لها المحل الأول، ويناقش طريقة الاختيار المثلى لبعض الألفاظ على بعضها الآخر، وكيف أن المعجم القرآني بلغ في ذلك درجة دقيقة من التعريف بالألفاظ، فلفظ المطر والغيث معناه واحد ولكن القرآن يستعمل أولهما في مواضع العقاب والثاني مواضع الرحمة"²؛ وبغض النظر عن ذلك فقد ساعدت مختلف التصورات دون استثناء على تأسيس نظرية النظم.

سابعا - النظم عند عبد القاهر الجرجاني:

- مفهوم النظم عنده:

يقتضي الحديث عن مفهوم النظم عند عبد القاهر الجرجاني ضرورة الإشارة إلى ذلك التصور الجرجاني، الذي يقوم على مبدأ التفريق بين نوعين من النظم؛ نظم الحروف، ونظم الكلم، إذ في سياق ذلك يقول: "ومما يجب إحكامه ... الفرق بين قولنا: حروف منظومة وكلم منظومة، وذلك أن نظم الحروف، هو تواليها في النطق، وليس مقتضى عن معنى، ولا الناظم لها بمقتضى في ذلك ربما من العقل، اقتضى أن يتحرى نظمه لها ما تحراه. فلو أن واضع اللغة كان قد قال "ريض" مكان "ضرب"، لما كان في ذلك ما يؤدي إلى فساد، وأما نظم الكلم، فليس الأمر فيه كذلك، لأنك تقتضي في نظمها آثار المعاني وترتيبها على حسب ترتيب المعاني في النفس؛ فهو إذن نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض، وليس هذا النظم الذي معناه ضم الشيء إلى الشيء كيف جاء واتفق"³.

يتمثل النظم الذي بنى عليه عبد القاهر نظريته البلاغية، في نظم الكلم إذ لا أهمية لنظم الحروف عنده، وقد انطلق الجرجاني في ذلك من تفرقه بين الوضع والاستعمال، ويعد ذلك من أهم الأسس التي تقوم عليها النظرية

¹ - أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة، القاهرة - مصر، د/ط، ص 148 و 149.

² - أحمد درويش، دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، د/ط، ص 90 و 91.

³ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص 102.

اللغوية العربية، كما جاء بها الخليل وسيبويه وأتباعهما، فلا فرق بين أن يقول المتكلم خارج الاستعمال اللغوي ضرب أو رضى، وبناء على ذلك فلا خلل يحدث على إثر استبدال موقع الحروف، ووضع حرف مكان حرف آخر، على عكس ما يفرضه نظام العلاقات بين الكلم (الاستعمال اللغوي).

لقد انطلق الجرجاني في تحديده لمفهوم النظم من مبدأ العلاقة التي تربط الألفاظ بالمعاني في نسق العبارات، إذ ليس نظام اللغة مجموعة من المفردات بل مجموعة من العلاقات، وهذا ما يلغي الاعتقاد أو التفكير بأن النظم هو مجرد ضم الألفاظ وتواليها في النطق بصورة عشوائية، تمنع المتلقي من فهم وتأويل ما يقصده المتكلم ويروم تبليغه.

ينبغي على المتكلم - في إطار ما يقتضيه النظم عند الجرجاني - ضرورة التنسيق والملاءمة بين الوحدات اللغوية، واحترام ما يفرضه النظام الكلامي من علاقات قائمة بينها، وهذا ما نبه إليه الجرجاني مخاطباً بذلك المتكلم قائلاً: "فلو أنك عمدت إلى بيت شعر أو فصل نشر فعددت كلماته عدا كيف جاء واتفق وأفسدت نضده ونظامه الذي بينى وفيه أفرغ المعنى وأجري وغيّرت ترتيبه ... أخرجته من كمال البيان إلى مجال الهذيان"¹.

إن البيان الذي يعد معياراً لقبول الكلام أو رفضه، لن يتيسر وصول المتكلم إليه إلا من خلال وعيه بمفهوم النظم، وما يتطلبه من ترتيب الكلمات وإخراجها وفق نسق معين ليكون بمقتضى ذلك تأخير كلمة وتقديم أخرى، متوقف على ضرورة المناسبة بين المعاني أولاً، إذ "ليس من عاقل يفتح عين قلبه إلا وهو يعلم ضرورة أن المعنى في ضم بعضها ببعض من غير أن يكون فيما بينها تعلق، ويعلم كذلك ضرورة، إذا فكر أن التعلق يكون فيما بين معانيها لا فيما بين أنفسها، ألا ترى أن لو جهدنا كل الجهد أن نتصور تعلق فيما بين لفظتين لا معنى تحتها لم نتصور؟"²، فالنظم عند عبد القاهر الجرجاني مجموعة من الإجراءات التجريدية الدقيقة، التي يعمل فيها المتكلم على ربط الوحدات اللغوية، وتنسيقها، وإخراجها في نظام يقوم على ضرورة مراعاة وحدة الترابط، التي يفرضها الجانب المعنوي أو الدلالي لذلك النظام، وكل ذلك يكون وفقاً لمبادئ العقل وقوانينه.

¹ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص 102.

² - المصدر نفسه، ص 293.

1 - أسس ومبادئ نظرية النظم:

أ - نظم المعاني في النفس ثم نطق الألفاظ على حذوها:

أدرك عبد القاهر الجرجاني من خلال منهجه العقلي في البحث والتحليل، أن ما يظهر في أدائنا اللغوي من وحدات لغوية منظومة مرتبة، ما هو في حقيقة الأمر إلا صورة واضحة تالية لمرحلة سديمية ذهنية يعمل فيها العقل البشري على تنسيق المعاني ونظمها وفقا لما تقتضيه مبادئه وقوانينه.

لقد أكدت العديد من الدراسات العلمية واللغوية الحديثة، أن عملية النظم النفسي هي المرحلة الأولى من مراحل إنتاج الكلام، وتعد المعاني النواة التي تنطلق منها عملية النظم - عنده - إذ ليست هذه العملية كما سبق وأن وضعنا ضم الألفاظ، وترتيبها في النطق مباشرة، وإنما تسبق هذه المرحلة مرحلة ثاوية تتمثل في نظم وترتيب المعاني في الذهن، أو النفس حسب اصطلاح الجرجاني، فالنظم تخطيط نفسي يتبعه بناء الوحدات اللغوية وتأليفها، ويقصد الجرجاني بـ "النفس الإدراك الباطني للأشياء، ولذلك كانت النفس عنده مرادفة لكل ما هو ذهني، أو فكري، أو عقلي، أو روحي".¹، ويبدو أن توظيفه لمصطلح النفس قد كان نتيجة توجهه الديني الكلامي الأشعري، فقد اعتد الأشاعرة بالنفس باعتبارها مصدر أفعال الإنسان.

لقد وضع الجرجاني قانونا يتماشى وذلك المبدأ إذ يوضح حقيقة العلاقة بين اللفظ والمعنى، حيث يقول: "فإذا وجب لمعنى أن يكون أولا في النفس وجب للفظ الدال عليه أن يكون مثله أولا في النطق، فأما أن تتصور في الألفاظ أن تكون المقصودة قبل المعاني بالنظم والترتيب وأن يكون الفكر في النظم الذي يتواصله البلغاء فكرا في نظم الألفاظ، أو أن تحتاج بعد ترتيب المعاني إلى فكر تستأنفه لأن تجري بالألفاظ على نسقها، فباطل من الظن ووهم أن يتخيل إلا من لا يوفي النظر حقه، وكيف تكون مفكرا في نظم الألفاظ، وأنت لا تعقل لها أوصافا وأحوالا فإذا عرفت أن حقها أن تنظم على وجه كذا"². يدرك القارئ لهذا النص مدى الدقة العلمية التي سار عليها عبد القاهر الجرجاني، وهو ما يوضح في الوقت نفسه منهجه العقلي الذي ميز بحثه البلاغي (واللغوي) بصفة عامة)، إذ يؤكد على شدة التداخل والترابط بين العمليتين (أي النظم النفسي للمعاني واختيار الألفاظ)، فلا تسبق ولا تتأخر عملية عن الأخرى، ولذلك يصعب بل ويستحيل الفصل بينهما.

¹ - عمر أوكان، اللغة والخطاب، أفريقيا الشرق، المغرب - الدار البيضاء، ط: 2001، ص 73.

² - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص 188.

يعد تأكيد عبد القاهر على أن النظم إنما هو نظم المعاني في النفس أولا، إقصاء لرأي المعتزلة الذين اعتقدوا بأن النظم ضم الألفاظ وترتيبها، إذ في صدد تفنيد ذلك يقول: "وكيف يتصور أن يقصد به توالي الألفاظ في النطق بعد أن ثبت أنه نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض، وأنه نظير الصياغة والتجوير والتفوييف والنقش، وكل ما يقصد به التصوير"¹، ويقول أيضا: "ودليل آخر وهو أنه لو كان القصد بالنظم إلى اللفظ نفسه دون أن يكون الغرض ترتيب المعاني في النفس، ثم النطق بالألفاظ على حذوها لكان ينبغي أن لا يختلف حال اثنين في العلم بحسن النظم أو غير الحسن فيه، لأنهما يحسان بتوالي الألفاظ في النطق إحساسا واحدا، ولا يعرف أحدهما في ذلك شيئا يجمله الآخر"²، ففهم المتلقي للخطاب وتأويله له وكذا معرفته لمقصدية المتكلم، أمر يتوقف على إدراكه وتحليله لمعاني الخطاب، التي تمكنه من الوصول إلى معرفة الغرض الذي يقصده المتكلم في خطابه، إذ لا يكفي الشكل السطحي (الصورة الخارجية للخطاب) لمعرفة ذلك.

ب - التعلق النحوي:

أوضح عبد القاهر الجرجاني من خلال دراسته الوصفية التحليلية لنظام الجملة وبنائها اللغوي، أن ذلك النظام يقوم على مفهوم العلاقات النحوية التي ترتبط بمقتضاها الوحدات اللغوية بعضها ببعض، ليصبح وجود ذلك النوع من العلاقات أو انعدامها مؤشرا لاستقامة الكلام أو استحالته.

تحدث عن ذلك تحت مبدأ التعلق النحوي الذي يبين علاقة النحو بالنظم، ويفسر حقيقة أن تجاور الألفاظ وتناسقها لا يتم إلا من خلال تعليق بعضها ببعض، حيث يقول: "واعلم أنك إذا رجعت إلى نفسك، علمت علما لا يعترضه الشك، أن لا نظم في الكلم ولا ترتيب، حتى يعلق بعضها ببعض ويبني بعضها على بعض، وتجعل هذه بسبب من تلك. هذا ما لا يجمله عاقل ولا يخفى على أحد من الناس"³، لقد ضبط الجرجاني للمتكلم عملية التعلق بدقة، أبان من خلالها عن أهم أنواع التعلق، إذ في سياق ذلك يبين أن التعلق أنواع ثلاثة ألا وهي:

- تعلق اسم باسم:

بين عبد القاهر أن هناك مواضع محددة يتعلق فيها الاسم بالاسم وذلك كأن "يكون خبرا عنه أو حالا منه، أو تابعا له صفة أو تأكيدا، أو عطفا بيان أو بدلا، أو عطفا بحرف. أو بأن يكون الأول مضافا إلى الثاني، أو

¹ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 102.

² - المصدر نفسه، ص 103.

³ - المصدر نفسه، ص 106.

بأن يكون الأول يعمل في الثاني عمل الفعل، ويكون الثاني في حكم الفاعل له والمفعول، وذلك في اسم الفاعل واسم المفعول والصفة والصفة المشبهة والمصدر، أو بأن يكون تمييزاً قد جلاه منتصباً عن تمام الاسم. ومعنى تمام الاسم أن يكون فيه ما يمنع من الإضافة¹، ومعنى ذلك أن الاسم الثاني يكون بالنسبة للأول إما خبراً عنه، أو تابعا له (صفة له، أو تأكيداً له، أو بدلاً منه)، أو حالاً منه، أو تمييزاً، أو عطف بيان، أو عطف بحرف، أو مضافاً.

- تعلق اسم بفعل:

ويكون الاسم بالنسبة للفعل "إما فاعلاً له أو مفعولاً، فيكون مصدراً قد انتصب به، كقولك: ضربت ضرباً، أو مفعولاً به كقولك: ضربت زيدا. أو ظرفاً مفعولاً فيه: زماناً أو مكاناً، كقولك خرجت يوم الجمعة ووقفت أمامك، أو مفعولاً معه كقولنا: جاء البرد والطيلالسة، أو مفعولاً له كقولنا: جئتك إكراماً لك، وفعلت ذلك إرادة الخير بك"²، والواضح من خلال هذا التعلق أن الاسم يكون مكملًا للفعل.

- تعلق الحرف بهما: وهو ثلاثة أضرب:

- أن يتوسط بين الفعل والاسم:

لقد بين عبد القاهر أن ذلك "يكون في حروف الجر التي من شأنها أن تعدي الأفعال إلى ما لا تتعدى إليه بأنفسها من الأسماء، مثل قولك: مررت: فلا يصل إلى نحو زيد وعمرو. فإذا قلت: (مررت بزيد أو على زيد) وجدته قد وصل بالباء أو على وكذلك سبيل الواو الكائنة بمعنى مع في قولنا: لو تركت الناقة وفصيلها لرضعها .. وكذلك حكم إلا في الاستثناء فإنها عندهم بمنزلة الواو الكائنة بمعنى مع في التوسط، وعمل النصب المستثنى للفعل ولكن بوساطتها وعون منها"³، ويبدو أن عبد القاهر قد قصر هذا النمط من التعلق على حروف الجر، حيث تتوسط بين الفعل والاسم فتقوم بوظيفة الربط، وهو ربط تتعدد من خلاله وجوه تركيب الكلام، وذلك ما يكون تبعاً لغرض المتكلم الوظيفي فيعبر عن معنى معين.

¹ - عبد القاهر الجرجاني دلائل الإعجاز، ص 57 و 58.

² - المصدر نفسه، ص 58.

³ - المصدر نفسه، ص 59.

- تعلق الحرف بما يتعلق به العطف:

يتعلق هذا النوع بحرف الواو، "وهو أن يدخل الثاني في عمل العامل في الأول، كقولنا: جاءني زيد وعمرو، ورأيت زيدا وعمرا، ومررت بزيد وعمرو"¹، ويعني ذلك تعلق الحرف بمعمول المعطوف حيث يكون عاملا مرتبطا بالمعطوف عليه، ويؤدي ذلك إلى أخذ الثاني حكم الأول وهذا ما يقوم به الواو، فيوضح ذلك أن العطف يرتبط بوظيفة القيام بترايط واتساق الكلام.

- تعلق الحرف بمجموع الجملة:

يتعلق الحرف باعتباره عاملا بمجموع الجملة، فيتحكم في إخراج دلالتها على أن يكون توظيفه تبعا للمعنى الذي يقصده المتكلم، مثال ذلك "تعلق حرف النفي والاستفهام والشرط والجزاء بما يدخل عليه. إذ من شأن هذه المعاني: أن تتناول ما تتناوله بالتقييد، وبعد أن يسند إلى شيء. معنى ذلك: أنك إذا قلت: ما خرج زيد وما زيد خارج، لم يكن النفي الواقع بما متناولا الخروج على الإطلاق، بل الخروج واقعا من زيد ومسندا إليه. ولا يغرنك قولنا في نحو لا رجل في الدار أنها لنفي الجنس، فإن المعنى في ذلك أنها لنفي الكينونة في الدار على الجنس. ولو كان يتصور تعلق النفي بالاسم المفرد، لكان الذي قالوه في كلمة التوحيد من أن التقدير فيها لا إله لنا، أو في الوجود إلا الله" فضلا من القول وتقديرا لما لا يحتاج إليه"²، فحسب ما بينه عبد القاهر يأخذ هذا التعلق وجوه تركيبية ذات فروق دلالية متباينة، تُظهر التأثير الوظيفي لذلك الحرف على الكلام أو الجملة. وهو تأثير يكون بين الإطلاق والتقييد؛ ويتولد الإطلاق إذا وقع معنى الحرف على الكلام ككل، في حين يكون التقييد إذا وقع معنى الحرف على الكلمة التي تليه فقط.

لقد جعل عبد القاهر خاصيتي الإطلاق والتقييد في هذا النوع من التعلق، قاعدة عامة يتداخل من خلالها النفي والاستفهام والشرط والجزاء، إذ يقول مخاطبا مستعمل اللغة (المتكلم): "وكذلك الحكم أبدا. وإذا قلت هل خرج زيد؟ لم تكن قد استفهمت عن الخروج مطلقا، ولكن عنه واقعا من زيد، وإذا قلت: إن يأتيني زيد أكرمه، لم تكن جعلت الإتيان شرطا بل الإتيان من زيد، وكذا لم تجعل الإكرام على الإطلاق جزاء للإتيان، بل الإكرام واقعا منك. كيف وذلك يؤدي إلى أشنع ما يكون من المحال؟ وهو هاهنا أن يكون إتيان من غير آت وإكرام من غير

¹ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 59.

² - المصدر نفسه.

مكرم. ثم يكون هذا شرطاً وذلك جزءاً¹، ومما لا شك فيه أن ذلك يقتضي من المتكلم معرفة قوانين هذا التعلق من أجل التوظيف الدقيق له، بما يضمن استقامة المعنى وتماحه في ذهن السامع. فقد ركز الجرجاني على تبيين وجوه نظم الكلام نظماً ناجحاً، حيث نقف على الجانب الوظيفي للغة، الذي يتطلب الحرص على قوة الكلام التي تتطلب تلاحم وتناسق وحداته، ومناسبة ذلك لظروف المقام ومكوناته التي يشكل فيها المتلقي أهم مكون.

نستنتج من ذلك أن عملية التعلق في النظرية الجرجانية تركز على النحو؛ حيث يعتمد المتكلم في نظم خطابه على قوانين النحو التي صيغ على منوالها كلام العرب بمختلف طرقه وأساليبه، فعلى أساس مراعاتها في تعليق الوحدات التركيبية يكون النظم عبارة عن نظام واحد؛ إذ يساهم التعلق في خلق اتساق السياق اللغوي. وذلك ما يفضي إلى سلامة جانبه الدلالي.

ج - أساس تخير الموقع:

يعتمد ربط وتعليق الوحدات اللغوية قصد تحقيق وخلق نسق لغوي تواصل مفيد، حسب رأي الجرجاني على دقة الناظم وبراعته في حسن اختيار الموضوع المناسب، لكل وحدة لغوية من وحدات النسق اللغوي، حيث ترتبط كل كلمة بفضل ذلك الاختيار بالموقع المخصص لها ارتباطاً وثيقاً، لتكون مراعاة العلاقة بين هذين العنصرين أمر ضروري لا بد منه، إذ بمجرد تغيير موقع الكلمة أو إزالتها عنه يفقد النظم أو النسق اللغوي اتساقه واستقامته.

يرى الجرجاني أن "تخير اللفظ عبارة عن خصائص ووجوه تكون معاني الكلم عليها وعن زيادات تحصل في أصول المعاني"²، فلا يمكن أن يكون للفظ المفرد من حيث هو أصوات أي دور في ذلك، إذ إن موقع الكلمة من السياق هو المعيار الذي على أساسه يضع الناظم كلمة ما في نظمه ويستبعد أخرى، حيث يستحيل حسب المنهج الذي بنى عليه الجرجاني نظريته البلاغية، والذي يقوم على رفض مبدأ اللفظية - الذي يجعل اللفظة المفردة خارج الاستعمال اللغوي خصائص وصفات تميزها - أن يحصل خارج إطار النظم تفاضل بين الألفاظ، ف "المفاضلة بين لفظة وأخرى باعتبار واحدة مألوفة والأخرى وحشية أو نابية لا يجب أن تتم خارج البنية اللغوية، خارج البناء أو الضم أو النظم ... والشيء نفسه عن اللفظة المتمكنة والمقبولة. أما اللفظة القلقة والنايبة والمستكرهة فهي اللفظة

¹ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 59 و 60.

² - ينظر: المصدر نفسه، ص 269.

التي لا تتلاءم مع الألفاظ الأخرى داخل الكلام"¹، فأن تأتي بمفردة ما غير مرتبطة بنظم لغوي معين ونحكم عليها، بالتمكن أو النبو هو عين الخطأ، فتقييم المفردات يتم داخل النظم أو الكلام.

لقد ركز الجرجاني في سياقات كثيرة من الدلائل على تأكيد ذلك، فيقول - مثلا - في أحد تلك السياقات: "إذا كان كذلك فينبغي أن ينظر إلى اللفظة قبل دخولها في التأليف، وقبل أن تصير إلى الصورة التي يكون بها الكلم إخبارا أو أمرا ونهيا واستخبارا وتعجبا، وتؤدي في الجملة معنى من المعاني التي لا سبيل إليها إلا بضم كلمة إلى كلمة"²، ويقول أيضا: "فقد اتضح ما لا يدع للشك مجالا، أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلم مفردة، وأن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها، في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها، أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ"³، هذا ما لاحظته على كلمة الأخدع التي تبين له أن ورودها في "بيت الحماسة من الطويل القائل

تلفت نحو الحي حتى وجدتي وجعت من الإصغاء بيتا وأخدعا.

وبيت البحتري من الطويل:

وإني وإن بلغتني شرف الغنى وأعتقت من رق المطامع أخدعي.

أخف وأحسن وأكثر تأثيرا من ورودها في بيت أبي تمام من البسيط:

يا دهر قوم من أخدعك فقد أضججت هذا الأنام خرقك"⁴

يمثل حسن اختيار الموقع - حسب الطرح الجرجاني - المقياس الذي يعتمد عليه المتلقي للموازنة بين مختلف النظم، وبالإضافة إلى ذلك فإنه يعد الأساس الذي من خلاله يتميز الناظم، ويكون له من الفضل والمزية ما لا يكون لغيره، ففي هذا الصدد يقول الجرجاني: "وهذا باب واسع، فإنك تجد متى شئت الرجلين قد استعملتا كلما بأعيانها، ثم ترى هذا قد فرع السَّمَاء، وترى ذاك قد لصق بالحضيض..⁵ بناء على ذلك يمكننا القول: إن عبد القاهر الجرجاني استطاع أن يضع أساسا جديدا للتفاضل، يتمثل في حسن اختيار الموقع الذي يجري على الناظم والمنظوم، وذلك بعدما كان مقيدا باللفظية (اللفظ المفرد)، التي تبناها وعمل بها بعض البلاغيين قبله.

¹ - عبد العزيز حمودة، المرايا المقعرة نحو نظرية نقدية عربية، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، عالم المعرفة، الكويت، ط: 2001، ص 238.

² - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 97.

³ - المصدر نفسه، ص 99.

⁴ - المصدر نفسه، ص 99 و 100.

⁵ - المصدر نفسه، ص 101.

د - معاني النحو:

يأخذنا الحديث عن أسس نظرية النظم الجرجانية إلى الحديث وبالضرورة عن أهم الأسس المفاهيمية، التي مثلت تلك النظرية، وأسهمت في بلورة فكرة النظم عند الجرجاني؛ ونقصد بذلك معاني النحو وأحكامه، التي لا طالما أكد الجرجاني في سياقات متعددة من دلائله أنها مدار النظم وأساسه. ففي خضم تأكيده على أن إعجاز القرآن قائم في نظمه، نظم الجرجاني في الدلائل، أبياتا على بحر البسيط قائلا¹ فيها:

وقد علمنا بأن النظم ليس سوى
لو نقب الأرض غير باغ خير ذلك له
حكم من النحو نمضي في توحيه
معنى وصعد يعلم في ترقيه
ما عدا إلا بحسر في تطلبه
ولا أرى غير غي في تبغيه

كما يقول، أيضا، في نهاية ذلك المؤلف: "فليس النظم شيئا إلا توحي معاني النحو وأحكامه ووجوهه وفروقه فيما بين معاني الكلم، وأنت تبين أنه إذا رفع معاني النحو وأحكامه فيما بين الكلم حتى لا تراد فيها في جملة ولا تفصيل خرجت الكلم المنطوق ببعضها في إثر بعض في البيت من الشعر، والفصل من النثر عن أن يكون لكونها في مواضعها التي وضعت فيها موجب ومقتضى، وعن أن يتصور أن يقال في كلمة منها إنها مرتبطة بصاحبة لها، ومتعلقة بها، وكائنة بسبب منها"²، فلكي يكون النظم تاما مستقيما يجب على الناظم له توحي معاني النحو وأحكامه، وما تتطلبه من ضرورة دقة النظر وطول الروية، إذ إنها أمور تجريدية تركز على العقل وتقنياته الدقيقة كالاستنباط مثلا.

لا يقصد الجرجاني بمعاني النحو وأحكامه الإعراب الشكلي، الذي يشترك في معرفته جميع علماء اللغة على اختلاف مناحيهم، وإنما يقصد بها ما وراء الإعراب من معان تقتضيه كالفاعلية، والمفعولية .. ، فهي ما يمثل محور المزنة ومدار التفاضل بين كلام وآخر، وليس الإعراب وعلاماته المقيّدة. فقد بين أنه "لا يجوز إذا عدت الوجوه التي تظهر بها المزنة، أن يُعد فيها الإعراب، وذلك أن العلم به مشترك بين العرب كلهم، وليس مما يستنبط بالفكر ويستعان عليه بالروية"³، فلا يكمن مقياس تميز أداء المتكلم اللغوي وتفوقه على غيره في أواخر الكلم، التي تجعل

¹ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 51.

² - المصدر نفسه، ص 485.

³ - ينظر: المصدر نفسه، ص 376.

المتكلم مجبرا على الحركة وفق ما تمليه، وإنما يكمن في طاقة المتكلم الإبداعية التي تكون وفق قواعد النحو، لكن تستطيع رغم ذلك التصرف والتلاعب بتلك المعاني النحوية، لتكون في أسلوب جديد يخرق المعتاد ويفوق الأساليب الأخرى.

وارتباطها بمعاني النحو يجعلها طاقة ذهنية ترتبط بعقل المتكلم وفكره، قبل أن تكون أداء لغويا في صورة واضحة.

لقد حاول عبد القاهر من خلال كل ما قدمه في نظريته، تنظيم العملية الخطابية البلاغية، إذ يتعلق الأمر بتحقيق النظم الناجح الذي يمثل النظم البلاغي، حيث تنتقل من الطابع الخطابي العام إلى الطابع الخاص المتميز. فقد قدم تصورا بلاغيا متطورا عمل فيه على تبين ماهية البلاغة وتحديد مختلف الأسس والشروط والمكونات التي تتطلبها.

فصل ثان:

البلاغة في نظرية النظم

تمهيد:

شكلت دراسة النشاط اللغوي التبليغي في بعده البلاغي، الذي يعكس طاقة اللغة الإبداعية بصورها وأجناسها الكلامية المختلفة، مدار التفكير البلاغي العربي القديم وانشغالاته. حيث تم العمل على رسم وضبط حدوده وتوضيح مفاهيمه وشروط تحقيقه بالنسبة لمستعملي اللغة العربية. وهو ما يمكن عده استجابة مباشرة أو غير مباشرة لمقتضيات الطبيعة اللغوية البلاغية، التي ميزت بنية العقل العربي، وكذا العديد التحولات الإبستمولوجية التي مست مجالات مختلفة: فكرية، دينية .. من المجتمع العربي.

مثل البحث عن خصائص الكلام البليغ وبالتالي صياغة معيار البلاغة الذي يمكن من خلاله الحكم على كلام ما بالبلاغة، وقياس نسبة أو درجة تحققها والمقارنة على أساسه بين هذا الكلام وغيره؛ ليكون الحكم على المبدع شاعرا كان أم خطيبا بالفحولة والبلاغة، الهدف الذي ظهرت على إثره أغلب الجهود البلاغية وهو الهدف الذي انضوى تحت مشروع: "التأسيس لعلم البلاغة".

كانت أهمية البلاغة ودورها الرئيس في حياة مستعملي اللغة العربية على اختلاف مجالاتها، دافعا قويا إلى ظهور الوعي بضرورة تنظيم العملية التبليغية البلاغية، حيث قدم علماء البلاغة في خضم ذلك العديد من البحوث والدراسات، التي تم الكشف من خلالها وفق منظور معرفي علمي دقيق عن شروط وتقنيات صياغة الكلام وتركيبه تركيبا بلاغيا.

لقد تمكن الخطاب البلاغي العربي القديم من تحقيق علمية البلاغة، سواء أعلق الأمر بجانبها النظري أي البلاغة بعدها علما لغويا، أو الإجرائي أي البلاغة من حيث هي ممارسة واستعمالا لغويا متميزا، يستند على مجموعة من الضوابط والمقاييس، ولعل هذا ما يمكن الوقوف عليه من خلال النموذج اللغوي (البلاغي ..) الذي قدمه عبد القاهر الجرجاني. ونقصد بذلك: نظرية النظم.

شكلت نظرية النظم منحى جديدا للدراسة البلاغية بل وتأسيسا للبلاغة العربية وفق طابع علمي جديد؛ حيث توصل عبد القاهر الجرجاني إلى فهم كيفية اشتغال الأساليب النصية التعبيرية، وتحديد النظم معيار التميز الفاصل بين التعبير اللغوي في طابعه الديني الإلهي (القرآن الكريم) وطابعه البشري، والدخول عبر هذا المعيار إلى مجال البلاغة حيث بحث من خلال ذلك في بلاغة كلام العرب وتحديدًا في النص الشعري، الذي يعكس حسب رأيه الصورة المثلى للتعبير الأدبي البلاغي.

وفي الواقع لقد كان ذلك على مرحلتين:

المرحلة الأولى: مرحلة الإجابة عن سؤال الإعجاز، حيث عمل الجرجاني على تحديد معيار الإعجاز القرآني، وقد اعتمد في ذلك على آلية المقارنة بين النص القرآني وكلام العرب (الشعر).

المرحلة الثانية: مرحلة الإجابة عن البلاغة ومتعلقاتها، والعمل على توضيح خصائص ومعايير الكلام الفني الأدبي؛ حيث انتقل الجرجاني عبر معيار النظم من دائرة الإعجاز إلى مجال البلاغة، باحثاً في النص الشعري عن مراتبها وأعلى درجاتها التي يكون فيها نصاً شعرياً ما أقوى تأثيراً، وأجود وأسمى من نص شعري آخر.

فأهم ما لوحظ على تراث الجرجاني البلاغي بروز رؤية أفضلية الشعر على النثر، وهي الرؤية التي سيطرت على التفكير البلاغي العربي في عمومها رغم ظهور القرآن، وذلك ما يبدو واضحاً على دراسات الإعجاز القرآني التي قارنت بين أسلوب النص القرآني والنص الشعري. ولعل هذا ما ينطق به دلائل الإعجاز، مثلاً، حيث يرى محمد مشبال في هذا السياق أنه "بصرف النظر عما يؤمن به عبد القاهر من تفوق بلاغة القرآن، فإن القارئ لا يعثر في كتابه على خصائص مميزة لأسلوب النص الجديد، وكأنه يستند إلى جمالية الأسلوب الشعري نفسها لإثبات تفوق الأسلوب القرآني؛ على هذا النحو ظلت هذه البلاغة هي الأخرى أسيرة جمالية الشعر من حيث أرادت أن تثبت جمالية القرآن"¹. هذا ما يقود القارئ إلى التساؤل عن طبيعة البلاغة في نظرية النظم هل هي بلاغة خاصة لا تتعدى حدود الجنس الأدبي الشعري؟ أم بلاغة عامة تشغل وتعنى بالكلام الأدبي البلاغي بكل أجناسه؟

تقتضي الإجابة عن ذلك الانطلاق من مفهوم النظم باعتباره الأساس الإستيمولوجي الذي بنى عليه الجرجاني مشروعه البلاغي، حيث ركز من خلال بحثه في كلام العرب على تفصي تحليات النظم وتحديد أعلى درجاته المتمثلة في: النظم البلاغي، وقد انشغل بناء على ذلك بوصف الأبنية اللغوية المستعملة استعمالاً بلاغياً، حيث يحضر ذلك النوع من النظم، وهو ما وجد أبلغ وأتم صوره في الشعر، ولعل هذا ما يبرر تركيزه على الإبداع الشعري وكثرة الاستشهاد به. ورغم ذلك فإن الشيء الأكيد هو إمكانية تطبيق ما جاءت به نظرية النظم على أي خطاب بلاغي؛ حيث يجوز القول بأنها: (نظرية الخطابات الأدبية البلاغية) على اختلاف أنواعها وأشكالها، وذلك حيث تكون البلاغة علماً "بما له اختصاص بعلم أحوال الشعراء والبلغاء ومرتبتهم ويعلم الأدب جملة"².

¹ - محمد مشبال، البلاغة والأصول دراسة في أسس التفكير البلاغي العربي نموذج ابن جني، ص 24 و 25..

² - ينظر: عبد القاهر الجرجاني، الرسالة الشافية ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، دار المعارف، القاهرة، 1968، ص 117.

عاجلت هذه النظرية مسألة الإنجاز البلاغي وصفا وتفسيرا؛ حيث استطاعت الإجابة عن عديد الأسئلة المتعلقة بعناصر، ومفاهيم، واستراتيجيات، وكذا مراتب ومعايير (أو معيار) ذلك النمط من الإنجاز. فقد كان مسعى الجرجاني تنظيم ومنهجة الاستعمال اللغوي البلاغي بكل متعلقاته، وذلك بعدما لاحظ غياب هذا الأمر وقصور معظم الرؤى البلاغية السابقة له في الوصول إلى ذلك، وهذا ما كشف عنه من خلال حديثه عن معنى البلاغة الذي جعل على إثره آراء العلماء قسمين؛ حيث يقول: "ولم أزل منذ خدمت العلم، أنظر فيما قاله العلماء في معنى الفصاحة والبلاغة والبيان والبراعة، وفي بيان المغزى من هذه العبارات، وتفسير المراد بها، فأجد بعض ذلك كالرمز والإيماء والإشارة في خفاء، و**بعضه** كالتنبيه على مكان الخيء ليطلب، وموضع الدفين لبحث عنه، فيخرج، وكما يفتح لك الطريق إلى المطلوب لتسلكه، وتوضع لك القاعدة لتبني عليها..¹، ولذلك ارتأى ضرورة بناء تصور بلاغي منظم.

لقد توصل من خلال اعتماده على التقصي والاستنباط إلى أن هناك "نظما وترتيا، وتأليفا وتركيبا، وصياغة وتصويرا، ونسجا وتحيرا، وأن سبيل هذه المعاني في الكلام الذي هي مجاز فيه، سبيلها في الأشياء التي هي حقيقة فيها"²، وبكل ذلك يحصل التفاضل والتفاوت فتكون نسبة الجودة والمزية بالنظر إلى تلك المعاني متباينة بين طرفين أو أكثر، سواء في الأشياء أو في الكلام، وقد بحث في هذا الأخير عن أسباب ذلك وهو ما كان في الواقع بحثا عن أسباب البلاغة؛ حيث عمل على تحديد خصائص وميكانيزمات كلام العرب بأجناسه وخطاباته المتنوعة خاصة منها الأدبية.

إن أهم ما انتهى إليه هو أن البحث في البلاغة يقتضي عمق التحليل وشمولية الرؤية في تناول ودراسة جزئياتها وقضاياها، إذ لا يكفي فيها "أن تنصب لها قياسا ما، وأن تصنفها وصفا مجملا، وتقول فيها قولاً مرسلا، بل لا تكون معرفتها في شيء حتى تفصل القول وتحصل، وتضع اليد على الخصائص التي تعرض في نظم الكلم، وتعدّها واحدة واحدة، وتسميها شيئا شيئا، وتكون معرفتك معرفة الصنع الحاذق، الذي يعلم علم كل خيط من الإبريسم الذي في الديباج، وكل قطعة من القطع المنجورة في الباب المقطع، وكل آجرة من الآجر الذي في البناء البديع"³، والواضح أنه يشير من خلال ذلك إلى الجانب المعرفي الذي يتطلبه الاستعمال اللغوي البلاغي، سواء

¹ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تح: ياسين الأيوبي، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، ط: 2002، ص 91.

² - المصدر نفسه.

³ - المصدر نفسه، ص 93.

بالنسبة للمبدع أو للمتلقى وهو الجانب المتعلق خاصة بالمعرفة اللغوية البلاغية، حيث يتسنى التحليل العميق والتعليل الموضوعي، فقد أولى الجرجاني أهمية بالغة للتعليل حيث يجب أن يستند تفسير أي موقف مرتبط بظاهرة بلاغية على أساس صحيح.

لقد عنيت نظرية النظم بالخطاب البلاغي فبينت شروطه على مستوى الإنتاج والتلقي.

أولاً: إنتاج الخطاب البلاغي في نظرية النظم:

يكشف، لنا، البحث التحليلي الاستقرائي لمقومات التفكير البلاغي في نظرية النظم وبالتالي استنتاج مبادئها وأسسها المنهجية، أن مسألة النظم البلاغي الموضوع الأساس الذي تناولته هذه النظرية.

تعتبر هذه المسألة ذات الطابع اللغوي الإبيستيمولوجي (أو المعرفي) صراحة عن وظيفة اللغة الإبداعية البلاغية، أين تتجسد في خطاب أو نص ما في أدق صورها وأعلى درجاتها، ليكون ذلك النوع من النظم الآلية التي توضح جودة التعبير اللغوي وفنيته، وكذا المعيار الذي يمكن على أساسه التفريق بين الخطاب العادي والخطاب الأدبي، والموازنة بين الخطابات الأدبية (النصوص الشعرية في هذه النظرية)، وتقييمها ومن ثمة اختيار أجودها وأكثرها بلاغة وتأثيراً، وأهم من ذلك تقدم الطريقة الناجعة التي تمكن مستعمل اللغة (المتكلم) من بناء وصياغة خطابه (أو كلامه) صياغة بلاغية.

من هذا المنطلق كان مسعى نظرية النظم التأسيس لبلاغة الخطاب وفق مبادئ ومقاييس لغوية واضحة، حيث يتم استعمال اللغة وتوظف إمكاناتها التعبيرية بأسلوب إبداعي فني متقن؛ أين يحضر النظم البلاغي ليكون الخطاب بناءً على ذلك ناجحاً مؤثراً؛ حيث يتمكن من إحراز قبول وإعجاب مخاطبه (أو مخاطبيه)، وهو ما يثبت مزيته وفضله ويؤكد تفوقه على بقية الخطابات.

تعد هذه النظرية - حسب رأينا - نظرية في الخطاب التبليغي البلاغي؛ حيث قام عبد القاهر الجرجاني بشرح وتوضيح ما الذي يقتضيه ذلك النوع من الخطاب، من خلال تحديد وتعليم طرق الوصول إليه، سواء ما تعلق بعملية إنتاجه (النظم والصياغة) أو عملية تلقيه وتحليله (الفهم والتأويل)، وهذا ما مكنه من بناء نظرية شاملة في البلاغة تقوم على مبدأ التركيز في إنتاج وتلقي (تحليل) الخطاب البلاغي على جميع العناصر المتفاعلة فيه.

بناءً على ذلك وجب علينا الانطلاق في بحثنا من حدود البلاغة الواسعة، التي تجعلها علم دراسة الخطاب البلاغي (وصفاً، وتحليلاً، وتأويلاً)، بحيث يكون ذلك النوع من الخطاب - أولاً وقبل أي خاصية من خصائصه

- (عملية لغوية تبليغية)، إذ تبحث نظرية النظم في تداولية البعد الأدبي الفني للغة وهو ما يجسده الخطاب البلاغي. فقد شكلت النظرة الوظيفية - التداولية للغة الأساس المنهجي الذي قامت عليه هذه النظرية؛ حيث وقفت على دراسة جانبها الاستعمالي، من خلال وصف السلوك اللغوي - وتحديد السلوك اللغوي الأدبي المتمثل في النص الشعري - للمتكلم الذي يعكس معنى التواصل والتخاطب.

وهذا ما مثل مبدأ الدراسة اللغوية عند علمائنا القدامى أبرزهم: الخليل وسيبويه، وفحواه "أن اللغة استعمال وليست وضعاً"، ولذلك كانت البلاغة في نظرية النظم تناولاً إبداعياً تداولياً؛ يجمع بين الجودة أو الإبداع الأدبي والمناسبة التداولية.

أسس الوعي بأهمية الخطاب البلاغي وضرورة العمل - على إثر ذلك - على وضع شروط واضحة تنظم عملية إنتاجه، العديد من البحوث التي عرفها التراث البلاغي العربي القديم، وحسب ما يذهب إليه محمد عابد الجابري فإن "الأبحاث البيانية قد انقسمت منذ قيامها إلى قسمين: قسم يعنى بـ "قوانين تفسير الخطاب"، وقسم يهتم بـ "شروط إنتاج الخطاب"¹. وقد جاء البحث في القسم الثاني متأخراً عن الأول الذي شكل فيه الخطاب أو النص القرآني مدار البحث؛ حيث لاقى موضوع قوانين تفسيره اهتماماً كبيراً وذلك ما انشغل به علماء الكلام وعلماء الأصول، أما البحث في شروط إنتاج الخطاب فقد تمحور حول الخطابات البشرية التي يوظفها مستعمل اللغة توظيفاً تواصلياً، اجتماعياً، براغماتياً، سياسياً، فنياً... والتي تختلف وتتعدد أساليبها باختلاف الأغراض والمقامات. حيث تم السعي إلى توضيح متى يكون خطاباً ما ناجحاً مؤثراً، إذ يجمع بين الفهم والإفهام، وهذا ما ارتبط بالدراسات والبحوث اللغوية بصفة عامة والبلاغية منها بصفة خاصة، إذ بحثت هذه الأخيرة في شروط إنتاج الخطاب البلاغي، وذلك حيث يتطلب الإفهام بالإضافة إلى الوضوح جمالية الأسلوب وبلاغته.

لقد كان التفات البحوث البلاغية التراثية لهذا الموضوع، من أهم المظاهر التي أوضحت التوجه العلمي، الذي طبع تلك البحوث؛ حيث أرادت تنظيم عملية الإنتاج البلاغي. وذلك ما يعبر عن تركيز البلاغيين على أهمية المتكلم وعنايتهم به، ولعل هذا ما يجده الباحث عند الجرجاني، فقد تبلور التصور البلاغي في نظرية النظم على مبدأ الوعي بدور المتكلم وعلاقته ببلاغة الخطاب، وذلك باعتباره المكون الفاعل في عملية إنتاج الفعل الخطابي (أو الكلام)، فقد ركز الجرجاني على فاعلية الخطاب البلاغي؛ التي تهتم بالإضافة إلى تكوينه الجمالي

¹ - محمد عابد الجابري، نقد العقل العربي 2، بنية العقل العربي دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية، دار الطليعة، بيروت، ط: 2، ص

(بوظيفته التواصلية). إذ تعكس هذه الأخيرة طابعه الوظيفي الاجتماعي الذي يكون فيه المتكلم أول وأهم عناصره.

لقد عني الجرجاني في نظريته التي ارتبطت بالمتكلم المبدع بتوضيح خصائص وأسس الاستعمال اللغوي البلاغي، التي توجه ذلك المتكلم، وتمكنه من تحقيق مقبولة الخطاب وبلاغته، مما يكشف عن قدرته الإبداعية. فظهور المزية حيث يكون النظم في أجمل وأبلغ صوره وأعلى مراتبه، أمر يقوم على شروط وضوابط على المتكلم مراعاتها.

يمكن من خلال تتبع ما قدمته نظرية النظم في هذا السياق التمييز بين جانبين من إنتاج الخطاب العام؛ وهو ما يخص الشروط التي يكون من خلالها إنجازا كلاميا ما خطابا مستقيما، وذلك قبل دخول مجال البلاغة، الذي يمثل الجانب الخاص، فقد استطاعت هذه النظرية أن توضح بدقة - يمكن مقارنتها بما توصلت إليه البحوث الحديثة - أن الخطاب البلاغي مجموعة من العمليات التي تختلف في طبيعتها وآلياتها الموظفة، والتي يتدرج فيها منتجه من العامي المبتذل، إلى ما يفوق ذلك، إلى غاية تمكنه من إحداث التغيير والوصول إلى أعلى مستويات البلاغة، حيث يظهر النظم البلاغي فتكون الخصوصية. ويمكننا الحديث عن أهم أساسيات إنتاج الخطاب في إطار نظرية النظم - بغض النظر عن بلاغته - من خلال الأبعاد الثلاثة التالية:

1 - البعد الذهني (أو النفسي):

يخص هذا البعد الجانب المتعلق بتنظيم المعاني في النفس (النظم النفسي)، وتقتضي معرفة مستعمل اللغة بذلك ضرورة معرفته أن النظم النفسي للمعاني يستدعي تلقائيا نظم الألفاظ التي تتلاءم معها؛ لأن المتكلم إذا رتب المعاني في نفسه للتعبير عما يريد ترتب الألفاظ تبعاً لها. فـ "إذا فرغ من ترتيب المعاني في نفسه لم يحتاج إلى أن يستأنف فكراً في ترتيب الألفاظ، بل يجدها تترتب له بحكم أنها خدم للمعاني وتابعة لها ولاحقة بها. فالعلم بمواقع المعاني في النفس علم بمواقع الألفاظ الدالة عليها في النطق"¹، وهذا ما يؤكد الارتباط الوثيق بين المعنى واللفظ باعتبارهما وجهها الكلام، إلا أن الشيء الأكيد هو أسبقية المعنى وذلك ما بينه عبد القاهر في نظريته.

¹ - ينظر: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص 105 .

2 - البعد اللغوي:

يمر إنتاج أي خطاب أيا كان نوعه ،أولاً، بعملية البناء والصياغة التي تجعل منه نظاماً أو نسقاً لغوياً متلاحماً، وذلك ما تطرق إليه الجرجاني في نظريته حيث ركز على شرح وتوضيح الآليات الكفيلة بذلك. فقد عني بفهم مستعمل اللغة كيف يتعامل مع لغته، ويستثمر مكونات نظامها بدقة تمكنه من الصياغة الجيدة لمقاصده، التي يروم تشكيلها في خطاب واضح مستقيم لا يشوبه أي خلل، وهذا ما تمثله عملية النظم اللغوي.

تتبلور عملية النظم اللغوي للخطاب من خلال الاعتماد على عدة آليات وإجراءات؛ ونقصد بذلك آلية الاختيار التي تقوم بدورها على آلية الملاءمة الدقيقة بين: (المعاني)، و(بين المعاني والألفاظ)، و(بين الألفاظ والألفاظ) وهي المرحلة التي تظهر فيها آلية التعليق والتركيب النحوي، ومن خلالها يتضح انتظام النسق اللغوي. وهذا ما يؤدي إلى توضيح حقيقة اعتماد المتكلم في عديد ملاءماته وإجراءاته على قوانين نظام لغته: النحوية، المعجمية، الدلالية.

3 - البعد التواصلّي أو التداولي:

يمثل التبليغ الأساس الذي يضمن سيرورة الفعل الإنتاجي للخطاب، وهو ما ينقله من الوضع السكوني إلى مجال التفاعلية والتواصل أين تتجلى أهمية ما يحمله من دلالات وأغراض، ليتمكن بذلك منتجه من إحراز المنفعة. فليس لأهمية ما تنتج من خطابات نتيجة مرجوة إذا لم يكن الغرض من الإنتاج التعامل مع أطراف أخرى محددة تكون محور التأثير وإحداث التغيير.

نجد هذا واضحاً من خلال ما قدمته نظرية النظم؛ حيث تدور وتلتقي مختلف أفكار الجرجاني وتوضيحاته حول الفعل اللغوي التبليغي (أو التداولي) للخطاب. إذ يعد الخطاب علاقة اجتماعية يسير فيها منتجه (المتكلم) وفق مبادئ وشروط تفرضها مكونات الواقع الخارجي المتمثلة في: المخاطب والمقام.

يعد الخطاب نسقاً من العلاقات التي تنشأ في إطار السياق اللغوي والسياق التواصلّي، وهي ما يمكن

الحديث عنها من خلال ثلاثة مستويات:

1 - المستوى الدلالي:

2 - المستوى التركيبي:

3 - المستوى التداولي: ويشمل:

أ - المتكلم: توجه إليه استراتيجيات وقوانين عملية إنتاج الخطاب.

ب - المخاطب: توجه إليه أساسيات فهم وتأويل الخطاب.

ج - المقام: ونقصد به ظروف وحشيات الخطاب.

لا يخلو أي خطاب من حيث هو عملية لغوية تبليغية من هذه المستويات، التي تتداخل فيما بينها إذ من خلالها ينشأ ويتكون الخطاب فيكون خطابا متكاملا، ويحدث عكس ذلك في حالة غياب أحدها، إذ تشكل تلك المستويات - في الواقع - بنيتا الخطاب الداخلية والخارجية، تمثل البنية الأولى (المستوى التركيبي والمستوى الدلالي) في حين يمثل (المستوى التداولي) البنية الثانية. وما يهم مستعمل اللغة من كل ذلك هو (مبدأ التبعية) الذي تخضع له تلك البنيتين، وفحواه: ارتباط البنية الداخلية بالبنية الخارجية وتبعيتها لها؛ إذ تعد هذه الأخيرة البنية الرئيسة*؛ حيث تقوم بين عناصرها أدوار وعلاقات على أساسها تتم عمليات الفعل الخطابي (إنتاجا، وتلقيا (فهما وتأويلا)).*

تكون مستويات البنية الداخلية وذلك بالنظر إلى علاقتها بعناصر المستوى التداولي الموضوع المستهدف إنتاجا وتلقيا، ليكون مراعاة نوعية تلك العناصر الشرط الذي يجب التزامه في كل مرحلة، ومن مقتضيات هذا التصور وجوب الانطلاق من حقيقة كون الممارسة الخطابية، عملية متقاسمة بين المتكلم والمخاطب، بحيث يكون لكل طرف (دورا طرديا) بالنظر إلى الطرف الآخر؛ ففي حين يخضع إنتاج الخطاب لشرط توفر مقام تواصلية معين وتوجيهه لمخاطب ما، يكون الفهم والتأويل مؤسسا على ضرورة ربطه بظروف إنتاجه، مما يقتضي العودة إلى منتجه (المتكلم) ومقامه الذي قيل فيه. ويتمحور عمل المتكلم حول المستوى الدلالي والمستوى التركيبي وذلك تأسيسا على ما يفرضه المستوى المقامي (التداولي).

- المستوى الدلالي:

يستند الفعل التداولي للخطاب البلاغي - حسب ما جاءت به نظرية النظم - على مبدأ تحقيق الملائمة والربط بين مستواه التركيبي ومستواه الدلالي، فقد عمل الجرجاني على تبين دور المكون الدلالي، إذ يتحكم هذا الأخير في نظم الخطاب، الذي يمكن عده صورة نظامية تنتج عن تشكيل المتكلم لدلالات محددة وصياغتها على

* - نذهب هنا إلى أن المستوى التداولي هو المستوى الذي تتمحور حوله بلاغة الخطاب، إذ تتوزع حسب ما جاءت به نظرية الجرجاني على عناصره

التي تتعالى فيما بينها مقتضيات وشروط البلاغة.

* - تختلف الآليات التي يوظفها المتلقي أثناء تعامله مع خطاب أو إنتاج لغوي ما، وذلك حسب طبيعة المعاني والمقاصد التي يحملها؛ حيث تكون في الغالب الكثير بين الصريح (الظاهر) الذي يتميز بسهولة الفهم، والمضمر الذي يحتاج فهمه إلى توظيف تقنية التأويل، ولعل هذا ما ينطبق على الخطاب العادي والخطاب الأدبي.

نحو ما. فلا فائدة من تركيب الوحدات اللغوية في حالة غياب ذلك المكون، وهذا ما يؤول إلى أن "الكلام الذي هو العبارة والخطاب إنما سره وروحه في إفادة المعنى، وأما إذا كان مهملاً فهو كالموت الذي لا عبرة به"¹، وبناء على ذلك ارتبط نجاح الكلام (الخطاب) أولاً - وذلك باعتباره كيانه لغوياً تبليغياً يتكون من جانبين جانب شكلي وجانب دلالي - بفهم المخاطب لحمولته الدلالية ومعناه، فالأهمية و"الاعتبار بمعرفة مدلول العبارات لا بمعرفة العبارات"².

يتمحور طرح الجرجاني حول (الدلالة التركيبية) التي تكون نتاج لعلاقات لغوية نظامية معينة يصدرها المتكلم؛ وليس على المعاني اللغوية الوضعية. وهذا ما يخرجنا إلى القول بفكرة إن المهم هو استعمال اللغة وليس معرفتها، وتعد تلك الدلالة (دلالة مقامية - بلاغية) مدارها ثنائية: (المعنى / ومعنى المعنى)؛ معنى أول صريح، ومعنى ثاني ضمني (مضمّر)، يدركه المخاطب من خلال التأويل أين يبرز المكون البلاغي باعتباره "المكون الذي يضطلع بإنتاج المعاني الثانية (المضمرة) المقابلة للمعاني الأولى (الصريحة)، وإن كان هو المكون الذي تلتقي فيه الدالتان الصريحة والمضمرة إلا أنهما يندمجان فتتمخضان عنهما دلالة مقامية - بلاغية"³، تابعة لمقام الخطاب وظروف إنتاجه حيث تكون محملة بخصائص ذلك الجانب.

والملاحظة التي يجب الوقوف عليها في هذا السياق، هو أن هذه النظرية قد عنيت بتبيين كيفية تشكيل المعنى أو تقنيات وجه الدلالة على الغرض، التي يكون على أساسها التفاضل بين إنتاج لغوي بلاغي وآخر؛ إذ "لا يكون لإحدى العبارتين مزية على الأخرى، حتى يكون لها في المعنى تأثير لا يكون لصاحبتهما. فإذا قلت: فإذا أفادت هذه ما لا تفيد تلك، فليستا عبارتين من معنى واحد، بل هما عبارتان عن معنيين اثنين، قيل لك: إن قولنا المعنى في مثل هذا، يراد به الغرض"⁴، والواضح من ذلك هو تفريق الجرجاني بين (المعنى والغرض)، فعلى القارئ أن يدرك أنهما أساس المستوى الدلالي؛ إلا أن لكل واحد منهما وظيفة وبالتالي فليس المعنى هو الغرض؛ إذ يمثل المعنى (الفحوى الدلالي للخطاب)، أما الغرض فهو ما يريد المتكلم أن يصل له عبر خطابه (قصد المتكلم). وتكون كيفية إخراج المعنى ونظمه مدار التفاوت في درجة البلاغة، وهو ما يتيح إمكانية التمييز بين الخطابات ذات الغرض الواحد. ويمكن التمثيل لذلك، بغرض الإقرار والإشادة بفضل القرآن وأهميته على الناس؛

¹ - ينظر: ابن خلدون، المقدمة، ج2، الدار التونسية للنشر، تونس، د/ط، د/ت نشر، ص 748.

² - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص 67.

³ - بن عيسى عسو أزابيط، الخطاب اللساني العربي - هندسة التواصل الإضماري - (من التجريد إلى التوليد)، مستويات البنية الإضمارية وإشكالاتها الأساسية، 2، ص 37.

⁴ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص 268.

حيث أخرجهم من الظلمات إلى النور، وهو ما توضحه الجملتين (أ) و(ب) اللتين ترتبطان بما قاله كل من عمرو وخالد على التوالي.

أ - القرآن كالنور على الناس.

ب - كأن القرآن نور على الناس.

تتفق الجملتان حول غرض إثبات وإقرار أن القرآن نور، إلا أنهما يختلفان في كيفية النظم وذلك ما يؤدي حتما إلى اختلاف المعنى؛ إذ مما لا شك فيه أن زيادة (أن) يقود إلى زيادة قوة المعنى (وذلك ممكن الاختلاف).

- المستوى النحوي التركيبي:

تأسس عملية إنتاج الخطاب البلاغي في إطار نظرية النظم على أساس مفهوم العلاقة القائم على مبدأ الإسناد أو التركيب النحوي، الذي يخضع فيه المتكلم أولا وقبل كل شيء لنظام لغته، وذلك من خلال بناء الخطاب ونظمه وفق ما تقتضيه قوانين علم النحو.

يمثل النحو الأداة الرئيسة التي توجه الاستعمال اللغوي وتقوده إلى مجال الصحة والاستقامة. ولذلك عد الاعتماد على أصوله سبيل الوصول إلى المعنى، وهذا ما ربطوه خاصة بالإعراب؛ ذلك أن "الألفاظ مغلقة على معانيها حتى يكون الإعراب هو الذي يفتحها... وأنه المعيار الذي يتبين نقصان كلام ورجحانه حتى يعرض عليه والمقياس الذي لا يعرف صحيح من سقيم حتى يرجع إليه"¹، فبدون الإعراب يكون الكلام أجوفا وناقصا، وهو ما يظهر على المعنى، حيث يكون مشوها إلا أن الاعتماد على الإعراب يعمل على ضبطه وتوضيحه.

وما يجب الإلماح إليه هنا هو أن الجرجاني قد عمل على تغيير المفهوم الخاطئ، الذي آل إليه النحو في عصره حيث عُده "ضربا من التكلف وبابا من التعسف وشيئا لا يستند إلى أصل ولا يعتمد فيه على عقل. وأن ما زاد منه على معرفة الرفع والنصب وما يتصل لذلك مما تجده في المبادئ فهو فضل لا يجدي نفعا ولا تحصل منه على فائدة، وضربوا له المثل بالملح"²، حيث تؤدي كثرته في الطعام - حسب رأيهم - إلى فسادة وهو ما ينطبق على النحو، إذ تتسبب كثرة أحكامه في فساد الكلام، وهذا ما عده رأيا فاسدا لا يجب أن يعتد به عاقل، ومن هذا المنطلق وضح أن القول بأن النحو في الكلام كالمالح في الطعام لا يصح، إلا إذا كان المعنى المقصود أن "الكلام لا يستقيم ولا يحصل منافعه التي هي الدلالات على المقاصد، إلا بمراعاة أحكام النحو فيه، من الإعراب

¹ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص 87.

² - المصدر نفسه، ص 67 و 68.

والترتيب الخاص، كما لا يجدي الطعام ولا تحصل المنفعة المطلوبة منه، وهي التغذية، ما لم يصلح بالملح"¹، إذن يجب التسليم بأن النحو يضمن استقامة الكلام ويحمل معناه الأساس الذي يكفل له الصحة، ومما لا شك فيه أن التطرق لهذه المسألة ليس بالشيء الجديد الذي ابتدأه الجرجاني، فقد تمت مناقشة ذلك وتأكيد أهمية النحو عند العديد من اللغويين قبله، ولعل ربطهم النحو بوظيفة حماية النص الديني وحفظ اللسان العربي هو ما ركز عليه كذلك.

اهتم الجرجاني بتبيين مكانة النحو وتوضيح حقيقة مزية قوانينه وأصوله، إذ يرى أن المزية لا تكمن في مجرد المعرفة بها، وإنما في استعمالها وحسن توظيفها في عملية نظم عبارات وتراكيب لغوية ناجحة (بلاغية)؛ إذ لا سبيل إلى ذلك دون "أن نضع كلامنا الوضع الذي يقتضيه علم النحو ونعمل على قوانينه وأصوله، ونعرف مناهجه التي نبحث فلا نزيغ عنها، ونحفظ الرسوم التي رسمت لنا فلا نخل بشيء منها"²، ويكشف ذلك عن أهم المبادئ في نظرية النظم، وهي أن النحو أساس النظم ومصدر العملية الإبداعية البلاغية، وهذا ما يعني الانتقال من (أحكام النحو) إلى (معاني النحو) التي هي مختلف العلاقات الوظيفية القائمة بين الكلم. وقد كان الوقوف على هذا الأمر الطريق الذي أجابت من خلاله هذه النظرية عن سؤال بلاغة الكلام المركب، الذي عُد في الوقت نفسه تطوراً عرفه البحث النحوي البلاغي، حيث تم الانتقال من مجال الكلم المفردة إلى مجال الكلم المركبة وهو ما يمثل مفهوم الخطاب.

إذن تعد آلية انتحاء أساسيات ومبادئ الاستعمال اللغوي التي ورد عليها كلام العرب، بمختلف أساليبه وهو ما يمثل (النظم النحوي) أول ما تتطلبه عملية بناء الخطاب، لينتقل المتكلم بعد ذلك إلى مجال الإبداع الأدبي بآلياته وكيفياته اللغوية المتنوعة. وهي ما تمكنه من صياغة الخطاب صياغة بلاغية، وذلك ما يدخل في إطار (النظم البلاغي) الذي يتعلق بمعاني النحو. فإنتاج الخطاب البلاغي حسب نظرية النظم يكون على مرحلتين:

أ - المرحلة الأولى: وفيها يسعى المتكلم إلى تحقيق (الوضوح) الذي يتعلق بالصحة أو السلامة اللغوية، ويكون ذلك من خلال اللجوء إلى مقتضيات الإسناد النحوي، الذي يقوم على ثنائية مسند/ مسند إليه، وهذا ما يوضحه مبدأ التعلق النحوي. ويتوقف الأمر في هذه المرحلة عند حدود (الوظيفة الإبداعية أو التواصلية) للخطاب.

¹ - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، قرأه وعلق عليه: محمد محمود شاكر، ص 81 و 82.

² - ينظر: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 127.

ب - المرحلة الثانية: تتعدى مجال الصحة والفساد إلى مجال (المزية والفضل)؛ إذ يهتم المتكلم هنا بكيفية تبليغ الخطاب في طابع بلاغي في مؤثر، يمكنه من الاستحواذ على اهتمام المخاطب وتفضيله وذلك بالمقارنة مع خطاب آخر، إذ يمثل العمل على إحداث التأثير الذي تفرضه (الوظيفة البلاغية) محور تركيز المتكلم. وفيه يعمل على الصياغة البلاغية الإبداعية الجيدة لمعاني النحو حيث يتمكن من بلوغ مرتبة النظم البلاغي.

ولا بد من الإقرار بأن عدم الخروج في هذه المرحلة عن حدود الجانب التركيبي للخطاب، الذي يتمحور فيه الاهتمام حول النظم البلاغي، يجعل ضرورة احترام شرط توحي أحكام النحو ملازم لتقنيات المتكلم المستعملة في هذه المرحلة كذلك، غير أن ارتباط الأمر بهدف تحقيق البلاغة يؤدي حسب مبادئ نظرية النظم، إلى تغيير منحى تركيز عمل المتكلم من (النحو المعياري) إلى ما يعرف (بالنحو البلاغي)؛ فقد وضع الجرجاني مفهوما جديدا للنحو يقوم على تقصي الإبداع والجودة الفنية بدل الصحة والصواب. وذلك ما يظهر من خلال استخدام معاني النحو بطريقة خاصة يرد عليها تركيب الخطاب، إذ "لا فضيلة حتى نرى في الأمر مصنعا، وحتى نجد إلى التخيير سبيلا ... لأننا لسنا في ذكر تقويم اللسان والتحرز من اللحن وزيف الإعراب .. وإنما نحن في أمور تدرك بالفكر اللطيفة، ودقائق يوصل إليها بثاقب الفهم"¹، حيث يتم تجاوز حدود الأداء المتبع للنظام الثابت العام، إلى الأداء الفردي الذي يصيغ بلاغة التركيب وفق طابع خاص من استخدام ذلك النظام، في جانبه المتعلق بنظم الكلم ترتيبا وترابطا، مما يولّد دلالة متميزة وهذا ما يعتمد فيه على التخطيط العقلي الإبداعي.

يعد ذلك النحو نحو العلاقات التي يكونها مستعمل اللغة في خطابه المتنوعة. فتصور الجرجاني هذا "يجعل من النحو ذلك العلم الذي يبحث ويشرح العلاقات التي تقيّمها اللغة بين الأشياء إن لم يكن النحو نفسه هذه العلاقات. ولذا كان تصوره للنحو تصورا جديدا ارتبط بعلم البلاغة"²، وهو ما يتماشى وطبيعة الخطاب البلاغي. ويستند هذا النوع من النحو على ركنين هما:

أ - معاني النحو وأحكامه.

ب - الوجوه والفروق التي تنتج عن توظيف المتكلم لمعاني النحو.

يكون الخطاب من خلال معاني النحو وأحكامه بين النظم العادي (العام) والنظم البلاغي (الخاص)، وهو ما يجعله في الوقت نفسه بين النظام الثابت الذي يدور حول (أحكام النحو)، والأداء المتغير الذي تمثله (معاني

¹ - ينظر: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 56.

² - أحمد عبد السيد الصاوي، النقد التحليلي عند عبد القاهر الجرجاني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، ط: 1979، ص 161 و 162.

النحو)، التي تتيح إمكانية إنتاج وجوه تركيبية متعددة ذات فروق دلالية متباينة. وهذا ما نتطرق لتوضيحه في حديثنا عن النظم.

ثانيا: أسس بلاغة الخطاب في نظرية النظم:

عنيت نظرية النظم بتفسير عوامل اختلاف أساليب الاستخدام البلاغي للغة وتفاوت درجة سمة بلاغية الخطاب الأدبي، حيث توصل الجرجاني تأسيسا على أبرز مميزات اللغة الأدبية، التي طبعت أجناس كلام العرب - لاسيما لغة الجنس الشعري - أن ذلك راجع إلى تقنيات المتكلم البلاغية، التي تساهم في تشكيل خصوصية ومزية خطابه. وهذا ما يؤول الأصل فيه إلى آليتي: (اللفظ) أو (الصورة)، و(النظم)، وقد شكل وجودهما في الكلام المعيار الذي كان على أساسه تصنيف الجرجاني للكلام البلاغي. الذي جعله ثنائيا مرة وثلاثيا مرة أخرى.

أ - التقسيم الثنائي:

جعل الجرجاني الكلام البلاغي (الفصيح)، هنا، وذلك بالنظر إلى وجه المزية قسمين؛ حيث يقول: "اعلم أن الكلام الفصيح ينقسم قسمين: قسم تعزى المزية والحسن فيه إلى اللفظ وقسم يعزى فيه إلى النظم، فالقسم الأول الكناية والاستعارة والتمثيل الكائن على حد الاستعارة، وكل ما فيه على الجملة مجاز واتساع وعدول باللفظ الظاهر..¹، إذ يكون اللفظ الذي يضم الصورة البلاغية والمجاز والاتساع معيار بلاغة الكلام وفصاحته. أما القسم الثاني فهو الذي تعزى فيه المزية إلى النظم"²، حيث يعد معيار البلاغة والفصاحة.

ب - التقسيم الثلاثي:

أضاف الجرجاني إلى القسمين السابقين قسم ثالث؛ وهو ما يجمع فيه صانعه بين اللفظ والنظم فيقول: "وجملة الأمر أن هاهنا كلاما حسنه للفظ دون النظم، وآخر حسنه للنظم دون اللفظ، وثالثا قرى الحسن من الجهتين، ووجبت له المزية بكلا الأمرين. والإشكال في هذا الثالث. وهو الذي لا تزال ترى الغلط قد عارضك فيه. وتراك قد حفت فيه على النظم فتركته، وطمحت ببصرك إلى اللفظ، وقدرت في حسن كان به وباللفظ أنه للفظ خاصة، وهذا هو الذي أردت حين قلت لك: إن في الاستعارة ما لا يمكن بيانه إلا من بعد العلم بالنظم والوقوف على حقيقته"³، ولقد طال حديث وشرح الجرجاني لخصائص النمط الثالث، لاسيما بعدما لاحظ وقوع

¹ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 166.

² - المصدر نفسه.

³ - المصدر نفسه، ص 143.

الخطأ في فهمه وصعوبة استنباط وجه المزية فيه؛ إذ يضطرب المتلقي في تحديد ذلك فيجعل النظم وجهها لمزية الكلام تارة ثم يتردد ويتراجع عن ذلك، ليجعل اللفظ - الذي يغريه - وجه الحسن تارة أخرى. وهذا ما يؤدي - بلا شك - إلى عرقلة عملية التلقي فهما وتأويلا.

ومن الأمثلة التي وضع بها هذا القسم قول الشاعر (من الرجز):

الليل داج كنفا جلبابه والبين محجور على غرابه

يقول الجرجاني: "ليس كل ما ترى من الملاحظة، لأن جعل الليل جلبابا. وحجر على الغراب، ولكن في أن وضع الكلام الذي ترى، فجعل "الليل" مبتدأ، وجعل "داج" خبرا له، وفعلا لما بعده وهو الكنفان، وأضاف (الجلباب) إلى "الليل" ولأن جعل كذلك "البين" مبتدأ وأجرى "محجورا" خبرا عنه، وأن أخرج اللفظ على مفعول. يبين ذلك، أنك لو قلت (قد دجا كنفا جلباب الليل) لم يكن شيئا"¹، يؤول سر الملاحظة - حسب رأيه - إلى امتزاج روعة التصوير المجازي (الليل، الغراب) وغموض دلالاته وغرابتها، بجودة النظم الذي قام على حسن الملائمة بين الكلم؛ إذ نلاحظ بينها تناسقا واتساقا وذلك ما يظهر في وحدة الترابط الشكلي والدلالي، ومن هذا المنطلق فإن فحص المتلقي الدقيق لمثل هذا النوع أهم طريق لمعرفة سمات تشكيكه وفهم المعنى.

وينضوي - حسب ما أوضحه الجرجاني - كل من النظم واللفظ على أسرار ومعايير يجب على المبدع معرفتها قصد استثمارها من أجل تحقيق بلاغة الخطاب.

1 - النظم:

يعد النظم مجال اشتغال المبدع حيث يعمل على خلق سمات الجودة والإبداع البلاغي، ولعل هذا ما نبه إليه الجرجاني في قوله "وإذ قد عرفت ذلك فاعمد إلى ما توصفوه بالحسن، وتشاهدوا له بالفضل ثم جعلوه كذلك من أجل النظم خصوصا دون غيره، مما يستحسن له الشعر أو غير الشعر، من معنى لطيف، أو حكمة أو أدب أو استعارة أو تجنيس، أو غير ذلك مما لا يدخل في النظم وتأمله، فإذا رأيتك قد ارتحت واهتزت واستحسننت فانظر إلى حركات الأريحية مما كانت، وعند ماذا ظهرت ؟"²، ويبدو أن الجرجاني يسعى عبر سؤاله الذي يخاطب به المبدع إلى الإقرار، بأن النظم الأصل اللغوي الفني الذي يقوم عليه الخطاب الإبداعي البلاغي (الشعر أو الخطابة)،

¹ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 145.

² - المصدر نفسه، ص 129.

وذلك ما يتعلق بحركات صياغة المعنى وإيراده، إذ نجد النظم الفني الدقيق الذي تتولد عبره البلاغة. ففي قول الشاعر:

فلو إذ نبا دهر وأنكر صاحب وسلط أعداء وغاب نصير

تكون عن الأهواز داري بنجوة ولكن مقادير جرت وأمور

فإن كل ما نتبينه من روعة البيتين وجودة المعاني، حيث نشعر بقوة التأثير الدلالي الجمالي النفسي، إنما يرجع إلى حيل وذكاء المبدع في ممارسة النظم بحكمة ودقة، ويرى عبد القاهر أن سبب "الرونق والطلاوة، والحسن والحلاوة، إنما يرجع إلى تقديمه الظرف الذي هو (إذ نبا) على عامله الذي هو (تكون)، فلم يقل: (فلو تكون عن الأهواز داري بنجوة إذ نبا دهر). ثم أن قال (تكون) ولم يقل (كان)، ثم أن نكر (الدهر) ولم يقل (فلو إذ نبا الدهر)"¹، وغير ذلك من وجوه براعة الشاعر في نظمه؛ حيث برع في اختيار الكلمات المناسبة ونسق بينها تنسيقاً قوياً، فقدم نظماً جيداً استطاع من خلاله أن يعبر عن غرضه؛ الذي يتعلق بحالته النفسية، التي يعيشها جراء تقلب الدهر عليه، ولذلك يمكن أن نحكم بفنية ما قدمه.

لقد كان عبد القاهر حريصاً على تأكيد أهمية النظم وكشف ما ينضوي تحته من أسرار ودقائق، تعد أساس العملية الإبداعية النظامية البلاغية، حيث لا يمكن للمبدع دخول مجال البلاغة دون معرفتها، فيقول "اعلم أن هاهنا أسراراً ودقائق لا يمكن بيانها إلا بعد أن نعد جملة من القول في النظم وتفسيره والمراد منه، وأي شيء هو؟ وما محصوله ومحصول الفضيلة فيه؟ فينبغي لنا أن نأخذ في ذكره، وبيان أمره، وبيان المزية التي تدعى له من أين تأتيه.. وقد علمت إطباق العلماء على تعظيم شأن النظم وتفخيم قدره... وإجماعهم أن لا فضل مع عدمه، ولا قدر لكلام إذا هو لم يستقم له، ولو بلغ في غرابة معناه ما بلغ"²، وهذا ما تبناه وكان أساس نظريته. ومما لا شك فيه أن الحديث عن النظم يدور حول مستوى الخطاب التركيبي، الذي يمثل مجال المتكلم الإجرائي، وبالتالي مجال ظهور تفاوت تحليلات البلاغة ومراتبها. خاصة وأن الأمر يتعلق هنا بالنظم البلاغي الذي يتأسس على معاني النحو ومختلف الوجوه التركيبية والفروق الدلالية الناتجة عن توظيفها.

يصيغ المتكلم وينظم مختلف العلاقات التي تأخذها معاني النحو في خطابه وفقاً لما يتيحها النظم النحوي وآلياته التحويلية. التي يمكن له من خلالها القيام بعدة إبدالات وتغييرات نظامية كثيرة؛ "فما يقصده عبد القاهر من النظم هو ما ينتظم عليه الكلام بطرق كثيرة جداً، مما يميزه النحو، ونلاحظ أن كل ما هو جائز في النحو،

¹ - ينظر: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 131.

² - ينظر: المصدر نفسه، ص 126.

فهو مهياً للمتكلم، ليستثمره بحسب ما له من أغراض، لا لشيء إلا لأن كل طريقة من الكلام تختص بدلالة خطابية خاصة، أو بفائدة كما يقول البلاغيون، وهي النكته. وهي دائما زائدة عن المعنى الوضعي لأنها عرف خاص بالاستعمال¹، يؤكد مفهوم النظم لمستعمل اللغة إمكانية الخروج عن الثابت وإجراء عدة تغييرات لغوية إبداعية ذات وجوه كلامية ودلالات كثيرة متباينة، وذلك ما يتيح النحو وتحديد معانيه، ولا بد أن الحكمة من تغيير النظم لا تظهر إلا بحصول تغير شدة الدلالة، إذ تتفاوت من نظم لآخر فتكون ضعيفة ومتوسطة وقوية خاصة، وبلوغ هذه الأخيرة تحصل الفائدة المستهدفة، إذ يكون الاستثمار الإبداعي المثالي لمعاني النحو.

قدّم الجرجاني آلية جديدة للتعامل مع النحو تكشف عن بعده البلاغي، الذي يفيد المتكلم في تشكيل الخطاب الأدبي البلاغي على درجة كبيرة من الدقة والجودة، ليستحوذ على قبول المتلقي وإعجابه. ويتحقق ذلك من خلال نظم الخطاب بالنظر إلى معاني النحو، حيث يكون وضع الكلم واختيار كيفية الربط والتنسيق بينها على أساس مراعاة تلك المعاني، ليكون ذلك النظم - في الحقيقة - نظماً لمعاني النحو التي تأخذ مواقعها طبقاً لأغراض المتكلم. إذ تعبر معاني النحو عن مختلف أغراض المخاطب التي تعكس بدورها ما يعرف بالمعاني النفسية، فيكون الخطاب في نظرية النظم - بناء على ذلك - نتاج لما تفرضه العلاقة التي تربط معاني النحو بالأغراض أو المعاني النفسية.

تعتبر الطريقة التي يعتمد عليها المتكلم (المبدع) في استعمال معاني النحو، في إطار سعيه لإنجاز خطاب بلاغي ما، عن مدى طاقته الإبداعية، وتؤكد - في الوقت نفسه - عمق الذوق الفني الذي سار عليه، وذلك ما يتجلى في حسن ودقة اختيار مواقع المعاني النحوية المستعملة للتعبير عن المقاصد بدقة.

تعكس معاني النحو بلاغة اللغة العربية وعمق بعدها الفني، وهو ما يتجلى في عديد الأساليب الكلامية الناتجة عن سلسلة العلاقات التي تحكم التعبير اللغوي، سواء ما جاء وفق ما يقتضيه المستعمل الشائع أو ما خالف ذلك؛ عبر خروج المتكلم عن القاعدة أو الصورة النمطية للتركيب النحوي. وهذا ما يعني أن بنية الخطاب التركيبية ترد وفق عدة احتمالات، وذلك ما يفسر (الطابع الإبداعي أو التحويلي) للغة الذي تشرف عليه معاني النحو.

تكون إستراتيجية وجوه النظم ذات فاعلية كبيرة في تشكيل المعنى والرفع من الطاقة الإبداعية - البلاغية للكلام، حيث يتم التعبير عن المعنى الذهني وفق تراكيب فنية خاصة متنوعة، ف "لقد ركز الجرجاني على ما بين

¹ - عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج 1، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، ط: 2007، ص 65.

المفردات من علاقات بوصفها مجسدة للنشاط العقلي ومصورة له، وهذه العلاقات بدورها ليست إلا إمكانات النحو واحتمالاته داخل التركيب، فهي التي تعطي الصياغة ملاحمها الفنية في الشعر أو النثر، كما أنها هي التي تخلصها من فوضى الجمع وعفوية التعبير"¹، ويعني ذلك أن التحويلات التي نجريها عبر معاني النحو عملية عقلية دقيقة، تتسم بالفنية والإبداعية التي تتجلى بوضوح في التراكيب المنظومة، إذ تظهر في أتم وأبدع صورة خطائية، وذلك ما يُبيّن لنا (الرؤية العقلية) التي ميزت نظرية النظم.

والملاحظة التي يجب أن نشير إليها هنا هي أن الحديث عن آلية التحويل التركيبي، التي تفضي إلى تعدد وجوه أو احتمالات استعمال اللغة، وجعل ذلك مرتبطاً بطبيعة وشروط الخطاب البلاغي خاصة، هو ما ورد عند عدة علماء قبل عبد القاهر الجرجاني؛ وذلك مثل أبي عبيدة في كتاب المجاز، وابن جني من خلال حديثه عن شجاعة العربية .. وغيرهما. وقد أعاد الجرجاني صياغة ذلك وتقديمه وفق رؤية جديدة شاملة عبّر عنها بمصطلح النظم الذي يتأسس على (مبدأ المناسبة المقامية).

لقد أصبحت البلاغة مع عبد القاهر الجرجاني متوقفة على تحقيق مبادئ معاني النحو، وما يتبع هذا الأمر من قواعد تضبط الاستعمال اللغوي. ولعل الربط والمناسبة بين الكلام والمقام أهم تلك القواعد التي أكد على أهميتها الجرجاني، إذ يقول: "واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها"²، حيث أكد على أن مفهوم النظم يتحقق من خلال توخي معاني النحو، وقد ربط ذلك التوخي بشرط آخر يتمثل في وضع التراكيب الاستبدالية المنظومة عبر معاني النحو في الموضع المناسب لها، إذ يجب على المتكلم أن "يعرف أن لكل تركيب موضعه وأن يجيء به حيث ينبغي له"³، ويحيل (مصطلح الموضع) إلى علاقة الخطاب بمقامه التواصل، وتعني عبارة (ينبغي له) أن يكون إirاده تبعاً لظروفه وحيثياته الخاصة المرتبطة به بما في ذلك الأغراض، لا سيما إذا تعلق الأمر بالتراكيب التي تبدو للمتلقي متشابهة في وحدتها اللغوية. وهذا ما يمكن التمثيل له بالجمليتين الآتيتين: (أ) خرج عمرو، (ب) إن عمرو خرج، حيث نوظف الأولى بغرض الإخبار، أما الثانية فتكون بغرض التأكيد، فكل تغيير لمواقع الألفاظ أو زيادة في التركيب تكون تابعة لمقام وغرض.

¹ - محمد عبد المطلب، قضايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجاني، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت - لبنان، ط1: 1995، ص 59.

² - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 127.

³ - ينظر: المصدر نفسه.

يتوقف إتقان نظم الخطاب البلاغي وجعله في قمة الوضوح والبيان - حسب الجرجاني - على دقة استثمار ما يقدمه الطابع التحويلي للغة؛ بحيث يصيغ المتكلم المعاني ويضع المقاصد بحكمة، وفقا لما يفرضه ذلك المبدأ الذي ينص على ضرورة **مطابقة الكلام لمقتضى الحال**. فيأتي بذلك كل أسلوب على وجه خاص من وضع ونظم معاني النحو. وهذا ما وقف عليه **الزمخشري** موضحا مفهوم النظم عند الجرجاني قائلا: "إن مقامات الكلام متفاوتة، فمقام التنكير يبين مقام التعريف، ومقام الإطلاق يبين مقام التقييد، ومقام التقديم يبين مقام التأخير، ومقام الذكر يبين مقام الحذف ... وهذا، أعني تطبيق الكلام على مقتضى الحال، هو الذي يسميه الشيخ عبد القاهر بالنظم حيث يقول: النظم توخي معاني النحو فيما بين الكلم على حسب الأغراض التي يصاغ لها الكلام"¹، فعلى القارئ أن يتيقن أن الحديث عن النظم عند الجرجاني يرتبط باستعمال اللغة، وهو الاستعمال الوظيفي الناجح الذي يفصح صاحبه عن المعاني ويبين عنها، ويعبر عن الغرض، ويصل إلى الهدف.

لقد وقف الجرجاني على دور الأغراض (أو المقاصد) باعتبارها أساس وجود الخطاب أو انعدامه، موضحا من خلال ذلك أنه متى كانت بنية الخطاب معبرة ومطابقة أولا لمقاصد المتكلم وتابعة للسياق الخارجي (المقام) بكل مكوناته، مراعية لما يفيد المخاطب ملائمة لجميع حالاته كانت فعالية التأثير ومن ثمة نجاح التبليغ، ليثبت لمنتجه بذلك الفضل والمزية. إذ يقول: "واعلم أنا لم نوجب المزية من أجل العلم بأنفس الفروق والوجوه فتستند إلى اللغة، ولكننا أوجبنها للعلم بمواضعها وما ينبغي أن يصنع فيها، فليس الفضل للعلم بأن الواو للجمع والفاء للتعقيب بغير تراخ وثم له بشرط التراخي وإن لكذا وإذا لكذا، ولكن لأن يتأتى لك، إذا نظمت وألفت رسالة، أن تحسن التخيير وأن تعرف لكل من ذلك موضعه"²، فليس الحكمة والفضل بمعرفة القواعد، وإنما باستعمالها الناجح. ويجعلنا هذا نذهب إلى توضيح حقيقة مفادها أن تلك المعرفة (معرفة ضمنية) تنتمي لمجال (القدرة اللغوية)، أما الاستعمال فيتعلق بالجانب التداولي الذي يرتبط (بالمملكة التواصلية الخطابية).

ترتبط عملية نظم الخطاب بموقف المتكلم الذي يتوخى توصيل أغراض بلاغية وجمالية تختلف من موقف لآخر، ولذلك يعد توخي عنصر الغرض من أهم شروط الصناعة الجيدة للكلام، فقد بين الجرجاني أن "معرفة أن مدار أمر النظم على معاني النحو وعلى الوجوه والفروق التي من شأنها أن تكون فيه، يستوجب العلم بأن الوجوه والفروق كثيرة، ليس لها غاية نقف عندها، ونهاية لا نجد لها ازديادا بعدها، ثم نعلم أن ليست المزية بواجبة لها في

¹ - الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، وضع حواشيه: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1: 2003، ص 20.

² - ينظر: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 261.

أنفسها، ومن حيث هي على الإطلاق، ولكن تعرض بسبب المعاني والأغراض التي يوضع لها الكلام"¹، فمن الواجب أن نقر بحتمية التعدد، التي تقول بتعدد الوجوه التركيبية، وتعدد الفروق الدلالية، وتعدد الأغراض التبليغية البلاغية، وذلك ما يجعلنا نسلم بمقولة: لكل (مقال مقام).

يعد ربط الكلام بمقامه التواصلية حتمية يفرضها التبليغ (أو التواصل) بعده علاقة وتفاعلا اجتماعيا، يتم بين طرفين في إطار سياق اجتماعي تواصلية معين تضبطه سنن وأعراف لغوية اجتماعية محددة، إذ تُنتقى بناء على ذلك وحدات الكلام (الخطاب) وتصاغ بنيتها بالنظر إلى ظروف وعوامل خارجية (يفرضها الواقع الخارجي على اختلاف خصائصه)، تكون في الغالب الكثير معيارا لاستقامة الكلام واستحالاته، ليتعدى ذلك إلى تصديق فحواه وقبوله أو تكذيبه ورفضه.

وتكتمل معادلة البلاغة عنده من خلال (مبدأ الفائدة)، الذي يفسر لجوء المتكلم إلى التحويل والتغيير النظامي بهدف تحقيق الإفادة وتحصيل نتائج وظيفية نفعية، فيقوم لأجل ذلك بالتغيير واستعمال الأسلوب المناسب القادر على زيادة قوة المعنى البلاغي. "وإذا كان عبد القاهر يربط جودة الشعر بما يتحقق فيه من وجوه النظم؛ منها تغيير مواقع الألفاظ داخل التركيب، فإنه ظل حريصا أشد الحرص على أن يكون لهذا التغيير نتائج معنوية. أي أنه يستحسن أسلوب التقديم والتأخير من حيث هو تحول شكلي في نظام الألفاظ، بل الحرص على أن يربط قيمته الفنية بقوته البلاغية في أداء المعنى"²، فبلاغة التشكيل النظامي تتوقف على ما يحمله من دلالات متميزة ذات أثر بلاغي عميق، يساهم في أريج النفوس وجذبها وإقناع العقول بقيمة ومزية ذلك، وهذا ما يوضح ماهية مبدأ الوجوه والفروق الذي يمكن الوقوف عليه عبر عدة أساليب وظواهر لغوية بلاغية مثل: (الحذف والذكر التعريف والتنكير الفصل والوصل). وقد وضع الجرجاني ذلك، وهو ما سنتطرق له من خلال ما يلي.

1 - 1. التقديم والتأخير:

ينشأ أسلوب التقديم والتأخير على إثر العبث بنظام الرتبة الذي يشكل القاعدة الأصلية التي تحكم نسق اللغة العربية، وذلك ما ضبطه النحاة من خلال الحديث عن رتب الكلم في التركيب التي جعلوها قسمين: رتب محفوظة ثابتة لا تقبل التغيير لأنه يؤدي إلى فساد التركيب، وذلك ما يدخل ضمن مباحث النحو، ورتب غير محفوظة تتيج لمستعمل اللغة إمكانية التغيير والتصرف في نظم بنية كلامه، وهو ما تكون دراسته مجالا مشتركا بين النحو

¹ - ينظر: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 132.

² - محمد مشبال، البلاغة والأصول، ص 155.

وبالبلغة، وضمن هذا المجال نجد التقدم والتأخير الذي يقتضي فيه المتكلم قوانين النحو ويحرص على تحقيق البلاغة، وهذا ما وقف عليه الجرجاني وأقام عليه نظريته من خلال مفهوم النظم.

أ - الرتب المحفوظة:

يأخذ تركيب الجملة في اللغة العربية ترتيباً قاراً بحيث تكون مواقع عناصره ثابتة مما يؤدي إلى حدوث الخلل، واستحالة الكلام في حالة عدم الحفاظ على علاقة العناصر ونظامها من خلال تغيير مواقعها، وذلك ما تعبر عنه الرتب المحفوظة التي تكون عناصر التركيب من خلالها شيئاً واحداً. وقد وضع ذلك النحاة حيث قال أبو الحسن بن أبي الربيع في شرح الإيضاح: خمسة أشياء هي بمنزلة شيء واحد: الجار والمجرور كالشيء الواحد، والمضاف والمضاف إليه كالشيء الواحد، والفعل والفاعل كالشيء الواحد، والصفة والموصوف كالشيء الواحد، والصلة والموصول كالشيء الواحد¹.

تقدم هذه الرتب وضعاً واحداً وهو ما يعني غياب تعدد الإمكانيات التعبيرية واختلاف الأساليب عليها، حيث يكون المتكلم مضطراً إلى تحقيقها إذ يؤدي مخالفتها إلى اختلال المعنى، ومن ذلك أنه يتمتع "تقديم الصلة على الموصول والمضمر على الظاهر في اللفظ والمعنى والصفة وما اتصل بها على الموصوف وجميع توابع الأسماء والمضاف إليه وما اتصل به على المضاف وما عمل فيه حرف أو اتصل به، لا يقدم على الحرف، وما شبه من هذه الحروف بالفعل فنصب ورفع فلا يقدم مرفوعها على منصوبها والفاعل لا يقدم على الفعل والأفعال التي لا تصرف لا يقدم عليها ما بعدها والصفات المشبهة بأسماء الفاعلين والصفات التي لا تشبه أسماء الفاعلين لا يقدم عليها ما عملت فيه والحروف التي لها صدر الكلام لا يقدم ما بعدها على ما قبلها²، ويؤول سبب عدم إمكانية التصرف في هذه الرتب إلى قوة العلاقة الدلالية بين تلك الوحدات من خلال انتظامها على ذلك الشكل، حيث يجعلها ذلك لحمة واحدة قوية الترابط، ولذلك يؤدي تغيير مواقع الكلم إلى خلخلة النسق مما يقود إلى فقدان الدلالة. ويمكن التمثيل لذلك بترتيب الصلة والموصول، ففي الجملة الآتية: (رأيت الكاتب الذي نال الجائزة)، لا تقدم (الذي) على اسم (الكاتب)، فنقول: رأيت الذي الكاتب نال الجائزة، حيث لا يتصور في ذهن عاقل أن يكون ذلك كلاماً.

¹ - جلال الدين السيوطي، الأشباه والنظائر في قواعد وفروع فقه الشافعية، ج 1، دار الكتب العلمية، ط1: 1983، ص 593.

² - أبو بكر بن سهل ابن السراج، الأصول في النحو، تح: عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، د/ت، ص 123.

ب - الرتب غير المحفوظة:

تعكس هذه الرتب مرونة نظام اللغة العربية واتساعه بحيث يكون قادرا على تلبية مختلف استعمالات المتكلم الوظيفية، فتكون بذلك قابلة لتبديل مواقع الكلم وتطوير الترتيب بما يخدم مختلف الأغراض والمقاصد. فيقدم بناء على ذلك ما حقه التأخير ويأخر ما حقه التقديم. إذ يستدعي مستوى الخطاب التداولي قيام المتكلم بعدة إبدالات تركيبية، تساهم في خلق عدد لا متناه من الإمكانيات التعبيرية التي يتجاوز فيها نظام الكلمات الشائع، إذ إن الخروج عن العام المبتدل يؤدي في الغالب الكثير إلى خرق القوالب الثابتة، من خلال صياغة تراكيب جديدة خاصة، وهو ما يتطلبه هدف زيادة قوة المعاني وتميزها.

يعد أسلوب التقديم والتأخير حسب الجرجاني عاملا لظهور بلاغية التعبير وحصول المتعة في تلقيه، فهو "باب كثير الفوائد، جم المحاسن، واسع التصرف بعيد الغاية، لا يزال يفتر لك عن بديعة، ويفضي بك إلى لطيفه، ولا تزال ترى شعرا يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك، ولطف عندك، أن قدم فيه شيء وحول اللفظ من مكانه إلى مكان¹"، وهذا ما يوضح قيمته كانزياح أو عدول فني يصنع لطافة التركيب، وعمق أثره الفني البلاغي حيث يلاحظ المتلقي قوة الدلالة وروعته.

انصب بحث الجرجاني بالنظر إلى قيمة هذا الأسلوب البلاغية وطبيعته الانزياحية حول دواعي توظيف المتكلم له، وذلك قصد تنفيذ الاختصار في تفسيره من قبل بعض العلماء قبله بالعناية والاهتمام. وهذا ما نبه إليه سيبويه قبله حيث يقول: "كأنهم إنما يقدمون الذي بيانه أهم لهم وهم يبيانه أعنى، وإن كانا جميعا يهماهم ويعنيانهم"²، فلا يكفي حسب رأي الجرجاني أن "يقال: إنه قدم للعناية، ولأن ذكره أهم، من غير أن يذكر من أين كانت تلك العناية؟ وبم كان أهم؟ ولتحليلهم ذلك قد صغر أمر التقديم والتأخير في نفوسهم، وهونوا الخطب فيه، حتى أنك لترى أكثرهم يرى تتبعه والنظر فيه ضربا من التكلف"³، فالحقيقة التي يجب أن يعلمها مستعمل اللغة هي أن الجرجاني يريد إبلاغه، أن ما ينبغي التركيز عليه هو بلاغة أسلوب التقديم والتأخير، فلا يتمسك بعشوائية توظيفه مستندا على نمطية التبرير بمبدأ العناية، فالواقع الاستعمالي اللغوي يقول أن تتعدد الأغراض الوظيفية التواصلية من وراء إيراد ذلك الأسلوب، وذلك ما يتمحور حول نوع دلالة الخطاب التي تكون من وراء استعماله، فلكل غرض دلالة معينة وهذا ما تتحكم فيه بالدرجة الأولى ظروف المقام التواصلية.

¹ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 148

² - سيبويه، الكتاب، تح: عبد السلام هارون، ص 123.

³ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 56.

وقد جعل الجرجاني التقديم والتأخير قسمين:¹

1- تقديم يقال إنه على نية التأخير.

2 - تقديم لا على نية التأخير.

يعد تغير الحكم الإعرابي مع التقديم أو بقاءه على حاله الرائر الذي يفصل بين هذين القسمين؛ حيث يظل الحكم ثابتاً مع الأول وذلك كخبر المبتدأ، والمفعول إذا قَدّم على الفاعل نحو:

أ - منطلق زيد، أصلها: زيدٌ منطلقٌ.

ب - ضربَ عمرًا زيد، أصلها: ضربَ زيدٌ عمرًا.

فلم يخرجها "(منطلق) و(عمرًا) بالتقديم، عما كانا عليه، من كون هذا مبتدأ مرفوعاً بذلك، وكون ذلك مفعولاً ومنصوباً من أجله، كما يكن إذا أخرت"²، فلم يتغير مع هذا التقديم الحكم الإعرابي، ويبدو أن ما تغير هو غرض المتكلم، الذي يكون تابعاً لمقتضى الحال، حيث يُغير تبعاً لما يريد إخبار المتلقي به وذلك حسب ما يتوفر في ذهنه عن وقوع الضرب بين عمر وزيد، ففي الجملة (ب) مثلاً يخبره عن المضروب (عمر)، بدل إخباره عن الضارب (زيد).

أما في الثاني فعلى عكس ذلك إذ يتغير الحكم الإعرابي مع التقديم ومثال ذلك:

أ - ضربتُ زيداً

ب - زيدٌ ضربته

ففي الجملة (ب) لم يقدم "زيداً" على أن يكون مفعولاً منصوباً بالفعل كما كان، ولكن على أن ترفعه بالابتداء، وتشغل الفعل بضميره، وتجعله في موضع الخبر له"³، يتبع هذا العدول غرض المتكلم الذي يكون وفق خصائص المقام التواصلية وعناصره، ويعد المتلقي أهم عنصر. ففي الجملة (أ) يكون المتلقي خالي الذهن، ولذلك يخبره بما فعل لعدم معرفته بذلك. أما في الجملة (ب) فإن المتكلم يعلم أن المتلقي على دراية بأنه (المتكلم) قد ضرب شخصاً ما، لكن لا يعرف من هو، فيكون تقديم زيد قصد تحديد المضروب.

يكون التقديم في كل قسم - حسب توضيحات الجرجاني - طبقاً لغرض المتكلم الوظيفي؛ حيث يعد الركن الأول الذي يتولد عنه التقديم وعلى أساسه يكون الاختلاف في استعماله. والواضح أن هذا الأسلوب يخدم

¹ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 148.

² - المصدر نفسه.

³ - المصدر نفسه، ص 79.

تعدد الأغراض التواصلية التابعة لملايسات وظروف المقام بما في ذلك المتلقي. فكل ذلك يدفع المتكلم إلى خلق حيل بلاغية لبناء الخطاب بطريقة ناجحة يعبر فيها عن الغرض بدقة، وذلك مع احترام مبدأ المناسبة المقامية ومبدأ الإفادة.

1 - 1 - أ. التقديم مع الاستفهام:

تتعدد البنيات الاستفهامية التي يعبر بها المتكلم عن غرضه الذي يتحكم فيه فيغيره من خلال آلية التقديم، المتعلقة بمواقع معاني النحو، وهو ما يكون - في الواقع - تغييراً لبؤرة السؤال والاستفهام، ويتوقف ذلك في نظر الجرجاني على نوع الوحدة اللغوية المبتدأ بها؛ إذ يختلف غرض الابتداء بالفعل عن غرض الابتداء بالاسم.

إن خاصية وجود الفعل في تراكيب التقديم الاستفهامية سواء المبتدأ بفعل أو المبتدأ باسم، هي ما تلاحظ على توضيحات الجرجاني للفروق الدلالية التي تفصل بين تلك التراكيب، حيث نجد أنه يتحدث بالنظر إلى زمن الفعل عن التراكيب الاستفهامية التي يكون فعلها ماضي وتراكيب أخرى فعلها مضارع.

أ - الفعل الماضي: ويشمل حالتين:

أ - حالة الابتداء بالفعل: في هذه الحالة يكون الفعل محط السؤال ووجهة الاستفهام، حيث يقول الجرجاني للمتكلم أنه إذا قلت " أفعلت ؟ كان الشك في الفعل نفسه وكان غرضك من استفهامك أن تعلم وجوده"¹، ففي قول أحدهم لصديقه: أفرغت من الكتاب الذي كنت تكتبه؟، فإن الطرف المخاطب يشكك في وقوع ذلك الفعل من قبل الطرف المخاطب، أي الفراغ من كتابة الكتاب، وهذا ما يعني أن غرض المخاطب التشكيك في الفعل.

ب - حالة الابتداء بالاسم: تختلف بؤرة الاستفهام وموضع الشك هنا عن الأول؛ فإذا قال المتكلم: " أنت فعلت ؟ كان الشك في الفاعل، من هو، وكان التردد فيه "²، ففي جملة: أنت كتبت هذا الكتاب؟، يكون غرض المتكلم الشك في مخاطبه بأنه هو كاتب الكتاب المشار إليه، وهو شك يستهدف تكذيب الفاعل، وكأن المتكلم يقول في نفسه: لا أظن ذلك.

¹ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص 151.

² - المصدر نفسه.

وقد ضبط الجرجاني النظم من خلال آلية التقديم مع الاستفهام بضوابط تمكن من تحقيق استقامة الكلام وتجنب فساده؛ حيث يمتنع السؤال بالوجود أو عدمه عن الشيء الملاحظ المنتهى من فعله، إذ من الخطأ أن تقول عن "الشيء المشاهد الذي هو نصب عينيك: أموجود أو لا"¹، وهذا ما يقتضيه فرق الابتداء بالفعل أو الاسم. ولذلك تعد الجملة: (أ) أكتب هذا الكتاب ؟ لائحة - من حيث الدلالة - لعلم المتكلم بوقوع فعل الكتابة وتعلق سؤاله بالفاعل وليس بالفعل.

تقتضي استقامة الكلام امتناع إيراد مثل تلك الصيغ "لأن ذلك يتصور إذا كانت الإشارة إلى فعل مخصوص. نحو أن تقول من قال هذا الشعر ؟ وما أشبه ذلك مما يمكن أن ينص فيه على معين فإما قيل شعر على الجملة ورؤية إنسان على الإطلاق فمحال ذلك فيه لأنه ليس مما يختص بهذا دون ذاك حتى يسأل عن عين فاعله"²، وهذا ما توضحه الأمثلة الآتية:

أ - أقلت شعرا قط ؟

ب - * أأنت قلت شعرا قط ؟

ج - أ رأيت اليوم إنسانا

د - * أأنت رأيت إنسانا

تعد الجملة (ب) لائحة مقارنة مع الجملة (أ)، كما تعد الجملة (ج) لائحة بالنسبة للجملة (د)، لأن السؤال في الجملتين اللاحتين عن الفاعل والمفعول غير معين.

ويرى الجرجاني تحقيقا لمبدأ الفرق الدلالي أن التركيب الاستفهامي المبتدأ باسم يمكن أن يخرج عن غرض السؤال عن الفاعل، إلى أغراض أخرى يقتضيها المقام من بينها: غرض التقرير. الذي يركز فيه المتكلم على إقرار المخاطب واعترافه بالفعل، وقد مثل لذلك بقوله تعالى: "أأنت فعلت هذا بالهتنا يا إبراهيم"³، بين الجرجاني بأنه "لا شبهة في أنهم لم يقولوا له ذلك عليه السلام، وهم يريدون أن يقر لهم بأن كسر الأصنام قد كان، ولكن أن يقر بأنه منه كان؛ وقد أشاروا له إلى الفعل في قولهم. أأنت فعلت هذا ؟ وقال هو عليه السلام في الجواب: بل فعله كبيركم هذا ولو كان التقرير بالفعل لكان الجواب فعلت، أو: لم أفعل"⁴، نبتين هنا حكمة التقديم في هذه

¹ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 98.

² - المصدر نفسه.

³ - سورة الأنبياء، الآية: 62.

⁴ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 152.

الآية القرآنية التي تتميز بقوة التعبير البلاغي البليغ، حيث قُدم المعنى بطريقة إبداعية دقيقة، استطاعت قص الحدث - بدقة - المتمثل في كسر سيدنا إبراهيم عليه السلام لأصنام قومه، وكأن هذه الآية تصف وتصور ماذا جرى وكيف جرى، كما يوضح هذا التقديم ما الذي أراده القوم بالتحديد من وراء ذلك الاستفهام (استفهام تقريرى)، وهذا ما يجعل المتلقي سامعاً كان أم قارئاً، يدرك بلاغة الإعجاز البلاغي في هذه الآية. وهو ما ينطبق على النص القرآني كاملاً.

يمكن أن يكون التقديم مع الاستفهام المتعلق بالهمزة بغرض إنكار الفعل قد كان من أصله، لا إنكار الفاعل، ومن الأمثلة التي وقف عليها عبد القاهر لتوضيح ذلك الآية الكريمة: "قل ءالله أذن لكم"¹، ويقول موضحاً: "معلوم أن المعنى على إنكار أن يكون قد كان من الله تعالى إذن فيما قالوه، من غير أن يكون هذا الإذن قد كان من غير الله، فأضافه إلى الله. إلا أن اللفظ أخرج مخرجه إذا كان الأمر كذلك، لأن يجعلوا في صورة من غلط، فأضاف إلى الله تعالى إذنا، كان من غير الله؛ فإذا حقق عليه ارتدع"²، يمثل الاستفهام الإنكاري غرض التقديم في هذه الآية، حيث أرد الله سبحانه وتعالى تكذيب أولئك القوم الكافرين الكاذبين الذين يفترون على الله. إذ يقومون بأفعال باطلة فيحللون ما يشاؤون ويحرمون ما يشاؤون، ويبررون ذلك بأن الله قد أذن لهم بذلك، ويخرج ذلك الاستفهام إلى أبعاد بلاغية دلالية أخرى من بينها: الجزع والتخويف. إذ نستشف قوة الإيحاء الدلالي.

ب - المضارع:

تختلف الفروق الدلالية التي تتولد عن استعمالات الاستفهام مع المضارع عن استعمالاته مع الماضي، وذلك خاصة إذا دل المضارع على الاستقبال باعتبار تشابه دلالاته على الحال مع استعمالات الماضي. وينتج عن وجه الاستفهام مع المستقبل إذا تعلق بالفعل معنى الإنكار، ويكون "على أنك تعتمد بالإنكار إلى الفعل نفسه وتزعم أنه لا يكون أو أنه لا ينبغي أن يكون"³، وهذا ما يمكن توضيحه بناء على ما قدمه الجرجاني من خلال قول الشاعر:

أبقتلني والمشرقي مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب أغوال

يتمثل غرض الشاعر في "تكذيب من تهدده بالقتل وإنكار أن يقدر على ذلك ويستطيعه"⁴، حيث عد حدوث ذلك أمراً مستحيلاً وهذا ما أكده بقوله: والمشرقي مضاجعي. ويبين ذلك فعالية التقديم وقيمتها كما يعبر عن مهارة

¹ - سورة يونس، الآية: 59.

² - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 153.

³ - المصدر نفسه، ص 154.

⁴ - المصدر نفسه، ص 154 و 155.

الشاعر، التي تتمثل في قدرته على التلاعب بمعاني النحو وإخراجها وفق أسلوب إبداعي، يتميز بقوة الإحالة الدلالية التي تخدم غرض الاستفهام الإنكاري. وهذا ما يفرض حتما بلاغة هذا البيت.

أما في حالة ارتباط الاستفهام بالاسم من خلال التعبير ب: **أأنتَ تفعلُ؟** أو **أهو يفعلُ؟** فإن الإنكار يقع على الفاعل، وهذا ما تبرره أسباب أهمها:¹

- للعجز ولأنه ليس في وسعه.

- لأنه لا يختاره ولا يرتضيه وأن نفسه نفس تأبى مثله وتكرهه.

- وقد يكون لا يفعله لصغر قدره وقصر همته.

تبين هذه الأسباب التي تفسر لجوء المتكلم لتوظيف ذلك الأسلوب، أن نظم الكلام يكون بمقتضى ما تتطلبه السمات النفسية والاجتماعية التواصلية التي تتعلق بالمتكلم في علاقته مع المخاطب، إذ يصيغ فحوى كلامه عبر التصرف الحكيم في معاني النحو لبناء أسلوب خادم يتمشى وتلك السمات ويعبر عن مقصديته، وذلك ما يساعده على توليد بلاغة معاني كلامه.

1 - 1 ب . التقديم مع النفي:

يقع النفي كما هو الحال مع الاستفهام على الوحدة اللغوية الموالية لأداة النفي، ويكون بين ثبوت وقوع الفعل وعدم ثبوت ذلك ف **"إذا قلت: (ما فعلتُ؟). كنت نفيت عنك فعلا لم يثبت أنه مفعول وإذا قلت: (ما أنا فعلتُ؟). كنت نفيت عنك فعلا ثبت أنه مفعول"**²، وقد بين الجرجاني أن "تفسير ذلك أنك إذا قلت: (ما قلتُ هذا): كنت نفيت أن تكون قد قلت ذاك، وكنت نوظرت في شيء لم يثبت أنه مقول. وإذا قلت: (ما أنا قلتُ هذا): كنت نفيت أن تكون القائل له، وكانت المناظرة في شيء ثبت أنه مقول"³، ويستند التفريق بين تقديم الفعل وتقديم الفاعل عند الجرجاني على معايير تبرر وجوب ذلك، هي:

أ - **عموم النفي:** إذ **"يصلح في الوجه الأول أن يكون المنفي عاما كقولك: (ما قلتُ شعرا قط، وما أكلتُ اليوم شيئا، وما رأيْتُ أحدا من الناس): ولا يصلح في الوجه الثاني. فكان خلفا أن تقول: (ما أنا قلتُ شعرا قط، وما أنا أكلتُ اليوم شيئا، وما أنا رأيْتُ أحدا من الناس): وذلك لأنه يقتضي المحال، وهو أن يكون هاهنا إنسان قد**

¹ - ينظر: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 155 و 156.

² - المصدر نفسه، ص 160.

³ - المصدر نفسه.

قال كل شعر في الدنيا، وأكل كل شيء يؤكل، ورأى كل أحد من الناس، فنفيت أن تكونه"¹، ووضح من ذلك أن الهدف من تقديم الفعل هنا يختلف عن تقديم الفاعل؛ إذ يكون الغرض في الأول نفي الفعل عن المتكلم، أما في الثاني فإن الغرض هو نفي الفعل عن المتكلم وإثبات حصوله عند غيره، وذلك ما يؤدي في بعض السياقات إلى استحالة الكلام؛ أي خروجه من المستقيم إلى المحال.

ب - **نفي الفعل عن الذات ونفيه عن الكل**: فيصح القول: "ما قلتُ هذا، ولا قاله أحد من الناس ولا يصح أن يقال: ما أنا قلتُ هذا ولا قاله أحد من الناس"²، إذ يعد هذا الأخير قولاً رديئاً.

ج - **نقض النفي بالاستثناء**: حيث يجوز القول: "ما ضربتُ إلا زيدا" ولا يجوز القول: "ما أنا ضربتُ إلا زيدا"، إذ يكون ذلك كلاماً خاطئاً؛ وذلك لأن "نقض النفي بإلا يقتضي أن تكون ضربت زيدا، وتقديمك ضميرك وإيلاؤه حرف النفي، يقتضي نفي أن تكون ضربته، فهما يتدافعا"³، وهذا ما يعني استحالة ورودهما معاً في كلام ما.

يكشف هذا النوع من التقديم عن أهم الأسس التي تقوم عليها نظرية الجرجاني وهي الملائمة بين النحو والدلالة، وذلك ما يعد في الوقت نفسه أحد القوانين التي يجب أن يعلمها المتكلم، وتتمثل في ضرورة مراعاة الجمع في صياغة الخطاب بين جانبه النحوي وجانبه الدلالي، إذ بذلك تتحقق البلاغة وهذا ما توضحه المعادلة الآتية:

البلاغة = النحو + الدلالة.

يعد المكون الدلالي حسب هذه المعادلة ركن ركين إلى جانب المكون النحوي إذ يمثلان معاً وجهي التركيب البلاغي الناجح، فيكون مقياس نجاح أي تحويل تركيبى مبنياً على وضع الدلالة المناسبة التي تتطلبها معاني النحو، وذلك ما يضمن للمتكلم عبر أسلوب التقديم - وغيره من التحويلات الانزياحية - تحصيل استقامة الخطاب وفنيته البلاغية.

¹ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 160.

² - المصدر نفسه، ص 161.

³ - المصدر نفسه.

1 - 1 - ج. التقديم مع الإثبات:

اهتم الجرجاني كذلك بالتقديم مع الإثبات مبينا تشابه بالاستفهام والنفي حيث يقول لمخاطبه: "واعلم أن هذا الذي بان لك في الاستفهام، والنفي من المعنى، في التقديم، قائم مثله في الخبر المثبت"¹، إذ لا يتغير المعنى الأصلي الذي يفيد ترتيب أجزاء الكلام مع الأساليب الثلاثة، وهذا ما يلاحظ مثلاً على الجملة الإخبارية الآتية: **أغلقت الجامعات.** التي تفيد اهتمام المتلقي بالقرار النهائي الذي اتخذته الدولة بسبب تفشي فيروس كورونا القاتل، مقارنة بالجملة الاستفهامية: **هل أغلقت الجامعات؟**، وجملة النفي: **ما أغلقت الجامعات**، إذ يتحول الكلام مع الاستفهام من الخبر إلى الاستخبار، ومع النفي من الإيجاب إلى السلب. وهذا التقديم قسمين:

- القسم الأول: وهو ما يكون الغرض فيه قصر الفعل على الفاعل وذلك بأن "تجعل له وتزعم أنه فاعله دون واحد آخر أو دون كل أحد. ومثال ذلك أن تقول: (أنا كتبتُ في معنى فلان، وأنا شفعتُ في بابه)، تريد الانفراد بذلك والاستبداد به، وتزيل الاشتباه فيه وتؤكد على من زعم أن ذلك كان من غيرك، أو أن غيرك كتب فيه كما كتبت. ومن البين في ذلك قولهم في المثل: أتعلمني بضرب أنا حرشته"²، إذ يفيد هذا النوع من التراكيب زيادة نسبة تأكيد المعنى وتقويته، وهذا ما يدل على أن معاني النحو قد أخذت وضعاً ملائماً يعكس حسن تصرف المتكلم.

- القسم الثاني: وهو ما يقع فيه الشك وفيه يقتضي تحقيق وقوع الفعل للسامع وتأكيد ارتباطه بالفاعل، ويكون بتقديم ذكر المحدث عنه والتنبيه له، "فتبدأ بذكره، وتوقعه أولاً، ومن قبل أن تذكر الفعل في نفسه، لكي تباعده بذلك من الشبهة وتمنعه من الإنكار، أو من أن يظن بك الغلط أو التزيد"³، مثل ذلك: قولنا: هو يحب الله وهو يحفظ القرآن، فليس الغرض أن نزعم بأنه ليس ههنا من يحب الله ويحفظ القرآن غيره. فالهدف من وراء هذا التقديم قطع الشك والعمل على إيقاع المتلقي في مجال التصديق؛ أي إقناعه بالمعنى المقصود. لقد نبه الجرجاني المتكلم أنه لا يجوز أن يكون إثبات الأمر للمحدث عنه بغرض الإفراط المبالغ فيه، حيث يتجه المعنى إلى قصره عليه فقط من باب النفي التلميحى بوقوعه ووجوده عند شخص ما غيره، وقد وقف لتوضيح ذلك على أمثلة كثيرة من بينها قول الشاعر:

¹ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 162.

* - المثل يقوله العالم بالشيء، لمن يريد تعليمه إياه. المصدر نفسه، ص 162.

² - المصدر نفسه.

³ - المصدر نفسه، ص 163.

هم يفرشون اللبد كل طميرة وأجرد سباح يبذ المغالبا

فقد أراد الشاعر وصف من أرادهم بالحديث بالبسالة والشجاعة، حيث أنهم فرسان أبطال يخوضون المخاطر، غير أنه "لم يرد أن ييدي لهم هذه الصفة، دعوى من يفردهم بها وينص عليهم فيها، حتى كأنه يعرض بقوم آخرين، فينفي أن يكونوا أصحابها"¹، إذ يعد ذلك - حسب الجرجاني - محال.

تعد استراتيجية البداية بالاسم (المحدث عنه) وبناء الفعل عليه من أهم الأساليب التي تؤدي إلى حصول البلاغة في الكلام، وذلك ما يؤول بالدرجة الأولى إلى جانبه الوظيفي التأثيري على المتلقي، الذي يتمحور - في مجمله - على ظاهرة التنبيه الأولى له وما يتبعها من الأريحية، "فإذا قلت عبد الله، فقد أشعرت قلبه بذلك أنك قد أردت الحديث عنه. فإذا جئت بالحديث، فقلت مثلاً: قام، أو قلت قديم، فقد علم ما جئت به، وقد وطأت له وقدمت الإعلام فيه، فدخل على القلب دخول المأنوس به، وقبّله قبول المتهيب له المطمئن إليه؛ وذلك لا محالة، أشد لثبوته وأنفى للشبهة، وأمنع للشك، وأدخل في التحقيق"²، إذ يساهم هذا الأسلوب في تهيئة المتلقي وبالتالي الاستعداد النفسي لتلقي الخبر من خلال العلم بمحط الحديث، وذلك ما يقود إلى رفع نسبة مقبولة الكلام ويساهم في إضفاء سمة البلاغية.

يمكن القول إن أسلوب التقديم والتأخير الذي ركزت عليه نظرية النظم باعتباره من أهم أسرار بلاغة الخطاب، هو ما يعتمد على الانزياح أو العدول الذي يدخل الخطاب في دائرة البلاغي الوظيفي الإمتاعى؛ حيث نجد قوة التركيب ورونق الدلالة مما يدل على الجودة والفنية، وينتمي كل ذلك - في الحقيقة - إلى ما يتم الحديث عنه باسم النظم الجيد الرفيع وهو النظم البلاغي. الذي يكون من خلاله النحو نحواً بلاغياً تُروّض عبره معاني النحو لتظهر طاقة المبدع البلاغية الإبداعية. وهذا ما يمكن توضيحه - مما قدمه الجرجاني مثلاً - بالبيت الآتي:

وما أنا أسقمت جسمي به ولا أنا أضرمت في القلب نارا

يعبر الانزياح التركيبي الذي مارسه الشاعر هنا عبر التقديم والتأخير مع النفي، عن قوة التفكير العقلي الإبداعي العميق الذي اعتمد عليه، حيث يدل ذلك على التصرف بحكمة وإبداع، مما مكنه من صياغة نظم متماسك بدیع يتميز بشرف المعاني وجماليتها، وهو ما ينعكس على التركيب قوة وجودة، وذلك ما يعزز للقول بانتماء شعره إلى مجال الشعر الشاعر.

¹ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 163.

² - المصدر نفسه، ص 169.

1-2. الحذف:

يساهم أسلوب الحذف باعتباره انزياحا عن أصل الكلام (الذكر)، وتغييرا يقوم به المتكلم في بلورة بلاغة الخطاب، وقد وصفه الجرجاني بأنه "لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة، وتجحدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بيانا إذا لم تبين"¹، حيث يلي هذا الأسلوب شروط الطابع الوظيفي للغة، ويتيح للمتكلم إمكانية الاقتصاد اللغوي للتعبير عن الأغراض بسهولة والتعبير عن المعاني الكثيرة بالقليل من اللفظ، وهو ما يجعله في بعض المواضع والسياقات أبين وأبلغ من الذكر. فمن عادة العرب الإيجاز والاختصار والحذف طلبا لتقصير الكلام والاستغناء بقليله عن كثيره، ويعدون ذلك من الفصاحة.

يعد الحذف "عملية تقوم على إسقاط عنصر أو عدة عناصر من الجملة حضورها في العادة مطلوب"²، ويكون لجوء المتكلم لذلك على أساس أبعاد وظيفية تداولية (الغرض، والمقام، والمتلقي)، ومن شروط الحذف عدم التوظيف العشوائي له، وإنما يكون مبررا بعلة تكون تابعة لتلك الأبعاد. ومما يجب على المتكلم معرفته أنه "لا بد من الدلالة على المحذوف فإن لم يكن هناك دلالة عليه فإنه يكون لغوا من الحديث، ولا يجوز الاعتماد عليه ولا يحكم عليه بكونه محذوفا بحال"³، فينبغي أن يكون الحذف مضبوطا ومنظما، حيث يحوي النسق اللغوي ما يسفر عن معنى العنصر المحذوف ويحيل عليه. ويمكن للباحث معرفة وفهم كل ما يتعلق بظاهرة الحذف في مؤلفات علمائنا القدماء، ولعل ذلك ما يعثر عليه عند عبد القاهر؛ حيث استفاد في توضيح وجوه استعماله ومختلف الفروق الناتجة عنها، وذلك في خضم تبين استراتيجيات نظم معاني النحو ووضعها الموضع المناسب عبر الحذف، إذ يمكن للمتكلم صياغة المعاني والدلالات الخاصة، حيث يصبح الأمر متعلقا ببلاغة الحذف.

1-2 - أ. حذف الفعل:

قد يحذف الفعل في بعض المواضع، وهو ما يكثر خاصة مع بعض الأساليب كأسلوب الاختصاص والنداء والإغراء والتحذير .. الخ، ويتضح الحذف من خلال وجود قرينة دالة كوجود لفظ منصوب ليس له ناصب. وقد أشار الجرجاني إلى هذا النوع من الحذف ففي قول الشاعر:

¹ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 177.

² - باتريك شارودو ودومينيكا مانغونو، معجم تحليل الخطاب، ترجمة: عبد القادر المهيري وحماي صمود، مراجعة: صلاح الدين الشريف، دار سيناترا، تونس، 2008، ص 202.

³ - يحيى بن حمزة العلوي، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ج 2، دار الكتب الخديوية، د/ بلد نشر، ط: 1914، ص 92.

ديار مية إذ مي تساعفنا ولا يرى مثلها عجم ولا عرب

يقول: "أنشده بنصب "ديار" على إضمار فعل، كأنه قال: أذكر ديار مية"¹، يكون هذا الإضمار أو الحذف موضع إيجاز وخفة. وهذا ما يجعله مدار المزية وطريقا للطف المعنى وبلاغته في نفس المتلقي، وذلك ما لا يحصل بالذكر حيث يؤدي إلى استئصال البيت وكراهته في نظر المتلقي.

1- 2 - ب. حذف المبتدأ:

يكثر حذف المبتدأ في بعض المواضع من بينها:²

- بعد جواب الاستفهام نحو قوله تعالى: "وما أدراك ما الحطمة نار الله الموقدة"³؛ أي هي نار الله.
- بعد فاء جواب الشرط نحو قوله تعالى: "من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها"⁴؛ أي فعمله لنفسه وإساءته عليها.
- بعد القول، نحو قوله تعالى: "وقالوا أساطير الأولين"⁵؛ أي هي أساطير الأولين.
- بعد ما الخبر صفة له في المعنى، نحو قوله تعالى: "صم بكم عمي"⁶؛ أي هم صم.

ناقش الجرجاني ظاهرة حذف المبتدأ مبينا أن أبرز المواضع التي يكثر فيها حذفه ما يعرف بالقطع والاستئناف وذلك حيث "يبدأون بذكر الرجل ويقدمون بعض أمره، ثم يدعون الكلام الأول ويستأنفون كلاما آخر وإذا فعلوا ذلك أتوا في أكثر الأمر، بخبر من غير مبتدأ"⁷، مثال ذلك قول الشاعر:

رآني على ما بي عميلة فاشتكى إلى ماله حالي أسر كما أجهر
غلام رماه الله بالخير مقبلا له سيمياء لا تشق على البصر

وقوله من الطويل:

سأشكر عمرا إن تراخت منيتي أيادي لمن تمنن وإن هي جلت

¹ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 178.

² - محمد بن أبي بكر الدماميني، شرح الدماميني على مغني اللبيب، ج 2، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان، ط1: 2007، ص 507.

³ - سورة الحمزة، الآية: 5.

⁴ - سورة فصلت، الآية: 46.

⁵ - سورة الفرقان، الآية: 5.

⁶ - سورة البقرة، الآية: 17.

⁷ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 178.

فتى غير محبوب الغنى عن صديقه ولا مظهر الشكوى إذا النعل زلت
سريع إلى ابن العم يلطم وجهه وليس إلى داعي الندى سريع
حريص على الدنيا مضيع لدينه وليس لما في بيته بمضيع

يقول الجرجاني بعد عرضه لهذه الأبيات وغيرها: "فتأمل الآن هذه الأبيات كلها، واحدا واحدا، وانظر إلى موقعها في نفسك، وإلى ما تجده من اللطف والظرف، إذا أنت مررت بموضع الحذف منها، ثم قلبت النفس عما تجد وألطف النظر فيما تحس به، ثم تكلفت أن ترد ما حذف الشاعر، وأن تخرجه إلى لفظك، وتوقعه في سمعك، فإنك تعلم أن الذي قلت كما قلت، وأن رب حذف هو قلادة الجيد، وقاعدة التجويد"¹، فنجد به ذلك يعبر عن براعة المبدع حيث يحسن التصرف في تعامله مع معاني النحو من أجل صياغة التركيب المنشود، ذلك أن الحذف انزياح يتمشى والضرورة الإبداعية البلاغية التي تتطلبها الأغراض والمواقف، وهذا ما يجعل محاولة التفكير في إزالته ورد الكلام إلى أصله بالذكر تكلف يؤدي إلى تشويه الجمالية، وكسر الأنس الذي يعتري - من خلال الانزياح - نفس المتلقي.

يترك توظيف أسلوب الحذف في الخطاب أحيانا لمسة فنية، وأثرا بلاغيا يرتقي به إلى مجال الجودة، أين تكتسب الدلالة وجهها جديدا خاصا تكون له قوة التأثير، وهو ما يبرهن على ذكاء مستعمله، ولذلك فإن (الفرق الدلالي) الذي ينتج عن استعمال هذا الوجه التركيبي ليس هو نفسه ما يكون مع الذكر.

1- 2 - ج. حذف المفعول به:

وقف الجرجاني على ظاهرة حذف المفعول به مؤكدا من خلال ذلك على أهمية استعماله، حيث يقول: "فإن الحاجة إليه أمس، وهو بما نحن بصددده أحص، واللطائف كأنها فيه أكثر، وما يظهر بسببه من الحسن والرونق أعجب وأظهر"²، وهذا ما يحصل إلا إذا كان وفقا لما تقتضيه المقاصد والأغراض ملائما لمقتضى الحال، ويرى الجرجاني أن سبب حذف المفعول يتوجه إلى قسمين:

أ - جعل الفعل المتعدي كغير المتعدي (اللازم): حيث يستغني عن المفعول به لفظا وتقديرا وذلك قصد إثبات معنى الفعل، مثال ذلك قولهم: "(فلان يحل ويعقد، ويأمر وينهى، هو يعطي ويجزل). المعنى في جميع ذلك إثبات المعنى في نفسه للشيء على الإطلاق وعلى الجملة. وكذلك قوله تعالى: "'وأنه هو أضحك وأبكى وأنه هو

¹ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 182.

² - المصدر نفسه، ص 184.

أُمَات وأحيى^{1 2}، المعنى هو الذي منه الإحياء والإماتة³، إذ يدل الحذف في هذا السياق على معنى التوحيد وإثبات قدرة الله، بأن كل شيء بيده، وقد صاغ الجرجاني لهذا الحذف قانوناً، حيث يقول: "وهكذا كل موضع كان القصد فيه أن يثبت المعنى في نفسه فعلاً للشيء، وأن يخبر بأن من شأنه أن يكون منه، أو لا يكون إلا منه، أو لا يكون منه"⁴، فالهدف - إذن - هو إثبات المعنى المقصود توجيهه للمحدث عنه، سواء أكان الغرض إسناداً له مع إمكانية وجوده عند غيره، أو قصراً له (هو فقط)، أو نفياً عنه.

ب - حذف المفعول لفظاً لدليل الحال عليه: وهو نوعان: "جلي لا صنعة فيه وخفي تدخله الصنعة. فمثال الأول قولهم: أصغيت إليه وهم يريدون أذني وأغضيت عليه والمعنى جفني"⁵، فهذا النوع عام متداول في استعمال العرب، ولذلك لا يحصل عبره التمييز.

على عكس ذلك يعد الحفي من أبرز مظاهر الاستعمال البلاغي الإبداعي للغة، ليشكل بذلك مجال الخصوصية والتمييز اللذين يسعى إليهما المبدع، والواضح مما قدمه الجرجاني أن هذا النوع درجات ومراتب، إذ مما لا شك فيه أن خطابات المبدعين تتباين وتتفاوت حيث تكون من الأدنى البسيط إلى الأعلى النادر. فقد ذكر الجرجاني أمثلة كثيرة لهذا النوع، وقد ذكر أن من بارع ذلك وناداه الأبيات الآتية:

جزى الله عنا جعفرًا حين أزلقتُ بنا نعلنا في الواطئين فرلّت
أبوا أن يملّونا ولو أن أمنا تلاقي الذي لا قوه منا لملّت
هم خلطونا بالنفوس وألجأوا إلى حُجرات أدفأت وأظلت

جاء حذف المفعول في هذه الأبيات "في أربعة مواضع قوله ملّت وألجأوا وأدفأت وأظلت، لأن الأصل "ملّتنا وألجأونا إلى حجرات أدفأتنا وأظلتنا"، إلا أن الحال في حد المتناهي حتى كأن لا قصد إلى مفعول، وكأن الفعل قد أُهم أمره، فلم يُقصد به قصد شيء يقع عليه، كما يكون إذا قلت: (قد ملّ فلان)، تريد أن تقول: قد دخله الملل: من غير أن تخص شيئاً، بل لا تزيد أن تجعل الملل من صفته"⁶، والحقيقة يدل هذا الحذف المتعدد على ذكاء المبدع (الشاعر) وبراعته. أين نقف على دقة حركته التعبيرية التي تظهر من خلال حسن اختيار المواضع

¹ - سورة النجم، الآيتان: 43 و 44.

² - ينظر: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 184.

³ - ينظر: المصدر نفسه، ص 184 و 185.

⁴ - المصدر نفسه، ص 185.

⁵ - المصدر نفسه.

⁶ - المصدر نفسه، ص 188.

والتراكيب المناسبة، حيث يكون خطابه الشعري مستغنيا عن ذكر المفعول لا حاجة له به؛ ذلك أن تحقيق المعنى المطلوب يكون من خلال إيراد الفعل فقط، ولعل الغرض من وراء ذلك هو توفير العناية على إثبات الفعل، وهذا ما يعد قاعدة صالحة للتعميم على كل حذف للمفعول أريد به إثبات الفعل.

انطلاقاً من ذلك يمكن القول إن مقياس براعة الحذف الخفي عند الجرجاني يتمثل في مدى ندرته، حيث تكون دقة الصنعة والقدرة على إحداث التفاوت الذي من شأنه جعل المعنى والفرق الدلالي المتولد عنه جديداً، ليخرج الأسلوب من خلال كل ذلك متسقاً مبتدعاً راقياً ملائماً للغرض المستهدف.

1 - 2 - هـ. الإضمار على شريطة التفسير:

ذكر الجرجاني أمثلة كثيرة لهذا النوع من الحذف أبان من خلالها عن موضع الحسن في الكلام، الذي يكون به وسبب المزية التي تكون على إثر استعماله، ومن بين تلك الأمثلة: قول البحري [من الكامل]:

لو شئت لم تفسد سماحة حاتم كرماً، ولم تهدم مآثر خالد

ومنه الآيتين الكريميتين: "ولو شاء الله لجمعكم على الهدى"¹، "ولو شاء لهداكم أجمعين"²، "فالأصل لو شاء الله أن يجمعكم على الهدى لجمعكم، ولو شاء أن يهديكم أجمعين لهداكم، إلا أن البلاغة في أن يجاء به كذلك محذوفاً"³، إذ يعد ذلك الحذف من أهم أسرار البلاغة التي تميز تلك الآيتين.

ومن أمثلة هذا النوع كذلك قول الشاعر [من الكامل]:

لوشئت عدت بلاد نجد عودة فحللت بين عقيقة وزرودة

يكون الحذف هنا أولى، وأبلغ، وألطف، وأشد تأثيراً من الذكر، إذ يقول الجرجاني: "معلوم أنك لو قلت: ولو شئت أن تعود بلاد نجد عودة عدتها: أذهبت الماء والرونق، وخرجت إلى كلام غث، ولفظ رث"⁴، فالتخلي عن الحذف ورد الكلام إلى أصله يؤدي إلى خروجه من مجال البلاغة والإبداعية المطلوبين، ولعل أهم من ذلك هو تحوله إلى كلام غث يبعد المتلقي.

¹ - سورة الأنعام، الآية: 35.

² - سورة النحل، الآية: 9.

³ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 191.

⁴ - المصدر نفسه، ص 194.

وقد بين الجرجاني أن "الواجب في حكم البلاغة، أن لا ينطق بالحذوف ولا يظهر إلى اللفظ ... وذلك أن في البيان إذا ورد بعد الإبهام وبعد التحريك له أبدا، لطفًا ونبلًا لا يكون إذا لم يتقدم ما يحرك ذكر المفعول"¹، مثال ذلك قول الشاعر [من الطويل]:

لو شئت أن أبكي دما لبكيتَه عليه ولكن ساحة الصبر أوسع

يرى الجرجاني أن "سبب حسنه أنه كأنه بدع عجيب أن يشاء الإنسان أن يبكي دما؛ فلما كان كذلك، كان الأولى أن يصرح بذكره ليقرره في نفس السامع ويؤنسه به"². يتكون التشكيل البلاغي الفني للخطاب (شعرا أو نثرا) بمقتضى ما تستدعيه الأغراض التي توجهها نفسية المبدع، ليحتوي الخطاب عبر ذلك إحياءات ودلالات خاصة مهمتها الولوج إلى نفس المتلقي والتأثير فيه بالإمتاع أو الإقناع.

1-3 . الفصل والوصل:

اهتم الجرجاني كغيره من علماء البلاغة بدراسة الفصل والوصل، فقد أوليت له أهمية بالغة إذ جعلوه أساس البلاغة؛ حيث عرّفت بأنها "معرفة الفصل من الوصل"، وقد عده من أصعب وأدق علوم البلاغة حيث يقول: "واعلم أنه ما من علم من علوم البلاغة أنت تقول فيه إنه خفي غامض ودقيق صعب، إلا وعلم هذا الباب أغمض وأخفى وأدق وأصعب"³، ولعل هذا ما جعل بعض البلغاء يحدون البلاغة بأنها معرفة الفصل من الوصل.

تعمق الجرجاني من منظور نحوي بلاغي في الكشف عن متعلقات وخصائص الفصل والوصل، وتوضيح قيمته الدلالية والبلاغية، وإقرار حاجة الخطاب البلاغي إليه، فقد أكد للمتكلم ضرورة معرفة قوانينه والتمكن من حسن استعماله، باعتباره من أشد أساليب اللغة العربية ارتباطا بالبلاغة وأكثرها تحقيقا لسمات الجودة. ونظرا لمدى أهمية قيمة معرفة خصائص ومتعلقات الفصل والوصل، فإنه يرى "أن العلم بما ينبغي أن يصنع في الجمل من عطف بعضها على بعض، أو ترك العطف فيها والمجيء بها منتثرة، تستأنف واحدة منها بعد أخرى من أسرار البلاغة ومما لا يتأتى لتمام الصواب فيه إلا الأعراب الخالص، وإلا قوم طبعوا على البلاغة، وأتوا فنا من المعرفة في ذوق الكلام هم بها أفراد، وقد بلغ من قوة الأمر في ذلك أنهم جعلوه حدا للبلاغة ... ذلك لغموضه ودقة مسلكه، وأنه لا يكمل لإحراز الفضيلة فيه أحد، إلا كمل لسائر معاني البلاغة"⁴، حيث إن معرفة مقتضياته يتيح

¹ - ينظر: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 191.

² - المصدر نفسه، ص 191 و 192.

³ - المصدر نفسه، ص 245.

⁴ - المصدر نفسه، ص 239.

التصرف الدقيق الناجح في معاني النحو، فيمكن بالتالي استعمال اللغة استعمالاً يتسم بالاتساق والسلامة والبلاغة، ولذلك يمكن عدده الباب الذي نستطيع الدخول من خلاله إلى مجال البلاغة.

يعد الوصل الأصل في الكلام الذي يعرف بأنه عطف الجمل بعضها ببعض، أما (الفصل) فهو الفرع منه الذي هو عكس ذلك؛ أي ترك العطف والإتيان بها مقطوعة. وقد وضع الجرجاني أن معرفة مواضع كل طرف قائمة بالدرجة الأولى على معرفة معاني حروف العطف، حيث يقول: "لا نعلم شيئاً يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه، ... وينظر في الجمل التي تسرد فيعرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل، ثم يعرف فيما حقه الوصل موضع (الواو) من موضع (الفاء)، وموضع (الفاء) من موضع (ثم) وموضع (أو) من موضع (أم) وموضع (لكن) من موضع (بل)"¹، فالتمييز بين الفصل والوصل أولاً ومعرفة المواضع الوظيفية لتلك الحروف، من أهم الأسس التي يشترطها تقدم نظم قوي متماسك، وهذا ما يؤدي إلى الاعتراف بحقيقة التوظيف الفني للنحو، وهو النحو البلاغي إذ إن معرفة تلك المواضع إنما هي معرفة كيفية التصرف في معانيها النحوية، فالأمر متعلق بالاستعمال التداولي العادي والبلاغي الذي يرتبط بالخصوصية، فليس الأمر مجرد معرفة ذهنية.

1 - 3 - أ مواضع الفصل والوصل:

1 - الوصل في الجمل التي لها محل من الإعراب:

يتعلق الأمر بالجمل التي يمكن أن تقدر بالمفرد وتأخذ حكمه الإعرابي؛ "إذ لا يكون للجملة موضع من الإعراب حتى تكون واقعة موقع المفرد؛ وإذا كانت الجملة الأولى واقعة موقع المفرد، كان عطف الثانية عليها جارياً مجرى عطف المفرد، وكان وجه الحاجة إلى (الواو) ظاهراً والإشراك بها في الحكم موجوداً. فإذا قلت: (مررت برجل خلقه حسن وخلقة قبيح)، كنت قد أشركت الجملة الثانية في حكم الأولى، وذلك الحكم كونها في موضع جر بأنها صفة للنكرة"²، يقدم الجرجاني من خلال ذلك قاعدة مفادها: أنه إذا كان للجملة الأولى محل من الإعراب وتم عطف جملة ثانية عليها، فلا بد من توظيف الواو للإشراك بها في الحكم.

2 - الوصل في الجمل التي لا محل لها من الإعراب:

إن استناد القسم الأول على علة واضحة تبرر العطف القائم بين الجمل يجعله بيناً سهلاً، وهذا عكس ما لاحظته الجرجاني على هذا القسم الذي يخص عطف الجمل التي لا محل لها من الإعراب، إذ يشكل أمره -

¹ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 239.

² - المصدر نفسه.

حسب الجرجاني - وذلك لاستحالة الاستعانة على آلية التعويض بالمفرد. وهو ما قاده إلى البحث والعمل على استنباط تفسير يبين العلاقة التي تربط تلك الجمل، وقد قدم في خضم ذلك تفسيرين:

أ - ما يجري مجرى الشبيه والنظير:

مثال ذلك: "زيد قائم وعمرو قاعد. لا سبيل لنا أن ندعي أن الواو شركت الثانية في إعراب قد وجب للأولى بوجه من الوجوه، ثم إن الذي يوجبه النظر التام لا يقال في ذلك: إنا وإن كنا إذا قلنا: (زيد قائم وعمرو قاعد) فإنا لا نرى ههنا حكما نزع أن الواو جاءت للجمع بين الجملتين فيه، فإنا نرى أمرا آخر نحصل معه على معنى الجمع؛ وذلك أن لا نقول زيد قائم وعمرو قاعد: حتى يكون عمرو بسبب من زيد وحتى يكونا كالنظيرين والشريكين، بحيث إذا عرف السامع حال الأول عنه أن يعرف حال الثاني"¹، يعني ذلك أن حصول الجمع أو الوصل الذي تؤديه الواو بين الجمل التي لا محل لها من الإعراب، يشترط توفر المشاكلة والتعلق بين معنى الجملة الأولى ومعنى الجملة الثانية؛ إذ يكشف المثال السابق أنه إذا كان زيد وعمرو شبيهين ونظيرين، فإن الخبر عن الثاني يجب أن يجري مجرى الشبيه والنظير بالنسبة للخبر عن الأول، وبناء على ذلك وبمقتضى التشابه والتناظر فإنه لا يجوز البتة الوصل بين شيئين غير متناظرين فلا نقول مثلا: زيد روائي وعمرو حسن الخلق. إذ لا مشاكلة وتعلق بين الجملتين، فلا بد أن نقول مثلا: زيد روائي وعمرو شاعر.

وقد أقر الجرجاني في هذا السياق أن المعاني في ذلك كالأشخاص، فإذا "قلت مثلا العلم حسن والجهل قبيح لأن كون العلم حسن مضموم في العقول إلى كون الجهل قبيح"²؛ فالجامع العقلي الذي يجري مجرى الشبيه والنظير في المعاني، كالجامع العقلي القائم على الشبيه والنظير في الأشخاص، وتحقيق ذلك يمكن من تحقيق البلاغة.

ب - ما يجري مجرى النقيض عن الخبر الأول:

يقتضي الوصل حسب هذا النمط أن يكون المخبر عنه في الجملتين واحدا، "وذلك أنك إذا قلت [مثلا]: (هو يضر وينفع)، كنت قد أفدت (بالواو) أنك أوجبت له الفعلين جميعا وجعلته يفعلهما معا. ولو قلت: (يضر وينفع) من غير (واو) لم يجب ذلك، بل قد يجوز أن يكون قولك "ينفع" رجوعا من قولك "يضر" وإبطالا له"³، معنى ذلك أنه إذا كان المخبر عنه في الجملتين واحدا كان لا بد من العطف حيث تزداد قيمته وبالتالي الحاجة إليه، وهو ما يظهر من خلال توظيف الواو التي لا يمكن بأي حال إسقاطها والاستغناء عنها، إذ يؤدي ذلك إلى

¹ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 240.

² - المصدر نفسه، ص 241.

³ - المصدر نفسه.

فساد المعنى وإبعاد قصد المتكلم، فوجود الواو يعني أن المخبر عنه يقوم بالفعلين جميعا رغم تناقضهما، أما إسقاطها فيقود إلى إبطال الفعل الثاني للفعل الأول.

وقد أوضح الجرجاني أن الاشتباك والاقتران بين الفعلين المتناقضين يزداد قوة حتى لا يتصور تقدير أفراد في أحدهما عن الآخر، إذا وقعا صلة لموصوف اسمي أو حرفي يؤول بمصدر، وذلك نحو: (أَيْحَسَنُ أَنْ تَعِدَ النَّاسَ وَتَخُونَ الْعَهْدَ)؛ فجملة (تَخُونُ الْعَهْدَ) جملة معطوفة على جملة (تَعِدُ النَّاسَ)، ولما كانت الجملة المعطوفة عليها واقعة صلة الموصول الحرفي ولا محل لها من الإعراب، كان المعنى المقصود هو جعل الفعلين في حكم فعل واحد. وفي البيت الآتي:

"لا تطمعوا أن تهينونا ونكرمكم وأن نكف الأذى عنكم وتؤذونا"

المعنى: لا تطمعوا أن تروا إكرامنا قد وجد مع إهانتكم وجامعها في الحصول¹، إذ يرتبط حصول الفعلين ارتباطا وثيقا حيث حصل الثاني بسبب حصول الأول.

1 - 3 - ب. الفصل:

أوضح عبد القاهر أن الفصل يكون في سياقات محددة حيث يقول: "فترك العطف يكون إما للاتصال إلى الغاية، أو الانفصال إلى الغاية، والعطف لما هو واسطة بين الأمرين، وكان له حال بين حالين فاعرفه"²، فهي وجوه تركيبية لظاهرة الفصل بحيث يتميز كل وجه بدلالة معينة تعبر عن غرض ما وترتبط بمقام خاص، ولعل ما يجب معرفته هو أن كل وجه يتضمن وجوه وظيفية فرعية، ويكون شرط احتراز موضعها من أهم ركائز بلاغة الكلام المنظوم. والفصل عند عبد القاهر يكون في موضعين:

1 - الاتصال إلى الغاية:

نقف على ذلك من خلال الارتباط الوثيق الحاصل بين الجملتين واتصالهما اتصالا تاما، حيث تكون عبره الجملة الموالية مؤكدة أو مبينة للجملة السابقة لها، ويمكن استيعاب طبيعة ذلك الاتصال بين الجمل - حسب الجرجاني - من خلال ظاهرة اتصال الأسماء المفردة، كاتصال الصفة بالموصوف والتأكيد بالمؤكد حيث يقول: "واعلم أنه كما كان في الأسماء ما يصل معناه بالاسم قبله فيستغني بصلة معناه له عن واصل يصله وربطه بذلك كالصفة التي لا تحتاج في اتصالها بالموصوف إلى شيء يصلها به، وكالتأكيد الذي لا يفتقر كذلك إلى ما

¹ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 242.

² - المصدر نفسه، ص 254.

يصله بالمؤكد كذلك يكون في الجمل ما تتصل من ذات نفسها بالتي قبلها وتستغني بربط معناها لها عن حرف عطف يربطها، وهي كل جملة كانت مؤكدة للتي قبلها ومبنية لها، وكانت إذا حصلت لم تكن شيئاً سواها؛ كما لا تكون الصفة غير الموصوف والتأكيد غير المؤكد فإذا قلت جاءني زيد الظريف وجاني القوم كلهم لم يكن الظريف وكلهم غير زيد وغير القوم"¹، وهو ما يجعل هذه المفردات ذات دور وظيفي حيث تعمل على تأكيد وتبيين المعنى المقصود بدقة، فتزيل الغموض والإبهام الذي قد يجده المتلقي، وهذا ما يكون كذلك مع الجمل.

لقد وضع عبد القاهر ذلك بعدة أمثلة من بينها قوله تعالى: "ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه"²، يرى أن "قوله لا ريب فيه: بيان وتوكيد وتحقيق لقوله: "ذلك الكتاب" وزيادة تثبيت له وبمنزلة أن تقول: (هو ذلك الكتاب هو ذلك الكتاب). فتعيد مرة ثانية لتثبته؛ وليس يثبت الخبر غير الخبر، ولا شيء يتميز به عنه فيحتاج إلى ضم يضمه إليه، وعاطف يعطفه عليه"³، فقد اتصلت الجملة الثانية بالجملة الأولى اتصالاً وثيقاً وذلك ما يفرضه تمام المعنى وحصوله؛ إذ تعد جملة (لا ريب) بالنسبة لجملة (ذلك الكتاب) توكيد لفظي يعمل على تحقيق المعنى وتثبيته، وحسب التقدير الذي قدمه الجرجاني فقد جاء ذلك التوكيد لكشف أهمية وقيمة كتابه عز وجل، وتأكيد وجوده ونفي الشك في ذلك.

2 - الانفصال إلى الغاية:

يكون ذلك عبر اختلاف الجملتان اختلافًا تاماً تعد فيه الجملة الثانية غريبة أجنبية عن الجملة الأولى، مثال ذلك قوله تعالى: "وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون"⁴. يرى الجرجاني توضيحاً لذلك "أنك ترى الجملة وحالها مع التي قبلها حال ما يعطف ويقرن إلى ما قبله، ثم تراها قد وجب فيها ترك العطف لأمر عرض فيها، صارت به أجنبية مما قبلها. مثال ذلك قوله تعالى: (الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون)، مع قوله: (إنما نحن مستهزئون)"⁵، فلما كان نمط أسلوب الصدر مختلفاً عن نمط أسلوب العجز، إذ إن الأول حكاية عن المنافقين في حين أن الثاني خبر من الله تعالى، كان لا بد من وجوب الفصل واستحالة حصول الوصل.

¹ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 242.

² - سورة البقرة، الآية 1.

³ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 242 و 243.

⁴ - سورة البقرة، الآية: 14.

⁵ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 245.

ومن مسوغات الفصل أن تكون الجملة الثانية جواب عن سؤال مقدر يفهم من الجملة الأولى، مثال ذلك قول الشاعر:

زعم العواذل أنني في غمرة صدقوا ولكن غمرتني لا تنجلي

لما حكى عن العواذل أنهم قالوا: هو في غمرة، وكان ذلك مما يحرك السامع لأن يسأله فيقول: فما قولك في ذلك وما جوابك عنه؟ أخرج الكلام مخرجه إذا كان ذلك قد قيل له، وصار كأنه قال: أقول صدقوا. أنا كما قالوا، ولكن لا مطمع لهم في فلاحه؛ ولو قال: (زعم العواذل أنني في غمرة وصدقوا)، لكان يكون لم يصح في نفسه أنه مسؤول، وأن كلامه كلام مجيب¹، فقد اقتضت استراتيجية التقدير قصد إخراج الكلام مخرجه، فصل جملة السؤال المقدر عن الجواب عليه إذ يمتنع العطف بينهما، وذلك الفصل هو ما يولد الكلام الإبداع الفني البلاغي التميز.

ويرى عبد القاهر أن من اللطيف في الاستئناف على معنى جعل الكلام جوابا في التقدير قول اليزيدي:

ملكته حلي ولكنة ألقاه من زهد على غاربي

وقال إني في الهوى كاذب انتقم الله من الكاذب

فقد "استأنف قوله: (انتقم الله من الكاذب): لأنه جعل نفسه كأنه يجيب سائلا قال له: (فما تقول فيما اتهمك به من أنك كاذب)؟ فقال: أقول: (انتقم الله من الكاذب)"²، ولذلك كان وجوب اعتماد الفصل؛ إذ يتسبب العطف بين جملة السؤال المقدر وجملة الجواب عليه فقدان الكلام لمعناه، وذلك لوقوع الخلط بين ما قاله المخبر (السؤال) وما قاله المتكلم ردا عليه.

وقد ذكر أن من النادر "قول الشاعر:

قال لي كيف أنت قلت عليل سهر دائم وحزن طويل

لما كان في العادة، إذا قيل للرجل: كيف أنت فقال: "عليل" أن يسأل ثانيا فيقال: (ما بك وما علتك)؟ قدر كأنه قد قيل له كذلك، فأتى بقوله: (سهر دائم): جوابا عن السؤال المفهوم من فحوى الحال³، وهذا ما جعل الفصل أولى من الوصل بين الجملتين.

¹ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 248 و 249.

² - المصدر نفسه، ص 250.

³ - المصدر نفسه.

يتعلق الأمر هنا بإستراتيجية التقدير (سؤال/ جواب)، إذ يبنى المتكلم (المبدع) عبر هذا النمط (حوارا افتراضيا) مع المتلقي، يقوم على سؤال مقدر أو مُفترض يُوجه إليه من قبل المتلقي تتضمنه الجملة الأولى، وجواب عليه من طرفه يكون مدار الجملة الثانية، وعلى أساس اختلاف ما يرد عن المتلقي عما يكون من المتكلم وجب إيراد السؤال مفصولا عن الجواب، وذلك ما تتطلبه بلاغة الخطاب.

لقد عمل الجرجاني من خلال كل ما قدمه عن الفصل والوصل على تبين أصول الكلام التي تتعلق بضوابط (النظام اللغوي)، فتكشف لمستعمليه ما يجوز وما يمتنع، خاصة منهم المبدعين؛ حيث يصبح الأمر متعلقا بإنتاج الخطاب البلاغي، إذ يتطلب قوة تراكيبه تماسكا واتساقا وفخامة، وهذا ما يتأسس بادئ ذي بدء على التقيد بشروط الوصل والفصل من خلال معرفة وتطبيق وجوه استعمال كل واحد منهما، وهو ما يعني في الواقع احترام قوانين النحو واحتراز تحقيق البلاغة. وذلك ما يتوقف على دقة وحسن التصرف في معاني النحو. وحيث كان الأمر متعلقا بالخطاب البلاغي الخاص كان الانزياح والخروج عن الأصل أولى، وهذا ما يتجلى بالدرجة الأولى عبر وجوه الفصل وإستراتيجياته، التي تصاغ من خلالها عدة تراكيب ذات فروق دلالية متباينة حيث نجد اللطيف والنادر ..، وذلك حسب طبيعة ونوع الدلالة وأثر المعاني في نفس المتلقي.

نصل من خلال ما سبق إلى النتائج الآتية:

حاول عبد القاهر من خلال الحديث عن النظم أن يبين لمستعمل اللغة الاستراتيجيات الناجحة التي تمكنه من إحراز التبليغ البلاغي، ولعل أهم ما وضعه هو أن لكل أسلوب كلامي غرض ومقام ومعنى محدد، ولهذا "فمن الخطأ عنده أن نجعل التقديم، مثلا، مفيدا في بعض الكلام، وغير مفيد في البعض الآخر، أو أن يعلل تارة بالعناية، وأخرى بأنه لضرورة الأشعار والقوافي"¹، فيجب أن يكون لكل تحويل وعدول تركيبي علة تبررها حكمة بلاغية، يمكن أن تجلو للمتلقي من خلال القراءة الحصيفة العميقة للدلالة، وهذا ما يجده قائما عبر صورة التداخل القوي بين النحو والبلاغة حيث يتعلق الأمر (بالنحو البلاغي)، الذي يؤسس حسب ما أوضحته هذه النظرية (للنظم البلاغي) باعتباره مظهر الإبداع.

وقف الجرجاني على قيمة الطبيعة الإبداعية أو التحويلية التي تتميز بها اللغة العربية؛ إذ ينتج بفضلها المتكلم العديد من الوجوه التركيبية التي تتباين دلالتها، أين نقف على ما يعرف بخاصية الفروق الدلالية، ليؤكد في خضم ذلك أن الوصول إلى النظم المثالي من خلال إستراتيجية الوجوه والفروق، أمر متوقف على اتباع ما يفرضه المقام.

¹ - ينظر: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص 151.

وحسب ما بينه تتعدد وجوه استعمالنا التركيبية فتباين دلالاتها، وهو ما يؤدي إلى تباين أنماط البلاغة؛ ذلك أن هذه الأخيرة التي هي صفة في الكلام تكون ذات مستويات ودرجات، حيث تكون من الأدنى إلى الأعلى أين تظهر الخصوصية والتميز.

لقد كشف عن حقيقة (بلاغة النحو) التي ترتبط بمعاني النحو، موضحاً أن الأمر يخص طريقة النظم من خلال الانزياح عن الأصل العادي، بما يناسب الأغراض وقد بين أن "معرفة أن مدار أمر النظم، على معاني النحو، وعلى الوجوه والفروق التي من شأنها أن تكون فيه، تقتضي معرفة أن الفروق والوجوه كثيرة، ليس لها غاية تقف عندها، ونهاية لا تجد لها ازدياداً بعدها، ثم إن المزية ليست بواجبة لها في أنفسها، ومن حيث هي على الإطلاق، ولكن تعرض بسبب المعاني والأغراض التي يوضع لها الكلام، ثم بحسب موقع بعضها من بعض، واستعمال بعضها مع بعض"¹، فما ينبغي أن يعلمه مستعمل اللغة الساعي إلى تحقيق البلاغة، هو أن النظم يتأسس على معاني النحو، وتكون طريقة توظيفها بحسب المعاني والدلالات والأغراض. وبناء على مواقعها؛ أي علاقاتها في الكلام، يكون الاختلاف بين المتكلمين والمبدعين، وهذا ما يأخذنا إلى القول إن اللغة استعمال على أساسه يكون التفاوت بين أساليبنا الكلامية. وإن الفائدة من المعرفة اللغوية (خاصة النحوية في هذه النظرية) هي الاستعمال الوظيفي لها وفق طابع تبليغي نفعي عادي أو فني بلاغي.

أوضحت لنا شروحات عبد القاهر وتحليلاته - لا سيما في الدلائل - بأن النحو مستويين مستوى الاستعمال العادي، ومستوى الاستعمال الإبداعي البلاغي الفني، "فالنحو في مستواه الأول وسيلة تستعملها العامة استعمالاً نفعياً فوظيفته - في جوهرها - وظيفة عملية، وهو في مستواه الثاني سبيل الخاصة إلى استعمال اللغة استعمالاً لا تكون فيه مجرد وسيلة عملية، وإنما تكون فيه قادرة على أن تحرك سواكن الطاقات اللغوية الكامنة فإذا هي إنجازات فنية وأداء جمالي"²، يقوم غالباً على العدول التركيبي الذي يؤلّد في خطاباتنا شحنات دلالية إيجابية فنية بلاغية، فقد ركزت هذه النظرية على قوة الدلالة باعتبارها مركز التفاوت، إذ تعبر عن مقصدية المبدع، وتغوص في نفس المتلقي لتكون لديه الأريحية وهو ما يتعلق بما يعرف بالأثر البلاغي.

¹ - ينظر: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 132.

² - محمد عمر الصماري، النظم والنحو عند عبد القاهر الجرجاني، عبد القاهر الجرجاني، أعمال ندوة، جامعة صفاقس، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس، 1998، ص 20.

2 - اللفظ (الصورة):

تعد الصورة البلاغية - في الغالب الكثير - من أبرز مؤشرات ومظاهر إبداعية المتكلم، وذلك خاصة إذا اتسمت بالانفراد والمغايرة، حيث تصنع لونا فنيا ومسحة شعرية خاصة مما يؤدي إلى تميز بلاغة الخطاب. وعلى العموم فإن للصورة أهمية بالغة في الخطاب وذلك باعتبار البعد الفني التأثيري لها، ويبدو هذا واضحا عند مستعملي اللغة العربية؛ حيث نجد أن الاهتمام بالصورة قد كان من أهم مسلمات العقل العربي بخصوص استعمال اللغة، وهذا ما نلاحظه على محتويات ومناقشات الخطاب البلاغي؛ حيث عرّف البعض البلاغة بأنها "إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ"¹، وذلك - حسب رأيهم - "لأن الكلام إذا كانت عبارته رثة ومعرضه خلقا لم يسم بليغا وإن كان مفهوم المعنى مكشوف المغزى"²، فقد كانت الصورة من شروط وأساسيات بلاغة الخطاب وبالتالي مقياسا لبراعة المبدع.

ففي إطار هم الإجابة عن سؤال شروط بلاغية الخطاب الأدبي وما يرتبط به من إشكالات أهمها: رسم طريق الخصوصية الأدبية وتوضيح إمكانات وتقنيات الوصول إليها، أكد الطرح البلاغي الجرجاني على أهمية الصناعة التصويرية، وهذا ما ربطه بالمجاز وبعض صوره (الكناية والاستعارة ..) وذلك باعتبارها أمر المزية. حيث أخذ الحديث عن أنماطها، وتبيين كيفية توظيفها والتأكيد على أثرها الفني ومدى فاعليتها في الممارسة البلاغية حيزا كبيرا من بحثه لاسيما في أسرار البلاغة.

والواضح مما قدمه أنها عملية عقلية تعتمد على تقنية التصوير الذهني لمعاني العبارات، بحيث يشكل الواقع الخارجي المادي بمختلف عناصره ومكوناته محور التصوير، وهذا ما يظهر في قوله: "واعلم أن قولنا الصورة إنما هو تمثيل وقياس لما نعلمه بعقولنا على الذي نراه بأبصارنا؛ فلما رأينا ... بين المعنى في أحد البيتين وبينه في الآخر بينونة في عقولنا وفرقا عبرنا عن ذلك الفرق وتلك اليبسونة بأن قلنا: للمعنى في هذا صورة غير صورته في ذلك"³، وهو الفرق الإبداعي الشعري حين يتعلق الأمر بالخطابات أو التعابير الأدبية التي ترتبط بجمالية التلقي. ولذلك تساهم الصورة في زيادة قيمة ووزن العبارات وجعلها تتفاوت فيما بينها.

¹ - أبو الحسن علي بن عيسى الرماني، النكت في إعجاز القرآن، تح: محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، ص 89.

² - المصدر نفسه.

³ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 466.

تبين الصورة الارتباط الوثيق بين البلاغة والأدب؛ فمن دلائل وأسرار بلاغة الخطاب عند الجرجاني أن تكون لغته لغة فنية، وهو ما يتحقق عبر تصوير المعنى وإخراجه في قالب لفظي أدبي شاعري، ولذلك يرى أن الكلام الشعري بالنظر إلى طريقة الشاعر وتعامله مع المعنى مراتب وأقسام "قسم أنت ترى أحد الشعارين فيه قد أتى بالمعنى غفلا ساذجا، وترى الآخر قد أخرجه في صورة تروق وتعجب. وقسم أنت ترى كل واحد من الشعارين قد صنع في المعنى وصور"¹، وذلك ما يجعل التفاوت قائما على أساس الصناعة التصويرية الخاصة النادرة.

تتوقف منزلة المبدع على استحداث المعاني ومدى قدرته بذلك على خلق صور بلاغية جديدة لم يسبقه إليها غيره، أو لطائف أسلوبية مبتدعة، ولعل هذا ما يحقق التباين والتنوع حيث تنتج قوة التأثير الذي يجعل المتلقي أكثر تفاعلا وتجوبا مع الخطاب؛ "ذلك أن الإدراك الجمالي يعتمد كما يذهب إلى ذلك أكثر الفلاسفة والنقاد على خاصية الدهشة التي تولدها المفاجأة في الفن، ومن المعروف في علم النفس أن الإثارة تزيد بحسب درجة شدة المثير، وتتناقص كلما تعود الإدراك على المثير، ولهذا السبب كان التباين المتولد عن المفارقة والتنوع وسيلة تحقق الجودة التي تضمن الإثارة"²، إذ تتأثر نفس المتلقي بالجديد المتميز الذي يبرع منتجه في كسر نمطية الاستعمال الشائع المألوف.

لقد ركز الجرجاني على بلاغية الصورة وذلك بأن تكون ذات أبعاد فنية جمالية خارجة عن العام المبتذل، بحيث تدل على شاعرية وإبداع صاحبها وتضمن له الخصوصية والتفرد، ف "بعد أن ميز بين الغرض ووجه الدلالة على الغرض يعود لكي يميز بين مستويين ضمن وجه الدلالة على الغرض. أولهما شائع بين الناس والثاني خاص. إن الشاعرية لا تكمن حسب الجرجاني في الغرض العام لأن هذا عام وشائع بين الناس شأنه شأن وجوه الدلالة عليه المستهلكة أي الشائعة. أو بعبارة واضحة إن الصورة الشعرية عندما تكون مما هو شائع بين الناس فإنها لا تصبح علامة على شاعرية من يعتمد عليها"³، ويعني ذلك أن المبدع في سعي دائم إلى العدول من أجل بلوغ درجة عالية من الإبداع البلاغي، وذلك ما ينطبق على التصوير الفني حيث يبحث دائما عن الصورة البلاغية القوية النادرة، التي تحمل الدلالة الشاعرية الموحية المعبرة الخاصة.

يعد التغيير وإحداث الاختلاف معيارا فاصلا في حالة الموازنة بين نموذجين شعريين من حيث الصناعة والتصوير، وهو ما ينطبق على القسم الثاني الذي تجد فيه كل واحد من الشعارين قد صنع في المعنى وصور، وهو

¹ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 442.

² - مسعود بودوخة، البلاغة العربية بين الإمتاع والإقناع، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1: 2018، ص 35.

³ - محمد الولي، الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي والنقدي، ص 54.

ما يُؤلّد القيمة البلاغية الأدبية، التي يتم الحكم على أساسها بإبداعية الخطاب وفضل صاحبه، "ولئن لم يبتدع عبد القاهر هذا الأساس في الحكم بالقيمة الأدبية إذ سبقه إليه قدامة بن جعفر فإنه أول من حاول تحسيمه وربطه بمضمون ملموس في إطار تصور متكامل لبلاغة القول وفصاحته"¹، فقد تميز ما قدمه بسمّة التناول العلمي الناضج المنظم، حيث استطاع أن يلم بمختلف ما يتعلق بأسرار بلاغة الخطاب الأدبي.

يكون (وجه الدلالة على الغرض) مجال تحقيق الصناعة التصويرية، وهو المجال الذي يتغيا فيه المتكلم تحميل خطابه بأبعاد ودلالات شعرية بلاغية تتجاوز وظيفة التواصل، وتتقصى التعبير الأدبي البلاغي الذي يلي مقتضيات فن القول. ومما يجب أن يعلمه القارئ هنا هو أن الخطاب البلاغي الذي يتميز بالصناعة التصويرية يحمل معنيين؛ (معاني أولى) و(معاني ثواني)، "فالمعاني الأولى المفهومة من أنفس الألفاظ، هي المعارض والوشي والحلي وأشباه ذلك. والمعاني الثواني التي يوماً إليها بتلك المعاني، هي التي تكسى تلك المعارض وتزين بذلك الوشي والحلي"²، فالمعاني الثواني هي المعاني الأصلية التي تعبر عن مقصدية المتكلم، وهي ما يسعى إلى تزيينها وتقديمها في أبلغ وأشعر صورة، مما يجعلها تتميز باللطافة حيث يشعر المتلقي بالإمتاع البلاغي.

ولابد من الإشارة إلى أن الطرح الذي قدمته نظرية الجرجاني البلاغية عن الصورة، قد كان في الواقع إثارة لقضية الجواز من منظور جديد، وذلك من منطلق (معنى المعنى) الذي حاول الجرجاني من خلاله تفسير دلالة الجواز في إطار سياقاته التواصلية المتعددة. وهي الدلالة التي تتعدد من خلالها (احتمالات أو إمكانات) تصوير المعاني والتعبير عن المقاصد بطريقة ضمنية غير مباشرة. وذلك ما يقوم - بناء على توضيحات الجرجاني - على ما يمكن أن يُصطلح عليه بـ (تقنية التحويل الدلالي) وتدخل في مجال العدول. إذ يتمكن مستعمل اللغة عبر هذه التقنية من ابتداع طرق تركيب دلالية جديدة تخدم هدف أدبية التعاير وشاعريتها، وقد ربط الجرجاني ذلك بالعدول الدلالي الذي يقود إلى الغرابة البلاغية (أو الإغراب الفني البلاغي)، الذي يؤدي إلى غموض الكلام حيث يركز على تجاوز التورية عملاً على تحقيق التعقيد البلاغي.

وأهم ما يجب على مستعمل اللغة (المبدع) أن يعلمه، هو أن حدوث المزية من خلال كل ذلك لا يخرج عن إطار معاني النحو وذلك ما سيأتي توضيحه في النقاط التالية.

¹ - حمادي الصمود، التفكير البلاغي عند علماء العرب، ص 521.

² - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 273.

2 - أ. المجاز:

تتيح طبيعة اللغة الإبداعية إمكانية التحويل أو النقل الدلالي، التي تتعدد من خلالها طرق أداء المعنى حيث تسمح بتوليد وإنتاج أساليب جديدة وإحداث لطائف جمالية، يتلون على إثرها الخطاب بمحاسن الكلام التي يبتغي بها المتكلم التوصيل البلاغي الفني، حيث يتلاعب بمجاري الدلالات الأصول قصد بناء تراكيب مجازية لتقديم الحقيقة في طابع مجازي مغر. وذلك باعتباره الطابع الذي يميز الصيغ التعبيرية الخاصة الخارجة عن الطريق العام في مقابل الحقيقة التي هي عكس ذلك. فبالإضافة إلى ثنائية: حقيقة / مجاز باعتبار الطرف الأول أصلاً والثاني فرعاً عنه وظف الفكر البلاغي ثنائية: عام / خاص، للتفريق بين التعابير المجازية وهي تعابير فنية جمالية خاصة والتعابير العادية، التي لم يخرج فيها منتجها عن العام الذي تمثله الحقيقة.

يمكن الوقوف على ذلك عند الجرجاني ولعل هذا ما يظهر على تعريفه للمجاز، الذي لم يخرج فيه عن المفهوم الذي تدوول عند معظم البلاغيين قبله؛ حيث استخدموا مصطلح المجاز لوصف ما تم العدول به عن الحقيقة (الأصل) في استعمالهم اللغوية. فالجهاز عنده: "كل كلمة أريد بها غير ما وقعت له في وضع واضعها لملاحظة بين الثاني والأول"¹، مثال ذلك كلمة القمر في قول أحدهم: التقيت قمراً، وهو يقصد امرأة جميلة حسنة الوجه، فقد جاز بكلمة قمر إلى ما وضعت له (كوكب في السماء) إلى ما لم توضع له (امرأة حسنة الوجه). ومعنى الملاحظة هو أن يكون فعل التجوز قائم على وجود مناسبة بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي.

لقد فصل عبد القاهر القول في تبين مختلف جوانب المجاز وذلك من منطلق مقابلته بالحقيقة التي تعد أصل الكلام، وقد بين في إطار ذلك أن ثنائية: حقيقة / مجاز تقع في المفرد والجملة، بحيث يختلف وقوع أحدهما في المفرد عن الجملة. وعلى أساس ذلك جعل المجاز قسمين: مجاز لغوي في المفرد، ومجاز عقلي في الجملة، حيث يرى أنه "متى تم وصف الكلمة المفردة بالمجاز كان حكماً يجري من طريق اللغة، ومتى وصف بالمجاز الجملة من الكلام، كان مجازاً من طريق المعقول دون اللغة، وذلك لأن الأوصاف اللاحقة للجمل من حيث هي جمل، لا يصح ردها إلى اللغة، ولا وجه لنسبتها إلى واضعها، لأن التأليف هو إسناد فعل إلى اسم، أو اسم إلى اسم، وذلك شيء يحصل بقصد المتكلم"²، والواضح أن مدار هذا التصور ثنائية: اللفظ / التأليف؛ حيث يفرق بين اللغة كمفردات متواضع عليها يمكن تجوزاً نقل معنى لفظة إلى لفظة أخرى، واللغة باعتبارها استعمالاً ذاتياً حيث يصبح الأمر

¹ - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 351.

² - المصدر نفسه، ص 408.

متعلقا بسياق لغوي معين تتربط فيه مجموعة من الألفاظ متباينة النوع، يصيغها المتكلم بتصرف حسب مقصديته، حيث يركز على تشكيل دلالة مجازية خاصة يستند فيها على آلية التأول العقلي. وقد انتهى الجرجاني إلى تحديد حد كل نوع على النحو الآتي:

أ - **المجاز اللغوي**: عرفه عبد القاهر بقوله: "المجاز مَفْعَل من جاز الشيء يجوزُه إذا تعداه وإذا عدل باللفظ عما يوجبه أصل اللغة، وصف بأنه مجاز على معنى أنهم جازوا به موضعه الأصلي أو جاز هو مكانه الذي وضع فيه أولا"¹، فالمقصود بذلك هو اللفظ المستعمل لغير ما وضع له حيث يوجه لإفادة معنى غير متفق عليه من طرف الواضعين، وهذا ما يجعله عدولا مجازيا، لكن عدولا عن الدلالة المعجمية باعتبارها مصدر المعنى الأصلي. ويعتمد هذا المجاز على قرينة لفظية تظهر في السياق اللغوي تمنع من إيراد المعنى الأصلي.

ب - **المجاز العقلي**: ويسمى كذلك بالمجاز الحكمي، وهو "كل جملة أخرجت الحكم المفاد بها عن موضعه من العقل لضرب من التأول"²، ويتعلق بالحكم الإعرابي؛ حيث يرد اللفظ على معناه الحقيقي، إلا أن إسناد الفعل إلى الاسم أو الاسم إلى الاسم يكون على سبيل المجاز، وقد سمي عقليا لأن التجوز فهم من العقل وليس اللغة.

لقد أوضح الجرجاني أنه يمكن - كذلك - الاعتماد في تمييز نوع المجاز الواقع في الكلام، والفصل بين المجاز اللغوي والمجاز العقلي على أساس النظر في محور وقوعه أفي الإثبات أو الميثب؟، ف "إذا وقع في الإثبات فهو متلقى من العقل، وإذا عرض في الميثب فهو متلقى من اللغة"³، تتكون الجملة من مسند ومسند إليه حيث يكون الإثبات فعلا أو صفة مثل: (الفعل ضرب، والصفة مريض) في الجملتين: (أ و ب) على التوالي: (أ) **ضرب زيد عمرو**، (ب) **زيد مريض**، "فالحكم بأن الضرب فعل لزيد، أو ليس بفعل له، وأن المرض صفة له، أو ليس بصفة له، شيء يدعيه المتكلم ودعوى يدعيها"⁴، فيكون حكم المتلقي على ادعاء ما قاله المتكلم وذلك بالنظر إلى ما استند فيه على العقل، حيث يركز على صدقه أو كذبه، وبالتالي لا علاقة للغة بذلك.

¹ - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 395.

² - المصدر نفسه، ص 385.

³ - المصدر نفسه، ص 373.

⁴ - ينظر: المصدر نفسه.

ومن أمثلة وقوع المجاز على المثبت قوله تعالى: "أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس"¹، يرى الجرجاني أن "المجاز في المثبت وهو الحياة، فأما الإثبات فواقع على حقيقته، لأنه ينصرف إلى أن الهدى والعلم والحكمة فضل من الله وكائن من عنده"²، وهذا ما يجعل القارئ يقر ببلاغة هذا المجاز وروعة المعاني به وقوتها.

ركز عبد القاهر - لا سيما في الدلائل - على تأكيد أهمية المجاز العقلي (الحكمي) ومدى فاعليته في مجال الإبداع البلاغي، حيث يرى أن "هذا الضرب من المجاز على حدته كنز من كنوز البلاغة، ومادة الشاعر المفلق والكاتب البليغ في الإبداع والإحسان، والاتساع في طرق البيان، وأن يجيء بالكلام مطبوعا مصنوعا، وأن يضعه بعيد المرام، قريبا من الأفهام"³، إذ تتيح طبيعة هذا المجاز العقلية إمكانية التفكير الإبداعي العميق، الذي يتصرف من خلاله المبدع بحذق من أجل صناعة المعاني البعيدة المتميزة، التي تتشكل عبرها صورة البلاغة كعملية عقلية قائمة على حيل التجوز، إذ يحضر الغموض البلاغي الذي يقوم على التحويل الدلالي العقلي، مما يفضي إلى الاتساع الدلالي القادر على حدوث البيان وحصول الفهم والتبني، حيث يجمع حكم المزية بين (الطبع والصنعة) إذ تعد هذه الثنائية من أهم مبادئ الرؤية البلاغية عند الجرجاني.

لم يخرج الجرجاني - في حديثه عن المجاز - عن فكرة أن استعمالات المتكلمين اللغوية تكون بين معنيين؛ (معنى حقيقي) و(معنى مجازي)، حيث يكون طريق الوصول إلى الأول قريبا، أما الثاني فهو معنى بعيد يصعب تحصيله أو الوصول إليه إنتاجا وفهما، إلا أنه قد صاغ هذا المنطلق البلاغي العام صياغة جديدة عبر عنها: بمعنى المعنى فيقول: "الكلام على ضربين: ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، وضرب آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ولكن يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضعه في اللغة، ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض"⁴، يكون الأول معنى لغويا صريحا تدل عليه مختلف الوحدات اللغوية التي تُكوّن الكلام، أما الثاني فهو معنى بلاغي مضمّر يعبر عما يريد المتكلم، وقد اصطلح الجرجاني على الأول بالمعنى أما الثاني بمعنى المعنى.

وفي الواقع لم يكن معنى المعنى صياغة جديدة بقدر ما كان تأسيسا لنظرية المعنى التي تدور حول دلالة المجاز وشعرية صورته، وذلك من حيث هي ظاهرة فنية واستعمالا متميزا يشكل بلاغية الخطاب، حيث نقف

¹ - سورة الأنعام، الآية: 122.

² - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 371.

³ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 297.

⁴ - المصدر نفسه، ص 272.

على لطافة المعنى وقوة الدلالة. مما يمكن من حدوث التواصل الفني البلاغي النفعي، وذلك ما يجعله أبلغ من الحقيقة.

لقد تولى الجرجاني من خلال ذلك توضيح فكرة كون المجاز أبلغ من الحقيقة، وهذا بعدما لاحظ سوء فهم مدار البلاغة به، فيقول: "وليس العجب إلا أنهم لا يذكرون شيئاً من المجاز إلا قالوا: إنه أبلغ من الحقيقة: فليت شعري إن كان لفظ أسد في قولنا: هو أسد قد نقل عما وضع له في اللغة وأزيل عنه، وجعل يراد به الشجاع هكذا غفلاً ساذجاً، فمن أين يجب أن يكون قولنا أسد أبلغ من قولنا شجاع"¹، فيجب - إذن - أن تكون ممارسة فعل التجوز مستدعاة بقصد محدد، وذلك ما يتمثل في كونه من أهم الآليات التي يستند عليها المبدع من أجل تفخيم المعنى، عبر التوسع الدلالي القائم به، الذي يفضي إلى دقة التعبير، ولعل هذا ما يقود إلى تحصيل فاعلية الأثر البلاغي.

إن الأثر الإيجابي الذي يحدثه توظيف المجاز بأنواعه المختلفة في المعنى هو ما يجعله أبلغ من الحقيقة ويثبت قيمته، فقد "أجمع الجميع على أن الكناية أبلغ من الإفصاح، والتعريض أوقع من التصريح. وأن للاستعارة مزية وفضلاً وأن المجاز أبداً أبلغ من الحقيقة، لكن ليست المزية التي تثبت لها هذه الأجناس على الكلام المتروك على ظاهره، والمبالغة التي تدعى لها في أنفس المعاني التي يقصد المتكلم إليها بخبره، ولكنها في طريق إثباته لها وتقريره إياها"²، وهو طريق التوسع الدلالي الذي يفضي إلى قوة الإثبات والتقرير، حيث تكون به غزارة المعنى وذلك بالطبع ما يجعل الكلام أكثر إيجاء، ولا بد أن هذا ما أفضى إلى عدّ المجاز مرادفاً للإيجاز. وبالإضافة إلى ذلك فإن التشكيل المجازي يتيح خروج الدلالة على وجه بلاغي يتسم بطابع الفنية والجودة مما يجعله أبلغ من الطريق العادي، وقد عد ذلك من أهم المبادئ التي أقرها العقل العربي؛ حيث طبعت التفكير اللغوي البلاغي لمستعملي اللغة العربية.

ولعل أهم ما سعى إليه من وراء بحثه في هذا الجانب هو توضيح متعلقات صور المجاز وشروطه، التي تكشف عن حدود استعمالها الوظيفي (التواصلية) بصفة عامة، واستعمالها الأدبي والوصول بها إلى مجال البلاغة بصفة خاصة. وقد انطلق في ذلك - حسب رأينا - من حقيقة كونها ظاهرة لغوية بلاغية مركزة على بعدين؛ أولهما: البعد الوظيفي النفعي الذي يقتضي اختلاف توظيفها، وبالتالي اختلاف وجوها باختلاف السياقات

¹ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 355.

² - ينظر: المصدر نفسه، ص 117.

التواصلية، أما الثاني: فهو البعد الفني الذي على أساسه يتفاوت أثرها الجمالي التأثيري بين الخطابات، وذلك حيث تكون عدولا واستبدالاً جمالياً يساعد في بلورة الفعل الأدبي البلاغي ويعزز من قيمته.

لقد انطلق الجرجاني في توضيح كل ذلك من منظور (مبدأ التفاوت)، الذي يؤكد تباين درجات الإبداع الأدبي البلاغي وهو حال استعمالاتنا البلاغية التي تكون مع الاستعارة، أو الكناية، أو التمثيل؛ حيث لاحظ "أن من شأن هذه الأجناس، أن تجري فيها الفضيلة، وأن تتفاوت التفاوت الشديد. إذ في الاستعارة العامي المبذل والخاصي: النادر"¹، حيث تختلف طريقة الجاز والتصوير فتختلف بناء على ذلك أساليب الكلام وكذا مراتب المبدعين. ولذلك يلاحظ القارئ أن العناية بتوضيح خصائص كل جنس أهم القضايا المتناولة في الدلائل والأسرار. وهذا ما نبينه من خلال ما يلي.

2 - ب. الاستعارة:

تتحقق الصورة المجازية مع الاستعارة بشكل أبلغ حيث يكون عمق التصوير الذي يعمل على تكثيف دلالات ومعاني الخطاب، وحسب الجرجاني ف "إنها تعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ، حتى تجني من الغصن الواحد أنواعاً من الثمر، إن شئت أرتك المعاني اللفظية التي هي من خبايا العقل، كأنها جسمت حتى رأتها العيون، وإن شئت لطف الأوصاف الجسمانية حتى تعود روحانية، لا تنالها إلا الظنون"²، ولهذا ارتبطت فاعلية الاستعارة ومن ثمة قدرة المبدع بما يمكن أن نطلق عليه: (تقنية الاستبدال التخيلي)، التي تتيح تجسيم المعاني أو جعل ما هو حسي عقلي معنوي.

ويمثل التشبيه مدار الفعل الاستعاري الذي يعتمد على الإضمار والحذف وذلك ب "أن تريد تشبيه الشيء بالشيء، فتدع أن تفصح بالتشبيه وتظهره، وتجيء إلى اسم المشبه به، فتعيده المشبه وتجره عليه. تريد أن تقول: رأيت رجلاً كالأسد في شجاعته وقوة بطشه سواء، فتدع ذلك. وتقول: رأيت أسداً"³، ويكون ذلك قصد المبالغة لجعل المعنى في ذهن المتلقي وكأنه حقيقة.

والاستعارة عند الجرجاني أنماط:

¹ - ينظر: عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 43.

² - المصدر نفسه، ص 43.

³ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 114.

1 - باعتبار الإفادة:

ركز عبد القاهر على أثر الاستعارة في معنى الكلام ومدى فعالية ذلك في إفادة المتلقي، ومن هذا المنطلق جعلها قسمين:

أ - الاستعارة غير المفيدة:

حرص الجرجاني من منطلق غرض التنبيه إلى سوء هذا النوع من الاستعارة وبالتالي خلو الكلام من البلاغة من خلاله، على تبيين ماهيته حيث يقول "وموضع هذا الذي لا يفيد نقله، حتى يكون اختصاص الاسم بما وضع له عن طريق أريد به التوسع في أوضاع اللغة، والتنوُّق في مراعاة دقائق في الفروق في المعاني المدلول عليها، كوضعهم للعضو الواحد أسامي كثيرة بحسب اختلاف أجناس الحيوان، كوضع الشفة للإنسان والمشفر للبعير والجحفلة للفرس"¹، مثال ذلك: قول أبي دؤاد الإيادي في وصف الفرس:

"فبتنا جلوسا لدى مهرنا ننزع من شفثيه الصفارا

إذ لا فائدة [حسب رأيه] من استعمال الشفة للفرس وهي موضوعة للإنسان"²، ولذلك فمن الأفضل تطبيق ما هو متداول عبر وضع كل كلمة في موضعها اللغوي الأصلي، الذي وضعت له أو بالأحرى (وضع كل كلمة في مجالها الدلالي المناسب).

ويرى أن تسميتها بالاستعارة خلط جرى عليه الاتفاق عند البعض، وهو ما حال دون إمكانية مخالفته له، إذ يقول في خضم ذلك: "واعلم أن الواجب كان أن لا أعد وضع الشفة موضع الجحفلة، والجحفلة في مكان المشفر ونظائره، وأضن باسمها أن يقع عليه، ولكني رأيتهم قد خلطوه بالاستعارات وعدوه معدها، فكرهت التشدد في الخلاف واعتددت به في الجملة، ونبهت على ضعف أمره بأن سميته استعارة غير مفيدة"³، والواضح أن ذلك ما يبقى في حدود الفعل استعار الذي يدل على الإعارة فقط، دون أن يدخل في إطار الفنية والإبداعية التي تتميز بها الاستعارة البلاغية التي تقوم على التشبيه، وهي النمط المفيد.

¹ - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 30

² - المصدر نفسه، ص 32.

³ - المصدر نفسه، ص 404.

ب - الاستعارة المفيدة:

يكتسب الكلام من خلال هذه الاستعارة رونقا وفنية، وذلك حيث يكون محملا بدلالات مجازية تثير المتلقي، وقد ذكر الجرجاني هذا النمط بقوله: "وأما المفيد فقد بان لك باستعارته فائدة ومعنى من المعاني، وغرض من الأغراض لولا مكان تلك الاستعارة لم يحصل"¹، ولذلك يكون لصاحبها الفضل والمزية.

ركز عبد القاهر من هذا المنطلق على التوغل في مساربها، قصد تأكيد أهمية توظيفها ومن ثمة الاستدلال على خصائصها التداولية النفعية البالغة الأثر التي تجنى من خلالها، إذ يرى "أن الاستعارة .. في هذا الضرب دون الأول وهي أمد ميدانا، وأشد افتنانا، وأكثر جريانا، وأعجب حسنا وإحسانا، وأوسع سعة وأبعد غورا وأذهب نجدا في الصناعة وغورا، من أن تجمع شعبها وشعوبها، وتحصر فنونها وضروبها، نعم، وأسخر سحرًا، وأملأ بكل ما يملأ صدرا، ويمتع عقلا، ويؤنس نفسا، ويوفر أنسا"²، والواضح أنها الاستعارة التي تتولد عبر صياغة الكلام صياغة إبداعية رفيعة، تعتمد على تقنيات العقل حيث يمكن للمبدع أن يتلاعب بالمعاني ويمارس انزياحات خاصة تنتمي إلى فضاء اللامعقول، وذلك ما تتيحه إستراتيجية الاستبدال التخيلي. وهذا ما وصفه الجرجاني بقوله: "إن شئت أرتك المعاني اللطيفة التي هي من خبايا العقل، كأنها قد جسمت حتى رأتها العيون، وإن شئت لطفت الأوصاف الجسمانية حتى تعود روحانية لا تنالها إلا الظنون"³، إذ تكون بها المعاني بعيدة حيث يحضر معنى المعنى.

ولعل من أبرز سماتها بالإضافة إلى ذلك، تحقيق البلاغة باعتبارها (إيجازا)، حيث إنها "تعطي المعاني الكثيرة باليسير من اللفظ"⁴، فيكون بذلك الاقتضاب والاقتصاد اللغوي البلاغي الفني الإبداعي المفيد.

2 - الاستعارة باعتبار نوع الكلم:

أ - الاستعارة في الاسم:

تحدث من خلال "نقل الاسم عن معناه الأصلي إلى شيء آخر ثابت معلوم فتحريه عليه، وتجعله متناولا له تناول الصفة مثلا للموصوف، وذلك كقولك رأيت أسدا، وأنت تعني رجلا شجاعا، وعنت لنا ظبية، وأنت تعني

¹ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 33.

² - المصدر نفسه، ص 42.

³ - المصدر نفسه، ص 43.

⁴ - المصدر نفسه.

امراً¹، والواضح أنها الاستعارة العامة المتداولة التي يعلمها الجميع؛ إذ "يتناول الاسم في هذا كله شيئاً معلوماً يمكن أن ينص عليه فيقال: إنه عني بالاسم وكني به عنه ونقل عن مسماه الأصلي فجعل اسماً له على سبيل الإعارة والمبالغة في التشبيه"². ومما لا شك فيه أن تواتر استعمالها واعتياد المتخاطبين عليها يؤدي إلى استبعاد معيار التميز بتوظيفها، إذ يمكن تصنيفها - حسب رأينا - ضمن مجال الكلام العادي، حيث تخلو من الطابع التداولي الفني فتتضاءل بذلك - بل وتكاد تنعدم في بعض السياقات - الفاعلية التأثيرية التي يقتضيها الفعل الاستعاري.

وقد بين الجرجاني أن ذلك قائم على "أن يؤخذ الاسم على حقيقته ويوضع موضعاً لا يبين فيه شيء يشار إليه فيقال: هذا هو المراد بالاسم والذي استعير له، وجعل خليفة لاسمه الأصلي ونائباً منابه ومثاله قول لبيد:

وغداة ريح قد كشفت، وقرة
إذ أصبحت بيد الشمالي زمامها

وذلك أنه جعل للشمال يداً، ومعلوم أنه ليس هناك مشار إليه يمكن أن تجرى اليد عليه، كإجراء الأسد والسيف على الرجل في قولك انبرى لي أسد يزتر وسللت سيفاً على العدو لا يفل"³، فالاستعارة قائمة في اسم أسد واسم سيف، والواضح أن هذه الاستعارة تدخل في إطار سعي المبدع إلى المبالغة وتقوية المعنى المقصود.

ب - الاستعارة في الفعل:

تدل الكلم في اللغة العربية بالنظر إلى نوعها التي تكون بين الاسمية والفعلية على بعد دلالي محدد؛ حيث يتباين من خلاله الفعل على الاسم، فبينما يدل هذا الأخير على الثبوت، يدل الفعل على التغير والتحول والاستغراق حيث نقف على حيوية اللغة، ولذلك فلا "يتصور فيه أن يتناول ذات شيء، كما يتصور في الاسم، ولكن شأن الفعل أن يثبت المعنى الذي اشتق منه للشيء في الزمان الذي تدل صيغته عليه ... فإذا استعير الفعل لما ليس له في الأصل، فإنه يثبت باستعارته له وصفاً هو شبيه بالمعنى الذي ذلك الفعل مشتقاً منه"⁴؛ والواضح أن الجرجاني يرى أن الفعل مشتق متبنيًا بذلك رأي البصريين الذي يقر بأن المصدر هو الأصل، غير أن هذا الأمر لم يكن غاية ما أراده هنا بقدر ما كان مهتماً بتبيين ميزة (الإيحاء الدلالي) المعبر، الذي تتضمنه الاستعارة حين تكون بالفعل.

¹ - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 44.

² - المصدر نفسه.

³ - المصدر نفسه، ص 45.

⁴ - المصدر نفسه، ص 51.

يقدم الفعل دلالات استعارية ناطقة موحية؛ "بيان ذلك أن تقول: "نطقت الحال بكذا"، و"أخبرتني أسرار وجهه بما في ضميره"، و"كلمتني عيناه بما يحوي قلبه"، فتجد في الحال وصفا هو شبيه بالنطق بالإنسان، وذلك أن "الحال" تدل على الأمر ويكون فيها أمارات يعرف بها الشيء، كما أن النطق كذلك. وكذلك العين فيها وصف شبيه بالكلام وهو دلالتها بالعلامات التي تظهر فيها وفي نظرها"¹، فالوصف الشبيه هو أساس هذه الاستعارة وهو ما يجعل فك الإضمار الدلالي فيها، قائما على الإدراك العقلي له؛ أي معرفته.

وقد بين الجرجاني "أن الفعل يكون استعارة مرة من جهة فاعله الذي رفع به، ومثاله ما مضى ويكون أخرى استعارة في الفعل من جهة مفعوله، وذلك نحو قول ابن المعتز: من المديد

جمع الحق لنا في إمام قتل البخل وأحبي السماحا

فقتل وأحبي إنما صارا مستعارين بأن عديا إلى البخل والسماح"²، وذلك ما يعني أن الفعل الاستعاري يمكن أن يقع على الفاعل كما يمكن أن يقع على المفعول، وما يهم المبدع هو تقوية المعنى وإخفائه والإتيان به بديعا شاعريا.

3 - الاستعارة باعتبار قوة الدلالة

أ - ضعيفة:

يحتل هذا النمط أدنى مراتب سلم الاستعارة، ويتميز بأسلوب مبتذل قريب من الحقيقة حيث يمكن للمتلقي "أن يرى معنى الكلمة المستعارة موجودا في المستعار له من حيث عموم جنسه على الحقيقة ... ومثاله استعارة الطيران لغير ذي الجناح، إذا أردت السرعة، وانقضاض الكواكب للفرس إذا أسرع في حركته من علو، والسباحة له إذا عدا عدوا كان حاله فيه شبيها بحالة السباح في الماء"³، يكون التشبيه الذي يعتمد عليه المتكلم في هذه الاستعارة توضيح لحقيقة ما، تكون في العادة جارية بين الجميع، وهو ما يجعله متاحا سهلا، ومن أبرز خصائصه خلوه من الطابع الأسلوبي المجازي، وهذا ما نجده في استعمالنا اللغوية الاستعارية اليومية.

¹ - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 51.

² - المصدر نفسه، ص 53.

³ - المصدر نفسه، ص 55.

ب - متوسطة:

تكون هذه الاستعارة قريبة من النوع الأول، حيث تتطلب "أن يكون الشبه مأخوذاً من صفة هي موجودة في كل واحد من المستعار له والمستعار منه على الحقيقة وذلك كقولك رأيت شمساً تريد إنساناً يتهلل وجهه كالشمس"¹، تقوم هذه الاستعارة على وجود وصف جامع بين المستعار والمستعار له، وذلك ما يبدو من المثال السابق حيث يتشابه رونق الوجه وجماله المشرق الباهر مع نور الشمس وضوئه المنير. ويكمن الفرق بين هذا النوع والنوع الأول في أن هذا الأخير يكون بين جنسين مختلفين، في حين يكون الآخر مبنيًا على التشبيه بين عنصرين ينتميان إلى جنس واحد.

ج - قوية:

يرى الجرجاني أن هذا النوع "هو الصميم الخالص من الاستعارة وحده أن يكون الشبه مأخوذاً من الصور العقلية، وذلك كاستعارة النور للبيان والحجة الكاشفة عن الحق"²، فمن خلال هذا النوع تتجسد ماهية الفعل الاستعاري الذي ركزت عليه نظرية البلاغة الجرجانية وذلك باعتباره عملية عقلية، تركز على آلية التصوير الذهني الجمالي التي يبني عبرها المتكلم (المبدع) خطابه، صانعا التشاكل بين صور عقلية، حيث يستند على التشكيل اللغوي الفني فيقدم المعاني وفق طابع خاص ينزاح فيه عن الحقيقة المألوفة، فتكون المقاصد من وراء ذلك مضمرة خفية، تتطلب من المتلقي دقة التفكير وبعد النظر من أجل تأويلها والتمكن من فهمها. وعلى هذا الأساس عدت هذه الاستعارة عند الجرجاني من مقومات الخطاب البلاغي التي تقوده إلى الخصوصية الإبداعية، لتكون في الوقت نفسه من أهم دلائل براعة منتجه.

وضح عبد القاهر أن آلية التشبيه في الاستعارة تكون بين ما هو حسي وما هو عقلي، حيث يتم عبر ذلك إنتاج أساليب استعارية كثيرة، وقد جعل لذلك التشبيه أصول هي:³

أ - أن يؤخذ الشبه من الأشياء المشاهدة والمدركة بالحواس على الجملة للمعاني المعقولة؛ مثل استعارة الظلام للجهل.

ب - أن يؤخذ الشبه من الأشياء المحسوسة لمثلها، إلا أن الشبه مع ذلك عقلي. مثال ذلك قول النبي صلى الله

¹ - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة ، ص 62.

² - المصدر نفسه، ص 25.

³ - المصدر نفسه، ص 66.

عليه وسلم: "إياكم وخضراء الدمن" الشبه مأخوذ للمرأة من النبات وكلاهما جسم، إلا أنه لم يقصد بالتشبيه لون النبات وخضرته، ولا طعمه ولا رائحته، ولا شكله وصورته، بل القصد شبه عقلي بين المرأة الحسنة في المنبت السوء، وبين تلك النابتة على الدمنة، وهو حسن الظاهر في رأي العين مع فساد الباطن¹، وهذا ما يؤكد أن طريق هذه الصورة الاستعارية التأوّل والتخيّل العقلي الدقيق، الذي مكن من وصف وتصوير حقيقة بعض النوع الإنساني الذي يتميز بجمال المظهر وفساد الباطن (أصله).

ج - أن يؤخذ الشبه من المعقول للمعقول: ونجد من بين ذلك:

- تنزيل الوجود منزلة العدم أو العكس: مثال ذلك تشبيه الغني البخيل بالفقير، وتشبيه الفقير القنوع بالغني.
- اعتبار صفة معقولة يتصور وجودها مع ضد ما استعير اسمه: "فمن ذلك أن يراد وصف الأمر بالشدّة والصعوبة، والبلوغ في كونه مكروهاً إلى الغاية القصوى، فيقال: "لقي الموت"، يريدون لقي الأمر الأشدّ الصعب الذي هو في كراهة النفس له كالموت"²، وذلك ما يستدعي عمق الاستبدال التخيلي القادر على تحقيق الوصف الإيهامي وقوة المبالغة، قصد تصوير فظاعة وقسوة ما مر به وشدة مقتته وكراهته له - وغير ذلك من المواقف -، حيث يتمكن من إقناع المتلقي والتأثير فيه. وذلك ما يجدر أن يقوم به المتكلم بمعية ما تتطلبه مقصديته وسياق الحال الذي يكون فيه.

لقد أراد الجرجاني من خلال حديثه عن أنواع الاستعارة المختلفة والتفصيل في دقائقها، توضيح مميزات الاستعمال الخاصي النادر وكيفية الوصول إليه، باعتباره أساس التميز. ولذلك تطرق لتبيين أهم التقنيات التي يمكن الاعتماد عليها لبلوغ ذلك ومن بينها:

أ - الجمع بين عدة استعارات:

تقتزن فخامة أسلوب الفعل الاستعاري بعمق الوصف ودقة المبالغة عبر إيراد معاني الكلام على وجه الاستفاضة في توظيف الإعارة، حيث يستحضر المبدع عدة استعارات، فقد أكد الجرجاني أن "مما هو أصل في شرف الاستعارة، أن ترى الشاعر قد جمع بين عدة استعارات قصداً، إلى أن يلحق الشكل بالشكل وأن يتم المعنى والشبه فيما يريد. مثاله قول امرئ القيس:

¹ - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 68.

² - المصدر نفسه، ص 79.

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازا وناء بكلكل

يضم هذا البيت عدة استعارات ساهمت في تكثيف الدلالة وبلاغتها؛ ف "لما جعل الليل صلبا قد تمطى به، ثنى ذلك فجعل له أعجازا قد أردف بها الصلب، وثلت فجعل له كلكلا قد ناء به، فاستوفى له جملة أركان الشخص، وراعى ما يراه الناظر من سواده، إذا نظر قدامه، وإذا نظر إلى خلفه، وإذا رفع البصر ومدّه في عرض البحر"¹، إذ تتجلى براعة الشاعر وقدرته على استحضار المعاني البعيدة لوصف الصور المقصودة والتعبير عنها بفتية؛ حيث صاغها وفق أسلوب مجازي رفيع على سبيل الاستعارة، التي قدم من خلالها صورا متعددة متتابعة ومتناسقة تُكَمِّل بعضها، اعتمد فيها على التفصيل، والإيغال، والاتساع التخيلي، وهو ما ولد (قوة الإيحاء) و(بلاغة التصوير) وذلك ما يتجسد في معنى المعنى، الذي يعمل هنا على تشتيت ذهن المتلقي وتشغيلة خيالا وتفكيراً نحو التأويل.

ب - دقة إخفاء التشبيه:

تساهم هذه التقنية في تكثيف دلالة الخطاب وتعزيز جماليته مما يكشف طاقة المبدع الإبداعية، يقول عبد القاهر: "واعلم أن من شأن الاستعارة، أنك كلما زدت إرادتك التشبيه إخفاء، ازدادت الاستعارة حسنا، مثال ذلك قول الشاعر: **أثمرت أغصان راحتيه بجنان الحسن عنابا**

ألا ترى أنك لو حملت نفسك على أن تظهر التشبيه وتفصح به، احتجت إلى أن تقول: (أثمرت أصابع يده التي هي كالأغصان لطالبي الحسن شبيه العناب من أطرافها المخضوبة)، وهذا ما لا تخفى غثائته"²، فلا بد من التصرف بدقة وعدم الإيراد المباشر الصريح للتشبيه عبر إحكام إخفائه، لأن ذلك ما يساهم - حسب رأيه - في تحقيق شدة الفعل الانزياحي؛ حيث نلمس شاعرية الاستعارة واتساع مساحة الغموض البلاغي التي تتضمنه. وهذا ما يكرس لتجلي الإبداعية في ممارسة تضليل المعنى القادر على حصول الإيهام، ومما لا شك فيه أن صفة الغثائية لا تكمن في نقل الشعر إلى كلام منثور، وإنما في ذكر التشبيه كاملا حيث يؤدي ذلك إلى غياب جمالية التصوير وبلاغة النظم.

ترتبط بلاغة الاستعارة في نظرية النظم بالمعنى إذ يدقق المتكلم في إيجاد الطريقة الناجعة لإثباته وتقريره في نفس المتلقي، حيث يولد دلالة فنية ذات فعالية تأثيرية قوية.

¹ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 125 و 126.

² - المصدر نفسه، ص 414.

2 - ج. الكناية:

يلجأ المتكلم في بعض السياقات التواصلية إلى العدول عن التصريح الذي يعد أصل الكلام ليسلك طريق الإضمار والإلغاز، حيث يتحقق معنى المعنى. وذلك ما تكون الكناية من أهم الآليات التي يصل بها إلى ذلك، وهي من أكثر أساليب وطرق القول التي تداولها العرب لتمويه المعاني والتلاعب بها لجعلها في نظر المتلقي أكثر بلاغية (إقناعاً أو إمتاعاً). وقد عُرفت بأنها "لفظ أطلق وأريد به لازم معناه الحقيقي مع قرينة لا تمنع من إرادة المعنى الأصلي مع المعنى المراد"¹، حيث يجب أن تكون هناك علاقة رابطة بين المعنى الأول والمعنى الثاني، تعد قرينة دالة يعتمد عليها المتلقي. فهي عدول عن إفادة المعنى المراد مباشرة إلى إفادته عن طريق لازم من لوازمه.

لقد تناول الجرجاني الكناية وتحليلاتها وصفا وتفسيرا، وهي حسب رأيه متعلقة بالمعنى، حيث يسلك المتكلم به طريقا ملتوية يحمل الخطاب من خلالها معنيين: معنى ظاهر، ومعنى خفي يكون أساس المعنى الكنائي، الذي يتمحور حوله الخطاب إذ يقول موضحا ماهيتها: "المراد بالكناية أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود، فيومئ به إليه ويجعله دليلا عليه. مثال ذلك قولهم: هو طويل النجاد، يريدون طويل القامة. وكثير رماد القدر، يعنون كثير القرى. وفي المرأة نؤوم الضحى، والمراد أنها مترفة أي مخدومة لها من يكفيها أمرها"²، والواضح من كلام الجرجاني أن الكناية تقوم على ضرورة وجود علاقة التتابع التلقائي بين المعنى الأول الذي يدل عليه ظاهر اللفظ والمعنى الثاني المراد منه، إذ يشترط أن يتوفر الأول على مكون يحيل على الثاني ويعمل على استحضاره، وذلك ما يتسنى للمتلقي استنباطه والتمكن منه عبر الاستدلال ليصل إلى المعنى المراد.

يؤلّد الفعل الكنائي عند عبد القاهر ظاهرة معنى المعنى التي تُدخل الخطاب في مجال الإغراب الفني المجازي، إذ تساهم تلك الظاهرة في خلق خاصية الاتساع الدلالي، أين تخرج المعاني عن الوضع اللغوي المعجمي لترتدي معاني بلاغية جديدة، ذات دلالات وأبعاد عميقة وهي ما يعرف بالمعاني الثواني، وهذا ما يعبر عن طاقة اللغة التعبيرية وطبيعتها المجازية التخيلية المرنة التي تكشف عن شجاعتها، إذ يستغلها المبدع في عملية (التحايل الإبداعي) من أجل صناعة لطائف كلامية ومعاني فخمة تدل على براعته.

¹ - بماء الدين السبكي، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، تح: عبد الحميد الهنداوي، دار السرور، بيروت، د/ط، د/ت نشر، ص 237.

² - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 113.

ويعد عدول المتكلم من خلال الكناية عن التصريح واللجوء بذلك إلى الإضمار والإلغاز من أبرز أسرار بلاغة الخطاب، وهذا ما يؤول في أحد جوانبه إلى أثر استعمالها النفسي حيث تكون تراكيبها أكثر وقعا وصدى في نفس المتلقي، فـ "كما أن الصفة إذا لم تأت مصرحا بذكرها، مكشوفة عن وجهها، ولكن مدلولا عليها بغيرها، كان ذلك أفخم لشأنها، وألطف لمكانها، كذلك إثباتك الصفة للشيء تثبتها له، إذا لم تلقه إلى السامع صريحا، وجئت إليه من جانب التعريض والكناية والرمز والإشارة، كان له من الفضل والمزية، ومن الحسن والرونق، ما لا يقل قليله، ولا يجهل موضع الفضيلة فيه"¹، إذ تساهم مختلف تلك الآليات في تكثيف دلالات الخطاب، وجعله أكثر جاذبية للمتلقي وتحفيزا له على أعمال الفكر من أجل استكشاف خبايا المتكلم ومقاصده.

تظهر قيمة الكناية وأهميتها الوظيفية البلاغية على المعنى، إذ تساهم في رفع درجة إثباته وزيادة طاقته البيانية وسمته الأدبية الجمالية، "فإذا جعلوا لها مزية على التصريح، لم يجعلوا تلك المزية في المعنى المكنى عنه، ولكن في إثباته للذي ثبت له. وذلك أن المعاني التي يقصد الخبر بها لا تتغير في أنفسها بأن يكفى عنها بمعان سواها، ويترك أن تذكر الألفاظ التي هي لها في اللغة أن السبب في أن يكون للإثبات، إذا كان من طريق الكناية مزية لا تكون إذا كان عن طريق التصريح، أنك إذا كنيت عن كثرة القرى بكثرة رماد القدر، كنت قد أثبت كثرة القرى بإثبات شاهدها ودليلها، وما هو علم على وجودها، أبلغ من إثباتها بنفسها"²، وهذا ما يجعل الكناية أبلغ من التصريح، إلا أن ما يفترض فهمه هنا هو أن ماهية خاصية الزيادة التي تجعلها كذلك، إنما تتعلق بزيادة إثبات المعنى وتأكيده إذ تجعله أبلغ وأكثر إيجاء وتعبيرا عما نريده، وليست زيادة للمعنى في حد ذاته.

ففي قول الشاعر: إن السماحة والمروءة والندى في قبة ضربت لابن الحشر

يرى الجرجاني أنه: "أراد أن يثبت المعاني والأوصاف خلالاتا للممدوح، فترك أن يصرح فيقول: إن السماحة والمروءة والندى لمجموعة في ابن الحشر، وعدل إلى الكناية، فجعل كونها في القبة المضروبة عليه، فخرج كلامه إلى الجزالة والفخامة"³.

إذن ترتبط بلاغة الكناية وأثرها الإيجابي على الخطاب - في نظرية النظم - بمبدأ الفائدة؛ إذ لا يجب أن يكون توظيفها تكلفا من أجل الإضمار المحض، ولعل تحصيل عمق المعنى، ومن ثمة زيادة إثباته وفق أسلوب فني

¹ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 305.

² - المصدر نفسه، ص 411 و 412.

³ - ينظر: المصدر نفسه، ص 305 و 306.

بليغ يتميز بقوة طاقته التأثيرية، حيث يستطيع المتكلم عبر ذلك الجمع بين مطلب التبليغ ومسعى الجودة الفنية، أهم ما يبين - حسب الجرجاني - أهمية الفعل الكنائي ومزيته.

2- د. التمثيل:

يعد التمثيل كذلك من آليات الإغراب الفني (المجازي) الذي يفضي إلى ظهور معنى المعنى، وهو في ذلك يقترب من الاستعارة باعتبارهما مجازاً، "ومثاله قولك للرجل يتردد في الشيء بين فعله وتركه: أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى. فالأصل في هذا: أراك في ترددك كمن يقدم رجلاً ويؤخر أخرى، ثم اختصر الكلام وجعل كأنه يقدم الرجل ويؤخرها على الحقيقة كما كان الأصل في قولك: رأيت أسداً، رأيت رجلاً كالأسد على الحقيقة"¹. حيث يوظف الاستعمال الأول للدلالة على التردد، في حين يوظف الثاني للتعبير عن الشجاعة والبسالة، وذلك ما يؤكد ارتباط التمثيل بمعنى المعنى، وهو ما جعله ذو حضور وتواتر قوي في خطابات مستعملي اللغة العربية، حيث يمكن القول إنه من أبرز خصائص تفكيرهم اللغوي الخطابي التداولي اليومي.

لقد ميز الجرجاني من خلال استقصائه لأهم التراكيب التمثيلية المتداولة بين مظهرين:

- "أحدهما: أن يظهر المعنى ابتداءً في صورة التمثيل.

- وثانيهما: مما اتفق العقلاء عليه أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني، أو برزت هي باختصار في معرضه، ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته، كساها أبهة، وأكسبها منقبة، ورفع من أقدارها وشب من نارها، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها، ودعا القلب إليها واستثار لها من أقاصي الأفئدة صباية وكلفاً، وقسر الطباع على أن تعطيها محبة وشغفا"²، إذ يأتي الأسلوب من خلال التمثيل على وجه الإغراق والمبالغة وذلك ما يؤسس للطف المعاني وقوة بلاغتها في نفوس المتلقين، إذ يشعرها بمتعة التدوق حيث يتم الخروج بها من العادي إلى الراقي وذلك ما يكون شعوراً تلقائياً، إذ إن الانزياح الإبداعي هو ما تشغل وتتأثر به. ليكون التمثيل بذلك من أهم الآليات الإبداعية الفنية التي يستثمرها المبدع لتوجيه الأغراض بطريقة خاصة.

والحقيقة يعكس توفر التراكيب التمثيلية - الخاصة - في الخطاب مظهرها بلاغياً إبداعياً، تجمع فيه المعاني بين شروط البلاغية وسمات البلاغية التي تفضي إلى بناء قيمه الجمالية على اختلاف أبعادها التأثيرية، وهذا ما يعبر في نظرية النظم عن قدرة المنتج؛ إذ يكون ذو تفكير عقلي تخيلي بعيد - يلجأ إلى (التأول والتخيل) - حيث

¹ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 115.

² - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 115.

يسير في صياغة المعاني بذكاء وحكمة، فيتحكم فيها حيث يقوم بتقديم هذه وتأخير أخرى وذلك حسب ما يخدم أغراضه ومقاصده، ليكون التمثيل في خطابه نبيلًا مفيدًا.

لقد عمل الجرجاني على تأكيد أهمية التمثيل ودوره الفعال في زيادة وضوح المعنى وإضفاء جماليته، ومن بين ما أكد به ذلك، ما لا حظه على بيت أبي تمام الآتي الذي فصله على البيت الذي يليه:

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود

يقول: "تأمل هذا البيت مقطوعا عن البيت الذي يليه، والتمثيل الذي يؤديه، واستقص في تعرف قيمته على وضوح معناه، وحسن مزيته، ثم اتبعه إياه:

لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود

فقد نشر المعنى تمام حلته، وأظهر المكنون من حسنه وزينته، واستكمل فضله في النفس ونبله واستحق التقديم بالبيت الأخير وما فيه من التمثيل والتصوير¹، وتتمحور بلاغة التصوير الحاصلة عبر هذا التمثيل في الحكمة التي تحملها معانيه؛ حيث اعتمد الشاعر هنا على الدقة الإبداعية، وهذا ما يجعل المعاني تتميز بأثرها البليغ على مستوى العقول. ومما لا شك فيه أن ذلك ما يتغلغل في النفوس، إذ تركز على محاولة فك المضمير الغريب وفهمه لتنتهي من وراء ذلك إلى تبين وتبيين قيمة الدلالة المقصودة، ومن ثمة الإقرار بعلو ورفعة الخطاب (الآبيات الشعرية).

بين الجرجاني أنه يجب على المتكلم أن يحتز في التمثيل² مجموعة من الضوابط التي تجعله مثالًا ناجحًا، وهي:

وهي:

- أن يكون غريبًا بديعًا.

- أن لا يكون المعنى الممثل غريبًا نادرًا يحتاج في دعوى كونه على الجملة إلى بيعة وحجة وإثبات.

يعد التفاوت وتحقيق الخصوصية الإبداعية من خلال التمثيل - كغيره من الفنون البلاغية - أهم ما ركزت عليه نظرية الجرجاني، فأن يكون المعنى التمثيلي غريبًا نادرًا، متميزًا خاصًا هو ما يجب أن يعرفه المبدع ويسعى إليه في تعابيره البلاغية التمثيلية، ومما ينبغي أن يعلمه كذلك هو أن لا تكون الغرابة تعقيدًا وتكلفًا. والواضح مما جاء

¹ - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 118 و 119.

² - ينظر: المصدر نفسه، ص 123.

به الجرجاني فإن أغلب تقنيات الوصول إلى الغرابة المطلوبة يتداخل فيها التشبيه مع التمثيل، إلا أنها تكون في هذا الأخير أقوى. وهذا ما يمكننا تبيينه من خلال ما يلي:

أ - تقنية التباعد في التشبيه:

فقد أكد الجرجاني أن "تصوير الشبه بين المختلفين في الجنس، مما يحرك قوى الاستحسان، ويثير الكامن من الاستطراف، والتمثيل أحص شيء بهذا الشأن، وأسبق جار في الرهان، وهذا الصنيع صناعته التي هو الإمام فيها، والبادئ لها والهادي إلى كفيته"¹، إذ يدخل المعنى التمثيلي عبر ذلك مجال الجودة حيث يكون أكثر إعجابا وخلافة؛ ففي خصم ذلك يقول الجرجاني للمبدع: "وكأنك تعمل عمل السحر في تأليف المتباينين حتى يختصر لك بعد ما بين المشرق والمغرب، وهو يريك المعاني الممثلة بالأوهام شبةا في الأشخاص الماثلة، ويريك الحياة في الجماد، ويريك الثمام عين الأضداد"²، فلا بد من التأول العقلي البعيد الذي يستغل في صناعة المعاني الموحية الدالة القادرة على متاهات التخيل، حيث يتم تصوير الأشياء تصويرا تمثيلا بلاغيا حيا، ليكون التقريب بين المتباينين من أهم صوره، أين يعمل المبدع على إيهام المتلقي وجذبه. وهذا ما سنزيد توضيح أهميته في حديثنا عن التشبيه.

ب - التصوير الحسي:

تتطلب قوة التأثير الحاصلة بالفعل التمثيلي اعتماد المبدع بالإضافة إلى عمق التأول على الاستدلال من الواقع المادي؛ أي الاعتماد على الصورة الحسية حيث يتم توجيه المتلقي من خلال المشاهدة إلى مضان المعنى التمثيلي. إذ يعد هذا الأمر من أهم الآليات التي تفضي إلى جعل العبارات التمثيلية ذات فعالية كبيرة، وذلك ما يؤول إلى بعدها الوظيفي البلاغي الذي تظهر عبره خاصية زيادة المعنى وما يتبعها من شدة وقوة المبالغة، التي تعمل على تحريك النفس وقيادتها إلى التأكد من المعنى المراد. فقد بين الجرجاني "أنه لو كان الرجل مثلا على طرف نهر في وقت مخاطبة صاحبه وإخباره له بأنه لا يحصل من سعيه على شيء، فأدخل يده في الماء وقال: انظر هل حصل في كفي شيء؟ فكذا أنت في أمرك كان لذلك ضرب من التأثير زائد على القول والنطق بذلك دون الفعل"³، إذ ينتقل المعنى التمثيلي من وضع الصورة العقلية المجردة إلى وضع الصورة الفعلية الحية.

¹ - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 131.

² - المصدر نفسه.

³ - المصدر نفسه، ص 126 و 127.

يجب الإشارة هنا إلى أن التشبيه يمثل الآلية الرئيسة، التي يعتمد عليها في بناء التراكيب التمثيلية وهو الحال بالنسبة للاستعارة، وهذا ما يفرض علينا الوقوف على التشبيه وتبيين مختلف خصائصه في نظرية النظم.

2 - هـ. فعالية التشبيه في نظرية النظم (الأنواع والاستراتيجيات):

يعد التشبيه عند الجرجاني من أهم الأمور التي تناولها شرحا مفصلا دقيقا في نظريته البلاغية، فرغم عدم التركيز عليه في الدلائل إذ لم يجعله ضمن مجال اللفظ أو الصورة، التي تضم عنده (الاستعارة، الكناية، التمثيل)، إلا أن ذلك عكس ما نجده في الأسرار، حيث شكل التشبيه إلى جانب التمثيل والاستعارة أهم القضايا البلاغية التي انشغل بتوضيحها؛ حيث أقر بأنها "أصول كبيرة، كأن جل محاسن الكلام .. متفرعة عنها، وراجعة إليها، وكأنها أقطاب تدور عليها المعاني في متصرفاتها، وأقطار تحيط بها من جهاتها"¹، فالتشبيه عنده من أهم أسرار بلاغة الخطاب. وقد وضح في خضم ذلك أن التشبيه بالنظر إلى طبيعة الشبه ضربان:

1 - أن يكون من جهة أمر بين لا يحتاج إلى تأوّل: تشبيه الشيء بالشيء ويكون:²

- من جهة الصورة والشكل نحو أن يشبه الشيء إذا استدار بالكرة في وجهه، وبالحلقة في وجه آخر
- التشبيه من جهة اللون كتشبيه الحدود بالورد.
- جمع الصورة واللون معا، كتشبيه الثريا بعنقود الكرم المنور.
- التشبيه من جهة الهيئة كتشبيه قامة الرجل بالرمح، ويدخل في الهيئة حال الحركات في أجسامها كتشبيه الذهاب على الاستقامة بالسهم السديد، وكذلك كل تشبيه جمع بين شيئين فيما يدخل تحت الحواس.
- يتعلق التشبيه في هذا النوع بالظواهر المرئية حيث يعتمد فيه منتجه على الملاحظة، فهو تشبيه حسي يستغنى فيه عن التأوّل الذي يتطلب استخدام تقنيات العقل، ولذلك فإن أهم ما يتميز به هو سهولة بنائه، وبالتالي فهو مشترك عام ومعروف بين الجميع لا مجال للتمييز من خلاله.

2 - أن يكون الشبه محصلا بضرب إلى تأوّل: ومثاله القول: "هذه حجة كالشمس في الظهور، فهذا التشبيه لا يتم إلا بتأوّل وذلك كأن تقول: حقيقة ظهور الشمس وغيرها من الأجسام أن لا يكون دونها حجاب ونحوه، مما يحول بين العين ورؤيتها، ولذلك يظهر الشيء لك إذا لم يكن بينك وبينه حجاب"³، ويُعتمد في تشكيل هذا

¹ - ينظر: عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 28.

² - المصدر نفسه.

³ - المصدر نفسه، ص 90.

النوع على تقنيات العقل، حيث يتم توظيف التفكير الإبداعي قصد إنتاج لطائف تشبيهية تحتاج إلى التأويل. ولذلك يمكن أن يكون مجالاً لصنع التميز والخروج عن العام المبتذل، غير أن أهم ما يجب معرفته هو أن هذا النوع مراتب وأنماط حيث تتفاوت درجة العدول والتصوير التشبيهي، فنجد منه¹:

أ - **قريب المأخذ**: يكون التأول الذي يقوم به المتكلم في هذا التشبيه بسيطاً حيث يتمكن الوصول إليه بسهولة، وذلك ما يوقع التشبيه في مجال العام، كتشبيه الوجه الجميل بالقمر.

ب - **بعيد المأخذ**: يتبلور التشبيه المقصود هنا عبر آلية التأول العميق الذي يركز على دقة النظر والاستنباط وروعة التصوير البلاغي. كتشبيه فضل القرآن الكريم بالنور.

- ويتوسط بين هذين النمطين ما عبر عنه الجرجاني بـ: "ما يحتاج إلى قدر من التأول". كقول أحدهم: هذه حجة كالشمس.

وحسب توضيحات الجرجاني يكون التشبيه بالنظر إلى اعتماد منتجه على التأول أم لا نوعين:

- **حقيقي**: حسي وهو الذي لا يعتمد على التأول.

- **عقلي**: وهو ما يعتمد على التأول ويعرف بالتشبيه التمثيلي.

ركز الجرجاني على توضيح استراتيجيات استعمال التشبيه في الخطاب استعمالاً ناجعاً فعالاً، وذلك حيث يُبلغ المخاطب من خلاله الأغراض المستهدفة متمكناً في الوقت نفسه، من صنع إبداعات كلامية موحية مؤثرة، توظف تفكير المتلقي وتبعث إعجابه، فللتراكيب التشبيهية أهمية بالغة - عند الجرجاني - وذلك ما يظهر في القدرة من خلالها على توليد الدلالات المختلفة من الشيء الواحد؛ حيث تتاح (تقنية التحويل الفني)؛ فـ "يأتيك من الشيء الواحد أشباه عدة"²، ولعل ذلك ما يكون مشروطاً بجدة الفعل التشبيهي؛ أي ما يجعله طريقاً لبلوغ المزية. ويرتبط معيار المزية في نظرية الجرجاني بحدوث وتوفير شرط خصوصية الصناعة الخطابية، إذ يظهر عبر التشبيه بلاغية تراكيبه وجمالياتها، وقد توصلنا من خلال تتبعنا لتوضيحات الجرجاني إلى أن من أهم إستراتيجيات ذلك هي:

¹ - ينظر: عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 90 و 93 و 94.

² - المصدر نفسه، ص 136.

أ - التباعد في التشبيه:

تتجلى دقة المبدع وعمق التأول الذي يمارسه في خطابه من خلال الانزياحات التي يحدثها حيث تخرجه عن نطاق المتداول، وذلك ما يتسنى الوصول إليه - حسب ما بينه الجرجاني - من خلال تقنية التباعد في التشبيه؛ أي القدرة على صنع التقريب التشبيهي بين المتباينات التي تباعد مسافة الائتلاف بينها تباعدا شديدا، والمقصود بالتحديد تصوير التشبيه بين مختلفين في الجنس. ولذلك يقول لمخاطبه - في الأسرار - : "إذا استقرت التشبيهات وجدت التباعد بين الشيئين كلما كان أشده كانت إلى النفوس أعجب وكانت النفوس لها أطرب"¹، إذ تكون أكثر جاذبية مما يعزز من طاقتها التأثيرية التي تتمكن بها من استمالة المتلقي وإثارة إعجابه.

تظهر عبر تقنية التباعد في التشبيه، بلاغية الخطاب وإبداعية صاحبه بما يثبت له حذقا وبراعة، ذلك أن "الصنعة والحذق، والنظر الذي يلطف ويدق في أن تجمع أعناق المتنافرات والمتباينات في ريقه، وتعتقد بين الأجنبية معاهد نسب وشبكة"²، وعلى هذا الأساس يمكننا صياغة (معادلة) هذا النوع من التشبيه على النحو الآتي: كلما تباعدت الفجوة النوعية بين طرفا التشبيه كلما كان التصوير أبعد، وأدق، وألطف، وأفضل.

وقد كشف لنا حديث الجرجاني أن إحداث ذلك التشبيه قائم على شرط استنباط علة مشتركة تجمع بين ما تباعدا؛ شبهها صحيحا معقولا، فمدار الأمر في ذلك هو "أن نصيب بين المختلفين في الجنس وفي ظاهر الأمر شبهها صحيحا معقولا، ونجد للملائمة والتأليف السوي بينهما مذهبا وإليهما سبيلا"³؛ وذلك ما يعني أن ليس ما يقوم به المبدع كلاما غفلا ساذجا يستهدف الندرة والغموض عبر تقنية التباعد في التشبيه.

وحسب ما استنبطناه من توضيحاته يتأسس سر المزية والفضل بالتشبيه المتباعد على معيار مهارة المبدع، وبُعْد نظره الفني التصويري الذي يُمكنه من استكشاف الخفي النادر واستلال المعاني الغامضة؛ فهناك "متشابهات خفية يدق المسلك إليها، فإذا تغلغل ذكره، فأدركها. فقد استحق الفضل ولذلك يشبه المدقق في المعاني بالغائص على الدر"⁴، فليس مجرد إيراد التشبيه ما يحتاجه الخطاب البلاغي، بل لابد فيه أن يسلك صاحبه طريق الجودة الجمالية حيث تتطلب تفكيرا خياليا بعيدا، فيصنع من المتباعدات - الأكثر تنافرا - روائع خطابية خاصة لتحدث من خلالها متعة التلقي.

¹ - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 130.

² - المصدر نفسه، ص 148.

³ - ينظر: المصدر نفسه، ص 148.

⁴ - ينظر: المصدر نفسه، ص 152.

يجب أن يركز المبدع على دقة التشبيه التي تستدعي قوة المبالغة التي تُظهر الشبه مبتدعا غريبا يراوغ تفكير المتلقي، إذ لا يستطيع الوصول إليه إلا بعد طول تمحيص وتدقيق، فقد بين الجرجاني أن "المعنى الجامع في سبب الغرابة أن يكون الشبه المقصود من الشيء مما لا يتسرع إليه الخاطر، ولا يقع في الوهم عند بديهية النظر على نظيره الذي يشبه به، بل لابد من تثبت وتذكر وفلي للنفس عن الصور التي تعرفها، وتحريك للوهم في استعراض ذلك واستحضار ما غاب منه"¹، فذلك ما يعد من أبرز طرق المبدع لبلوغ قوة التأثير التبليغي البلاغي ومن ثمة تميزه. إذ يقوم بتطويع المعاني من أجل تقديم دلالات تتميز بقوة الإيجاء.

ب - التشبيه المركب:

تُوفر خاصية التأول التشبيهي الكثير من الإمكانيات التصويرية التحويلية، التي يمكن أن يقدمها المبدع في صياغة تراكيبه التشبيهية، هذا ما كشف عنه الجرجاني من خلال تقنية التشبيه المركب، وهو نوعان: - تشبيه مركب² من شيئين أحدهما يقدره المشبه ولا يكون. مثال ذلك تشبيه الشاعر النرجس بمداهن دُرّ حشوهن عقيق. حيث يقول:

كأن عيون النرجس الغض حولها مداهن در حشوهن عقيق

ويعد التركيب علاقة "تحصل الشبه بين شيئين يقدر اجتماعهما على وجه مخصوص وبشرط معلوم، فقد حصلته في النرجس من شكل المداهن والعقيق، بشرط أن تكون المداهن من الدر، وأن يكون العقيق في الحشو منها"³، وهي علاقة تأويلية تشبيهية تبين اعتماد المبدع على التأول والتخيّل لصياغة هذا التشبيه المركب، وهو ما يدل على براعته.

- تشبيه مركب من اقتران شيئين مما يوجد ويكون⁴: مثال ذلك قول الشاعر:

غدا والصبح تحت الليل باد كطرف أشهب ملقى الجلال

بيّن الجرجاني أن الشاعر قد "قصد الشبه الحاصل إذا نظرت إلى الصبح والليل جميعا، وتأملت حالهما معا، وأراد أن يأتي بنظير للهيئة المشاهدة من مقارنة أحدهما الآخر، ولم يرد أن يشبه الصبح على الانفراد والليل على الانفراد"⁵، فقد اعتمد الشاعر على التركيب التأولي التشبيهي، ليقدم تشبيها مركبا متكاملًا يتميز بقوة المعنى.

¹ - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 157.

² - المصدر نفسه، ص 169.

³ - المصدر نفسه، ص 169.

⁴ - المصدر نفسه، ص 170.

⁵ - المصدر نفسه.

لقد لاحظ الجرجاني أن النوع الثاني يكون بين الشائع والنادر، حيث يمثل الأخير مجال التفاوت البلاغي ولذلك عني بتوجيه المبدع إلى ما يتطلبه تحقيق النادر الغريب، حيث يقول مخاطباً له: "وفي هذا التقرير الطريق إلى التشبيه من أين تفاوت في كونه غريباً ولم تفاضل في مجيئه عجيباً وبأي سبب وجدت عند شيء منه من الهزة ما لم تجد عند غيره علماً يخرجك عن نقيضة التقليد، ويرفعك عن طبقة المقتصر على الإشارة، دون البيان والإفصاح بالعبارة"¹، إذ لابد من معرفة دقائق اللطف والجودة التي يمكن للخطاب البلاغي التشبيهي أن يتصف بها، وهو ما يُعد - في نظرنا - تعليلاً كاشفاً يفيد المبدع كما يفيد المتلقي القارئ المتذوق، المستمتع بذلك الخطاب.

يقوم التشبيه المركب على (آلية التفصيل) التي تتعدد عبرها جهات التشبيه وذلك ما يعكس اتساع حركة تفكير المبدع، إذ يمارس (التخطيط الفني العميق) لبناء خطابه والتعبير عن أغراضه، حيث يستطيع من خلاله التحكم في زمام المعاني، فيضع ما يخدم تصويره التشبيهي المقصود منتقلاً من معنى إلى آخر، ليأتي بدلالات تشبيهية ذات جهات متعددة، ليبعد بذلك عن البسيط والشائع، وبالتالي إمكانية إبراز (الذات الإبداعية) الساعية نحو الجودة والأفضلية؛ إذ يخبر الجرجاني المبدع بأنه "متى زدت في التشبيه على مراعاة وصف واحد أو جهة واحدة، فقد دخلت في التفصيل والتركيب، وفتحت باب التفاضل، ثم تحتلف المنازل في الفضل، بحسب الصورة في استنفادك قوة الاستقصاء، أو رضاك بالعفو دون الجهد"²؛ أي الرضا والاقتصار في إنتاج الخطاب (العبارات التشبيهية) بالعادي المطروح حيث لا وجود للإبداعية، ومما لا شك فيه أن هذا ما يعاب على المنتج.

وقف الجرجاني على نماذج شعرية تتفاوت في التفصيل وهذا ما ننبينه في الأبيات الثلاثة الآتية:

قول بشار: كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

قول المتنبي: يزور الأعادي في سماء عجاجة أسنته في جانبيها الكواكب

قول كلثوم بن عمرو: تبنى سناكبها من فوق رؤوسهم سقفا كواكبه البيض المبائر

يبدو لقارئ هذه الأبيات أن التشبيه فيها كأنه شيء واحد، لأن كل شاعر منهم قد عني بتشبيه لمعان السيوف في الغبار بالكواكب في الليل، إلا أن مزية هذا التشبيه وتميزه حسب الجرجاني تتجلى في بيت المتنبي "ذلك أنه راعى ما لم يراعه غيره، وهو أن جعل الكواكب تهاوى، فأتم الشبه، وعبر عن هيئة السيوف وقد سلت من الأغمد وهي تعلو وترسب، وتجيئ وتذهب، ولم يقتصر على أن يريك لمعانها في أثناء العجاجة كما فعل الآخرون، وكان لهذه الزيادة التي زادها حظ من الدقة تجعلها في حكم تفصيل بعد تفصيل"³، إذ يساهم التفصيل

¹ - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 174.

² - المصدر نفسه، ص 179.

³ - المصدر نفسه، ص 175.

في تشكيل دقة الكلام التي تؤدي إلى زيادة ورفع قوة الإفصاح عن المعاني المصورة، وهذا ما يكون ذو طابع بلاغي تأثيري مفيد للمتلقي إذ يستميل جانبه النفسي، حيث يحظى لديه بمستوى كبير من اهتمامه الذوقي الفني.

نتبين أن الاشتغال الفعال لآلية التفصيل باعتبارها معيار التفاوت يحصل من خلال اقتران تلك الآلية بـ (آلية الاستقصاء)، التي يركز عبرها المبدع على التدقيق الفني الشامل في تقديم الدلالات؛ حيث يتتبع ويقتفي دقائق الصور التشبيهية المصاغة في خطابه، فيقف عند مكوناتها شارحا مبينا، محاولا بذلك تحقيق البيان الشعري الذي يمكنه من إيقاع المتلقي، وبناء على ذلك فإن التفاضل بين الخطابات (بالنظر إلى هذا التشبيه) يقع حسب درجة الاستقصاء التي تميز كل خطاب.

إذ لذلك الاستقصاء الذي يمكننا تسميته بالاستقصاء البلاغي مراتب وأنماط، حيث نجد الجرجاني يقول: "ومن أبلغ الاستقصاء وعجيبه، ومما حقه أن يكون على فرط الاستقصاء .."¹، وهذا ما ينتمي إلى مبدأ التفاوت البلاغي الذي يميز نظرية النظم.

ج - التشبيه المقلوب (المعكوس):

حرص عبد القاهر - مرارا وتكرارا - على تبين مظاهر الانزياح التي يمكن أن تحصل بالتشبيه وتكون كذلك طريقا لحصول التفاوت، ومن بين ما ذكره ما يظهر عبر تقنية قلب التشبيه أو عكسه؛ وهي تقنية تستند على إستراتيجية التحويل أو الاستبدال القلبي لطرفا التشبيه بجعل الفرع أصلا والأصل فرعاً، حيث "يُشبه الشيء بالشيء في حال، ثم يُعطف على الثاني فيُشبه بالأول، فترى الشيء مشبها مرة، ومشبها به أخرى"²، وعبر ذلك تعدد إمكانات المبدع التعبيرية مما يتيح ابتداء عدة صور بلاغية ذات درجات فنية متباينة، تكون أكثرها رفعة أكثرها إغراقا ومبالغة. مثال ذلك قول الشاعر:

وبدا الصباح كأن غرته وجه الخليفة حين يمتدح

يلاحظ على هذا البيت عمق التصوير التشبيهي؛ حيث يبدو الشاعر دقيقا موعلا في ادعاء الشبه التأولي بين غرة الصباح ووجه الخليفة الممدوح، يصل فيه إلى حد المبالغة التي تدعن لها النفوس إعجابا، فـ "كأنه يستكثر للصبح أن يشبه بوجه الخليفة، ويوهم أنه قد احتشد له، واجتهد في طلب تشبيه يفخم به أمره، وجهته الساحرة

¹ - ينظر: عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 177، و 178.

² - المصدر نفسه، ص 204.

أنه يوقع المبالغة في نفسك من حيث لا تشعر، ويفيدك بها من غير أن يظهر ادعاؤه لها¹، وبذلك تظهر قدرته على التلاعب بالدلالات حيث يلجأ إلى الإضمار الذي يتحايل فيه من أجل إيهام المتلقي، فيصيغ أسلوباً تخيالياً موحياً يتميز بقوة الأثر البلاغي، إذ يرى الجرجاني أن "المعاني إذا وردت على النفس هذا المورد، كان لها ضرب من السرور خاص، وحدث بها من الفرح عجيب، فكانت كالنعمة لم تدركها المنة، والصنعة لم ينقصها اعتداد المصطنع لها"²، إذ عبر ذلك تظهر الفائدة التي تقدمها تلك المعاني البديعة الرفيعة المتميزة، التي توفر المجال لظهور البلاغة باعتبارها متعة تذوقية وأرجحية نفسية.

لقد ركز الجرجاني على تبين كيفية الاستعمال البلاغي الناجح لتقنية عكس التشبيه، التي ضبطها بضرورة تحقيق الإيهام والمبالغة، حيث يقول موضحاً قانون ذلك: "وجملة القول أنه متى لم يقصد ضرب من المبالغة فبإثبات الصفة للشيء، والقصد إلى إيهام في الناقص أنه كالزائد، واقتصر على الجمع بين الشئين في مطلق الصورة والشكل واللون، أو جمع وصفين على وجه يوجد في الفرع على حدة أو قريب منه في الأصل، فإن العكس يستقيم في التشبيه، ومتى أريد الشيء من ذلك لم يستقيم"³، والواضح أنه أراد من خلال ذلك تنظيم عملية الإبداع البلاغي عبر هذه التقنية - وهو ما ينطبق على غيرها - مما يؤدي إلى استبعاد فوضى العدول، إذ يجب أن يكون كل استعمال لغوي بلاغي مستدعى بغرض وظيفي تداولي يبرره، وذلك ما يدخل في إطار مبدأ التعليل الذي أسس عليه نظريته.

د - تناسي التشبيه:

تظهر سلطة المبدع في إطار نظرية الجرجاني من خلال مهارة تصرفه في المعاني والدلالات، حيث يقوم بحيل كلامية ذات طابع تعبيرية في أكثر جاذبية، هذا ما يمكن الوقوف عليه - في سياق الحديث عن التشبيه - من خلال تقنية تناسي التشبيه، وحسب ما يبدو من شروح الجرجاني تكشف تلك التقنية عن جرأة المبدع إذ يتحايل بها على المتلقي، ويوهمه بعكس ما يتضمنه الخطاب؛ أي يوهمه بأن لا تشبيه فيه. ومن أهم الآليات التي يتوسلها المبدع في تناسي التشبيه هي:

أ - **التعجب**: يكون تحايل المبدع عبر تقنية تناسي التشبيه خداعاً للمتلقي قصد إثارتة وجذبه، وهو ما يعبر عن فطنته ودكائه الإبداعي، وحسب الجرجاني يشكل التعجب أبرز الأساليب التي يتوسلها لبلوغ غرضه بذلك

¹ - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 223.

² - المصدر نفسه، ص 223 و 224.

³ - المصدر نفسه، ص 222.

التشبيه. وهذا ما يمكن الوقوف عليه - حسب ما بينه الجرجاني - من خلال هذين البيتين:

طلعت لهم وقت الشروق فعانوا سنا الشمس من أفق ووجهك من أفق
وما عانوا شمسين قبلهما التقى ضياؤهما وفقا، من الغرب والشرق

اعتمد الشاعر هنا على الإغراب والمبالغة في صياغة تصويره التخيلي النادر الذي أراد به وصف صورة إنسان حسن الوجه فادعى بذلك وجود شمسين، إحداها على وجه الحقيقة والأخرى على وجه المجاز والتخييل، وقد تحايل قصد تأكيد شرعية ادعائه وجعله حقيقة لا مجال فيها للشك؛ حيث أخرج كلامه بطريقة مثيرة مدارها التعجب مما ساهم في خلق رونق الأسلوب وقوة الدلالة، حيث ظهرت بذلك جرأته الإبداعية. وحسب الجرجاني "لا يتم للتعجب معناه الذي عناه، ولا تظهر صورته على وصفها الخاص، حتى يجترئ على الدعوى جرأة من لا يتوقف ولا يخشى إنكار منكر، ولا يحفل بتكذيب الظاهر له، ويسوم النفس، شاءت أم أبت، تصور شمس ثانية طلعت من حيث تغرب الشمس، فالتقتا وفقا، وصار غرب تلك القديمة لهذه المتجددة شرقا"¹، والواقع ليس ذلك إلا دليلا على مدى قدرته الإبداعية؛ حيث يتفنن في تصريف اللغة وصياغة المعنى للدلالة على الغرض بدقة وتميز، فيتخيل وينسي نفسه والمتلقي بذلك ليكون سيد كلامه حيث يُشهد له بالفحولة.

ب - ادعاء الحقيقة:

تباين درجات المبالغة الحاصلة عبر تناسي التشبيه تبعا لمدى إيغال المبدع في توظيف التخييل الإيهامي، الذي يحاول من خلاله تقريب صوره المجازية الموظفة من مجال الحقيقة بل وجعلها كذلك، إذ يسعى كما وضع الجرجاني إلى (ادعاء الحقيقة)، وهو الهدف من وراء (أسلوب التناسي) حيث يعمل على إقرار ذلك في نفسه ونفس المتلقي. ويمكن عده انطلاقا من ذلك أقصى درجات المبالغة المتولدة عن ذلك الأسلوب، حيث لا يتردد المبدع في نسج معنى تخيلي يتحايل فيه بادعاء الحقيقة، ومن أمثلة ذلك قول الشاعر:²

هي الشمس مسكنها في السماء فعز الفؤاد عزاء جميلا
فلن تستطيع إليها الصعود ولن تستطيع إليك النزولا

لقد عمد الشاعر هنا إلى وصف حالته النفسية التي يميزها شعوره باليأس، بسبب استحالة الوصول إلى ما يريد وذلك لشدة بعد مكانه، حيث رآه بعيدا كبعد الشمس. وقد ادعى الحقيقة متناسيا بل ومنكرا التشبيه، بطريقة مباشرة خلابة، ف "صورة هذا الكلام ونصبته والقلب الذي فيه أفرغ، يقتضي أن التشبيه لم يجر في خلده،

¹ - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 304.

² - المصدر نفسه، ص 307.

وأنه معه كما يقال: "لست منه وليس مني"، وأن الأمر في ذلك قد بلغ مبلغا لا حاجة معه إلى إقامة دليل وتصحيح دعوى¹، وكأنه يريد إقناع نفسه بما يشعر ويسعى إلى بيان ذلك للمتلقي، إذ يركز عبر دقة التصوير التشبيهي وحيلة تناسي التشبيه على تفسيره وإقراره.

تُظهر الدلالة التصويرية التخيلية البلاغة باعتبارها (فن الخداع الإبداعي)، وهذا ما يفسره المبدع بعلة الضرورة الشعرية، حيث يعمل على تمويه المعاني قصد إخراجها للمتلقي بطريقة أبلغ وأبدع وأشد أثرا.

إن أهم ما لاحظناه على حديث عبد القاهر وتوضيحاته حول التشبيه، هو تأكيد المتواصل على أن قيمة تراكيب التشبيه وجودتها تحددها قدرة المبدع على ابتكار النادر، وهي القدرة التي ترتبط بمدى طاقته الإبداعية وإمكانية تلاعبه بالدلالات الأصول (الوضعية)، أين نقف في الوقت نفسه على مرونة اللغة وسلاسة تركيبها، حيث تقدم للمبدع العديد من الإمكانيات التحويلية التي يستغلها بطريقة جيدة في صناعة أساليب بلاغية فنية رفيعة، وذلك ما يتطلب من المبدع استعمال العقل حيث يوظف دقة التفكير.

ثالثا - أسس التصوير البلاغي الفني في نظرية النظم:

يستند التصوير الفني في إطار النظرية البلاغية الجرجانية على عدة عناصر، إذ يجب على المبدع الحرص على تحقيقها من أجل تقديم خطاب بلاغي فعال وناجح، وقد حاولنا من خلال تتبعنا لما قدمه عبد القاهر من تحليلات وشروح، صياغة تلك الأسس في العناصر الآتية:

أ - الفائدة:

تتمحور أهمية الفعل التصويري الذي يتضمنه الخطاب البلاغي الإبداعي حول فعاليته، التي تقاس بمدى تحقيق مبدأ الفائدة، وهو ما يرتبط بحصول الأثر البلاغي الذي يقوم على التأثير من قبل المبدع والتأثر من طرف المتلقي حيث تحصل الفائدة للطرفين.

ب - المناسبة المقامية:

وهو ما يجب أن يقوم عليه الخطاب ككل فينطبق ذلك على جميع ما يحتويه من إجراءات وآليات وهذا ما ينطبق على التصوير، حيث ينبغي أن يكون توظيف المبدع لصورة بلاغية ما (تمثيل، تشبيه، استعارة ..)، طبقا للمقام المنجز فيه على اختلاف خصائصه بما في ذلك المخاطب، أين يقتضي الأمر مراعاة شرط مطابقة مقتضى الحال.

¹ - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 307.

- يتعلق الحديث عن المناسبة المقامية بالواقع الخارجي وهو ما يعني أن تكون استعمالات اللغة الإبداعية (التصويرية، المجازية...)، خاضعة بشكل ما للحقيقة المتداولة المعروفة رغم التحويل والعدول، وهذا ما أقره الجرجاني في قوله: "كل مبالغة ومجاز لا بد أن يكون له استنادا إلى حقيقة"¹، إذ مما لا شك فيه أن المبدع يستند في أغلب ممارساته التصويرية للحقيقة الواقعية.

- تكون الصورة البلاغية على علاقة بالسياق الاجتماعي والثقافي فتحمل سمات ذلك السياق، وتعبّر عن ثقافة المجتمع اللغوي الذي ابتكرها، وهذا ما يمكن الوقوف عليه مثلا مع الكناية؛ حيث ترتبط - مثلا - عبارة: (كثير الرماد) بالسياق الثقافي العربي، فتعكس إلى درجة كبيرة بنية المجتمع العربي وتحيل على نمط معيشتة وطريقة تفكيره، وهذا ما يعبر عنه مثلا صفة الكرم، وخاصية النمط المعيشي القائم على استعمال القدور.

ج - النظم:

تتم مختلف التقنيات التي يمكن أن يحتوي عليها الخطاب البلاغي حسب الجرجاني، بمقتضى ما يستدعيه النظم حيث يكون إيرادها خاضعا لذلك، وهو الحال مع التصوير - مثلا - حيث بين أن "الاستعارة والكناية والتمثيل وسائر ضروب المجاز من مقتضيات النظم، وعنهما يحدث وبها يكون؛ لأنه لا يتصور أن يدخل شيء منها في الكلم وهي أفراد ما لم يتوفر فيما بينها حكم من أحكام النحو"²، يعني ذلك أنه على المبدع العناية أولا بمكونات الفعل النظمي؛ فيعمل وفق معاني النحو ويحسن التصرف في تطبيق وجوهها والسير حسب قوانين الترابط والانسجام التي تكون بها، على أن يكون استعمالها متناسقا ونوع الدلالة المستهدفة من خلال الصورة الموظفة، حيث يعد التحقيق الجيد لشروط النظم المعيار الأولي الذي تقاس به دقة التصوير البلاغي وفنية صنعته، وهذا ما يؤكد علاقة التلازم التكاملي بين النظم والصورة؛ إذ على أساسهما تتولد بلاغة الخطاب. ولا بد أن نتوقف في هذا السياق عند قوله: "عنها يحدث وبها يكون"، حيث يحيل إلى حقيقة حاجة النظم إلى الصورة لتكوين الخطاب البلاغي الفني، ويتعلق الأمر - تحديدا - بالنظم البلاغي الذي يستند فيه المبدع على معاني النحو، فتكون الجودة التي يتميز بها الفعل النظمي وكذا الفعل التصويري، متوقفة على دقة وعمق وحسن توظيفها. ومن الأمثلة التي اعتمد عليها الجرجاني لتوضيح ذلك قول الشاعر:

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطي الأباطح

¹ - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 236.

² - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 374.

يرى الجرجاني أن الشاعر "لم يغرب لأن جعل المطي، في سرعة سيرها، وسهولته كالماء يجري في الأبطح، فإن هذا شبه معروف ظاهر، ولكن الدقة واللفظ في خصوصية أفادها، بأن جعل سال فعلا للأباطح، ثم عداه بالباء ثم بأن أدخل الأعناق في البيت، فقال: بأعناق المطي، ولم يقل: بالمطي؛ ولو قال: سالت المطي في الأباطح لم يكن شيئاً"¹، فدقة اختيار المبدع لمعاني النحو واستعمالها بحذق يكشف عن تخطيطه العقلي الفني الإبداعي، أين تظهر مسحات الشعرية في خطابه، وذلك ما يعد أساس غرابة المعنى المصور وجماليته مما يؤدي إلى قوة الدلالة أين يكون معنى المعنى حيث يتولد الأثر البلاغي.

وتجدر الإشارة هنا إلى حقيقة أن المعنى عند الجرجاني يتلعب باللفظ (الصورة) والنظم ويتحكم بهما، حيث تركز نظريته على (فكرة مركزية الدلالة).

- رابعا: معايير التصوير البلاغي الإبداعي الخاص:

تحدث الصورة البلاغية صنعة وتصويرا تؤدي إلى تحصيل قوة الدلالة ولطافتها، حيث يعتمد المبدع إلى تفخيخ المعنى إذ يتضمن الخطاب البلاغي الإبداعي (فخاخا لغوية بلاغية)، تتأسس على تشغيل (الذكاء الإبداعي) بما يخدم الغرض، ويرضي المتلقي ويستفزه قبولاً واستحساناً وإعجاباً، وذلك عبر اللجوء إلى تطويع اللغة والانزياح عن نمطها العادي - الذي تمثله الدرجة الصفر - وكذا الشائع المبتذل - الذي تميز بخاصية البلاغة في عصر ما لكن أصبح مع مرور الزمن متداولاً عادياً - حيث تظهر براعته. وتستدعي جودة الانزياح التي تميز فنون القول عبر آلية التصوير توفر مجموعة من الشروط أهمها:

- **الندرة:** إذ يجب أن تكون طريقة تصوير المعنى نادرة حيث يركز المبدع على استنباط البعيد الصعب، الذي يعمل على استخراجها بحكمة فيقدمه وفق طابع تصويري إبداعي جديد، تثبت على أساسه المزية والفضل، ومن هذا المنطلق يرى الجرجاني أن "استحقاق المبدع الأجرة على الغوص وإخراج الدر، لا أن الدر كان به، واكتسب شرفه من جهته، ولكن لما كان الوصول إليه صعباً وطلبه عسيراً، ثم رزق ذلك، وجب أن يجزل له ويكبر صنيعه"²، حيث إن الأساس هو شجاعة وحذق الوصول إلى الصعب النادر.

- **دقة التصوير:** وذلك ما يقوم على التفصيل والاستقصاء البلاغي كما رأينا مع التشبيه والتمثيل مثلاً.

¹ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 122.

² - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، 152.

- **الغربة:** إذ يركز المبدع على استحداث المعنى الغريب النادر، وذلك ما يتطلب (لطف الغربة)، التي يتوالد عنها أنس القلوب وأريحياتها. فالإغراب من أكثر الآليات التي تورد المعنى مغربا بديعا.

- **الغموض:** فمن مؤشرات بلاغة الفعل التصويري حسب نظرية النظم تميزه بظاهرة الغموض البلاغي، التي يُعتمد فيها على إعمال الفكر إنتاجا وفهما، وقد بين الجرجاني أن تحقيق تلك الظاهرة مشروط بجمالية الخطاب البلاغي وتلافي التعقيد المذموم، إذ يجب على المبدع احتراز الوقوع فيه باعتبار أثره السلبي حيث يشوه الصورة و الدلالة، وذلك ما دفعه إلى تصنيف الكلام إلى نوعين:

- **الكلام المعقد:** يرتبط التعقيد إذا تعلق الأمر بالخطاب البلاغي الإبداعي عادة بالاجتهاد وإعمال الفكر، الذي يسعى عبره المبدع إلى إضفاء الطابع الفني لخطابه وتحقيق التفاوت، وهنا يتعلق الأمر بالتعقيد البلاغي الذي يكون فيه المعنى كالجوهر في الصدف، وهذا ما لا يكون في حالة ما إذا كان التعقيد من أجل التعقيد فقط حيث يظهر النمط السلبي الذي يُتعب دون جدوى؛ وهو ما يكون فيه التعقيد مرادفا للتعمية المبالغ فيها أو المفرطة حيث لا مجال للفهم والتبين وهذا ما يجعله كلاما مذموما، حيث يقابل بالرفض من قبل المتلقي له؛ وذلك "لأن صاحبه يعثر الفكر في متصرفه، ويشيك الطريق إلى المعنى، ويوعر المذهب نحوه، بل ربما قسم الفكر، وشعب الظن، حتى لا يدري من أين يتوصل وكيف يطلب"¹، إذ يتيه فكر المتلقي من خلال إيغال البحث عن المعنى حيث يتعب دون أن يجني من وراء ذلك فائدة، وهو حال صاحبه الذي يكد الفكر في صياغته لكن من غير أن يبلغ به أي مطلب، وذلك ما يقضي هذا النوع من مجال البلاغة التي تتوقف على حصول البيان والتبين.

يعد الخطاب القائم على إرغام المعنى على التعقيد وإخراجه مخرجا عسيرا مضللا خطابا فاشلا، فليس هذا ما تكون فيه الحاجة إلى الحذق ودقة الفكر تماشيا مع خصائص الجدة والإبداعية والفنية، التي يستدعيها الخطاب البلاغي المتميز، وإنما يتعلق الأمر بالغموض البلاغي الفني الذي به تكون المبالغة ولطف المعنى وشرفه، إذ يُوظف الفكر على قدر الحاجة. وهذا ما بينه الجرجاني حيث يقول: "فإن قلت: فيجب على هذا أن يكون التعقيد والتعمية وتعمد ما يكسب المعنى غموضا، مشرفا له وزائدا في فضله، وهذا خلاف ما عليه الناس، ألا تراهم قالوا: إن خير الكلام ما كان معناه إلى قلبك أسبق من لفظه إلى سمعك؟ فالجواب: إني لم أرد هذا الحد من الفكر والتعب، وإنما أردت القدر الذي يحتاج إليه"²، فالأساس هو تحقق البلاغة إيجازا، وإبلاغا، وإفهاما، وإمتاعا، وإقناعا ..، وذلك على اختلاف الأبعاد والأغراض التأثيرية.

¹ - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 147.

² - المصدر نفسه، ص 139 و 140.

- **الكلام الملخص:** على خلاف ما يتميز به الكلام المعقد المذموم الذي يؤدي إلى تشويش الفكر وتوتره دون جدوى، يكون الكلام الملخص مصدرا للطاقة المعنى وبلاغته، حيث يكون الشعور بالأنس والأريحية مما يوجب الاستحسان والقبول. إذ يكشف ذلك عن قدرة المبدع على الموازنة بين غرابة الصورة وندرته، ووضوح المعنى البلاغي؛ إذ يتسنى للمتلقى بعد إعمال الفكر إدراك المعنى فيحصل بذلك لصاحبه هدف الدلالة على الغرض.

لقد بين الجرجاني مزايا استعمال هذا الكلام، الذي يجعل منتجه قادرا على الإبانة والتأثير الإبداعي البليغ فيجني من خلاله فوائد عدة، إذ يرى أنه "يفتح لفكرته الطريق لمستوى ويمهده، وإن كان فيه تعاطف أقام عليه المنار، وأوقد فيه الأنوار، حتى يسلك سلوك المتبين لوجهته، ويقطع قطع الواثق بالنجح في طيته، فيرد الشريعة زرقاء، والروضة غناء، فينال الري ويقطف الزهر الجني"¹، وهذا ما يكسب الكلام استقامة ونبلا تَهز نفس المتلقي وتدفعها إلى الإقرار في قراءته التذوقية بالجودة والقوة البلاغية الجمالية؛ إذ يكون عنده بينا، شريف المعنى، فنيا، بعد طول المعاناة؛ "فقد قيل: قرّة العين وسعة الصدر وروح القلب وطيب النفس من أربعة أمور: الاستبانة للحجة، الأنس بالأحبة، والثقة بالعدة، والمعاناة للغاية"²، ولا شك أن أسلوب المبدع فيه يجمع بين الوضوح والشاعرية وهو ما يجعله - حسب ما تبيناه من كلام الجرجاني - الأسلوب المعروف **(بالسهل الممتع)**.

- **الاقتصاد اللغوي البلاغي:** ينبغي على المبدع الذي يركز على تحقيق المبالغة في خطابه البلاغي، تشكيل معاني قوية دالة معبرة، وهذا ما يمكن أن يتاح له عبر فنون التصوير كالاستعارة والكناية والتمثيل، حيث نقف على معنى المعنى، وذلك ما يمكنه من تحقيق البلاغة بمعنى الإيجاز.

- **التعليل:** يجب أن تقوم الصناعة التصويرية الفنية على وجود رابط حسي عقلي يفسر العلاقة بين المعنيين المصورين، ويعبر ذلك عن مبدأ التعليل في نظرية النظم.

- **التخييل:** يتطلب الفعل التصويري الاعتماد على التخييل، وذلك ما يؤول إلى دوره الفعال في تشكيل المعاني اللغوية البلاغية الفنية المبدعة، حيث يقول الجرجاني: "الاحتفال والصناعة في التصويرات التي تروق السامعين وتروّعهم، والتخييلات التي تهز الممدوحين وتحركهم، وتفعل فعلا شبيها بما يقع في نفس الناظر إلى التصاوير التي يشكلها الحذاق بالتخطيط والنقش، أو بالنحت والنقر"³، إذ عبر ذلك يقر المتلقي بلمسة الإبداع وجمالية الخطاب البلاغي شكلا ومضمونا، إلا أن التخييل عند الجرجاني تحكمه شروط.

¹ - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 147.

² - المصدر نفسه.

³ - المصدر نفسه، ص 342 و 343.

- خامسا: التخيل بين الصدق والكذب من منظور الطرح البلاغي الجرجاني:

ميز الجرجاني في حديثه عن المعاني بين قسمين: عقلي وتخيلي.

1 - النمط العقلي:

يمثل العقل مصدر استنباط وتشكيل هذا النوع من المعاني الذي يحضر ضمن أنماط تعبيرية متعددة، ومن أهم خصائصه أن يكون "بجراه في الشعر والكتابة والبيان والخطابة، مجرى الأدلة التي تستنبطها العقلاء، والفوائد التي تثيرها الحكماء، ولذلك تجد الأكثر من هذا الجنس منتزعا من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم وكلام الصحابة رضي الله عنهم، ومنقولا من آثار السلف الذي شأهم الصدق، وقصدهم الحق أو ترى له أصلا في الأمثال القديمة والحكم المأثورة عن القدماء"¹، فهي معاني صادقة تعنى بتمييز الحق من الباطل والصحيح من الخاطئ؛ حيث تستهدف مخاطبة العقول وتوجيهها وتهذيب النفوس، إذ تكون ذات أبعاد إنسانية تربوية تهتم بالقيم الأخلاقية. مثال ذلك قول الشاعر:

وكل امرئ يولي الجميل محبب وكل مكان ينبت العز طيب

يرى الجرجاني أن هذا البيت "صريح معنى ليس للشعر في جوهره وذاته نصيب، وإنما له ما يلبسه من اللفظ، ويكسوه من العبارة، وكيفية التأدية من الاختصار وخلافه، والكشف أو ضده، وأصله قول النبي صلى الله عليه وسلم: "جبلت القلوب على حب من أحسن إليها"²، وقول الله عز وجل: (ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم)³، يكون الكلام عبر هذا النوع حسب ما يوضحه ذلك البيت الشعري محملا بدلالات صريحة، يمكن للمتلقي استكشاف مقصدية المبدع بيسر.

2 - النمط التخيلي:

على عكس ما تتميز به المعاني العقلية التي تأخذ حكم المعاني الصادقة فإن هذا النوع "لا يمكن أن يقال إنه صدق، وأن ما أثبتته ثابت وما نفاه منفي"⁴، إذ يتلاعب منتجه بالمتداول الراسخ في العقول الذي يكون في إطار البنية الاجتماعية، بينا واضحا وصريحا عاما، حيث يمكن القول إنه واجب أو مكروه .. وأن قائله صادق وأنه

¹ - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 263.

² - المصدر نفسه، ص 264.

³ - المصدر نفسه، ص 265.

⁴ - المصدر نفسه، ص 267.

أصاب أو أخطأ، إذ يتوسل آليات التخيل ليقدم المبتدع المغربي من أجل صناعة الخاص، ولذلك يكون هذا النوع غير صريح يتميز بالغموض والغرابة. ويعد الشعر مجاله.

لقد ذكر الجرجاني أن هذا النوع مراتب وأنماط وأن "منه ما يجيء مصنوعاً قد تُلطف فيه، واستعين عليه بالرفق والحدق، حتى أعطي شبيهاً من الحق، وغشي رونقاً من الصدق، باحتجاج تمحل، وقياس تصنع فيه وتعمل"¹، فمما لا شك فيه هو أن المعاني التخيلية تتباين، إذ تكون من الحسن إلى الأحسن الراقي الذي نجد ضمنه الخاصي النادر، القائم على اللطف والرفق والحدق حيث تقدم معاني بلاغية متأنقة، تثير الإعجاب مما يؤدي إلى الحكم بالصدق الإبداعي، الذي يحصل على إثر شعور متلقيه بمتعة التذوق والأريحية، وهو ما يتطلب في الحقيقة قوة الفكر التي يتدخل فيها التأول والقياس .. وذلك باعتبارها معاني بعيدة، مدارها معنى المعنى. ومن أمثلة هذا النوع قول الشاعر:

"لا تنكري عطل الكريم عن الغنى فالسيل حرب للمكان العالي"

فهذا قد خيل إلى السامع أن الكريم إذا كان موصوفاً بالعلو، والرفعة في قدره، وكان الغنى كالغيث في حاجة الخلق إليه وعظم نفعه، وجب بالقياس أن يزل عن الكريم، زليل السيل عن الطود العظيم. ومعلوم أنه قياس تخيل وإيهام، لا تحصيل وإحكام"²، إذ بالتخيل والإيهام يلجأ المبدع إلى حيل الانزياح الاستبدالي الخادع، الذي يولد اتساع المعاني فينشأ الإبداع البلاغي حيث يظهر الشعر الشاعر.

يطرح لجوء المبدع إلى التخيل والاعتماد عليه لتحقيق بلاغة المعاني وأدبيتها، وبلوغ الخصوصية الأدبية في إطار نظرية النظم، سؤال الحدود والضوابط التي تحكم الفعل التخيلي، وذلك باعتباره فعلاً "يثبت فيه الشاعر أمراً هو غير ثابت أصلاً ويدعي دعوى لا طريق إلى تحصيلها ويقول قولاً يخدع فيه نفسه ويربها ما لا ترى"³، لينخدع بذلك المتلقي ويوقعه في شباك الإثارة والانبهار التي تدفعه إلى التلذذ بقراءة الخطاب وقبول معانيه البعيدة. وهذا ما يصطدم عند الجرجاني بمقولة: "الصدق والكذب"، التي تجعل حركات المبدع بين شروط الوضوح التي تقتضي المعنى الصحيح، ومطالب الأدبية التي ترتبط بالمعنى الشعري التخيلي.

¹ - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 267.

² - المصدر نفسه، ص 267.

³ - المصدر نفسه، ص 275.

لقد جاء حديث الجرجاني عن التخيل مرتبطا بالصدق والكذب؛ ولهذا فإن أهم ما يلاحظ على موقفه من المعاني التخيلية هو ربطها ببعدين:

أ - البعد النفسي الإبداعي

ب - البعد الأخلاقي

أ - البعد النفسي الإبداعي:

يعد التخيل مجال الإبداعية أين تتجلى اللغة الفنية الخاصة حيث نقف على براعة المبدع وقدرته على ابتداع المعاني، إذ يتمكن من افتعال انزياحات تسيير والضرورة الإبداعية التي يمارس فيها سلطته في صناعة خطابه، فيكون حرا في تلاعبه بالمعاني وتصويرها واختراع تخيلاته لما يريد، "فهنا يجد سبيلا إلى أن يبدع ويزيد، ويبدئ في اختراع الصور ويعيد، وبصادف مضطربا كيف شاء واسعاً، ومدداً من المعاني متتابعاً، ويكون كالمغترب من عدٍ* لا ينقطع، والمستخرج من معدن لا ينتهي"¹، إذ يستثمر آلية التحويل الدلالي التي تتناسل عبرها المعاني البلاغية، وهذا ما يدعو إليه الجانب النفسي الإبداعي عند المبدع.

لقد قاد الإقرار بقيمة الفعل الإبداعي التخيلي وأهميته في بناء بلاغية الخطاب إلى ظهور مقولة خير الشعر أكذبه، وهو ما ناقشه الجرجاني تحت هدف تبين ماهية الكذب المقصود ومن ثمة كشف ضوابط التخيل، فقد وضع بـ "أنهم لم يقولوا: "خير الشعر أكذبه"، وهم يريدون كلاماً غفلاً ساذجاً يكذب فيه صاحبه ويفرط، نحو أن يصف الحارس بأوصاف الخليفة، ويقول للبائس المسكين: "إنك أمير العراقيين"، ولكن ما فيه صنعة يتعمل لها، وتدقيق في المعاني يحتاج معه إلى فطنة لطيفة وفهم ثاقب وغوص شديد"².

نستطيع القول بناء على ذلك إن المقصود هو (الكذب الإبداعي الخلاق) الذي يتطلب مبدعاً رزينا ذكياً، يعرف كيف يتعامل مع معاني لغته بمرونة وحكمة، لينتج اللغة الفنية الشاعرية حيث يمارس عبر مخيلته حيل التضليل الدلالي الذي يمكنه من تمويه المعاني وتطويعها حسب اضطرابات متباينة، تتماشى ومقتضى الحال إذ تخدم مختلف المقاصد والأغراض، وتتميز بتأثيرها البالغ الفعال على المتلقي، في مقابل ذلك فإن أهم ما يجب على المبدع معرفته هو عدم تزيف الحقيقة وتعميتها؛ حيث ينبغي وجوب مطابقة المعاني رغم فعل التخيل لحقائق الواقع

* - العبد: هو الماء الدائم الذي له مادة لا انقطاع لها.

¹ - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 272.

² - المصدر نفسه، ص 275.

العقلية إذ لا يجب التمرد الساذج عليها؛ فما يطلبه ذلك الفعل هو اللامعقول الإبداعي المغري وليس اللامعقول التوهي الذي يجعل صاحبه كاذبا.

لم ينكر الجرجاني أهمية المعاني التخيلية وذلك ما يتوقف - حسب رأيه - على طبيعتها الإبداعية وأبعادها التأثيرية النفسية، التي تأخذ اتجاهين: يتعلق الاتجاه الأول بمنتجها، أما الثاني فيتعلق بالمتلقي وذلك ما يرتبط بمعيار الفائدة الذي يتوقف على حصول الأريحية، وقد ركز في معالجته لهذا المبحث على إقصاء الإغراق الذي يزيغ الحقيقة بحجة أن خير الشعر أكذبه، إذ يثمر التخييل إذا تحققت لطافة المعاني وفنيتها غرابة وندرا مع توخي تحقيق صدق الوقائع العقلية، ولذلك بين أن للمبدع "مع لزوم الصدق، والثبوت على محض الحق، الميدان الفسيح والمجال الواسع، وأن ليس الأمر على ما ظنه ناصر الإغراق والتخييل الخارج إلى أن يكون الخبر على خلاف المخبر، من أنه إنما يفتن المقال ويفتن، وتكثر موارد الصنعة ويغزر ينبوعها، وتكثر أغصانها وتنشعب فروعها، إذا بسط من عنان الدعوى، فادعي ما لا يصح دعواه وأثبت ما ينفيه العقل وأبأه"¹، ويبدو لنا من خلال ذلك أن منطلقه هنا هو نصرة الصدق باعتباره حقا ودحض المعاني التخيلية الكاذبة باعتبارها باطلا، وهو ما يقود إلى مقولة: خير الشعر أصدقه.

ب - البعد الأخلاقي

تطرق عبد القاهر الجرجاني في سياق تناوله لموضوع المعاني التخيلية إلى مناقشة ضابط الصدق الذي تؤطره مقولة خير الشعر أصدقه، وذلك ما ما يدخل في إطار البعد الأخلاقي. لقد عمل على تحليل فحوى ذلك حيث بين أنه "يجوز أن يراد به أن خير الشعر ما دل على حكمة يقبلها العقل، وأدب يجب به الفضل، وموعظة تروض جماح الهوى، وتبعث على التقوى .. وقد ينحى بها نحو الصدق في مدح الرجال"²؛ وذلك ما ينطبق - كما يبدو - على المعاني العقلية حيث يُحمّل المبدع خطابه برسائل بلاغية تربوية، وهذا ما يمكننا إدراجه في إطار ما يسمح لنا به توظيف مصطلح التنمية البشرية؛ إذ تهذب (المعاني) النفوس وتهديها سواء من منطلق الإمتاع أو الإقناع أو بهما معا، وهي ما تتميز بالحرص في صياغتها على صدق الحقيقة المنقولة التي يعبر عنها الخطاب البلاغي الأدبي الشعري (أو النثري).

¹ - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 274.

² - المصدر نفسه، ص 271 و 272.

يتعلق الجانب الأخلاقي بـ (التفكير الديني (الأشعري)) الذي انطلق منه الجرجاني في بناء نظريته البلاغية، ولذلك فإن أهم ما يجب تنبيه القارئ إليه في هذا الصدد هو: مركزية ذلك الجانب وأولويته في النظرية، حيث حددت من منظوره أبرز ضوابط المعنى والدلالة لا سيما في إطار الفعل الإبداعي التصويري والتخييلي، إذ تتسع حدود مقولة الصدق لنقف على توجيهات أخرى للمبدع. وهي ما نوضحها في النقطة الآتية:

1 - المعنى الشريف نواة الخطاب الإبداعي البلاغي:

لقد بين عبد القاهر من منطلق التفكير الديني والتوجه الأشعري الذي ركز من خلاله على **مكون النفس**، أن من أهم الشروط التي تتوقف عليها صناعة المعنى وتصويره، ما يؤول إلى نوعيته حيث يقتضي الأمر اختيار الجيد الشريف الذي ينزع منزعا أخلاقيا، إذ لا مجال للسيئ القبيح المكروه، وقد اعتمد في توثيقه لهذا الرأي والاحتجاج لصحته وتعميم الأخذ به على حقيقة "أن من الكلام ما هو كما هو شريف في جوهره كالذهب الإبريز الذي تختلف عليه الصور، وتتعاقب عليه الصنع، وجل المعول في شرفه على ذاته، وإن كان التصوير قد يزيد في قيمته ويرفع من قدره، ومنه ما هو كالمصنوعات العجيبة من مواد غير شريفة فلها ما دامت الصورة محفوظة عليها لم تنتقض وأثر الصنعة باقيا معه لم يطل ... حتى إذا خانت الأيام فيها أصحابها، وضامت الحادثات أربابها، وفجعتهم فيها بما يسلبها حسناتها المكتسب بالصنعة، وجمالها المستفاد من طريق العرض، فلم يبق إلا المادة العارية من التصوير، والطينة الخالية من التشكيل، سقطت قيمتها وانحطت رتبته"¹، فإن الركن الركين الأولي الذي يؤسس لفخامة الخطاب الإبداعي البلاغي وقيمه جودة وجمالا، هو **دلالة معانيه النقية والراقية**، وذلك قبل أن تتعرض لجماليات الوشي والمعرض التي تضاف إليها عبر الصنعة والتصوير، فالأصل الشريف دائم في حين أن الوشي والمعرض يزول كما أنه قابل للتغيير من مبدع لآخر. ثم إن النفوس تتأثر أولا وآخرا بدلالات الكلام الشريفة فذلك ما يريجها ويقنعها فيؤثر في حالاتها النفسية، وآرائها زيادة أو تغييرا، ولهذا فعلى المبدع دائما التركيز والحرص على جودة المعنى، حيث تقاس الجودة بالتعبير الشريف النقي الذي تحبه النفوس وتطمئن به.

يخرج هذا (الطرح الأخلاقي) الذي بنى عليه الجرجاني نظريته إلى أبعاد أخرى (نفسية، اجتماعية إنسانية) تجعله في الوقت نفسه **أصل الخطابات البشرية**؛ حيث يوضح كيف يمكنها أن تكون أكثر بلاغة وأقوى أثرا على مستوى العقل والنفس، إذ يخلق أريجية في (نفس المتكلم (المبدع)) الذي ينتقي أخاير المعاني، وكذا في (نفس المتلقي) لها الذي يتأثر بلب الكلام وفحواه، إذ ترتبط الفائدة بما يحمله ويعبر عنه - رغم صور التخييل التي

¹ - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 26.

يحتوي عليها من تمثيلات وكنائيات .. -، ومن المفيد الإشارة إلى أن هذا الطرح قد شكل المبدأ الذي قام عليه وأصل له النص الديني القرآني.

2 - منهج عبد القاهر الجرجاني البلاغي من خلال مقولة الصدق والكذب:

لقد مثل مسعى محاولة العمل على تحديد أسرار بلاغة الخطاب الشغل الشاغل الذي أعاد الجرجاني على أساسه طرح قضية الصدق والكذب، وذلك ما استدعاه وجوباً (مبدأ التفاوت) الذي قامت عليه نظريته؛ ومن هذا المنطلق كان بحثه في المعاني التي فرق فيها بين نمطين عقلية وتخييلية، حيث تكون الأولى مشتركة عامة بينما تعد الثانية مجال التفاوت وبالتالي مجال الخصوصية والتميز.

وقد بين في هذا السياق أن تبني مقولة خير الشعر أصدقه يدعو إلى الالتزام بالتحقيق والتصريح حيث نقف - في الغالب - على أسلوب مباشر، وهذا على عكس ما تتجه إليه مقولة خير الشعر أكذبه حيث يكون الأسلوب غير مباشر، إذ يعتمد المبدع على الغموض والإضمار، ولذلك رأى الجرجاني أنه "من قال: خيره أصدقه كان ترك الإغراق والمبالغة والتجوز إلى التحقيق والتصحيح واعتماد ما يجري من العقل على أصل صحيح أحب إليه وآثر عنده"¹.

ولعل هذا ما يعني محدودية دلالة المعاني مع الصدق، حيث يكون منتجه - حسب الجرجاني - "كالمقصود المداني قبله، والذي لا تتسع كيف شاء يده وأيده، ثم هو في الأكثر يسرد على السامعين معاني معروفة وصورا مشهورة، ويتصرف في أصول هي وإن كانت شريفة، فإنها كالجواهر تحفظ أعدادها، ولا يرجى ازديادها، وكالأعيان الجامدة التي لا تنمي ولا تزيد، ولا تريح ولا تفيد، وكالحسناء العقيم، والشجرة الرائقة لا تُمتّع بجحى كريم"²، وكثرتها مع التخييل والمبالغة حيث يكون (الاتساع الدلالي) و(التجوز البلاغي) الذي تتعدد بهما المعاني إذ يصبح الأمر متعلقاً بمعنى المعنى.

وحيث عد (التخييل الإبداعي الناجع) طريقاً لبلوغ الخصوصية والمزية أين تتباين المعاني وتفاوت في روعتها ومن ثمة في درجة تأثيرها، ليكون في الوقت نفسه من أهم تقنيات المبدع لتشكيل خطاب بلاغي إبداعي عميق الأثر، دافع الجرجاني إلى جانب تمسكه بأهمية الصدق عن التخييل، حيث يقول: "هذا ونحوه يمكن أن يتعلق به في

¹ - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 272.

² - المصدر نفسه، ص 272 و 273.

نصرة التخييل وتفضيله. والعقل بعد على تفضيل القبيل الأول (الصدق) وتقديره.. وما كان العقل ناصره والتحقيق شاهده فهو العزيز جانبه.. وقد قيل: الباطل مخصوم وإن قضي له، والحق مفلج وإن قضي عليه"¹.

يبدو من ذلك أن الجرجاني رغم معرفته بنوع التخييل البلاغي المطلوب (الكذب الإبداعي) ومحاولة تبيين ذلك والدفاع عنه، قد ظل - بناء على استشهاده بما قيل - منشغلا ومتمسكا بالثنائية الضدية: (حق/ باطل) وذلك كمقابل لثنائية: (صدق/ تخييل)، وهنا تظهر سيطرة (الوازع الديني) والتفكير الكلامي الأشعري على تفكيره اللغوي البلاغي، ليمتد ذلك إلى المجال الاصطلاحي ولعل هذا ما يحسب عليه.

نلاحظ نسبية موقف الجرجاني من المعاني بنوعها إذ لا يلبث احتجاجه لنوع ما أن يتبع بحديث عن أهمية الآخر وحاجة المبدع إليه، وربما هذا ما يضع القارئ أمام صعوبة التحديد النهائي الواضح لموقف الجرجاني، وحسب ما يراه بعض الباحثين المحدثين* يعبر ذلك عن الاضطراب الذي وقع فيه الجرجاني.

والحقيقة لقد كان ما قدمه صاحب نظرية النظم هنا تابع (لمنهجه التوفيقي) ولذلك لا يمكن أن نعد ذلك اضطرابا، حيث سعى - حسب رأينا - إلى ترسيخ فكرة: التعامل اللغوي الإبداعي الوسطي أو البيني الذكي مع المعاني بنوعها، إذ تكون البلاغة مرادفة للتواصل الفني الأخلاقي الاجتماعي البناء الذي يحقق التأثير والتأثر النفعي الناجح، فيكون الخطاب البلاغي آلية من آليات التنمية البشرية، وذلك ما يكون أساسه الأولي (شرف المعنى).

والواضح أن عبد القاهر قد أراد تنظيم الفعل التصوري التخييلي (تنظيما علميا دينيا إنسانيا)، ولعل اهتمامه البالغ بالتنظيم هو ما قاده إلى وضع شبه القوانين.

لقد جعل التفكير الديني الأشعري بعض تصورات عبد القاهر البلاغية تختلف أحيانا ما بين النص الديني القرآني، والنصوص البشرية البلاغية (الشعرية والنثرية)، وذلك ما يمكن الوقوف عليه من خلال قضية التخييل، حيث إن البحث البلاغي في النص القرآني وتحديدًا في مظاهر التصوير البلاغي قاده إلى إخراج الاستعارة من مجال التخييل؛ وذلك حسب رأيه: "لأن المستعير لا يقصد إلى إثبات معنى اللفظة المستعارة"²، كما يرى أن "سبيلها سبيل الكلام المحذوف، في أنك إذا رجعت إلى أصله، وجدت قائله وهو يثبت أمرا عقليا صحيحا، ويدعى دعوى

¹ - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 273.

* - هذا ما يراه مثلا محمد العمري، ينظر: البلاغة العربية الأصول والامتداد، ص 361.

² - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 273.

لها سنخ في العقل"¹، وهذا ما يتنافى مع ما قدمه إلا إذا تعلق الأمر بالنوع العادي. وحسب ما يذهب إليه (محمد الولي) "فقد صعب عليه أن ينسب إلى القراءان التخيل على الرغم من محاولته تبرئته من الكذب. فقد سهل عليه الأمر عندما كان يواجه نصوصا بشرية. أما عندما واجه القراءان فقد فزع من التخيل وتمثل الكذب أمامه ولذلك جعل الاستعارة تتعارض مع التخيل لأنها ليست كذبا"²، وحسب رأينا لقد فهم الجرجاني بأن الكذب التخيلي هو الكذب الإبداعي الذي يعد عدولا جماليا يساهم في توليد بلاغة المعنى، ويحمل في طياته أبعاد متعددة نفسية اجتماعية تربوية وذلك لا سيما إذا تعلق الأمر بالنص الديني القرآني. ويبدو بوضوح أن الربط بين مصطلح التخيل ومصطلح الكذب هو ما أوقع الجرجاني في هذه المتاهة. وذلك نظرا للمدلول السليبي للكذب، فكان الأولى على الجرجاني التخلي عن تلك الكلمة (الكذب) التي سادت عند أغلب النقاد والبلاغيين قبله، كمقابل لكلمة صدق التي عبروا بها عن المعاني الحقيقية الخالية من التخيل، واستبدالها بمصطلح بلاغي قوي مثل: مصطلح العدول أو التصوير البلاغي، وذلك حيث نتبين روعة النص الديني ونقف على دلائل إعجازه البلاغي.

وعلى العموم لا يجب البتة - حسب رأينا - إسقاط مكنيزمات وآليات أساليب فنون القول البلاغي البشري، بمصطلحاتها ومفاهيمها على النص الديني القرآني العظيم، ونقوم بمقارنة أساليب هذا النص بتلك الأساليب، حتى لا نقع في متاهات الشكوك. فعلينا أن نقيم دراسة لغوية بلاغية علمية خاصة قائمة بذاتها لذلك النص، لكي نفهم عظمتة ونقر بإعجازه العلمي البلاغي، ونعمل بما جاء به.

نصل من خلال ما سبق حول اللفظ (الصورة) والنظم إلى تأكيد نتيجة مفادها: أولوية النظم ودوره الرئيس في تشكيل بلاغة الخطاب عند عبد القاهر على اللفظ، وهذا ما عبر عنه تعبيرا صريحا مباشرا حيث يقول: "فاعمد إلى ما توصفوه بالحسن، وتشاهدوا له بالفضل، ثم جعلوه كذلك، من أجل النظم خصوصا دون غيره، مما يستحسن له الشعر أو غير الشعر من معنى لطيف أو حكمة أو أدب أو استعارة أو تجنيس أو غير ذلك مما لا يدخل في النظم، وتأمله؛ فإذا رأيتك قد ارتحت واهتززت واستحسننت، فانظر إلى حركات الأريحية مم كانت وعند ماذا ظهرت ؟ فإنك ترى عيانا أن الذي قلت لك كما قلت"³، فالمعيار الأول الذي نحكم من خلاله بالفصاحة والبلاغة والبيان والبراعة هو النظم، حيث يعد المثير الأول الفعال الذي يتولد عنه الأثر البلاغي، إذ نستحسن

¹ - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 275.

² - محمد الولي، الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي والنقدي، ص 103.

³ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 129.

الخطاب البلاغي الأدبي، وهذا ما يعني أن اللفظ يعمل على رفع قوة ذلك الأثر فدوره ثانوي تكميلي. نشير هنا إلى أن ارتباط بلاغة الخطاب في نظرية النظم بالآتي اللفظ والنظم لا ينفي وجود آليات أخرى تساهم في ذلك، مثال ذلك حسب ما ورد عند عبد القاهر التجنيس والمطابقة وهو ما يدخل في إطار علم البديع.

- سادسا: عملية التلقي (فهم وتأويل الخطاب) في نظرية النظم:

توجه الدرس البلاغي العربي القديم في خضم الاهتمام بالجانب التفاعلي للخطاب - الذي يعكس طابعه الاجتماعي - إلى البحث في قضية التلقي، ومناقشة الآليات المتصلة بها، حيث تمت معالجة العديد من الإشكالات المتعلقة بالفهم والتأويل والعمل - في إطار ذلك - على شرح وتوضيح إستراتيجيات الوصول إلى المعنى وفهم مقصدية المتكلم، فقد استأثر هذا الأمر بعناية البلاغيين إذ تحدثوا عن الإبلاغ والتبليغ، البيان والتبيين، والفهم والإفهام. ويعد الأصوليون - في الواقع - أول من تطرقوا لذلك في إطار دراساتهم للنص القرآني حيث عملوا على تفسيره وفهم مقاصده وحصر مجال تأويله.

يعبر ظهور العديد من الأبحاث التي أثارها العقل العربي بخصوص فهم وتأويل الخطاب صراحة عن أهمية المخاطب (المتلقي)، وذلك باعتباره العنصر المستهدف بالتأثير الذي يرومه المتكلم، ولهذا عد شرط وجوده سواء أكان ذلك بصورة مباشرة وهو ما يفرضه الخطاب الشفهي، أو غير مباشرة أي مخاطب مفترض وهو ما يكون غالبا في حالة ما إذا كان الخطاب مكتوبا، من مقاييس اكتمال العملية التبليغية. إذ لا يقل دوره عن دور المتكلم ف"لن كان المتكلم هو منشئ الخطاب ومنتجه، ويسمه بكثير مما يميزه متكلمه عن الآخرين، فإن السامع هو من يُنشأ له الخطاب ومن أجله، وهو مشارك في إنتاج الخطاب مشاركة فعالة، وإن لم تكن مباشرة؛ فالمتكلم حين يراعي مقام الخطاب، وأحوال السامع، وأشكال إلقاء الخبر إليه، وأنماط الطلب التي ينشئها ... وما إلى ذلك من ظروف الحديث المختلفة، فهو إنما يستحضر السامع في كل عملية إبلاغية، ولو بصورة ذهنية إن لم يكن حاضرا عيانا"¹، فمن البديهي وجود المخاطب في عملية التبليغ، إذ يستحيل وذلك حسب ما أثبتته التجارب الواقعية، أن يكون لخطاب المتكلم مدى وفعالية التأثير ومن ثمة إحراز المنفعة إن لم يكن الهدف من إنتاج الخطاب توجيهه لمخاطب ما، يقوم بتحليل رموزه وتفكيك شيفراته وتأويل معانيه.

ركز الخطاب البلاغي العربي القديم على ترسيخ الوعي بأهمية المتلقي وضرورة العناية باعتباره واهتماماته ومختلف حالاته (النفسية، الثقافية، الاجتماعية)، وهذا ما يتطلبه نظام البيان العربي الذي يقوم على مبدأ مطابقة

¹ - خليفة بوجادي، اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، ط1: 2009، ص 175.

الكلام لمقتضى الحال. إذ "ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما، ولكل حالة من ذلك مقاما، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المقامات وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات"¹، ومن مقتضيات ذلك أن "لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة، ولا الملوك بكلام السوق، ويكون في قواه فضل التصرف في كل طبقة ... ومدار الأمر على إفهام كل أمر بمقدار طاقته، والحمل عليهم على أقدار منازلهم"².

تطرق علماء البلاغة في مقابل ذلك إلى تبين ضوابط علاقة المتلقي مع الخطاب، وتوضيح التقنية (أو التقنيات) الناجعة التي تمكنه من تحصيل المعنى وتضمن حصول فهم أمثل، و من هذا المنطلق ارتبطت حركية الخطاب بفعل التلقي، وعلى هذا الأساس ف "إن ما يذكر بشأن المخاطب لا يستقيم إلا بدور السامع، حتى إن ما يرتبط بقصد المتكلم، يفترض وجود سامع مقصود بالخطاب. ولذلك فالحديث عن المتكلم هو حديث ضمني عن السامع أيضا"³، وهذا ما نجده في أحد أبواب (الصاحي) تحت "باب الذي يقع به الإفهام من القائل والفهم من السامع"⁴، ويؤكد ذلك على التشابك والارتباط الوثيق بين القائل والسامع باعتبارهما وجهي العملية الخطابية، وهذا ما ينطبق على ثنائية الفهم والإفهام، ولذلك يعد تحقيقها معيار نجاح تلك العملية.

فمعرفة نوع المخاطب وحالته (الاجتماعية، النفسية، الثقافية) هو ما عده بلاغيونا القدامى شرطا ضروريا لابد على المتكلم من توحيه، وفي هذا الصدد يقول أبو هلال العسكري: "وينبغي أن تعرف أقدار المعاني فتوازن بينها وبين المستمعين، وبين أقدار الحالات؛ فتجعل لكل طبقة كلاما، ولكل حال مقاما، حتى تقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار الحالات. واعلم أن المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من المقال"⁵، ومعنى ذلك أن حصول موافقة الكلام لمقتضى الحال، أهم مقياس يضمن حصول المنفعة التي تكون مشتركة بين المتكلم والمتلقي.

¹ - الجاحظ، البيان والتبيين، ج 1، تحقيق: عبد السلام هارون، ص 143.

² - المصدر نفسه، ص 92.

³ - خليفة بوجادي، اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، ص 166 و 167.

⁴ - ابن فارس، الصاحي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، تح: مصطفى الشوملي، مؤسسة بدران للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، ط: 1963، ص 190.

⁵ - أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، الكتابة والشعر، تحقيق علي محمد الجاوي ومحمد أبي الفضل إبراهيم، منشورات المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، ط: 1986، ص 135.

لقد تناولت البلاغة العربية هذا الجانب حيث تمت مناقشة استراتيجية التلقي بكيفية دقيقة اتسمت بالنضج وبعد الأفق، الأمر الذي مكنها من مضاهاة أحدث ما توصلت إليه الدراسات اللسانية الحديثة في هذا الجانب، الذي ظهر في أحدث صوره المتطورة من خلال ما جاء به الطرح التداولي.

إن تعامل المتلقي مع المنجز اللغوي سواء أكان مكتوباً أو ملفوظاً وذلك من خلال تشريح وحداته اللغوية وتأويل معانيه، وما يترتب على ذلك من عمليات ذهنية واستدلالية تتوج في الغالب بفهم المخاطب لمقاصد وأغراض المتكلم، هو ما شكل أحد المحاور الرئيسة في دراسات وبحوث البلاغيين العرب القدماء.

لقد نوقشت هذه الأمور بكيفية عميقة في نظرية النظم، حيث صاغ الجرجاني في عدة آراء - جاءت في سياقات مختلفة من الدلائل والأسرار - مجموع الأصول العامة والمقاييس التي تنظم الممارسة الخطابية البلاغية في مرحلة الفهم والتأويل، ولعل أهم ما كشف عنه في إطار ذلك هو التمييز في تلقي الخطاب الأدبي البلاغي بين مخاطبين: مخاطب عام، ومخاطب خاص - وهو ما استهدفته توضيحات الجرجاني - يتميز بكفاءته البلاغية، التي تمكنه من التعامل بدقة ونجاح مع محتوى الخطاب البلاغي لاسيما منه المسكوت عنه. الذي تمثله استعمالات المعاني الثواني.

هذا ما يراه الجرجاني في الاستعارة، مثلاً، فيقول للمخاطب: "فإنك تعلم على كل حال أن هذا الضرب من المعاني كالجواهر في الصدف، لا يبرز لك إلا أن تشقه عنه، أو كالعزيز المحتجب لا يريك وجهه حتى تستأذن عليه، ثم ما كل فكر يهتدي إلى وجه الكشف عمل اشتمل عليه، ولا كل خاطر يؤذن له في الوصول إليه، فما كل أحد يفلح في شق الصدف ويكون في ذلك من أهل المعرفة كما ليس كل من دنا من أبواب الملوك فتحت له..."¹. إذ تتطلب سيرورة الخطاب الإبداعي البلاغي تكافؤ المنزلة بين منتجه الذي يتميز بملكة الإبداع الخطابي البلاغي، ومتلقيه حيث يجب أن يكون متلقياً خاصاً، وهو ما يتحدد حسب عبد القاهر بأن يكون من أهل المعرفة إذ يجيد قراءة وتقييم ذلك النوع من الخطاب، فيقف عند مختلف مواضع البلاغة والفصاحة بوجوهها وأنماطها الكثيرة المتباينة، ويعرف كيفية تشغيل تفكيره حيث يتمكن من استكشاف وفهم المعاني الفنية الرفيعة التي تكون بعيدة مستغلقة، أين يتسنى له عبر ذلك الحكم على صاحبها بالتميز والبراعة.

¹ - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 141.

1 - مجال عمل المتلقي في نظرية النظم:

يعد البحث والتركيز على خاصية جودة الخطاب البلاغي الهدف الذي يشترك فيه المبدع مع المتلقي؛ حيث يسعى الطرف الأول إلى تحقيق ذلك توخيا لإعجاب الطرف الثاني، الذي يعنى بقياس درجة الجودة من خلال الوقوف على مدى عمق ودقة بلاغية الخطاب - وذلك بالنظر إلى طريقة النظم والتصوير - إذ يعتمد إلى الحكم التدوقي النقدي، وهو ما يكون فيه بين (مرحلة القبول) التي تتعلق بشرف المعنى وصحته، و(مرحلة الاستحسان) التي تتعلق بندرة المعاني وفنية صناعيتها أين يكون الانزياح الذي يجذبه (المتلقي) ويستوقفه.

يتمحور اهتمام وتركيز المتلقي في تعامله مع الخطاب البلاغي بحثا عن الدلالات والمعاني المقصودة حول مسحاته الفنية، وصوره البلاغية المؤثرة أين يحضر التخيل. وذلك ما ينتمي في الغالب إلى مجال الغموض البلاغي الذي يجعل المعاني مستورة متخفية صعبة الوصول مما يخلق نوعا من الإثارة والفضول الذهني، الذي يحرك ذهن المتلقي ويدفعه إلى مجال التأويل، حيث يكون البحث بعمق ودقة فتحصل لذة وجمالية التلقي. وهذا ما تطلبه عادة النفس الإنسانية التي تسعى بغض النظر عن مختلف القيم (الأخلاقية والاجتماعية والمعرفية..) التي يحملها الخطاب وراء آفاقه الفنية التي تتمكن من سبر أغوارها واستكناه جمالها بعد طول تمحيص وروية. ف "من المركز في الطبع أن الشيء إذا نيل بعد الطلب له والاشتياق إليه، ومعاناة الحنين نحوه، كان نيله أحلى، وبالمزية أولى، فكان موقعه من النفس أجل وألطف، وكانت به أضن وأشغف"¹.

فكلما كانت المعاني البلاغية أغمض وأبعد وبالتالي صعبة الوصول كانت أكثر ولعا واهتماما في نفس المتلقي، وهو ما تكون حالته بحثا عن مكنوناتها ومعرفة غرض صاحبها شبيهة - حسب الجرجاني - بحالة الشخص الذي تختلج في نفسه معاناة الحنين، والاشتياق للأحبة فيتوق للقائهم وينتظر ذلك بفارغ الصبر.

إن أهم ما بينه الجرجاني بخصوص فعل التلقي هو أن قوة درجة الأثر البلاغي عند المتلقي تكون أشد في سياقات الخطاب التي تتضمن (فخاخا لغوية فنية)، وذلك حيث يكون الانزياح عن العام المعتاد الممل، وهو ما يشمل مختلف التحويلات التركيبية والدلالية (الصوتية أحيانا (كالجناس، والطباق..))، فيتولد الأثر الجمالي الذي يحكم على أساسه بالفضل والمزية وذكاء المبدع، مما يؤدي إلى (الترحيب العشوائي) من قبل النفس والعقل، إذ تحصل الأريحية والمتعة.

¹ - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 139.

ففي بيت أبي تمام:

يمدونه من أيد عواص عواصم تصول بأسياف قواض قواضب

أوضح الجرجاني وفق منظور المتلقي ما يمكن أن يجده أي متلق آخر لهذا البيت، الذي يتضمن فخا بلاغيا جماليا، حيث يرى "أنك تتوهم قبل أن يرد عليك آخر الكلمة كالميم من عواصم والباء من قواضب، أنها هي التي مضت، وقد أرادت أن تحيئك ثانية، وتعود إليك مؤكدة، حتى إذا تمكن في نفسك تمامها، ووعى سمعك آخرها، انصرفت عن ظنك الأول، وزلت عن الذي سبق من التخيل، وفي ذلك ما ذكرت لك من طلوع الفائدة بعد أن يخالطك اليأس منها، وحصول الريح بعد أن تغالطك فيه حتى ترى أنه رأس المال"¹. إذن تكمن جمالية التلقي في كسر التوقع الذي يفاجئ المتلقي بلمسة أسلوبية فنية بعد أن يخالطه الملل؛ حيث يتوهم أن التعبير مما يعرفه وأنه عام قد اعتاد عليه ذهنه، وذلك ما يعني تركيزه على جدّة وطرافة التعبير، إذ يفضي به إلى الإقرار بفائدته عليه. ولعل أهم ما نتبينه من كلام الجرجاني هو أن الخطاب عملية تبادلية نفعية أساسها الفائدة بين منتجه ومتلقيه؛ حيث عدها وكأنها تجارة مدارها الريح الذي يتمحور حول رأس المال بين الطرفين.

تكون الجودة بمقتضى قوة البيان ورحابة النفس، وهو ما يكون بتوفر المعاني البلاغية البديعة الموحية الدالة

المؤثرة، ففي بيت البحتري الآتي:

دان على أيد العفاة وشاسع عن كل ند في الندى وضريب

كالبدر أفرط في العلو وضوءه إلى العصبة السارين جد قريب

يقول الجرجاني "فكر في حالك وحال المعاني معك، وأنت في البيت الأول لم تنته إلى الثاني، ولم تتدبر نصرته إياه، وتمثيله له فيما يمل عليه. وتأمل طرفيه فإنك تعلم بعد ما بين حالتك، وشدة تفاوتهما في تمكن المعنى لديك، وتحبه إليك، ونبله في نفسك وتوفيره لأنسك"²، فانطلاقا من قراءة تلك الأبيات بين الجرجاني من منظور المتلقي الناقد المتذوق، أن النفس تميل إلى المعاني البلاغية الخاصة وتأنس به، المعاني التي يُعتمد فيها على المجاز والتصوير (كالتمثيل)، وهو في الوقت نفسه يكشف عن أهم المعايير التي يجب على المتلقي الوقوف عندها، والتركيز عليها في قراءته التحليلية التذوقية النقدية للخطاب الأدبي البلاغي، إذ يمكنه من خلال ذلك الحكم عليه.

¹ - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 18.

² - المصدر نفسه، ص 116.

يكون تلقي الخطاب البلاغي والحكم عليه - حسب نظرية الجرجاني - عملية مشتركة بين (النفس) و(العقل)، حيث يعمل الثاني على دعم وتبرير ما تذهب إليه النفس من خلال تتبع استراتيجيات الخطاب واستنباط أسرار بلاغته.

فقد بين أنه "على حسب دقة المسلك إلى ما استخرج من الشبه، ولطف المذهب وبعد التصعد إلى ما حصل من الوفاق، استحق مدرك ذلك المدح، واستوجب التقديس، واقتضاك العقل أن تنوه بذكره، وتقضى بالحسن في نتائج فكره وعلى حسب المراتب في ذلك أعطيه في بعض منزل الحاذق الصنع، والملمه المؤيد والألمعي المحدث"¹، إذ تتوقف عملية التلقي على إعجاب النفس بالمعاني البلاغية التي يتبعها إقرار وتسليم العقل بذلك، حيث ينتقل المتلقي من (النقد التدقيقي)، إلى (النقد الموضوعي) الذي يستند فيه على معايير من قبيل: دقة ولطف وبعد التصوير، إذ من خلالها - مثلاً - يمكن الموازنة بين نموذجين إبداعيين.

2 - مقومات الفهم والتأويل الناجح في نظرية النظم:

تمر عملية استكشاف المعنى وفهم أبعاده بعدة مراحل واستراتيجيات عقلية تقتضيها القراءة العميقة للخطاب؛ حيث يقوم المتلقي بإعادة النظر، والتفكيك والتحليل، والغربة .. والتأويل أين يكون التقصي والاستدلال. ولبلوغ الغاية بكل ذلك؛ أي الوصول إلى المعنى، يجب توفر ومراعاة عدة عناصر، تشكل في مجموعها أسس الفهم والتأويل.

لقد عمل الجرجاني على وضع حدود واضحة تنظم حوار المتلقي مع الخطاب وتضمن حصول فهم أمثل، فنجد من خلال ذلك يتطرق لتلك الأسس؛ حيث ناقش عدة أمور يمكن تلخيصها في الأسئلة التالية: ما هو الأساس الأول في تلقي الخطاب ؟ ما هي الشروط التي يجب أن تتوفر في المتلقي ؟ كيف يتعامل المتلقي مع الخطاب ؟ أو ما هي عناصر الخطاب التي يجب مراعاتها لفهم المعنى ؟ ويمكننا من خلال تتبعنا لما أورده الجرجاني توضيح تلك الشروط فيما يلي:

¹ - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 150 و 151.

أ - الجانب النفسي:

يعد الجانب النفسي للمتلقى الأساس الأول الذي تبنى عليه علاقة التفاعل التي تكون بينه وبين الخطاب، وهو ما يضمن في حالة توفر الموقف الإيجابي - الذي يحصل نتيجة التأثير بمعاني الخطاب - نجاح التلقي وبالتالي نجاح الخطاب.

لقد حضر هذا التصور بقوة في نظرية النظم حيث ركز الجرجاني على تأكيد قيمته، وهذا ما تعبر عنه عدة مصطلحات من بينها: (الأريحية، الأنس، الهزة، الطرب، الظرف..)، وهي تدل على الأثر البلاغي الجمالي الذي يحدثه الخطاب البلاغي القوي في نفس المتلقي؛ أي (الأثر الإيجابي) حيث يكون قبوله واستحسانه. وذلك في مقابل (الأثر السلبي) الذي ينجم عن ضعف الخطاب وابتداله، فيكون مذموماً في نفس المتلقي. وقد عبر الجرجاني عن ذلك الأثر بمصطلحات من قبيل: (الوحشة، النفرة، الاضطراب، النبوءة، القلق..)، إذ تعبر كلها عن استكراه الخطاب ورفضه.

إن استناد فعالية التلقي على تحاوب النفس هو ما أثبتته البحوث الإنسانية الحديثة، وقد كان ذهاب الجرجاني إلى ذلك مرتبطاً أساساً بالرؤية الكلامية الأشعرية؛ حيث تمثل - عنده - (الاستجابة الروحية (النفسية)) التي تقترن بأريحية المتلقي، الشرط الأول الذي تقوم عليه مرحلة التلقي، إذ يضمن ذلك في الغالب الكثير استمرار ونجاح العملية التبليغية، ف (الأريحية) منظور المتلقي الرئيس الذي يبنى عليه موقفه الأول من الخطاب، وذلك أهم ما ركز على تبينه في الدلائل والأسرار.

والواقع يتعلق الجانب النفسي بمرحلة التلقي بصورة عامة، وذلك ما يجعل الوقوف عنده ناقصاً أمام الحديث عن المتلقي الخاص المثالي الذي قصده الجرجاني في نظريته، حيث يجب بالإضافة إلى الاستعداد النفسي التميز بخصائص تمكنه من التعامل مع الخطاب الإبداعي البلاغي؛ تحليلاً وتدوقاً وتأويلاً، ومعرفة قيمته وتثمين جهده المبدع من خلال استجلاء مواطن الحكمة الإبداعية ودقتها.

2 - انتماء المتلقي إلى أهل الذوق والمعرفة:

تتطلب ميزة الخاص التي يجب توفرها في المتلقي - في إطار نظرية النظم - أن يكون من أهل الذوق والمعرفة حيث نجد الجرجاني، يقول: "واعلم أنه لا يصادف القول في هذا الباب موقعاً من السامع، ولا يجد لديه قبولاً حتى يكون من أهل الذوق والمعرفة، وحتى يكون ممن تحدثه نفسه بأن لما يومئ إليه من الحسن واللفظ أصلاً، وحتى يختلف الحال عليه عند تأمل الكلام فيجد الأريحية تارة ويعرى منها أخرى، وحتى إذا عجبته عجب، وإذا نبهته

لموضع المزنية انتبه¹، والواضح من ذلك هو اشتراط مهارة المتلقي وذكائه حيث يعرف ماهية ما يتلقاه؛ أي ماهية الخطاب البلاغي بمستوياته، وشتى مكوناته وأسراره وشروطه - وذلك خاصة ما جاءت به نظرية النظم -، لكي يجيد تتبع مواضع الحسن واللطافة فيه، ويقف على مختلف ما يتضمنه من وجوه تحويلية أسلوبية مفرقا بين العادي والبلاغي الجمالي الخاص، وذلك ما يحتاج إل عمق المعرفة ودقة الذوق.

- أ. المعرفة:

تقتضي عملية فهم المتلقي لمعاني الخطاب والتمكن من الوصول إلى قصد المبدع، توفر خاصية الاستعداد المعرفي؛ حيث يجب أن يكون عالما بقوانين لغته ومجاري استعمالها، وهو ما يدخل في إطار ما يعرف (بالمملكة المعرفية اللغوية)، وقد حرص الجرجاني على تأكيد أولوية هذا الشرط. ولعل أهم ما يتطلبه التعامل التحليلي التأويلي مع الخطاب البلاغي حسب مبادئ نظريته، هو المعرفة - ضمن ذلك - بضروب البلاغة ومسالكتها والوعي بماهية النظم البلاغي، بمعاييره وشروطه وأسراره، إذ يشترك في ذلك مع المبدع.

ينبغي عليه من هذا المنطلق أن يكون أولا على دراية أن النظم يقوم على ثنائية: لفظ/ معنى إذ على أساسها يصاغ الخطاب شكلا ومضمونا، ويعرف من خلال ذلك أن أساس النظم معاني النحو؛ حيث يعتمد على الوجوه والفروق التي تتولد من خلالها، وأن يفهم كذلك تفريق الجرجاني بين النظم واللفظ (الصورة)، حيث تنتمي إلى كل قسم وجوه أسلوبية متعددة، وأن يعلم أن المبدع يعتمد على كل ذلك فيقوم بعدة استراتيجيات وآليات أهمها آلية التحويل، التي تضم تحويلات تركيبية، تحويلات دلالية، تحويلات صوتية.

يؤكد هذا للقارئ (المتلقي) أن (المملكة المعرفية) تستدعي تلقائيا (المملكة الخطابية البلاغية)، وتظهر حاجة المتلقي للمملكة الثانية في دقة وعمق تفعيله لمخزونه المعرفي اللغوي (المملكة المعرفية)، الذي يستثمره في قراءته العامة للخطاب؛ حيث يتعرض لفحص نظمه ومعانيه من أجل معرفة طرائق تكوينه ونوع مكوناته وفهم المعاني. والحقيقة تكون قراءة الخطاب البلاغي الإبداعي على أساس شرط المعرفة ناقصة، ويؤول ذلك إلى غياب الرؤية التدوقية لميكانيزمات الإبداعية، حيث يتمكن على أساس المعرفة من الوقوف على الصواب والخطأ فقط، وهذا ما يجعل المتلقي الخاص بمعرفته متلقيا عاما؛ وذلك إذا اعتبرنا أن انتماءه إلى (أهل المعرفة)، مشروط بأن يكون كذلك من (أهل الذوق).

¹ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 293.

2 - ب. الذوق:

يتعلق الذوق بالقراءة التذوقية التشخيصية التقييمية للخطاب البلاغي الإبداعي، التي على أساسها يتأثر المتلقي ويستمتع بجودة المعاني وفنياتها، حيث يمكنه عبر ذلك الحكم بالفضل والمزية، فهو ما يتقصى من خلاله حركات البلاغة ويدرك حضورها، أين تكون لذة القراءة وبالتالي أريجها النفس، وهذا ما أشار إليه الجرجاني في دلائل الإعجاز تحت باب: "إدراك البلاغة بالذوق وإحساس النفس"¹، حيث يعد الذوق مقياس الأثر البلاغي الذي تتفاوت عبر توظيفه الإبداعات الأدبية البلاغية، ليكون من مؤشرات حذق المتلقي، إذ من خلاله يقوم بفلي الخطاب وتمييز المعاني وسبر أبعادها فيرتفع بذلك عن طبقة العامة.

وقد اقترن حديث الجرجاني عن الذوق بالحديث عن الطبع، ولذلك فإن أهم ما يلاحظه القارئ هو ترادف المصطلحين.

يشرف الذوق - حسب توضيحات الجرجاني - على عملية رصد واستنباط (المعاني البلاغية الروحانية) بعيدة المنال، التي يتوقف فهمها على الرفق والروية، إذ يقول: "فهذا كما ترى ظاهر الأمر في فقره إلى فضل الرفق به والنظر. ألا ترى أنه لا يفهمه حق فهمه إلا من له ذهن ونظر يرتفع به عن طبقة العامة ؟"²، حيث يقتضي الأمر دقة التفكير وبعد النظر، وذلك ما يعمل بمقتضى توفر التذوق الصحيح الجيد لها. فهي معاني خفية صعبة الوصول "لا يبصرها إلا ذوو الأذهان الصافية، والعقول النافذة، والطباع السليمة، والنفوس المستعدة لأن تعي الحكمة، وتعرف فصل الخطاب"³، ويمثل الذوق الأساس الذي تقوم عليه مختلف الشروط، والاستعدادات الذهنية والنفسية التي تستدعيها مرحلة التلقي، ويعد ذلك من أهم المبادئ التي ميزت بنية العقل العربي في مجال التفكير البلاغي النقدي، حيث شاع ذلك في البيئة الاجتماعية العربية، من خلال ممارسات الإبداع الشعري صناعة ونقدا.

لقد ظل الجرجاني متمسكا بذلك المبدأ، وقد عمل على إعادة صياغته بطريقة جديدة في إطار بلاغي واضح، فلم "يتخلى عن الذوق العربي الصافي، إذ لا يمكن لأي مستمتع بالأثر الفني أن يشعر بالهزة الشعورية

¹ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 454.

² - المصدر نفسه، ص 94.

³ - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 66.

والأريحية إلا عن طريق الذوق المعلل والموضح"¹، ومما لا شك فيه أن الذوق المقصود هو الذوق البلاغي الفني، الذي يبرع من خلاله المتلقي في تتبع واقتناص دلائل التميز الإبداعي، حيث يشعر بالهزة والأريحية في مواضع دون أخرى، ليكون ذلك في الوقت نفسه تعليلا صريحا للحكم بالجودة على الخطاب البلاغي.

يمكن القول تأسيسا على ما استنبطناه من توضيحات الجرجاني، إن عمل المتلقي وتعامله مع الخطاب يكون على مرحلتين:

- أ - مرحلة الوضوح: يهتم المتلقي بتقييم الخطاب على أساس معيار الوضوح حيث يركز على استقامته.
- ب - مرحلة الفضل والمزية: يعنى المتلقي فيها بالبحث عن وجوه المزية التي ترتبط بأسرار البلاغة ودلائل الإبداعية، ليتسنى له الحكم بالجودة والتميز.

لقد عنيت أغلب توضيحات وتوصيات الجرجاني عن البلاغة بالمبدع والمتلقي، حيث بين لهذا الأخير كما بين للمبدع أن أساس أسرار البلاغة، تتمحور حول النظم والتصوير؛ فقد بين له "أن سبيل الكلام سبيل التصوير والصياغة، وأن سبيل المعنى الذي يعبر عنه، سبيل الشيء الذي يقع التصوير والصوغ فيه، كالفضة والذهب يصاغ منهما خاتم أو سوار. فكما أن محالا إذا أنت أردت النظر في صوغ الخاتم وفي جودة العمل وردائه، أن تنظر إلى الفضة الحاملة لتلك الصورة، أو الذهب الذي وقع فيه العمل وتلك الصنعة كذلك محال إذا أردت أن تعرف مكان المزية والفضل في الكلام، أن تنظر في مجرد معناه"²، فقد أراد أن يوضح له أن ممارسة (النقد البلاغي) عبر الحكم على بلاغة كلام ما بجودته وتميزه، لا يتعلق بالمعنى فقط حيث يعد هذا الأخير (جنس المزية)، وإنما هو أمر يتطلب الوقوف على جل المكونات والخصائص، التي ساهمت في جعل ذلك الكلام كذلك. وهو ما يتطلب معرفة (أمر المزية) الذي يتأسس حسب ما وضعه الجرجاني على مظاهر النظم والتصوير.

ومما يجب تأكيده في هذا السياق هو خاصية الارتباط التلازمي بين الذوق والمعرفة، إذ لا يجب الفصل بينهما، وذلك خاصة إذا تعلق الأمر بالمتلقي البلاغي التذوقي المثالي.

¹ - دهمان أحمد علي، الصورة البلاغية عند عبد القاهر الجرجاني، منهاجا وتطبيقا، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ج1، ط1: 1986، ص 124.

² - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 265.

3 - الموضوعية:

يتطلب ظهور الأثر البلاغي حسب نظرية الجرجاني أن يتميز المتلقي - بالإضافة إلى انتمائه إلى أهل الذوق والمعرفة - بصفة الموضوعية، التي تستوجب أن يكون تأثره بخطاب بلاغي ما على غرار آخر وإطلاق الحكم التقييمي، مستندا على علل تفسر موقفه وتوجُّهه، وقد بين له الجرجاني ذلك قائلا: "وجملة ما أردت أن أبينه لك: أنه لا بد لكل كلام تستحسنه، ولفظ تستجيده، من أن يكون لاستحسانك ذلك جهة معلومة وعلة معقولة، وأن يكون لنا إلى العبارة عن ذلك سبيل، وعلى صحة ما ادعيناه من ذلك دليل"¹، فأن تكون عملية التلقي منظمة حيث يسير المتلقي بوعي، إذ يجب أن يعلم موجبات كل موضع يقف عليه هو ما سعى إليه عبد القاهر في نظريته، وهو ما حولها لأن تتسم بخاصية العلمية، لتقف بذلك جنبا لجنب مع ما قدمته أحدث النظريات في هذا المجال.

تقتضي موضوعية المتلقي كذلك التعامل بجدية مع الخطاب الإبداعي، فيبتعد عن القراءة الدونية له لا سيما في حالة ما إذا وجد المعنى سهل الوصول مفهوما، حيث يخاطبه في خضم توضيح ذلك قائلا: "إذا توقفت في حاجتك أيها السامع للمعنى إلى الفكر في تحصيله، فهل تشك في أن الشاعر الذي أداه إليك، ونشر بزه لديك، قد تحمل فيه المشقة الشديدة، وقطع إليه الشقة البعيدة، وأنه لم يصل إلى درة حتى غاص، ولم ينل المطلوب حتى كابد منه الامتناع والاعتياص"²، فعليه إذن تثمين جهد المبدع؛ فينتقل من الإقرار بأهمية ما قدمه، وأن منتجه قد قطع مشقة من أجل صناعة المعنى وحوكه.

2 - آليات المتلقي لاستكشاف معنى المعنى:

قدم عبد القاهر في الدلائل والأسرار توجيهات للمتلقي تمكنه من إدراك معنى المعنى، ويمكننا توضيحها في العناصر الآتية:

أ - دقة التفكير:

ترتبط فاعلية المتلقي بوظيفة الفهم والتبَيُّن التي تتوقف على تحاوره مع الخطاب، حيث يعمل على استنتاج مكنوناته واستكشاف المقاصد والدلالات المضمرّة، وهذا ما يجب الاعتماد فيه على دقة التفكير حيث يتعامل بحذق مع المعاني البعيدة، إذ لا بد من تشغيل الذهن من خلال اللجوء إلى التأويل، وهو الحال مع التراكيب

¹ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 95.

² - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 145.

التمثيلية - مثلا - حيث وضع عبد القاهر "أن المعنى إذا أتى ممثلاً، فهو في الأكثر ينجلي بعد أن يحوج إلى طلبه بالفكرة وتحريك الخاطر له والهمة في طلبه. وما كان منه ألطف كان امتناعه أكثر، وإبائه أظهر واحتجابه أشد"¹، فأن يكون المتلقي جاهزاً للتعامل مع تلك التراكيب على اختلاف درجاتها، قادراً على تحليلها وفك شفراتها ورد الكلام إل أصله ما يعني التمكن من فهمها، أهم ما يشترط أن يتميز به، وذلك ما يكون (دقة التفكير) و(عمق النظر التأويلي) أبرز آلياته.

يمارس المتكلم (المبدع) في تعابير اللغوية التمثيلية - وغيرها من التراكيب التصويرية - ما يمكن تسميته: (بلعبة التضييل الدلالي) من خلال التعمية والإلغاز، وهو ما يترتب عنه غرابة تدفع المتلقي إلى مجال التأويل أين ينتقل من المعنى السطحي إلى المعنى العميق، حيث يتدرج من البسيط إلى الدقيق الصعب لا سيما إذا كان التمثيل بعيداً نادراً، حيث يعتمد على التأويل باعتباره طريق الوصول إلى معرفة فحوى تلك التعابير، إذ يقوم بطرح عملية الإبدال أو التحويل الدلالي الانزياحي، التي قام بها المتكلم واستبداله بدلالة تأويلية كاشفة ومعبرة عن معنى المعنى.

لقد حرص عبد القاهر على تأكيد ضرورة اجتهاد المتلقي، في بحثه عن فحوى الخطاب الإبداعي ومعانيه البلاغية الغامضة، فيتنصرف بحكمة ودكاء من خلال إعمال الفكر فيكون بحثه دقيقاً شاملاً، بحيث يقف فيه على جميع وحداته وتراكيبه، وذلك بمقتضى الترابط والانسجام القائم عليه. وهذا ما يتطلب دقة التفكير التصوري مما يعني الحاجة إلى استعمال الفكر، وهو ما يكون مع "المعاني الشريفة اللطيفة إذ لا بد فيها من بناء ثان على أول، ورد تال على سابق، حيث نحتاج في الوقوف على الغرض من قوله، كالبدلر أفرط في العلو. إلى معرفة البيت الأول فتتصور حقيقة المراد منه، ووجه المجاز في كونه دانيا شاسعاً، ونرقم ذلك في نفسنا، ثم نعود إلى ما يعرضه البيت الثاني، من حال البدلر ثم نقابل إحدى الصورتين بالأخرى ونرد البصر من هذه إلى تلك، وننظر إليه ... وهذا ما أراده الجرجاني في عبارة: الحاجة إلى الفكر، وبأن المعنى لا يحصل لك إلا بعد انبعاث منك في طلبه واجتهاد في نبه"²، والحقيقة يقر الجرجاني - هنا - بسلطة المتلقي التي تجعله أساس فهم المعنى وكشف غرض صاحب الخطاب؛ إذ يتطرق لفك أقفاله بعد طول تمحيص وتدقيق، من خلال عمليات التحليل والتأويل، أين يمارس وظيفته بعمق وجدية حيث يكون (مستقياً إيجابياً)، وذلك ما يجب أن تنبني عليه عملية التلقي حسب نظرية النظم.

¹ - ينظر: عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 139.

² - ينظر: المصدر نفسه، ص 144.

تتطلب المعاني البلاغية الإبداعية التي تتميز بسمات الخلاصة واللطافة متلقيا خاصا، يتمكن من استكشاف مهارة مبدعها والاعتراف بقيمة ما أبدعه، من خلال قراءتها الفنية الدقيقة التي تعتمد على تفعيل عمق النظر ودقة التفكير، ولا شك أن ذلك ما يقود إلى الإقرار بتفاوت المتلقين، واختلاف طبقاتهم حيث نجد العام والخاص، ولذلك يرى عبد القاهر أنه "لو كان الجنس الذي يوصف من المعاني باللطافة، ويعد في وسائط العقود، لا يحوج إلى الفكر، ولا يحرك من الحرص على طلبه بمنع جانبه، وبيعض الإدلال على المتلقي ... لكان باقلي حار*، وبيت معنى هو عين القلادة وواسطة العقد، واحد. ولسقط تفاضل السامعين في الفهم والتصور والتبيين. وكان من روى الشعر عالما به، وكل من حفظه - إذا كان يعرف اللغة على الجملة - ناقدا في تمييز جيده من رديئه"¹، ويحيل كلام الجرجاني إلى أن البلاغة باعتبارها (فن القول) تتداخل و(فن الطبخ) صناعة وتذوقا، فبالنسبة لهذا الأخير مثلا يكون ممارسة تعتمد على أسس يمثلها الذوق والمعرفة بأمر معينة، وهو حال الأول حيث يتم إدراك مظاهر الفعل الانزياحي إدراكا معرفيا وتذوقيا فنيا ممتعا. ويوضح الطرح الجرجاني أن التلقي من اختصاص العقل، وهو بناء على ذلك مراحل هي: الفهم التصور التبيين، وهو طرح علمي يؤكد التناول العلمي في نظرية النظم.

ب - التفصيل:

كشف عبد القاهر أن من أهم الآليات التي تساهم في تحقيق دقة بحث المتلقي، حيث يتمكن من تمييز خصائص الخطاب البلاغي وفهم معانيه، (آلية التفصيل) التي تتحدد بالبحث الشامل المستفيض المفصل، الذي يقوم على رصد وتتبع جميع الجزئيات والمكونات واحدة واحدة، مما يؤدي إلى تدرج وارتقاء درجة التبيين لديه من المستوى الضعيف إلى المستوى الجيد، وهذا ما يدعو إلى تجاوز البحث المجمل. ففي خطابه مع المتلقي يقول: "واعلم أنك لا تشفي العلة ولا تنتهي إلى ثلج اليقين، حتى تتجاوز حد العلم بالشيء مجملا إلى العلم به مفصلا، وحتى لا يقتنعك إلا النظر في زواياه والتغلغل في مكانه، وحتى تكون كمن تتبع الماء حتى عرف منبعه وانتهى في البحث عن جوهر العود الذي يصنع فيه، إلى أن يعرف منبته ومجرى عروق الشجر الذي هو منه"²، فالتقصي المفصل العميق الذي يتغلغل صاحبه في دقائق الأمور، حيث يتسنى له العلم بما أبرز ما يعول عليه لتحقيق (التلقي المثالي الناجح)، وهو ما يعد من مقومات بلاغة التلقي حسب نظرية النظم، وفي الواقع تصنف إجراءات التفصيل ضمن آليات البحث العلمي وذلك ما يعكس الجانب الإيجابي للنظرية.

* - باقلي حار هو مقول القول في نداء بائع الفول. عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 143.

¹ - ينظر: المصدر نفسه، ص 143.

² - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 269 و 270.

ويمثل الاعتماد على التفصيل حسب الجرجاني معيار التفاوت، الذي تختلف على أساسه نسبة الفهم بين المتلقين، ليكون كذلك معياراً لتفاضلهم، وذلك عكس الجملة حيث إنه "إدراك التفصيل يقع التفاضل بين راء وراء، وسامع وسامع، وهكذا. أما الجمل فتستوي فيها الأقدام. ثم تعلم أنك في إدراك تفصيل ما تراه وتسمعه أو تذوقه، كمن ينتقي الشيء من بين جملة، وكمن يميز الشيء مما قد اختلط به، فإنك حين لا يهتمك التفصيل، كمن يأخذ الشيء جزافاً وحرفاً"¹، إذ يعد من تقنيات القراءة العميقة التي تفتضيها طبيعة الخطاب البلاغي الإبداعي، الذي يتضمن تحويلات انزياحية (تركيبية، دلالية)، أين يصطدم المتلقي (بفخاخ لغوية بلاغية) تمثلها لطائف أسلوبية غريبة نادرة، لا سيما ما يعتمد على التصوير والتخيل، مما يفرض اتباع إجراءات البحث الدقيق حيث يكون أعمال الفكر والنظر العميق المفصل، من أجل تمييز نوعها، وكشف معنى المعنى، ومعرفة غرض المبدع من خلالها، ولذلك تعد غياب الرؤية التفصيلية لدى المتلقي - في مثل تلك السياقات - والاقتصار على الجمل من مؤشرات ضعف عمله القرائي التحليلي.

ج - الاستدلال:

يستعين المتلقي في قراءته التحليلية الدقيقة التي تعتمد على دقة التفكير بآلية الاستدلال، ويرتبط توظيفه لتلك الآلية في الخطاب البلاغي الذي يتضمن مظاهر معنى المعنى، ففك الإضمار وفهم المعنى الأصل لا يتم إلا بتوظيف العقل والاستدلال، لأن العلاقة بين المعنى الأول والمعنى الثاني علاقة فنية عقلية، لا يتوصل إليها إلا بالنظر الدقيق؛ فـ "الأساليب البيانية العربية، من تشبيه ومجاز واستعارة وكناية وتمثيل ذات طابع استدلال، وهو الطابع الذي يجعل الذهن ينتقل من المعنى إلى معنى المعنى، وذلك ما عناه الجرجاني حينما قرأ النظم على أنه تناسق دلالات الألفاظ وتلاقي معانيها على الوجه الذي ارتضاه العقل"²، ويعبر هذا الطرح عن الرؤية العقلية التي تأسست عليها تصورات البلاغية، وهو ما ينطبق على نظريته ككل.

3 - الشروط الوظيفية لفهم الدلالة وتحديد معنى المعنى:

يتطلب فهم دلالة الخطاب البلاغي في إطار نظرية النظم، أن يركز المتلقي على الخطاب البلاغي، تركيزاً شاملاً يقف فيه على جميع مستوياته، التركيبية، الدلالية، التداولية (المقامية). ويفرض هذا الأخير منه ما يلي:

¹ - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 160.

² - ينظر: محمد عابد الجابري، نقد العقل العربي ج1، درا الطليعة، بيروت، ط: 2، ص 87 و 88.

أ - ربط الخطاب بالمقام (السياق التواصلية):

أكد الخطاب البلاغي العربي القديم أن أهم تقنية ترتكز عليها عميلتا الفهم والتأويل، هي التقنية التي تستمد مقوماتها من مفهوم المقام، فيكون على المتلقي بناء على ذلك مدركا أولا وقبل كل شيء لمقولة: "لكل مقام مقال"؛ أي أن يحلل الخطاب متصلا بظروف وحشيات إنتاجه، بما فيها أحوال منتجه، فلا يقف بذلك عند حدود مستوياته اللغوية: (الصرفية، النحوية، المعجمية) فقط. وهذا ما يعد من أهم المبادئ التي قامت عليها نظرية النظم؛ فقد وجه عبد القاهر المتلقي إلى ذلك، حيث يجب الاعتماد عليها أثناء عملية تحليل الخطاب وتأويله.

ب - تحديد ومعرفة غرض المتكلم:

يتوقف فهم المتلقي لمعنى الخطاب على تحديد ومعرفة غرض المتكلم، وهو ما يعد بمثابة سير أغوار النفس واستكشاف خباياها التي تتعلق بذلك الخطاب. وقد أكد الجرجاني ذلك وهذا ما ننبينه - مثلا - من خلال حديثه عن الفعل التصوري التشبيهي، حيث يرى "أن إثبات الشبه يكون من طريق الرجوع إلى الحال، والبحث عن خيء في نفس المتكلم"¹، وذلك الخيء هو مقصديته أو غرضه الذي يرتبط ارتباطا وثيقا بالمعنى، وهذا ما يوضح الطريق المنهجي الدقيق الذي رسمته نظرية النظم لعملية التلقي.

تذهب الباحثة من خلال كل ما سبق تقديمه إلى حصر أهم ما يتميز به التصور الذي تبلور في إطار نظرية النظم، بخصوص البلاغة في الخصائص الآتية:

أ- شمولية تناول وعمق الرؤية:

نستدل على ذلك من خلال شروحاته وتحليلاته التي عنيت بوصف وتفسير، مختلف ما يتعلق بعملية الفعل الخطابي (البلاغي) أو مرحلتيه الرئيسيتين؛ ونقصد بذلك مرحلة الإنتاج، ومرحلة التلقي (الفهم والتأويل). وقد جاء حديثه عن البلاغة موزعا على أطراف العملية الخطابية البلاغية وهي: الخطاب، المتكلم، المتلقي، وهو ما يقودنا إلى تنبيه القارئ إلى أن البلاغة في هذه النظرية ثلاثة أنواع: ألا وهي:

- بلاغة الخطاب: وترتبط بمفهوم: (البلاغة كمكون)، حيث تعد المكون الرئيس الذي يقوم عليه الخطاب البلاغي.

¹ - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 328.

- بلاغة المبدع: وتقوم على المعرفة والذوق.

- بلاغة المتلقي: وتقوم كذلك على المعرفة والذوق.

ويقودنا ذلك إلى تحديد ماهية البلاغة كالتالي: (البلاغة معرفة)، (البلاغة ممارسة)، حيث تتطلب المعرفة الممارسة وترتبط بها ارتباطاً وثيقاً إذ على أساسها يمكن الحكم بالمنزلة.

ب - علمية المنهج:

تميز ما قدمه عبد القاهر بسمة العلمية؛ حيث بين لمستعمل اللغة العربية وفق مصطلحات ومفاهيم لغوية بلاغية ركائز وأسس النظم البلاغي الجيد، المتعلقة بالخطاب الإبداعي البلاغي الذي يفرض الاستعمال المثالي للغة وهو ما يكون بين الإنتاج والتلقي.

ج - الرؤية العقلية:

فقد ركز عبد القاهر على الجانب الذهني العقلي، مبيناً أن الخطاب البلاغي، بالنظر إلى إنتاجه وتحليله عملية تخطيطية عقلية، إذ يعتمد في كلا المرحلتين على آليات العقل.

د - الرؤية النفسية:

وتتحلى في العناية بجانب النفس والتأكيد على عنصر الأريحية، الذي يحيل إلى البلاغة الروحية، وهو ما يرتبط بدرجة كبيرة بوظيفة البلاغة الإمتاعية مع توفر البعد الأخلاقي، وهو ما ينبغي أن يتوفر عليه الخطاب البلاغي.

هـ - الرؤية الفنية الجمالية:

وتتحلى في تركيز عبد القاهر على الإبداع الخطابي الأدبي الفني أو الشعري، وهو ما يرتبط بالجانب الأخلاقي.

ز - الرؤية الوظيفية التداولية:

يتضح من خلال حديث الجرجاني في سياقات متعددة، أن الخطاب تفاعل كلامي وظيفي تواصلية، يتم بين متكلم ومخاطب، ويقوم على ضرورة الربط والمناسبة بين بنيته الداخلية وبنيته الخارجية التي يمثلها المصطلح البلاغي العربي (المقام). تتداخل نظرية النظم من خلال هذه الرؤية مع النظريات اللسانية الوظيفية، التي تمخضت على

إثر تطور البحث اللساني الغربي من البنية إلى الوظيفة. حيث أفرز ذلك نظريات جديدة لعل من أهمها: نظرية النحو الوظيفي.

فصل ثالث:

اللسانيات الغربية من

البنية إلى الوظيفة

تمهيد:

تناولت الاختبارات (المعرفية - اللغوية) المتعددة التي تميز بها البحث اللساني الغربي الحديث - وذلك إذا اعتبرنا أن البدايات الأولى لهذا البحث قد كانت من خلال كتاب محاضرات في اللسانيات العامة cours de linguistique General (لفردينان دي سوسير Ferdinand de saussure 1857 - 1913)، -، اللغة من خلال النظر إليها من زوايا وأبعاد مختلفة، حيث صيغت في إطار ذلك افتراضات وأهداف متعددة، وهو ما أدى إلى اختلاف إستراتيجيات الباحثين وأدواتهم المنهجية المعتمدة، وذلك تبعاً لاختلاف الأسئلة العالقة التي راموا الإجابة عنها بما يتماشى وموضوع البحث والدراسة؛ أي بعد اللغة المستهدف بالفهم والوصف والتفسير.

ولعل أهم أبعاد اللغة التي استوقفت البحث اللساني الغربي الحديث وساهمت في تشكيله، لتكون في الوقت نفسه أبرز المحاور التي استأثرت باهتمام الباحثين حيث تمت مناقشتها بكيفية عميقة، ثلاثة أبعاد رئيسة وهي:

- 1 - البعد الشكلي البنوي: وفيه عدت اللغة مجرد بنية شكلية.
- 2 - البعد العقلي أو الذهني المجرد: أي اللغة من حيث هي ملكة إنسانية ذهنية مكتسبة.
- 3 - البعد الوظيفي الاجتماعي (التواصلي أو التبليغي)، أو (التداولي).

وفي الواقع لم تتم مناقشة هذه الأبعاد ودراساتها في إطار بحثي واحد؛ أي لم تكن دفعة واحدة، فقد مر تطور البحث اللساني الغربي الحديث بثلاث مراحل أساسية وهي:

- 1 - مرحلة اللسانيات البنوية.
- 2 - مرحلة اللسانيات التوليدية التحويلية.
- 3 - مرحلة اللسانيات الوظيفية التداولية.

وقد كان ارتباط هذه المراحل بتلك الأبعاد السابقة الذكر على التوالي.

أولاً: تطور البحث اللساني الغربي:

- 1 - مرحلة اللسانيات البنوية:

وفيها ميز الباحثون بين: لسانيات بنوية أوروبية ولسانيات بنوية أمريكية.

1 - أ. اللسانيات البنوية الأوروبية:

يقتزن الحديث عن اللسانيات البنوية الأوروبية بذلك المنحى البحثي اللساني الجديد الذي رسمه فردينان دي سوسير في بداية القرن العشرين، وذلك انطلاقاً من محاضراته الشهيرة التي استطاع من خلالها التأسيس لفكر لساني يعبر عن موقف إبستمولوجي وعلمي جديد، يختلف عن أهم الدراسات اللغوية التي كانت سائدة قبله.

لقد حدد فردينان دي سوسير الإستراتيجية العلمية التي يجب اتباعها في مجال الدراسة اللغوية، كما قام بتوضيح الأسس النظرية والمبادئ المنهجية التي تقوم عليها تلك الدراسة، محدثاً بذلك تحولات لسانية عد في الوقت نفسه حداً فاصلاً أو قطيعة إبستمولوجية بالنسبة للدراسات اللغوية القديمة التاريخية والمقارنة؛ إذ لاحظ ضعف الأفكار التي نادت بها وعدم دقة ما توصلت إليه من نتائج، وذلك رغم أن فكره اللساني قد نشأ في إطار البحث اللغوي التاريخي المقارن.

لقد سعى من منطلق عدم نجاعة المقاربة اللغوية الفيلولوجية التي حصرت اللغة في نصوص مادية مكتوبة، إلى وضع النموذج اللغوي الكفيل بدراسة اللغة دراسة علمية دقيقة ومنهجية، ليصير البحث في اللغة على أساسها علماً قائماً بذاته "فمع اللسانيات التي دشنها دو سوسير، أصبح يُنظر إلى اللغة على أنها موضوع معرفة مستقلة قابلة للدراسة المنتظمة، باعتبارها جملة من الأحداث والوقائع المعقدة على عكس ما تبدو عليه في الواقع المادي الملموس وأصبح هدف التحليل الوقوف على العلاقات والوظائف التي تجمع الوحدات المكونة للغة في مختلف المستويات بعيداً عن العوامل الخارجية أياً كانت طبيعتها"¹.

يتطلب تحقيق هدف السعي نحو إحراز العلمية وتأطير اللسانيات في دائرة البحوث العلمية، حسب ما قامت عليه المقاربة اللسانية السوسيرية، اتخاذ قرار منهجي يتمثل في اعتماد التجريد واحترام شروط ومقاييس العلمية في دراسة اللغة، ولن يتم ذلك إلا من خلال دراسة بنيتها دراسة آنية تفرض عزلها عن أي سياق خارجي، فقد "نظر إلى اللغة نظرة وصفية تقوم على أساس الملاحظة المباشرة للظواهر اللغوية المدروسة في فترة محددة، في مكان محدد مما أعطى دفعا قويا للدراسة الوصفية على غرار الدراسة التاريخية السائدة ولمدة طويلة"².

¹ - مصطفى غلفان، في اللسانيات العامة (تاريخها، طبيعتها، موضوعها، مفاهيمها)، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ط1: 2010، بيروت - لبنان، ص 248.

² - ذهبية هو الحاج، لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر - تيزي وزو، ط2: 2012، ص 51.

فحسب ما يذهب إليه سوسير "إن أفضل منهج لدراسة اللغة هو أن نحاول وصفها كما هي في فترة زمنية محددة وأن نصل من هذا الوصف إلى القواعد أو القوانين العامة التي تحكمها، أو التوصل على الأقل إلى معرفة البنية أو التركيب الهيكلي لها"¹. إذ يجب - حسب رأيه - دراسة اللغة دراسة صورية وصفية بعدّها نظاماً من العلامات، أو بنية تركيبية مغلقة على ذاتها وذلك قصد استنباط ومعرفة قواعد اشتغالها، و"هذا ما جعله يؤكد بأن اللغة شكل وليست مادة إذ تتشابه الأصوات التي تمثل الجانب المادي في بعض اللغات ولا تزيد عادة على ملء سطرين أو أكثر بقليل، أما النصيب الأكبر فهو للنظام الذي يمكن من خلاله أن تكون من الأصوات القليلة عدداً غير متناه من الكلمات والجمل المركبة"².

ولقد فرق سوسير في إطار سعيه نحو تحديد موضوع اللسانيات بين ثلاثة مصطلحات، تعكس أو توضح تجليات ملكة الإنسان اللغوية، وهي:³

1 - اللغة Langue: وهي نظام من العلامات، وصيغ وقواعد تنتقل من جيل لآخر، والجانب الاجتماعي من الكلام الخارج عن نطاق الفرد.

2 - اللسان Language: ظاهرة عامة تجمع اللغة والكلام، ليس بظاهرة اجتماعية خالصة إذ تشمل الفردي الاجتماعي، لذلك تعرف بكونها ظاهرة طبيعية.

3 - الكلام parole: ما يتلفظه أفراد مجتمع ما، أي ما يختارونه من تراكيب، وهو عمل فردي يقوم على الإرادة والذكاء.

جعل سوسير - تماشياً مع ضوابط وشروط منهج بحث المقاربة اللسانية البنوية - من اللغة باعتبارها بنية اجتماعية ثابتة موضوعاً للسانيات، حيث يقول: "يجب أن تكون اللغة محور اهتمام عالم اللغة، فعند تحليل إحدى اللغات لا يحاول عالم اللغة وصف الأفعال الكلامية فحسب، وإنما يهتم بتحديد الوحدات، وقواعد التركيب التي تشكل النسق اللغوي؛ فاللغة - أو النسق اللغوي - موضوع متماسك قائم بذاته وقابل للتحليل، إنها نسق من العلامات"⁴، وبالتالي فهو موضوع علم اللسان.

¹ - نايف الخرماء، أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ط1: 2000، ص 106.

² - فردينان دي سوسير، محاضرات في الألسنية العامة، تر: يوسف غازي ومجيد نصر، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر، 1986، ص 139.

³ - ينظر: ذهبية هو الحاج، لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، ص 49.

⁴ - فردينان دي سوسير، محاضرات في الألسنية العامة، ص 56.

أخرج سوسير - بناء على ذلك - الكلام من مجال الدراسة اللسانية التي تتخذ من اللغة موضوعا لها، مبتعدا بذلك عن دراسة الفردي النسبي، وهو ما يتصف به الكلام الذي يخضع - حسب رأيه - لأحكام ذاتية متغيرة، ويرتبط بظروف خارجية غير لغوية تخرج البحث اللساني من دائرة العلمية، فقد أقصى كل ما هو خارج عن حدود النسق أو النظام اللغوي (كالمرجع مثلا)، إذ يجب دراسة اللغة لذاتها ومن أجل ذاتها.

لقد ميزت المقاربة اللسانية عند سوسير مجموعة من المبادئ أهمها:¹

- اللغة نظام؛ حيث لا يمكن تحليل الظواهر اللغوية بعزلها عن غيرها، فهي أجزاء من نسق أكبر.
- اللغة ظاهرة اجتماعية؛ وينبغي دراستها وفق هذا المبدأ، دون اللجوء إلى معايير أخرى خارجة عن مادتها البنيوية (نفسية، أو تاريخية، أو ذهنية).
- التمييز بين "اللسان والكلام"؛ وهو في الواقع تمييز لما هو اجتماعي في اللغة وخاضع إلى نظام عام، عما هو فردي ذاتي، لا تحكمه قواعد مشتركة.
- لا تحمل أية علامة معنى مستقلا بذاتها، ما لم تكن داخل نظام، بل تستمد معناها من النظام ككل؛ ومن الوحدات والعلامات المجاورة لها.

وقد تأسست بناء على ما جاء به سوسير بعض الاتجاهات اللسانية أهمها:

- حلقة براغ:

بدأت أعمال هذه الحلقة تظهر سنة 1926 بمشاركة مجموعة من اللغويين التشيك، الذين تأثروا بأفكار دي سوسير المتعلقة بعلم اللغة عامة، والعلاقة بالمنهج الوصفي والتحليل البنوي بصفة خاصة، فقد استمدت هذه الحلقة مرجعيتها النظرية من مبادئ وأسس البحث اللساني السوسيري، التي وردت في صورتها المتطورة في كتابه: دروس في اللسانيات العامة.

وأبرز أعلام هذه الحلقة: فيلام ماثيسوس vilém mathesuis (1882 - 1945)، نيكول تروبتسكوي Nikolai sergeueievitch troubetskoi (1890 - 1938)، رومان جاكبسون Roman jakobson (1896 - 1982)، سيرج كارسفسكي sergei kartsevski (1884 - 1955)، أندري مارتيني André Martinet (1909 - 1999)، إميل بنفنست Emile Benvenist (1902 - 1976)، وغيرهم.

¹ - ينظر: خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، ص 18 و 19.

لقد اهتم لغويو براغ باللغة باعتبارها نظاما ذات مستويات مختلفة: نحوية، صرفية، صوتية، دلالية؛ إذ درسوا اللغة على هذا الأساس دراسة آنية وظيفية شاملة لجميع مستوياتها، حيث أكدوا أن قيمة العنصر اللغوي داخل النظام اللغوي تكمن في وظيفته التي يؤديها، وليس في شكله فقط، "وبناء على هذا التصور لعمل العناصر اللغوية انطلاقا من وظيفتها وليس من شكلها انصرفت جهود أتباع هذه المدرسة إلى ترسيخ مفهوم البنية (structure)، انطلاقا من مفهوم النسق (system/system) عند دي سوسير على الرغم من أنه لم يستخدم مصطلح بنية، فإنه في تمثيله لتجانس النسق اللساني الذي يتكون من عناصر ترتبط فيما بينها بحكم قوانين معينة، وأن أي تغيير في قانون من القوانين ينعكس على الكل. ومن هنا اكتسبت مدرسة براغ صفة البنيوية نظرا لتمسكها بمفهوم البنية من وجهة وظيفية، فدراسة عناصر البنية اللسانية يعني هندسة العناصر المكونة للبنية والتعامل معها في ذاتها دون النظر إلى المؤثرات المتوقعة خارج البنية نفسها"¹.

تقوم رؤيتهم البنيوية السوسيرية للغة بعدها نظاما ذات مستويات مختلفة، والتي درسوا من خلالها اللغة دراسة آنية تركز على مبادئ وشروط المنهج الوصفي، على أساس الوظيفة التي يؤديها كل عنصر من عناصر النظام ليشمل ذلك وظيفة النظام ككل، إذ إن "اللغة في نظرهم نظام من الوظائف، وكل وظيفة هي نظام من العلامات"²، إن الكيفية الجديدة التي عالج بها لغويو براغ اللغة مكنتهم من الخروج عن حدود التصور البنيوي السوسيري الضيق، فقد درسوا النسق اللغوي من وجهة نظر وظيفية استطاعوا من خلالها توضيح البعد الوظيفي للغة والتأكيد على أهميته.

وهذا ما جعل بحوثها تجمع بين البنيوية والوظيفية؛ إذ عدت بالإضافة إلى كونها أحد الاتجاهات البنيوية المتأثرة بسوسير من أهم النظريات الوظيفية. وهذا ما سنتطرق لتوضيحه في خضم حديثنا عن مرحلة اللسانيات الوظيفية التداولية.

- حلقة كوبنهاغن:

تأسست هذه المدرسة سنة 1934 وذلك انطلاقا من الأعمال التي قدمها لويس يلمسلاف Louis Hjelmslev (1899 - 1965)، وزميله فيغو برونдал Viggo Brondal (1877 - 1942)، حيث عملا على دراسة اللغة دراسة علمية تركز على مبادئ المنهج العلمي وتقنيات المنطق الصوري الرياضي، محاولين من خلال ذلك تجاوز الدراسات اللغوية التقليدية، وتوجيه البحث اللساني الغربي وجهة لسانية جديدة؛ فقد

¹ - ينظر: عبد القاهر المهيري وآخرون، أهم المدارس اللسانية، منشورات المعهد القومي لعلوم التربية، تونس، 1986، ص 38.

² - أحمد مومن، اللسانيات النشأة والتطور، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط3: 2007، ص 136.

"حاول أصحاب هذه المدرسة التجديد في طريقة دراسة اللغة والإعراض عن الأساليب التقليدية واعتماد الدراسة العلمية، وقد وظفوا في بحثهم اللساني المصطلحات الغربية وصاغوا العناصر اللغوية في شكل رموز جبرية ذات سمّة رياضية واستعملوا التراكيب اللغوية في شكل معادلات رياضية. الأمر الذي ترتب عليه رد فعل قوي من اللسانيين والمفكرين الفلاسفة"¹. فقد عدوا ذلك مبالغة وخروجاً باللغة عن مجالها.

لقد وضع يلمسلاف مصطلح الغلوسيميائيك وهو "اسم مشتق من الكلمة اليونانية "" التي تعني اللغة، وتهتم بدراسة الجلوسيمات؛ أي الوحدات النحوية الصغرى التي لا تقبل التجزئة، وتنقسم إلى قسمين: وحدات التعبير وتدعى سوانم، ووحدات المحتوى وتدعى "مضامين"(ploremes)"².

أقر الغلوسيميائيون أن دراسة اللغة وتحليلها في إطار هذه النظرية لا بد أن يكون وفق منهج تجريدي، يخضع لمبدأ المحايثة الذي يقتضي عزل اللغة عن أي سياق خارجي، ويرى يلمسلاف انطلاقا من هذا المبدأ "أن العلم الذي يحق له أن يجعل من اللسان موضوعا له هو اللسانيات المحايثة التي تتعامل مع اللسان بعدّه بنية مغلقة تتضمن عناصر تفاعلها في ذاتها بمعزل عن أي مؤثر خارجي"³، فقد ضاق مجال البحث اللساني في هذه المدرسة إذ لم تتعد حدود البنية اللغوية.

وفي الواقع ليست نظرية الغلوسيميائيك إلا تعميقا أو صياغة جديدة لأسس ومفاهيم اللسانيات السوسيرية، وهذا ما جعل العديد من الباحثين يطلقون عليها اسم السوسيرية الحديثة، فقد "حرص يلمسليف على التمسك بأفكار سوسير وأكد مرارا على أنه الوارث الشرعي لهذه الأفكار، ولذلك نلغيه منذ البدئ يتبنى بعض الأسس النظرية والمنهجية التي تميز بها المشروع اللساني عند دي سوسير ويتخذها منطلقا لنظريته، منها نظرة سوسير للغة بأنها شكل وليست مادة"⁴. ويرى يلمسلاف بالإضافة إلى ثنائية (شكل/ مادة) أن اللغة تعبير ومحتوى (دال ومدلول حسب اصطلاح سوسير)، ويكمن جديده ضمن هذه المفاهيم في توضيحه للعلاقة التي تربط المفاهيم ببعضها والتي ينتج من خلالها أربع طبقات، وتتمثل في:⁵

¹ - السعيد شنوفة، مدخل إلى المدارس اللسانية، الجزائر للنشر والتوزيع، ط1: 2008، ص 78.

² - ينظر: أحمد مومن، اللسانيات النشأة والتطور، ص 160.

³ - ينظر: Jean Dubois et autre, Dictionnaire de linguistique, Larousse, paris, 1973, p 35.

⁴ - جورج موان، علم اللغة في القرن العشرين، تر: غزاوي، مؤسسة الوحدة، دمشق، دت، ص 132.

⁵ - محمود أحمد نخلة، علم اللغة النظامي، مدخل إلى النظرية اللغوية عند هاليداي، د/ بلد نشر، ط2: 2001، ص 39.

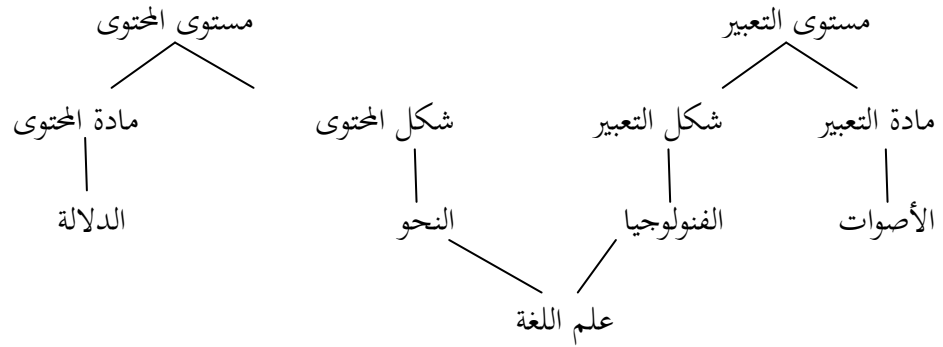
أ - مادة التعبير: (وهي المادة الصوتية) وهي متماثلة في كل اللغات.

ب - شكل التعبير: وهو النظام الفنولوجي الخاص بكل لغة.

ج - مادة المحتوى: (تصوراتنا عن العالم الخارجي).

د - شكل المحتوى: النحو الخاص بكل لغة.

ويمكن توضيح ذلك على الشكل التالي:¹



فحسب الدراسة اللسانية المحايثة التي ميزت هذه النظرية، والتي عُدَّت اللغة في إطارها شكلا وليست مادة، لا ينتمي إلى علم اللغة إلا الفنولوجيا والنحو.

1 - ب. اللسانيات البنوية الأمريكية:

يرجع ظهور اللسانيات البنوية الأمريكية إلى النصف الأول من القرن العشرين، حيث أجريت العديد من البحوث الوصفية على لغات المجتمع الأمريكي، أين تمت من خلالها دراسة وتصنيف لغات الهنود الحمر في أمريكا، وقد ارتبطت تلك الدراسة بعلم الأنثروبولوجيا وهو ما ساهم في اعتماد باحثيها على مناهج وبحوث الأنثروبولوجيين.

وأهم مؤسسو الاتجاه البنوي الأمريكي: فرانز بواس (Franz Boaz) (1858 - 1942)، إدوارد سابير (Edward sapir) (1884 - 1939)، وليونارد بلومفيلد (Loonard Bloomfield) (1887 - 1949).

¹ - محمود أحمد نخلة، علم اللغة النظامي، مدخل إلى النظرية اللغوية عند هاليداي، ص 39.

اهتم بواس الذي يعد أول من أرسى مبادئ هذا الاتجاه من خلال كتابه: دليل اللغات الهندية الأمريكية بالبحث في خصائص اللغات الأمريكية المنطوقة، "فقد اعتمد في دراسته على اللغة المنطوقة، وتحديدًا على الكلام، خلافاً للسانيات سوسير (في أوروبا)، لأن مادة الدرس لديهم كانت لغات غير مكتوبة وهي مجموع اللغات المتناثرة في أمريكا، مما يفرض وجود خصائص كل لغة على حدة"¹، وبناءً على ذلك يجب - حسب رأيه - استجلاء ومعرفة القواعد الخاصة بكل لغة من اللغات المدروسة.

لقد تبني إدوار سابير تأثيراً بأستاذه (بواس) البحث في هذا الجانب والعمل على تطويره، "غير أن أهم ما ميز تناول سابير هو عودته إلى التمييز بين الأشكال اللغوية والتصورات معتقداً بوجود دراسة الشكل اللغوي بوصفه نمطاً بغض النظر عن الوظائف المسندة إليه، حيث قضى به الأمر إلى القول أن وظيفة اللغة لا تقتصر على التوصيل، بل تتجاوز ذلك إلى تمثيل العالم، فللغة حكم تصوري يمارس تأثيره على المتكلمين فهي بسبب كونها نظاماً رمزياً لا شعورياً تدفع أفرادها إلى اعتناق نظم ترميز معينة هي بمثابة أسس ثقافية للتفكير"²، ويعني هذا أن اللغة تعكس نظام تفكيرنا.

أما بلومفيلد فقد حرص بناءً على تأثره بأفكار ومبادئ علم النفس السلوكي وتحديدًا ما جاء به عالم النفس فوندت (wundt) (1832 - 1920)، على توجيه اللغة وجهة علمية تتوافق وشروط البحث العلمي السائدة آنذاك، وهذا ما جعله يقتصر على دراسة اللغة كما هي في شكلها الخارجي؛ أي من حيث كونها سلوكاً ظاهراً كبقية السلوكات الإنسانية القابلة للملاحظة، وعلى هذا الأساس درس اللغة وفق منهج آلي يقوم على تفسير السلوك اللغوي من خلال ثنائية المثير والاستجابة (stimulus/ répons).

إن تبني بلومفيلد لمبادئ المدرسة السلوكية حرصاً منه على دراسة اللغة دراسة علمية مستقلة، تخضع لشروط المنهج العلمي - كما حددت في إطار تلك المدرسة - قاده إلى استبعاد المعنى من مجال الدراسة اللغوية، وذلك لاعتقاده بصعوبة البحث فيه بحثاً موضوعياً، "فدراسة المعنى في نظر بلومفيلد أمر ثانوي بل عده النقطة الأصعب في دراسة الوصف اللغوي ولهذا اقتصر على دراسة اللغات من الناحية الشكلية الظاهرة فقط، كما استبعد الحدس الذي يرتبط بالمعنى وعمليات الوعي التي تشارك في استيعابه، وألح على اعتماد الوصف الشكلي الآلي ما أمكن

¹ - خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، ص 27.

² - ذهبية حمو الحاج، لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، ص 69.

ذلك، فلا وجود لتعريف دقيق من الناحية العلمية لكل شيء في اللغة ما لم نمتلك معرفة دقيقة من الناحية العلمية لكل شيء في عالم المتكلم والمدى الحقيقي للمعرفة الإنسانية ضئيل جدا مقارنة بذلك"¹.

تقتضي الدراسة اللغوية - كما يرى بلومفيلد - التعامل مع اللغة من حيث هي عملية ظاهرة، أو سلوك فيزيولوجي، يستند تفسيره على ثنائية المثير - الاستجابة؛ وذلك بخلاف المعنى اللغوي الذي لا يمكن البتة ملاحظته أو وصفه في ذاته، إذ يستحيل إعطاء قيم أو نسب مطلقة لتوضيح تجلياته، حيث يخضع المعنى لمعايير ذاتية تختلف من شخص لآخر، وهذا ما يؤثر سلبا على الدراسة اللغوية العلمية.

أبعد بلومفيلد من هذا المنطلق المعنى، مؤكدا أن مجال دراسته المناسب هو المعرفة غير اللغوية وليس علم اللغة، والحقيقة إن ذلك الإبعاد "لا يخص إلا منهجية العمل التي أعدها؛ فالمعنى غير غائب في تحليلاته قطعا، فهو حاضر في كل خطابه، غير أن دراسته أمرا مستعصي الحل اعتبارا للحالة الراهنة للبحث"².

لقد تميز بلومفيلد كذلك برؤيته الوصفية التحليلية للغة، حيث قام بتحليل اللغة إلى أربعة مستويات؛ مستوى صوتي، ومستوى صرفي، ومستوى نحوي، ومستوى دلالي - رغم عدم دراسته له - فقد "اعتمد في كتاب اللغة مصطلح "المكون المباشر" مركّزا على النحو المورفولوجي أي استعمال تحليلاته، وتشمل هذه الدراسة على كل الوحدات الحاملة للمعنى والقابلة للتجربة وهو المنهج الذي وسعه أتباع "بلومفيلد" فيما بعد وعرف باسم التوزيعية"³، وأهمهم هاريس (Harris 1930 - 2002).

وفي هذا التحليل "تشكل المورفيمات أو "المكونات الأساسية" في تصور "بلومفيلد" بناء مركبا، وتحليل الجملة يفضي إلى فقدان بنيتها.

تقوم منهجية التحليل التي انتهجها بلومفيلد على أساس تقطيع أو تحليل البنية اللغوية إلى وحدات صغرى، وقد عرفت هذه الطريقة باسم "التحليل إلى المكونات المباشرة"، و"من خلاله تحلل الجملة بتفكيك بنيتها على أساس أنها مؤلفة من طبقات تمثل مكونات الجملة، بعضها أكبر من بعض إلى أن يتم تحليلها إلى عناصرها الأولية

¹ - سعيد البحري، مناهج علم اللغة من هارمان باول حتى ناعوم تشومسكي، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة - مصر، ط1: 2004، ص 209.

² - ينظر: ماري آن بافو وجورج إلينا سرفاتي، النظريات اللسانية الكبرى من النحو المقارن إلى الذرائعية، تر: محمد الراضي، توزيع مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت - لبنان، ط1: 2012، ص 244.

³ - سعيد البحري، مناهج علم اللغة من هارمان باول حتى ناعوم تشومسكي، ص 218.

من المورفيمات باعتبارها عناصر صوتية دالة كل منها على وحدة صوتية أصغر تفيد معنى يبرزه التحليل¹، فمحور التحليل التوزيعي القائم أساساً على الوصف هو البنية اللغوية الخطية؛ المتن أو المدونة (copus)، وبالتالي فإن مدار علم اللغة وصفاً وتحليلاً هو عناصر المدونة، وكل ما هو غير لغوي خارج عنها (المعنى مثلاً)، فليس من اختصاص عالم اللغة؛ لأن مكان دراسته المناسب - حسب هذه الرؤية - هو المعرفة غير اللغوية (كالفلسفة مثلاً).

لقد تأكدت على هذا الأساس النظرة البنوية الوصفية في اللسانيات البنوية الأمريكية، مماثلة بذلك ما جاءت به اللسانيات السويسرية، وإن اختلفت عنها في بعض الأمور؛ كتبني الأولى لمبادئ وأفكار علم النفس السلوكي، وتعاملها مع اللغة في شكلها المنطوق؛ أي الكلام، على عكس ما لوحظ على منهجية عمل اللسانيات السويسرية التي اهتمت بالمكتوب وأهملت المنطوق.

فالتأكيد على البعد البنوي الشكلي للغة؛ أي اللغة في صورتها الظاهرة، ودراستها دراسة وصفية آنية هو ما طبع منهجية عمل اللسانيات البنوية (سواء منها الأوروبية أو الأمريكية).

2 - مرحلة اللسانيات التوليدية التحويلية:

فرض السعي نحو مواصلة البحث والعمل على صياغة أو بناء النموذج اللغوي العلمي، الذي يخضع لشروط التجريد العلمي ويمتدح من المعرفة العلمية، قصد الإجابة عن مختلف الأسئلة العالقة التي أغفلتها البنوية، ظهور اللسانيات التوليدية التحويلية التي أرسى دعائمها عالم اللسانيات الأمريكي نوا م تشومسكي (Noam chomsky)، (1928 -)، حيث تجسدت ملامحها الأولى في كتابه: البنى التركيبية (structure syntactic) الذي ألفه سنة 1957 كرد فعل على مبادئ وأفكار المدرسة السلوكية، التي تبناها الكثير من اللسانيين الأمريكيين، وهو حال ليونارد بلومفيلد الذي مثلت مبادئ تلك المدرسة الأسس الإبستمولوجية والمنهجية لمقارنته اللسانية.

لقد أدرك تشومسكي مدى قصور النظرة السلوكية للغة، التي تعاملت مع الإنسان كحيوان أو آلة؛ وذلك من خلال حصرها للعملية اللغوية في ثنائية (المثير، الاستجابة)، مستبعدة بذلك أهم عوامل الإنتاج اللغوي المتمثلة في العقل والقدرة الإبداعية للغة الإنسانية، فمن "مآخذ تشومسكي على اللسانيات البنوية عدم اهتمامها بأهم خاصية من خصائص اللغة وهي الإبداعية، أي قدرة المتحدث - المستمع على إنتاج وتأويل كافة جمل اللسان،

¹ - سعيد البحري، مناهج علم اللغة من هارمان باول حتى ناعوم تشومسكي، ص 219.

ولا شيء غير هذه الجمل التي لا حدود لها، وذلك انطلاقاً من عدد محدود من المقولات والقواعد التي تشكل كفاءة المتحدث – المستمع¹.

إن اعتماد المقاربة اللسانية عند بلومفيلد وأتباعه على مبادئ المدرسة السلوكية، والاقتصار في تحليلها اللغوي على موقع الكلمة من المتن اللغوي، وعلى التوزيع الفنولوجي والمورفولوجي، هو ما عمل تشومسكي على تجاوزه وتحليل البعث اللساني من قيوده، وقيود التصور البنوي – بصفة عامة – الذي توقف في مراعاة شروط التجريد العلمي، عند حدود الوصف والتصنيف.

لقد أراد السير بالبعث اللساني في اتجاه جديد يتجاوز حدود الوصف المحض الذي ميز المقاربة اللسانية البنوية، فقد "رفض تشومسكي المنهج الوصفي معتبراً إياه أسلوباً ميكانيكياً لا شيء فيه سوى الوصف للمادة اللغوية، فلكني يحلل عالم اللسان يجب عليه أن يقترب أكثر من المتكلمين الناطقين بلغتهم، وذلك لسبر القدرة اللغوية الفاعلة التي تمكنه من الكلام، ثم عليه أن يبرهن على صحة نتائجه بدقة وموضوعية"².

ارتكزت نظرية تشومسكي اللغوية على أصول إستيمولوجية علمية حيث انتقلت من العلوم المعرفية الدقيقة (البيولوجيا، الفيزياء، الرياضيات)، وهو ما جعلها تنحو منحى التصور الافتراضي، فقد "حاول تشومسكي منذ نموذج البنات التركيبية أن يسير بالبعث اللساني في هذا الاتجاه العلمي، متجاوزاً حدود الوصف اللساني التصنيفي الذي اعتمده الدرس البنوي القائم أساساً على الملاحظة المباشرة ثم التصنيف"³، فلا بد مع آلية الوصف حضور التفسير العلمي.

لقد نقل تشومسكي البعث اللساني من مجال الوصف وما يقوم عليه إلى مجال الوصف والتفسير معاً، إذ إن الهدف الرئيس من الدراسة اللغوية – حسب رأيه – يكمن في فهم ومعرفة طبيعة اللغة البشرية؛ أي اللغة كظاهرة عقلية، وقد تأثر في ذلك بمبادئ وتصورات الفلاسفة واللغويين العقلانيين لاسيما منهم: الفيلسوف الفرنسي رونييه ديكارت (René descartes) (1596 - 1650)، واللغوي وليام فون همبولدت (wilbem von humboldt) (1767 - 1835).

¹ - جان سيرفوني، الملفوظية - دراسة -، تر: قاسم المقداد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، د/ بلد نشر، ط: 1998، ص 3.

² - ينظر: مصطفى غلفان، اللسانيات التوليدية من النموذج المعياري إلى البرنامج الأدنوي، مفاهيم وأمثلة، عالم الكتب الحديث، إربد - الأردن، ط: 2010، ص 10.

³ - المرجع نفسه، ص 18.

يمثل الجانب الذهني للغة محور بحث النظرية التوليدية التحويلية؛ إذ يجب على البحث اللساني العلمي - حسب تشومسكي - الإحاطة بذلك الجانب وفهمه فهما دقيقا، قصد الإجابة المفسرة لمجموعة من الأسئلة من بينها: ما طبيعة اللغة؟، وكيف يتعلمها الطفل؟، وكيف تتطور القدرة اللغوية؟

تبحث هذه النظرية في اللغة المبنية داخليا و "تعني ... البحث عن صور التمثيل الذهنية التي تقف وراء أداء وإدراك الكلام، وأيضاً القواعد التي تربط هذا التمثيل بأحداث الكلام المادية"¹؛ ليكون ذلك تحولا أو انتقالا إبيستيمولوجيا جديدا؛ فقد "قاد تشومسكي ثورة علمية فعلية نجم عنها بروز أنموذج جديد (New paradigm) للتفكير في اللغة، أفرز مجموعة من الإشكالات يجب أن يعتني بها اللغوي، وضمنها الاهتمام بالجهاز الداخلي الذهني للمتكلمين، عوض الاهتمام بسلوكهم الفعلي"²، فالنظرية التوليدية التحويلية تبحث في الجانب العقلي الخفي من المستوى الظاهر للإنتاج اللغوي، وذلك قصد الوقوف على جزئياته ومعرفة عملياته العقلية التي تسبق عملية الإنتاج، وفهم كيفية اشتغاله وقواعده التي تتحكم فيه وتفسره، وتفسر عملية الاكتساب اللغوي بصفة عامة.

لقد وضع تشومسكي تصوره للنظام الذهني المتعلق بالمعرفة اللغوية، حيث كشف عن أهم المراحل الذهنية التي تمر بها عملية إنتاج اللغة (التي وقف فيها على الجملة)، وذلك من خلال القواعد التوليدية التحويلية التي توضح قدرة وطبيعة اللغة على الخلق والإبداع، ويمكن إبراز طبيعة عمل تلك القواعد من خلال مايلي:³

1- القواعد التوليدية: وهي القواعد التي تتكفل بعملية ضبط كل الجمل التي يحتمل وجودها في اللغة، وتتخذ القاعدة التوليدية شكل قاعدة إعادة الكتابة أي أنها تعيد كتابة رمز يشير إلى عنصر معين من عناصر الكلام، برمز آخر أو بعده رموز أخرى ... فجواز اشتغال الجملة مثلا، على ركن فعلي مؤلف من فعل وفاعل ومفعول به يتمثل بالقاعدة التالية:

ركن فعلي ← فعل + ركن اسمي + ركن اسمي

(فاعل) (مفعول)

¹ - نوم تشومسكي، المعرفة اللغوية طبيعتها وأصولها واستخدامها، تر: محمد فتوح، دار الفكر العربي، مصر، ط1: 1993، ص 104.
² - عبد القادر الفاسي الفهري، اللسانيات واللغة العربية نماذج تركيبية ودلالية، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء - المغرب، ط3: 1993، ص 65.
³ - ميشال زكريا، الألسنية التوليدية والتحويلية وقواعد اللغة العربية، (الجملة البسيطة)، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط2: 1986، ص 13.

إذ يقرأ السهم بوصفه تعليمة تقتضي إعادة كتابة الرمز الواقع إلى اليمين بواسطة الرموز المتتابعة الواقعة إلى اليسار.

2- القواعد التحويلية: وهي القواعد التي تقدم تفسيراً واضحاً عن العلاقة القائمة بين التركيب الذهني العميق (الخفي)، والتركيب السطحي الظاهر. و"يعتمد مفهوم التحويل عندما تفيد أكثر من جملة واحدة المعنى ذاته، بالرغم من تباين تراكيبيها وهذا ما توضحه الجمل الآتية:

1- يبدو أن كلفة الحياة مرتفعة.

2- تبدو كلفة الحياة مرتفعة.

3- كلفة الحياة تبدو مرتفعة.

فالجمل (1) - (3) متحولة عن جملة واحدة موجودة في مستوى البنية العميقة هي التالية:

(4) تبدو مرتفعة كلفة الحياة¹.

والواضح من خلال هذه الأمثلة أن القواعد التحويلية تهتم بالبحث عن التركيب الأصلي (الخفي أو العميق). وتتكون القواعد التوليدية والتحويلية من مكونات ثلاثة هي: المكون التركيبي، المكون الفنولوجي، المكون الدلالي.

إن المنحى الإبستمولوجي العقلي الذي انتحته النظرية التوليدية التحويلية، أين اهتمت انطلاقاً منه بالجانب الذهني للمعرفة اللغوية، هو ما جعل موضوع اللسانيات ينحصر - في إطار هذه النظرية - في وصف وتفسير القدرة اللغوية (أو الملكة اللغوية) للمتكلم - المستمع المثالي، إذ في هذا الصدد يقول تشومسكي: "إن الموضوع الأول للنظرية اللسانية هو المتكلم/ المستمع المثالي المنتمي لعشيرة لغوية متجانسة كلياً والذي يعرف لغته، وعندما يطبق معرفته هذه في إنجاز فعلي فإنه لا يخضع للشروط النحوية غير الملائمة كقصور الذاكرة أو الانتباه أو الأخطاء"². فدراسة ذلك الجانب هو ما يضمن حسب رأيه بلوغ الدقة والصورة العلمية، التي تعد أساس تكوين نظرية لغوية شاملة صالحة للتطبيق على جميع اللغات الطبيعية، وهذا ما يمثل أهم أهداف النظرية التوليدية التحويلية.

¹ - ميشال زكريا، الألسنية التوليدية والتحويلية وقواعد اللغة العربية، ص 14.

² - Noam chomsky, Aspect de la théorie Syntaxique, traduit de L'Anglais par jean claude Milner en 1971, Ed Seuil. Paris, p 12.

ولعل هذا ما يعكس موقفه بشأن أولوية القدرة اللغوية وعدم دراسته للإنجاز ومختلف الأبعاد المتصلة به، كالبعد التواصلية وما يستدعيه من اهتمام بالمعنى، الذي لاطالما ظل غائبا في المراحل الأولى من النظرية التوليدية التحويلية.

لقد أغفل تشومسكي في دراسته الأولى دراسة المعنى وكل ما يتعلق بقضايا الدلالة، حيث أكد على أهمية المستوى التركيبي معتقدا باستقلال النحو عن الدلالة، فالتركيب وحده الكفيل - حسب تشومسكي - بفهم معنى الجمل؛ ولهذا عُدَّ "منذ بداية النحو التوليدي الخاصة المميزة للغة، والمكون الذي يصنع عليها طابعها الإبداعي، ويحظى بأعلى درجات التعقيد والتجريد وكانت الاعتبارات التركيبية أساس صياغة المسائل المركزية، والاكْتساب الفطري والاستدلال عليها، بينما أنيط بالصوت والصرف على أهميتهما أمر ثانوي. وبما أن الدلالة لا يمكن تمييزها من خلال التركيب، فقد تركت للدلالين الصوريين الذين لا يهتمون في أغلبهم بالخاصية الذهنية للغة"¹.

إلا أن التطور الذي عرفته النظرية التوليدية التحويلية، حيث صيغت بموجبه العديد من النماذج التي عملت على تجاوز بعض الآراء وإضافة طروحات جديدة، كان من أبرز العوامل التي أسهمت في دراسة قضايا الدلالة ومناقشتها، وبناء على ذلك أعاد تشومسكي النظر في رأيه؛ حيث عمل على تعديل النظرية بإدخال المكون الدلالي، وهذا ما عدَّ "انطلاقة لمنعطف هام داخل هذه النظرية حيث انقسم اللغويون التوليديون قسمين: لغويين على رأسهم تشومسكي ينادون بمبدأ تأويلية الدلالة شأنها في ذلك شأن القواعد الصوتية، ولغويين (منهم على الخصوص لأكوف وروس وماك كولي) يدافعون عن أطروحة "توليدية الدلالة" التي تميزت بالإضافة إلى جمعها بين التركيب والدلالة برؤيتها الواسعة في تناول قضايا اللغة"².

لقد مكن ذلك ممثليها من إدخال (المكون التداولي) وعدّه أحد المكونات الرئيسة في بنية النحو، إلى جانب المكون التركيبي والمكون الدلالي، "فقد كان مبدأ توليدية الدلالة المعتمد في إطار "الدلالة التوليدية" من الأسباب التي وطأت لإدخال التداول في النحو كعنصر من عناصر البنية مصدر الاشتقاق المصوغة على أساس أنها بنية "دلالية تركيبية تداولية". في هذه البنية تُثَلَّ للمفاهيم التداولية المستعارة إما من فلسفة اللغة العادية كمفهوم القوة

¹ - محمد غاليم، النظرية اللسانية والدلالة العربية والمقارنة، دار طويق للنشر، الدار البيضاء - المغرب، ط1: 2007، ص 15.

² - أحمد المتوكل، اللسانيات الوظيفية (مدخل نظري)، منشورات عكاظ، الرباط، ط: 1989، ص 33.

الإنجازية والاقتضاء أو من نظريتي "النسقية" و"الوجهة الوظيفية للجملة كمفهوم البؤرة"¹، وغير ذلك من المفاهيم التي تصب في مجال الإنجاز والتداول.

لقد كان الجمع بين التركيب والدلالة والتداول ودراسة اللغة من وجهة نظر تداولية؛ أي وفق ما تمليه شروط ومعايير البعد الوظيفي التداولي للغة، وترسيخ المكون التداولي في بنية النحو، سمة لبعض نماذج النظرية التوليدية التحويلية (مثل البراكمانتكس)، دون أن يشمل ذلك النظرية ككل، إذ إن المبالغة في الاهتمام بالبعد الذهني المجرد للغة، وتبني هذه النظرية لقوانين التصور الافتراضي حال دون شمولية الرؤية التداولية للغة، ومن ثمة عدم التركيز على بعدها التداولي وكل ما يرتبط به.

وتتميز النظرية التوليدية بمجموعة من المفاهيم التي توضح وجهة نظر ممثلها اللغوية، ومنهجية عملهم، ولعل أبرز تلك المفاهيم هي:

- الملكة اللغوية (compétence linguistics) والأداء اللغوي (performance):

بين تشومسكي أن للغة جانبان أساسيان يتمثلان في: الملكة أو القدرة اللغوية، والأداء اللغوي أو الإنجاز. أما القدرة اللغوية فهي مجموع القواعد النظرية الذهنية الموجودة في دماغ المتكلم - المستمع، والتي يستطيع من خلالها إنتاج وفهم عدد غير محدود من الجمل التي لم يسمعها من قبل. في حين يمثل الإنجاز ذلك الجانب الأدائي الكلامي، الذي يعكس الاستعمال الفعلي لتلك القواعد اللغوية الضمنية و"معنى ذلك أن اللغة المنطوقة إنما تكمن وراءها عمليات عقلية تختفي وراء الوعي الباطني أحيانا ودراسة الإنجاز (الجانب السطحي) يقدم التفسير الصوتي للغة، أما دراسة القدرة (الجانب الخفي) فيقدم التفسير الدلالي لها."²، ويتأثر الإنجاز بمجموعة من العوامل الخارجة عن إطار القدرة اللغوية وقواعدها، (كالعوامل المقامية، والسيكولوجية، والاجتماعية ..)، مما يؤدي إلى نسبية التطابق بين القدرة اللغوية والإنجاز بين المتكلمين.

- البنية السطحية (surface structure) والبنية العميقة (Deep structure):

تتحلى ثنائية قدرة إنجاز من خلال التصور التشومسكي للجملة، التي تمثل الوحدة اللغوية الأساسية في النظرية التوليدية التحويلية، ويكمن ذلك التصور في التمييز بين قسمين لها: قسم مجرد خفي أطلق عليه

¹ - أحمد المتوكل، اللسانيات الوظيفية (مدخل نظري)، ص 34.

² - عبد الراجحي، النحو العربي والدرس الحديث بحث في المنهج، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، د/ ط، د/ سنة نشر، ص 115.

تشومسكي اسم البنية العميقة، وهي المستوى الضمني للجملة إذ "هي الأساس الذهني المجرد لمعنى معين، يوجد في الذهن ويرتبط بتركيب جملي أصولي يكون هذا الأساس رمزاً لذلك المعنى وتجسيدا له. وهي النواة التي لا بد منها لفهم الجملة ولتحديد معناها الدلالي وإن لم يكن ظاهراً فيها"¹. فهي المرحلة الذهنية لأي إنجاز لغوي. وقسم ظاهر يتمثل في البنية السطحية، وهي المستوى الصوتي - الصرفي (أو الشكلي)، الذي يظهر في أدائنا اللغوي "فهو البنية النهائية المستخدمة في سياق ما في سلسلة أفقية من الكلمات ذات سمات صوتية أو كتابية، وهي لذلك تحتوي على كل المكونات الفنولوجية النظرية التركيبية"²، فهي التحقق اللغوي الصوتي/ أو الكتابي لما نخطط له في أذهاننا.

- النحوية (Gramaticalié) والمقبولية (Acceptabilité) :

يرى تشومسكي أنه لا بد من التفريق بين الجملة النحوية والجملة غير النحوية، إذ إن الجملة النحوية هي الجملة الصحيحة نحويًا؛ أي التي يراعي فيها منتجها قواعد نحو لغته أو نحو أي لغة من اللغات. غير أن النحوية قد لا تكون في بعض الأحيان معياراً لقبول الجملة وذلك لأسباب "... مثل تكرار تطبيق القاعدة وتعتقد البنية الداخلية للجملة، أو لأنها تتجاوز قدرة المتكلم على معالجتها وفهمها أو تذكرها (عامل اختلاف الأعمار) ... وقد تكون الجملة نحوية لكنها غير ذات معنى أو غير مقبولة، ومثالها جملة تشومسكي المشهورة: الأفكار الخضراء التي لا لون لها تنام غضبي. وهذا التنوع والتدرج في المقبولية تتم معالجته في النحو التوليدي تحت مفاهيم الإنجاز، خلافاً للنحوية التي تعد موضوعاً للقدرة اللغوية"³.

لقد سعى تشومسكي من خلال ثنائية (النحوية والمقبولية) إلى صياغة قانون يوضح الكيفية الصحيحة، التي تمكن (المتكلم/ المستمع المثالي) من بناء التراكيب اللغوية النحوية المقبولة، إذ ينص قانون تشومسكي على ضرورة الجمع بين السلامة أو الصحة النحوية والصحة الدلالية.

¹ - خليل أحمد عمارة، في نحو اللغة العربية وتراكيبها منهج وتطبيق، عالم المعرفة، جدة - السعودية، ط1: 1984، ص 58.

² - ينظر: محمود أحمد نخلة، مدخل إلى دراسة الجملة العربية، د/ دار نشر، بيروت، ط: 1988، ص 61.

³ - رشيدة العلوي كمال، النحو التوليدي بعض الأسس النظرية والمنهجية، دار الأمان، الرباط، ط1: 2014، ص 40.

3 - مرحلة اللسانيات الوظيفية التداولية:

أفضى الاختبار اللغوي المتواصل الذي احتك بالنظريات المعرفية والاجتماعية الحديثة، قصد صياغة النموذج اللغوي الأكفى الذي من شأنه دراسة الخطاب اللغوي دراسة دقيقة شاملة لجميع جوانبه؛ تركيباً، ودلالة، وتداولاً، إلى ظهور ما يعرف بالنظريات اللسانية الوظيفية التداولية، التي جعلت من بعد اللغة الوظيفي التواصلية أو التداولي محور بحثها الرئيس، منفتحة من خلاله على مختلف الأنساق والعلاقات الخارجة عن حدود اللغوي.

إذ لم يعد الوصف المحض لبنية اللغة ولا دراسة الملكة اللغوية وتفسيرها، كافيان للإجابة عن مختلف الأسئلة التي تطرح في إطار السعي لبناء خطاب لغوي يوصل، ويؤثر، ويقنع. فقد أصبح الأمر متعلقاً بالملكة التواصلية أو التبليغية، التي تعكس الاستعمال الوظيفي الاجتماعي للغة، وهو ما اهتمت به اللسانيات الوظيفية التداولية وجعلته محور البحث والدراسة.

لقد لوحظ في عصرنا الحديث الذي يمكن أن نطلق عليه: (عصر علم استعمال اللغة)، أن اللغة على اختلاف تجلياتها وأنماطها وأساليبها - الخطابات البشرية التواصلية (لغوية، رمزية، صورية (الصورة، الرسم)) - تداول وتفاعل بشري اجتماعي، فالخطاب منظومة وظيفية؛ أي أنه يقوم بوظائف متعددة أهمها وظيفة التواصل، وبناء على ذلك فإن بنيته تتغير بتغير سياقات مستعملها.

لقد عُد الوعي بذلك مؤشراً لقصور الدراسة اللغوية البنوية وكذا التوليدية التحويلية، إذ إن السعي في كلا النظريتين نحو إحراز العلمية وإخضاع البحث اللساني لمعايير وشروط التجريد العلمي، أثر سلبي على الدرس اللساني الغربي، حيث انحصر موضوعه في الجانب اللغوي الشكلي والمجرد مما حدا إلى إغفال أو عدم دراسة الجانب الاستعمالي للغة؛ أي الكلام.

قاد هذا الوضع إلى ظهور النظرة الوظيفية التداولية للغة، التي تقوم على أساس ربط بنية اللغة (الخطاب) بوظيفة التواصل، وذلك ما لم تعمل به اللسانيات البنوية وكذا التوليدية التحويلية؛ فحسب ما يذهب إليه تشومسكي "ليس ثمة ما يثبت أن الوظيفة تحدد البنية ويمكن بالتالي دراسة بنية اللغة دون الانطلاق من وظيفتها كما يمكن للفزيولوجي أن يدرس بنية القلب دون أخذ وظيفته (ضخ الدم) بعين الاعتبار. ويترتب على هذا أن الجوانب الوظيفية للغة تدرس، إذا أريد دراستها، خارج النحو، أي في إطار نظرية الإنجاز"¹، و "لذلك يرى

¹ - أحمد المتوكل، اللسانيات الوظيفية مدخل نظري، ص 53.

ليفنسون أن الأساس الأول في نشوء المنهج التداولي كان بمثابة ردة فعل على معالجة تشومسكي للغة بوصفها شيئاً تجرّيداً، أو قصرها على كونها قدرة ذهنية بحثية، غفلاً عن اعتبار استعمالها ومستعملها ووظائفها"¹.

إن إدراك مستعمل اللغة لعدم جدوى النظريات اللسانية التي تتعامل مع اللغة تعاملًا مجردًا مستقلاً عن ظروف أو سياق إنتاجها، جعله يبحث عن النموذج الناجع الذي يصف ويفسر الملكة التبليغية أو التواصلية (competence communicative)، بدل الملكة اللغوية ويوضح بالإضافة إلى ذلك شروط العملية الإبلاغية.

فقد توجه "الباحثون لدراسة استعمال اللغة في التواصل ضمن إطارها الاجتماعي، مما استدعى دراسة السياق الذي يجري فيه التلفظ بالخطاب اللغوي بدءاً من عناصره، ودور كل عنصر في تشكيل الخطاب وتأويله؛ كذلك دراسة افتراضات المرسل عند إنتاج خطابه ووسائله وأهدافه ومقاصده، أو التنبؤ بها، ومعرفة أنواع السياق مثل السياق النفسي والاجتماعي، ومعرفة تأثير كل منها على إنتاج الخطاب والضوابط لكل ذلك"². وهذا ما تكفلت به النظريات الوظيفية التداولية، التي تقوم على ضرورة مراعاة الوظيفة التواصلية الإبلاغية للغات الطبيعية، وتتعامل مع اللغة باعتبارها وحدات تواصلية مرتبطة بسياق تواصلية معين.

ولعل أهم التحولات التي أحدثها الطرح اللساني الوظيفي التداولي، هو تغيير موضوع اللسانيات؛ حيث تم الانتقال من دراسة القدرة اللغوية إلى دراسة الإنجاز اللغوي أو الحدث الكلامي، ليتم الانفتاح انطلاقاً من ذلك على مختلف العناصر غير اللغوية الخارجة عن صرامة التجريد العلمي، والتي من أهمها (السياق التواصلية، علاقة المتكلم بالمخاطب ..).

لقد كان ذلك بعد رفض النموذج التوليدي التحويلي - كذلك - لدراستها فقد "أبعد أي اعتبار يخص استخدام اللغة ووظيفتها ... فهو يهتم بنظرية الكفاءة أكثر من اهتمامه بنظرية الأداء ... مما يعني أن اللسانيات تحتم بالنواحي العقلية وتبتعد قدر الإمكان عن التلوث بآثار الاستخدام والسياق"³. فقد قاد هذا الأمر إلى بروز العديد من المواقف التي وجهت انتقادها لمنهجية الدراسة اللسانية الحديثة، سواء ما تميزت به اللسانيات البنوية أو التوليديّة التحويلية، أهمها ما ورد عند وليام لايبوف (William labove) (1927 -)، أحد ممثلي تيار

¹ - عبد الهادي بن ظافر الشهري، إستراتيجيات الخطاب، مقارنة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت - لبنان، ط1: 2004، ص 21.

² - ينظر: المرجع نفسه، ص 9.

³ - صلاح الدين صالح حسنين، الدلالة والنحو، مكتبة الآداب، القاهرة، د/ت، ط1، ص 189.

السوسيو لسانيات (Sociolinguistique)، حيث يرى "أن اللسانيات الحقيقية يجب أن تنصب على الكلام في واقعه الاجتماعي حسب ما قامت به كل الدراسات اللسانية الحديثة التي أهملت بشكل متعمد وواضح البحث الاختباري empirique للحدث الكلامي، مثل ما قام به سوسور من تمييز بين دراسة النسق ودراسة التطور التاريخي"¹.

لقد ذهب في خضم ذلك إلى الإقرار بأن "موضوع اللسانيات ليس هو القدرة اللغوية كما يحددها تشومسكي، وإنما هو دراسة البنية اللغوية وتطورها في خضم السياق الاجتماعي الذي تشكله العشيرة اللغوية. إن اللسانيات العامة مهما كان محتواها يجب أن تقوم أولاً على اللغة كما يستعملها المتكلمون الذين يتواصلون بينهم في الحياة اليومية"²، فالاهتمام بالبعد الاجتماعي التداولي للغة من حيث كونها أداة تواصلية تبليغية وتفاعل بشري، يجب التركيز في دراستها على مختلف عناصر وظروف إنتاجها، هو ما عد مطلباً ضرورياً يجب الوقوف عليه، وذلك قصد تمكين مستعمليها من أداء وظيفة التواصل اللغوي بنجاح، من خلال وضع شروط وقوانين التخاطب أو التواصل، وكذا تمكينهم من تحقيق مختلف الأغراض البراغماتية المستهدفة من وراء التعاملات اللغوية، التي تفرضها مختلف التعاملات الاجتماعية اليومية في حياة الإنسان.

ودراسة اللغة على أساس وظيفتها التواصلية الاجتماعية هو ما أكد ديل هايمز (Dell Hymes) (1927 - 2009) كذلك - الذي يرجع إليه الفضل في نقل الدرس اللساني من مرحلة اللسانيات التوليدية إلى مرحلة اللسانيات التبليغية - على أهميته، وهذا ما عبر عنه في مقاله الشهير الصادر سنة (1971) الذي انتقد به تشومسكي قائلاً: "إن نظرية تشومسكي القائمة على الجمل اللغوية المختلفة صحيحة تماماً، إذا كان المقصود منها وصف اللغة ككيان مستقل ... فهي ليست قوالباً وصيغاً وتراكيب مقصودة لذاتها، وإنما هي موجودة للتعبير عن الوظائف المختلفة: كالطلب والترجي والأمر والنهي والدعاء والوصف والتقرير ... وغير ذلك من آلاف الوظائف اللغوية"³.

فحسب ما يذهب إليه هايمز إن ما يجب أن يدرس ويعد موضوعاً للسانيات هو الملكة التبليغية، وليس الملكة اللغوية كما يرى تشومسكي، "وإذا كانت الملكة اللسانية عند تشومسكي تتعلق بالعناصر والبنى اللغوية فقد انتقدها هايمز، لأنها وصف اللغة بمعزل عن حالات استعمالها في الواقع الاجتماعي بحسب مقاصد الأفراد

¹ - مصطفى غلفان، اللسانيات التوليدية من النموذج ما قبل المعيار إلى البرنامج الأدنوي، ص 48.

² - المرجع نفسه.

³ - نايف خرما وعلي حجاج، اللغات الأجنبية؛ تعليمها وتعلمها، المجلس الوطني للثقافة والنشر والفنون والآداب، الكويت، ط: 1988، ص 185.

وحاجاتهم في أحوال التخاطب اليومية المختلفة. وعليه فإن الملكة التبليغية لا تتضمن العناصر والبنى اللسانية التي تمكن الفرد من التعبير السليم فحسب بل تتضمن - إلى جانب ذلك - قواعدها الاجتماعية ومعرفة سياقاتها وطرائق استعمالها بحسب مقتضيات أحوالها¹. على هذا الأساس كان لابد من تأسيس الطرح الوظيفي التداولي، الذي يقوم على ضرورة مراعاة جميع مقتضيات وشروط الاستعمال الاجتماعي البراغماتي للغة؛ أي شروط وأبعاد العملية الإبلاغية (المقام، الخطاب، المتكلم، المتلقي)، والعلاقات التي تربط كل طرف من هذه الأطراف بغيره. وقد تجلّى ذلك الطرح في عدة اتجاهات منها: اللسانيات الاجتماعية، النظريات الوظيفية، النحو الوظيفي، اللسانيات التداولية، تحليل الخطاب.

لقد كان ظهور الطرح الوظيفي التداولي الذي عد تطويراً للدرس اللساني الغربي، وانتقالاً إبستمولوجياً جديداً أحد أبرز العوامل الرئيسة التي صُنفت على إثرها مختلف النظريات اللسانية الغربية إلى صنفين: أ/ نظريات لسانية وظيفية.

ب/ نظريات لسانية غير وظيفية.

لقد أسس لهذا التصنيف أحمد المتوكل الذي وضع بناءً على معيار الوظيفية أبرز الخصائص، التي تتميز بها النظريات الوظيفية بالمقارنة مع النظريات غير الوظيفية، ويمكن توضيح ذلك في النقاط التالية:²

أ - تعد النظريات غير الوظيفية اللغة نسقاً مجرداً (أو مجموعة من الجمل المجردة) يؤدي وظائف متعددة أهمها وظيفة "التعبير عن الفكر"، في حين أن النظريات الوظيفية تعد اللغة وسيلة للتواصل الاجتماعي، أي نسقاً رمزياً يؤدي مجموعة من الوظائف أهمها وظيفة التواصل.

ب - ترى النظريات الوظيفية أن بنية اللغات الطبيعية لا يمكن أن ترصد خصائصها إلا إذا ربطت هذه البنية بوظيفة التواصل، وذلك على عكس ما تعمل به النظريات غير الوظيفية التي ترى أنه من السائع وصف خصائص العبارات بمعزل تام عن سياقات استعمالها.

ج - تعد "قدرة" المتكلم - السامع، عند غير الوظيفيين معرفة للقواعد اللغوية الصرف (القواعد التركيبية والدلالية والصوتية). أما القدرة عند الوظيفيين فهي "قدرة تواصلية" تشمل القواعد التركيبية والدلالية والصوتية والتداولية، وهي القدرة التي تمكن المتكلم من تحقيق أغراض تواصلية معينة بواسطة اللغة. ومن أهم الاتجاهات الوظيفية هي:

¹ - حافظ إسماعيلي علوي، التداوليات علم استعمال اللغة، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد - الأردن، ط2: 2014، ص 28.

² - أحمد المتوكل، اللسانيات الوظيفية مدخل نظري، ص 12 و13.

أ - حلقة براغ:

ترجع العديد من الدراسات بدايات البحث اللساني الوظيفي إلى الأعمال التي قدمها لغويو هذه الحلقة التي اتسمت بمزجها بين البنية والوظيفية، حيث استطاعت في إطار ذلك تقديم رؤية إستيمولوجية جديدة تقوم على دراسة اللغة دراسة وصفية وظيفية شاملة لجميع أجزائها، و"تلخص الفكرة العامة المؤسسة لتفكير هذه الحلقة في أن بنية اللغات تتحدد بوظائفها المميزة لها، وهكذا ينبغي القول ... بأن المقاربة اللسانية لحلقة براغ هي مقارنة "بنوية وظيفية"؛ فالوظيفية هم بنيويون بالقدر الذي يكون فيه موضوع بحثهم هو اللغة بوصفها نسقا، وبعبارة أخرى، فهم يضيفون بعدا آخر، وهو البعد المتضمن في لفظ "وظيفي" الذي احتفظت به التصنيفات التاريخية وإلى جانب سؤال النسق والبنية يضيفون سؤالا آخر يخص الوظائف والمهام"¹.

لقد حرص لغويو براغ على توضيح البعد الوظيفي للغة سواء في صورتها الجزئية باعتبارها مستويات مختلفة، حيث يتضمن كل مستوى أجزاء وعناصر؛ كدراساتهم الصوتية الوظيفية التي أبرزوا من خلالها الوظيفة التمييزية للفونيم، أو في صورتها الكلية باعتبارها بنية أو نسقا واحدا مستعملا في إطار مجتمع لغوي معين؛ إذ يعد ذلك النسق أداة التواصل الرئيسة التي يستخدمها الأفراد للتفاهم فيما بينهم، فقد "كانوا ينظرون إلى اللغة كما ينظر المرء إلى محرك محالوا أن يفهم الوظائف التي تؤديها أجزاؤه المختلفة وكيف تحدد طبيعة جزء معين طبيعة الأجزاء الأخرى"². ويمكن توضيح التصور الوظيفي لحلقة براغ من خلال ما قدمه بعض لغوييها من بينهم:

1/ فيلام ماتيسوس:

يستند تحليل التركيب في حلقة براغ على منظور الجملة الوظيفي، الذي اعتمده فيلام ماتيسوس في دراسته التطبيقية على اللغة التشيكية والإنجليزية وبعض اللغات الأوروبية. وقد تم التفريق على أساس هذا المنظور بين تحليل الجملة الوظيفي، الذي يركز على معيار ربط بنيتها بالسياق، (أو الموقف الكلامي)؛ أي (الجملة في إطار تواصل معين)، وبين التحليل البنوي الشكلي المحض.

¹ - ماري آن بافو وجورج إلبي سرفاتي، النظريات اللسانية الكبرى من النحو المقارن إلى الذرائعية، تر: محمد الراضي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت - لبنان، ط1: 2012، ص 192.

² - جفري سامسون، مدارس اللسانيات التساق والتطور، تر: محمد زياد كبة، جامعة الملك سعود، د/ ط، ص 106.

وتكمن وظيفية هذا التصور في احتواء الجملة من خلال تحليلها الوظيفي لعنصرين أساسيين هما:¹
أ - نقطة ابتداء الكلام: (موضوع الكلام): أي ما يكون في الموقف الكلامي الراهن معلوماً أو على أبعد حد بادياً للعيان وينطلق منه المتكلم.

ب - نواة الكلام (محمول الكلام): وهو ما يخبر به عن موضوع أو نقطة ابتداء الكلام.

يعد التقسيم الوظيفي للجملة تقسيماً ثنائياً لها إلى ما يعتبر فيها في الموقف الكلامي الراهن موضوعاً للكلام، وإلى ما يخبر به عن الموضوع وهو محمول الكلام. والموضوع (المسند إليه) هو ذلك الذي يعبر عن معلوم بالنسبة للسامع وهو ما ينطلق منه المتكلم.

أما المحمول فهو ذلك الجزء من الجملة، الذي يتم لدى الإخبار به عن الموضوع، التعبير عن شيء جديد بالنسبة للسامع، وأساس "تحليل الجملة وفق هذا المنظور هو مضمونها الإخباري إذ إن كل عنصر أساسي في الجملة له مساهمة أو دور دلالي وذلك بحسب الفعالية التي يقوم بها في عملية الاتصال"².

إن أغلب الجمل التي تنتجها إنما نروم من ورائها تبليغ معلومة ما إلى المتلقي، والأكد أنها ليست معلومات عشوائية، ذلك إننا نتحكم في صياغة تلك الجمل؛ إذ لا تكون وفقاً لما يريد المتلقي أن يعلمه فقط، بل قد تكون أيضاً تبعاً لما سبق وأن علم به، أو وفقاً لموقف وظروف إنتاج الكلام.

وقد قام دانيش بتطوير أفكار ماتيسوس حيث اقترح مقارنة للجملة تميز بين ثلاثة مستويات؛ مستوى دلالي، ومستوى نحوي، ومستوى وظيفي.

2/ رومان جاكبسون:

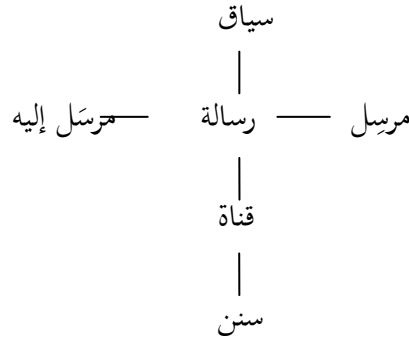
استأثر الحديث عن وظيفة اللغة التواصلية بعدّها الوظيفة الاجتماعية الرئيسة، التي تضمن التبليغ والتفاهم بين أفراد المجتمع، باهتمام العديد من لغويي براغ أبرزهم: رومان جاكبسون الذي قدم في خضم حديثه عن اللغة والتواصل باعتباره آلية أو عملية منظمة، طرحاً علمياً جديداً كشف من خلاله عن أهم العناصر الضرورية التي تشترك في عملية التواصل، وتضمن نجاحه واستمراره، وهي: المرسل، المرسل إليه، الرسالة، السياق أو المرجع،

¹ - ينظر: جعفر دك الباب، الموجز في شرح دلائل الإعجاز في علم المعاني، نظرية الإمام الجرجاني اللغوية وموقعها في علم اللغة العام الحديث، مطبعة الجليل، دمشق، ط: 1980، ص 118.

² - المرجع نفسه.

النسق أو الشيفرة أو السنن، والقناة (اتصال).

وقد تم توضيح العلاقة بين هذه العناصر على الشكل التالي¹:



لقد تجاوز جاكبسون مبدأ دراسة اللغة في حدود البنية بعدّها نظاماً مغلقاً على ذاته، يجب عزله عن مختلف العناصر والمؤثرات غير اللغوية؛ إذ تقوم مقارنة جاكبسون على ضرورة دراسة البنية دراسة وظيفية من خلال الانفتاح على تلك العناصر، وأهمها المرجع (أو السياق التواصلية) الذي أقصاه فردينان دي سوسير؛ إذ تعد اللغة عند جاكبسون تواصلاً اجتماعياً يجمع بين مرسل ومرسل إليه، ولذلك يجب الاهتمام في دراسة الخطابات بما هو لغوي وغير لغوي.

واستناداً للدور الذي يؤديه كل عنصر من عناصر التواصل، يبين جاكبسون أن للغة وظائف أخرى تتفرع عن وظيفة التواصل باعتبارها الوظيفة الأصل. وهي ست وظائف لغوية تتمثل في:²

- 1 - الوظيفة الانفعالية: هي الوظيفة التي تعكس الموقف الشخصي للمرسل إزاء الموضوع الذي يتحدث عنه الرسالة، ويتبدى هذا الموقف في بعض العلامات الدالة على الحالة الانفعالية أو النفسية بشكل عام.
- 2 - الوظيفة الإفهامية: وهي الوظيفة التي تتعلق بالمرسل إليه.
- 3 - الوظيفة المرجعية: تتعلق هذه الوظيفة بالسياق الذي أُنجز فيه الخطاب.
- 4 - الوظيفة الانتباهية: يتجلى دور هذه الوظيفة في الحرص الشديد لدى المرسل والمرسل إليه معاً على إقامة التواصل، وتمديده ومراقبته أثناء التخاطب.
- 5 - الوظيفة الميثا لسانية: وتتجلى عندما يتمركز الأمر حول لغة الرسالة نفسها كشرح بعض الكلمات والمفاهيم،

¹ - ينظر: رومان جاكبسون، قضايا الشعرية، تر: محمد الولي ومبارك حنون، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء - المغرب، ط1: 1988، ص 27.

² - ينظر: أحمد حساني، مباحث في اللسانيات (مبحث صوتي، مبحث دلالي مبحث تركيب)، منشورات كلية الدراسات الإسلامية العربية، الإمارات العربية المتحدة، ط2: 2013، ص 73، و74، و75.

أثناء الحوار بين المرسل والمرسل إليه.

6 - الوظيفة الشعرية: تتعلق بشعرية الرسالة، بالأدوات التي تجعل من خطاب ما خطاباً أدبياً.

يرى جاكسون أن نسبة حضور هذه الوظائف تختلف بحسب نوعية الخطاب، إذ يمكن أن تهيمن وظيفة ما على بقية الوظائف الأخرى، وذلك يرجع إلى النوع الذي ينتمي إليه الخطاب، وهذا ما نجده - مثلاً - في الخطاب الأدبي الذي تهيمن عليه الوظيفة الأدبية (أو الشعرية).

3 - أندري مارتيني:

تميزت أعمال أندري مارتيني اللسانية بطابعها الوظيفي الذي استطاع الكشف عن ماهية البعد الوظيفي للغة، وأبرز أهميته في البحث اللغوي، والحاجة إليه لفهم نظام اللغة وكيفية اشتغالها.

فقد انطلق من منهجية واضحة أساسها وظيفة اللغة التواصلية، حيث أكد في كتاب *Elements de la linguistique General* "أن الوظيفة المركزية للغة هي التواصل بين أفراد المجتمع اللغوي وهي وظيفة إنسانية تؤديها اللغة بوصفها مؤسسة إنسانية، وذلك على الرغم من اختلاف بنيتها من مجتمع لغوي إلى آخر"¹. وليس تأكيداً على أهمية الوظيفة التواصلية نفياً لبقية الوظائف الأخرى التي تؤديها اللغة، فقد "ركز على الوظيفة الأشمل، وهي التي تركز على التبادل بين أطراف التواصل وليس على عنصر واحد في سيرورة التواصل، وهو يميز بين نوعين من الورد*، الورد المميز أي ورود الفونيمات، والورد الدال أي ورود الوحدات الدالة وهذا مفهوم جديد على اللسانيات قدمه في إطار مفهوم التمثيل المزدوج"²، الذي جعله من أهم السمات المميزة للغات البشرية.

4 - إميل بنفنست:

استطاع إميل بنفنست تغيير نمطية التفكير اللساني وبحوثه، التي ظلت من خلال الفصل أو التمييز السوسيري الصارم، بين لسانيات اللغة ولسانيات الكلام تتحرك في إطار ما يفرضه المجال الأول؛ أي لسانيات اللغة التي اختزلت عمل اللسانيين في ضرورة دراسة اللغة وتحليلها بعدّها نظاماً أو بنية صورية، وهو ما أفضى إلى إقصاء الكلام وظروف إنتاجه وبالتالي عدم دراسة وقائعه.

¹ - أحمد حساني، مباحث في اللسانيات مبحث صوتي مبحث دلالي مبحث تركيب، ص 57.

* - المقصود بالورد هنا: "الورد التواصلية، و"يشكل الورد التواصلية بالنسبة لمارتينيه وجهة نظر حول الموضوع وطريقة لفهمه، ويعتبر وارداً، من الناحية التواصلية، كل موضوع (بنية صورية، وحدة) تكون وظيفته تقديم معلومة".

- ينظر: ماري آن بافو وجورج إليا سرفاتي، النظريات اللسانية الكبرى من النحو المقارن إلى الذرائعية، ص 222.

² - ينظر: المرجع نفسه، ص 223.

انتقد بنفست ذلك مؤكداً على أهمية دراسة الكلام، كما ساهم في بناء لسانيات الكلام وتعميقها من خلال بحثه في التلفظ، الذي عرفه بأنه: "إجراء اللغة بمقتضى فعل فردي في الاستعمال"¹؛ إذ "إن التلفظ من الناحية المبدئية هو مجموعة من الظواهر المشاهدة عندما نبدأ في الحديث، وضمن فعل تواصل معين، فينبغي أن يكون للفرد ملكة لغوية يقوم بتسخيرها انطلاقاً من تداولاته وإلا بقيت تلك الملكة في مواطن الاملفوظ"²، فقد ركز بنفست على اللغة باعتبارها إنجازاً، وليست ملكة أو كفاءة فطرية مخزنة في ذهن مستعمل اللغة.

لقد اهتم بالكلام باعتباره نشاطاً أو استعمالاً حيويًا للغة، يجب التركيز في دراسته على المتكلم بعده صاحب ذلك النشاط، وعلاقته بالمخاطب، وكذا السياق التواصلي الذي تتم فيه عملية التلفظ. ويعد البحث في التلفظ من أهم الاتجاهات اللسانية البارزة التي عملت على تجاوز لسانيات اللغة ونقدها، وتوطيد دراسة الكلام، حيث جمع البحث في التلفظ العديد من اللغويين الذين عرفت أعمالهم باسم: اللسانيات التلفظية أو نظرية التلفظ، التي رسخت البعد الاجتماعي للغة؛ إذ اللغة في إطار هذه النظرية إنتاج كلامي يجمع بين طرفين في إطار مقام تواصل معين.

ب - نظرية النحو النسقي:

مثلت الأفكار التي قدمها عالم اللغة الإنجليزي جون فيرث (John Firth) (1890 - 1960) الأرضية التي انطلقت منها أعمال هذه النظرية، التي عد فيها التركيز على الجانب الاجتماعي للغة بدل الجانب التجريدي الذهني، من أهم الأسس المعرفية التي ميزت البحث اللساني داخلها. فقد أكد فيرث على أهمية المكون الاجتماعي للغة، إذ يجب دراستها "بوصفها جزءاً من المسار الاجتماعي أي شكلاً من أشكال الحياة الإنسانية وليس بوصفها مجموعة من العلامات الاعتبارية والإشارات"³، كما يرى دي سوسير، "وهو يختلف معه أيضاً في تفرقه بين اللغة والكلام"، إذ يرى فيرث أن القول بذلك يقتضي القول بثنائية الإنسان نفسه، لأنه إن يكن مكوناً من جسد وروح فمن غير الممكن فصل أي منهما عن الآخر، وكذلك لغته"⁴، ونحن لا نرى أن تلك الثنائية فصلاً بقدر ما كان توضيحاً علمياً لطبيعة لغة البشر.

¹ - Emile Benveniste, problemes de linguistique generale, T2, Gallimard, paris, p80.

² - ذهنية هو الحاج، لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، ص 94.

³ - كمال بشر، التفكير اللغوي بين القدم والجديد، مكتبة الشباب، القاهرة، د/ ت، ص 132.

⁴ - أحمد فهد صالح شاهين، النظرية التداولية وأثرها في الدراسات النحوية المعاصرة، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد - الأردن، ط1: 2015، ص 92.

لقد سعى فيرث إلى دراسة اللغة في إطار سياقها الاجتماعي أو سياق الحال، متأثراً في ذلك بما جاء به عالم الأنثروبولوجيا البولندي (برونسلاف مالينوفسكي)، الذي ربط بين معنى الجملة، وبين السياق الذي ترد فيه من خلال تجربته العملية في جزر "التروبرياندا"، وذلك ما تبناه فيرث وأعاد صياغته في نظرية جديدة أطلق عليها نظرية سياق الحال.

فوظيفة اللغة الاجتماعية التواصلية التي تعد بموجبها نشاطاً واستعمالاً تبليغياً، يفرض حسب فيرث ضرورة جعل سياق الحال من أهم المعايير التي يجب أن تراعى في وصف اللغة، وعلى هذا الأساس يعد إبعاده إخلالاً لكلية اللغة ومن ثمة لشمولية الدراسة اللغوية. إذ "يتفق فيرث مع مالينوفسكي في أن وصف اللغة لا يكتمل ما لم يكن معتمداً على السياق المقامي الذي يرد فيه الخطاب، لأنهما كانا يعتقدان أن الدلالة الحقيقية للأشكال اللغوية لا تتحقق إلا في السياق الذي يحتويها"¹، فدراسة التركيب اللغوي في إطار هذا التصور يجب أن يكون مرتبطاً بظروفه السياقية التواصلية التي ينتمي إليها.

عمل فيرث جاهداً على وضع نظرية لغوية تهتم بدراسة الجانب الدلالي للغة الطبيعية، إذ من شأنها توضيح معنى الخطاب اللغوي المنجز في سياق مقامي معين، حيث يرى "أن اللغة نشاط يمارسه أفراد المجتمع اللغوي في سياق ثقافي معين، لذلك انصرفت جهوده إلى وضع أرضية معرفية لتأسيس نظرية دلالية تركز على السياق في إيجاد التفسير الكافي للتركيبات، والخطابات اللغوية التي ينجزها المتكلم في إطار التواصل بين أفراد المجتمع اللغوي الذي ينتمي إليه، فالمعنى في نظر فيرث هو الوظيفة في السياق"²، ولذلك فإن فهم معنى الخطاب حسب رأيه يركز على ضرورة العودة إلى سياقه الاجتماعي والثقافي الذي أنتج فيه، ومعرفة ما يحمله من خصائص وأبعاد تنعكس على الخطاب وتساهم في تشكيل دلالاته.

لقد تبنى الاهتمام بالبعد الاجتماعي للغة مجموعة من اللغويين بعد فيرث أطلق عليهم اسم الفرثيين الجدد، أبرزهم: هاليداي (Michael Halliday) (1925 - 2018) الذي تبنى وجهة نظر فيرث القائمة على أساس الربط بين معنى الخطاب وسياقه الاجتماعي والثقافي، وعمل على تطويرها في إطار لساني وظيفي جديد يقوم على الاهتمام بوظائف اللغة التي جعلها ثلاث وظائف هي:³

¹ - فرانك بالمر، مدخل إلى علم الدلالة، تر: محمود خالد جمعة، مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع، الكويت، ط1: 1997، ص 102.

² - روبنز، موجز تاريخ علم اللغة (في الغرب)، تر: أحمد عوض، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ط: 1997، ص 349.

³ - محمود أحمد نخلة، علم اللغة النظامي، مدخل إلى النظرية اللغوية عند هاليداي، ص 53.

- الوظيفة الفكرية **Ideational function**: وتتمثل في التعبير عن المحتوى؛ أي خبرة المتكلم بعالم الواقع بما فيه العالم الداخلي.

- الوظيفة التبادلية **Interpersonal function**: وهي الوظيفة التي تؤسس العلاقات الاجتماعية وتحافظ عليها، من خلال ابتكارها أدوارا اجتماعية تشمل أدوار الاتصال كالسائل والمجيب مثلا، ثم من خلال تبادل الخيرات والمنافع بين شخص وآخر.

- الوظيفة النصية **textual function**: وهي التي تجعل المتكلم قادرا على بناء النصوص، أو الربط بين أجزاء الخطاب الواحد بما تقدمه له من وسائل الربط وخصائص السياق الذي تستخدم اللغة فيه، وهي التي تجعل السامع أو القارئ يميز نصا من مجموعة عشوائية من الجمل.

ويبدو أن رؤية هاليداي للغة من خلال هذه الوظائف مبنية على أساس حضور وتفاعل جميع أطراف العملية التبليغية: (المتكلم/ المتلقي/ السياق اللغوي/ المقام التواصلية)؛ إذ لا بد من مراعاة خصائص كل عنصر وما يستدعيه الاستعمال التواصلية الاجتماعي للغة، من علاقات متبادلة بين تلك الأطراف، ليؤدي ذلك إلى حتمية الجمع بين ما هو لغوي وغير لغوي.

وترتكز نظرية النحو النسقي (أو النحو النظامي كما يطلق عليها البعض) على ثلاثة مفاهيم أساسية هي:¹

- مفهوم الوظيفة: وهو ما يجسده تصور هاليداي لوظائف اللغة الثلاث السالفة الذكر.

- مفهوم النسق: ففي إطار هذه النظرية يتألف النسق العام لكل لغة من اللغات الطبيعية، من ثلاثة أنساق هي: (نسق التعدية، نسق الصيغة، نسق المحور)، حيث يتطابق النسق الأول مع الوظيفة الفكرية، أما نسق الصيغة والمحور فيرتبطان بالوظيفة التبادلية والوظيفة النصية على التوالي.

- مفهوم البنية: يمكن توضيح مفهوم البنية حسب تصور هاليداي من خلال ما يلي:

- يرتبط النحو بنظرية عامة للسلوك الاجتماعي، أو التفاعل البشري داخل المجتمعات، مع الاحتفاظ باستقلاله.

- ويتضمن السلوك الاجتماعي مجموعة من الأنشطة اللغوية، تلخص في أنشطة ثلاثة، وهي ما توضحها وظائف اللغة الثلاث.

- يتألف النحو من ثلاثة أنساق، تعتبر وسائل لتأدية الوظائف الثلاثة، تتحقق جميعها في بنية واحدة، كما تمثله

¹ - ينظر: أحمد المتوكل، اللسانيات الوظيفية مدخل نظري، ص 111، و 114، و 115.

الترسيمة الموالية:

نسق اجتماعي

وظائف ⇐ نسق لغوي

أنساق ⇐ بنية نحوية

فالبعد السوسiolوحي للغة وما يتداخل معه من أنساق أخرى تفرضها عملية التبليغ، هو ما يساهم في تشكيل بنية النحو شكلا ودلالة.

ج - نظرية البراكمانتاكس:

تنضوي بحوث هذه النظرية ضمن النموذج التوليدي التحويلي المتمثل في الدلالة التوليدية، الذي أكد ممثلوه ومن بينهم: شارل فيلمور (charles fillmor) (1929 - 2014)، وجون روس (john Ross) (1938 -)، وجورج ماكولي (Gorge macauley) () وجورج لاکوف (George lakoff) (1941 -)، على أهمية الدلالة في التحليل التركيبي؛ إذ يستحيل حسب رأيهم استقلال التركيب عن الدلالة في أي لغة من اللغات الطبيعية.

وتعمل نظرية البراكمانتاكس بمقتضى مبادئ النموذج الدلالي التوليدي، التي من بينها:¹

أ - عدم استقلال التركيب عن الدلالة.

ب - الطبيعة الدلالية للبنية مصدر الاشتقاق.

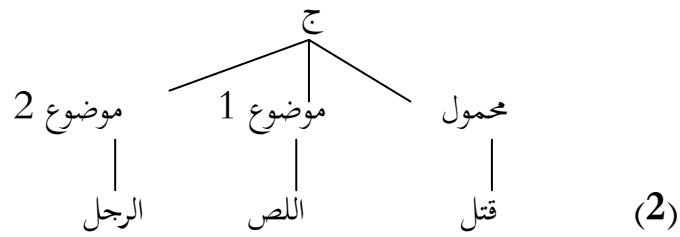
إذ "تشكل مصدرا للاشتقاق الجملة بنية منطقية دلالية مصوغة طبقا لـ "منطق المحمولات" تتضمن محمولا (فعليا أو اسميا أو صفيا ...) يربط بين عدد معين من الموضوعات"².

وعلى هذا الأساس تكون البنية مصدر اشتقاق الجملة (1) هي البنية (2):

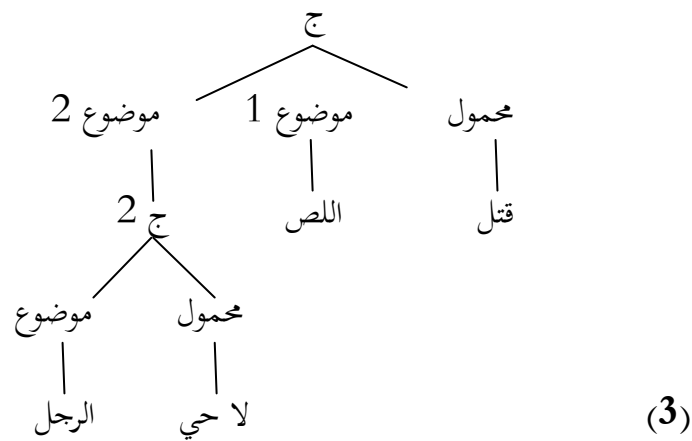
(1) قتل اللص الرجل.

¹ - أحمد المتوكل، اللسانيات الوظيفية مدخل نظري، ص 93.

² - المصدر نفسه.



ففي إطار هذا النموذج تعد المحمولات وحدات معجمية مركبة يتعين التمثيل لها في شكل وحدات دلالية "أولى" وإذا انطلقنا من ذلك فإن البنية مصدر اشتقاق الجملة (1) هي البنية (3) وليست البنية (2).



بناءً على ذلك تم تفسير عدم "تضمن النحو في نموذج الدلالة التوليدية" للمكون الدلالي "بخلاف ما هو موجود في النماذج التوليدية ذات الطابع التأويلي، بأن الخصائص الدلالية للجملة إنما مثل لها بدءاً في البنية المنطقية مصدر الاشتقاق، وقد عدت هذه البنية - كذلك - المستوى الملائم للتمثيل للخصائص التداولية مما أسهم في إغنائها منذ أوائل السبعينات بمفاهيم تداولية مقترضة معظمها من فلسفة اللغة العادية كمفهوم "الفعل اللغوي" و"القوة الإنجازية، والاقتضاء، والبؤرة"¹. وقد استطاعت نظرية البراكمانتاكس تجاوز التصور التجريدي الذهني (المادي) للغة الذي طبع النظرية التوليدية التحويلية، وذلك من خلال الانتقال من دراسة البعد الذهني المجرد إلى دراسة البعد الوظيفي التداولي للغة، وما ترتب على إثر ذلك من ضرورة الجمع بين المكون التركيبي والمكون الدلالي والمكون التداولي في بنية النحو.

نتبين مما سبق أن هذه النظريات التي تم تصنيفها في زمرة النظريات اللسانية الوظيفية، إنما هي في واقع الأمر نظريات وظيفية تنتمي إلى اللسانيات البنوية (كحلقة براغ ونظرية النحو النسقي)، أو إلى التوليدية التحويلية وذلك

¹ - أحمد المتوكل، اللسانيات الوظيفية مدخل نظري، ص 96.

(كنظرية البراكمتاكس وغيرها). وذلك ما عملت على تجاوزه نظرية النحو الوظيفي التي شكلت رؤيتها ومنهجيتها الوظيفية بمعزل عن البنية والتوليدية التحويلية.

ثانيا: نظرية النحو الوظيفي (الافتراضات النظرية والمبادئ المنهجية):

تمهيد:

تجلى الطرح اللساني الوظيفي التداولي الممثل في إطار نظرية النحو الوظيفي في أواخر السبعينات من أواخر القرن الماضي، وذلك انطلاقا من الدراسات والبحوث اللسانية التي قدمها مجموعة من الباحثين بقيادة اللساني الهولندي: سيمون ديك (simon dick) (1940 -). حيث وضع هذا الأخير في كتابه الأول (fonctionnel grammar) (النحو الوظيفي)، الذي تم نشره سنة 1978 أهم الافتراضات النظرية والمبادئ المنهجية التي تعمل بمقتضاها هذه النظرية، وتوضح كيفية اشتغالها وتعاملها مع اللغات الطبيعية.

لقد عيّنت نظرية النحو الوظيفي - في الواقع - بدراسة اللغة في صورتها الدينامية الإنجازية؛ أي من حيث هي حدث كلامي تبليغي، وممارسة اجتماعية براغماتية تقتضي وجود متكلم يعد محور الإنجاز الكلامي ومخاطب يوجه إليه الكلام، وسياق تواصلية تتم فيه العملية التبليغية. فليست اللغة من منظور هذه النظرية مجرد نسق من العلامات أو بنية ذهنية مجردة؛ إذ تركز منهجية عملها على معيار الوظيفية، و"مؤداه أن وظيفة اللغات الطبيعية هي إتاحة التواصل، وأن هذه الوظيفة تحدد البنية، بمعنى أن اللغة بنية وأداة، وأن البنية تابعة للوظيفة"¹.

لقد استندت هذه النظرية في بناء رؤيتها للغة وكيفية دراستها لها على أصول إبستمولوجية متعددة؛ إذ إن ما تنوّل في إطار هذه النظرية إنما هي نتيجة لتفاعل طروحات معرفية مختلفة، ولعل أهمها على الإطلاق ما قدمته: فلسفة اللغة العادية، واللسانيات السوسiolوجية، نظريات التواصل، والتداولية أو اللسانيات التداولية التي تمثل ذروة البحث اللساني الوظيفي التداولي الحديث.

وتشترك هذه الاتجاهات - رغم اختلافها - في تغييرها لوجهة البحث اللساني الغربي من لسانيات اللغة إلى لسانيات الكلام، إذ اهتمت جميعها باللغة بعدّها إنجازا كلاميا، وتخطبا واستعمالا، وهو ما تبنته نظرية النحو الوظيفي وعملت به وسعت لتطويره.

¹ - حافظ إسماعيلي علوي، التداوليات علم استعمال اللغة، ص 524.

تميزت المقاربة اللسانية لهذه النظرية بدراستها للغة دراسة شاملة لجميع جوانبها (تركيبا، ودلالة، ومعجما، وتداولاً). وتطمح نظرية النحو الوظيفي لأن تكون نظرية ذات مستوى عال من الدقة والصورنة العلمية، ومقياسها في ذلك كفاية نماذجها، وصلاحياتها للتطبيق على جميع اللغات الطبيعية رغم اختلاف أنماطها.

فالغاية، إذن، تجاوز النظريات اللسانية التي أثبتت عدم كفاية وفعالية برنامجها اللساني، وإقامة مقارنة لسانية جديدة لعل من أهم أهدافها الرئيسة: دراسة الخطاب اللغوي بمختلف أنواعه دراسة وظيفية تداولية. ينبغي من خلالها مراعاة ظروف الإنتاج وجميع العناصر المشاركة وذلك سواء على مستوى الإنتاج أو التأويل.

وقد أفضت جدة الطرح الذي قدمته نظرية النحو الوظيفي وشمولية منهجيتها في دراسة الخطاب إلى اتساع مجال انتشارها، حيث "انتقلت من مسقط رأسها بهولندا إلى أقطار أخرى كبلجيكا، وإسبانيا، وإنجلترا، كما دخلت العالم العربي وذلك عبر بوابة المملكة المغربية بجامعة محمد الخامس بالرباط، على يد الباحث أحمد المتوكل، لتنتقل إلى غيرها من الجامعات المغاربية، لترسم طريقا إلى بقية البلاد العربية كالجائر، وتونس، وسوريا، والعراق"¹، فقد تحولت هذه النظرية من مجال النظريات اللسانية الغربية إلى مجال النظريات اللسانية العالمية.

1 - مبادئ وأسس نظرية النحو الوظيفي:

ترتكز المقاربة اللسانية الوظيفية في نظرية النحو الوظيفي على مجموعة من المبادئ المنهجية التي توضح كيفية عملها، ورؤيتها للغة والتعامل معها. وهي في الواقع مبادئ تتعلق باستعمال اللغة؛ أي اللغة في بُعدها التواصلية الاجتماعية؛ إذ توضح تلك المبادئ ماهية العلاقة بين أطراف العملية التبليغية (اللغة (الخطاب)، المتكلم، المخاطب، السياق)، وماهية هذه الأطراف، أي اللغة بتجلياتها المختلفة (جملة، نص، خطاب) بعدها أداة التواصل الرئيسة لدى مستعملي اللغة (المتكلم / المخاطب)، والسياق التواصلية باعتباره مركز أو مجال الاستعمال اللغوي التبليغي.

وأهم تلك المبادئ هي:²

- 1 - وظيفة اللغات الطبيعية الأساس هي التواصل.
- 2 - موضوع الدرس اللساني هو وصف القدرة التواصلية للمتكلم - المخاطب.

¹ - أحمد المتوكل، المنحى الوظيفي في الفكر اللغوي العربي الأصول والامتداد، دار الأمان، الرباط، ط1: 2006، ص 59 - 63.

² - أحمد المتوكل، دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفية، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، ط1: 1986، ص 26.

3 - النحو الوظيفي نظرية للتركيب والدلالة منظور إليها من وجهة نظر تداولية.

4 - يجب أن يسعى الوصف اللغوي الطامح إلى تحقيق أنواع ثلاثة من الكفاية

أ - الكفاية النفسية (L' adéquation psychologique).

ب - الكفاية التداولية (L' adéquation pragmatique).

ج - الكفاية النمطية (L' adéquation typologique).

- المبدأ الأول: وظيفة اللغات الطبيعية الأساس هي التواصل.

تمثل وظيفة التواصل الوظيفية الأولى أو الأساسية التي تؤديها اللغة بعدّها ظاهرة إنسانية اجتماعية، وهذا رغم قيامها بوظائف أخرى كما أكدت ذلك بعض البحوث اللسانية، التي اهتمت بدراسة وتوضيح وظائف اللغة (ترتيباً وتصنيفاً وتنميطة)، إذ قُدمت طروحات وتصورات مختلفة بشأن وظائف اللغة كتصور: (كارل بوهلر، وكارل بوبر، رولان بارث، وجاكسون، وهاليداي)، حيث تنوعت وتعددت من خلالها وظائف اللغة.

لقد أكدت نظرية النحو الوظيفي على أولوية وظيفة التواصل، مؤسسة من خلال ذلك لتصورها اللغوي الوظيفي، القائم على أساس الربط بين بنية اللغة (الخطاب) (الصرفية - التركيبية) ووظيفتها التواصلية. ف "النحو الوظيفي يسعى إلى أن يكون نظرية لسانية توصف اللغات الطبيعية في إطارها من وجهة نظر وظيفية، أي من الوجهة النظرية التي تعتبر الخصائص البنيوية للغات محددة (جزئياً على الأقل)، بمختلف الأهداف التواصلية التي تستعمل اللغات لتحقيقها"¹.

يكون شكل الخطاب بناء على ذلك محكوم بتلك الوظيفة؛ إذ يصوغ المتكلم خطابه وفقاً لما تقتضيه وظيفة التواصل من شروط تتعلق بمراعاة المقام التواصل، ونوعية المخاطب (كسنة، ومستواه الثقافي والاجتماعي)، ومختلف مقتضيات ومبادئ التواصل.

- المبدأ الثاني: موضوع الدرس اللساني هو وصف القدرة التواصلية للمتكلم - المخاطب.

إن انتقال الدرس اللساني الغربي من مجال البحث اللساني الصوري المجرد إلى مجال اللسانيات الوظيفية التداولية، ليس في واقع الأمر إلا تغييراً لموضوع البحث اللساني، وما انجر عن ذلك من تحولات مختلفة عبرت عن الطرح اللساني الجديد (الوظيفي التداولي). الذي يروم الإجابة عن أسئلة جديدة تتعلق بالملكة التواصلية أو

¹ - أحمد المتوكل، الوظائف التداولية في اللغة العربية، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط: 1985، ص 10 و 11.

التبليغية.

ولعل أهم تلك التحولات هو تحديد منهج الدراسة، وبرمجة أسس منهجية ومبادئ معرفية مغايرة تعبر عن الأهداف المروم الوصول إليها. وهذا ما نلاحظه على نظرية النحو الوظيفي.

لقد أكدت هذه النظرية أن ما ينبغي أن يدرس، ويكون موضوعا للبحث اللساني هو الملكة التواصلية للمتكلم/ المستمع. التي تجعل من المقاربة اللسانية مقارنة وظيفية تداولية، فرغم "أن جميع النظريات اللسانية تكاد تجمع على أن موضوع الوصف اللغوي هو قدرة "المتكلم/ المستمع" إلا أن هذه النظريات تختلف من حيث تحديد هذه القدرة، فلئن كان تشومسكي (تشومسكي 1977 وتشومسكي 1988) يرى أن القدرة قدرتان "قدرة نحوية" صرف و "قدرة تداولية" فإن الوظيفيين (والتداوليين بوجه عام) يذهبون إلى أن القدرة اللغوية قدرة واحدة تجمع بين النحو والتداول ويطلقون عليها مصطلح "القدرة التواصلية" (competence communicative) "1.

يمكن الاهتمام بالقدرة التواصلية من خلال دراسة اللغة دراسة جديدة مختلفة عما تدوول في إطار النظريات اللسانية السابقة، وهو ما يؤدي إلى الكشف عن آليات استعمال تلك القدرة، وبالتالي إمكانية فهم اللغة فهما جديدا يخرجها من دائرة الحديث عنها بعدها قوالب شكلية جامدة أو بنية ذهنية مجردة. وقد كان ذلك عاملا رئيسا لظهور آفاق جديدة ساهمت في تطوير دراسة الخطاب اللغوي بمراعاة أبعاده المختلفة؛ (البعد اللغوي، النفسي، الاجتماعي، المقامي)، التي تتفاعل فيها جميع العناصر المشاركة فيه باعتباره إنجازا لغويا أو رسالة تبليغية.

فالقدرة التواصلية - حسب لغويو النحو الوظيفي - هي: "ما يمكن مستعملي اللغة الطبيعية من التواصل فيما بينهم بواسطة العبارات اللغوية، أي ما يمكنهم من التفاهم والتأثير في مدّخرهم المعلوماتي (بما في ذلك من معارف وعقائد وأفكار مسبقة وإحساسات)، والتأثير في سلوكهم الفعلي عن طريق اللغة"2، فهي التي تمكنهم من استعمال اللغة في سياق تواصل معيّن قصد أداء أغراض اجتماعية معينة. وهي "قدرة تواصلية عامة تشمل كل المعارف اللغوية والخطابية وغيرها، إذ تستتضم إضافة إلى معرفة النسق اللغوي معارف أخرى منها ما هو لساني آني ومنها ما هو سياقي عام، ويستحضر المتكلم السامع أثناء إنتاج أي خطاب وفهمه كل هذه المعارف ويحكم

1 - أحمد المتوكل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، دار الأمان، الرباط، ط1: 2013، ص 24.

2 - المصدر نفسه.

هذا الاستحضار موقف التواصل وملايساته ونمط الخطاب المنتج، وإن كانت المعرفة النحوية تضطلع بالدور المركزي في حالات التخاطب العادية¹، التي ترتبط بالممارسة الخطابية التواصلية السليمة الناجحة.

لقد تجلّت أهم إضافات نظرية النحو الوظيفي فيما يتعلق بالقدرة التواصلية المتوفرة لدى مستعمل اللغة الطبيعية، في تصورها للملكات التي تتكون منها تلك القدرة. حيث جعلها سيمون ديك خمس ملكات وهي: الملكة اللغوية، والملكة المنطقية، والملكة المعرفية، والملكة الإدراكية، والملكة الاجتماعية. حيث تؤدي كل ملكة دورها في التواصل على النحو التالي:²

أ - تخص الملكة اللغوية معرفة المستعمل للغة معجما وصرفا وتركيبا وصوتا تقدره على إنتاج وفهم عدد لا متناه من العبارات اللغوية في مقامات تواصل معينة.

ب - تتيح الملكة الاجتماعية للمستعمل ضبط وضع مخاطبه الاجتماعي وما يقوم بينهما من علاقات أثناء التواصل.

ج - تمكّن الملكة المنطقية المستعمل من اشتقاق معارف إضافية من معارف متوفرة لديه بواسطة قواعد الاستدلال.

د- تتيح الملكة الإدراكية استخدام المعارف التي يستقيها من موقف التواصل ذاته في إنتاج العبارات اللغوية وفهمها.

هـ - أما الملكة الإدراكية فإنها تقدّر المستعمل على تكوين مخزون منظم من المعارف اللغوية وغير اللغوية واستخدامها في إنتاج وتأويل المزيد من العبارات اللغوية.

ويبدو أن هذه الملكات طاقات لدى مستعمل اللغة، يتفاعل فيها ما هو لغوي وغير لغوي. وعلى أساسها يتمكّن من إنتاج وتأويل الخطاب اللغوي بكل أنواعه.

- المبدأ الثالث: النحو الوظيفي لنظرية للتركيب والدلالة منظور إليها من وجهة نظر تداولية.

اتسم الطرح اللساني الذي قدمته اللسانيات التداولية بعمق المنهج وشموليته في دراسة اللغة، وقد استطاعت التداولية من خلال أسسها المعرفية ومبادئها المنهجية، التي اهتمت بدراسة استعمال اللغة عوضا عن دراسة اللغة، صياغة آليات الوصف والتحليل الناجعة، التي عرفت من خلالها دراسة الخطاب اللغوي تحولا يوصف بالتقدم

¹ - نعيمة الزهري، تحليل الخطاب في نظرية النحو الوظيفي، دار الأمان، الرباط، ط1: 2014، ص 14.

² - أحمد المتوكل، الخطاب وخصائص اللغة العربية دراسة في الوظيفة والبنية والنمط، دار الأمان، الرباط، ط1: 2010، ص 13 و 14.

والنجاح مقارنة بالمقاربات اللسانية السابقة. إذ "لم تكن التداولية منذ بدايتها علما لغويا محضا علما يصف البنى اللغوية ويفسرها؛ ليقف عند حدودها وأشكالها الظاهرة، بل هي علم جديد للتواصل الإنساني يدرس الظواهر اللغوية في مجال الاستعمال، ويتعرف على القدرات الإنسانية للتواصل اللغوي في مجال الفهم والإفهام، رابطا المقال اللغوي بملايسات فوق لغوية لها دور كبير في تحديد المعنى المقامي، كالمرسِل والمتلقي، وما بينهما من علاقة اجتماعية، وما يملكانه من معلومات مشتركة، وزمان التلفظ، ومكانه، والظروف المصاحبة للخطاب، وغيرها من أمور تساعد المرسِل في إنشاء خطابه، كما تساعد المتلقي في فهم الخطاب، وإدراك قوته الإنجازية"¹، فقد ركزت التداولية على تحديد شروط نجاح العملية التواصلية؛ أي ما يتعلق بإنتاج الخطاب وتحليله، حيث يستطيع المتكلم تبليغ المقاصد، ويستطيع المتلقي فهم الفحوى الدلالي وتحديد مقصدية المتكلم وغرضه.

مثل العمل وفق ما جاء به الطرح التداولي أهم مبادئ نظرية النحو الوظيفي، حيث عملت على ترسيخ الرؤية التداولية في مقاربتها للخطاب اللغوي. التي اهتمت في دراسته بجميع أبعاده وجوانبه (التركيبية، والدلالية، والتداولية). وهذا ما يلاحظ على بنية النحو في هذه النظرية، حيث تشتمل على مستويات تمثيلية ثلاثة هي:²

- مستوى لتمثيل الوظائف الدلالية (كوظيفة المنفذ ووظيفة المتقبل ووظيفة المستقبل ووظيفة المستفيد..).
- مستوى لتمثيل الوظائف التركيبية (كوظيفتي الفاعل والمفعول).
- مستوى لتمثيل الوظائف التداولية (كوظيفة المبتدأ ووظيفة المحور..).

وأهم ما تسعى إليه نظرية النحو الوظيفي من خلال ذلك هو تجاوز ما اعتمدته الدراسات اللغوية التركيبية، التي ركزت على البنية الشكلية للخطاب والعلاقة بين العلامات اللغوية، وكذلك الدراسات الدلالية التي اتخذت من المعنى موضوع بحثها الرئيس.

المبدأ الرابع: تحقيق الكفايات:

3 - 1 الكفاية النفسية:

احتكت بحوث نظرية النحو الوظيفي بالبحوث التي قدمتها العلوم المعرفية المرتبطة بالمعرفة الداخلية الذهنية، والبحث في هندسة عمل الدماغ البشري وعملياته العقلية المختلفة (الفهم والإدراك مثلا). المسؤولة عن شتى

¹ - أحمد فهد صالح شاهين، النظرية التداولية وأثرها في الدراسات النحوية المعاصرة، ص 1.

² - أحمد المتوكل، دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفي، ص 10.

المعارف الإنسانية بما فيها المعرفة اللغوية، وهو ما فتح المجال لاستفادتها من تلك البحوث، لاسيما منها التي اشتركت فيها العلوم المعرفية مع علوم إنسانية أخرى، "فمع منتصف الخمسينات من القرن الماضي لم يعد الباحثون قادرين على إيجاد الأجوبة الشافية الكافية للأسئلة المتعلقة بالعقل. هل تستند على حقل معرفي واحد؟ وهل ما تجلى في مشروع علمي جديد، رسم معالم البحث في العلوم المعرفية بالاشراكة بين علوم عديدة مثل، علم النفس المعرفي، واللسانيات، والذكاء الاصطناعي، وفلسفة العقل، وعلوم الأعصاب ... وغيرها من العلوم الطبيعية والإنسانية التي شكلت مجالات للبحث النظري والتطبيقي، وأعدت النظر في نماذج التفكير كيف تحدث. وذلك بدراسة السيورورات المعرفية والعمليات الذهنية التي تنتقل بنا من التمثل إلى الفعل"¹، وهذا ما مس مجال المعرفة اللغوية بدرجة كبيرة.

لقد أعطت النتائج التي توصل إليها الباحثون في مجال المعرفة اللغوية دفعا قويا حث العديد من النظريات اللسانية للخوض في الجانب العقلي للغة، والعمل على صياغة النماذج اللسانية الكفيلة بتقديم صورة دقيقة عن آليات العقل وعملياته التجريدية المتعلقة بالحدث اللغوي، حيث تتماشى ونتائج العلوم المعرفية كعلم النفس المعرفي وعلم النفس اللغوي.

ركزت نظرية النحو الوظيفي على إحراز ذلك، وهو ما جاء في إطار مسعى العمل على تحقيق مبدأ الكفاية النفسية، الذي يقتضي معرفة ورصد ومطابقة النحو الوظيفي لتقنيات الجهاز العصبي المتعلقة بعملية الإنتاج والفهم؛ إذ يقتضي "تحصيل الكفاية النفسية من النحو الوظيفي أن يعكس بطريقة أو بأخرى ثنائية الإنتاج/الفهم؛ أن يكون بتعبير آخر مطابقا لنماذج الإنتاج التي تُحدد كيف يبني المتكلم العبارات اللغوية وينطقها ومطابقا لنماذج الفهم التي تحدد كيفية تحليل المخاطب للعبارات اللغوية وتأويلها"²، ويعد الاختصار على الإنتاج وحده أو الفهم والتحليل وحده إخلالا بتلك الكفاية.

ولتحصيل هذه الكفاية ينبغي مراعاة ما يقتضيه الشرطان التاليان:³

¹ - ينظر: حسان الباهي، الذكاء الاصطناعي وتحديات مجتمع المعرفة، حكمة الآلة أمام حكمة العقل، أفريقيا الشرق، المغرب، ط: 2012، ص 34

- 35.

² - أحمد المتوكل، اللسانيات الوظيفية المقارنة دراسة في التنميط والتطور، دار الأمان، الرباط، ط: 1، 2012، ص 28.

³ - أحمد المتوكل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، ص 29.

أولاً: أن يقصى من إوالياته ما ثبت عدم واقعيته النفسية أو ما يشك في واقعيته النفسية، كالقواعد التحويلية مثلاً، وقد بني النحو الوظيفي، منذ بدايته (ديك 1978) على أساس عدم استخدام هذا الصنف من القواعد في أي مرحلة من مراحل اشتقاق العبارات اللغوية.

ثانياً: تضمن النحو لجهازين: جهاز مُولّد يضطلع بتوليد الخطاب وجهاز مُحلّل يضطلع بتحليل الخطاب، وفي إطار حوسبة النحو الوظيفي قدم ديك وكونوللي (1989، وديك وكاهل 1992)، اقتراح إضافة جهاز تحليل إلى جهاز التوليد، بحيث يقوم بالوظيفة (العكسية إذ يمكن من إرجاع العبارات المتحققة إلى بنائها التحتية).

وفي الواقع إن البحث اللساني المعرفي للنسق الذهني اللغوي وكل ما يتعلق بمقتضيات الكفاية النفسية، قد تمت مناقشتها بادئ الأمر في إطار النظرية التوليدية التحويلية؛ إذ يعدّ تحصيل الكفاية النفسية من أهم الأهداف العلمية التي رسمها تشومسكي لنظريته اللغوية بالإضافة إلى تحصيل الكفاية التجريبية (أو الفيزيائية).

غير أن قواعد التحويل التي اعتمدت عليها هذه النظرية كانت عائقاً حال دون التحقق المثالي للكفاية النفسية، إذ لا تتطابق التحويلات التي تخضع لها الجمل مع عمليات العقل وإجراءاته التجريدية. وهذا ما عمل ممثلو نظرية النحو الوظيفي على تجاوزه، إذ جعلوا أحد شروط تحقيق الكفاية النفسية إبعاد ذلك النوع من التحويلات.

د/ 2 الكفاية التداولية:

تميزت اللسانيات التداولية بدقة أدواتها المنهجية، وكذا بنجاحة استراتيجياتها حيث استطاعت تقديم تصور لساني جديد، قائم على ضرورة الاهتمام بالسّمات اللغوية وغير اللغوية، التي تتدخل في عملية إنتاج اللغة وتبليغها وفهمها، وكذا توضيح شروط التواصل اللغوي وقوانين تداولية الخطاب، وذلك خدمة لمستعمل اللغة قصد تمكينه من بناء خطاب تبليغي تواصل ناجح، وهذا ما جعلها مقياساً لدرجة النضج والتطور الذي تسعى إلى تحقيقه العديد من النظريات الوظيفية الحديثة. وهو حال نظرية النحو الوظيفي.

تحدّث سيمون ديك عن الطابع الوظيفي التداولي لنظريته تحت مبدأ الكفاية التداولية، حيث يقول معرّفاً هذه الكفاية: "على النحو الوظيفي أن يستكشف خصائص العبارات اللغوية المرتبطة بكيفية استعمال هذه العبارات، وأن يتم هذا الاستكشاف في إطار علاقة هذه الخصائص بالقواعد والمبادئ التي تحكم التواصل

اللغوي"¹، يعني هذا أنه يجب ألا تتعامل مع العبارات اللغوية على أساس أنها معادلات منعزلة، بل على أساس أنها وسائل يستخدمها المتكلم لإبلاغ معنى معين في إطار سياق تحدده العبارات السابقة، وموقف تحدده الوسائل الأساسية لمواقف التخاطب. فقد عد ضرورة مراعاة توفر البعد التداولي. الذي يفرض أن تكون دراسة الخطاب اللغوي مرتبطة بمختلف ظروف إنتاجه شرطاً ضرورياً لا بد من مراعاته. ويرى أحمد المتوكل بأنه على "النظرية الوظيفية أن تحسّل لا الكفاية التداولية اللغوية الصرف فحسب بل كذلك الكفاية التواصلية"²، أي الكفاية التي تهتم بكل أنساق التواصل على اختلافها وتنوعها لغوية كانت أم غير لغوية، وذلك ما يندرج عنده في إطار النظرية الوظيفية العامة.

تهتم نظرية النحو الوظيفي بالتخاطب التبليغي أو التواصل الذي يتم بين المتخاطبين (المتكلم/ المخاطب) في إطار مقام تواصل معين، حيث يفضي إلى نجاح التواصل ومن ثمة تحقيق مختلف الأغراض المستهدفة من ورائه (كالتأثير والإقناع)، حيث جعلته من أهم الشروط التي يجب على نحوها تحقيقها. وينبغي لتحقيق هذه الكفاية الاستجابة للشروط الثلاثة الآتية:³

أ - يجب التمثيل لكل الخصائص التداولية للعبارات اللغوية (كالخصائص الوجهية والخصائص الإنجازية والوظائف التداولية التي تحملها مكونات العبارات.

ب - يجب أن يمثل لهذه الفئة من الخصائص داخل النحو ذاته؛ أي (بالنسبة للصورة الحالية للنحو الوظيفي، داخل القالب النحوي) لا خارجه.

ج - يجب أن يكون المستوى الذي يمثل لهذه الخصائص سابقاً، من حيث مراحل اشتقاق العبارة، على المستوى الذي تحدد فيه الخصائص البنيوية، على اعتبار أن الخصائص الثانية تعكس الخصائص الأولى.

د/ 3 الكفاية النمطية:

يسعى لغويو نظرية النحو الوظيفي في إطار العمل على صياغة النحو الوظيفي الأكفى، الذي من شأنه دراسة أكبر قدر ممكن من اللغات الطبيعية التي تنتمي إلى أنماط لغوية مختلفة، إلى إحراز الكفاية النمطية التي تعكس قدرة النحو على رصد أهم النقاط التي تشترك وتتألف فيها تلك اللغات رغم اختلافها، ومن ثمة استنباط

¹ - أحمد المتوكل، اللسانيات الوظيفية المقارنة دراسة في التميّط والتطور، ص 28.

² - المصدر نفسه.

³ - أحمد المتوكل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، ص 28.

ومعرفة أبرز وجوه التباين. إذ يعرف ديك الكفاية النمطية بأنها: "الكفاية التي تسعى النظرية اللسانية لإحرازها وذلك حين تكون جاهزة لوضع أنحاء للغات المنتمية إلى أنماط لغوية متباينة ولرصد الائتلاف ووجوه الاختلاف بين تلك اللغات¹."

لقد استطاع المشتغلون في إطار هذه النظرية تجسيد هذا الهدف وإثبات مشروعيتها من خلال التركيز في دراستهم المقارنة، التي شملت عدة لغات مختلفة (إنجليزية، ألمانية، عربية، صينية..)، على خصائص اللغات الدلالية والتداولية.

ومسوغ هذه الإستراتيجية التي اعتمدها يكمن؛ في أن ائتلاف وتماثل تلك اللغات إنما يتجلى وبنسبة كبيرة من خلال ذلك النوع من الخصائص، وذلك على عكس ما يكون عليه الوضع في حالة ما إذا تم الاعتماد على السمات (الصورية) (الصرفية - التركيبية) فقط.

تجلى شرط تحصيل الكفاية النمطية على أساس الأخذ بالخصائص اللغوية (الدلالية والتداولية) فقط، والتركيز عليه ليكون ذلك معيار تحصيل تلك الكفاية - بصورة واضحة - في إحدى نماذج نظرية النحو الوظيفي المتمثل في: نموذج نحو الطبقات القالي، الذي وضعه أحمد المتوكل سنة (2003)، حيث "تضمن تنميطة للغات ورصدا لتطورها يقومان على مفهوم التغليب بين التداول والدلالة يميز بين اللغات الموجهة تداوليا واللغات الموجهة دلاليا"².

وبهذا تكون هذه النظرية قد استطاعت تجاوز الدراسات اللغوية المقارنة القديمة ومنهج عملها القائم على تصنيف اللغات حسب معيار السلالة اللغوية. وقد عمل ممثلوها - كذلك - على توسيع مفهوم التنميطة؛ ليتم الانتقال من تنميطة اللغات إلى تنميطة الخطابات.

ويرى أحمد المتوكل أن للتنميطة وذلك بالنظر إلى مساره اللساني (قديمًا وحديثًا)، ثلاثة معايير هي: الرتبة، التغليب، الانعكاس.

1/ الرتبة:

وهو معيار تصنيف اللغات الأساس المعتمد في إطار ما عرف باللسانيات المقارنة (أو النمطية)، ويقوم على أساس أن "موطن الائتلاف بين اللغات وخاصة الاختلاف بينها الصرف والتركيب، وبناء على ذلك صنف

¹ - أحمد المتوكل، الخطاب المتوسط، مقارنة وظيفية موحدة لتحليل النصوص والترجمة وتعليم اللغات، دار الأمان، الرباط، ط1: 2011، ص 61.

² - أحمد المتوكل، اللسانيات الوظيفية المقارنة دراسة في التنميطة والتطور، دار الأمان، الرباط، ط1: 2012، ص 12.

اللغات إلى "لغات مبتدئية" و"لغات فاعلية"، تصنيفا يقوم على أساس أن المكون "المبتدأ" في الفئة الأولى من اللغات لا يحتاج إلى ضمير يربطه بالجملة الواردة بعده، يشهد على ذلك المثال الصيني التالي:

Nuike shu yezi da

كبيرة الأوراق الشجرة هذه. (أصلها هذه الشجرة، أوراقها كبيرة)¹، وتعد اللغة العربية من اللغات الفاعلية (غير المبتدئية) شأنها في ذلك شأن اللغتين الإنجليزية والفرنسية؛ أي اللغات التي يعود فيها ضمير رابط على المكون المبتدأ وجوبا.

2 - معيار التغليب:

وهو معيار وظيفي اقترحه أحمد المتوكل معتمدا فيه على مدى تغليب اللغات للتداول على الدلالة أو العكس، وقد "أفضى الانطلاق من هذا المعيار إلى إقامة متوالية نمطية قطباها اللغات الموجهة تداوليا واللغات الموجهة دلاليا كما تبين ذلك الترسمة التالية:

(أ) لغات موجهة تداوليا لغات موجهة دلاليا"²، ويقصد باللغات الموجهة تداوليا؛ اللغات التي تُغلبُ القالب التداولي بمستوييه العلاقي والبلاغي، وتدرج ضمن هذه اللغات زمرة اللغات الغنية صرفا وإعرابا كاللغة العربية الفصحى، عكس اللغات الموجهة دلاليا، حيث تُغلبُ القالب الدلالي. وتسير اللغات عبر ذلك في اتجاه الانتقال والتطور من لغات موجهة تداوليا غنية صرفا وإعرابا، نحو لغات موجهة دلاليا تستعيز برتبة المكونات للتأشير عن الوظائف التركيبية والدلالية.

3 - معيار الانعكاس:

يعرّف الانعكاس بأنه "تحقق عناصر مستوى تحليلي ما في عناصر مستوى تحليلي آخر"³، وهو "من أهم مبادئ نموذج نحو الخطاب الوظيفي (هنخفلد وماكنزي (2008) ... وهو المبدأ الضابط لمسطرة نقل البنية التحتية للخطاب بشقيها التداولي والدلالي إلى بنية صرفية - تركيبية وبنية فونولوجية (نبرية تنغيمية بالخصوص)"⁴، حيث تعد البنية الصرفية - التركيبية البنية السطحية، التي تنعكس فيها خصائص البنية التحتية ذات الطابع

¹ - ينظر: أحمد المتوكل، اللسانيات الوظيفية المقارنة، دراسة في التنميط والتطور، ص 20 و 21.

² - أحمد المتوكل، الخطاب المتوسط، مقارنة وظيفية موحدة لتحليل النصوص والترجمة وتعليم اللغات، ص 48.

³ - أحمد المتوكل، اللسانيات الوظيفية المقارنة، دراسة في التنميط والتطور، ص 36.

⁴ - أحمد المتوكل، الخطاب المتوسط مقارنة وظيفية موحدة لتحليل النصوص والترجمة وتعليم اللغات، ص 49.

التداولي والدلالي، وعلى أساس غلبة التداول على الدلالة أو العكس يُحدد نوع الانعكاس، الذي يكون بالنظر إلى ذلك نوعين:¹

3 - أ/ الانعكاس التداولي أو العلاقي:

هو خصائص تداولية تنعكس في البنية الصرفية - التركيبية والفنولوجية، سمات (إنجازية ووجهية وإحالية ووظائف تداولية وبلاغية).

3 - ب/ الانعكاس الدلالي أو التمثيلي:

وهو خصائص دلالية محمول وحدود "موضوعات ولواحق" تنعكس في البنيتين الصرفية - التركيبية والفنولوجية، وتشمل وظائف دلالية بالنظر إلى دورها في الواقعة الدال عليها المحمول (منفذ، متقبل، مستقبل...)، وسمات تؤطر المحمول من حيث الجهة (تام/ غير تام، مسترسل...)، ومن حيث الزمن (مضي، حاضر، مستقبل...).

تتحكم مكونات السياق الخارجي - من منطلق الانعكاس التداولي - في البنية السطحية فتنعكس خصائص مكوناته فيها، ويؤدي ذلك إلى اختلاف أنماط اللغات في طريقة توظيف السمات الإنجازية والوجهية والإحالية، والوظائف التداولية، أما الانعكاس التمثيلي فتشكل مجموع تلك العناصر - السابقة - للبنية الدلالية أو التمثيلية، وفي إطار ذلك توجد لغات تحقق الوظائف الدلالية بالإعراب كاللغة العربية، ولغات تحقق نفس تلك الوظائف برتبة المكونات.

3 - 3. درجة الانعكاس:

يتم الانعكاس بين مستويين: مستوى مصدر ومستوى هدف، وعلى أساس طريقة انعكاس وتحقيق عناصر ومكونات المستوى الأول في المستوى الثاني، تم التمييز بين نوعين من التحقق:²

أ - التحقق الشفاف: يكون تحقق العناصر المرشحة للانعكاس تحققاً شفافاً حين ينعكس كل عنصر من المستوى المصدر في عنصر المستوى الهدف.

ب - التحقق الكاتم: يحصل هذا النوع حين لا يكون ثمة تطابق أحادي بين عنصر في المستوى المصدر وأحد عناصر المستوى الهدف.

¹ - محمد الحسين ملبطان، نظرية النحو الوظيفي الأسس والنماذج والمفاهيم، دار الأمان، الرباط، ط1: 2014، ص 55.

² - ينظر: أحمد المتوكل، اللسانيات الوظيفية المقارنة دراسة في التمييط والتطور، ص 42 و 43.

وتكون اللغات من خلال ذلك النوعين من التحقق "بين بين"؛ أي أنها تكون بين الشفافية والكاتمية؛ إذ "ليست ثمة لغات شفافة مطلقة الشفافية ولا لغات كاتمة مطلقة الكاتمية وإنما اللغات تتموقع داخل متوالية قطباها لغات أقرب إلى الشفافية ولغات أقرب إلى الكاتمية، على النحو الآتي:

لغات شفافة < لغات كاتمة >¹، وبذلك تضاف لمجال المقارنة بين اللغات آلية جديدة.

2 - بنية النحو في نظرية النحو الوظيفي:

تتكون الجملة في نظرية النحو الوظيفي من ثلاث بنيات رئيسية: بنية حملية وبنية وظيفية وبنية مُكوّنية، يتم بناؤها من خلال تطبيق ثلاثة أنماط من القواعد هي: قواعد الأساس، قواعد إسناد الوظائف، قواعد التعبير، حيث يختص كل نمط منها بتشكيل بنية معينة.

2 - أ. البنية الحملية: وهي بالنظر إلى طبيعتها "بنية دلالية - منطقية تتكون من الإطار الحملي مضافا إليه مخصصات محموله ومخصصات حدوده، وتشكل مصدر اشتقاق للعبارة اللغوية أي دخلا لقواعد إسناد الوظائف (التداولية والتركيبية) ثم لقواعد التعبير"²، فهذه البنية تعد النواة الذي تتشكل على أساسها العبارات اللغوية المراد إنجازها.

وقد تم الاصطلاح عليها بهذا الاسم نسبة إلى (الحمل)، وهو ما يمثل "للعالم موضوع الحديث (سواء أكان عالم الواقع أو عالما من العوالم الممكنة) في شكل "حمل" يتألف من "محمول" وعدد معين من "الحدود". يدل المحمول (الذي يمكن أن ينتمي تركيبيا إلى مقولة الفعل أو مقولة الاسم أو مقولة الصفة) على "واقعة". وتكون الواقعة إما "عملا" أو "حدثا" أو "وضعا" أو "حالة". أما الحدود فتدل على المشاركين في الواقعة. وهي بالنظر إلى أهميتها بالنسبة للواقعة، إما حدوداً موضوعات أو حدوداً لواحق"³، حيث تعد الأولى حدودا رئيسة داخل الحمل أما الثانية فهي حدود ثانوية مساعدة.

وتبنى البنية الحملية عن طريق (قواعد الأساس) التي تتكون من عنصرين: المعجم وقواعد تكوين المحمولات والحدود.

¹ - ينظر: أحمد المتوكل، اللسانيات الوظيفية المقارنة دراسة في التنميط والتطور، ص 44.

² - محمد الحسين ملبطان، نظرية النحو الوظيفي الأسس والنماذج والمفاهيم، ص 59.

³ - أحمد المتوكل، الوظيفة والبنية، (مقاربات وظيفية لبعض قضايا التركيب في اللغة العربية، دار الأمان، الرباط - المغرب، ط: 1993، ص 31 و32.

- **المعجم:** ويقوم بدور إعطاء الأطر الحملية والحدود الأصول، وقد انطلق الوظيفيون في ذلك من فكرة أن "القدرة المعجمية للمتكلم - السامع، تتكون من صنفين اثنين من المعارف: مفردات أصول يتعلمها المتكلم تعلمًا قبل استعمالها، ومفردات فروع يقوم المتكلم باشتقاقها عن طريق قواعد منتجة من المفردات الأصول"¹، ولعل هذا ما يعني أن الأولى مفردات أصلية أما الثانية فهي مفردات مشتقة.

- **قواعد تكوين المحمولات والحدود:** و"تضطلع باشتقاق المفردات غير الأصول من الأطر الحملية للمفردات الأصول"²، وتخضع باعتبارها مفردات مشتقة لقواعد اشتقاق محددة، كما هو متداول في اللغة العربية - مثلاً - عن قواعد الأفعال المزيدة، وأسماء المفاعيل، وأسماء الصفات (صفة المبالغة ..).

وتشكل الأطر الحملية الموجودة على شكل قوائم في المعجم، أو الناتجة عن تطبيق قواعد تكوين المحمولات، المحمول وعدد معين من الحدود. فكل ذلك يكون للإطار المحمولى، الذي يشمل:³

- المحمول الدال على خاصية أو علاقة.

- مقولات المحمول التركيبية (فعل، اسم، صفة، ظرف).

- يرمز للحدود بالمتغيرات (س، س ... س ن).

- الوظائف الدلالية (منفذ، متقبل، مستقبل، مستفيد) التي تحملها محلات الحدود.

- قيود الانتقاء الذي يفرضها المحمول بالنسبة لمحلات حدوده.

ولتوضيح ذلك نأخذ الإطار المحمولى للفاعل كتب في الجملة (أ) والصفة أمين في الجملة (ب):

أ - كتب عمرو رواية.

ب - عمرو أمين.

يأخذ الفاعل كتب الإطار الحملي الآتي:

[ك. ت. ب {فعل} ف (س1: إنسان) منف (س2: مكتوب) متق].

- تشير تلك الأحرف (ك. ت. ب) إلى مادة المحمول (أي الفعل) الأصلية أو جذره، ويأخذ وزن فَعَلَ.

- يشير الرمز (ف) إلى المقولة الصرفية للمحمول؛ فكتب محمول فعلي، وقد أخذ هنا موضوعين يتمثلان في

¹ - ينظر: أحمد المتوكل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، ص 71.

² - المصدر نفسه.

³ - ينظر: أحمد المتوكل، الوظائف التداولية في اللغة العربية، ص 12.

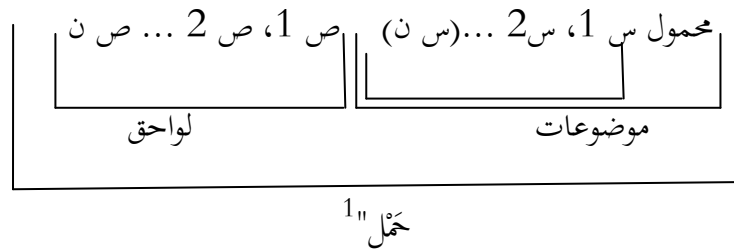
المتغيرين (س1 وس2)، حيث يجب أن يرتبط (س1) بصفة (إنسان) وهو الذات المشاركة في عملية الكتابة، ويقابله الرمز (منف) أي الوظيفة الدلالية: (المنفذ)، أما المتغير الثاني (س2) فإنه يرتبط بشيء مكتوب و سمة (لا إنسان)، ويحمل هنا الرمز (متق) أي الوظيفة الدلالية: (المتقبل)، وهو المتقبل لعملية الكتابة.

- أما الإطار الحملّي للصفة أمين فهو:

[أ. م. ن. {فعل} ص (س1: إنسان) حا].

حيث: تدل الأحرف : أ. م. ن، إلى المادة الأصلية التي اشتق منها وزن صفة أمين أي (فعل)، أما الرمز (ص) يشير إلى المقولة الصرفية لمحمول الصفة (أمين)، وتأخذ هذه الصفة هنا موضوعا واحدا هو المتغير (س1: إنسان)، أما الرمز (ح): فمعناه الوظيفة الدلالية: الحائل.

ومما يجب الإشارة إليه هنا هو أن "الحدود بالنظر إلى أهميتها في الواقعة نوعان: حدود موضوعات وحدود لواحق، (المنفذ، المتقبل، المستقبل)، وتشكل الأولى لإطار حملّي نووي. أما الثانية فلا يتعدى دورها تخصيص الواقعة من حيث الزمان والمكان والحال وغير ذلك، ومن خلالها ينتقل الإطار الحملّي النووي إلى إطار حملّي موسع، فتأخذ بنية الحمل على هذا الأساس الشكل الآتي:



تكون البنية الحملية بذلك بنية جزئية، فلا نحصل على بنية حملية تامة إلا من خلال تطبيق قواعد مخصصات المحمول، وقواعد مخصصات الحدود، و"يقصد بمخصص المحمول: المقولات الثلاثة: مقولة الصيغة، ومقولة الجهة، ومقولة الزمن، وتشمل: (صيغة التذليل وصيغة التذيت). تحدد (مقولة الجهة) البنية الداخلية للواقعة الدال عليها المحمول، وهي إما أن تكون تامة أو غير تامة، مستمرة أو غير مستمرة، مشروعا فيها أو مقاربة، أما مقولة الزمن فتربط بزمن التكلم، ويأتي الزمن في نظرية النحو الوظيفي على ثلاثة أوجه هي: الماضي، والحاضر،

¹ - أحمد المتوكل، اللسانيات الوظيفية مدخل نظري، ص 133.

والمستقبل، وتشمل مخصصات الحدود (التعريف التنكير العدد الجنس الإشارة والتسوير)¹، مثل: (كل، بعض، جزء).

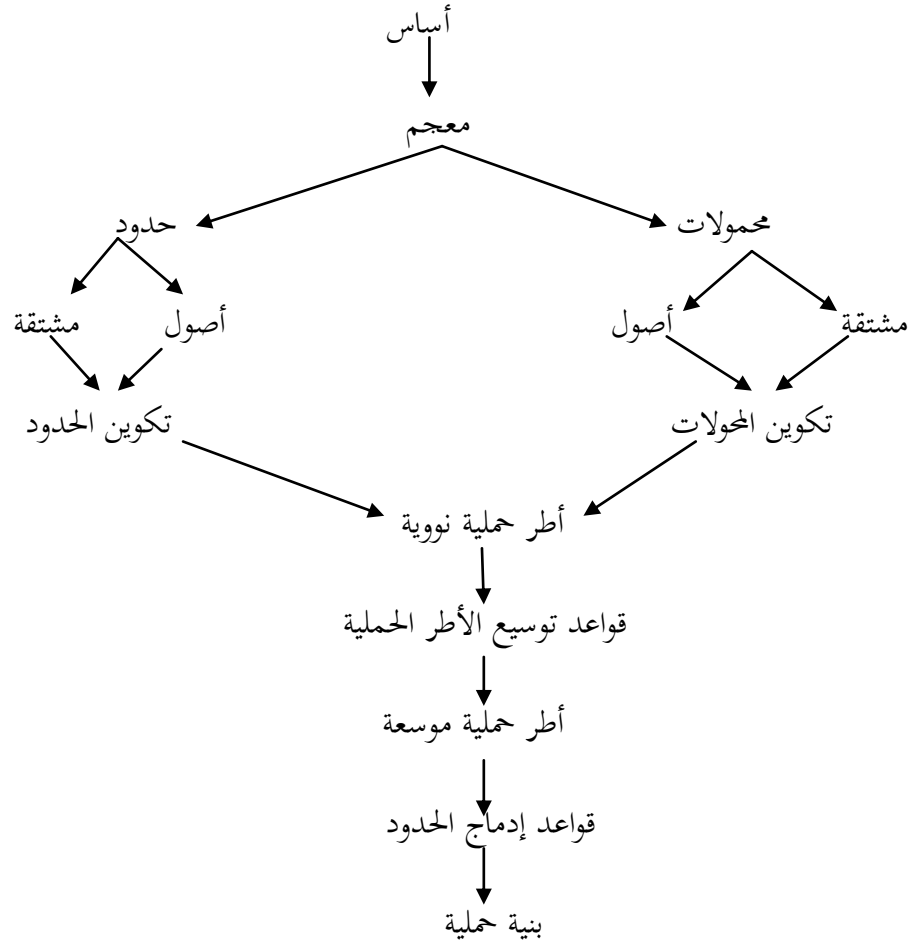
يتضح من خلال ما تم تقديمه أن البنية الحملية:

- تشكل البنية التحتية للحملة.

- أنها بنية ذات طبيعة دلالية - معجمية - صرفية.

- وتتم بناء هذه البنية عن طريق تطبيق المعجم وقواعد تكوين المحمولات والحدود، حيث يتسنى عبر ذلك صياغة حمل صحيح؛ أي جملة (أو جملا) صحيحة.

ويمثل لمختلف ما يكون البنية الحملية بالشكل الآتي:²



¹ - ينظر: أحمد المتوكل، اللسانيات الوظيفية مدخل نظري، ص 134.

² - أحمد المتوكل، دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفية، ص 14.

2 - ب. البنية الوظيفية: تنقل البنية الحملية إلى بنية وظيفية بواسطة إجراء مجموعتين من القواعد وهي: قواعد إسناد الوظائف وقواعد تحديد مخصص الحمل.

- قواعد إسناد الوظائف: وتشمل:

أ - إسناد الوظائف التركيبية: تعتبر الوظيفة التركيبية في إطار نظرية النحو الوظيفي "وجهة معتمدة في تقديم واقعة معينة، فتنتقي بعض الحدود لتكون إما منظورا رئيسيا أو منظورا ثانويا وتظل الحدود الأخرى خارج مجال الوجهة"¹، ومن هذا المنطلق وبالنظر إلى ما تتميز به أغلبية اللغات الطبيعية، تم تقسيم الوظائف التركيبية إلى وظيفتين: وظيفة الفاعل ووظيفة المفعول.

تنتمي هاتان الوظيفتان إلى ما سماه ديك بوجهة النظر التي تقوم على منظورين؛ المنظور الأول والمنظور الثاني حيث "يشكل المكون المسندة إليه وظيفة "الفاعل" المنظور الأول، في حين أن المكون المسندة إليه وظيفة "المفعول" يشكل المنظور الثاني. وهذا ما يبرره كون المفعول يرد في معظم اللغات الطبيعية متأخرا عن الفاعل سواء أكانت هذه اللغات من قبيل (ف فافم)، أم كانت من قبيل (فا فمف)، أم كانت من قبيل (فامف ف)"²، وهذا ما توضحه الجمل الآتية على التوالي:

- كتب الشاعر ديوانا.

- الأستاذ نشر كتابا.

- فاطمة هنداً قابلت.

وعلى أساس ما تبينه هذه الرتب فإن الفاعل مكون أولي رئيس، في حين أن المفعول مكون ثانوي. ويشترط أن تكون هذه البنية على علاقة مع البنية الدلالية التي تسبقها، حيث يتم إسناد الوظائف التركيبية إلى الوظائف الدلالية وذلك طبقا للسلمية الآتية:³

منف	متق	مستق	مستف	أد	مك	زم ...
فا	+	+	+	+	+	+
مف	-	+	+	+	+	+

¹ - ينظر: أحمد المتوكل، اللسانيات الوظيفية مدخل نظري، ص 138.

² - أحمد المتوكل، الوظائف التداولية في اللغة العربية، ص 16.

³ - أحمد المتوكل، دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفية، ص 37.

والواضح أن الأمر يدور حول أسبقية الوظيفة المنفذ والوظيفة المتقبل بالنسبة للفاعل والمفعول؛ إذ تبين "هذه السلمية أن الوظيفة التركيبية الفاعل تسند إلى المكون الحامل للوظيفة الدلالية المنفذ، ثم إلى المكون الحامل للوظيفة الدلالية المستقبل، كما يفاد أن الوظيفة المفعول تسند بالدرجة الأولى إلى المكون الحامل للوظيفة الدلالية المتقبل، ثم إلى المكون الحامل للوظيفة الدلالية المستقبل"¹، ومن خلال هذا الإسناد نحصل على بنية وظيفية جزئية.

ب - إسناد الوظائف التداولية: تسند الوظائف التداولية إلى مكونات الجملة بالنظر إلى ما يربط بين هذه المكونات في البنية الإخبارية، أي بالنظر إلى المعلومات التي تحملها هذه المكونات في طبقات مقامية معينة²؛ أي تسند هذه الوظائف إلى مكونات الجملة طبقاً إلى الوضع التخابري الذي يحدد العلاقة القائمة بين طرفا الخطاب، وتصنف تلك الوظائف حسب موضعها بالنسبة للحمل إلى صنفين: وظائف تداولية داخلية، ووظائف تداولية خارجية.

أ - الوظائف الداخلية: تسند إلى مكونات الحمل (الموضوعات أو اللواحق)، وتشمل وظيفتان هما: وظيفة البؤرة، ووظيفة المحور.

1- وظيفة البؤرة: اقترح سيمون ديك تعريف وظيفة البؤرة باعتبارها الوظيفة التي تسند إلى المكون "الحامل للمعلومة الأكثر أهمية أو الأكثر بروزاً في الجملة"³، وتتفرع عنها عدة أنواع أهمها:

أ- بؤرة الجديد: وهي "الوظيفة التي تسند إلى المكون الحامل للمعلومة التي يجهلها أحد المتخاطبين"⁴، كما في الجملتين:

أ - من قابلت هنداً ؟

ب - قابلت هنداً خالداً (بنبر "خالد").

لا تدخل معلومة الشخص الذي قابلته هند في القاسم الإخباري المشترك بين المتخاطبين، فالسؤال هنا صادر من المتكلم الذي يجهل تلك المعلومة، أما المخاطب فهو عالم بها، حيث يقوم بتوضيح ذلك للمتسائل.

¹ - ينظر: أحمد المتوكل، الوظائف التداولية في اللغة العربية، ص 16.

² - ينظر: محمد الحسين مليطان، نظرية النحو الوظيفي الأسس والنماذج والمفاهيم، ص 25.

³ - أحمد المتوكل، الوظائف التداولية في اللغة العربية، ص 28.

⁴ - أحمد المتوكل، الوظيفة والبنية مقاربات لبعض قضايا التركيب في اللغة العربية، ص 18.

ب - **بؤرة المقابلة:** وهي "الوظيفة التي تسند إلى المكون الحامل للمعلومة المتجادل في ورودها"¹، كما هو الشأن في الجملة (ب) باعتبارها تصحيحاً للجملة (أ):

أ - كتب كريم رواية.

ب - ما كتب كريم إلا مقالا.

والواضح أن هذه البؤرة تقوم بدور تعويض معلومة خاطئة بالنسبة لأحد المتخاطبين، وبالتالي تصحيح ما يعتقده.

2 - **وظيفة المحور:** تسند وظيفة "المحور" إلى المكون الدال على ما يُشكّل "المحدث عنه" داخل الحمل"²، مثل:

أ - متى سافرت مريم.

ب - سافرت مريم البارحة.

يشكل المكون (مريم) محور الجملتين لدلالته على الشخص المحمول عليه بقية الجملة؛ ("متى سافرت" في الجملة الأولى، و "سافرت البارحة" في الجملة الثانية)، فالمكون (مريم) هو محور الاستخبار وبالتالي محط الحديث، وليس زمن سفرها.

ب - **الوظائف الخارجية:** تسند إلى المكونات التي لا تنتمي إلى الحمل، وتشمل:

1 - **المبتدأ:** هو المكون الذي يقوم بدور تحديد مجال الخطاب كما هو الشأن بالنسبة للمكون "الحديقة" في الجملة الآتية: (أ) الحديقة، أينعت ورودها"³، إذ تتكون هذه الجملة من مكونين هما الحمل والمبتدأ، فيعمل هذا المكون على تحديد ما يأتي بعده، ومن أهم مميزات الوظيفة المبتدأ بالإضافة إلى خروجها عن مجال الحمل هو دخولها في إطار الجانب المعرفي للمتكلم عن العالم الخارجي.

وقد تم تبرير طبيعة المبتدأ الخارجية من خلال الأدلة الآتية⁴:

- لا يشكل المبتدأ موضوعاً من موضوعات الفعل (المحمول).

- لا يخضع لقيود التوارد التي يفرضها المحمول على موضوعاته.

¹ - أحمد المتوكل، الوظيفة والبنية مقاربات لبعض قضايا التركيب في اللغة العربية، ص 18.

² - ينظر: أحمد المتوكل، الوظائف التداولية في اللغة العربية، ص 69.

³ - ينظر: أحمد المتوكل، اللسانيات الوظيفية مدخل نظري، ص 28.

⁴ - ينظر: أحمد المتوكل، الوظائف التداولية في اللغة العربية، ص من 122 إلى 126.

- لا يحمل وظيفة دلالية، ولا وظيفة تركيبية.

- لا يدخل في حيز المؤشر للقوة الإنجازية.

هذا ما توضحه الأمثلة الآتية:

- السيارة، ضرب صاحبها لصا، ينتقي الفعل ضرب الفاعل (صاحبها)، والمفعول لصا، ولكنه لا ينتقي المبتدأ لأنه خارج عنه، وبذلك لا يشكل موضوعا من موضوعاته، وبالتالي لا يحمل وظيفة دلالية أو تركيبية إذ ينفرد بخاصيته التداولية فقط.

- زينب، أخوها روائيان؛ ففي هذه الجملة لا يطابق المكون المبتدأ (عمرو) المحمول أخواه من حيث العدد والجنس.

- مريم، أعدك أنها ستختم حفظ المصحف الشريف.

تعبّر القوة الإنجازية في هذه الجملة عن الوعد، حيث ينفرد المبتدأ وحده بقوة إنجازية تختلف عن القوة الإنجازية للحمل الذي يليه مثل: عمرو؟ لقد عاد والديه البارحة من العمرة؛ تمثل قوة المبتدأ الإنجازية في الاستفهام.

2 - الذيل: يُعرف بأنه المكون "الذي يحمل المعلومة التي توضح معلومة داخل الحمل أو تعدّها أو تصحّحها"¹، وهو بالنظر إلى ذلك ثلاثة أنماط هي:

أ. ذيل التوضيح: مثل: زرتها البارحة، أختك، إذ يوضح المكون أختك معلومة لدى المتلقي.

ب. ذيل التعديل: مثل: قرأت الرواية، نصفها، يعدل المكون نصف ما اعتقده المتلقي عن قراءة (المتكلم) للرواية.

ج. ذيل التصحيح: مثل: زارني مريم، بل زينب، يصحح المكون زينب ما اعتقده المتلقي عن الشخص الذي زار المتكلم.

3 - المنادى: اقترح أحمد المتوكل إضافة " المنادى " كوظيفة تداولية خامسة، لمجموعة الوظائف الأربع المقترحة في إطار نظرية النحو الوظيفي، وقام بوضع تعريف خاص بها حيث عرفها بأنها "وظيفة تسند إلى المكون الدال على الكائن المنادى في مقام معين"²، مثل: يا طلبية، لقد فتحت المكتبة.

ويرى المتوكل أنه "يجب أن يُميز بين النداء، كفعل لغوي (speech act) شأنه شأن الأفعال اللغوية الأخرى كالإخبار، والاستفهام والأمر والوعد والوعيد، و" المنادى " كوظيفة أي كعلاقة relation تسند إلى

¹ - أحمد المتوكل، الوظائف التداولية في اللغة العربية، ص 147.

² - ينظر: المصدر نفسه، ص 160 و 161.

أحد مكونات الجملة"¹، ولا شك أن الحديث عن المنادى كفعل لغوي متعلق بتحقيق فعل إنجازي يريده المتكلم من الشخص المنادى، أما الحديث عن المنادى كوظيفة فيتعلق ذلك بأداة النداء وذلك باعتبارها أداة رابطة داخل الخطاب تعمل على تحقيق الاتساق.

وقد استطاع أحمد المتوكل من خلال استناده على التحليلات اللغوية التي أوردها النحاة العرب في حديثهم عن النداء، استنباط فروع أخرى لوظيفة المنادى، حيث يقول في هذا الصدد: "يُميز النحاة العرب بين "المنادى" و"المندوب" و"المستغاث"، ونعتبر هذا التمييز وارداً لأن لكل من المكونات الثلاثة خصائص ينفرد بها"²، كما يتبين من الجمل (1) و(2) و(3)، التي تمثل للبنيات الندائية، والبنيات الاستغاثية، والبنيات الندبية على التوالي:

- يا رباه اغفر لنا.

- وا معتصماه.

- يا للفلسطينيين، لما أصابهم.

فقد اعتبر "المنادى" و"المندوب" و"المستغاث" أنواعاً ثلاثة للوظيفة التداولية المنادى، واصطلح على تلك الأنواع الفرعية بـ: منادى النداء، ومنادى الاستغاثية، ومنادى الندبة.

2 - ج. البنية المكونية: وهي البنية الصرفية - التركيبية للجملة، "ويتم بناؤها عن طريق إجراء النسق الثالث من

القواعد، "قواعد التعبير" التي تطبق طبقاً للمعلومات المتوافرة في البنية الوظيفية"³. وهي البنية اللغوية النهائية.

ويشمل نسق قواعد التعبير مجموعات القواعد الآتية:⁴

- قواعد صياغة الحدود.

- قواعد صياغة المحمول.

- قواعد إدماج مؤشر القوة الإنجازية.

- قواعد الموقعة.

- قواعد إسناد النبر والتنغيم.

¹ - أحمد المتوكل، الوظائف التداولية في اللغة العربية، ص 161

² - المصدر نفسه، ص 162.

³ - أحمد المتوكل، اللسانيات الوظيفية مدخل نظري، ص 148.

⁴ - المصدر نفسه.

- **قواعد صياغة الحدود:** وهي القواعد التي تتكفل بنقل الحد من بنيته المنطقية المجردة إلى بنية صرفية - تركيبية محققة، حيث يصبح مركبا، وتلك القواعد نوعان:

1 - قواعد مخصصات الحد أو مجموعة المخصصات، "وتشمل مخصص أداتي التعريف والتنكير، والعدد (مفرد، مثنى، جمع)، والمشيرات (أسماء الإشارة)، والأسوار (كل، بعض)، ويؤشر لهذه المخصصات في البنية الحملية برموز مثل: (الإشارة إلى المعرفة بـ ع، والنكرة بـ ن، والمفرد بـ 1 وغيرها من المخصصات...)، ويتم في البنية المكونية إدماج الصرفات المناسبة، كإدماج صرفة التعريف (ال) أو الإضافة، أو صرفة المثنى (ان/ين)، أو الجمع (ون، ين) للمذكر و (ات) للمؤنث¹، ويمكن التمثيل لذلك من خلال ما يلي:

أ - حضر المدير.

ب - حضر مدير الجامعة.

ج - نجح المهندسون.

د - نجحت المهندسات.

أ - [ن. ج. ح. {فعل} كف (ع 1 ذ س 1: طالب) منف فا مح.].

ب - [ح. ض. ر. {فعل} كف (ع 1 ذ س 1: مدير الجامعة) منف فا مح.].

ج - [ن. ج. ح. {فعل} كف (ع 3 ذ س 1: مهندس) منف فا مح.].

د - [ن. ج. ح. {فعل} كف (ع 3 ث س 1: مهندس) منف فا مح.].

- دلالة الرموز: تشير (ع) إلى صفة معرفة، تشير (1 و 2 و 3) إلى العدد مفرد أو مثنى أو جمع، و (ذ ث) إلى الجنس مذكر، مؤنث، و (س) تشير إلى موضوعات المحمول الأساسية.

- تم دمج صرفة التعريف أل في الجملة (أ) فأصبحت المدير، وأضيفت في الجملة (ب) كلمة الجامعة إلى مدير فأصبحت محققة في مركب مدير الجامعة، أدمجت في الجملة (ج) صرفتا التعريف (ال) وجمع المذكر السالم (ون) فتم الحصول على كلمة المهندسون، ثم تم في الجملة (د) دمج صرفتا التعريف (ال) وجمع المؤنث السالم (ات)، فنتج عن ذلك كلمة المهندسات.

¹ - ينظر: أحمد المتوكل، اللسانيات الوظيفية مدخل نظري، ص 144 والوظيفة والبنية، ص 36 و 37 و 38.

2 - قواعد مقيدات الحدود: يتألف الحد إما من مقيد واحد أو من مقيدات متعددة. و"يرد المقيد الأول اسماً، في حين ترد المقيدات الأخرى إما صفات أو جملاً. مثال ذلك:

- تفتحت الأزهار ← مقيد واحد

- قابلت الطالبة الجميلة المجتهدة ← ثلاث مقيدات

- رأيت الأستاذ الذي كرمته الجامعة ← تتضمن مقيد اسم ومقيد جملة موصولة¹.

وتستكمل الحدود صياغتها من خلال إسناد الحالات الإعرابية.

- قواعد صياغة المحمول: وهي قواعد "تابعة لقواعد التعبير المسؤولة عن تحقيق المحمول بإعطاء الصيغة الصرفية له، على أساس المعلومات الواردة في البنية التحتية والتي تتعلق بالمخصصات الزمنية والجهية والصيغية"²، إذ على أساس المعلومات التي تقدمها البنية التحتية تقوم هذه القواعد ببناء المحمول زمنياً وجاهياً وصيغياً.

ففي الجملة: "كتب هذا الشاعر ديوانين

تكون القاعدة المسؤولة عن صياغة هذا الفعل هي القاعدة:

مض تا 1، ش 3، ذ، فا [ك. ت. ب فعل ف] = كتب

حيث: مض = ماض، تا = تام، 1 = مفرد، ذ = مذكر، ش 3 = غائب، فا = فاعل³.

- قواعد إدماج مؤشر القوة الإنجازية: يتصدر الحمل مكونات مطلقة وهي ثلاثة أنماط "مكونات حدود، ومؤشرات القوة الإنجازية، ومعلقات دواجم. تنتمي إلى النمط الأول أسماء الاستفهام (ماذا، متى ..)، وتنتمي إلى النمط الثاني أداتي الاستفهام (هل، والهمزة)، والأداة الدالة على الاستفهام الإنكاري (أو)، والأداة (إنّ بكسر الهمزة). أما الأدوات الداجمة فهي تستخدم للربط بين جملتين كالأداة أنّ، والضمائر الموصولة (الذي، ما، من)⁴، والواضح أن هذه القواعد تتكفل بتبيين الطريقة الناجحة لبناء الخطاب بناء مترابطاً، والتعبير عن المقصدية بدقة وهذا ما توضحه مؤشرات القوة الإنجازية. ولكل أداة من أدوات الاستفهام قاعدة إدماج معينة.

¹ - أحمد المتوكل، اللسانيات الوظيفية مدخل نظري، ص 148.

² - محمد الحسين ملبطان، نظرية النحو الوظيفي الأسس والنماذج والمفاهيم، ص 113

³ - أحمد المتوكل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، ص 42.

⁴ - ينظر: أحمد المتوكل، اللسانيات الوظيفية مدخل نظري، ص 156 و 157.

- إدماج هل:¹

دَخل: [سَه 1 (س ن)] بؤ جد].

خَرَج: [هل 1 (س ن)] بؤ جد].

مثل: هل نجح عمرو.

[هل نجح (ف) عمرو (منف) (فا) (مح) (بؤ جد)].

- إدماج الهمزة:²

دخل: أ - [سَه 1 (س ن)] بؤمقا].

ب [سَه ... (س ع) بؤمقا ...]]

خرج: [أ 1 (س ن)] بؤمقا].

ب [أ ... (س ع) بؤمقا ...]]

مثل: أ زيدا ضربت.

[أ زيدا (متق) (مف) (بؤ مقا) (ضرب) ف ت].

- إدماج أو:³

دخل: أ [سَه لك 1 (س ن)] بؤمقا].

ب [سَه لك ... (س ع) بؤمقا ...]]

خرج: أ [أو 1 (س ن)] بؤمقا].

ب - [أو ... (س ع) بؤمقا ...]]

مثل: أو غادر الشرطي.

[أو غادر (ف) الشرطي (منف) (فا) (مح) (بؤ مقا)].

- إدماج إن:⁴

دخل: [خب 1 (س ن)] بؤمقا].

¹ - أحمد المتوكل، اللسانيات الوظيفية مدخل نظري، ص 159.

² - المصدر نفسه.

³ - المصدر نفسه، ص 160.

⁴ - المصدر نفسه، ص 161.

خرج: [إن (س1) ... (س ن)] بؤ مقاً].

مثل:

أ - لم يغادر المعلم

[خب مغادر (ص) معلم منفـ{فا محـ} بؤ مقاً].

رفع

ب - إنَّ المعلم مغادر

[إن مغادر (ص) معلم منفـ{فا محـ} بؤ مقاً].

رفع

وتكتمل البنية من خلال عملية إسناد الحالات الإعرابية.

- قواعد إسناد الحالات الإعرابية:

يقصد بالحالات الإعرابية "الإعراب الذي يسند إلى مكونات الجملة في مستوى مجرد، وتقابل الحالة الإعرابية المجردة (الرفع، النصب، الجر، الجزم)، العلامات الإعرابية (الضمة، الفتحة، الكسرة، السكون) التي تعد تحقيقاً لذلك الإعراب المجرد، ويتم إسناد الحالات الإعرابية في اللغة العربية بمقتضى الوظائف التي تحملها مكونات الجملة"¹.

وبما أن المكون الواحد يمكن أن يحمل ثلاث وظائف في الوقت نفسه (وظيفة دلالية، تركيبية، تداولية) فإن هذه الوظائف يضبطها نظاماً معيناً. حيث تكون للوظائف التركيبية الأولوية في تحديد الحالات الإعرابية على الوظائف الدلالية، وهذه الأخيرة لها الغلبة على الوظائف التداولية، وتبعاً لذلك تسند الحالات الإعرابية، إلى المكونات بحسب وظيفتها التداولية التي تكون في الغالب إما داخلية أو خارجية.

أ - إذا كان المكون داخلية:²

- يأخذ حالته الإعرابية بمقتضى وظيفته التركيبية، فتأخذ بذلك مكوناته الأساسية ثلاث وظائف (دلالية، تركيبية، تداولية)، وانطلاقاً من أن الوظيفتين التركيبيتين تحجبان الوظائف الدلالية والوظائف التداولية، يأخذ مكون الفاعل حالة الرفع، ومكون المفعول حالة النصب.

¹ - ينظر: أحمد المتوكل، الوظائف التداولية في اللغة العربية، ص 11.

² - المصدر نفسه، 19.

- يأخذ حالته الإعرابية بمقتضى وظيفته الدلالية، إذا لم يكن حاملا لوظيفة تركيبية، وفي هذه الحالة يكون منصوبا، إذا لم يسبقه جار.

ب - إذا كان المكون خارجيا فإنه يأخذ حالته الإعرابية بمقتضى وظيفته التداولية وحدها.

- **قواعد الموقعة:** تكون بنية الجملة في صيغتها المنطقية الدلالية (التحتية) بنية غير مرتبة، مما يستدعي وجوب تنظيمها وترتيب مكوناتها في مرحلة التركيب التي تتعلق بالبنية المكونية، وهذا ما تتكفل به قواعد الموقعة، التي يكون الترتيب من خلالها محكوم بالأسس التالية:¹

- نزوع المكونات الحاملة لنفس الوظائف إلى احتلال نفس المواقع.

- نزوع بعض المكونات إلى احتلال الموقع الصدر في الحمل.

- نزوع المكونات الأكثر تعقيدا إلى التأخر عن المكونات الأقل تعقيدا.

وحسب قواعد الموقعة تترتب مكونات الجملة في اللغات الطبيعية، طبقا لبنية موقعية معينة تختلف من نمط لغوي إلى آخر، فبالنسبة للغة العربية - مثلا - فإنها تأخذ البنية الآتية:²

4م، 2م، 0م ف (م آ) فاف ص، 3م

توضح هذه البنية أن المواقع نوعان:

1- مواقع داخلية:

وهي المواقع التي تأخذها "الأدوات الصدور" (أداة الاستفهام مثلا) وهو 1م، والموقع المخصص للمكونات الحاملة للوظيفة المحور أو الوظيفة بؤرة المقابلة (0م)، وموقع الفعل والفاعل والمفعول (ف، فاف، مف)، والموقع (أو الحيز الموقعي) (ص) الذي تحتله المكونات اللواحق، التي ليست لها وظيفة تحولها احتلال موقع خاص، والموقع (م آ) الذي يحتله في حالات معينة، المكون المحور"³، هذا ما توضحه الجملتين (أ) و (ب):

أ - أمساء التقى الأستاذ الطالب في الجامعة ؟

ب - ضرب عمرا محمد (بنبر محمد).

الجملة (أ): تحتل أداة الاستفهام همزة الموقع (م 1)، المكون مساء الموقع (0م) البؤرة، والفعل التقى الموقع (ف)، المكون الأستاذ الموقع (فاف) الفاعل، والمكون الطالب الموقع (مف) المفعول، والموقع (ص) لبقية المكونات.

¹ - أحمد المتوكل، اللسانيات الوظيفية مدخل نظري، ص 161 و 162.

² - أحمد المتوكل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، ص 44.

³ - ينظر: المصدر نفسه، ص 45.

الجملة (ب): يأخذ الفعل ضرب الموقع (ف)، والمكون محمد الموقع (فا)، والمكون عمرا الموقع (م آ) إذ يشكل محور الجملة.

2 - مواقع خارجية:

تشمل "موقع المنادى م4 وموقع المبتدأ م2 وموقع الذيل م3"¹، فهي مواقع خارجة عن الجملة سواء أكان ذلك الخروج خروجاً قبلها (المبتدأ، والمنادى)، أم بعداً (الذيل).

- قواعد إسناد النبر والتنغيم:

يتطلب التحقيق الكلي للبنية المكونية مراعاة خصائصها الصوتية، وذلك ما يتم عبر قواعد النبر والتنغيم. إذ يعد النبر والتنغيم من أهم آليات التعبير المعتمدة في كثير من اللغات الطبيعية، وقد بينت نظرية النحو الوظيفي أن تطبيق تلك القواعد يكون وفقاً لقاعدتين:

1- إسناد النبر إلى المكون الحامل للوظيفة التداولية بؤرة جديد أو بؤرة مقابلة²، مثل نبر المكون الاسمي "رواية" في الجملتين الآتيتين:

أ - كتب أحمد رواية.

ب - رواية كتب أحمد.

فعلى أساس النبر تتغير ووظيفة المكون (رواية)، وهو ما يتبع غرض الجملة؛ حيث يقصد -مثلاً- في الأولى التعجب في حين يكون الإخبار الغرض في الثانية.

2- إن ما يحدد تنغيم الجملة هو القوة الإنجازية الحرفية، أو القوة الإنجازية المستلزمة، أو الاثنين معاً³، كقول أحدهم: هل ألقاك غداً؟ . حيث تتمثل الحرفية في السؤال أما الثانية فتتمثل في الطلب.

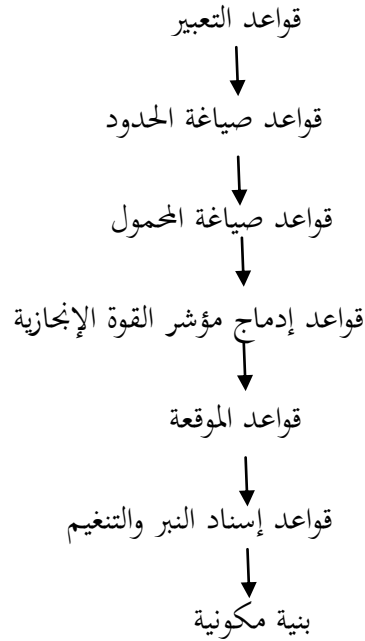
يمكن القول: إن توفر النبر والتنغيم في سياق لغوي ما يكون تابعا لما يفرضه السياق التواصل، حيث يجب أن يتماشى توظيفهما مع الوضع التخاطبي الذي يكون بين المتكلم والمخاطب، ويبدو من خلال ما جاءت به نظرية النحو الوظيفي أن ذلك التوظيف يستأثر بنمط الخطاب الشفوي أكثر من الخطاب الكتابي.

¹ - أحمد المتوكل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، ص 44.

² - ينظر: أحمد المتوكل، اللسانيات الوظيفية مدخل نظري، ص 167.

³ - ينظر: المصدر نفسه.

وانطلاقاً من هاتين القاعدتين نحصل على بنية مكونية تامة التحديد، تشكل بنية قابلة للتأويل الصوتي، وذلك ما يعبر عنه المخطط الآتي¹:



لم يكن ما قدمته نظرية النحو الوظيفي في إطار البحث في بنية الجملة، كافياً لبلوغ مطامح الوصف والتفسير الكلي الذين تقتضيهما شروط الكفايات، فقد كان تأسيس سيمون ديك وغيره من الوظيفيين لهذه النظرية بهدف تجاوز لسانيات الجملة، وتأسيس لسانيات خطائية/ نصية. فالنحو الوظيفي حسب رأيهم نحو خطاب وليس نحو جملة، وهذا ما دفعهم إلى إعادة صياغة نماذج جديدة تعالج موضوع بنية الخطاب. والواقع لقد كانت ظاهرة الانتقال من الجملة إلى الخطاب/ النص، من أبرز التحولات الإستيمولوجية التي عرفتها العديد من النظريات اللسانية الغربية.

ثالثاً - لسانيات الخطاب/ النص:

تحولت وجهة البحث اللساني الغربي وممارساته الوصفية، التحليلية، التفسيرية، من الجملة إلى الخطاب (أو النص)، حيث تم التمييز والفصل بينهما عند بعض اللسانيين باعتبارهما قسمين مختلفين لاستعمالات المتكلمين اللغوية من حيث الحجم، وقد تم ظهور ذلك التحول خاصة بعدما لوحظ قصور البحث ونتائجه داخل النظريات اللسانية، التي توقفت عند حدود الجملة باعتبارها الوحدة الأساسية للبحث. لتعرف اللسانيات على إثر

¹ - أحمد المتوكل، اللسانيات الوظيفية مدخل نظري، ص 173.

ذلك منحاً آخر شكل فيه النص/ الخطاب مدار الاهتمام وهو ما عرف تسميات مختلفة منها: اللسانيات النصية، لسانيات الخطاب، نحو النص، علم النص، وهي تسميات لمسمى واحد.

رأى العديد من الباحثين أن عملية القيام بتجاوز مستوى الجملة والانتقال إلى مستوى النص، ليصبح الوحدة الأساسية للدراسة اللسانية أمراً ضرورياً، وذلك بالنظر إلى تعدد مستويات اللغة ومجالات استعمالها التي تتعلق بالمتكلم والمتلقي، وما يقومون به من عمليات لغوية ذهنية في إطار الإنتاج والقراءة التحليلية (الفهم والتأويل)، وذلك ما كشف عدم إمكانية الدراسات التي تناولت بنية الجملة على استيعاب مختلف تلك المراحل، وقد ركز هذا التوجه على تبين كيفية دراسة النصوص وقواعد بنيتها وما يقوم بين وحداتها من علاقات، وكذا التطرق لتوضيح جانبها الإللاغي التواصل.

لقد ظهرت أول محاولة جادة قامت بتجاوز الجملة وركزت على دراسة الخطاب مع زيلخ هاريس **Z. haris**، وذلك من خلال ما قدمه في مؤلفه تحليل الخطاب 1952 Discours Analysis "حيث تضمن هذا المؤلف دراستين غيراً أفق الدراسات اللسانية الحديثة بتقديمه أول تحليل منهجي لخطابات ونصوص بعينها"¹، إذ عني فيها بوصف وتحليل بنيتها الداخلية من خلال الوقوف على علاقات وحداتها اللغوية التي تمثلها الجمل، وقد اعتمد في ذلك على آليات المنهج الوصفي التوزيعي، الأمر الذي جعل دراسته تتمحور حول البعد اللغوي المحض حيث لا مجال لبعد الخطاب الوظيفي الاجتماعي.

فقد "اهتم في أشغاله بتحليل الخطاب انطلاقاً من مسألتين: أولاهما توسيع حدود الوصف اللساني إلى ما هو خارج الجملة. وهذه مسألة لسانية محضة. أما المسألة الثانية فتتعلق بالعلاقات الموجودة بين اللغة والثقافة والمجتمع وباعتبارها قضية خارج لسانية فلم يهتم بها ببقائه ضمن حدود البحث اللساني"²، وعلى هذا الأساس عرّف الخطاب بأنه "ملفوظ طويل، أو متتالية من الجمل تكوّن مجموعة منغلقة، يمكن من خلالها معاينة بنية سلسلة من العناصر بواسطة المنهجية التوزيعية وبشكل يجعلنا نل في مجال لساني محض"³. فقد اتبع في دراسته منهج المقاربة البنوية التوزيعية؛ حيث ركز على تحليل الخطاب تحليلاً بنوياً معتمداً على إجراءات وآليات تلك المقاربة (التقطيع، والتصنيف، والتوزيع).

¹ - سعيد حسن البحيري، علم لغة النص، المفاهيم والاتجاهات، دار نوبال للطباعة، القاهرة، ط1: 1997، ص 18.

² - سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي (الزمن - السرد - التبئير)، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط3: 1997، ص 17.

³ - المرجع نفسه، ص 28.

ويجب الإشارة هنا إلى حقيقة مفادها أن ظهور لسانيات النص/ الخطاب لا يتوقف على ما جاء به هاريس فقط، بل تواجدت منذ القدم محاولات وتصورات كانت طريقاً للاهتمام بدراسة النصوص/ الخطابات وتحليلها. ويمكن أن نذكر في هذا السياق:¹

- جهود كونتليان إذ تطرق إلى مسائل تتعلق بالتنظيم الداخلي للنص كالوضوح، والفصاحة، والرشاقة، والملاءمة كما توسع الأسلوبيون بعده في استخدام معطيات علم اللغة، لدراسة الأساليب التي تنشأ من اختيارات خاصة يلجأ إليها الكاتب عند الضرورة، لكتابة نص خاص.

- شارك الأنثروبولوجيون في هذا السياق، ومن بينهم مالفينوفسكي، وفلاديمير بروب، وستراوس وأتباعه، وقد تميزت جهودهم من الاستفادة من علم اللغة البنيوي في تحليل النماذج.

- لفق اللغة مساع للبحث عن علم لقواعد النص، وأشهر من سعى للكشف عن الروابط بين دراسة النحو ودراسة المعنى من الفلولوجيين هنري فايل، وهارفنغ الذي تعزى إليه أول محاولة جادة لوصف التنظيم الذاتي الداخلي للنصوص، من خلال الحديث على بعض العلاقات التي تسودها مثل علاقة الإحالة والاستبدال.

لقد توالى بعد هاريس أعمال كثيرة ساهمت في توسيع مجال الدراسة اللسانية وتغييرها من الحملة إلى النص/ الخطاب، من بينها ما قدمه دي بوغراند (De Beaugrand) ودوسلر (Dessler) في كتابهما: مقدمة في لسانيات النص 1981، وما جاء به هاليداي (Halliday) ورقية حسن (Rokaya Hassan)، وبنفنيست (Benveniste)، ورولان بارت (Rolnd Barthes)، وجوليا كريستيفا (Kristeva Julia)، وفان دايك (Van Dyck) ..، وغيرهم ممن كانت لهم إسهامات في هذا المجال.

1 - الفرق بين مفهوم النص والخطاب:

أُطلق مصطلح النص على الإنتاج اللغوي الذي يتعدى الجملة على أساس أنه يتكون من عدة وحدات جُمليّة، وقد عبر بعض اللسانيين عنه بالإضافة إلى هذا المصطلح بمصطلح الخطاب، لكن في مقابل ذلك يذهب البعض الآخر منهم إلى التفريق بينهما. والواقع لقد أثارت مسألة الحدود الفاصلة بين هذين المصطلحين نقاشاً

¹ - ينظر: إبراهيم محمود خليل، في اللسانيات ونحو النص، دار الميسرة، عمان - الأردن، ط2: 2009، ص 185 و 186 و 187.

عميقا في الوسط اللساني الغربي، اختلفت على إثره آراء اللسانيين وتصوراتهم، إذ انقسموا في ذلك إلى أربع فئات:¹

- فئة تقيم التمييز بينهما على أساس تكاملي، باعتبار أن النص يمثل شكل العمل الأدبي، أو بنيته السطحية الظاهرة، أما الخطاب فيمثل مضمونه للعميق.
- فئة جعلت الخطاب مرتبطا بالجانب التركيبي، وجعلت النص مرتبطا بالكتابة، مما ينتج عنه أن الخطابية خصوصية متعلقة بعملية الإنتاج، والنصية خصوصية مرتبطة بالتلقي.
- فئة تفرق بينهما بالاعتماد على المظهر الكتابي الذي يتجلى به النص دون الخطاب، فاللغة الشفوية هي المعنية بالخطاب، بينما تتولى الكتابة إنتاج النصوص، ومن هؤلاء العلماء بول ريكور.
- أما الفئة الرابعة فإنها تفرق بين النص والخطاب بناء على ما بينهما من تداخل وخصائص مشتركة، وبذلك فإن النص هو ما يظهره الخطاب. وهذا ما ذهب إليه - مثلا - فان دايك، إذ يعرف الخطاب بأنه: "السياق التداولي للنص وبالتالي فهو فعل الإنتاج اللفظي للنص، وثمرته الملموسة المرئية"².

يعد ما ذهب إليه فان دايك وغيره من الباحثين الذين مثلوا الفئة الرابعة، محاولة جادة لتقديم تصور موحد يجمع بين المصطلحين، حيث يكون قادرا على تجاوز مختلف الفروق التي لم تستند في مجملها على أساس علمي؛ إذ نظرت كلها إلى العمل الأدبي نظرة جزئية؛ وقد فرقت كل فئة - من هذا المنطلق - بين المصطلحين من خلال المقابلة بين ثنائيتين يشملهما، وذلك نحو: بنيته: (السطحية والمضمرة)، وطرفيه (المنتج المتلقي)، وطريقة تقديمه (شفوية ومكتوبة)، وغير ذلك من الفروق التي لم تذكر ضمن تلك الفئات كما هو الحال عند جون ميشال آدم، حيث يرى أن "كل ما يدخل في التكوين المادي للملفوظ يعد نصا، وكل ما يرتبط بالسياق وشروط الإنتاج والتلقي يعد خطابا، توضح ذلك المعادلة الآتية:

$$أ - \text{الخطاب} = \text{النص} + \text{شروط الإنتاج}$$

$$ب - \text{النص} = \text{الخطاب} - \text{شروط الإنتاج}^3.$$

¹ - ينظر: عبد الواسع الحميري، الخطاب والنص المفهوم، العلاقة، السلطة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط: 2008، ص 90.

² - فان دايك، النص والسياق، تر: عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء - المغرب، ط: 1: 2000، ص 17.

³ - Jean Michel Adam, Linguistique textuelles des genres de discours aux textes, Ed, Nathan, paris, 1999, P 39.

يؤدي اعتماد شروط الإنتاج معيار الفصل بينهما إلى التسليم بطبيعة النص البنوية، وانغلاقه على ظروف وعوامل الإنتاج الخارجية، في مقابل الطبيعة الدينامية للخطاب التي تعبر عن مرونته وتفاعل تركيبه مع السياق الخارجي الذي يشمل شروط الإنتاج، ولعل هذا ما يفضي في الوقت نفسه إلى طرح إشكال اختلاف الدراسة والنظريات التي تتناول كل مصطلح؛ إذ يصبح من الممكن القول بوجود لسانيات النص في مقابل لسانيات الخطاب.

ويبدو أن التوحيد بين المصطلحين وبالتالي تناولهما في إطار بحثي مشترك (واحد) هو ما ينبغي أن يعتمد حسب الفئة الرابعة، وهذا ما عمل عليه فان دايك مثلاً، حيث عمل على بناء مقارنة كلية تداولية خطائية/ نصية.

2- اتجاهات لسانيات النص/ الخطاب:

عرف منحى اللسانيات النصية/ الخطائية عدة تصورات وطروحات متباينة، بحيث استند كل طرح على أسس ومنطلقات خاصة مثل فيها مفهوم النص بالنظر إلى شكله مقارنة بالجملة محور الالتقاء، وهذا ما أشار إليه كلاوس برينكر (Klaus Brinker) حيث يقول: "حين نتحدث عن علم النص فإن ذلك يمثل بداية تبسيطاً شديداً إذ إنه تكمن خلف هذا العنوان اتجاهات لغوية نصية كثيرة ذات تصورات متباينة، إلى حد ما دون شك بيد أنها تتفق في المفهوم القائل أن أعلى وحدة مختصة في التحليل اللغوي ليست الجملة بل النص"¹.

يرجع أمر التباين إلى التنوع النظري والمنهجي الذي عرفه البحث اللساني، من خلال ما قدمه التوجه الشكلي سواء منه (البنوي أو التوليدي التحويلي)، والتوجه الوظيفي بنظرياته المختلفة، خاصة وأن الانتقال من الأول إلى الثاني يعكس انتقال دراسات الباحثين من الجملة إلى النص، ولذلك تعددت الرؤى والتصورات وهو ما حال دون وجود تعريف محدد للنص. وحسب كلاوس برينكر فإن أهم ما قُدم بشأن هذا الأمر يؤول إلى اتجاهين:²

¹ - كلاوس برينكر، التحليل اللغوي للنص، مدخل إلى المفاهيم الأساسية، والمناهج، تر: سعيد بحيري، مؤسسة المختار للنشر، القاهرة، ط1: 2005، ص 17.

² - المرجع نفسه، ص 23 و 24 و 25.

- اتجاه علم لغة الجملة البنيوي والنحو التوليدي التحويلي، ويعرّف النص بأنه تتابع متماسك بين الجمل.
- اتجاه علم لغة النص ويستند إلى نظرية التواصل، وفيه عرف النص بأنه فعل لغوي معقد "sprachliche Handling" يحاول المتكلم به أن ينشئ علاقة تواصلية معينة مع السامع أو القارئ.

تمثل مسألة الرؤية إلى النص وكيفية دراسته - في الحقيقة - مكن أو مدار الاختلاف؛ إذ يقف بعض الباحثين عند حدود النص اللغوية وعلاقاته الداخلية ليتم بذلك إقصاء علاقته بمنتهجه (المتكلم)، ورفض مختلف الأنساق الخارجية بعناصرها (المتلقي (سامعا أو قارئا) وظروف الإنتاج (المقام))، وشتى أبعادها (الثقافية، الاجتماعية ..)، وعكس ذلك ما يذهب إليه البعض الآخر منهم ويدافع عنه. وذلك ما يمثل الاتجاه الثاني؛ إذ يجب التعامل مع النص وفق هذا الاتجاه باعتباره عملا لغويا يتداخل وينفتح نسقه الداخلي مع أنساقه التواصلية الخارجية، فيكون من الضروري احتراز علاقته بمنتهجه ومراعاة مرحلة ما بعد الإنتاج التي تتمثل في علاقة النص بالمتلقي.

نظر ممثلو الاتجاه الأول إلى النص بعده بنية مغلقة، إذ لا أهمية حسب اعتقادهم إلا لنسيجه الداخلي ولذلك ركزوا على علاقات الترابط بين وحداته أين يتجلى الاتساق والانسجام، وقد استندوا في ذلك على ما جاءت به اللسانيات البنوية من خلال اتباع منهجها الوصفي الحايث الذي يُقصي ما هو غير لغوي. ومن أهم ممثلي هذا الاتجاه هاريس.

بنى مايكل ريفاتير M. Reffatere كذلك في إطار بحثه في الأسلوب الرؤية البنوية للنص/ الخطاب، إذ لا أهمية عنده إلا لنسقه أو بنيته الداخلية، حيث نقف على أسلوبه ونتمكن من معرفة ووصف خصائصه، وقد استبعد بذلك دور الذات المتكلمة (المؤلف) كما نفى أن تكون للنص علاقة بالسياق الخارجي.

فأهم ما يجب التركيز عليه - حسب ريفاتير - بالإضافة إلى بنية النص الداخلية علاقته بالقارئ، التي يقدم من خلالها هذا الأخير موقفه من أسلوب النص ومضانه، حيث يقوم "بتقسيم النص إلى وحداته الأسلوبية، التي هي مجموعة الكلمات والجمل المترابطة، ترابطا غير توزيعي، وهو يستبعد الإثبات النقدي الأسلوبي الذي يعتمد تواتر الكلمات ليحصل منها مفاتيح لنص جديد، كما يرى أن عملية التواصل الأدبي تقتضي النص والقارئ فقط، مستبعدا من ذلك دور البات، والمرجع والسنن، والصلة. فالتحليل البنيوي هو وحده الكفيل باكتشاف ورصد الظاهرة الأدبية في النص وذلك من منطلق كونه يتركز على النص بمفرده، مراعيًا علاقاته الداخلية البينية للكلمات

وعلاقة ذلك كله بالقارئ"¹، فيغيب بذلك مبدعه ومختلف ما يربطه بالواقع الخارجي، ولكنه يبقى منفتحاً من خلال علاقة وحيدة يجب الاعتداد بها والتركيز عليها؛ أي علاقته بالقارئ الذي يحتوي النص من خلال عمليات التحليل الداخلي فقط، وهو ما يحوله - بعد المبدع - لأن يصبح مالكا جديداً له.

لم تكن الإستراتيجية التي اعتمدتها المقاربة البنوية في تعاملها مع الخطاب مقارنة صحيحة، إذ عدت تضيقاً للممارسة الخطابية الإبداعية من خلال القوانين الصارمة التي اتبعتها؛ فتركيز طروحاتها المختلفة على اللغوي وإقصائها لما هو خارج عنه، ومناداتها في خضم ذلك بضرورة فصل النص عن مؤلفه، كان سبباً قوياً للقول بعدم نجاحها ودفعاً لبروز تصورات ومقاربات أخرى ذات توجه وظيفي تداولي. وفي إطار ذلك تبلور الاتجاه الثاني الذي عرفته لسانيات النص/الخطاب.

نجد من مثليه إميل بنفنيست حيث يعرف الخطاب على أساس بعده العلاقي التواصلية، الذي يخص التفاعل القائم بين المتكلم والمستمع، والذي على أساسه يتولد الخطاب، بأنه "كل قول يفترض متكلماً ومستمعاً، تكون لدى الأول نية التأثير في الثاني بصورة ما؛ فهو يرغب في أن ينقل إليه معلومة أو يحصلها منه أو ينشئ معه علاقة، عن طريق الخبر أو الاستفهام أو الأمر، وهي الوظائف الثلاثة التي يتبادلها البشر فيما بينهم بواسطة الخطاب"²؛ أي من خلال ممارستهم لوظيفة التواصل باعتبارها الوظيفة الأم التي تتفرع منها وتؤدي عبرها تلك الوظائف الثلاث، وقد تطرق إلى ذلك من منطلق بحثه في الملفوظية والتلفظ، إذ سعى إلى تبيين المرتكزات المحورية التي تؤطر العملية التلفظية التواصلية، وتتمثل عنده في: المرسل، والمتلقي، وسياق اجتماعي يكون من خلاله الخطاب علاقة تفاعل وتجاذب بين الطرفين، وقد ركز بنفنيست على أهمية السياق الوظيفية، حيث يحتوي تلك العملية بمختلف وقائعها ويسيرها بطريقة ناجحة، إذ يوجه الأغراض والتأثيرات التي يرومها كلا الطرفين. وقد عمل بنفنيست على وضع "مكانة للذات المتكلمة بعدما أقصتها لسانيات البنوية، وفتح المجال واسعاً لتشديد اللسانيات الخطابية، حيث دعا إلى الأخذ بالحسبان تلك الوظيفة التي تقوم بدور الوساطة في عملية التلفظ، فتسمح بالانتقال إلى السنن إلى المرسل وتالياً إلى الخطاب"³، وذلك باعتبار الخطاب مرادفاً للكلام.

حرص ميشال فوكو (Michel Foucault) كذلك على تأكيد التناول الوظيفي للخطاب، حيث نقف على السياق الخارجي بمختلف تجلياته وأنماطه، فقد عرّف الخطاب بأنه: "مجموع المسطرات والقواعد التاريخية

¹ - ينظر: محمد عزام، النص الغائب، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ط: 2001، ص 20.

² - ينظر: Emille Benveniste, problèmes de linguistique général, t1, 1966, p 84.

³ - أحمد يوسف، القراءة النسقية ومقولاتها النقدية، دار الغرب للنشر والتوزيع، الجزائر، ط: 2000 - 2001، ص 68.

اللامسماة المحددة في الزمن، والتي عُرفت في فترة تاريخية معطاة داخل جو اجتماعي واقتصادي وجغرافي لغوي معين وحددت شروط ممارسة الوظيفة البيانية والتلفظية¹، فمن البديهي ضرورة انتماء أي خطاب إلى سياق معين حيث يظل عبر مر الزمن متصلا به، حاملا لروح عصره ومعبرا عن قيم المجتمع الحضارية والثقافية، ومختلف ما يدور في مجال الحياة الوظيفية الاجتماعية، والواضح أن فوكو قد انطلق في رأيه هذا من فكرة علاقة اللغة بالمجتمع، حيث يكون الخطاب وسيلة وظيفية اجتماعية فعالة متداولة بين المجتمعات.

وقد شهدت لسانيات النص/ الخطاب في شقها الوظيفي مع فان دايك تصورا متطورا، حيث حرص من خلال آرائه التي نجد أهمها ما ورد في كتاب **some Aspects of text grammar** 1972 وكتاب **text and context** 1976، على "إنشاء مقارنة أكثر وضوحا وتنظيما للدراسة اللسانية للخطاب"²، تتجاوز الهنات والنقائص التي وقعت فيها التصورات السابقة له، إذ ركز فيها على تقديم الإستراتيجية الصحيحة التي من خلالها يتم دراسة الخطاب في كليته. وذلك حيث يتواجد **البعد البنوي** الذي يتعلق بوصف اتساق وحدات الخطاب وانسجامها، و**البعد الدلالي** الخاص بالمعنى، و**البعد التداولي** الذي يقف على الجانب التواصلية الاجتماعي.

تلتقي مختلف المقاربات الوظيفية التداولية التي عرفتها لسانيات النص/ الخطاب - في الواقع - حول مسعى بلوغ الشمولية والدقة، التي تمكن من صياغة شروط وقوانين النصية/ الخطابية بالنظر إلى ما يخدم المتكلم والمتلقي في عمليتي الإنتاج والتأويل، فتحدد مبادئ علاقة المتكلم مع خطابه ومع المتلقي، وعلاقة هذا الأخير مع الخطاب الذي يربطه بمنتجه وظروف أو حيثيات إنتاجه؛ وهي قوانين تشمل كل من التركيب والدلالة والتداول، وذلك حيث يكون الخطاب فعلا تبليغيا أو عملية تواصلية دينامية. ولعل هذا ما يمكن الوقوف عليه من خلال ما تمت مناقشته من طرف العديد من الباحثين حول موضوع معايير النصية، فنجد من بينها ما قدمه **دييوجراند وديسلر** في كتابيهما **Text, discourse and process** (النص والخطاب والسياق). وفيه حددا النصية في سبعة معايير هي:³

¹ - ينظر: Michel Foucault, L'archéologie du savoir, Gallimard, Paris, 1969, p 37 et 39.

² - محمد خطاي، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، بيروت - لبنان، ط1: 1991، ص 27

³ - ينظر: روبرت دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، تر: تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ط1: 1998، ص 103 و 104 و 105.

- السبك **Cohésion**: وهو عملية الترابط الرصفي المتعلق بالبنية السطحية وتتحقق عبر آليات مثل: التكرار، الإحالة، الحذف ..

- الالتحام **Cohérence**: عملية الترابط المفهومي للخطاب ويخص البنية المنطقية.

- القصد **intentionality**: موقف منشئ النص وغرضه.

- الموقف **Situationality**: العوامل الذي تجعل النص مرتبطا بموقف سائد يمكن استرجاعه.

- التناص **intertextuality**: علاقات النص بنصوص أخرى مرتبطة به وسابقة له.

- الإخبارية **informativity**: وهي العامل المؤثر بالنسبة لعدم الجزم في الوقائع النصية، أو الوقائع في عالم نصي في مقابلة البدائل الممكنة.

- القبول **Acceptability**: موقف مستقبل النص.

يبدو أن علاقة اللغة بالمجتمع الأساس المنهجي الذي قام عليه تصور ديوجراندي وديسلر؛ حيث يقدم النص باعتباره تفاعلا اجتماعيا وحدثا تواصليا يربط بين مرسل ومتلقي، تتطلب النصية من خلالهما: توفر عنصر القصد في الأول وحصول القبول من الثاني، وقد ركز هذا التصور على كلية النص التي تتشكل من بنيتين: - بنية داخلية لغوية تشمل الجانب المنطقي الدلالي والجانب الشكلي الذي يمثل نسيجه اللغوي، وبنية خارجية تتعلق بموقفه التواصلية الذي يرتبط به.

- وتشترط النصية حسب دي بوجراندي وديسلر توفر مكون التناص الذي يعطي للنص خاصية التفاعل الإيجابي مع نصوص أخرى غائبة، إذ يعبر ذلك عن قوة النص وكفاءة منتجه ومتلقيه. وهذا ما أشارت إليه جوليا كريستيفا حيث عرّفت النص بأنه "جهاز عبر لساني يعيد توزيع نظام اللسان بواسطة الرمز بين كلام تواصلية يهدف إلى الإخبار المباشر، وبين أنماط عديدة من الملفوظات السابقة عليه والمتزامنة معه، وبالتالي النص إنتاجية من حيث إن علاقته باللسان علاقة إعادة توزيع بنائه، وهو كذلك تداخل نصي من جهة وجود عدة ملفوظات مقتطعة من نصوص أخرى داخل النص الواحد"¹، إذ يدعو التصور الذي طرحته كريستيفا من خلال مفهوم التناص إلى انفتاح النص، حيث يعد مزجيا من العلاقات التي يعتمد فيها المنتج على آلية التفاعل النصي، وهو ما يقود في الوقت نفسه إلى طرح طريقة جديدة لتحليل النص بعيدا عن مقولات البنية ورؤيتها الشكلية؛ وذلك من خلال جعل

¹ - ينظر: جوليا كريستيفا، علم النص، تر: فريد الزاهي، مراجعة: عبد الجليل ناظم، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء - المغرب، ط: 1995، ص12.

الاهتمام في عملية التحليل مرتبطا ببعده الداخلي والخارجي، ويعد تصور كريستيفا ردا تقويميا للبنوية التي أخفقت - حسب رأيها - في معالجة النص معالجة شاملة.

- يعد الإخبار أو الإعلام وظيفة جزئية تنتمي إلى وظيفة التواصل باعتبارها الوظيفة الكلية التي تحكم النص، ولعل ذلك ما جعلها في هذا التصور من أهم شروط النصية، ومما لا شك فيه أن مختلف هذه الشروط تؤسس لجعل النص أداة براغماتية لبلوغ أهداف لدى المرسل والمتلقي.

لقد تمكنت لسانيات الخطاب في شقها الوظيفي من تبين ماهية العملية الخطابية وكيفية اشتغالها، ليتسنى لها من خلال ذلك اقتحام العديد من القضايا التي عُييت في إطار الدراسات الشكلية ولسانيات الجملة، حيث اهتمت بجوانب تتعلق بالمتكلم والمتلقي، والخطاب في مستوياته الشكلية والدلالية والتداولية، لتظهر بذلك مواضيع جديدة وهذا ما توضحه - على سبيل المثال - الملفوظية، والإشارات، والإحالة، الاستلزام الحواري، الدلالة العقلية، المعاني الظاهرة والمضمرة ... وغيرها.

رابعا - النص والخطاب في نظرية النحو الوظيفي:

دعت نظرية النحو الوظيفي إلى ضرورة تجاوز دراسة الجملة والتركيز على دراسة الخطاب وذلك ما عد من شروط ومبادئ النظرية الوظيفية، التي تروم تحقيق الكفاية النظرية والمراسية خدمة لمستعملي اللغات الطبيعية، وقد تم تحليل ضرورة ذلك التجاوز بمبررات وضحاها المتوكل في النقطتين التاليتين:¹

1 - يتحتم على النحو الوظيفي أن يجاوز مجال الجملة لأن مستعملي اللغة الطبيعية لا يتواصلون، بجمل منعزلة بل بقطع خطابية متكاملة. فالنحو الوظيفي، إذا أراد أن يظل منسجما مع مبادئه ومزاعمه مضطر إلى وصف قدرة مستعملي اللغة الطبيعية باعتبارها قدرة خطابية.

2 - تبين من الأبحاث التي انصبت على الجملة نفسها أن النظرية الجمالية ذاتها، أو عددا هاما من هذه الظواهر، لا يمكن أن توفى حقها من الوصف والتفسير إذا عولجت في إطار جمل منعزلة، وهذا ما عده ديك أمرا مستحيلا.

يجب أن تكون دراسة أي إنجاز لغوي - حسب ديك - مرتبطة بجميع مكوناته ومراعاة كل الأطراف المشاركة فيه، وذلك باعتباره عملية تواصلية تجمع بين متكلم ومخاطب في ظروف سياقية معينة، إذ من خلال ذلك

¹ - ينظر: أحمد المتوكل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، ص 491 و 492.

تتمكن النظرية من إحراز الوصف والتفسير الشاملين، وهذا ما يدعو إلى رفض الدراسة اللغوية المغلقة التي تقف على جمل منعزلة؛ إذ يصطدم ذلك ويتنافى مع مبدأ الوظيفية، فمحور الدراسة الوظيفية خطابات تبليغية حية. وهذا ما يستوجبه مبدأ التعامل مع القدرة (التواصلية) التبليغية لمستعمل اللغة، الذي يؤدي إلى جعل مجال الدراسة متعلقا بالقدرة الخطابية.

وتجدر الإشارة هنا إلى ما يذهب إليه أغلب الوظيفيون؛ وهو أن هذه النظرية قد سعي بها منذ نشأتها إلى أن تكون نظرية خطاب وليست نظرية جملة، "ولئن انصبت الأبحاث الأولى في هذه النظرية على الجملة بالأساس لأسباب عملية (برنامجية) لا مبدئية، فإنه سرعان ما انتقل المشتغلون في إطارها إلى التفكير في توسيع موضوع الدرس إلى مجال يتعدى مجال الجملة"¹.

والحقيقة ليس انتقال النحو الوظيفي من مجال الجملة إلى مجال الخطاب، والسعي من وراء ذلك إلى توسيع موضوع الدراسة انتقالا شكليا، يدور حول حجم وشكل الإنتاج اللغوي الذي يجب أن يُتخذ كموضوع للدراسة، وإنما يتعلق الأمر بالمنظور الذي ينبغي أن نتعامل من خلاله مع ذلك الإنتاج ومن ثمة بالإستراتيجية والآليات المتبعة، وقد كان المنظور الوظيفي التداولي الذي يركز على دينامية الاستعمالات اللغوية وجانبها الاجتماعي هو ما أكد باحثو النظرية على ضرورة اعتماده.

عمل أحمد المتوكل في خضم ذلك على صياغة نظرية عامة (كلية) تعنى بدراسة الخطاب دراسة شاملة، تتناول جميع أنماطه وتقف على كل مستوياته (التركيبية الدلالي التداولي)، حيث تعمل تلك النظرية على تجاوز مختلف الطروحات الخطابية التي لم تنجح في الوصول إلى ذلك، ولعل أهمها:²

- أطروحة الخاص للخاص:

يذهب ممثلوها إلى أن كل نمط خطابي يستدعي مقارنة تخصه دون غيره، وأن لكل نمط خطابي نظريته القائمة بذاتها، فوضعت للخطاب الأدبي نظرية سيميائية ونظرية شعرية، وللخطاب السردى نظرية سردية، وللخطاب الحجاجي نظرية حجاجية.

¹ - ينظر: أحمد المتوكل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، ص 483.

² - ينظر: أحمد المتوكل، الخطاب وخصائص اللغة العربية، ص 26 و 27 و 28.

- أطروحة الخاص للعام:

وفيها تم تعميم خصائص خطاب معين على خطاب أو خطابات تتسم بخصائص متباينة، وتندرج في هذه الفئة - مثلا - المقاربات التي عاجلت الخطاب الأيديولوجي بما يعالج به الخطاب العلمي والعكس.

- أطروحة البعض للكل:

وهي مقارنة تهتم بجانب واحد من جوانب الخطاب وتغفل الجوانب الأخرى مثال ذلك: - اهتمت بعض الدراسات البنيوية بخصائص النص الصورية على أساس أنه نسق من الوحدات والتراكيب مغفلة على مكوناته الأخرى (الدلالية والتداولية). - عنيت مقاربات أخرى بالجانبين الدلالي والتداولي للخطاب دون الجانب الصوري التركيبي والصوتي.

تعد دراسة الخطاب وفق ما جاءت به إحدى هذه الطروحات دراسة ناقصة مما يعني ابتعادها عن الكلية، وتأسيسا على ذلك ظهرت حتمية وضع النظرية الوظيفية العامة، لتكون بديلا يتميز بالشمولية والتكامل الذين نحتاجهما في عمليات مقارنة شتى أنماط الخطاب وصفا وتفسيرا، وتتلخص معالم تلك النظرية في النقاط التالية:¹

1 - تعمل تلك النظرية بمقتضى مبدأ تعالق الخصائص البنيوية للخطاب بخصائصه الوظيفية التداولية وتبعية الأولى للثانية، وذلك ما يتطلبه إحراز الكفائتين الوصفية والتفسيرية.

2 - تقتضي مقارنة أنماط الخطاب نظرية عامة ترصد خصائص الخطاب الطبيعي التي تتقاسمها تلك الأنماط على تباينها.

3 - ترصد نظرية الخطاب العامة قدرة مستعمل اللغة على إنتاج وتأويل الخطاب باعتبار أن تلك القدرة الخطابية جزء من القدرة اللغوية العامة.

وقد قاد البحث في الخطاب تحت مسعى بناء نحو وظيفي خطابي كلي، انقسام الأبحاث داخل نظرية النحو الوظيفي إلى تيارين:²

1 - تيار الأبحاث التي يقترح أصحابها استichاء أنحاء أخرى لتطوير النحو الوظيفي وتمكينه من التصدي لمجال الخطاب.

¹ - ينظر: أحمد المتوكل، الخطاب وخصائص اللغة العربية، ص 29.

² - ينظر: أحمد المتوكل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، ص 497.

2 - تيار الأبحاث التي يرى أصحابها أن النحو الوظيفي له من الإمكانيات ما يؤهله لبلوغ هذا الهدف بذاته. وداخل هذا التيار الثاني نفسه يمكن التمييز بين اتجاهين: اتجاه من يقول بأن نظرية النحو الوظيفي يجب أن تصوغ نحوًا للخطاب مخالفًا لنحو الجملة، واتجاه من يقول بإمكان نمطية نحو الجملة ليشمل الخطاب على أساس التماثل بين بنية الجملة وبنية الخطاب.

ولعل أهم ما سطرته نظرية النحو الوظيفي في هذا الإطار هو عدم الفصل بين ثنائية نص/ خطاب، متجاوزة بذلك الاضطراب الذي طبع بعض النظريات السابقة لها، إلا أن اختيار مصطلح الخطاب هو ما ساد أغلب أدبياتها. ويرى أحمد المتوكل أن "السبب في هذا التفضيل هو أن مصطلح الخطاب يوحي أكثر من مصطلح النص، بأن المقصود ليس مجرد سلسلة لفظية (عبارة أو مجموعة من العبارات) تحكمها قوانين الاتساق الداخلي (الصوتية والتركيبية والدلالية الصرف) بل كل إنتاج لغوي يربط فيه ربط تبعية بين بنيته الداخلية وظروفه المقامية"¹.

لقد كان ما سعت إليه هذه النظرية مؤسسًا على رؤية إبستمولوجية تواصلية، تحدد مفهوم الخطاب بأنه "كل ملفوظ/ مكتوب يشكل وحدة تواصلية تامة"²، ليتم بذلك إقصاء معيار الحجم الذي يفرق بين أقسام الكلام، حيث يمكن إطلاق مصطلح الخطاب على النص والجملة والمركب الاسمي وكذلك الكلمة، إذ إن الأساس الوظيفي الذي انطلقت منه النظرية جعلها تتخذ التواصل معيارًا للخطابية. التي هي بناء على ذلك "قدرة كل ملفوظ مكتوب ما على تأدية غرض تواصلية معين في موقف تواصلية معين"³، فكل ما يؤدي إلى التواصل فهو خطاب.

ركز الوظيفيون في إطار اشتغالهم بوصف وتفسير القدرة الخطابية، على توضيح أساسيات ومبادئ العملية الخطابية التواصلية وذلك بما يخدم مستعمل الخطاب، وقد اعتمدوا في هذا الأمر على النمذجة والصورة العلمية الدقيقة. هذا ما يعكسه نموذج مستعملي اللغة الطبيعية الذي عُني فيه برصد كيفية استعمال اللغة في خطابات تبليغية ناجحة، إذ تمت معالجة كل ما يتعلق ببنية الخطاب، ومن ذلك تحديد مكوناتها ومستوياتها ومختلف العناصر المتفاعلة في الخطاب باعتباره فعلاً تداولياً وعملية تواصلية، وكذا الوقوف على وصف مختلف المراحل التي تمر بها عمليتا الإنتاج والتأويل.

¹ - أحمد المتوكل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، ص 484.

² - أحمد المتوكل، الوظيفية بين الكلية والنمطية، دار الأمان، الرباط، ط 1: 2003، ص 22.

³ - المصدر نفسه، ص 105.

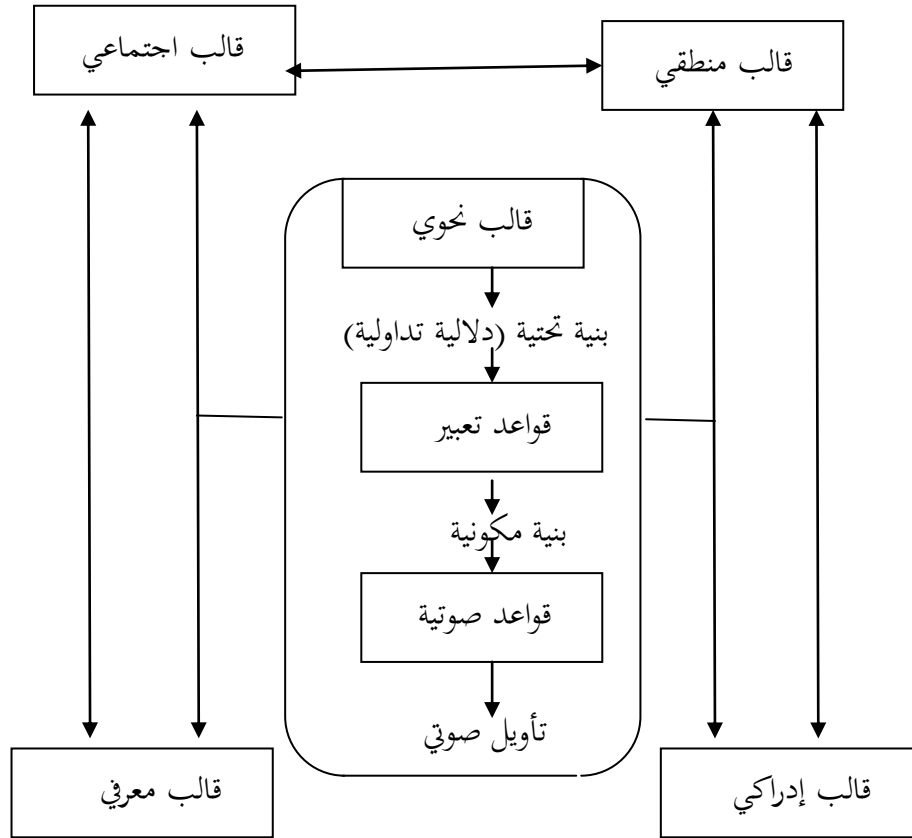
ويُطلق نموذج مستعمل اللغة على صيغة النموذج المعيار وما جاء بعده من نماذج ونقصد بذلك: نموذج نحو الطبقات القالي، ونموذج نحو الخطاب الوظيفي، ونموذج نحو الخطاب الوظيفي الموسع، وقد شكلت بنية الخطاب - بأقسامه المختلفة - في هذه النماذج الموضوع الرئيس الذي عُني بدراسته ووصفه، غير أن الحديث عن تلك البنية قد عرف تباينا مصطلحيا من نموذج لآخر، وهو ما فرضه تطور البحث وارتقاء التصور الذي عرفته نظرية النحو الوظيفي. وعلى هذا الأساس ليس ذلك التباين الذي يلاحظه القارئ من نموذج لآخر - في الحقيقة - إلا تطورا لتصور بنية الخطاب بما يلي متطلبات مستعمل الخطاب، ويجيب عن مختلف التساؤلات التي تتعلق بالقدرة الخطابية، وتحديد استعمال خطاب ما، أيا كان شكله، ونوعه، ونمطه، داخل لغة ما ليمتد إلى كل اللغات الطبيعية. ويمكن الوقوف على ذلك من خلال ما يلي:

1 - صيغة النموذج المعيار:

عمل سيمون ديك من خلال هذا النموذج على وصف القدرة التواصلية لدى مستعمل اللغة (متكلم/ مخاطب)، حيث كشف بدقة عن مكوناتها التي يرى - كما سبق وأن وضحنا - أنها خمس ملكات: ملكة لغوية، ملكة اجتماعية، ملكة منطقية، ملكة إدراكية، ملكة معرفية، وهي ملكات تُستخدم أو تُفعل بدرجات متفاوتة في عمليتنا الإنتاج والتلقي (بآلياتها ومراحلها المختلفة (القراءة، التحليل، الفهم، التأويل)).

أوضح ديك بذلك عملية استعمال اللغة أين تُفعل هذه الملكات وتظهر في خطاب لغوي ما، يجمع في الغالب الكثير - إذا استثنينا الخطاب الذاتي الداخلي أو ما يعرف بالمنولوج - بين متكلم ومخاطب في سياق تواصل اجتماعي معين، لتشارك وتتداخل في خضم ذلك عناصر ومؤثرات لغوية وأخرى غير لغوية، وهو الأمر الذي يحقق مبدأ تعالق البنية بالوظيفة، ويؤكد استحالة الاعتماد على اللغوي المحض فقط. ويرى أن اشتغال بنية نموذج مستعمل اللغة تقوم على أساس أن لكل ملكة قالب خاص بها، حيث يتعالق كل قالب تعالق الدّخل أو تعالق الخُرج مع القوالب الأخرى. كما يتبين من الشكل التالي:¹

¹ - أحمد المتوكل، الخطاب المتوسط مقارنة وظيفية موحدة لتحليل النصوص والترجمة وتحليل اللغات، ص 71.



2 - نحو الطبقات القالبية:

صاغ أحمد المتوكل هذا النموذج على أساس وظيفي تداولي، يقف على حدود وضوابط استعمال القدرة التواصلية وتحديد القدرة الخطابية، وقد رام المتوكل من خلال ذلك تقديم تصور علمي يتميز بالكلية وذلك ما تعبر عنه ما أطلق عليه: (بنية الخطاب النموذج). وفيها نبه إلى ضرورة تناول الخطاب من حيث إنه مجموعة عناصر: (متكلم، مخاطب، السياق التواصل المنجز فيه بحدوده الزمانية والمكانية)، تتفاعل فيما بينها، وتضبطها علاقات على أساسها يكون الخطاب ناجحاً، وهي بنية تتكون من ثلاث مستويات: (مستوى بلاغي، مستوى علاقي، مستوى تمثيلي) ويضم كل مستوى طبقات تميزه كما هو موضح فيما يلي:

أ - مستوى بلاغي ويتضمن:¹

- طبقة نمط الخطاب: خطاب أدبي، خطاب علمي، خطاب سردي، خطاب حجاجي ...
- طبقة الأسلوب: يكون أسلوب الخطاب أسلوباً رسمياً/ غير رسمي، مهذباً/ غير مهذب ...
- طبقة المركز الإشاري: وتتكفل بتحديد المتخاطبين وما يقوم بينهما من علاقات، إضافة إلى المكان والزمان الذي يتم فيه التخاطب.

¹ - ينظر: أحمد المتوكل، الوظيفية بين الكلية والنمطية، دار الأمان، الرباط، ط1: 2003، ص 29.

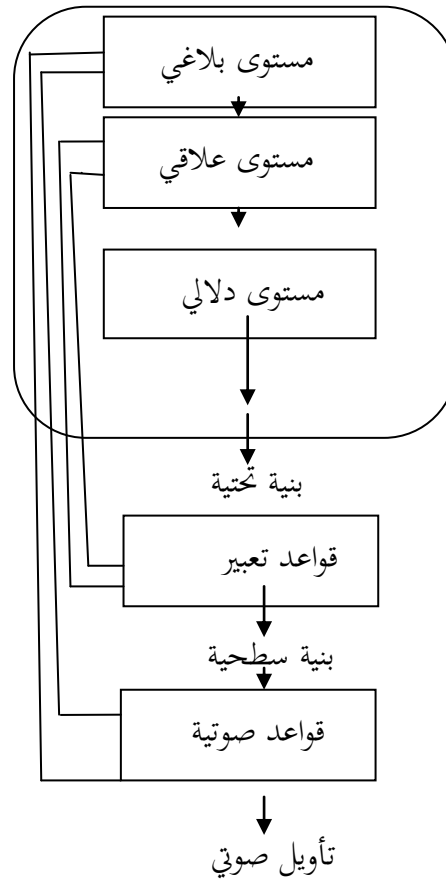
ب - مستوى علاقي ويتضمن:¹

- طبقة إنجازية: وتعلق بالدور الذي يأخذه المتكلم إزاء مخاطبه (دور المخبر أو السائل أو الأمر ...).
- طبقة وجهية: تتعلق بموقف المتكلم الذاتي من فحوى خطابه.
- طبقة استرعائية: وتخص التمثيل للعبارات التي تقوم بدور لفت انتباه المخاطب إلى أن المتكلم ينوي إما الشروع في مخاطبته أو الاستمرار في مخاطبته أو إنهاؤها. وذلك ما يمثل فواتح أو أحشاء أو خواتم الخطاب .

ج - مستوى تمثيلي ويتضمن:²

- طبقة وصفية: تمثل لنمط الوقائع (حدث، عمل، وضع، حالة).
- طبقة تسويرية: تخص تكميم الوقائع وبعض السمات الجهمية.
- طبقة تأطيرية: تحدد زمان ومكان الواقعة.

و يتم التمثيل لعلاقة هذه المستويات في الشكل الآتي:³



¹ - ينظر: أحمد المتوكل، الوظيفية بين الكلية والنمطية، ص 28، و محمد الحسين ملبطان، نظرية النحو الوظيفي الأسس والنماذج والمفاهيم، ص 25.

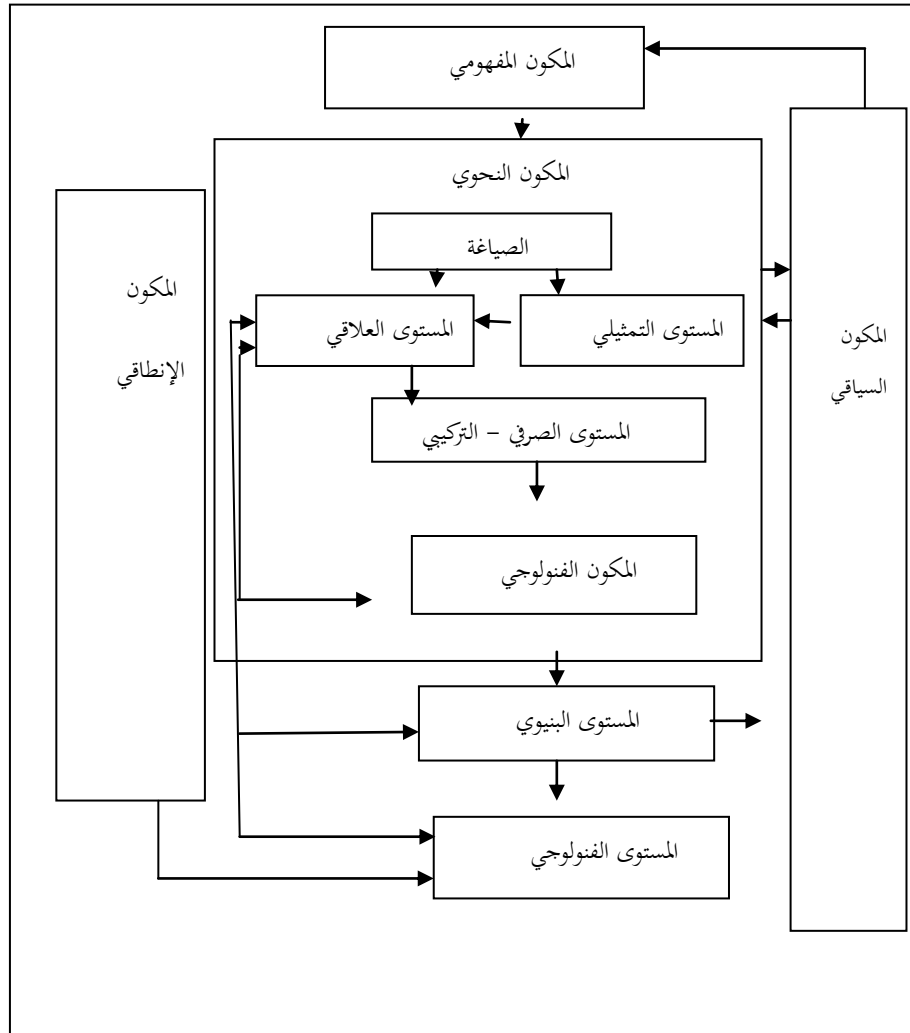
² - ينظر: محمد الحسين ملبطان، نظرية النحو الوظيفي الأسس والنماذج والمفاهيم، ص 25.

³ - أحمد المتوكل، الخطاب المتوسط، ص 72.

ترصد تلك المستويات بمختلف طبقاتها شتى العناصر والسمات التي يمكن أن تشملها العملية الخطابية، وتشكل مختلف السمات دخلاً لقواعد التعبير التي يتم من خلالها نقل البنية التحتية إلى بنية سطحية. تتوحد مختلف الخطابات في إطار نحو الطبقات القالي بغض النظر عن شكلها وغطها وكذا أسلوبها، حيث تخضع جميعها إلى بنية خطابية واحدة، وقد فسر المتوكل من هذا المنطلق الاختلاف القائم بين الخطابات بمبدأ التغليب، ويعني تغليب إحدى طبقات هذا النموذج على بقية الطبقات الأخرى.

3 - نحو الخطاب الوظيفي:

عملاً هـنخفله وماكنزي في هذا النموذج تحقيقاً لمبدأ الكفاية النفسية على ضبط مختلف المراحل التي يمر بها إنتاج خطاب ما، وتحديد الآليات التي يعتمد عليها مستعمل الخطاب والتطرق من خلال ذلك لتوضيح أسس العملية الخطابية الوظيفية، التي كشفنا عنها من خلال أربعة مكونات: المكون المفهومي، المكون النحوي، المكون الصوتي (أو الإنطائي)، المكون السياقي، يوضح ذلك المخطط الآتي:¹



¹ - أحمد المتوكل، الخطاب المتوسط، ص 73.

وتشتغل مكونات هذا النموذج على النحو الآتي:¹

- يضطلع المكون النحوي بتحديد المستوى العلاقي (أو التداولي)، والمستوى التمثيلي (أو الدلالي)، والمستوى البنيوي.

- يرصد المكون المفهومي المعارف اللغوية وغير اللغوية، كما يرصد قصد المتكلم من الخطاب، ويعد هذا المكون القوة الدافعة بالنظر إلى المكونات الأخرى.

- يقوم المكون السياقي برصد وتخزين المعلومات السياقية المقامية والمقالية، التي تحضر في إنتاج الخطاب، وإمداد المكونات الأخرى بها عند الحاجة.

- يفضي المكون الصوتي أو المكون الخرج، إلى التحقيق البنيوي للخطاب، وهو ذو طبيعة مسموعة إذا كان الخطاب منطوقا، وطبيعة غير مسموعة (خطية أو إشارية) إذا كان الخطاب غير منطوق.

إذن تتكون بنية الخطاب - التي تؤول إلى المكون النحوي - في هذا النموذج من أربع مستويات: مستوى علاقي (تداولي)، ومستوى تمثيلي، ومستوى صرفي - تركيب، ومستوى فونولوجي، ويضم كل مستوى طبقات يعلو ويحكم بعضها بعضا وذلك على النحو التالي:²

- المستوى العلاقي: يتضمن نقلة، وفعل خطابي.

- المستوى التمثيلي: يتضمن طبقة عليا (قضية)، وطبقة دنيا (واقعة).

- المستوى الصرفي - التركيبي: يتضمن طبقة العبارة اللغوية، الجملة، المركب، المفردة.

- المستوى الفونولوجي: يتضمن طبقة اللفظ، طبقة المركب التنغمي، المركب الفونولوجي، المفردة الفونولوجية.

يكون إنتاج الفعل الخطابي في نحو الخطاب الوظيفي من المستوى العلاقي، إلى المستوى الصرفي التركيبي، ثم المستوى الفونولوجي، مروراً بالمستوى الدلالي، إذ يعمل هذا النموذج بمقتضى "أسبقية التداول على الدلالة ولهما معا على الصرف والتركيب والصوت وهو الترتيب الذي يعكس عملية إنتاج الخطاب حيث إن المتكلم ينطلق من القصد إلى الفحوى ثم إلى النطق"³، وبموجب مبدأ تبعية البنية للوظيفة تكون عملية الإنتاج اللغوي في هذا النموذج، محكومة بانعكاس خصائص المكون السياقي وعناصره في مستويات المكون النحوي الأربعة. ويبدو أن هـنخفـلد وماكنزي قد توقفا في بحثهما حول الكفاية النفسية، عند حدود عملية الإنتاج فقط؛ حيث

¹ - ينظر: أحمد المتوكل، الخطاب وخصائص اللغة العربية، ص 17، و المنحى الوظيفي الأصول والامتداد، ص 81.

² - ينظر: أحمد المتوكل، الخطاب وخصائص اللغة العربية، ص 32 و 35، 37 و 38.

³ - أحمد المتوكل، اللسانيات الوظيفية المقارنة، ص 33

توزعت مكوناته على الخطاب ومنتجه وسياق إنتاجه؛ وهو ما جعله نموذجاً ناقصاً لم يبلغ الكلية التي تتطلبها تلك الكفاية والتي تكون على مستوى الإنتاج والتأويل.

4 - نحو الخطاب الوظيفي الموسع:

وضع أحمد المتوكل هذا النموذج في إطار مسعى العمل على تحقيق الكفاية النفسية تحقيقاً كلياً، وقد اعتمد فيه على نموذج مستعمل اللغة كما صيغ في نحو الخطاب الوظيفي، حيث عمل على إعادة بناء ما جاء به هنجفلد وماكنزي، قصد تجاوز النقائص التي ميزت نموذجهما بخصوص الكفاية النفسية، وذلك بالنظر إلى اقتصره حول منتج الخطاب وعملية الإنتاج فقط، وعليه يجب بناء النموذج بحيث يهتم بعملية الإنتاج والفهم.

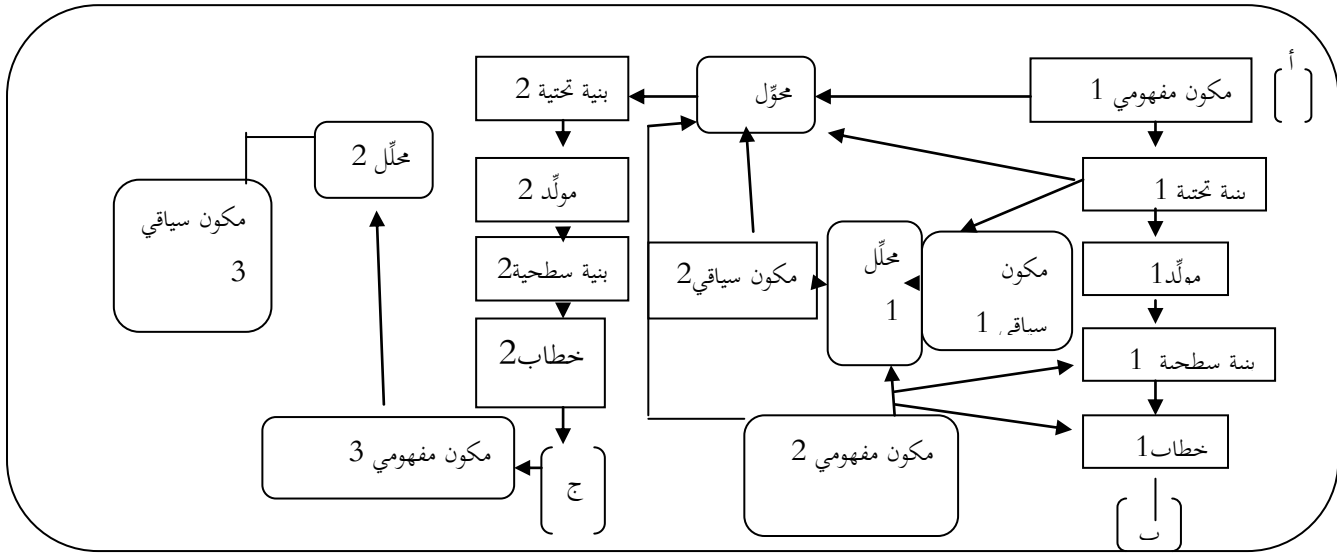
لقد حاول المتوكل في هذا النموذج الاشتغال على الوصف والتفسير الشاملين لمختلف العمليات، التي تنتمي إلى مجال التواصل بحدوده الواسعة، على اختلاف أنساقه وأنماطه ووسائله، فعمل من هذا المنطلق على الصياغة الدقيقة لمكوناته وأجزائه، ليكون "قادراً على رصد مختلف العمليات التي تتم أثناء التواصل سواء أكان تواصلًا مباشرًا أم تواصلًا موسطًا، سواء أتوسل اللغة أم توسل قناة غيرها"¹، حيث يتعامل مستعمل الخطاب مع أنساق وخطابات تواصلية متعددة ومتنوعة، إذ يمكن أن تكون لغوية أو غير لغوية (إشارية أو صورية)، مباشرة أو غير مباشرة حيث نجد الخطاب الموسط، المنقول، المشروح، أو المفسر.

لقد قام على هذا الأساس بإضافة جهاز محمول يهتم بعملية النقل إذ في خضم ذلك يقول: "دفعاً بالسعي في تحصيل المزيد من الكفاية النفسية، اقترحنا إضافة جهاز ثالث أسميناه "محولاً" إلى جهازي الإنتاج والفهم كي نحصل "نحو خطايا موسعا" قمينا برصد لا عمليتي الإنتاج والفهم فحسب بل كذلك عملية "النقل"، نقل خطاب ما إلى خطاب آخر ترجمة أو شرحاً أو تفسيراً أو غير ذلك"²، وهذا ما يوضح اتساع قدرة مستعمل الخطاب وطاقته العملية الاستيعابية على مستوى الإنتاج والفهم، حيث تستطيع تحقيق التحوار والتخاطب التواصلية في شتى الظروف وبمختلف الوسائل. وتتمثل مكونات هذا النموذج في الشكل الآتي:³

¹ - أحمد المتوكل، الخطاب الموسط، ص 78.

² - أحمد المتوكل، اللسانيات الوظيفية المقارنة دراسة في التنميط والتطور، ص 34.

³ - المصدر نفسه، ص 35.



خامسا - الطاقة الإيوائية لأقسام الخطاب في نظرية النحو الوظيفي:

طرح مسعى وضع بنية خطابية نموذجية لأقسام الخطاب فكرة قياس نسبة أو درجة تحقق تلك البنية، وذلك تحت ما أطلق عليه أحمد المتوكل مصطلح (الطاقة الإيوائية)؛ أي "مدى قدرة قسم من أقسام الخطاب على استيعاب البنية الخطابية النموذج"¹، وقد توصل "استنادا إلى فحص المعطيات (نصوص وجمل ومركبات اسمية وكلمات مفردة)، أن الطاقة الإيوائية تتفاوت طبقا لسلمية، حيث يحظى النص بأكبر طاقة إيوائية في حين تقلص هذه الطاقة كلما ابتعدنا عن النص واقتربنا من الكلمة المفردة"²، فتأخذ تلك الطاقة ترتيبا تصاعديا إذ تكون من الكلمة إلى النص الذي يعد مجال التحقق الأعلى المثالي.

أ - النص:

بين ديك استنادا إلى التخطيط الذي يميز عملية إنتاج نص ما، أن "المتكلم/ الكاتب يقوم حين يشرع في تأليف النص، باتخاذ مجموعة من القرارات الإجمالية التي تتعلق بنمط النص وأسلوبه وسماته الإنجازية والوجهية وغيرها، وترجم تلك القرارات في بنية النص إلى قيم مخصصات مختلف الطبقات، وتحدد هذه القيم بالنسبة للنص ككل لا بالنسبة لكل جزء من أجزائه وتعد منصبة عليها جميعا"³، والمقصود بأجزائه جملة التي تشكل في كليتها نواة النص، إذ تنوزع قيم مخصصات مختلف الطبقات عليها، وذلك ما يوضحه المثال الآتي:

¹ - أحمد المتوكل، الوظيفية بين الكلية والنمطية، ص 108.

² - ينظر: المصدر نفسه.

³ - ينظر: المصدر نفسه، ص 111.

"سافرت هند إلى لندن. مكثت هناك أسبوعاً. اشترت أواني وفساتين ... وعادت إلى الرباط نشيطة مرحة"¹،
يأخذ التمثيل لهذا النص البنية الآتية:²

(أ) - [شا*سر] عيا [محا] مض [آن] تا [س.ف. ر]فاعل[ف]

س 1: هند فا مح (ص 1: لندن) مك بؤ جد) (م ك ت[فعل]ف

س 1 منف فا مح (ص 2: أسبوع) زم بؤ جد) (ص 3: هناك) مك (ش. ر. ي[افتعل]ف

س 1 منف فا مح (س 2: (أواني) (فساتين)) متق مف بؤ جد)

ع.و.د. [فعل]ف (س 1) منف فا مح (ص 3: رباط) مك (ص 4: (نشيطة) (مرحة)) حا بؤ جد) []

يتضح أن قيم مخصصات كل الطبقات تُحدّد بالنسبة للنص ككل، وتنصب على جميع جملة التي تؤول إلى مجرد حمل عارية تشكل مضمومة بعضها إلى بعض نواة النص.

ب - الجملة:

تستقل ما يعرف بالجملة الخطاب ببنية خاصة فيما يتعلق بتحقيق³ البنية الخطابية النموذج - رغم غياب بعض الطبقات والمستويات -، وذلك عكس ما إذا كانت - تلك الجملة - أحد مكونات النص حيث تكون تابعة له. وهذا ما توضحه الجملة الآتية:

- أيها الباحثين، إن المعرض يفتح مرة كل عام.

- تتضمن هذه الجملة المستويين التمثيلي والعلاقي معا مع الطبقات الثلاث التي تؤلف كلا منهما. فالطبقة الوصفية حاضرة بالمخصص الوجهي "غير تام" والطبقة التسويرية حاضرة باللاحق العددي "مرتين"، كما أن الطبقة التأطيرية حاضرة بالمخصص الزمني "مستقبل"، واللاحق الزمني (كل يوم). أما طبقات المستوى العلاقي فهي الطبقة الوجّهية الممثلة بالمخصص "توكيد" المتحقق بواسطة الأداة "إن"، وتعلوها الطبقة الإنجازية (الإخبار)، ثم الطبقة الإسترعائية الممثلة باللاحق المنادى أيها. هذه الطبقات الست الموزعة على المستويين التمثيلي والعلاقي امتدادات للحمل النووي المكون من الفعل المبني للمجهول وموضوعه.

¹ - الوظيفية بين الكلية والنمطية، ص 112.

² - المصدر نفسه.

* - تحيل تلك الرموز إلى: "شا = مركز إشاري، سر = سرد، عيا = معياري، محا = محايد، مض = ماض، آن = آني، تا = تام". المصدر نفسه.

³ - ينظر: المصدر نفسه، ص 112.

- أما العلاقات القائمة داخل هذه الطبقات، فإننا نجد الوظائف الدلالية ممثلة في الوظيفة "المتقبل" المسندة إلى الموضوع، والوظيفة "العدد" المسندة إلى اللاحق "مرة"، والوظيفة "الزمان" المسندة إلى اللاحق "كل يوم"، والوظائف الوجهية ممثلة في الوظيفة "الفاعل" المسندة إلى الموضوع، والوظائف التداولية ممثلة في وظيفة "بؤرة الجديد" المسندة إلى الحمل الموسع ككل، ووظيفة المنادى المسندة إلى اللاحق "أيها الباحثين".

ج - المركب الاسمي:

تتضاءل نسبة البنية النموذج حين تتحقق في مركب اسمي، إذ "تؤول إلى المستوى التمثيلي. ويشد عن هذا التوجه العام حالات يمكن حصرها في ثلاث: موارد المنادى لمركب اسمي، وانصباب الاستفهام على المركب، والمركبات الاسمية الموجهة"¹، (التي تؤول إلى الطبقة الوجهية في المستوى التداولي)، وتمثل تلك الحالات الثلاث في الجمل الآتية:

- شايأ يا فاطمة؛ "يواكب المنادى فيه خطابا قوامه مركبا اسميا واحدا، ذلك أن استرعاء انتباه المخاطب بواسطة النداء يمكن أن يحصل في أي قسم من أقسام الخطاب، كما يمكن أن يحصل دون خطاب"² مثل: يا فاطمة.

- أفاطمة قابلت اليوم؛ تنصب القوة الإنجازية على "المركب الاسمي فاطمة وذلك لأن القوة الإنجازية ترد مصاحبة للنص أو الجملة أو المركب"³.

- المركبات الاسمية الموجهة: مثل: "قابلت الفتاة الشقراء الجميلة. تؤول هذه الجملة إلى البنية التحتية الآتية:
[... (عج [ع 1] [عد 2: فتاة س] س شقراء ص] [Φ[Φ [رائعة ص]) متق مف بؤ]"⁴.

تتمحور الفكرة التي تذهب إليها نظرية النحو الوظيفي - خاصة ما قدمه المتوكل - من خلال هذا النوع حول "الفرق بين موضوعة الصفتين شقراء ورائعة داخل بنية الحد حيث تعد الصفة الأولى لاحقا وصفيا، في حين تعد الصفة الثانية لاحقا وجهيا، يتموضع لطبيعته هذه في الطبقة الرابعة خلافا للآحق الوصفي شقراء الذي

¹ - أحمد المتوكل، الوظيفية بين الكلية والنمطية، ص 116.

² - المصدر نفسه، ص 116.

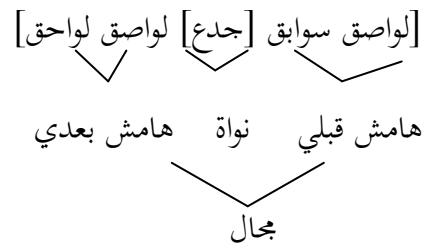
³ - المصدر نفسه، ص 117.

⁴ - ينظر: المصدر نفسه، ص 115 و 117.

يتموضع في الطبقة الأولى¹، وهذا ما كان نتيجة إضافة طبقة وَجْهِيَّة رابعة إلى طبقات المستوى التمثيلي الثلاث (التأطيرية والتسويرية والوصفية).

د - الكلمة:

ينقسم المجال في نظرية النحو الوظيفي إلى ثلاثة عناصر: نواة وهامش قبلي وهامش بعدي. وقد تم توسيع مفهومه إذ يشمل الكلمة المفردة أيضاً، على هذا الأساس عُدّ الجدع نواة، واللواصق السوابق هامشاً قبلياً، واللواصق اللواحق هامشاً بعدياً، كما يتبين من الترسمة التالية²:



تتحقق طبقات الكلمة - بالنسبة للغة العربية - عبر أوزان معينة تختلف من طبقة إلى أخرى وذلك كما يلي:³

- تظهر الطبقة التأطيرية (الزمانية والمكانية) في أوزان أسماء الزمان (مذهب)، وأسماء المكان (مغرب، مهيّط، منزل)، وأوزان فعلية (أمسى، أصبح، شرّق، غرّب).
- تظهر الطبقة التسويرية في أوزان المبالغة (علام، معطاء) وأوزان التكثير (غلّق، قطع).
- تتحقق الطبقة الوصفية عبر أوزان الصفة (ظريف، شريف)، وأوزان الحرف (نجار، لحام). ومن وسائل التعبير عن نفس القيم ياء النسبة (مراكشي، رأسمالي).

نشير في هذا السياق إلى حقيقة أن تحقق البنية الخطابية النموذج سواء بالنسبة للنص - الذي يستحوذ على أعلى مراتب الطاقة الإيوائية - أو باقي أقسام الخطاب الأخرى، يظل مجرد افتراضات تقريبية، إذ لا يمكن تقديم أحكام مطلقة، وذلك نظراً لطبيعة سمات طبقات المستويات الثلاث المتغيرة، حيث تختلف من خطاب إلى خطاب.

¹ - أحمد المتوكل، الوظيفية بين الكلية والنمطية، ص 117.

² - المصدر نفسه، ص 124.

³ - ينظر: المصدر نفسه، ص 126 و 127.

يمكن القول من خلال كل ما سبق تقديمه:

- إن مسعى نظرية النحو الوظيفي نحو تحقيق توحيد نظريات الخطاب من خلال وضع نحو وظيفي شامل، يعنى بدراسة شتى الخطابات على اختلاف أقسامها وأنماطها دراسة وظيفية تداولية، هو ما طبع كل صيغ نموذج مستعملي اللغة. التي اتفقت جميعها على أن بنية أي خطاب إنما هي بنية تداولية - دلالية - تركيبية واحدة، وهي بنية كلية تخضع لها كل الخطابات.

- حاولت نظرية النحو الوظيفي من منطلق إبستمولوجي وظيفي تداولي يهتم بالطبيعة التواصلية الاجتماعية للفعل اللغوي الخطابي، تقديم إستراتيجية علمية واضحة كفيلة بدراسة القدرة الخطابية (وصفها وتفسيرها)، وقد جاء أهم ما تناولته موزعا على عدة أمور وجوانب سعت فيها إلى بلوغ معيار الكلية، وهو ما يمكننا الحديث عنه من خلال الكفايات الثلاث وذلك على النحو التالي:

1 - الكفاية التداولية:

أوضح الوظيفيون بالنظر إلى ما يفرضه العمل وفق ما تقتضيه هذه الكفاية أنه على مستعمل اللغة (الخطاب)، اعتماد مبادئ وشروط الدراسة الوظيفية التداولية، التي تدعو إلى التعامل مع المنجز اللغوي (الخطاب) في كليته؛ والوقوف على جانبه الشكلي البنوي (التركيب، الدلالة) مرتبطا بجانبه التداولي، وذلك بمقتضى تبعية البنية للوظيفة. إذ ينبغي الاهتمام - بموجب ذلك - بالخطاب ومنتجه (متكلم) ومؤوله (مخاطب) وسياق الحال المنجز فيه، وتربطه كذلك بأهدافه التواصلية التأثيرية.

2 - الكفاية النفسية:

انشغلت نظرية النحو الوظيفي وفقا لما تتطلبه هذه الكفاية بدراسة القدرة الخطابية لمستعمل الخطاب المنتج/المؤول، فقد تمحورت مختلف الأعمال النظرية والإجرائية التي ميزت هذه النظرية حول الخطاب بعدّه إنتاجا لغويا وتفاعلا اجتماعيا؛ حيث سعى ممثلوها إلى صياغة نحو وظيفي للخطاب، ليكون مقارنة وظيفية تداولية شاملة كفيلة بوصف وتفسير عمليتي إنتاج الخطاب وتحليله. وذلك في مقابل عديد الأسئلة التي طُرحت في هذا الخصوص، وما ظهر على إثرها من محاولات كان بعضها الأرضية التي انطلقت منها نظرية النحو الوظيفي، ولعل هذا ما ينطبق على المقاربة التداولية ومقاربات تحليل الخطاب كالشعرية والسيمائية ..

3 - الكفاية النمطية:

إن الانتقال الذي عرفته نظرية النحو الوظيفي في إطار تحقيق هذه الكفاية من تنميط اللغات إلى تنميط الخطابات، هو ما أفضى إليه السعي إلى بناء نظرية دقيقة شاملة للخطاب تعنى بجميع أنواعه وأنماطه. وهذا ما دعا إلى ضرورة وضع معايير علمية واضحة على أساسها يتم تنميط الخطابات.

3 - أ. معايير أنماط الخطاب:

يقوم تنميط الخطابات عند سيمون ديك على المعايير الآتية:¹

- قناة التخاطب: كأن يكون الخطاب شفويا أو مكتوبا.
- نوع التخاطب: (حوار أو مونولوج ...).
- طريقة التخاطب: كأن تتم عملية التخاطب بكيفية "مباشرة" (محادثة بين جلسين) أو شبه مباشرة (مكالمة هاتفية) أو غير مباشرة (رسالة ...).
- الغرض من التخاطب: حيث يتميز الخطاب السردي عن الخطاب الحجاجي والخطاب العلمي والخطاب الفني وغير ذلك.
- صيغة التخاطب: حيث يميز بين الخطاب اليومي والخطاب الرسمي والخطاب المؤسسي.

وقد أضاف أحمد المتوكل معيار الوجه (Modality)، إذ يرى "أن الخطاب - استنادا إلى رأي بنفست - يمكن أن يكون، خطابا موضوعيا خاليا من أي تدخل من لدن المتكلم حيث يكون مصدر الخطاب مجرد كائن من ورق على حد تعبير بارت، أو خطابا ذاتيا مصدره المتكلم بوصفه كائنا حيا يضمن الخطاب انفعالاته وعواطفه ووجهات نظره"²، وذلك ما يدخل في إطار موقف المتكلم الذي يحمله الخطاب.

لقد أفضى البحث في الخطاب والوقوف من خلال ذلك على عملية التواصل اللغوي بمختلف أشكالها وعديد وسائلها، إلى ظهور الكثير من المشاريع والتصورات الساعية نحو فتح باب التجديد، والدخول عبر تناوّلها للخطاب من زوايا وأبعاد متنوعة إلى مجالات وظيفية تداولية تهتم بقضايا استعماله البراغماتي الناجح على مستويات عدة: اجتماعيا، وسياسيا، ودينيا، وفنيا ..، في بعده العادي والأدبي. وذلك ما عاجلته مثلا: السيميائيات، الأسلوبية، البلاغة ..

¹ - أحمد المتوكل، الوظيفية بين الكلية والنمطية، ص 217.

² - أحمد المتوكل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، ص 488.

وتعد البلاغة من أهم الاتجاهات التي ارتبطت بالتحول الذي أحدثته لسانيات الخطاب، حيث ظهرت بحوث وتصورات بلاغية عنيت بدراسة الممارسة الخطابية البلاغية دراسة كلية، وذلك ما كان أغلبه امتدادا للبلاغة القديمة، تجديدا وتطويرا وتجاوزا.

فصل رابع:

البلاغة في نظرية النحو

الوظيفي

تمهيد:

سجلت البلاغة حضوراً قوياً ضمن نشاط البحوث الغربية (لسانية، أدبية، فلسفية)، حيث تم السعي لدراساتها وصياغة نظريات بلاغية قائمة بذاتها. فقد مارست تأثيراً كبيراً على مستوى عقول مستعملي اللغة الطبيعية، إذ دخلت مجالات الحياة اليومية النفسية الذاتية، والعامة الاجتماعية، في خطاباتها المختلفة التي ركزت على موضوع التأثير التربوي الأخلاقي تارة والنفعي المادي تارة أخرى، فكانت بين فن القول الإمتاعى وتقنية الحجاج الإقناعى. وبين هذا وذاك تولدت سلطة البلاغة لتشكّل إمبراطورية واسعة، إذ يرى رولان بارث بأنها "إمبراطورية حقيقية أكثر امتداداً وإصراراً من أية إمبراطورية سياسية بحجمها وديمومتها"¹، حيث استطاعت أن تمارس تأثيرها على مجال السياسة والدين والاقتصاد ومختلف الفنون القولية. وهذا ما كانت عليه منذ آراء السفسطائيين ومن جاء بعدهم كسقراط وأفلاطون وأرسطو.

لقد شهدت البلاغة في العصر الحديث تطوراً مميزاً ولعل من أهم مظاهره:²

- 1 - تحول البلاغة إلى علم مستقبلي، حيث صارت تنزع إلى أن تصبح علماً واسعاً للمجتمع، فهي لم تعد علماً خاصاً (بالخطاب)، وإنما علماً عاماً للخطابات
 - 2 - الانتقال من الرغبة في إنتاج الخطاب إلى دراسة خصوصياته، أي أنها قد تخلت عن نزعتها المعيارية المتمثلة في فرض القواعد لتهتم برصد الوقائع فقط.
- وقد مر تطور البلاغة الغربية بمحطات مختلفة كانت بين القديم والحديث.

أولاً: البلاغة الغربية بين القديم والحديث:

1 - البلاغة الغربية القديمة:

مثل الانشغال بمطالب المجتمع والتفكير بضرورة تغييره في إطار ما عرفه من قضايا، وأوضاع اجتماعية سياسية العامل الرئيس الذي أفضى إلى ظهور البلاغة الغربية، وقد برزت بادئ ذي بدء كممارسة تعليمية موضوعها الكلام الإنساني، من حيث هو أداة فاعلة للتأثير في الجمهور والتمكن من استمالاته وإقناعه، حيث تم النظر إلى البلاغة باعتبارها فن القول الفعال والمؤثر الذي يمكن من تحقيق الأغراض المرجوة، فكان بذلك العمل

¹ - ينظر: رولان بارث، قراءة جديدة للبلاغة القديمة، ترجمة: عمر أوكان، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1: 2011، ص 22.

² - ينظر: المرجع نفسه، ص 11 و 12.

على تعليم الناس الأدوات والطرائق الكفيلة باكتساب البلاغة أهم ما تم التركيز عليه. وهذا ما عرفته صقلية اليونانية خلال القرن السادس قبل الميلاد وذلك في خضم ما شهدته من مرافعات في قضايا الملكية، حيث كانت البلاغة موضوعا للتدريس وذلك ما قام به أول مرة كل من كوركاس وتيسياس.

لقد كانت سلطة الكلام التي تتوقف على قوة الإقناع جوهر البلاغة الغربية القديمة، وهذا ما ربطوه بالخطابة إذ تعد هذه الأخيرة عند "القدماء فن الحديث إلى الجمهور بطريقة إقناعية، حيث يتم استخدام اللغة المنطوقة، الخطاب، أمام جمهور مجتمع في مكان عام، من أجل الحصول على تأييده لقضية مطروحة عليه. فهدف فن الخطابة هو هدف تأييد العقول"¹، وعلى هذا الأساس كان تعليم شروط الخطاب الإقناعي المؤثر، الذي يمكن للخطيب (المتكلم) من خلاله إقناع الجمهور برأي أو قضية ما موضوع البلاغة الوحيد.

وقد تغيرت وظيفة الخطاب الإقناعي مع السفسطائيين حيث انحرف من البحث عن الحقيقة، إلى العمل على تزييفها وتعويمها من خلال السفسطة والجدل، فالسفسطائي "لا يهتم باكتشاف الحقيقة، إنه يكتفي بأن يعرض أمام الآخرين وجهة نظره ... ما يرى أنه الحقيقة مع توجيه خاص لتلك الحقيقة نحو مطالب الحياة العملية ومطالب المجتمع"²، لقد ركز السفسطائيون في الخطاب على إحراز المنفعة بغض النظر عن كفاءات الوصول إلى ذلك، وهو ما جعلهم يربطون الإقناع بالتحايل والخداع الذي يتيح إمكانية تزييف الحقيقة، خاصة وأنها حسب اعتقادهم أمر نسبي فهي بيد الخطيب إذ يوجهها حسب ما يريد، ولذلك اعتقدوا أن "الخطيب البليغ يستطيع أن ينصر الحق كما ينصر الباطل بقوة حججه أو براعته بالأقيسة والقضايا، الظاهر منها والمضمر والإنسان هو مقياس كل شيء فالحق هو ما يراه كل إنسان حقا، والباطل ما يراه باطلا، وليس هناك حق موضوعي يتعارض مع الباطل الموضوعي مادام الإنسان هو مقياس كل شيء"³، ولذلك فإن كل شيء قابل للتغيير حسب ما يريده الإنسان.

يعبر هذا عن الرؤية البلاغية السفسطائية التي قامت على إقصاء اليقيني وترسيخ الاحتمالي وتوسيعه، إذ هو ما يمثل عندهم موضوع الخطابة ومجال الإقناع، وذلك حيث يمتلك الخطيب حرية القول. وقد دفع ذلك "

¹ - ينظر: Perlman Chaïm, olbrechts tyteaca, la Nouvelle rhétorique : traité de l'argumentation, t 1, éd, P. U.F, 1958, p07.

² - نجيب بلدي، دروس في تاريخ الفلسفة، دار توبقال، الدار البيضاء - المغرب، ط 1: 1987، ص 65.

³ - محمد مندور، الأدب وفنونه، دار تحفة مصر للطباعة والنشر، الفجالة - مصر، ط: 1980، ص 154.

السفسطائيين إلى تجريب أقاويل متناقضة كما فعل بروتاغوراس إذ كان في خطبه يحتج للرأي مرة، ويدافع عن نقيضه مرة أخرى، مفتتا اليقين الحتمي وموسعا لمجال الاحتمال"¹.

لقد كان ما دعا إليه السفسطائيون في نظر أغلب الفلاسفة تطرفا وتضليلا بلاغيا وهذا ما دفعهم إلى نقد وتقويض بلاغتهم، وهو الحال عند (سقراط) (Socrates) الذي عمل من خلال فلسفته الأخلاقية على تصحيح المفهوم السفسطائي الخاطئ للبلاغة، الذي جعلها مجرد أداة ارتزاقية لا تتعدى مجال الحياة الاجتماعية السياسية، إذ تكتسح البلاغة عنده جميع مجالات الحياة وبالتالي فإنها لا تتعلق فقط بالخطابة الإقناعية، التي يتوسل فيها الخطيب المغالطة والخداع (السفسطة) لتحقيق المنفعة الذاتية، وحسب سقراط فإن "حجاج السفسطائيين ... لا ينتج المعرفة، بل يولد فقط الاعتقاد، ومادام الاعتقاد مهتدا بالأخطاء والتهافتات، فإن هذا الحجاج يغدو قاصرا عن خدمة العقل والحقيقة"²، وهذا ما يدعو إلى استبعاده من مجال البلاغة.

وقف أفلاطون (Plato) كذلك موقفا انتقاديا من آراء السفسطائيين التي تغير من خلالها مفهوم الحجاج والجدل، إذ "يعني انزلاق الجدل نحو السفسطة، في نظر أفلاطون، أكبر انحدار للخطاب البلاغي حيث تم المرور، دون مرحلة وسطى، من فن الإقناع إلى فن الخداع. وانحدر الاتفاق المسبق على المسلمات نحو ابتذال الحكم المسبق، كما تم الانتقال من فن الإقناع إلى فن التضليل الذي يعتبر عنفا للخطاب لا غير"³، حيث يتوجه ذلك العنف لزعزعة الحقيقة واستبدالها بالتزييف والمغالطة مما يجعل الجمهور لعبة بيد الخطيب، الذي يسعى إلى بلوغ أغراضه ولو كان ذلك على حسابهم. وهذا ما يتنافى عند أفلاطون مع ماهية البلاغة باعتبارها "نظرية الحقيقة"، التي يكون موضوعها الرأي الصحيح والحكمة.

وقد ميز أفلاطون بين بلاغتين:⁴

1 - بلاغة الحدث: وموضوعها الاحتمال والإيهام وهي بلاغة معلمي البلاغة (بلاغة المدارس)، وهي بلاغة السفسطائيين.

2 - بلاغة الحق: وهي البلاغة الحقيقية؛ البلاغة الفلسفية أو الجدلية وموضوعها الحقيقة، ويسمونها بسيكاغوجيا (تكوين الأرواح بواسطة الكلام).

¹ - عبد اللطيف عادل، بلاغة الإقناع في المناظرة، منشورات ضفاف، بيروت - لبنان، ط1: 2003، ص 30.

² - المرجع نفسه، ص 39.

³ - بول ريكور، البلاغة والشعرية والهرمونيقيقا، تر: مصطفى النحال، ضمن: مجلة فكر ونقد، عدد: 16، فبراير، الرباط، 1999، ص 109.

⁴ - ينظر: رولان بارت، قراءة جديدة للبلاغة القديمة، ترجمة: عمر أوكان، ص 28.

تمثل الأولى البلاغة السفسطائية وهي عنده بلاغة فاسدة غير حقيقية لا يمكن الاستفادة منها، لذلك عمل على تفنيد مبادئها وبناء بلاغة أخرى محورها الحق؛ وهي بلاغة الفلاسفة التي يمكن الوصول فيها إلى الحقيقة عبر استخدام الحجاج العقلي، فقد أراد تقديم حجاج بديل وهو الحجاج الفلسفي، الذي يتجاوز الحجاج السفسطائي المموه القائم على التملق، فمن خلال ذلك الحجاج تبنى الخطابة الحقيقية التي تستند على الفلسفة، إذ سعى إلى "قيام نوع من الخطابة الفلسفية التي لا تقتنع بإيهام الجمهور تبعاً لأهواء الخطباء بل تلتزم بالتعبير عن الحقيقة والتوجيه إلى الخير"¹، فهي خطابة ذات أبعاد أخلاقية؛ حيث تعد "فناً لقيادة النفوس من خلال الأحاديث"²؛ أي تربيتها وتنميتها، وقد أوضح كل ذلك في محاورتي: (جورجياس وفایدروس).

لقد ارتبطت الرؤية البلاغية التي أراد أفلاطون التأسيس لها بمشروعه المعرفي الذي تبلور في (نظرية المثل)، حيث سعى إلى بناء مدينته الفاضلة بعيداً عن الفوضى التي أحدثتها خطابة السفسطائيين، إذ تسببت حسب رأيه في خلخلة النظام الاجتماعي السياسي الذي دعت إليه الأرستقراطية، وذلك ما عززت له الخطب السفسطائية التي سعت لتطبيق الديمقراطية من خلال الدعوة إلى حرية الرأي وتحقيق المساواة، وهذا ما رفضه أفلاطون إذ يجب حسب رأيه إعادة المجتمع الطبقي، حيث ينبغي "التزام كل مواطن بوضعه وملازمته لدوره، المرسومين قبلاً من الطبيعة والأرستقراطية الفكرية، فالمواطنون أصناف، فمنهم الذهب وهم أعلى مراتب الشرف، ومنهم الفضة وهم معاونون، ومنهم النحاس والحديد وهم المزارعون والحرفيون"³، فبذلك تتحقق العدالة التي يمكن من خلالها الحفاظ على نظام الدولة، بعيداً عن السفسطة التي تسمح بتعدد الآراء الذاتية وتدعو إلى تغيير المواقع، حيث يرى كل إنسان الواقع من منظور ما يناسبه هو فقط، ليحقق أغراضه الذاتية من خلال الاعتماد على الإقناع المموه، وهذا ما يؤثر عند أفلاطون على الجانب المعرفي أيضاً؛ إذ يغيب الرأي الصحيح الذي يطلبه العلم والعلوم ويساهم في إنتاج المعرفة.

لا يمكن أن تقود بلاغة الخطابة اللاهثة وراء الإقناع سعياً لبلوغ الهدف، بغض النظر عن الموضوع والوسائل المعتمدة - حسب أفلاطون - إلى نتائج علمية إيجابية، حيث أدت إلى سيطرة سلطة الرأي والظن من خلال الدعوة إلى اعتماد مبدأ لا وجود للحقيقة، فكل شيء في الوجود احتمالي، ولذلك يجب معارضة الأفكار السفسطائية الخاطئة والتصدي لها. فما يحتاجه المجتمع هو البحث عن الحقيقة والعمل على بناء دولة العقل

¹ - أفلاطون، فايدروس أو عن الجمال، ترجمة وتقديم، أميرة حلمي مطر، دار المعارف، مصر - القاهرة، ط1، د/ت نشر، ص 11.

² - المرجع نفسه، الهامش، ص 96.

³ - عبد اللطيف عادل، بلاغة الإقناع في المناظرة، ص 34 و 35.

والحقيقة، "فإذا كان السفسطائيون قد اعتبروا بأن المعرفة تترتب عن الإدراكات الحسية، ومن ثم فهي تختلف باختلاف الأشخاص، فإن أفلاطون يعتبر بأن العقل هو وسيلة المعرفة، وهو الضامن للعلم الصحيح"¹، فقد أولى أهمية كبيرة للمعرفة وتحديد المعرفة العقلية التي عدّها أسمى المعارف وأحقها، وتتميز بطبيعتها المطلقة اليقينية الثابتة التي تباعد عن النسبي المتغير المتعدد، وهو طبيعة خطابة الرأي التي تقوم على الظن (doxa).

يتطلب عالم المثل إقامة دولة العلم والمعرفة التي يحكمها الفلاسفة باعتبارهم أصحاب التفكير السليم والعقول النيرة الحكيمة، التي تستطيع قيادة النفوس إلى الخير والسعادة، وبالتالي القضاء على أفكار الخطباء التضليلية الفاسدة، فقد عبر أفلاطون عن انتقاده الشديد لبلاغة الخطباء من خلال وصفها بأقبح الأوصاف؛ "بلاغة فاسدة، تزييف العدل، سفسطة التشريع، مطبخ الطب، مرحاض الرياضة"²، ولذلك دعا إلى بناء بلاغة بديلة من داخل الفلسفة وهي بلاغة الفلاسفة، التي تمثل عنده البلاغة الحقيقية إذ تركز على سلطة العقل. ولعل أهم من سعى إلى تجاوز الرؤية السفسطائية وبناء البلاغة بناء منظما هو أرسطو.

– البلاغة عند أرسطو (Aristote):

يُفترض علينا في هذا السياق الإشارة إلى حقيقة مفادها: أن البلاغة في النظرية الأرسطية نوعين حيث يرتبط نوعا منها بالخطابة، ويرتبط النوع الآخر بالشعر. فـ "قد فصل [أرسطو] بين الريطوريقا (فن الخطابة) والبويطيقا (فن الشعر) حيث أفرد لكل منهما مؤلفا مستقلا، وهذا الفصل ليس اعتباطيا، بل هو يؤكد الحدود القائمة بين كل من الشعرية والبلاغة: فالأولى تدرس المحاكاة .. إنها تهتم باستحضار الصورة، بينما تدرس الثانية السبل المؤدية إلى الإقناع، إنها تتعلق بالتواصل اليومي بالفكرة"³، وهذا ما يعني أن مجال الأولى خاص، في حين أن مجال الثانية عام.

أ – الخطابة:

عرفت البلاغة مع (أرسطو) تغيرات وخصائص جديدة، إذ لم تكن مختلف التصورات التي عرفت بها البلاغة اليونانية في نظره ذات جدوى؛ وذلك ما يتعلق بما قدمه السوفسطائيون من جهة، وما ظهر كرد فعل على بلاغتهم من جهة أخرى – رغم ما جاء به أفلاطون – وهو ما دفعه إلى صياغة بلاغة جديدة، ذات طابع فلسفي أساسها

¹ – عبد اللطيف عادل بلاغة الإقناع في المناظرة، ص 35.

² – رولان بارث، قراءة جديدة للبلاغة القديمة، ص 28.

³ – محمد كريم الكواز، البلاغة والنقد المصطلح والنشأة والتأسيس، ص 14.

الإقناع والجدل، وقد عمل من خلالها هو الآخر على تطهير البلاغة من السفسطة، واستبعاد التصور السفسطائي الخاطئ الذي جعل منها مجرد أداة للتلاعب بالقول، وقد كشف من خلال ذلك مغالطات السفسطائيين اللغوية وهي ست "الغموض والاشتباه والترتيب المبهم للكلمات والقسمة المبهمة للكلمات والشكل الخاطئ وصورة التعبير المستخدم، وهي بحسبه تحدث الوهم في القول واللفظ"¹، فقد ركز في البلاغة على بعدها التأثيري الذي ربطه بالخطابة التي تعد عنده الطريق الوحيد إلى الإقناع؛ حيث عرفها بـ "أنها الكشف عن الطرق الممكنة للإقناع في أي موضوع كان"²، وذلك ما يعني صلاحية حضورها في أماكن واقعية اجتماعية تتعدى المجال القضائي، فقد ساهمت آراء أرسطو في توسيع مجال البلاغة، وهذا بالنظر إلى كثرة مجالات استعمالها اليومية الحجاجية الإقناعية، حيث أصبحت تُعرف بأنها "التحكم في الاستعمال العمومي للكلام في هذه الأوضاع النموذجية التي يجسدها كل من التجمع السياسي والتجمع القضائي والتجمع الاحتفالي"³، وتعكس هذه التجمعات البعد العام للبلاغة، حيث يتم ممارسة الخطابة واستعمال تقنية الإقناع كلما كانت الحاجة إلى ذلك.

لقد جعل على أساس ذلك للخطابة ثلاثة أنواع هي:⁴

- **الخطابة المشورية:** تتعلق بالمداولات الجماعية، وتختص بالخطاب السياسي ومقامات النصح، هدفها تحقيق الخير.

- **الخطابة المشاجرية:** تتعلق بمجال المرافعات القضائية ومقامات الاتهام أو الدفاع، والإنصاف والظلم، هدفها خدمة العدل.

- **الخطابة الشبئية:** مجالها المحافل الجماهيرية والمناسبات الكبرى، وقد تكون مدحا أو ذما، تتوخى بيان الشريف والفاضل.

نقف بناء على هذه الأنواع على البعد الوظيفي الاجتماعي النفعي للخطابة من خلال التوظيف الجيد الصائب للإقناع، الذي يكون له أثرا تنظيميا وتوجيهيا على المستوى النفسي والاجتماعي للفرد والمجتمع.

¹ - أرسطو طاليس، منطق أرسطو، ج 3، حققه وقدم له: بد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات، الكويت، دار القلم، بيروت - لبنان، ط1: 1980، ص من 798 إلى 802.

² - أرسطو طاليس، فن الخطابة، ترجمه عن اليونانية وعلق عليه وقدم له: عبد الرحمن بدوي، طباعة ونشر دار الشؤون الثقافية العامة، آفاق عربية بغداد، ط ص 29.

³ - بول ريكور، البلاغة والشعرية والهيرمينوطيقا، ص 110.

⁴ - ينظر: عبد اللطيف عادل، بلاغة الإقناع في المناظرة، ص 55.

ركز أرسطو على تأكيد مركزية الإقناع إذ يعكس عنده ماهية الخطابة، وذلك باعتبارها حوارا يتم بين طرفين حول رأي أو مسألة ما، تكون مجالا للجدل والمناقشة بهدف بلوغ التأثير في الطرف الآخر اعتقادا أو فعلا (إنجازا)، "فالخطابة عنده صناعة مدارها إنتاج قول تبني به الإقناع في مجال المحتمل والمسائل الخلافية القابلة للنقاش، بمعنى أنها علاقة بين طرفين تتأسس على اللغة والخطاب، يحاول أحد الطرفين فيها أن يؤثر في الطرف المقابل جنسا من التأثير يوجه به فعله أو يثبت لديه اعتقادا أو يمليه عنه أو يصنعه له صنعا"¹، معتمدا في ذلك على تقنية الحجاج، التي تجعل قوة الحجة مقياسا لقوة الرأي ونجاح التأثير به.

يحتل الحجاج في الخطابة دورا مركزيا يعد فيه أهم آلية يتوسلها الخطيب للدفاع عن آرائه وتأكيدهما، وهذا ما اهتم به أرسطو فقد "ميز في الأرغانون نوعين من الاستدلالات؛ الاستدلالات التحليلية والاستدلالات الجدلية، وقد بوأته الدراسة التي كرسها للأولى في التحليلات الأولى والثانية صفة أب المنطق الصوري، وقد درس الاستدلالات الجدلية في الطوبيقا والخطابة وتفنيد السفسطة، وهذا ما جعله - كذلك - أب نظرية الحجاج"²، التي تعرف في العصر الحديث بالبلاغة الجديدة "La nouvelle rhétorique".

لقد كان اهتمام أرسطو بالحجاج من خلال بحثه في الاستدلال الجدلي؛ حيث عني بتوضيح مكنيزمات الجدل الخطابي، الذي يعد عنده مجال الاحتمالي المقبول وهو ما تتميز به الخطابة؛ حيث إن الخطيب يسعى وراء الجدل الإقناعي الذي يعتمد على الحجة المقبولة، إذ "تنطلق الاستدلالات الجدلية مما هو مقبول، وهدفها هو العمل لأجل قبول أطروحات أخرى هي موضع نقاش، أو يمكن أن تكون كذلك، إنها تسعى إلى الإقناع، وهي لا تكمن في الاستنتاجات الصحيحة والملمزة، ولكنها، تقدم حججا مقبولة إن قليلا أو كثيرا إلا أنها لا تكون أبدا صورية"³، ويرتبط الجدل بالإقناع في الخطابة أين يكون الاستدلال الحجاجي القائم على الحجة المقبولة، وذلك عكس ما يميز الاستدلال التحليلي الذي ينتمي إلى المنطق الصوري، إذ يعتمد صاحبه على البرهان العلمي القائم على الصحة والصدق حيث لا وجود للاحتتمالي.

يتميز الحجاج الخطابي الذي أسست له النظرية الأرسطية بطابعه اللغوي الأخلاقي التأثيري، وذلك ما يقوم على عناصر تشمل أطراف الخطابة الثلاثة: الخطيب وأخلاقه (l'éthos)، والمتلقي وانفعالاته (le pathos)،

¹ - حمادي صمود، مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح، ضمن: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص 12.

² - ينظر: Chaim Perelman, l'empire rhétorique, Librairie Philosophique. J. Vrin, France, 2 ed, 1977, 2002, p 15.

³ - Ibid, p 15.

والخطاب ذاته أو لغته (le logos)، وقد أولى أرسطو أهمية بالغة لأخلاق الخطيب حيث تساهم - حسب رأيه - بشكل كبير في رفع نسبة القبول، ولا شك أن فعالية الحجاج ونجاحه ترتبط بانفعال المتلقي الإيجابي، وهذا ما يكون مقياسه مدى تحقق ما يسعى إليه الخطيب لكن بعيدا عن الكذب والسفسطة.

يشكل الاستدلال أساس الحجاج عند أرسطو وهو ما يعتمد فيه الخطيب على آيتين هما:¹

- **المثال:** من خلاله يعتمد الخطيب على حالة أو أكثر، شبيهة بتلك التي يود الإقناع بها، وذلك لاستنباط الدقة والموضوعية.

- **القياس المضمّر:** وهو نوع من القياس المؤلف الذي ينتمي لقابلية الصواب. وفي هذه الحالة يكون الانطلاق من مقدمة ما بهدف استنتاج فكرة جديدة ومختلفة، لكنها ناتجة بالضرورة من تلك المقدمة.

يمثل القياس عند أرسطو أهم آليات الحجاج في الخطابة، ويقصد به القياس الذي يكون مرادفا للاستدلال الاستنباطي، الذي يتم الانتقال فيه من مقدمات إلى نتائج تربطها علاقة منطقية، وهو حسب النظرية الأرسطية استدلالا حجاجيا، حيث جعله أداة لأداء الإقناع الجدلي وعدّه صورة للحوار والجدل، مثال هذا القياس:

- كل لغوي عالم.

- سيبويه لغوي.

- إذن سيبويه عالم.

تظهر أهمية البلاغة عند أرسطو في دورها الفاعل الذي تقدمه للعلاقات الإنسانية، والذي يتمثل تحديدا في خدمة القيم الاجتماعية، وهذا ما يتجلى من خلال الخطابة إذ يجب على منتجها أن يتوخى حسب أرسطو "إنتاج قول عمومي يخدم القيم التي ينبغي أن يقوم عليها الاجتماع الإنساني"²، وذلك ما يجعل الحقيقة البلاغية حسب رأيه احتمالية متغيرة وبالتالي فهي متعددة وليست يقينية ثابتة، فقد "فرق .. بين ما يسمى بالحقيقة الثابتة وتلك يمكن الالتقاء بها في المجال العلمي، والحقيقة النسبية وهي التي تعتمد على ما أسماه أرسطو بالقياس المضمّر وهو القياس الذي يتكون من مقدمات ونتائج احتمالية ظنية لا حتمية، وتلك الحقيقة يمكن أن نلتقي بها في مجال

¹ - ينظر: فيليب بروتون وجيل جوتيه، تاريخ نظريات الحجاج، تر: محمد صالح ناجي الغامدي، مركز النشر العلمي، المملكة العربية السعودية - جدة، ط1: 2011، ص 32 و33.

² - هشام الريفي، الحجاج عند أرسطو، ضمن: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إشراف: حمادي صمود، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية - تونس، كلية الآداب، د/ت نشر، ص 268.

الخطابة حيث تتيح لنا أن نذكر ما للشيء وما عليه"¹، وذلك ما يسمح بتعدد وجهات النظر للموضوع، وهذا ما يتعارض مع الحقيقة البلاغية عند أفلاطون.

ب - الشعر:

يتعلق هذا الجانب بالشعرية التي تدور حول الأدب الفني الشعري؛ حيث انشغل أرسطو بالبحث في الأجناس الأدبية وصفا وتصنيفا وتأسيسا، وذلك في كتاب: (فن الشعر). الذي بين فيه أن الخطاب (النص) الأدبي ثلاثة أجناس: (شعر وملحمة ودراما).

يعد الشعر عند أرسطو أهم جنس أدبي، فقد جعله " أعلى شكلا للفن المنتج كما عده أكثر فلسفة وصرامة من التاريخ"²، وقد تناول الشعر في نظريته الأدبية كموضوع يمتلك طبيعته الخاصة، مركزا بذلك على أهميته ودوره الفني الجمالي الذي يتغلل أثره الإيجابي في أعماق النفوس حيث يستطيع مدواتها، فيغير ما بداخلها من صراعات داخلية سلبية من خلال الانفعالات التي يثيرها، فهو عنده أداة إنسانية تربوية؛ وهذا ما يعبر عنه في النظرية الأرسطية مصطلح: التطهير (catharsis)³ الذي يوضح قيمة التجربة الأدبية الجمالية، وعلى هذا الأساس أكد أرسطو على "ضرورة الشعر للنفس الإنسانية، ومرد ذلك إلى نزعتين: النزعة إلى المحاكاة والنزعة إلى الانسجام واللغة"⁴. لقد حاول أرسطو تفسير نشأة الفنون عامة والشعر خاصة، وقد ربطه بمحاكاة الطبيعة التي يمكن على أساسها تمييز الفنون المختلفة: الرسم، والرقص، والشعر الذي يعد محاكاة للغة.

يستند الجنس الشعري عنده على المحاكاة فهو ضرب من ضربها⁵، إذ بواسطتها تتحقق أدبية الشعر كصناعة ذات درجة عالية من الفنية، فهو يرى أن "الشعر صناعة فنية وأن فن الشاعر يتجلى في صياغته وتنظيمه للعمل

¹ - أحمد درويش، النص البلاغي في التراث العربي والأوربي، ص 25.

² - ينظر: أرسطو، فن الشعر مع الترجمة العربية القديمة وشروح الفارابي وابن سينا وابن رشد، ترجمه عن اليونانية وشرحه وحقق نصوصه: عبد الرحمن بدوي، دار الثقافة، بيروت - لبنان، ط: 1973، ص 26.

³ - لم يعط "أرسطو" مفهوما دقيقا للتطهير في كتابه "فن الشعر"، بل اكتفى بقوله أن المأساة تثير الرحمة والخوف، فتؤدي إلى التطهير من هذه الانفعالات. فالتطهير له علاقة بمعنى الرحمة والخوف وإثارتها، وهذا ما يجعل النفس تتطهر من الانفعالات الضارة وينقيها ويزرع فيها الاعتدال العاطفي وبالتالي فهو علاج للشعر فينبغي معالجة الشر بالشر"، عبد الرحمن وهابي، القراءة العربية لكتاب فن الشعر لأرسطو طاليس، عالم الكتب الحديث، الأردن ط1: 2011، ص 127.

⁴ - أرسطو طاليس، فن الشعر، ترجمه وشرحه وحقق نصوصه، عبد الرحمن بدوي، ص 11.

⁵ - تعتمد المحاكاة عنده على "الإيقاع والانسجام واللغة"، ينظر: المرجع نفسه، ص 5.

الشعري حتى يكسبه الصفة الشعرية، مستندا إلى المحاكاة كعنصر جوهري في الشعر"¹، حيث يعتمد (المبدع) الشاعر إلى محاكاة المواقف الإنسانية والوقائع الطبيعية،، فيصورها تصويرا فنيا تكسر من خلاله اللغة الشعرية قيود الحدود لتدخل في نطاق اللاحدود، إذ يقر أن المحاكاة "ليس أن تحاكي الطبيعة محاكاة الصدى، وتمثلها تمثيل المرأة، وتنقلها نقل الآلة، تلك هي النتيجة التي تنفي الذكاء والعبودية التي تسلب القوة إنما عظمة الفن أن يفوق الطبيعة"²، فالعشبة - حسب نظرية الأدب الأرسطية - هي ما تشترطه المحاكاة الجمالية الأدبية، التي تنبعث عبر تقنية التصوير الشعري الإبداعي، الذي يتيح إمكانية الانتقال من الموجود العادي إلى اللاحدود الخاص المتميز.

تعد الصورة عند أرسطو جوهر التعبير الجمالي وقوام اللغة الفنية (الشعرية)، التي تنتج عن طريق تخيلات تتخذ من تلاوين الغرابة اللغوية ومظاهرها أساسا لها، ف "لما كان الشاعر محاكيا شأنه شأن الرسام، وكل فنان يصنع الصور فينبغي عليه بالضرورة أن يتخذ إحدى طرق المحاكاة الثلاث: فهو يصور الأشياء إنما كما كانت، أو كما هي في الواقع، أو كما يصفها الناس وتبدو عليه، أو كما يجب أن تكون، وهو إنما يصورها بالقول ويشمل الكلمة الغريبة والمجاز وكثيرا من التبديلات اللغوية"³، وهي تبديلات تستهدف دلالة الكلام قصد خلق الأدبية، ولعل من أبرز تقنيات ذلك عند أرسطو الغرابة، التي تحصل عبر المجاز ومظاهره ولعل من أهمها: (التشبيه والاستعارة).

والواقع تتغير وظيفة المجاز حسب أرسطو - كالاستعارة مثلا - تبعا لنوع الخطاب وهدف منتجه منه، وهو ما يكون غالبا بين الإقناع والإمتاع، وذلك ما بينه أرسطو "فإذا كان الخطاب يهدف إلى الإقناع يكون حجاجيا، وحين يهدف إلى المتعة يكون شعريا، وحين يهدف إلى الإبلاغ يكون عاديا (متداول)، ومن هنا فالاستعارة الجمهورية تهدف إلى الإبلاغ، والاستعارة الحجاجية تهدف إلى إحداث تغيير في الموقف العاطفي أو الفكري للمتلقي، في حين لا تهدف الاستعارة الشعرية إلا لذاتها"⁴، وذلك ما يعني أن الاستعارة التأثيرية عند أرسطو نوعان: استعارة إقناعية جمالية، واستعارة شعرية فنية إمتاعية، وهذا ما يفضي إلى نفي اعتقاد ربط الصورة الأدبية بالمجال الشعري الفني فقط، حيث يحصل نظرا لتداخل الأهداف في الخطاب الواحد أن نجد (الصورة الحجة).

¹ - رمضان الصباغ، في نقد الشعر العربي المعاصر دراسة جمالية، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية - مصر، ط1: 1998، ص 25 و 26.

² - كريب رمضان، بدور الاتجاه الجمالي في النقد العربي القديم، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران - الجزائر، ط: 2004، ص 29.

³ - أرسطو طاليس، فن الشعر، ص 71 و 72.

⁴ - ينظر: عمر أوكان، اللغة والخطاب، ص 133 و 134.

2 - اتجاهات البلاغة الغربية في العصر الحديث:

2 - 1. الاتجاه اللساني:

شكلت عديد التحولات التي شهدتها الدراسات اللغوية الغربية عبر انتقالها من دراسة اللغة إلى دراسة الخطاب، الطريق الذي قاد اللسانيين للوقوف على بعد اللغة البلاغي، وذلك ما تولد في خضم دراستهم للخطاب/ النص الأدبي، وهو ما كان في الواقع مطلباً ضرورياً في إطار ظهور الوعي بأهمية ذلك النوع من الخطاب والانكفاء بذلك على دراسته قصد تحديد خصائصه التي تميزه عن الخطاب العادي.

لقد عُرفت تلك البحوث اللسانية بالاتجاه اللساني البلاغي، ويتميز بأصوله المعرفية وأدواته المنهجية، التي تمزج بين اللسانيات والبلاغة، فقد وجه اللسانيون اهتماماً كبيراً للبلاغة خاصة بعد الانتشار الواسع الذي عرفته، أين أصبحت حاضرة بقوة في جميع المجالات الإنسانية. إذ يرى (بول ريكور) (Paul Ricoeur) (1913 - 2005) بناءً على ذلك أنه "يمكن إلحاق النظام الإنساني ككل بالحقل البلاغي، بما أن ما يسمى اللغة العادية ليست سوى اشتغالا للغات الطبيعية في أوضاع تخاطبية عادية، وهكذا تغدو البلاغة فناً للخطاب الإنساني الأكثر إنسانية"¹. وهذا ما ينطبق على الخطاب الأدبي الذي شكل مدار البحث في ذلك الاتجاه، ليكون في الوقت نفسه مركز تقاطع البحث البلاغي مع البحث اللساني في طابعه الأدبي، ومما لا شك فيه أن ذلك التقاطع قائم حول اللغة الفنية، التي يتأسس عليها ذلك الخطاب فيتميز من خلالها عن الخطاب العادي.

ومن خصائص الاتجاه البلاغي اللساني اهتمامه بـ "نظرية الأدب، ودراسة الصور البلاغية، والبحث في أدبية النصوص والخطابات في ضوء الشعرية والبنوية والسيمائية، كما هو الحال مع دراسات كل من: رولان بارت، وجيرار جينيت، وتيزفيتان تودوروف وأوزوالد دوكرو، ورومان جاكسون، وجان مولينو، وميشيل ريفاتير، وجان كوهن، وجماعة مو"²، وتنتمي أعمال كل هؤلاء وغيرهم إلى مجال ما عرف باللسانيات الأدبية الذي عدت فيه البلاغة مرادفة للأدب.

تعد أعمال الشكلايين الروس من أولى الأعمال التي توجهت على إثرها اللسانيات وجهة أدبية، حيث تم التركيز فيها على رصد واستجلاء الأدوات والسمات الشكلية البلاغية، التي تُكوّن اللغة الشعرية في الخطابات/ النصوص الأدبية، ومن بين تلك الأعمال: كتاب إيكهنبوم (Boris Eichenbaum) (1886 -

¹ - بول ريكور، البلاغة والشعرية والهرمينوطيقا، ترجمة: مصطفى النحال، ص 109.

² - جميل حمدوي، من الحجاج إلى البلاغة الجديدة، أفريقيا الشرق، المغرب، ط: 2014، ص 70 و 71.

1959) (دراسة التركيب وعلاقته بالإيقاع)، وكتاب شلوفسكي (Sklovsky) (1893 - 1984) (في نظرية النشر)، وكتاب فلاديمير بروب (Vladimir Propp) (1895 - 1970) (مورفولوجيا الحكاية الشعبية) ...

لقد سعى الطرح الشكلي الروسي إلى بناء نظرية علمية للأدب تقف على دراسة الحدود الشكلية، التي تميز الإبداع الأدبي، وقد كان ذلك على أساس معرفي لساني بنوي، وهو ما جعل البلاغة التي تمخضت في خضم بحوثه بلاغة لسانية بنوية، ويرى إجنباوم بأنه لا يمكن "اعتبار الشكلانية نظرية جمالية، ولا منهجية تمثل نظاما محددًا، إنما الرغبة في خلق إبداع مستقل، انطلاقًا من المميزات الداخلية للآليات الأدبية"¹، فقد عملوا على توسيع مجال الدراسة المحاشية، وتأكيد نجاعتها في فهم النظام الشكلي الداخلي (البنوي) الذي يميز الإبداعات الأدبية، وهذا ما جاء رداً على التيار الرمزي الذي كان يبالغ كثيراً في التركيز على المعنى، وينفي الجوانب الشكلية للعمل الأدبي، فقد حاول الشكلانيون التأكيد على أن قيمة الإبداع الأدبي تكمن في شكله أو صياغته، حيث اعتقدوا أن الوقوف على هذا الجانب من منظور شكلي هو وحده الكفيل بفهم ماهية الأدب، وإتاحة المجال لتأسيس علم له، يخرجهم من الأحكام الذاتية والتأملات الفلسفية.

ارتأى الشكلانيون بأنه "آن الأوان لدراسة الأدب الذي ظل منذ أمد بعيد أرضاً بدون مالك أن ترسم الحدود لحقلها وتحدد بوضوح موضوع البحث"²، ولأجل بلوغ ذلك جعلوا من أهم الأدوات المنهجية والإجرائية في دراستهم العمل وفق مبدأ استقلال الأدب؛ حيث يتم التركيز على نسقه بعيداً عن الأنساق الأخرى (الاجتماعية، التاريخية، الثقافية)، أي "الاستقلال الذاتي للأثر الفني الأدبي بإزاء الواقع الذاتي (المؤلف)، أم الموضوع (المحيط الاجتماعي)"³، فيجب - إذن - من منظورهم فصل الخطاب الأدبي عن مختلف السياقات الخارجية، حيث يكون مجرداً عن ظروف إنتاجه ومؤلفه، وهو ما يعني عدم ربطه بأي سياق غير لغوي يخصه، وذلك سواء على مستوى عملية الإنتاج أو عملية التأويل، لأن هذا - حسب رأيهم - ما يرتقي بالدراسة اللسانية الأدبية إلى مجال العلمية، حيث يمكن الوصول إلى نتائج صحيحة.

¹ - ينظر: Eikhenbaume, théorie de la méthode formelle in T.Todorov, Théorie de la littérature paris, éd. Seuil, 1965, p 33.

² - فكتور إيرليخ، الشكلانية الروسية، تر: محمد الولي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - بيروت، ط 1: 2000، ص 14.

³ - المرجع نفسه، ص 60.

عرفت أفكار الطرح الشكلايني المتعلقة بدراسة الخطاب الأدبي رواجاً كبيراً بين الباحثين، حيث ركزوا على تبنيها وتطويرها على المستوى النظري والتطبيقي، ويعد لسانيو براغ أبرز من قاموا بذلك وهذا من منطلق هدف تعميق العلاقة بين اللسانيات والأدب، وضبطها بقوانين علمية واضحة، كفيلة بتوضيح ماهية الإبداع الأدبي وتنظيمه موضوعاً ومنهجاً، والتمكن عبر ذلك من تأسيس علم كلي للأدب.

يعد رومان جاكبسون أهم من تجلت عنده مظاهر تحقيق ذلك المسعى؛ وهو ما أسس له من منطلق محاولة تقسيم تصور حاسم يحدد موضوع علم الأدب، ويوجب عن سؤال معيار الفنية الذي يميز خطاباً (أو رسالة) لغوية ما، وهو ما الذي يجعل من رسالة لغوية ما عملاً فنياً؟، وقد انتهى في خضم مختلف الآراء والتساؤلات التي أثارها ذلك الأمر إلى الفصل بين الأدب والأدبية، يجعل هذه الأخيرة موضوعاً لذلك العلم حيث يقول: إن "موضوع علم الأدب ليس هو الأدب وإنما الأدبية، أي ما يجعل من عمل معطى عملاً أدبياً"¹، إذ يتعلق الأمر - حسب رأيه - بالتقنيات والخصائص النوعية الأدبية التي تصنع فرادة الجنس الأدبي، فتكون الأدبية على هذا الأساس المظهر الوحيد المميز لما يعرف بالأدب، حيث نقف على لغة التعبير الراقي في مقابل اللغة اليومية العادية.

يُشترط تحقيق الأدبية حسب الطرح الجاكبسوني ضرورة توفر خاصية العلمية، ويتوقف ذلك على المنهجية المتبعة أو "الطريقة باعتبارها شخصيتها الوحيدة"²، وهذا ما يوفره المنهج الشكلايني الذي يعمل على تحقيق الأدبية باعتبارها القوانين العلمية الموضوعية التي تؤسس شرعية الأدب، بحيث تتميز تلك القوانين حسب الشكلاينيين بالكلية والشمولية، مما يفضي إلى صلاحيتها للتطبيق على مختلف الفنون اللغوية الأدبية ونيل نطاقاً واسعاً يستمر عبر مر العصور، حيث تسعى إلى تبنيها مستقبلاً على مستوى كافة النظريات الخطابية الأدبية الحديثة، وذلك ما يعني أيضاً أن تكون بديلاً للنظريات الأدبية البلاغية السابقة، بما في ذلك نظرية الأدب الأرسطية - التي اقتصرَت على الجنس الشعري فقط - ولعل أهم تجلياتها - النظرية الأدبية الشكلاينية - هي ما نجده تحت ما أصبح يعرف بالشعرية والأسلوبية.

Roman Jakobson, Huit questions de poétique, collection poelats, 1977, p 16.

- 1

Ibid, p 18

- 2

2 - 1 - أ. الشعرية: ومن أبرز ممثليها نجد:

أ - جاكبسون:

انتقل جاكبسون في إطار مشروع بلورة علم كلي للخطاب الفني الأدبي من الأدبية إلى الشعرية¹، وهي عنده "فرع من اللسانيات يعالج الوظيفة الشعرية في علاقتها مع الوظائف الأخرى للغة، وتهتم الشعرية بالمعنى الواسع للكلمة بالوظيفة الشعرية لا في الشعر فحسب، حيث تهيمن هذه الوظيفة على الوظائف الأخرى للغة، وإنما تهتم بها أيضا خارج الشعر حيث تعطى الأولوية لهذه الوظيفة أو تلك تبعا للوظيفة الشعرية"²، إذ تتقصى الشعرية مختلف مظاهر وألوان الصناعة الفنية الإبداعية، التي تتجلى في خضم حضور الوظيفة الشعرية سواء أكان ذلك في الجنس الشعري، أو غيره من الأجناس اللغوية التبليغية، وقد أراد بذلك أن يزيل اللبس الذي يؤدي إليه اعتقاد قصر الشعرية على الشعر فقط.

تبلغ الوظيفة الشعرية أقصى درجاتها في الخطابات الإبداعية الأدبية - خاصة الشعرية - وذلك مقارنة بالخطابات النثرية العادية، فهي "الوظيفة المهيمنة، والمحددة، في حين أنها لا تؤدي إلا دورا ثانويا، وإضافيا في الإنجازات اللغوية الأخرى"³، وهذا ما يعني أن الوظيفة الشعرية موجودة بنسبة ضئيلة في أي إنجاز لغوي، وأن هيمنتها تكون داخل الإنجازات اللغوية الأدبية.

لقد اعتمد هذا التصور الجاكبسوني خاصية العنصر المهيمن (أو القيمة المهيمنة) في مختلف الخطابات والأجناس الفنية الأدبية، ومعناه "العنصر الذي يحتل البؤرة من العمل الفني؛ فهو الذي يحكم غيره من العناصر أو المكونات ويحدددها"⁴، وعلى هذا الأساس بين أن "الخاصية المهيمنة في الشعر الخطاطة العروضية، أي شكله كشعر، ورغم ذلك ليس الشعر مفهوما بسيطا، وليس وحدة غير منقسمة، فهو نظام من القيم يتوفر على سلمية خاصة لقيّمه العليا والدنيا، وبين هذه القيم قيمة رئيسية، هي المهيمنة بدورها، - في إطار حقبة أدبية معينة واتجاه فني معين - مما يعني أن الشعر لا يفهم باعتباره شعرا"⁵، وربما هذا ما يفضي أيضا إلى التنبيه بعدم ربط الشعرية

¹ - تشترك الأدبية مع الشعرية في أن لهما نفس الغاية، وأنها يتسمان بالعلمية، غير أن مصطلح الأدبية لم يجد الرواج الكافي لينتشر ويتبنى، فسرعان ما شاعت الشعرية وطغت عليه.

ينظر: حسن ناظم، مفاهيم الشعرية، دراسة مقارنة في الأصول والمنهج والمفاهيم، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1: 1994، ص 36.

² - رومان جاكبسون، قضايا الشعرية، تر: محمد الولي ومبارك حنون، دار توبقال للنشر، ط1: 1988، ص 35.

³ - R. Jakobson, Essais de linguistique général (1 - les fondations du langage), traduit par Nicolas Ruwet, Paris, les édition de Minuit, 1963, p 214, p 220.

⁴ - رومان سلدن، النظرية الأدبية المعاصرة، تر: جابر عصفور، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط 1998، ص 36.

⁵ - رومان جاكبسون، القيمة المهيمنة، ضمن كتاب نظرية المنهج الشكلي، نصوص الشكلايين الروس، إختيار بوم بريس وآخرون، تر: إبراهيم الخطيب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت - لبنان، ط1: 1982، ص 81.

بالشعر لمجرد جنسه، فهو تشكيل لغوي تكوّنهُ مجموعة من السمات: التركيبية، الدلالية، الصوتية، التي تحتوي بدورها على قيم معينة كالوزن، والصورة الشعرية، والأصوات، التكرار...، فعلى أساس ذلك تتباين الرؤية إلى العنصر المهيمن التي تختلف وتتغير تبعا للتطور الزماني والمكاني حيث يتنوع التفكير والمذهب.

وضح جاكبسون من خلال تبني الثنائية السوسيرية المتمثلة في: محور الاختيار/ محور التأليف، مفهومه عن الوظيفة الشعرية، التي تنتج حسب رأيه عبر "إسقاط مبدأ التماثل الخاص بمحور الاختيار على محور التأليف"¹، إذ يؤدي ذلك إلى تولد سمات لغوية فنية جديدة تساهم في بناء الخطاب الأدبي حيث تتواجد الوظيفة الشعرية، وفي الواقع تدور مختلف التحويلات القائمة حول عملية الإسقاط على ظاهرة التوازي باعتبارها مدار الشعرية، وهي "تأليف ثنائي يقوم على أساس التماثل الذي لا يعني التطابق"²، وذلك ما يتعلق بالتوازن والتناسب الذي يمكن أن يحصل داخل الخطاب بين عناصره البنوية المختلفة، وهي تماثلات تشمل الجانب التركيبي، والدلالي، والصوتي.

يعمل التوازي على إضفاء طابع الخطاب الخاص حيث تنتظم علاقات التماثل وفق نمط معين، فتتنوع وتتباين الخطابات، ذلك لأنه "نسق من التناسقات على مستويات متعددة، في مستوى تنظيم الأشكال النحوية وترتيبها، وفي مستوى تنظيم الأصوات والهيكل التطريزية، وهذا النسق يكسب الأبيات المترابطة بواسطة التوازي انسجاما واضحا وكبيرا في الآن نفسه، فالقالب الكامل يكشف بوضوح عن تنوعات الأشكال والدلالات الصوتية والنحوية والمعجمية"³، وتلك التنوعات هي ما يشغل عليها المبدع فيسعى إلى تقديم الأفضل، الذي يمكنه من تجاوز نسق الإنجاز العادي الداخل في الدرجة الصفر، وأهم من ذلك هو تجاوز واستبعاد إبداعية الخطابات الأدبية السابقة له وربما اللاحقة أيضا، إذ يكون حضور الشعرية في خطابه حضورا متميزا.

تطرق جاكبسون في إطار تبين ماهية التوازي وعلاقته بالشعرية إلى ظاهرة الانزياح، التي ركز فيها خاصة على النمط الدلالي حيث عمل على التفريق بين الاستعمال الحقيقي والاستعمال المجازي، وقد فرق ضمن تحليلات هذا الأخير بين (الاستعارة) و (المجاز المرسل). وهو ما حاول إعطاء تفسير دقيق له من خلال البحث في علاقة ذلك بأمراض الكلام وتحديد (الحبسة)، وقد وضع ذلك استنادا على عمليات الانتقاء والتركيب أو التنسيق، حيث يرى أن "كل شكل من أشكال الاضطراب الناتج عن الحبسة يقوم على بعض الخلل الذي يكون على درجات متفاوتة من الخطورة، ويصيب إما المقدرة على الانتقاء والإبدال، وإما المقدرة على التنسيق والربط. ويطرأ

1 - R. Jakobson, Essais de linguistique générale, p 220.

2 - رومان جاكبسون، قضايا الشعرية، ص 103.

3 - المرجع نفسه، ص 47.

في الحالة الأولى تلف يصيب عمليات ما وراء اللغة، في حين تصيب الحالة الثانية مقدرة المحافظة على نظام الوحدات اللغوية. وتكون علاقة التماثل مفقودة في النمط الأول في حين تفقد علاقة التجاور في النمط الثاني. ويستحيل وجود الاستعارة في اضطراب التماثل، كما يستحيل وجود المجاز المرسل في اضطراب التجاور¹، يوضح ذلك أن إنتاج الاستعارة يرتبط بمحور الاختيار، ولهذا تكون استحالتها في حالة اضطراب التماثل؛ أي فقدان القدرة على ذلك، أما المجاز المرسل فيرتبط بإنتاجه بمحور التأليف وتحديدًا بعلاقة التجاور التي تسمح بتركيب الجمل وفق قواعد النحو، ولذلك يمنع فقدانها من تكوين عبارات ذلك المجاز، ويمكن أن نفهم من ذلك أن الاستعارة ذات طبيعة دلالية في حين أن المجاز المرسل ذو طبيعة نحوية.

ب - جون كوهن John cohen (1919 - 1994)

عمل جون كوهن - أيضا - على صياغة نظرية علمية للشعرية وذلك من منطلق إبستمولوجي بنوي، استمد مقوماته من مقولات الشكلايين ورؤيتهم المحايثة للأدب، مركزا بذلك على الشعر فقط؛ فقد "سعى إلى تأسيس شعرية علمية وبنوية؛ شعرية تبحث عن شكل للأشكال، عن عامل مشترك عام للشعر؛ أي عن الثوابت التي تتعالى عن التنوع اللامتناهي للنصوص الفردية والتي تتجسد حسب كوهن في مفهوم "الانزياح"²، إذ تتجلى عنده صورة الخطاب الفني السامي في الشعر، وذلك ما يكتسبه من خلال الاعتماد على آلية الانزياح التي جعلها السمة اللازمة له، فالشعر حسب كوهن انزياح يختلف عن النثر بل ويناقضه، فهو "ليس نثرا يضاف إليه شيء آخر، بل إنه نقيض النثر. ولهذا يبدو وكأنه سالبًا تمامًا، أو كما لو كان نوعا من أمراض اللغة، فهو لا يحطم اللغة العادية إلا ليعيد بناءها على مستوى أعلى بناء من طبيعة أخرى"³، ولابد أنها طبيعة خاصة تتميز بفعاليتها القصوى القادرة على إضفاء الجمالية التي تميز الخطاب الأدبي.

يقوم الانزياح في لغة الشعر على خرق قوانين النسق اللغوي، وهو ما يُمكن المبدع من صنع لغة جديدة خاصة تتميز عن اللغة العادية؛ "فالخطاب العادي، يندرج في خط النسق، بالاتفاق مع قوانينه، وهو لا يفعل أكثر من تحقيق إمكاناته، والخطاب الشعري يعاكس النسق"⁴، وذلك ما يؤكد جرأة الشاعر وقدرته الإبداعية، فأن

¹ - ينظر: فاطمة الطبال بركة، النظرية اللسانية عند رومان جاكسون، ط1: 1993، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ص 170.

² - ينظر: عمر أوكان، اللغة والخطاب، ص 171.

³ - ينظر: جان كوهن، بنية اللغة الشعرية، تر: محمد الولي ومحمد العمري، دار توبقال للنشر، المغرب، ط1: 1996، ص 49.

⁴ - المرجع نفسه، ص 129.

يعاكس النسق وينزاح عن خصائصه هو أصل التغيير الإيجابي الذي يطلبه المعنى الشعري، إذ لا يقوده الالتزام بمعيار اللغة إلى أي شيء، فقد حاول كوهن من خلال ذلك توضيح كيفية الوصول إلى اللغة العليا، فربطها باللغة الشعرية الانزياحية أين تتولد قيمة الخطاب فنقف على البلاغة والشعرية.

يحصل فعل الانزياح كخاصية مميزة في الشعر بين طرفي الإسناد حيث تتكون الجملة الشعرية، وحسب تصور كوهن فإن ذلك الفعل لا يتحقق بالصورة المثالية، التي يكون فيها ناجحا إلا من خلال عملية عكسية تصاحبها، تتمثل في محاولة نفي هذا الانزياح وهي ما اصطلاح عليه باسم المنافرة، فالانزياح وحده - حسب كوهن - غير كاف بل لا بد من إعادة البناء، وذلك ما يحيل على معنى المنافرة "المدرجة في الجملة بواسطة هذه الموارد، تدرك مباشرة، وتدفع إلى العمل آلية نفي الانزياح اللغوي. هذه الآلية هي التي تدخل هذه القيم الدلالية المنتمية إلى طبيعة مختلفة، وهي التي تكون المعنى الشعري"¹، ولا شك أن ذلك مبني على قاعدة مفادها أن قوة الانزياح ترتبط بقوة المنافرة، وهي العلاقة التي تكون بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي.

لقد بين أن قوة المنافرة "تناسب مع شدة تغير المعنى الضروري لنفيها، أي تتناسب مع المسافة الفاصلة بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي"²، لكن رغم فعل الانزياح يظل هذين المعنيين على علاقة منطقية إذ يتوقف فهم أحدهما على فهم الآخر، حيث يصيغ المبدع الدلالة الشعرية الجديدة عبر عملية استبدال المعنى الأول بالمعنى الثاني، وذلك في إطار حدود النظام العقلي المنطقي المقبول، الذي يقضي بوجود علاقة بين المعنيين، ويمنع الدخول في مجال اللامعقول المجهول، وهذا ما يؤسس لشعرية الانزياح. فتلك العلاقة هي ما ينبغي أن يحرص المتلقي على وجوده.

ج - جيرار جينيت G. Genette (1930 - 2018):

لم تخرج وظيفة الشعرية عند جيرار جينيت عن البحث في بعد اللغة الأدبي، من أجل تقديم تفسيرات تبين ماهية الأدب، حيث "يرى أن موضوع الشعرية هو الخطاب الأدبي الذي هو أصل مولد لعدد لا نهائي من النصوص، والشعرية هو الدرس النظري الذي يعتمد على المنهج التجريبي، ومن مهماتها أن تزودنا بالإجابة على السؤال: ما الأدب ؟ أي تحاول الشعرية إخضاع الظاهرة السوسولوجية (الأدب) إلى وجود داخلي، وتحديد

¹ - جان كوهن، بنية اللغة الشعرية، ص 113.

² - المرجع نفسه، ص 125.

الخطاب الأدبي مع الاهتمام بالأنماط الأخرى"¹، فقد أعاد جينيت - من داخل الطرح الشكلائي - إثارة إشكالية تعريف الأدب، والتطرق من منظور جديد إلى سؤال الأدبية الذي طرحه جاكسون، ساعيا من خلال ذلك إلى وضع نظرية جديدة للشعرية. وقد انتهى رغم اعترافه بصعوبة تقديم تعريف جامع مانع للأدب إلى تعريفه بأنه: "فن اللغة"²، ويستدعي الخوض في مجال الأدب حسب رأيه ضرورة البحث في قضيتين أساسيتين:³

1 - البحث فيما يميز الأدب "فن اللغة" عن غيره من الفنون (رسم، موسيقى وغيرهما).

2 - البحث فيما يميزه عن بقية الممارسات اللغوية الأخرى (تاريخ، فلسفة وغيرهما).

تفضي حقيقة اعتبار الأدب فن اللغة الإقرار بطريقة تلقائية بوجود فنون غير لغوية تقابله، وتشارك معه في سمة الفنية، وهذا ما يقود في الوقت نفسه إلى المقارنة بين تلك الفنون والبحث فيما يميز الأدب عن غيره. ويبدو أن ما طرحه جينيت هنا يقترب إلى حد بعيد من نظرية الأدب عند أرسطو، حيث فرق فيها بين الفنون الإنسانية القولية، التي يمثلها (الشعر) باعتباره فن القول الأسمى، والفنون غير القولية (كالرسم، الرقص)، مبينا أن كل تلك الفنون محاكاة تتحقق بواسطة "اللغة، الإيقاع، الانسجام"⁴، بحيث يختلف حضور تلك العناصر من فن لآخر من خلال (الأداة، الموضوع، الطريقة) التي يتم اعتمادها في كل فن.

ذهب جيرار جينيت من خلال بحثه في الفنون اللغوية إلى التمييز بين وظيفتين للغة:⁵

- **الوظيفة العادية:** وتتمثل في الكلام من أجل الإخبار، الاستفهام، الأمر، الوعد .. ، وترتبط هذه الوظيفة بالبلاغة أو ما يعرف بالتداولية.

- **الوظيفة الفنية:** وتتمثل في إنتاج أعمال إبداعية وذلك ما يرتبط بالشعرية.

يقوم تصوره على الإقرار بأن الشعرية تقتضي حضور الوظيفة الفنية في الإبداعات الأدبية، وذلك بصورة عامة إذ إنها كلية تتعلق بجميع الأجناس الأدبية، وهذا ما اختلف فيه مع أرسطو الذي جعلها خاصة بجنس الشعر

¹ - حسن ناظم، مفاهيم الشعرية، ص 33.

² - Gérard Genette, fiction et diction, Edition du Seuil, Paris, 1991 p 11.

³ - Ibid., p 13

⁴ - أرسطو طاليس، فن الشعر، ص 50.

⁵ - Gérard Genette, Fiction et Diction, p 16.

فقط. وقد عمل جينيت على تنظيم عملية التجنيس بوضع محددات تتمثل في: "الموضوعاتية، الصيغية، الشكلية"¹، حيث يتم إدراج الأجناس وتنميطها على أساس تلك المحددات.

انصب التطوير الذي سعى إليه جينيت في مشروعه من أجل بناء نظرية جديدة للشعرية حول التحديد الدقيق داخل العمل الأدبي للمكون الفني، الذي يمكن أن يعد موضوعا للشعرية، وقد دفعه ذلك إلى إعادة النظر في مختلف التصورات والآراء السابقة له والمعاصرة له أيضا، حيث عمل على مناقشة مختلف الرؤى المتعلقة بالشعرية، وقد توصل إلى وضع مفهوم (جامع النص l'architexte) مفرقا بينه وبين النص، مبينا أن الأول هو موضوع الشعرية فقد أقر بأنها: "النظرية العامة للأشكال الأدبية، فهو يعتبر أن النص ليس هو موضوع الشعرية بل جامع النص أي مجموعة الخصائص المتعالية التي ينتمي إليها كل نص على حدة مثل: أصناف الخطابات، صيغ التعبير، الأجناس الأدبية"²، فليس النص كوحدة مستقلة ما تتولد عنه الشعرية بل ما يضعه في علاقة تفاعلية مع نصوص أخرى سواء أكانت ظاهرة أو خفية، بحيث تؤسس تلك العلاقة (للتعالي النصي la transcendance textuelle) "، وذلك ما عرف كذلك بالتداخل النصي والتناص.

وتتجلى مظاهر التعالي النصي في:³

- التناص: Intertextualité وهو حضور نص في نص آخر عن طريق الاستشهاد والسرقعة وما شابه ذلك.

- المناص: Paratexte يتواجد هذا النوع في العناوين والعناوين الفرعية والمقدمات والذيل والصور، وكلمات الناشر.

- الميتانص: Métatexte وهو تلك العلاقة التي تربط نصا بآخر يتحدث عنه دون ذكره.

- النص اللاحق: يكمن في العلاقة التي تجمع نصا بنص، مثلا العلاقة التي تجمع النص (ب) كنص لاحق بالنص (أ) كنص سابق وهي علاقة تحويل ومحاكاة.

- معمارية النص: architextualité أي مجموعة الخصائص التي ينتمي إليها كل نص، وهي خصائص "موجودة فوق وتحت، وحول النص الذي لا ينسج غزله إلا عبر تعليقه بالشبكة النسجية الجامعة"⁴، ويعني ذلك

¹ - Gérard Genette, Introduction à L'architexte, in théorie des genres, Edition du Seuil, Paris, 1986, p 154.

² - حسن ناظم، مفاهيم الشعرية، ص 33.

³ - نور الدين السد، الأسلوبية وتحليل الخطاب، دراسة في النقد العربي الحديث، الجزء ١، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط: 2010، ص 121.

⁴ - Gérard Genette, Indtroduction à L'architexte, in Théorie des genres, p158.

أن النص نسيج يضم مجموعة من المكونات. وهو ما يعبر عنه مصطلح النص الجامع الذي يعد النموذج الكلي التي تتشكل على أساسه النصوص الأدبية.

يمثل النص الجامع الفضاء المثالي لتجلي صورة الشعرية في النصوص الأدبية، وهو ما يدور في أغلبه على نسيج العلاقات الحوارية التي يقيمها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة مع أفكار ومواقف نصية أخرى، حيث إن ذلك مبني على فعل التناص الذي تقوم به الذات المبدعة، ولذلك تمحور اهتمام الشعرية في دراستها للنصوص حول نماذجها الكلية الممكنة. وقد كان هذا التصور أساس تحديد البلاغة والانتقال بها من لغة الشعر - كما جاءت عند أرسطو - إلى لغة الفنون اللغوية؛ أي من منظور كلي شامل.

وبهذا يمكن أن نفهم مع جيرار جينيت أن "الشعرية ليست في أحد معانيها إلا بلاغة جديدة"¹، وهي البلاغة التي تكتسب من خلالها اللغة طابع التحول من العادي إلى الفني.

2 - 1 - ب. الأسلوبية:

خرجت البلاغة من خلال هذا التوجه - كذلك - عن هدف تعليم الطرق الصحيحة المؤدية إلى نجاح المتكلم، من خلال قوة المحاجة والإقناع، ليصبح التركيز على الخطاب في بعده التأثيري الجمالي الهدف المعرفي الجديد الذي كان أساسا لوضع بلاغة حديثة، تهتم بالصور الشعرية للأسلوب، بحيث تصبح تلك البلاغة وريثا للبلاغة القديمة.

فقد أشار ديكرو (Oswald Ducrot) (1930 -) وتدوروف (Tzvetan Todorov)

(1963 - 2017) في معجمهما الموسوعي حول علوم اللغة إلى أنه "خلال العشرين قرن الماضية، مرت البلاغة بتعديلات جوهرية ... وقد فقدت جانبها التداولي المباشر، فلم تكن غايتها تدريس كيفية الإقناع بل كيفية بناء خطاب جميل، أي أنها احتزلت إلى فن للأسلوب، أما في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، فلم تكن البلاغة سوى عملية إحصاء للأشكال الأسلوبية ..، وبهذا أصبحت الأسلوبية الوريث المباشر للبلاغة، وليست مصادفة أن تتكون الأسلوبية في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين"²، فقد عدت البلاغة في خضم هذا المنحى

G.Genette, Figure 1, Seuil, 1966, p 261.

Ducrot, Todorov, dictionnaire encycl. des science du langage, op. cit, p 100 - 101.

فن الأسلوب الذي يتعلق مجال بحثه بمكونات النص الأدبية، التي تشرف على التعبير الجميل وذلك باعتباره مؤشر التنوع الفردي المتميز.

- ارتبط الحديث عن الأسلوبية بالأسلوب الذي أخذ مفاهيم كثيرة، وفي الواقع لقد شكل مصطلح (الأسلوب) موضوعا بحثيا مهما لدى العديد من الدراسات الإنسانية الحديثة المتنوعة ك: (علم النفس، الفلسفة، البلاغة، اللسانيات ..)، وقد تباين مفهومه بين الباحثين حيث عرفه كل من وجهة نظره:¹
- الأسلوب هو السلوك (عالم النفس).
 - الأسلوب هو المتحدث/ المتكلم (عالم البلاغة).
 - الأسلوب هو الشيء الكامن (الفقيه اللغوي).
 - الأسلوب هو الفرد (الأديب).
 - الأسلوب هو المتكلم الخفي أو الضمني (الفيلسوف).
 - الأسلوب هو اللغة (اللساني).

يمكننا أن نذهب من منطلق ما يراه اللساني، أن مفهوم الأسلوب يتعلق باستعمال اللغة، حيث يمثل الطريقة التي يُعتمد عليها في بناء الخطاب وإخراجه؛ فهو "طريقة اختيار الألفاظ وتأليفها للتعبير عن المعاني قصد الإيضاح والتأثير"²، ويكون هذا الجانب عادة مدار تميز صاحب الخطاب عن غيره إذ يعكس الأسلوب شخصيته، وهذا ما أراده بوفون بقوله: "الأسلوب هو الكاتب"، حيث يعد من هذه الوجهة شيئا فرديا يرتبط بصاحبه (منتجه) ويدل عليه؛ وذلك ما يبرره الاختيار أو الانتقاء الذي يقوم به؛ حيث يبينه كما يريد فيمارس سلطة الإنتاج أو التعبير، التي تجعله حرا في انتحاء الوجهة التي يختارها وابتداع ما يراه مناسبا لغرضه، ويمكنه من ممارسة وظيفته الإبداعية بما تشويه من أبعاد تستهدف المتلقي، وهو ما يكون بين الطابع الاستعمالي العادي والطابع الاستعمالي الأدبي وذلك ما اهتمت به الأسلوبية.

ركزت الأسلوبية من منطلق منهج اللسانيات البنوية الذي تجلّى مع الشكلايين في دراستهم للنص الأدبي، على أن تكون علما حديثا يهتم بدراسة الأسلوب الفني الأدبي، حيث عُرِّفت بأنها "الدراسة العلمية للأسلوب في

¹ - فيلي ساندريس، نحو نظرية أسلوبية لسانية، تر: خالد محمود جمعة، دار الفكر، دمشق، ط1: 2003، ص 26.

² - البدرابي زهران، أسلوب طه حسين في الدرس اللغوي الحديث، دار المعارف، القاهرة، د/ط، ص 8.

الأعمال الأدبية"¹، فقد "سعت لأن تكون منهجا بديلا وعلميا منضبطا، وهو منهج يهدف إلى تحليل الخطاب الأدبي والكشف عن أبعاده الجمالية والفنية"²، الأبعاد التي تتجلى من خلالها الوظيفة الشعرية أو البلاغية.

انتقد الأسلوبيون معيارية البلاغة القديمة؛ حيث ينبغي - حسب رأيهم - أن تتسم البلاغة الحقيقية بالوصفية فلا تكون وظيفتها ضبط عملية الإبداع الأدبي بمعايير، وقوانين تعليمية وإنما وصف وتحليل الخطاب الأدبي، إذ أصبحت "الأسلوبية عبر التحامها باللسانيات أداة هامة من أدوات النقد وتحليل النصوص، دراسة وتصنيفا مهمة بكل الأجناس الأدبية"³، وذلك باعتبار طبيعة خصائصها الجمالية. فقد ركزت على تقديم طريقة علمية لتحليل الخطابات أو النصوص الأدبية.

وتتمثل العناصر التي يركز عليها التحليل الأسلوبي في:⁴

- العنصر اللغوي: ويعالج نصوصا قامت اللغة بوضع شيفراتها.
- العنصر النفعي: يؤدي إلى إدخال مقولات غير لغوية، مثل المؤلف والقارئ والموقف التاريخي، وهدف الرسالة.
- العنصر الجمالي: يكشف تأثير النص على القارئ والتعبير والتقويم الأدبيين له.

ويركز التحليل الأسلوبي للخطابات على المستويات الآتية:⁵

- **المستوى الصوتي**: وفيه يدرس الإيقاع والعناصر التي تعمل على تشكيله، والأثر الجمالي الذي يحدثه، كما تدرس فيه تكرار الأصوات والدلالات الموحية التي تنتج عنه.
- **المستوى التركيبي**: تدرس الجملة من حيث طولها وقصرها، بنيتها السطحية والعميقة، عناصرها المكونة لها: الفعل، الفاعل ...

- **المستوى الدلالي**: وفيه تدرس الكلمات المفاتيح، الكلمة وسياقها، وعلاقتها الاستبدالية، المجاورة ..

- **المستوى البلاغي**: تهتم فيه بدراسة المعاني البلاغية التي يخرج إليها كل نوع.

تبين هذه المستويات الطبيعية الكلية لمنهج الدراسة الأسلوبية حيث تقف على النسق اللغوي الكلي للنص، قصد التمكن من رصد خصائص أسلوبه على مستوى الصوت، والتركيب، والدلالة التي تتعلق بالبلاغة أين يتجلى

¹ - ينظر Jean Dubois et autres, Dictionnaire de linguistique, Librairie Larousse, Paris, 1973, p456.

² - موسى سامح رابعة، الأسلوبية مفاهيمها وتجلياتها، دار الكندي للنشر والتوزيع، الأردن، ط1: 2003، ص 9.

³ - ينظر: منذر عياشي، الأسلوبية وتحليل الخطاب، مركز الإنماء الحضاري للدراسات والترجمة والنشر، سوريا، ط1: 2002، ص 10.

⁴ - صلاح فضل، علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، دار الشروق، القاهرة، ط1: 1988، ص 132.

⁵ - ينظر: يوسف أبو العدوس، الأسلوبية الرؤية والتطبيق، دار الميسرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان، ط1: 2007، ص 52.

الانزياح، وقد أتاح التطور الذي عرفته الأسلوبية توجيه البحث إلى جوانب خارج دائرة الشكلي اللغوي المحض؛ فقد أصبحت تهتم بمختلف المكونات التي يمكن أن تدخل في إطار العمل الأدبي (تأليفا وتلقيا)، حيث تظهر عبرها علاقة السياق الداخلي بالسياق الخارجي. ومن أهم الاتجاهات التي عرفتها الأسلوبية هي:

- **الأسلوبية التعبيرية:** ظهرت على يد شارل بالي (Cherles Bally) (1865 - 1947) وحسب تصوره "تدرس الأسلوبية وقائع التعبير اللغوي من ناحية مضامينها الوجدانية، أي أنها تدرس تعبير الوقائع للحساسية المعبر عنها لغويا كما تدرس فعل الوقائع اللغوية على الحساسية"¹، والواضح أنها تهتم بالتعبير اللغوي بصفة عامة، وهذا من منظور البعد العاطفي الذي يرتبط به باعتباره الأداة المولدة له.

- **الأسلوبية المثالية:** ومن أبرز ممثليها كارل فوسلر (Karl Vossler) (1872 - 1949)، وتنهض هذه الأسلوبية على حقيقة "أن الأسلوب نتاج فكر فردي، يعكس شخصية الكاتب أو المؤلف، ويستجلي إرادته ومزاجه وثقافته وعوالمه النفسية والاجتماعية"²، وتولي هذه الأسلوبية أهمية كبيرة للجانب الذهني للمبدع باعتباره مركز الإبداع الأدبي.

- **الأسلوبية البنوية:** أهم من أسس لها ميشال ريفاتير (Michel Riffaterre)، وذلك في كتابه الموسوم بـ: "محاولات في الأسلوبية البنوية" الذي نشر عام 1971، ومن خصائص هذه الأسلوبية "معاملة النص على أنه بنية خاصة أو جهاز لغوي، يستمد الخطاب قيمه الأسلوبية منه"³، إذ لا تخرج في دراستها عن إطار اللسانيات البنوية التي تهتم بالسياق الداخلي للنص.

- **الأسلوبية الوظيفية:** أهم ممثليها رومان جاكسون، و"تعنى بوظائف اللغة ونظريات التواصل"⁴، فعلى عكس ما تذهب إليه الأسلوبية البنوية تعمل هذه الأسلوبية على ربط السياق اللغوي بالسياق الخارجي الوظيفي التداولي للنص، حيث تقر بتعدد مكوناته ووظائفه التي تكون بمقتضى وظيفة التواصل.

لقد أثارت بحوث الأسلوبية في التعبير الأدبي نقاشا كبيرا في الوسط النقدي، إذ عُدّت في نظر أغلبهم بلاغة حديثة، فهي بديلا علميا عن البلاغة القديمة، ويرى هنريش بليت (Henrich Plett) أن البلاغة "تتقلص في مباحثها حتى لا تعدو أن تكون جزءا من نموذج التواصل البلاغي، وتنفصل عن هذا النموذج، وتتسع إلى حد

¹ - عدنان بن ذريل، اللغة والأسلوب، دراسة، د/ دار نشر، د/ بلد نشر، ط2: 2006، ص 147.

² - جميل حمداوي، اتجاهات الأسلوبية، د/ دار نشر، د/ بلد نشر، ط1: 2015، ص 12.

³ - ينظر: بيير جيرو، الأسلوب والأسلوبية، تر: منذر عياشي، مركز الإنماء القومي، بيروت - لبنان، د/ ت نشر، ص 32 و 87.

⁴ - ينظر: المرجع نفسه.

تكاد تصبح فيه نفسها بلاغة مختزلة في الأسلوبية"¹، ولهذا يمكن عد البلاغة - حسب بيار جيرو (Pirre Giraud) - "أسلوبية القدامى"²، فالأسلوبية بلاغة "حديثه تحت شكلها المزدوج: علم للتعبير، ونقد للأساليب الفردية"³، فالأسلوبية وريث البلاغة.

تجمع البلاغة بين الأسلوبية والشعرية، هذين الاتجاهين اللذين يتداخلان تداخلا كبيرا ويرجع كابا فنس (kaba vense) ذلك إلى "الاهتمام بالأسلوب، ومفهوم الانحراف، وفكرة الجنس"⁴، وكلها تصب في إطار الاستعمال اللغوي الأدبي الفني، أين تكون اللغة الجمالية وتتجسد الوظيفة الشعرية - حسب تصور جاكسون - وذلك باعتبارها فن الإبلاغ التأثيري الإمتاع.

2-1 - ج. اتجاه البلاغة العامة:

تأسست معالم هذا التوجه من خلال أعمال جماعة ليج (أو مو) البلجيكية، التي عملت على القيام بعدة تغييرات على محتويات البلاغة القديمة، قصد تحديث البلاغة، وقد قدمت في سبيل تحقيق ذلك تصورا بلاغيا تميز بخصائص نظرية وأبعاد معرفية جديدة، يقوم على تحويل البلاغة إلى بلاغة عامة (أو معممة) تبحث في الخطاب عن تجلياته الشعرية التي تعكس الوظيفة البلاغية، وقد حددت ذلك في مظهر وحيد يتمثل في: الصورة الشعرية.

تخلت البلاغة على إثر هذا التحول عن البحث في الحقيقة الحجاجية العقلية، مركزة بذلك على البحث في الحقيقة الجمالية التي ترتبط بالأثر العاطفي. ورغم التقويم الذي عرفته البلاغة من خلال هذه التغييرات التي مست جانبيها النظري والتطبيقي، فإن قصر الوظيفة البلاغية على الصورة الشعرية قد كان في نظر بعض الباحثين تقليصا لمجالها، ولذلك تم وصف هذه البلاغة بـ: "البلاغة المختزلة".

أثر جنوح البلاغة إلى تبني الرؤية اللسانية العلمية من جهة، وانكفاءها من جهة أخرى على دراسة الصورة الأدبية، مما جعلها تتميز بطابع البحث الاختزالي - حسب رأي العديد من النقاد - سلبا على البلاغة؛ حيث أدى تسبب ذلك في الخروج عن الإمبراطورية البلاغية، وهذا ما أرجعوه إلى "نسيان جانبها التداولي المرتبط بنظرية

¹ - هنريش بليث، البلاغة والأسلوبية، نحو نموذج سيميائي لتحليل النص، تر: محمد العمري، أفريقيا الشرق، المغرب، ط1: 1999، ص 19.

² - Pierre Guiraud, La stylistique, PUF, Paris, 5 eme Ed, 1967, p 23.

³ - Ibid, p 5.

⁴ - رابح بوحوش، الأسلوبيات وتحليل الخطاب، مديرية النشر، جامعة باجي مختار، عنابة، د/ت نشر، ص 63.

الإقناع، المعبر عنها بالحجاجة والمخاصمة والمجادلة والمنازعة والمناقشة والمحاورة والمناظرة وغيرها¹، إذ يجب - حسب ذلك - أن ترتبط البلاغة ارتباطا وثيقا بالحجاج وما يدخل في مجال الإقناع، حيث تكون الحياة الاجتماعية بمختلف ما يؤول إلى حركات التفكير الإنساني اليومي، قائمة على الخطاب الحجاجي، الذي يعزز لأبعاد الرؤية التعاملية الإنسانية الوظيفية التداولية الاجتماعية.

لقد عرف هذا الاتجاه البلاغي توسعا من خلال النموذج الأدبي الذي تبلور في إطار اللسانيات البنوية، حيث كان تركيز ذلك النموذج على مبدأ الانزياح في دراسته للخطابات الأدبية عاملا مباشرا ساعد على استمرار وتعميق الطابع الأدبي الاختزالي الذي عرفته البلاغة، فقد انصهرت مبادئ جماعة مو مع الأسس النظرية والمنهجية التي ميزت النموذج الأدبي البنوي. حيث تداخلت الأهداف من أجل بناء بلاغة عامة تتمحور حول البعد الأدبي الشعري للغة، وهذا ما يلاحظ مثلا على أعمال جاكسون وآرائه حول الوظيفة الشعرية، التي جعلها صفة لكل خطاب أدبي فني. وبذلك تشابهت هذه الوظيفة مع الوظيفة البلاغية عند جماعة مو، إذ تتعدى كلا الوظيفتين الوظيفة التواصلية للغة.

حصر ممثلو هذا التوجه البلاغة في صور التعبير الأدبي وذلك ما انتقلوا فيه من الدراسة الواسعة إلى الدراسة الضيقة، حيث أصبح الأمر متعلقا بنمط واحد ألا وهو الاستعارة، فحسب جيرار جينيت: "عرفت الفترة الممتدة بين 1969 - 1970 ظهور ثلاثة نصوص تكاد تكون متزامنة: البلاغة العامة *rhétorique général* لمجموعة لياج *Groupe de liege*، ومقال ميشيل دوكي نحو بلاغة لصور التعبير المعممة *pour une la métaphore généralisée*، ومقال جاك سوشر الاستعارة المعممة *rhétorique de la figure généralisée*، ومع اختلاف أحجامها فإن عناوينها ترصد الانتقال من البلاغة إلى صور التعبير الاستعارة"²، ولعل هذا ما يعبر عن الأهمية القصوى التي وجهت للبلاغة، حيث اعتبرت أداة التعبير التأثيري الفعال الذي يبرز قيمة الخطاب الأدبي، نظرا لما تكسبه الدلالة من قوة الإيحاء الذي يساهم في بناء شعرية أسلوب الخطاب وجماليته بامتياز، وذلك مقارنة مع بقية الصور الأدبية.

ركزت جماعة مو في دراستها للاستعارة على بعدها الدلالي الجمالي الذي يظهر على أسلوب الخطاب كانزياح، وقد بينت في إطار ذلك أن "الاستعارة لا تفرغ الكلمة من معناها الحقيقي وتنزع عنها سماتها الضرورية، وإنما تقوم بإجراء بعض التعديلات على المضمون الدلالي المتكون من السمات لتحقيق أغراض جمالية أو

¹ - ينظر: رولان بارت، قراءة جديدة للبلاغة القديمة، ص 8.

² - ينظر: محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، أفريقيا الشرق - المغرب، ط1: 2005، ص 72 و 73.

إقناعية"¹، فمبرر التغيير الانزياحي الذي يقوم به المنتج عبر الاستعارة، هو السعي نحو الإبداع والتجديد في استعمال اللغة بطريقة فنية شاعرية دون الخروج عن فضاء الحقيقة، إذ تبعث تصوراتنا عبرها لطافة وروعة تستهوي المتلقي، وذلك ما ينبغي أن يخدم الأغراض المتباينة بتباين الظروف المنحزة فيها.

لقيت الاستعارة في الوسط البحثي البلاغي المعاصر اهتماما كبيرا، حيث اكتسبت سلطة رفيعة جعلتها تكون عتبة التفكير اللغوي الإنساني الديناميكي الإيجابي، في شكله الواقعي اليومي العادي وغير العادي. وقد بلغ هذا الاعتقاد أقصى درجاته في إطار الاتجاه المعرفي من خلال أعمال **مارك جونسون (Marc Jonson)** و**جورج لاكوف (George Lakoff)**، إذ ربطا الاستعارة بكل ما يصدر عنا من تصورات وسلوكات يومية؛ فقد أقرّا بـ "أن التصورات التي تتحكم في تفكيرنا ليست ذات طبيعة ثقافية صرف، فهي تتحكم أيضا، في سلوكاتنا اليومية البسيطة بكل تفاصيلها. فتصوراتنا تبين ما ندركه وتبين الطريقة التي نتعامل بواسطتها مع العالم، كما تبين كيفية ارتباطنا بالناس. وبهذا يلعب نسقنا التصوري دورا مركزيا في تحديد حقائقنا اليومية. وإذا كان صحيحا أن نسقنا التصوري، في جزء كبير منه، ذو طبيعة استعارية فإن كيفية تفكيرنا وتعاملنا وسلوكاتنا في كل يوم...، مرتبطة بشكل وثيق بالاستعارة"²، والواضح أنها - حسب هذا التصور - من أهم سمات منطق اللغة الطبيعية. فهي نشاط لغوي يمارسه الإنسان العادي بشكل مستمر حيث يستثمرها في الواقع اليومي، من أجل تكوين الآراء النوعية التي توجه تأثيرها القوي على الفكر، إذ تخدم مختلف ضروراته الاجتماعية التي تتعدى الطابع الأسلوبي المحض، فتجمع فعاليتها الإنجازية التأثيرية بين الأسلوبي الجمالي والإقناعي متعدد الأبعاد.

2 - 2. الاتجاه الحجاجي المنطقي:

يمثل هذا التوجه الأساس الأول الذي انبثقت عنه البلاغة اليونانية، وقد عدت البلاغة في إطاره فن الإقناع؛ حيث شكلت مضان التيار البلاغي القديم حول الإقناع - لاسيما ما قدمه أرسطو - الأساس المعرفي، الذي أعاد من خلاله علماء الحجاج في العصر الحديث أمثال: **شايم بيرلمان (Chaim Perleman)**، و**ألبيريش تيتكا (Olbirechts tyteca)**، و**أوليفي روبول (Olivie Reboul)** (1925 - 1992)، إحياء

¹ - عبد العزيز لحويدي، الاستعارة عند جماعة مؤيدين للبلاغة، مجلة علامات، ج 56، ص 14، يونيو: 2005، ص 211.

² - جورج لاكوف ومارك جونسون، الاستعارات التي نحيها، تر: عبد المجيد جحفة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء - المغرب، ط2: 2009، ص 21.

البلاغة بالتركيز على بعدها الحجاجي، الذي يمكن على أساسه الكشف عن تقنيات عرض الخطاب عرضا حجاجيا، وقد كان هدفهم من وراء ذلك بناء مقارنة بلاغية جديدة تعنى بدراسة الخطاب من منظور حجاجي.

لقد كان ذلك مقترنا بـ "تزايد الاهتمام بدراسة اللغة وهيمنة الخطاب اللغوي داخل الأنساق المعرفية في العلوم الإنسانية، وتعدد الأبحاث والنظريات حول هذا الخطاب بوصفه خطابا طبيعيا وملكية إنسانية"¹، تتسم بحضورها الدائم في الحياة اليومية، متعددة المجالات وهو ما أفضى إلى ظهور خطابات متنوعة.

ففي إطار ذلك التعدد الذي كان متصلا بتجدد أنماط الخطاب وتعددتها من جهة أخرى، كان لابد من ظهور تلك المقاربة، التي تمحورت حول الخطاب الحجاجي وخاصة الخطاب الفلسفي، وهو ما حمله كتاب: (مصنف في

الحجاج، البلاغة الجديدة) *traité de l'argumentation: la Nouvelle*

rhétorique، لبرلمان وتيكا، حيث عملا فيه على ربط البلاغة بالفلسفة، فقد أصبح البلاغي "منسريا بالضرورة فيما هو فلسفي بالنظر إلى البعد الإشكالي الحجاجي الذي يسم كل خطاب فلسفي"².

اقتضى مشروع التأسيس لبلاغة الحجاج التي استهدفت تحديد تراث أرسطو البلاغي والنهوض بالإقناعي الجدلي، العمل على ترسيخ المنطق غير الصوري ليتم ربطه بالحجاج وهو ما تطلّب في الوقت نفسه استبعاد المنطق البرهاني الرياضي، وفلسفة الوضوح التي جاءت بها النظرية الديكارتية. فالمنطق الحجاجي منطق غير برهاني، ومجال الحجاج يتعلق أساسا بالمحتمل، وفي إطار هذه التغييرات الإبيستيمولوجية قام بيرلمان بتقويض فكرة الأنا الديكارتية، التي أصبحت من خلالها مسألة الحقيقة مرتبطة فقط بما تقرره الذات وتبرره سعيًا نحو اليقين، كما أن الحقيقة ليست أمرا ذاتيا متعلقا بالمتكلم وحده وإنما هي أمرا مشتركا بين صاحب الخطاب (المتكلم) والمتلقي.

تتميز الحقيقة حسب هذا التصور البلاغي بطابع التغير فهي احتمالية معيارية، إذ تقوم على مبدأ الإقرار بإمكانية تغيير الصدق والصحة، فقد "أعاد بيرلمان تأسيس البلاغة على الطابع المعياري للقيم، وذلك بعدما فقدت مكانها مقارنة مع النحو المستعاد في علم اللغة الحديث والجدل المستعاد في المنطق، حيث اختزلا الحقيقة في العبارية والصورية، وهذا ما جعله يقر أن استيعاب قيم الجميل والخير والعدل والشرعي لا يتحدد بالبرهان

¹ - عمارة ناصر، الفلسفة والبلاغة مقارنة حجاجية للخطاب الفلسفي، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1: 2009، ص 67.

² - مانويل ماريكاريلو، خطابات الحداثة، القسم السابع عن بلاغة بيرلمان الجديدة، تر: إدريس كثير وعز الدين الخطابي، منشورات ما بعد الحداثة، فاس، ط1: 2001، ص 111.

واليقين الصحيح والصادق، بل من خلال القناعة والرأي والشبيه بالحق والمحتمل"¹، إذ يجب أن تهتم البلاغة بالجميل الذي يقوم على الجمع بين التأثير العملي والمعرفي.

عني بيرلمان بتعميم البلاغة واتصافها بالكلية والشمولية، حيث تحضر في جميع الخطابات الإنسانية التي تتميز بصلاحيّة تأثيرها الناجع على الفرد والمجتمع في مختلف مناحي الحياة، فـ "قد سعى إلى توسيع البلاغة وتحليلها من التقسيم الأرسطي، حيث أخرجها من الأجناس الخطابية الأرسطية الثلاث: التشاورية والاحتفالية والقضائية، ليجعلها تتعلق بكل خطاب إنساني، فساوى بين خطاب الفرد للجماعة، وحوار المختصين في اجتماعهم، بل وخطاب الواحد أمام نفسه، على اعتبار أن كل كلام يحمل في طياته الرغبة في الإقناع"²، وهي الرغبة التي تعبر عن طبيعة النفس الإنسانية الساعية لبلوغ مطامحها بالحجة المناسبة لها، وذلك ما بحثت فيه البلاغة الجديدة.

لقد ساهم التركيز على البعد الحجاجي للخطاب الانشغال بمرحلة التلقي، باعتبارها مرحلة الإنجاز التي يسعى إليه المتكلم (المنتج) وينتظر حدوثه، بعد مرحلة الإنتاج الموازية لها، إذ "إن البلاغة الجديدة تتمحور أساساً حول تحليل "تقنيات الحجاج" وهذه التقنيات يتم بسطها على محورين كبيرين: من جهة، محور الخطاب ذاته خاصة ببنات الحجاج الموضوعية موضع التنفيذ، ومن جهة أخرى، محور تأثير هذا الخطاب على المتلقي وذلك في علاقته بقصدية منتج الخطاب. ففي الحالة الأولى تجري دراسة الحجج وتصنيفها، وفي الحالة الثانية تتم دراسة الموقف التواصلية الذي يمثل حدث الحجاج"³، وهذا ما يوضح أن البلاغة الحجاجية بلاغة تداولية تحليلية، حيث تعني بتحليل الخطاب على مستوى البنية الداخلية ومستوى البنية الخارجية، أين يتم الوقوف على الموقف التواصلية، ورصد الأثر الذي يتركه الخطاب عند المتلقي.

قاد البحث العميق في مجال الأثر الخطابي التمييز بين الإقناع والاقناع، وذلك ما ربطوه بالحجاج حيث نجد "الحجاج الإقناعي وهو يرمي إلى إقناع الجمهور الخاص، والحجاج الاقناعي وهو حجاج يرمي إلى أن يسلم به كل ذي عقل، فهو عام"⁴، فحسب نوعية المتلقي الذي يكون إما خاصاً أو عاماً يكون نوع الحجاج الذي يوظفه

¹ - ينظر: عمارة ناصر، الفلسفة والبلاغة مقارنة حجاجية للخطاب الفلسفي، ص 42.

² - ينظر: محمد الولي، مدخل إلى الحجاج ... أفلاطون وأرسطو وشايم بيرلمان، مجلة عالم الفكر، الكويت، العدد 2، المجلد 40، أكتوبر 2011، ص 33 و 34.

³ - فيليب بروتون، جيل جوتييه، تاريخ نظريات الحجاج، تر: محمد صالح ناحي الغامدي، مركز النشر العلمي، جدة، ط1: 2011، ص 46.

⁴ - عبد الله صولة، في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات، مسكيلياني للنشر والتوزيع، تونس، ط1: 2011، ص 15.

المنتج في خطابه، حيث تختلف لديه تقنيات الحجاج الموظفة إذ لا شك أنه يسعى إلى أن تكون متنوعة وقوية مع الثاني. لكن رغم ذلك يبقى التأثير العقلي هدف الخطاب الحجاجي بنوعيه؛ حيث يعرف بيرلمان الحجاج بقوله: "إنه جعل العقول تدعن وتسلم لما يطرح عليها من أقوال، أو يزيد في درجة ذلك الإذعان وذلك التسليم. فأنجع الحجاج و أنجح ما وفق في جعل حدة الإذعان تقوى لدى السامعين بشكل يبعثهم على عمل مطلوب"¹، والواضح أن أساس العملية الحجاجية يتمثل في تركيز واهتمام المنتج بحمل المتلقي - أيا كان نوعه - على التسليم والإذعان، ما يعني انشغاله - بوجه عام - بالغاية؛ أي الوصول إلى ما يريده بغض النظر عن التقنية التي يتوسلها. إذ يتقرب استجابة أو رد فعل المتلقي؛ حيث ترجع إليه عملية تقييم الخطاب الحجاجي بالنجاح أو الفشل.

عمل الاتجاه الحجاجي على تطوير البلاغة وتوسيع مساحتها، لتأخذ نطاقا كبيرا من الاستعمالات الإنسانية، حيث تكونت إمبراطورية البلاغة، التي تأخذ من الحجاج موضوعا لها مركزة بذلك على الطابع العقلي للغة، إذ يسعى هذا التوجه إلى عقلنة اللغة عبر تقنية الإقناع. وقد بينت أن ذلك يشمل مختلف آليات مستعملي اللغة، وهو ما ينطبق على المجاز بأنواعه التي من أهمها الاستعارة.

لقد لقيت الاستعارة - في الواقع - اهتماما كبيرا في إطار الاتجاه الحجاجي؛ حيث أولى بيرلمان عناية خاصة بها، متناولا إياها من منظور جديد؛ حيث أخرجها من حدود الإمتاع الضيق الذي يحصرها في زخرفة الأسلوب وتزيينه، من خلال التركيز على بعدها الحجاجي الإقناعي، فيجمع استعمالها حجاجيا بين الإمتاع والإقناع. ويتجاوز حضور الاستعارة حسب هذا التصور الخطاب الأدبي، ليشمل جميع الخطابات الحجاجية (أدبية وعادية) باعتبار بعدها التداولي الاجتماعي.

ركزت البلاغة الحجاجية على توطيد العلاقات الإنسانية وتنظيم المعاملات الخطابية، إذ يتميز اللغوي بطابع تداولي اجتماعي؛ فالخطاب الحجاجي فعل عملي يحتضنه المجتمع الذي يسمح له بالاستمرار التأثيري وذلك مسعى المخاطب، وهذا ما يتداخل مع الفعل الكلامي من حيث هو إنجاز، فتتحقق البلاغة بذلك باعتبارها فنا للتأثير الإنجازي العملي. وعلى هذا الأساس عرف بول ريكور البلاغة بأنها: "تقنية للخطاب الإقناعي، أي أن الفن البلاغي هو فن للخطاب الفعال والمؤثر، وفي هذا المستوى أيضا، كما هو الحال في مستوى الفعل الكلامي، يعد القول بمثابة فعل، فالخطيب يسعى إلى الحصول على رضا مستمعيه ودفعهم، إن اقتضى الحال، إلى التصرف

¹ - chaim perleman et lucie olbrechts tyteca, traité de l'argumentation, editions de l'université de bruxelles, Belgique, 6 édition, 2008, p 59.

في الاتجاه المرغوب فيه. وبهذا المعنى تكون البلاغة إنجازية وتأثيرية في وقت واحد"¹، ولعل هذا ما يعزز لطغيان الجانب الذاتي البراغماتي للمخاطب على الجانب الإنساني، الذي تكون فيه الوسطية البراغماتية بين صاحب الخطاب والمتلقي.

سمحت أفكار البلاغة الحجاجية - في الواقع - بتدليس الإنساني بالمادي المغربي؛ حيث تنزع ممارسات العملية الحجاجية لتكوين فضاء البراغماتي الذاتي، الذي يتوسل الإقناع سلاحاً من أجل تمويه الأفكار القادرة على إقحام المتلقي في دائرة التسليم والانبهار، وهذا ما جعل "الحجاج يصبح مطلب كل عملية فكرية معينة سواء أكانت هذه العملية فكرة أم مقالة أم حركة"²، فقد سيطر هذا المنظور على مختلف الممارسات الاجتماعية المعاصرة (السياسة، الدين، الصحافة، الإعلام الإخباري ..)، فعلى مستوى هذا المجال الأخير الذي غزا مجال الصحافة المرئية - مثلاً -، نلاحظ أن البحث عن اختراع آليات الإقناع القادرة على الترويج المغربي المذهل للعقول أو القلوب أو هما معا، هو ما يشكل غاية المنتجين، وذلك ما يدفعهم في العادة إلى التماس حيل إقناعية خيالية مدارها الحجة القوية رغم عدم صدقها في الغالب الكثير.

2 - 3. الاتجاه السيميائي:

يكن مسعى هذا التوجه في توسيع مجال البلاغة لتكون علماً شاملاً يعنى بدراسة جميع الخطابات، أي بناء بلاغة عامة وذلك حيث يجتمع الاحتمالي (الإقناعي) والأدبي، إذ لا مجال للفصل بينهما في إطار هذه البلاغة التي تم تقديمها "باعتبارها نسقا وصفيا ونظاما تحليليا له القدرة على استيعاب مختلف أنواع الخطاب"³، إذ تعد نسقا بلاغيا كلياً مؤسساً على مبدأ وصف وتحليل مختلف الأشكال والخطابات التواصلية الدالة، التي يوظفها مستعمل اللغة في معاملاته المتعددة والتي يوظف فيها آليات لغوية وغير لغوية، فهي بلاغة تحاكي منهج السيميولوجيا وتحليل الخطاب، فقد نشأت متصلة بعلم ودراسات معرفية متعددة، كالأنثروبولوجيا والفلسفة واللسانيات والأسلوبية. وهو ما ساهم في اتساع دراستها للخطابات، وجعل منهجها يتميز بسمي: العمق والكلية.

¹ - بول ريكور، البلاغة والشعرية والهرمينوطيقا، ص 108.

² - ينظر: محمد سالم ولد محمد الأمين، مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، مج: 28، مارس، 2000، ص 57.

³ - مصطفى الغرافي، البلاغة بوصفها تفكيراً في قضايا الخطاب، مجلة الخطاب، عدد: 14، ص 9.

لقد عد التأسيس لهذه البلاغة أمرا ملحا في خضم ظاهرة تعدد أشكال الخطاب، وتنوع أنماطه التي شهدها العصر الحديث؛ حيث نجد الخطاب الاجتماعي، والسياسي، والفلسفي، والصحفي، والإشعاري، والأدبي... الخ، وذلك في مقابل غياب مقارنة بلاغية شاملة، خاصة بعد الاقتصار الذي مارسه الاتجاه الحجاجي والاتجاه الأسلوبي، إذ لم يعد الأمر متعلقا بالخطابة أو الشعر فقط، لا سيما بعد ظهور أجناس تواصلية وأنساق سيميائية جديدة بالإضافة إلى ذلك الجنسين (كالرواية، القصة، السيرة الذاتية، الصورة...). ولعل أهم ما يلاحظ من خلال ذلك هو التقاء هدف وضع بلاغة لكل الخطابات الأدبية وغير الأدبية (نظرية البلاغة العامة)، بهدف الكلية الذي سعت إليه اللسانيات وفحواه: وضع نحو كلي لكل اللغات.

ويبدو أن تحول الهدف نحو صياغة نظرية البلاغة العامة هو ما فرضته ثقافة المعرفة البراغمية، التي اكتسحت التفكير الإنساني الغربي بصفة خاصة والعالمي بصفة عامة، أين بات التركيز على التوظيف النفعي المثالي لجميع أنساق التواصل هو المسعى الرئيس، وقد حاولوا الوصول إليه من خلال المزج بين البلاغة والسيميائية، حيث اعتقد ممثلوها أن ذلك المزج هو ما يمكنهم من بناء تلك النظرية، منتقدين مشروع البلاغة العامة عند جماعة مو، حيث بينوا خطأ تناول المنهج فيه، فلا بد أن تتلاحم استراتيجيات التواصل حيث نجد الحجة الصورة أو الصورة الحجة، فيكون الخطاب التواصلية مقنعا وشاعريا ممتعا في الوقت نفسه.

ينبغي أن تكون البلاغة نظرية فعالة صالحة للتطبيق في سائر المجالات الاجتماعية، مما يمكنها من أن تصبح علما واسعا للمجتمع، فقد أقر هنريش بليث بأنه "يجب أن نسلم أولا أن البلاغة قد صارت علما، وأننا نهدف من جهة ثانية إلى إقامة نظرية بلاغية، وأن البلاغة من جهة ثالثة ليست محصورة في البعد الجمالي بشكل صارم، بل إنها تنزع إلى أن تصبح علما واسعا للمجتمع"¹، على نحو شامل حيث يصح القول إنها علم واسع لكل المجتمعات.

يعد تحول هدف البلاغة في إطار مرحلة إعادة بنائها من إنتاج الخطاب إلى تحليله، وذلك ما تميزت به البلاغة العلمية حسب هنريش بليث²، من أبرز المظاهر التي يمكن الوقوف عليها من خلال هذا الاتجاه البلاغي الذي ركز على تحليل الخطاب تحليلا شاملا، يقف على جميع أبعاده وعناصره وأنساقه مقتفيا في ذلك منهج التحليل السيميائي، والواقع "لم تخرج مقاربات البلاغة عن إطار التحليل السيميائي للخطاب الذي يسعى إلى

¹ - هنريش بليث، البلاغة والأسلوبية، ص 15.

² - المرجع نفسه.

البحث عن كلياته وقوانينه وأنساقه ومعرفة أجزائه؛ بحيث يتم تقطيع الوحدات الخطابية تقطيعاً يحاكي الإجراء اللساني الوصفي، ويتجاوز في الآن نفسه، لأنه يتعدى حدود الجملة "1"، إذ يدخل ما جاءت به تلك البلاغة في إطار التحول المنهجي الذي أحدثته لسانيات الخطاب، ولذلك كان الاهتمام بدراسة الخطاب كلحمة واحدة دراسة كلية تهم بعناصره الداخلية والخارجية التداولية وصفا وتحليلاً، أهم ما سطرته البلاغة السيميائية، إذ ركزت على مرحلة التلقي؛ أي مرحلة التحليل وذلك بالإضافة إلى عنايتها بمرحلة الإنتاج.

وقد لاحظ بليث أن عملية إعادة بناء البلاغة، باعتبارها منهجاً لتحليل النصوص، تستند على مبررين: 2

- المبرر الأول: ذو طبيعة تاريخية، فهناك أمر أكيد وهو أنه على طول تاريخ وجود نظرية بلاغية فإن نصوصاً مختلفة (خطابات، مواعظ ورسائل وأشعار ... إلخ)، تنتج حسب قواعدها، فإذا ما استعملنا بعد ذلك المقولات البلاغية لتأويل تلك النصوص، فإننا سنساهم في كشف تركيبها القصدي الشكلي.

- المبرر الثاني: ذو طبيعة منهجية، فقد أظهر النسق البلاغي عبر قرون قابلية تطبيقه على نصوص جديدة، إذ ظهرت أنساق بلاغية فرعية مثل بلاغة أدب الترسل والمواعظ.

تحضر هذه البلاغة الجديدة باعتبارها لغة تحليلية واصفة لخطابات المجتمع الأدبية وغير الأدبية، مما يؤهلها لاستحواذ مرتبة عالية في مجال الاستعمال المعرفي الوظيفي البشري، ويضمن لها على المستوى التاريخي استمراراً يرتبط باستمرار النصوص الحاملة لقواعدها، وكذا تطبيقها على نصوص أخرى. ويظهر جانبها الإيجابي في توظيف مقولاتها التأويلية على الخطاب، الذي يفضي لحصول أثره شكلاً ومضموناً، حيث "يمكن للبلاغة المعيارية أن تصبح بلاغة وصفية، بل أيضاً بلاغة تاريخية وتأويلية تعكس بصورة نقدية وضعية تلقي الشارح (للنص)، إنها مؤهلة، في هذه الحالة، لتكوين أسس "نظرية تداولية للنص" 3. تهم بالجانب التداولي الفعال للنص الذي يظهر من خلال علاقته بالمتلقي، فتبحث من هذا المنطلق في آليات نجاح عمليات التلقي التحليلية التأويلية التي تقود إلى ظهور أثر النص.

1 - أحمد يوسف، السيميائيات والبلاغة الجديدة، مجلة علامات، عدد: 28، 2007، ص 112.

2 - هنريش بليث، البلاغة والأسلوبية، ص 23.

3 - المرجع نفسه، ص 29.

2 - 4. الاتجاه التداولي:

أحدث الطرح التداولي من خلال مختلف التصورات والإجراءات الجديدة، التي قدمها تطورا كبيرا عرفته مقارنة الخطاب، وذلك مقارنة بما قدمته البنية والتوليدية التحويلية التي توقفت حدود البحث عند كليهما - وذلك إذا استثنينا بعض نماذجهما الوظيفية - على مجال اللغوي بعيدا عن أي عنصر أو مكون خارجي غير لغوي، فقد تجاوزت التداولية صرامة البحث اللساني وضيق أفق الدراسة الذي ميز كلا الاتجاهين، حيث كان الربط بين السياق اللغوي والسياق الخارجي بكل مكوناته من أهم أسسها المنهجية، وقد سعى الباحثون من خلال التداولية التي عرّفها البعض بأنها "دراسة استعمال اللغة في الخطاب"¹، إلى توضيح وضبط الشروط الكفيلة التي تمكّن مستعمل اللغة من بناء خطاب لغوي تواصلية ناجح؛ يوصل ويؤثر ويقنع. وهذا ما يتعلق بالدلالة التي يحملها الخطاب، والواضح أن النظرة التداولية للغة تعكس طريقة تفكير المجتمع الغربي، حيث يركز على الجانب المادي النفعي، فحسب هذا التوجه فإن "مدلول لفظة ما هو استعمالها في اللغة"²، وهو الاستعمال الساعي إلى تحقيق غرض ما يتميز في الغالب بطغيان المادي على الإنساني.

وقد أسهم التطور الذي عرفته التداولية في تعدد اتجاهاتها، حيث تم تصنيف أنواع أو أشكال كثيرة بحيث يهتم كل نوع بجانب معين من استعمال اللغة، وذلك ما يمكن توضيحه من خلال ما جاءت به أركيوني (kerbar k. k Orecchioni)، حيث ميزت بين ثلاث تداوليات أساسية متجاورة هي:³

- أ - **التداولية التلفظية Enonciative pragmatique**: أو لسانيات التلفظ مع شارل موريس، التي تهتم بوصف العلاقات الموجودة بين المعطيات الداخلية للملفوظ، وبعض خصائص الجهاز التلفظي Dispositif énonciatif (مرسل - متلقي - وضعية التلفظ) التي يندرج ضمنها الملفوظ.
- ب - **التداولية التخاطبية illocutoire pragmatique**: أو نظرية أفعال اللغة مع أوستين وسيرل، التي تخصص لدراسة القيم التخاطبية داخل الملفوظ، والتي تسمح له بالاشتغال كفعل لغوي خاص.
- ج - **التداولية التحاورية conversationnelle pragmatique**: التي نتج تطورها الحديث جدا عن استيراد الحقل اللساني للأفكار المؤسسة أصلا من لدن الأنثولوجيين وإثنوميتودولوجيين التواصل، وهي تهتم بدراسة اشتغال هذا النمط من التفاعلات التواصلية (الحوارات).

¹ - نعمان بوقرة، المدارس اللسانية المعاصرة، مكتبة الآداب، القاهرة، د/ ت نشر، ص 166.

² - لودفيك فتغنشتاين، تحقيقات فلسفية، تر: عبد الرزاق بنور، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1: 2007، ص 153.

³ - ينظر: إدريس مقبول، الأفق التداولي، نظرية المعنى والسياق في الممارسة التراثية العربية، عالم الكتب الحديث، إربد - الأردن، ط1: 2011، ص 09.

لقد تم النظر إلى الخطاب في إطار المقاربة التداولية باعتباره فعلا كلاميا تواصليا، يتم بين متكلم ومخاطب في سياق تواصل اجتماعي معين. وحسب ما يذهب إليه التداوليون يمثل الطابع الاستعمالي البراغماتي للخطاب الأساس الذي نحكم من خلاله على فعاليته ونجاحه، فقيمة أي منجز لغوي ومعياري الحقيقة فيه أمور تتوقف على مدى تحقيق التأثير بحيث يتناسب وأغراض الكلام، وهو المبدأ الذي أسس له أوستين **j Austin** من خلال تفريقه بين الجمل الخبرية والجمل الإنجازية مستبعدا بذلك معيار الصدق والكذب.

يجب التركيز حسب أوستين على الجمل الإنجازية لتكون أساس استعمالنا اللغوية، التي نوظفها في معاملاتنا الاجتماعية اليومية، ويؤول ذلك إلى فعالية تلك الجمل حيث تقود إلى نتائج عملية تساهم في تغيير الواقع، فقد "أقر بأن كل جملة تامة مستعملة تقابل إنجاز عمل لغوي واحد على الأقل، ويميز بين ثلاثة أنواع من الأعمال اللغوية: العمل الأول هو العمل القولي، وهو العمل الذي يتحقق ما إن نتلفظ بشيء ما، أما الثاني فهو العمل المتضمن في القول، وهو العمل الذي يتحقق بقولنا شيئا ما، وأما الثالث فهو عمل التأثير بالقول والعمل الذي يتحقق نتيجة قولنا شيئا ما"¹، وهو ما يتحقق من خلال إنجاز المتلقي له.

إن من أهم مبادئ الاستعمال اللغوي باعتباره حدثا تواصليا يتم بين طرفين، أن يكون معنى الكلام أو الملفوظ الناجح التام، مرادفا للقيام بعمل (أو فعل) ما هو فعل الكلام، الذي بواسطته تتحقق أغراض المتكلم وتُفهم مقاصده، التي تُحوّل من قبل المتلقي إلى أداءات وإنجازات. ويشكل الفعل المتضمن في القول في هذه النظرية الفعل الإنجازي الحقيقي الذي يعبر عن قصد المتكلم، إذ يحمل هذا الفعل بالإضافة إلى جانبه الدلالي قوة تدفع الملفوظ إلى التحقق وهي ما يعبر عنها بالقوة الإنجازية (performance power).

إذن يتجاوز مقياس المنفعة في أي عملية اجتماعية تواصلية عبر ملفوظ ما (خطاب أو نص)، من منظور التداولية وظيفة الإخبار ونقل معلومات ما عن موضوع معين، إذ يتوقف الأمر على قوة التأثير في المتلقي ودفعه للقيام بعمل أو فعل ما، وقد أكدت على ذلك من منطلق تناولها للغة باعتبارها حدثا كلاميا تبليغيا ذات فعالية اجتماعية، حيث يستهدف من ورائه بلوغ نتائج وأغراض نفعية.

لقد انطلق التداوليون من إعادة التفكير في مسألة المعنى بما يتناسب مع أغراض الكلام، وقد بينوا من خلال ذلك أن توظيف الدلالة ضمن سياق تداولي محدد، يفرض ملائمة تلك الدلالة لغرض المتكلم أو قصده، وعلى

¹ - آن رويول وحاك موشلار، التداولية اليوم علم جديد في التواصل، تر: سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني، مراجعة: لطيف زيتوني، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، ط1: 2003، ص 31.

هذا الأساس رأى سيرل **searl** أنه "حين يقول المتكلم شيئاً ما، وهو يعني بما يقوله شيئاً، ويحاول توصيل ما يعنيه للمستمع، فإنه إذا أفلح سيكون قد أدى فعلاً ترميزياً"¹، إذ لا يمكن حصول ذلك الفعل حسب سيرل إلا إذا تم وصول المعنى المقصود إلى المتلقي، خاصة في السياقات التي يحمل فيها القول (الكلام) معنيين؛ أحدهما حرفي والآخر ضمني يمثل قصد المتكلم الرئيس.

وعلى العموم يتطلب نجاح تداولية الخطاب - ما يعني حصول تواصل أمثل - تكافؤ الأدوار بين المتكلم والمتلقي؛ حيث يتشاركان العمل حول القصد والمعنى، وهذا ما يتم عبر إنتاج الخطاب وتأويله، ولذلك يعد ذلك التكافؤ من شروط نجاح التواصل، فقد ركز التداوليون على توضيح ضوابط العلاقة بين المتخاطبين، ولعل هذا ما يمكن الوقوف عليه من خلال ما قدمه بول غرايس (**H. paul Grace** 1988-1913)، في نظرية الاستلزام التخاطبي (**Conversational Implicature**). وهي نظرية خاصة بكيفية الاستعمال اللغوي، إذ عمل فيها على تحديد ضوابط التعامل الناجح بين المتكلم والمتلقي، وقد لخص ذلك في (مبدأ التعاون) وفحواه: "اجعل تدخلك مطابقاً لما يقتضيه الغرض من الحوار الذي تساهم فيه، في المرحلة التي تتدخل فيها"²، ويجب على المتكلم "أن يراعي المخاطب في كل ما يأتي ويدعي لغويا ونفسيا واجتماعيا وثقافيا، بل إنه يُستخر في ذلك ما يعين في التبليغ بالإشارة والملاحم... ليجده متعاوناً متمثلاً في الإصغاء ومحاولة الفهم"³، حيث اقترح (مبدأ التعاون) الذي بين من خلاله أن المعنى تعاون يفضي إلى التواصل بين المتخاطبين.

وقد فرع عنه مبادئ تشمل: (المتكلم، والمتلقي، وسياق الإنتاج) من بينها:⁴

- 1 - مبدأ الكم: تكلم على قدر الحاجة فقط.
- 2 - مبدأ الكيف: لا تقل ما تعتقد كذبه.
- 3 - مبدأ الأسلوب: تجنب إبهام التعبير، وتجنب اللبس.
- 4 - مبدأ المناسبة: ليكن كلامك مناسباً لسياق الحال.

¹ - جون سيرل، العقل واللغة والمجتمع: الفلسفة في العالم الواقعي، تر: سعيد الغانمي، الدار العربية للعلوم، الاختلاف، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1: 2006، ص 203.

² - أحمد المتوكل، اللسانيات الوظيفية مدخل نظري، ص 26.

³ - ينظر: نوري سعودي أبو زيد، في تداولية الخطاب الأدبي المبادئ والإجراء، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، سطيف، الجزائر، ط1: 2009، ص 30 و 31.

⁴ - ينظر: أحمد المتوكل، اللسانيات الوظيفية مدخل نظري، ص 112.

لقد اهتمت التداولية بمرحلة التحليل أي فهم معنى الخطاب ومعرفة مقصدية المتكلم، التي تكون بين الظاهر والمضمّر الذي يعد عدولا مقارنة بالصريح، وذلك ما وقف عليه غرايس في نظريته إذ عني فيها بتوضيح كيفية التعامل مع ظاهرة العدول أو الخرق، الذي يسم الخطاب أحيانا مما يعيق سرعة حدوث عملية التواصل، حيث بين أن القصد والمعنى المضمّر نتيجة لخرق أحد قواعد مبدأ التعاون، الذي يعد من أهم الأسس التي يعتمد عليها في التأويل؛ فـ "لقد كان يتوقف تأويل الملفوظات على عاملين اثنين: معنى الملفوظ، والسياق المقامي لإنتاجه. وأضافت النظرية عاملا ثالثا تمثل في مبدأ التعاون، الذي يسمح بحساب الخرق المسجل في التواصل، هذا المبدأ الذي يسمح بإدراك انسجام معاني الملفوظ مع المقصود من التخاطب"¹، ويكون الخرق تبعا لمقتضيات التخاطب الوظيفية التواصلية، وهذا ما توضحه ظاهرة الاستلزام التخاطبي، التي تفسر ظاهرة إمكانية احتمال الجملة في بعض المقامات، على معنى آخر غير المعنى الذي يحمله شكل الجملة الحرقي (الظاهر).

تحولت بحوث التداولية عبر تناولها لقضية الدلالة في طابعها المضمّر الذي تمثله ظاهرة العدول، من الخطاب العادي إلى الخطاب الأدبي، وقد عُدّ هذا الخطاب فعلا كلاميا ذو طاقة تأثيرية تتولد عبر آليات الوظيفة الشعرية، فقد لوحظ "أن الفعل الكلامي الذي يتسم بكونه أدبيا هو تأثيري أو لا يكون شيئا. فالأدبية هي إنجازية (performativité) مطلقة للغة إذ تتحول إلى وظيفة شعرية، أي إن الفعل الخلاق لشيء لغوي يكون هو نفسه مرجع هذا الشيء"²، وهذا ما يعني أن الفعل الكلامي سواء أكان عاديا أم أدبيا؛ يحتوي دلالات مباشرة أو مضمرة فعل تأثيري يستهدف أثرا إنجازيا معينا، ويكمن الفارق بينهما في أن العادي فعل عام أما الأدبي فهو فعل خاص، حيث يحرص صاحبه على توليد الدلالة الفنية الأدبية وهذا ما اهتم به التداوليون.

تمخضت على إثر ذلك ما أصبح يعرف بالتداولية الأدبية التي تمثل في الوقت نفسه التوجه البلاغي التداولي، وقد تم التركيز في إطاره على الإنجازات اللغوية ذات الطابع الأدبي. التي تتميز بأساليب تعبيرية فنية تتحقق بها قوة درجة التأثير، ومما لاشك فيه أن التأثير المقصود به هنا هو ما تمر فيه الحقيقة على مجال القبول الإمتاعى الإغرائى، قبل دخولها مجال القبول التحليلي الذي يتعلق بفهم المعاني والمقاصد.

¹ - عبد السلام إسماعيلي علوي، ما التداوليات؟، ضمن كتاب: التداوليات علم استعمال اللغة، تنسيق وتقديم: حافظ إسماعيلي علوي، عالم الكتب الحديث، إربد - الأردن، ط 2: 2014، ص 21.

² - جورج مولينيه، دراسة الأسلوب والبحث وأدوات الفن الأدبي، تر: بسام بركة، مجلة الفكر العربي، معهد الإنماء العربي، بيروت - لبنان، شتاء 1998، العدد: 94، ص 231.

يلتقي التصور التداولي الأدبي مع بقية الطروحات الأدبية حول فكرة كون الخطاب الأدبي تقنية تبليغية غير عادية، يعتمد فيها على استراتيجيات اللغة الأدبية لتقدم الدلالات والمقاصد حيث تؤدي الحقيقة بطريقة ممتعة، غير أن ذلك يخضع - في إطار التداولية - لرقابة (شرط الملائمة)، الذي يفرض أن تعكس إنجازاتنا اللغوية الحقيقة الواقعية، إذ هذا ما يجعلها نزيهة وجدية وعكس ذلك إذا لم تخضع لذلك الشرط، وهذا ما لاحظته أوستين على الخطاب الخيالي مثلا حيث؛ "شد [الخطاب] الأدبي وتحديد الخيالي اهتمامه وقد وسمه بكونه ملفوظا غير جاد"¹، ذلك أن التلاعب بالقصد يؤدي إلى خروج وانفصال الملفوظ عن واقعه الأصلي.

يسلك الخطاب عبر آلية التخيل - حيث يدخل المتكلم في مجال (الخيال) - طريقا ملتوية تجعله نمطا خطابيا غير عادي، وكذا غير حقيقي مقارنة بالخطاب العادي، فيحمل بذلك دلالات، غير مباشرة، مضرة، بعيدة. فقد "قدم سورل الخطاب الخيالي بوصفه عملا لغويا غير مباشر ضربا من الاستعارة القصوى (hyper métaphor). فدلالته تتجاوز الملفوظ ذاته، وترتكز على مواضع (مضرة) خاصة وعلى عقد (contrat) واقع بين الكاتب والقارئ. إنها طريقة مخصوصة في اللعب مع العلامة، بما أن التلفظ ينشئ واقعا ومرجعا مكان الإحالة على واقع موجود (مايسميه وجهة المعنى)"²، وكما يبدو من كلام سيرل فإن التلاعب والتحليل الذي يقوم عليه استعمال الخطاب الخيالي عقد ثنائي بين منتجه ومتلقيه، لا يجب أن يتعدى حدود التواصل وعلاقاته التي يفرضها الواقع الخارجي، فعلى صاحبه التقيد بمبادئ ومواضع يكون من خلالها الخطاب شيئا مشتركا بينه وبين المتلقي، ولعل هذا ما يتشاكل مع مبدأ التعاون عند غرايس.

ينبغي وفقا لمسلمات الطرح التداولي أن تكون خصائص ومكونات الخطاب الأدبي الخيالي، رغم استيحائها من عالم غير حقيقي مفترض (من نسج الخيال)، على علاقة دائمة ومستمرة مع الواقع الخارجي، وذلك ما يطبقه المنتج عبر آلية (الإحالة)، ولعل هذا ما ينطبق على الخطاب الأدبي السردى مثلا؛ إذ "إن الكاتب ينشئ شخصيات وأحداث خيالية بإخفائه الإحالة على أناس وقص أحداث جرت لهم. وفي خيال النزعة الواقعية أو الطبيعة في السرد الروائي يعتمد الكاتب إلى الإحالة على أماكن وظواهر واقعية، مازجا تلك الإحالات بما هو من قبيل الخيال ... وقيم المؤلف جملة من التعاقدات مع القارئ، تحدد إلى أي مدى تقطع مواضع الخيال الأفقية مع ترابطات الخطاب الجاد العمودية ... أما ما يتعلق بمقبوليته، فتعود أساسا إلى انسجامه"³. فحصول تلك

¹ - ينظر: فيليب بلانشيه، التداولية من أوستين إلى غوفمان، تر: صابر الحباشة، دار الحوار للنشر والتوزيع، سورية - اللاذقية، ط1: 2007، ص 192.

² - فيليب بلانشيه، التداولية من أوستين إلى غوفمان، تر: صابر الحباشة، ص 194.

³ - المرجع نفسه.

الأمر هو ما يضمن في الغالب إمكانية عبور المقاصد الخفية، واستكشاف المعاني وفهمها في إطار مرحلة التأويل.

يبدو أن تحقيق الخطاب لاستجابة المتلقي من خلال قبوله له، أبرز ما يهم المنتج حيث يكون قد بلغ بذلك التأثير المستهدف، وهذا ما يجب التركيز عليه حسب التداوليين سواء أكان الخطاب أدبيا أم عاديا، فما يهم هو الإنجاز والتأثير، ولذلك يمكن القول إن مدار البلاغة في إطار هذا الاتجاه هو بعد الخطاب الوظيفي التداولي التأثيري، إلا أن الأمر الذي يجب تأكيده هو أن ذلك البعد تتباين درجته، بين اللغة العادية واللغة الفنية، حيث يكون أكثر قوة مع الثانية، إذ غالبا ما يركز المتلقي على التأثير الإمتاعي والإقناعي.

نصل من خلال ما تم تقديمه إلى أنه قد تعددت بحوث الدراسات الحديثة وتباينت منطلقاتها، ووجهة نظرها إلى الخطاب الأدبي، فكانت العناية به عبر تطور بحوثها في الخطاب العادي؛ حيث برزت من داخلها تصورات جديدة انتقلت من اللغوي المحض إلى اللغوي الأدبي، وذلك ما اتخذ طريقين: دراسة مستقلة خاصة جعلت منه موضوعا لدراساتها (الشعرية، الأسلوبية)، دراسة غير مستقلة وفيها تم التطرق إليه من خلال التطور الذي عرفته؛ عبر هدف توسيع مجال بحثها من أجل بلوغ الشمولية والكلية، وهذا ما نجده مثلا في (السيمائية، والتداولية ..)؛ إذ يمكن الوقوف في التداولية - مثلا - على (تداولية لسانية، وتداولية أدبية).

تكاد تجتمع مختلف الاتجاهات حول فكرة أن البلاغة، علم تشترك في مجاله جميع الخطابات التي تحقق الوظيفة التواصلية كوظيفة رئيسة، وما تخرج عنها من وظائف أخرى؛ ونقصد الوظيفة الأدبية، والوظيفة الإقناعية، ولذلك يرى رولان بارث أن "البلاغة القديمة تقابل بالأحرى هذا الجديد الذي لم ينجز بعد، فالعالم مليء، وبشكل عجيب، بالبلاغة القديمة"¹، ولعل ذلك ما ينطبق على بلاغة أرسطو في الخطابة والشعر، حيث ظلت مختلف الاتجاهات تهتم بالوظيفة الإقناعية في الاستعمال الخطابي الحجاجي (الاتجاه الحجاجي)، والوظيفة الشعرية التي تخدم التعبير الفني الجيد (الاتجاه اللساني الشعري أو الأسلوبي).

تعتبر مختلف الاتجاهات عن أهمية البلاغة التأثيرية داخل المجتمعات، وذلك ما أكد على ضرورة إعادة بنائها واستمرار سلطتها، التي انتقلت من العصر القديم إلى العصر الحديث والراهن، وذلك في إطار ما عُرف بـ "الإمبراطورية البلاغية"، وقد أكدت مختلف الدراسات أن البلاغة "فن، أي مجموعة القواعد التي تسمح إما

¹ - رولان بارث، قراءة جديدة للبلاغة القديمة، ص 11.

بالإقناع وإما بالتعبير الجيد فهي مؤسسة اجتماعية"¹، لها فروعها ومثلوها، وقد أتاحت هيمنتها لانتقالها من مستوى المجتمع الواحد الضيق إلى المستوى العالمي. إذ تلتقي من خلالها عدة تصورات ونظريات انطلقت كلها من دراسة الممارسة الخطابية التواصلية، وهو ما ينطبق على نظرية النحو الوظيفي.

ثانيا: الممارسة الخطابية التواصلية بوصفها موضوعا لنظرية النحو الوظيفي:

تمهيد:

ناقشت نظرية النحو الوظيفي مسألة الممارسة الخطابية بكيفية عميقة، استطاعت من خلالها - وإن كان ذلك عبر مراحل من الإصلاح والتطوير النمذجي - بلوغ مرتبة عالية من الدقة المنهجية والكفاية المراسية، التي ارتبطت بوصف وتفسير تلك الممارسة؛ فقد قادها البحث في موضوع القدرة الخطابية لمستعملي الخطاب (منتج/ مؤول) إلى صياغة نظرية خطابية وظيفية كلية، وذلك ما تجلّى - كما سبق وأن وضحنا - في نموذج مستعملي اللغة - بصيغته الأربعة - الذي أسس لمعالجة مختلف قضايا الخطابية، بكل تمظهراتها (أقسام، وأنماط، وأجناس الخطاب)، وكل العناصر المتفاعلة فيها، وكذا أبعاد استعمالها الوظيفي الاجتماعي، البراغماتي؛ أي الأبعاد التأثيرية التي يُوظف لأجلها الخطاب إنتاجا وقراءة (تحليلا وتأويلا).

- لقد ركز الوظيفيون عبر نموذج مستعملي اللغة الطبيعية على هدف تحقيق الشمولية، وقد عملوا على صياغته - عملا بشرط الصورنة والدقة العلمية - صياغة علمية تكشف بدقة عن قواعد ومبادئ الاستعمال التواصلية الاجتماعي، وينتمي كل ذلك إلى مشروع وظيفي عام وكلي يتأسس على الأهداف الآتية:²
- بيان الطريقة التي يعمل بها مستعملو اللغات الطبيعية، والتي تمكنهم من إقامة التواصل بينهم.
 - استثمار إمكانات النحو الوظيفي في بناء نموذج يحاكي مستعمل اللغة الطبيعية .
 - إدراج الطاقات اللغوية في نموذج شامل يمثل أيضا للطاقات المعرفية.
 - تطوير النحو الوظيفي بصياغة قواعده ومبادئه صياغة صورية، وروز فاعليتها من خلال إنجازها حاسوبيا.
 - تطوير الوسائل الحاسوبية التي يمكن استعمالها في بناء نموذج حاسوبي يحاكي مستعمل اللغة الطبيعية.

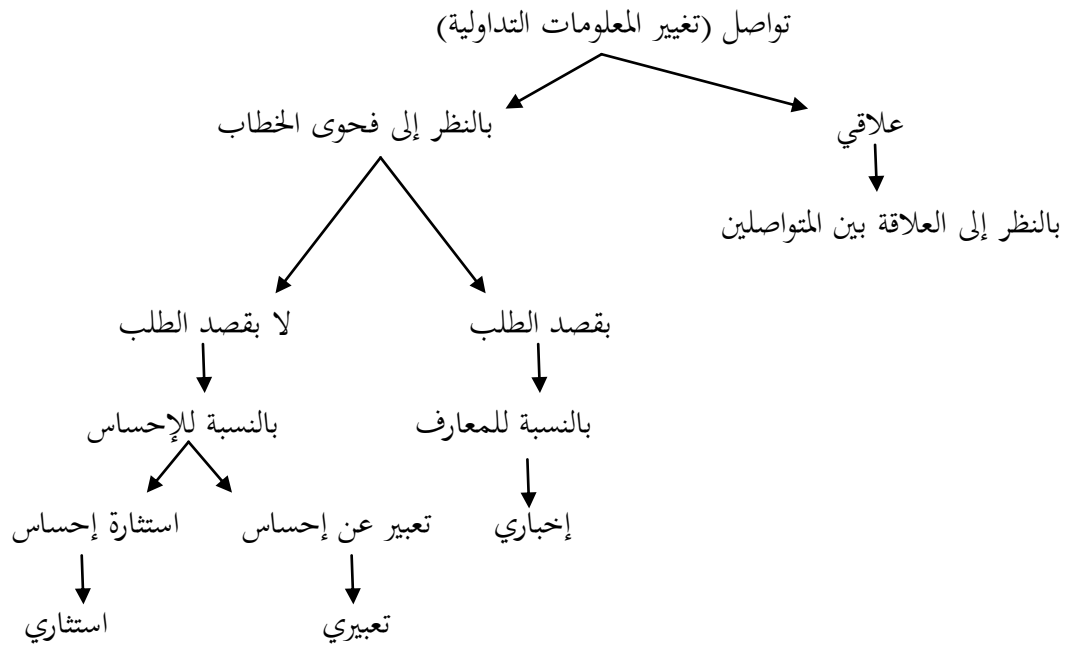
¹ - رولان بارت، هسيسة اللغة، تر: منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، حلب - سورية، ط1: 1999، ص 166.

² - عز الدين البوشيخي، التواصل اللغوي مقارنة لسانية وظيفية نحو نموذج لمستعملي اللغة الطبيعية، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت - لبنان، ط1: 2012، ص 65.

يعد إدخال الحوسبة إلى مجال البحث من أهم الأهداف، وذلك بغية بناء النحو الوظيفي المحوسب، الذي يتمكن من تحويل نموذج مستعملي اللغة الطبيعية إلى نموذج حاسوبي.

يجب الإشارة في هذا السياق إلى أن مساعي نظرية النحو الوظيفي المتعلقة بدراسة الخطاب، تتوحد - في جانبها العام - بغض النظر عن نوعه ونمطه حول العمل على تحديد شروط التواصل الناجح؛ وذلك حيث يعد الخطاب فعلاً إنجازياً، ويظهر هذا الأمر واضحاً من خلال نموذج مستعملي اللغة بصيغته الأربع: (النموذج المعياري، نموذج نحو الطبقات القالي، نموذج نحو الخطاب الوظيفي، نموذج نحو الخطاب الوظيفي الموسع)، إذ تم السعي في كل صيغة لتبيين تلك الشروط من خلال الحديث عن بنية الخطاب، التي اجتمعت كل الصيغ على ضرورة تضمينها لثلاث مستويات: مستوى تداولي، مستوى دلالي، ومستوى صرفي - تركيب.

يعد الخطاب في إطار نموذج مستعملي اللغة الطبيعية تعبير وتواصل يكون بين البعد الفردي النفسي، والبعد الاجتماعي التداولي الذي يستهدف التأثير، وقد وضع سيمون ديك أنواع التواصل في الشكل الآتي:¹



نتبين مما قدمه سيمون ديك في هذا المخطط الطبيعة المتغيرة للفعل التواصل؛ أي طبيعته الحركية، حيث تتباين أغراض وسياقات توظيفه فتتعدد مظاهره تبعاً لذلك. وهو ما يرصد معاملات مستعملي اللغة الطبيعية، والواضح أنه قد تم التركيز هنا على التواصل باعتباره علاقة تداولية، اجتماعية دينامية، تكون بين طرفين: مخاطب

¹ - أحمد المتوكل، اللسانيات الوظيفية مدخل نظري، ص 52.

(متكلم) ومتلقي، بحيث يمرر عبرها الطرف الأول شحنات معلوماتية دلالية تأثيرية للطرف الثاني، وحسب ديك فإن للتواصل نمطان (علاقي) و(دلالي) - وهو ما يلخص عبارة (فحوى الخطاب) -، وعلى أساس مقصدية المتكلم التي ترتبط ارتباطا وثيقا بالفحوى الدلالي، يكون الغرض من الخطاب: إخباري، أو تعبري حيث يعبر المتكلم عن إحساس، أو استشاري يهدف من خلاله إلى إثارة إحساس لدى المتلقي.

لقد سعت نظري النحو الوظيفي بذلك بادئ ذي بدئ، إلى تنظيم عمليتي إنتاج الخطاب وتأويله؛ أي حيث نقف على البلاغة باعتبارها تواصلا اجتماعيا وذلك قبل الانتقال إلى مجال البلاغة الأدبية التي تتعلق بالملكة الشعرية.

1 - إنتاج الخطاب وتأويله في نظرية النحو الوظيفي:

ركز ممثلو نظرية النحو الوظيفي على خدمة مستعمل الخطاب (المتكلم/ الكاتب) ومؤوله، عبر تحديد عناصر ومستويات تشكيله حيث نقف على صياغة كاملة، لتتاح بذلك إمكانية فهم ماهية الخطاب وكيفية التعامل معه إنتاجا وتحليلا (فهما وتأويلا)، وقد عملت على توضيح ذلك وفق منظور علمي دقيق وهذا ما تناولته في إطار سعيها لتحصيل الكفاية النفسية، حيث تم البحث أولا في النسق الذهني المجرد من استعمال الخطاب إذ اهتمت بمهندسة الدماغ البشري، من أجل تحديد كيفية عمله، والوصول إلى شرح علمي يوضح ماهية القدرة الخطابية، ووصف وتفسير عمليتي الإنتاج والتأويل من الذهني إلى الصوتي أو العكس.

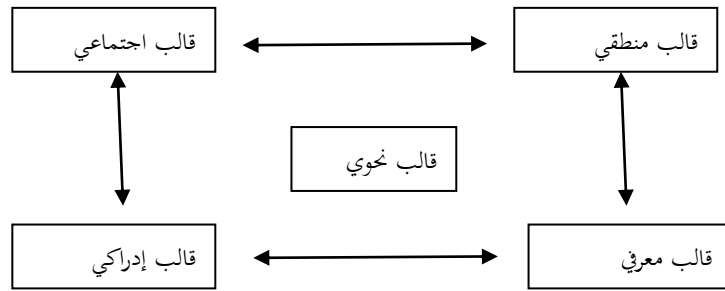
فقد وجهت بحوثها لتحديد المراحل التي تمر بها كل عملية، وكذا تبين الآليات المعتمدة من قبل منتج الخطاب ومؤوله.

لقد تم في إطار ذلك تبين طبيعة الخطاب وهذا ما توضحه النقاط الآتية:¹

- يشترك في كل عملية تواصل - تتم بالمشافهة أو بالمكاتبة - مشاركان: متكلم ومخاطب.
- يقصد المتكلم تمرير غرض تواصل معين يصوغه جزئيا ضمن فحوى خطابه. وتتفاوت صياغة الغرض التواصل من حيث درجة صراحتها التي يحددها مخزون المتكلم المعلوماتي.
- يشكل أي خطاب نموذجا ذهنيا يشارك في بنائه كل من المتكلم والمخاطب ويتسم هذا النموذج بـ :
- سمة الجزئية لأنه لا يمكن أن يتضمن جميع ما يمكن أن نعرفه عن جميع العوامل الممكنة.
- وسمة الحركية لأنه ليس نموذجا قارا ثابتا من بدايته إلى نهايته بل إنه يتغير ويعدل حسبما تقتضيه كل مرحلة من مراحل التخاطب.

¹ - أحمد المتوكل، اللسانيات الوظيفية مدخل نظري، ص 52.

لقد كشفت نظرية النحو الوظيفي باعتماد تقنية النمذجة أن عمليتي الإنتاج والتأويل ذات طابع قالي، وهذا ما بينته بواسطة نموذج مستعملي اللغة الذي يتكون - حسب ديك - من خمس ملكات، بحيث تتكفل كل ملكة بجانب ودور معين، وقد أعاد صياغة ذلك النموذج وفق نظام القوالب، حيث جعل لكل ملكة قالباً يضطلع بوصفها فنجد القالب النحوي، والقالب المنطقي، والقالب المعرفي، والقالب الإدراكي، والقالب الاجتماعي. وقد وضح هذه القوالب في الشكل الآتي:¹



يكون استعمال الخطاب (إنتاجاً وتأويلاً) وفق هذه القوالب مضبوطاً ومنظماً، حيث يعمل كل قالب على القيام بوظيفة معينة، تكون ذات بعد لغوي، أو عقلي، أو معرفي، أو حسي، أو اجتماعي، وعلى أساس تبعية القوالب للملكات فإن وظيفة كل قالب تتحدد على الشكل الآتي:²

- أ - يتكفل القالب النحوي بإنتاج وتأويل العبارات اللغوية وتأويلها بطريقة سليمة.
- ب - يقوم القالب المنطقي بمهمة اشتقاق بنيات تحتية من البنية التحتية المحددة في إطار القالب النحوي عن طريق قواعد الاستدلال.
- ج - يضطلع القالب المعرفي بتخزين المعارف التي ترد عليه من القوالب الأخرى وتنظيمها لاستعمالها عند الحاجة.
- د - يقوم القالب الاجتماعي بتحديد الكيفية التي يجب أن يتم بها التواصل بالنظر إلى الخلفيات الاجتماعية التي تميزه.
- هـ - يتكفل القالب الإدراكي باشتقاق معارف من المدرك الحسي وتخزينها في القالب المعرفي قصد استعمالها عند الحاجة.

تتفاعل هذه القوالب في ما بينها سواء بالنسبة لعملية الإنتاج أو التأويل، وتضبطها علاقة تسيير وفق نظام محدد يخضع للشرطين التاليين:³

¹ - أحمد المتوكل، الوظيفية بين الكلية والنمطية، ص 36.

² - ينظر: أحمد المتوكل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، ص 38.

³ - المصدر نفسه، ص 33

1 - أن يستقل كل قالب عن القوالب الأخرى من حيث موضعه ومن حيث إوالياته (مبادئه وقواعده)

2 - أن يظل كل قالب منفتحاً على تلك القوالب بحيث يتفاعل معها في وصف ظواهر معينة.

يتم تشغيل هذه القوالب بدرجات متفاوتة؛ أي حسب حاجة مستعمل الخطاب (منتج/ مؤول) التي تكون بالنظر إلى أمرين:¹

أ - **نمط الخطاب**: إذ تختلف أدوار القوالب باختلاف الأنماط الخطابية، فلا يقوم القلب المنطقي مثلاً في تأويل خطاب مبني على الاستلزامات الحوارية بنفس الدور، الذي يقوم في تأويل خطاب ذي دلالات حرفية صريحة.

ب - **الوضع التخاطبي القائم بين المتخاطبين**: حيث يحصل في مقامات الألفة، أن يتقلص دور القلب النحوي - إنتاجاً وتأويلاً -، فتعتمد المعلومات غير اللغوية المتوافرة في القوالب الأخرى.

يعد القلب النحوي القلب المركز الذي يحضر في شتى عمليات استعمال الخطاب بكل أنواعه، وقد تم تصنيف هذه القوالب بالنظر إلى أهميتها وحضورها في الإنتاج والتأويل إلى:²

أ - **قوالب أدوات**: وهي القوالب الرئيسة؛ وتضطلع بمهمة إنتاج الخطاب وتأويله ويمثلها: القلب النحوي، والمنطقي.

ب - **قوالب مخازن**: وهي قوالب مساعدة؛ إذ إنها تكتفي بإمداد القوالب الآلات بما تحتاجه من معلومات حين يقتضي الأمر ذلك، وتكون معلومات غير لغوية (مدركات حسية، معارف عامة، مواضع اجتماعية...)، تلك القوالب هي: القلب المعرفي، والقلب الإدراكي، والقلب الاجتماعي.

تسير القوالب المخازن وفق سلمية محددة توضح كيفية عملها، وذلك حسب معيار الأهمية التي يحتلها كل قالب؛ إذ تكون بناء على ذلك من الأدنى إلى الأعلى، حيث "يكون القلب الإدراكي بمقتضاها دون القلبين المعرفي والاجتماعي أهمية. ومن تعليقات ذلك أن التواصل عبر اللغة لا يحتاج في جميع الحالات إلى استخدام المعلومات التي يقدمها السياق الحسي. ويصدق هذا على كل العبارات التي يمكن أن تؤوّل دون اللجوء إلى هذا الضرب من المعلومات السياقية. أما القلب الاجتماعي فإن ضرورة استخدامه دون ضرورة استخدام القلب المعرفي؛ إذ إن ثمة أنماطاً من الخطابات - كالخطاب العلمي مثلاً - يمكن أن توصف بأنها محايدة اجتماعياً.

¹ - أحمد المتوكل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، ص 33.

² - ينظر: المصدر نفسه.

في مقابل ذلك يبدو من الصعب وجود خطاب يستغنى فيه استغناء كلياً عن مخزونات القالب المعرفي¹. ويمكن القول من منطلق الطابع الوظيفي التداولي الذي يعزز في نفس الوقت خاصيته الاجتماعية في حدودها العامة، التي تجعله تفاعلاً علائقياً يربط طرفين (المنتج/ المتلقي)، إن القالب الاجتماعي يشكل القالب المركز ضمن مجموعة القوالب المخازن.

شكل السعي الدائم لتطوير تصور مبدأ القالبية أهم مساعي الوظيفيين، وذلك ما تجلّى في إضافة قوالبات ثانية للقوالب الخمسة، إذ "يتكون كل قالب من قوالبات يتكفل كل منها بفرع من فروع الملكة التي هو مرصود لوصفها. إذ يقسم ديك مثلاً القالب المنطقي إلى قوالب فرعية أو قوالبات حسب طبقات الجمل الأربع؛ منطق المحمولات، منطق الحدود، منطق المحمول، منطق القضايا، منطق القوى الإنجازية"²، وقد أضاف أحمد المتوكل إلى ذلك قالب فرعي آخر، أطلق عليه "القالب النصي، وتتمثل وظيفته في رصد العلاقات الاستدلالية التي يمكن أن تقوم بين نصين أو قطعة أخرى من نفس النص"³، ولعل ذلك ما يتجلّى خاصة عند القارئ حيث يعمل على تأويل مجموعة من النصوص. كما اقترح في خضم إمكانية التطوير القالب، إضافة قالب سادس للقوالب الخمسة أطلق عليه اسم القالب الشعري ويرتبط بملكة خاصة وهي الملكة الشعرية.

اقترح أحمد المتوكل كذلك من منطلق قابلية تعديل نموذج مستعملي اللغة الطبيعية، في إطار نموذج نحو الطبقات القالبية الذي حدد من خلاله البنية الكلية لنموذج مستعملي اللغة الطبيعية، فيما أطلق عليه البنية الخطابية النموذج، أن تكون عدد القوالب بالنظر إلى مستويات تلك البنية (المستوى البلاغي، المستوى العلاقي، المستوى التمثيلي)، ثلاثة هي: القالب الدلالي، والقالب التداولي، والقالب النحوي، بحيث تتعالق حركة تشغيل هذه القوالب مع تلك المستويات، مشكلة ثلاث بنيات: بنية تداولية، وبنية دلالية، وبنية مكونية، ويتم التمثيل لكل مستوى على النحو الآتي:⁴

- يمثل للمستوى البلاغي والعلاقي كليهما في طبقتي بنية تداولية واحدة يضطلع بتحديد القالب التداولي.
- يمثل المستوى التمثيلي في قالب دلالي مستقل على اعتبار أن عناصر هذا المستوى عناصر دلالية بالأساس، ويتم ذلك في البنية الدلالية.

¹ - أحمد المتوكل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، ص 39

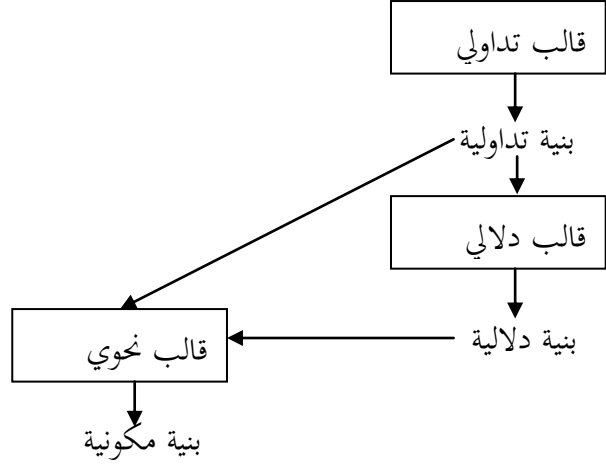
² - المصدر نفسه، ص 501

³ - المصدر نفسه، ص 502.

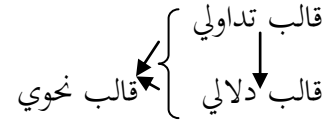
⁴ - ينظر: أحمد المتوكل، الوظيفية بين الكلية والنمطية، ص 38 و 39.

- تعد هاتان البنيتان - بمقتضى تعالق القوالب - دخلين للقلب النحوي الذي ينقلها عبر قواعد التعبير (الصرفية والتركيبية والتطريزية) إلى بنية مكونية، تتخذ بدورها دخلا للقواعد الصوتية التي تحيلها إلى بنية منطوقة.

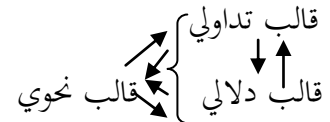
تأخذ علاقة القوالب بالبنيات الشكل الآتي:¹



- تكون عملية إنتاج الخطاب طبقا لذلك من القلب التداولي إلى القلب النحوي، وذلك مرورا بالقلب التداولي، كما يتضح في الشكل الآتي:²



- أما عملية تأويل الخطاب فتأخذ طريقا عكسية، أي أنها تكون من القلب النحوي إلى القلب التداولي، وذلك كما يظهر في الشكل الآتي:³



¹ - ينظر: أحمد المتوكل، الوظيفة بين الكلية والنمطية، ص 41.

² - المصدر نفسه، ص 40.

³ - المصدر نفسه.

2 - شروط الخطابية في نظرية النحو الوظيفي:

يتعلق هذا الجانب بالشروط العامة التي تضبط عمليتا الإنتاج والتأويل؛ أي الشروط التي تنشأ بمقتضاها الخطابية؛ حيث يكون الفعل الخطابي التواصل فاعلا ناجحا مؤثرا فيحصل بذلك ما يعرف بالتخاطب التواصل بين مستعملي الخطاب، وتكمن تلك الشروط - حسب رأينا - في الأبعاد الآتية:

2 - 1. البعد النفعي:

وهو بعد يقاس على وجه عام بنجاح التبليغ ومدى عمق الفائدة، التي تحصل به سواء بالنسبة للمرسل (متكلم أو كاتب)، أو للمخاطب (سامع/ قارئ)؛ وذلك ما يتوقف لدى الطرف الأول على وصول المقصدية وظهور رد فعل (تسليم أو إنحاز) من قبل المخاطب، وبالتالي تكون حصول المقبولية التي ترتبط بفحوى خطابي صحيح مطابق للواقع وللحقائق المعرفية العقلية، أو فني مؤثر، ممتعا كان أم مقنعا بالنسبة للمخاطب. يحرص المخاطب على تحقيق تواصل كامل وتام يمكنه من بلوغ الأغراض والمقاصد؛ حيث يسعى إلى بناء خطاب وظيفي نفعي؛ سواء بالنسبة له أو بالنسبة للمتلقي. فيعمل على تلافي مختلف الأمور التي تحول دون حدوث التواصل المثالي؛ عرقلة، وضعفا، وامتناعا. فقد وضع الوظيفيون أن التواصل أنواع:¹

- **التواصل السليم:** وهو التواصل الذي يستوفي جميع شروط الفهم والإفهام.
- **التواصل المضطرب:** وهو التواصل الذي يشوبه شائب إما عرضيا يعمل على رفعه أو مرضيا ملازما لأحد المشاركين في عملية التخاطب.
- **التواصل الممتنع:** وهو التخاطب المحض غير المفضي إلى تفاهم لأسباب مختلفة (تشويش في قناة التواصل، عدم فهم المخاطب للغة المتكلم).

يحكم البعد النفعي (البراغماتي) حسب نظرية النحو الوظيفي العملية الخطابية التواصلية، وهو ما يجعل المخاطب بين غاية التواصل السليم (المثالي)، والتقنية أو الوسيلة الملائمة الكفيلة ببلوغ ذلك - إذ يوظف قوالب نموذج مستعملي اللغة الطبيعية - ويعد الحرص على الغاية والوسيلة من أهم القوانين، التي تضبط تلك العملية، وقد تم صياغتها على النحو الآتي:²

أ - **قانون الغاية (التواصل الأمثل):** هو التواصل الذي يُحقق حين تعكس البنيتان الصرفية - التركيبية

¹ - ينظر: أحمد المتوكل، اللسانيات الوظيفية المقارنة دراسة في التنميط والتطور، ص 119.

² - ينظر: المصدر نفسه، ص 118 و 119.

والفنولوجية تماما البنية التحتية بشقيها العلاقي والتمثيلي.

ب - قانون الوسيلة (الكلفة الأقل): ويعني بذل أدنى مجهود في أقصر مدة.

يتدخل فحوى القانون (أ) والقانون (ب) مع أبعاد التفكير الإنساني المادي الاجتماعي الاقتصادي، الذي أصبح حاليا يعد من أهم سمات مجال الاستعمال اللغوي التواصل اليومي، بأشكاله المختلفة وعلى مستوياته المتعددة؛ إذ على أساسه يختار مستعملي اللغة الطبيعية بحذر كيفية بناء خطاباتهم على مستوى الشكل والدلالة، حيث يجب أن تكون قوية الأثر سواء بالنظر إلى الجانب العقلي أو الجانب العاطفي. وهذا ما يعبر عن مبدأ ضرورة تحقيق الغاية المستهدفة، على أن يكون ذلك مرتبطا بمبدأ (الاقتصاد اللغوي)، وهو ما يعكس قانون الوسيلة، ويرتبط بهذا المبدأ مبدأ شفافية الخطاب.

ج - مبدأ شفافية الخطاب:

تقتضي نظرية النحو الوظيفي بناء على المبادئ المعمول بها في نموذج مستعملي اللغة الطبيعية، أن يتصف الخطاب بالإضافة إلى شرطي السلامة والتمام بشرط الشفافية، الذي يقوم على مبدأ الانعكاس، حيث يجب أن تنعكس البنية التحتية بمستوييها (العلاقي) و(التمثيلي) في البنية السطحية (المكونية) انعكاسا تاما، وقد بين أحمد المتوكل أن حصول ذلك يتطلب أن يخلو الخطاب من الظواهر الآتية: (الالتباس، والطي، والانعراج، والتداخل)، فلا بد أن لا يكون الخطاب ملتبسا أو مطويا أو منعرجا أو متداخلا.

- الخطاب الملتبس: ويكمن في "تحمل خطاب ما (جملة، مركب اسمي، نص ...) لأكثر من قراءة واحدة"¹، إذ يتطلب حدوث الخطاب التواصل الأمثل حرص المنتج على تجنب الظواهر التي تمنع ذلك، وهذا ما حصره الموظفون في ظاهرة الالتباس حيث يعد "من الظواهر اللغوية التي تؤدي إلى حدوث عملية تشويش تحول دون التواصل السليم"²، وهو أنواع:

- التباس بنوي: ينتج الالتباس البنوي "عن ورود الجملة (أو جزء من الجملة) - سطحا - قابلة لأن ترد إلى أكثر من بنية واحدة"³. مثاله: قابلت أخو الأستاذ المشهور. يدور الالتباس حول صفة المشهور، حيث يكون فهم نسبتها، من قبل المتلقي بين أخو الأستاذ، والأستاذ.

¹ - أحمد المتوكل، اللسانيات الوظيفية المقارنة دراسة في التنميط والتطور، ص 80 و 81.

² - ينظر: أحمد المتوكل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، ص 129

³ - المصدر نفسه، ص 130.

- **التباس تداولي:** ويقع حين يكون في الكلام "تعدد إما في الإحالة أو في القوة الإنجازية أو في الوظائف التداولية"¹، هذا ما توضحه الأمثلة الآتية على التوالي:

أ - كرمت الدولة الروائي الجزائري، يتعلق الالتباس بالإحالة، وهو واقع في عبارة الروائي الجزائري، هل تم تكريم كل الروائيين الجزائريين أم روائيا جزائريا بعينه.

ب - هل يمكن أن تفتح نافذة ؟ ، تتضمن الجملة قوتين إنجازيتين؛ (حرفية تتمثل في السؤال) و(مضمرة تتمثل في الطلب)، وذلك ما يوقع الالتباس في ذهن المخاطب؛ حيث يكون بين ما يريد المتكلم بالتحديد، إما إمكانية (المخاطب) فتحه للباب، أو طلب فتح الباب.

ج - كنا في القسم حين رأت مريم فاطمة فأقبلت نحوها وهنأتها، تتضمن هذه العبارة محورين وهما: مريم وفاطمة، ولذلك يقع الالتباس. وذلك بالتحديد حول فعل الإقبال والتهنئة، إذ يتساءل المتلقي هل وقعا من مريم أم من فاطمة.

- **التباس دلالي:** يحدث هذا النوع من الالتباس "حين تتضمن عبارة ما مكونا يحمل أكثر من معنى واحد كما هو الشأن بالنسبة للجملة: رأيت عيني هند. التباس هذه الجملة ناتج عن ورود "عيني"، دالا على معنيين، على عضوي البصر وعلى جاسوسين"²، وهذا ما يشكل التباسا في ذهن المخاطب، إذ يُشكّل عليه فهم دلالة عيني بالتحديد، خاصة إذا كان في سياق تعدد فيه هند عدوا له وأنه على افتراض مسبق بأن لها جواسيس، وهذا ما يؤدي إلى افتراضين: (عضوي البصر، وجاسوسين) .

- **الخطاب المطوي:** يتميز بناء كل خطاب بمراحل محددة حيث "تخضع آليات الخطاب (السردية، الوصفية، الحجاجية) لشرط التمام الذي يقتضي أن يلم السارد في سرده بكل مراحل الواقعة موضوع السرد، وأن يذكر الحاج جميع عناصر حجاجه (دعوى وحجج وتناج). لكنه من غير النادر أن يخرق شرط التمام ويكون ذلك عن طريقين: أن يقفز على حلقات من السلسلة السردية أو السلسلة الحجاجية أو تجمع حلقات إحدى السلسلتين في فعل خطابي واحد"³، مثال ذلك الجملتين الآتيتين على التوالي:

أ - من يؤلف يشتهر، ألف الأستاذ كتابا، إذن سيشتهر الأستاذ.

ب - بما أن الأستاذ ألف فإنه سيشتهر.

¹ - أحمد المتوكل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، ص 131.

² - المصدر نفسه، ص 136.

³ - أحمد المتوكل، اللسانيات الوظيفية المقارنة دراسة في التنميط والتطور، ص 81 و 82.

- **الخطاب المنعرج:** أوضح الوظيفيون أنه "من شفافية الخطاب أن يكون مباشرا يلقي إلى مخاطب واحد، وقد يخرق هذا الشرط فينعرج الخطاب ويلقى إلى مخاطبين اثنين مخاطب صريح ومخاطب ضمني"¹، مثال ذلك الجملة الآتية: (صار كل من يتكلم شاعرا). التي قالها أحد الأشخاص مع صديقه في حضرة شاعر، فالمخاطب الصريح هو صديقه، أما المخاطب الضمني فهو الشاعر.

- **الخطاب المتداخل:** لقد وضع المتوكل أنه "يمكن أن يتداخل خطابان اثنان مصدرهما متكلمان اثنان في خطاب واحد، وتحصل هذه الظاهرة في الخطاب المنقول بالخصوص"²، حيث يؤدي نقل الخطاب الأصلي كخبر، وتواتره بين عدة متكلمين إلى تغيير بعض مضانه. وهذا ما يمكننا توضيحه في الجملتين الآتيتين:

أ - عمرو: لن أختار تلك الشعبة.

ب - خالد: قال عمرو إنه لن يختار تلك الشعبة السيئة.

فصفة السيئة هي ما لم تكن في الخطاب الأصلي فقد تم إضافتها من قبل الناقل له.

2-2. البعد العلاقي:

وهو البعد الذي يهتم بثنائية مرسل/ مخاطب، ويؤكد على ضرورة الحرص على مبدأ العلاقة بينهما وذلك باعتبارهما الطرفان الأساسيان في العملية الخطابية التواصلية.

هذا ما تفرضه ماهية الخطاب باعتباره علاقة حوارية وحدث تفاعلي يتواصل فيه طرفان؛ ف "من أوجه الخطاب المهمة أنه يتوجه إلى شخص ما. فهناك متكلم آخر هو متلقي الخطاب. وحضور هذين الاثنين هو الذي يشكل اللغة بما هي اتصال"³، ولذلك ف "إن ما يذكر بشأن المخاطب لا يستقيم إلا بدور السامع، حتى إن ما يرتبط بقصد المتكلم، يفترض وجود سامع مقصود بالخطاب. ولذلك فالحديث عن المتكلم هو حديث ضمني عن السامع أيضا"⁴.

يمثل هذا البعد الشرط التقني الأساس الذي يجب على كل طرف التقيد به في إنتاج الخطاب وتحليله؛ وفحوى ذلك ضرورة مراعاة الطرف المنتج أو المحلل للطرف الآخر، فيبني المرسل خطابه بالنظر إلى نوع المخاطب (الذي يكون إما حاضرا (في الخطاب الشفوي) أو مفترضا (في الخطاب المكتوب))، وحالته الثقافية، والاجتماعية،

¹ - أحمد المتوكل، اللسانيات الوظيفية المقارنة دراسة في التنميط والتطور، ص 82.

² - ينظر: المصدر نفسه، ص 83.

³ - بول ريكور، نظرية التأويل الخطاب وفائض المعنى، تر: سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - المغرب، ط2: 2006، ص 42.

⁴ - خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، ص 175.

والنفسية، وهو الحال بالنسبة للمخاطب؛ أي أن يحلل هذا الأخير الخطاب متصلاً بظروف وحيثيات إنتاجه بما فيها أحوال منتجه.

ناقشت نظرية النحو الوظيفي بمقتضى مبدأ الكفاية التداولية، قوانين الوضع التخاطبي القائم بين المتخاطبين وذلك ما يدخل في إطار البعد العلاقي، إذ "يذهب ديك إلى أن ضابط عملية التواصل الناجح هو "نظرية الآخر" (**theory of the other**) أي ما يعرفه كل من المخاطبين عن معلومات الآخر حين عملية التواصل. ويقترح توضيح العلاقة التخاطبية القائمة بين المتكلم والمخاطب أثناء عملية التواصل بواسطة الرسم الآتي:

متكلم	مخاطب
ع م (ع خ) م	(ع م) خ ع خ
حيث: (ع خ) م = ما يعتقد المتكلم عن معلومات المخاطب.	
(ع م) خ = ما يعتقد المخاطب عن معلومات المتكلم ¹ .	

يعد ما يعلمه أو يعتقد كل طرف عن الآخر من أهم المرتكزات التي تقوم عليها العملية الخطابية، حيث تساهم في إعطاء جانب من الثقة التي تُمكن من السير في اتجاه محدد، إذ يكون - مثلاً - إنتاج الخطاب الذي يخبر فيه المتكلم متلق معين عن خبر ما/ حول شخص محدد، بالنظر إلى معلومات المتلقي عن ذلك الشخص، إذ يكون بالنسبة إلى ذلك بين حالتين: معروفاً أو مجهولاً، كما هو الحال - مثلاً - مع وظيفة البؤرة؛ التي تختلف أنواعها بالنظر إلى حالات المتلقي، الذي يكون إما (خالي الذهن، أم شاك، أم متردد)، وعلى أساس ما يقدمه المتكلم في خطابه يكون شكل التلقي ودرجة القبول.

2 - 3. البعد السياقي اللغوي :

استأثر السياق اللغوي أو ما يُصطلح عليه ببنية الخطاب الداخلية بدراسات لسانية كثيرة في إطار نظرية النحو الوظيفي، فقد تمكن سيمون ديك ومختلف الباحثين الذين جاءوا بعده من بناء رؤية خاصة لمسألة الصياغة اللغوية، يلاحظ ذلك جلياً من خلال ما تم تقديمه ضمن معالجة مسألة بنية النحو، التي تحوّل البحث فيها - كما سبق ذكره - من مجال الجملة الضيق إلى مجال الخطاب بمحدوده الواسعة، وقد خصصوا لذلك نموذجاً مستعملي اللغة الطبيعية الذي كشفوا من خلاله أن الخطاب يتضمن في شكله العام بنيتين: بنية تحتية وبنية سطحية.

¹ - أحمد المتوكل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، ص 372.

أ - **البنية التحتية** وهي: بنية دلالية تداولية تتشكل من مستويين مستوى دلالي (تمثيلي) ومستوى تداولي (علاقي)، وتتضمن أربع طبقات هي: "طبقة الحمل المركزي، طبقة الحمل الموسع، طبقة القضية، طبقة الإنجاز"¹، إذ تعكس هذه الطبقات مراحل تطور تشكل الجملة ذهنيا على التوالي، أي أنها تكون من الحمل المركزي إلى الإنجاز.

ب - **طبقة الحمل المركزي**: يسبق هذا الحمل حسب نظرية النحو الوظيفي الحمل النووي، الذي يتم نقله إلى حمل مركزي "عن طريق إضافة مخصص ولاحق، يؤشر المخصص إلى السمات الجهمية (تام/ غير تام، منقطع/ مستمر، مستمر آني ..)، وتنتمي إلى هذه الطبقة لواحق مناسبة من قبيل المستفيد والأداة"²، إذ يتم هنا وصف حالة المحمول الزمنية وتشكل هذه الطبقة دخلا للحمل الموسع.

ج - **طبقة الحمل الموسع**: يتم تكوينها بنفس الطريقة؛ حيث يتم "إضافة مخصص ولاحق. ويحدد المخصص السمات الزمانية (مضي مطلق/ مضي نسبي، حاضر، مستقبل مطلق/ مستقبل نسبي). ويكون اللاحق إما لاحق زمان أو لاحق مكان، وغير ذلك مما يحدد ظروف الواقعة التي تكون إما عمل أو حدث أو وضع أو حالة"³. والواضح أن أهم خصائصها هو التركيز فيها على زمان ومكان الواقعة، وتعد هذه الطبقة أساس تكوين القضية إذ تمثل هذه الأخيرة دخلا لتلك الطبقة.

د - **طبقة القضية**: تتكون عن طريق "إضافة مخصص القضية الذي (يؤشر إلى موقف المتكلم من الفحوى القضوي للجملة (اعتقاده، شكه، يقينه) (أو رغباته أو المصادر التي بلغه عن طريقها هذا الفحوى)، ولاحق أو لواحق تؤشر إلى نفس المعاني مثل العبارات دون شك وفعلا وفي رأيي .."⁴، تتمحور هذه الطبقة حول موقف المتكلم من فحوى الخطاب، وتشكل دخلا لطبقة الإنجاز.

هـ - **طبقة الإنجاز**: وتمثل الطبقة العليا و"تتكون من القضية كنواة ومخصص إنجازي يؤشر للقوة الإنجازية التي تواكب القضية، ولاحق إنجازي كالعبارات الظرفية التي من قبيل: بصراحة وبصدق .."⁵، فهي الطبقة النهائية لمستوى الخطاب التحتي الذهني، وفيها تتحد مختلف سمات الطبقات السابقة، إذ تخضع لعلاقة سلمية يعلو بعضها بعضا فيشكل خرج إحداها دخلا لطبقة تالية لها.

¹ - ينظر: أحمد المتوكل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، ص 53.

² - ينظر: المصدر نفسه، ص 54.

³ - المصدر نفسه.

⁴ - المصدر نفسه.

⁵ - المصدر نفسه، ص 55.

تتشكل مختلف تلك الطبقات من نواة ومخصص ولاحق، ويتم التحقيق النهائي للبنية التحتية عبر إضافة الوظائف، ويمكن توضيح هذه البنية من خلال المثال الآتي: بصراحة إن المفتش دخل إلى القسم فعلا البارحة. أ - الحمل المركزي: ويشمل الفعل (دخل) وموضوعه (المفتش) ويأخذ الوظيفة الدلالية المنفذ والوظيفة التركيبية الفاعل والوظيفة التداولية المحور، والمخصص الجهي (بصراحة) تام، واللاحق الزمني (فعلا) تام، واللاحق الهدف (إلى القسم).

ب - الحمل الموسع: يضم المخصصان؛ الصيغي (الإثبات) والزمني (الماضي المطلق)، واللاحق الزمني البارحة الحامل للوظيفة الدلالية الزمان والوظيفة التداولية بؤرة الجديد.

ج - قضية: تتضمن المخصص مؤكد واللاحق فعلا، يعبر من خلالهما المخاطب عن موقفه من فحوى القضية (تيقنه).

د - طبقة إنجازية: وتتضمن المخصص إنجازي الإخبار واللاحق الإنجازي بصراحة.

يرتبط بالبنية التحتية مفهوم الوجه ويتعلق بالمتكلم، ويرتبط بالطبقات الثلاثة الأخيرة؛ أي طبقة الحمل الموسع، وطبقة القضية، وطبقة الإنجاز. والوجه في نظرية النحو الوظيفي ثلاثة أنواع:

أ - الوجه اللازم: يمثل وجه الحمل الموسع ويتعلق بـ "تحديد العلاقة الممكن قيامها بين أحد المشاركين وتحقيق الواقعة التي يشارك فيها. يمكن أن تكون علاقة استطاعة أو علاقة رغبة أو علاقة إجبار أو علاقة ترخيص"¹، توضح ذلك الأمثلة الآتية على التوالي:

- يستطيع عمرو أن ينظم شعرا
- لا يقدر الإنسان أن يعيش وحيدا ← علاقة استطاعة.
- يرغب أحمد أن يحفظ القرآن الكريم ← علاقة رغبة
- أجبر الرسول على مغادرة مكة ← علاقة إجبار.
- سُمح لمريم بأن تشارك في المسرحية ← علاقة ترخيص.

ب - الوجه الموضوعي: وهو فئتان:

- الوجوه المعرفية: تتعلق بطبقة القضية وهي الوجوه التي "يقوم المتكلم من خلالها إمكانات تحقق الواقعة"²، مثال ذلك:

¹ - ينظر: أحمد المتوكل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفي، ص 171.

² - المصدر نفسه، ص 172.

- قد حضر المفتش البارحة
- قد يسافر عمرو غدا
- لن يعيد السارق المال قطعا
- الوجوه الشرعية: وهي ما "يُقَوِّم المتكلم بواسطتها تحقق الواقعة بالنظر إلى مجموعة من القواعد الأخلاقية أو القانونية أو الاجتماعية"¹. ويمكن التمثيل لذلك بالأمثلة الآتية:
يجب أن يوقر الصغير الكبير قاعدة أخلاقية.
يستحسن أن يحترم المرء جيرانه قاعدة اجتماعية.
يمنع أن يخالف الطالب قانون المسابقة قاعدة قانونية.
- ج - **الوجه المعرفي**: يمثل وجه طبقة الإنجاز ويعني بـ "تحديد الموقف الذي يتخذه المتكلم من صدق القضية"²، كتصديقه أو تكذيبه، شكه أو يقينه.
- ج - أ. **الوجه الذاتية**: ويعبر بها إما عن رأي المتكلم الشخصي فيما يتعلق بصدق القضية كأن يقول عنها إنها مؤكدة أو محتملة أو ممكنة. أو عن تمنيه³، هذا ما توضحه الأمثلة الآتية:
سينجح الطالب المجتهد بدون شك
ربما اجتمع المدير مع الأساتذة صباح اليوم
إن المقال مقبول
إن هذه الأطروحة لممتازة
- ج - ب. **الوجه المرجعية**: وهي التي "تُحدد المرجع الذي يعتمد عليه المتكلم في اتخاذ موقفه من صدق القضية"⁴، ويكون ذلك المرجع إما:
- **تجريبيًا**: يُقَوِّم المتكلم القضية انطلاقًا من تجربته الشخصية. مثل: حسب تجريبي الشخصية لن ينجح الكسول.
- **استدلاليًا**: يُقَوِّم المتكلم القضية على أساس حجج معينة. مثل: حسب علامات عمر في الامتحان سينجح بتفوق.

¹ - أحمد المتوكل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، ص 172.

² - المصدر نفسه، ص 173.

³ - المصدر نفسه.

⁴ - المصدر نفسه.

- **سماعيا:** وهو ما بلغ المتكلم من آراء غيره عن صدق القضية. مثل: حسبما يقال سيتم تعميم مسابقة الدكتوراه.

يتم بناء تلك الطبقات بين المستوى التمثيلي والمستوى العلاقي، إذ يتكفل كل مستوى بتحقيق طبقة أو طبقات محددة.

- **المستوى التمثيلي:** ويضم طبقتي الحمل المركزي والحمل الموسع.

- **المستوى العلاقي:** ويضم طبقتي القضية والإنجاز.

ب - **بنية سطحية (صرفية - تركيبية)؛** تتحقق من خلالها البنية الأولى تحققا صوريا، وهي ما يصطلح عليه في نظرية النحو الوظيفي بالبنية المكونية، وتشكل من (مستوى صرفي - تركيب).

2 - 4. البعد السياقي الخارجي:

يعد السياق الخارجي من أهم المكونات الدينامية التي يفرضها نظام التواصل البشري، فقد أكدت مختلف النظريات الإنسانية القديمة منها والحديثة، على اختلاف توجهاتها (السوسيولوجية، الإثنولوجية، الفلسفية، اللغوية، العرفانية ..)، على أهمية هذا المكون باعتباره أساس استعمال اللغة في معاملاتنا التواصلية اليومية المتعددة، وذلك بالنظر إلى كون التواصل - أولا وقبل كل شيء - علاقات اجتماعية، إذ "تعرف أنثروبولوجيا كلود ليفي ستروس الحياة الاجتماعية بوصفها نتاج العمليات التواصلية وذلك من خلال ثلاثة تنظيمات وهي: تبادل المعلومات (بواسطة الكلام)، تنظيم المنافع من خلال الاقتصاد، وتنظيم الأشخاص (عبر الطقوس على شاكلة الزواج)"¹، وهي كلها معاملات تضبطها سنن وأعراف سوسيو - لغوية ثقافية محددة، وذلك ما ينضوي تحت ما يعرف بالسياق الاجتماعي الثقافي. وهو ما يجب على مستعملي اللغة أن يلتزموا به في ممارستهم الخطابية (إنتاجا وتحليلا).

يدخل ذلك النوع من السياق بالإضافة إلى أنواع أخرى في إطار السياق الخارجي - بمفهومه الواسع - الذي يشرف على شتى ممارسات استعمال اللغة، ومن خلال ذلك نقف على ما يعرف "بسياق الحال" أو "السياق المقامي"، الذي يحتوي الخطاب فيوجه إستراتيجيات إنتاجه وتحليله، وهذا ما أكدته البحوث الغربية ذات التوجه

¹ - فيليب بلانشيه، التداولية من أوستين إلى غوفمان، تر: صابر الحباشة، ص 80.

الوظيفي التداولي؛ حيث بينت العلاقة التلازمية التي تربط استعمال اللغة بالسياق الخارجي، وذلك بالنظر إلى دوره الرئيس في تشكيل العملية الخطابية التواصلية استمراراً ونجاحاً.

أكدت التداولية من خلال بحوثها في "العلاقات بين العلامات ومستعملاتها على ضرورة دراسة ضمائر التكلم والخطاب، وظيفي المكان والزمان (الآن، هنا)، والتعابير التي تستقي دلالتها من معطيات تكون جزئياً خارج اللغة نفسها، أي من المقام الذي يجري فيه التواصل"¹، ولعل ذلك ما يدخل في إطار ما يعرف بالإحالة السياقية حيث "تستعمل الألسنة الطبيعية على نطاق واسع العناصر المسماة بالإشارات وهي عناصر متنوعة، ضمائر المتكلم والمخاطب (أنا/ نحن، وأنت أنت / أنتم أنتم)، والوحدات الدالة على الزمن (الآن وغدا وأمس الخ) والوحدات الدالة على المكان (هنا، هناك) والأزمنة الفعلية. وتشارك هذه الوحدات في أن معناها لا يتحدد إلا عند الاستعمال انطلاقاً من نقطة ارتكاز يجسمها إلقاء القول"²؛ أي سياق التواصل المنجز فيه ذلك القول (الخطاب). وهذا ما اهتمت به نظرية النحو الوظيفي حيث سعت إلى أن تكون نظرية للتركيب والدلالة من وجهة نظر تداولية، عبر العمل وفق مبدأ ربط بنية الخطاب بوظيفته التواصلية، فوقفت على الإحالة - التي جعلت لها أنواع - على أساس الوضع التخاطبي القائم بين المتخاطبين الذي يختلف من خطاب إلى آخر. وللسياق في نظرية النحو الوظيفي أنواع:³

أ - **السياق العام**: وهو الخلفية الاجتماعية - الثقافية للمتخاطبين (جغرافيا وطبقيا وسنا وغير ذلك).

ب - **السياق المقامي**: وهو مجموعة العناصر المتواجدة في الموقف التواصلية أثناء عملية التخاطب شريطة أن يكون لها تأثير في هذه العملية إنتاجاً وفهماً.

ج - **السياق المقالي**: وهو محط رصد وتخزين ما سبق العملية التواصلية من خطاب ملفوظ/ مكتوب.

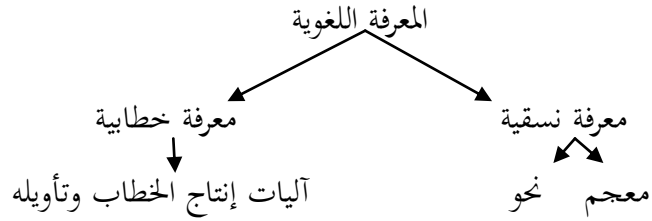
¹ - ينظر: آن روبول وباك موشلار، التداولية اليوم علم جديد في التواصل، ص 29.

² - باك موشلر آن روبول، القاموس الموسوعي للتداولية، تر: مجموعة من الأساتذة والباحثين بإشراف عز الدين المجدوب، مراجعة: خالد ميلاد، دار سيناترا، تونس، 2010، ص 110.

³ - ينظر: أحمد المتوكل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، ص 115.

3 - المعارف الأولية عند مستعملي اللغة الطبيعية:

يقتضي حصول الفائدة من وراء العملية الخطابية توفر لغة مشتركة بين المتخاطبين يفهم معانيها كل طرف، ويدخل ذلك حسب نظرية النحو الوظيفي في مجال المعرفة اللغوية، التي تتضمن معرفة نسقية، ومعرفة خطابية كما يتضح في الشكل الآتي:¹



يمكننا أن نوضح متطلبات هذه المعرفة من خلال الحديث عنها ضمن ملكتين، ملكة لغوية وملكة تواصلية.

1 - الملكة اللغوية:

يستند استعمال اللغة بالدرجة الأولى على المخزون اللغوي الذي يمتلكه مستعملها، وذلك ما يدخل في إطار الملكة اللغوية، وتشكل هذه الملكة الأساس المعرفي اللغوي الذي يتيح إمكانية الإنتاج السليم المتعلق بنسيج الخطاب أو بنيته الداخلية، وهذا ما يتطلب من مستعمل الخطاب (المنتج) ضرورة معرفته بمبادئ وقوانين نظام لغته. ندرج هذا الجانب ضمن "المعرفة اللغوية" knowledge linguistic وهي معرفة أولية يتطلبها إنتاج الخطاب.

لقد أشارت نظرية النحو الوظيفي لهذه المعرفة في إطار حديثها عن الملكة اللغوية، ولعل أبرز ما يمكن أن نذهب إليه استناداً على ما استبطناه، من خلال استقراءنا لنموذج مستعملي اللغة - بصيغة الأربعة - هو تنميط تلك المعرفة إلى ثلاثة معارف فرعية هي:

1 - أ. معرفة دلالية: **semantic knowledge**: تتمحور هذه المعرفة حول معاني المفردات التي

تشكل منها اللغة المقصودة بالاستعمال، وهي ما تمثل حسب نظرية النحو الوظيفي الدلالة المعجمية.

1 - ب. معرفة نحوية: **grammatical knowledge**: وتتمثل في معرفة القواعد والمبادئ النحوية

للغة المستعملة، التي تمكن من تركيب الوحدات اللغوية، وبناء عبارات أو خطابات لغوية صحيحة، وتشمل المستوى الصرفي - التركيبي للغة.

¹ - أحمد المتوكل، الخطاب وخصائص اللغة العربية دراسة في الوظيفة والبنية والنمط، ص 14.

- ج. معرفة صوتية: (البعد الصوتي التطريزي): **phonemic knowledge**: تخص هذه المعرفة النظام الصوتي الذي تتميز به اللغة، إذ تتيح معرفة مكوناته وخصائصه، والقوانين التي تضبط استعماله، إمكانية الإنجاز اللغوي السليم سواء في بعده المنطوق أو المكتوب، ولا بد أن هذا ما يتعلق في حالة ما إذا كان الخطاب منطوقاً بمعرفة الخصائص النبرية والتنغيمية، لا سيما في اللغات التي تعتمد على هذين الظاهرتين، كاللغة الصينية مثلاً.

2 - الملكة التواصلية:

يتعلق الأمر هنا بمرحلة توظيف اللغة أو ما يمكن أن نطلق عليه (مرحلة الإنجاز الخطابي)، التي تقتضي من منتج الخطاب معرفته بقوانين الخطابية (الخطاب التواصلية الناجح) وشروطها، وذلك ما يدخل في إطار (المعرفة الخطابية). وهي حسب رأينا (معرفة تداولية) (**pragmatic knowledge**))، ويمكن تنميطها إلى:

2 - أ. معرفة اجتماعية: **social knowledge**: ونقصد بها النسق الثقافي الاجتماعي الذي يخص لغة معينة، إذ يجب على مستعمل الخطاب معرفة ذلك النسق وبناء خطابه، وفقاً للخصائص والسمات التي تميز لغة الخطاب المنجز.

2- ب معرفة حالية: وتعني خصائص الوضع التخاطبي أو سياق الحال (السياق الخارجي) الذي ينجز في إطاره الخطاب.

تعكس هذه المعارف مفهوم (القدرة التواصلية) باعتبارها "معرفة مستعملي اللغة لنسق اللغة وللقواعد التي تضبط هذا النسق في مختلف أنماط التواصل اللغوي"¹، وذلك ما يشمل المعرفة اللغوية النسقية والمعرفة الخطابية، ويشكلان معاً أساس إنتاج الخطاب وتأويله، وهو ما عنيت بتوضيحه نظرية النحو الوظيفي من خلال نموذج مستعملي اللغة، مبينة أن إنتاج الخطاب وتأويله يتم عبر نظام الملكات والقوالب.

4 - إنتاج الخطاب:

يمثل الفعل الإنتاجي للخطاب المرحلة العملية الرئيسة، التي تبني وتظهر على إثرها الممارسة الخطابية التواصلية، وهو ما يبرز الدور المركزي الذي تحتله الذات الفاعلة المنشئة له (المتكلم/ الكاتب)، حيث نقف من خلالها على الخلق والإبداع أين تظهر حركية اللغة، التي تستعمل من أجل تحقيق مقاصد وأبعاد تداولية متعددة، إذ تعد "اللغة وسيلة من وسائل الاتصال التي يعبر بها كل عن مقاصده ولا تظهر تلك اللغة إلى الوجود دون استعمال

¹ - أحمد المتوكل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، ص 499.

المرسل لها وتحديدها من الوجود المضممر بالعقل إلى الوجود المعلن بالفعل لذلك يعد المرسل محور إنتاج الخطاب، سعيا إلى إشباع رغباته واهتماماته، وكل ذلك من أجل أن يعبر عما يجول في نفسه من مقاصد وغايات يسعى إلى تحقيقها من خلال خطابه"¹.

أولت الدراسات الغربية الحديثة مرحلة إنتاج الخطاب اهتماما كبيرا دعت إليه ضرورة إعادة الاعتبار للمنتج وتأکید فاعليته، لاسيما بعد الأثر السلبي الذي أحدثه رولان بارت **roland barth** (1915 - 1980) من خلال طرحه المعروف بـ: "موت المؤلف" الذي أسس له من خلال مقاله الصادر سنة 1968 تحت عنوان: ("موت المؤلف" "la mort de l'auteur")؛ فقد ركز على نفي دور المؤلف وحقيقة ارتباطه بالنص، إذ يجب حسب رأيه قراءة النص كما هو من خلال فصله عن منتجه، حيث يرى "أن نسبة النص إلى مؤلفه معناه إيقاف النص وحصره وإعطائه مدلولاً نهائياً"².

والحقيقة يرجع موقف إلغاء دور المؤلف وعلاقته بالعملية الإبداعية إلى ملارميه (Mallarmé) (1842 - 1898). فهو أول من وثق لمبدأ استقلال اللغة وانفراد نظامها بخاصية الإبداعية؛ "فاللغة في رأيه هي التي تتكلم، وليس المؤلف، فالنقد عنده يدور، بمجموعه، حول إلغاء المؤلف لصالح اللغة والكتابة"³. وهذا ما أقره بالنظر إلى طبيعة اللغة المؤسسية وقدرتها اللامتناهية على الخلق، "فلم يعد المؤلف هو الذات المليئة بالمعاني المدركة التي لا تزال خاصة والتي تستغل هذه المعاني لغرضها على الملأ"⁴، فاللغة هي ما تتيح له ذلك، وهذا ما يعني عدم الاعتراف بقدرة المؤلف ومجهوده الذي يتكبده في بناء عمله اللغوي.

تتوجه مقولة موت المؤلف نحو الإقرار بأن التعامل مع اللغة يجب أن يكون بالتركيز على نسقها الداخلي المغلق فقط، إذ يجب أن نتناول المنجز اللغوي في بعده الشكلي المحض، وقد ألح بارت على ذلك وهو ما يعكس التصور الذي قدمته البنيوية وكذا السيميائية؛ فقد "أعلن معا موت المؤلف والمرجع، واستبدلتها بالنص، أو العلامات اللغوية والبصرية. فإذا كانت البنيوية تقوم على التفكيك والتركيب، وتركز على النص في انغلاقه

¹ - أحمد فهد صالح شاهين، النظرية التداولية وأثرها في الدراسات النحوية المعاصرة، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد - الأردن، ط1: 2015، ص12.

² - رولان بارت، درس السيميولوجيا، تر: عبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال، المغرب، ط3: 1993، ص 86.

³ - ينظر: جميل حمداوي، أنواع المؤلف في النقد الأدبي، دار الريف للطبع والنشر الإلكتروني، الناظور - تطوان/ المملكة المغربية، ط2: 2020، ص 17.

⁴ - ينظر: جون ستروك، البنيوية وما بعدها من ليفي شتراوس إلى ديريدا، تر: محمد عصفور، عالم المعرفة، الكويت، ط: 1996، ص 81.

النسقي، فإن السيميوطيقا لا تباي بالمؤلف ولا بما يقوله النص فما يهمها هو شكل المضمون"¹، حيث تعمل وفق المنهج الشكلي الذي يركز على الدراسة المغلقة لسياق النص اللغوي.

لم تكن مقولة موت المؤلف عند أغلب النقاد الغربيين سوى تطرفا، يعبر عن الفهم الخاطئ للعملية الإبداعية، إذ يؤدي إقصاء مصدرها إلى تضيق أفق الإبداع الأدبي وتشويه مساره، ولذلك عُدد العمل على تقويضها أمرا ملحا، في مقابل مسعى بناء مقاربات بديلة تهتم بالمنتج (المؤلف) وتقف على أهميته، إذ لا يمكن بحال إقصاء الذات الفاعلة في تعاملنا مع العمل الأدبي، وهذا ما أقره بارت في ما بعد.

فتح الوقوف على دور المنتج المجال لظهور آفاق جديدة تم التركيز فيها على عملية الإنتاج اللغوي بكل جزئياتها ومختلف أنواعها؛ فقد تمت معالجة مسائل متعددة لعل أهمها: المراحل التي تمر بها تلك العملية، والآليات التي يوظفها المنتج ويستند عليها في بناء خطابه، الذي يخضع فيه لقوانين محددة، ويعتمد فيه على إستراتيجية (أو إستراتيجيات) معينة تمكنه من الوصول لغاياته التي يريد الوصول إليها، وذلك باعتبار "الخطاب المنجز خطابا مُحْطَطًا له بصفة مستمرة وشعورية"²، وقد مثل العمل على تقديم إجابة دقيقة عن الأسئلة المتعلقة بكيفية تعامل مستعمل اللغة مع لغته، وتوضيح التقنيات التي ترافق إستراتيجيته في بناء خطابه المتنوعة الهدف الذي تشكلت على إثره العديد من البحوث والاتجاهات الغربية.

وفي الواقع يعد ما قدمه سوسير من خلال حديثه عن دورة التخاطب (أو الكلام)، من أولى الإشارات التي تطرقت لتلك الجوانب؛ حيث قدم وصفا علميا دقيقا لعملية التخاطب وعناصرها (المتكلم، السامع، السياق (أو المرجع))، موضحا الدور البنائي لصاحب الخطاب. إلا أن تركيزه على اللغة دون الكلام الذي يمثل (الجانب الإنجازي الاجتماعي)، منعه من التعمق في عملية الإنتاج. وذلك ما عنيت به بحوث نظرية أخرى كنظريات تحليل الخطاب، ونظريات التواصل، والنظريات التداولية الوظيفية على سبيل ما نجده في (نظرية النحو الوظيفي).

5 - مراحل إنتاج الخطاب في نظرية النحو الوظيفي:

لقد بين الوظيفيون أن "الخطاب نموذج حركي ذو مراحل مختلفة تقتضي كل مرحلة منها من المعلومات ما لا تقتضيه الأخرى"³، وهذا ما دفعهم إلى العمل على التحديد الدقيق لتلك المراحل، وقد اعتمدوا في ذلك على ما

¹ - ينظر: جميل حمداوي، أنواع المؤلف في النقد الأدبي، ص 17.

² - عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ليبيا، ط: 2004، ص 56.

³ - أحمد المتوكل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، ص 509.

قدمه (ليفلت)، محاولين إسقاط ذلك على نموذج مستعملي اللغة، وقد انتهوا إلى أن منتج الخطاب يمر بالمراحل الآتية:¹

- أ - انتقاء الهدف التواصل الذي يسعى في تحقيقه.
 - ب - انتقاء الفحوى الدلالي الذي يراه الأنسب لتحقيق هدفه.
 - ج - انتقاء الصورة (النحوية الصوتية) المناسبة.
- لقد أضاف أحمد المتوكل لهذه المراحل مرحلة أخرى، وهي مرحلة قرار الدخول في عملية التخاطب وانتقاء إطارها النمطي والأسلوبي، وهو ما يدخل في إطار (المستوى البلاغي). وبناء على ذلك حدد مراحل إنتاج الخطاب على النحو الآتي:²

- أ - انتقاء النمط التواصل وإطاره العام (المركز الإشاري، الأسلوب ..).
- ب - تحديد القصد التواصل (إخبار، سؤال، وعد، وعيد، أمر ...).
- ج - انتقاء الفحوى الدلالي المراد ترميزه والذي يلائم القصد التداولي.
- د - صياغة القصد والفحوى في بنية صورية مناسبة.

5 - 1. انتقاء مركز الخطاب:

ينتقي المنتج (متكلم/ كاتب) في هذه المرحلة المركز الإشاري الذي يبنى عليه خطابه، وحسب ما وضحته نظرية النحو الوظيفي فإن هذا الجانب يتضمن مجموعة عناصر تتمثل في: "المتكلم، المخاطب، ومكان التخاطب وزمانه، كما يتضح في الصياغة التالية: المركز الإشاري ك، خ، زم، م هـ . حيث: ك = متكلم، خ = مخاطب، زه = زمان التكلم، م هـ = مكان التكلم"³، وهذا ما يستدعيه البعد الوظيفي التداولي الذي يشكل الاستعمالات الخطابية، وهو ما يدخل في إطار ما يعرف بالمقام الذي يتضمن كل ظروف وحيثيات الإنتاج، ويمكن القول بالنظر إلى أنماط الخطابات إنه نوعان: (حقيقي) و(افتراضي) وهو ما نجده في الخطاب الأدبي التخيلي؛ حيث تكون أغلب عناصره من نسج الخيال، والذي يعد فيه المتكلم بعد فعل الكتابة ساردا وهو ما وصفه بنفنست بأنه شخصية من ورق. وعلى العموم فإن المتكلم يختار مركزا إشاريا محددا يتضمن (المخاطب، والزمان، والمكان).

¹ - أحمد المتوكل، الوظيفية بين الكلية والنمطية، ص 32.

² - المصدر نفسه، ص 53.

³ - ينظر: المصدر نفسه، ص 227.

وضح المتوكل تأسيسا على ما بينه سيمون ديك "أن المركز الإشاري بعناصره الأربعة ليس تمثيلا للمقام الفيزيائي فحسب، بل إنه يمثل كذلك لما يمكن تسميته "الفضاء المعرفي" الذي يشكل "سمة من سمات العالم المعرفي المحدد ثقافيا ونفسيا"¹.

حيث يخص مفهوم المعرفي هنا الجانب الثقافي والنفسي الذي يتميز به صاحب الخطاب، إذ يتدخل ذلك في تكوين خطابه، وهذا ما يجب على المتلقي - من منظور وظيفي - الوقوف عليه أثناء عمليات التحليل والتأويل، إذ يبحث عن ثقافته وحالته النفسية التي ارتبطت بإنجاز الخطاب.

5 - 2. انتقاء نمط الخطاب:

يركز المنتج في هذه المرحلة على الاختيار الدقيق للنمط الخطابي الملائم والمتعلق ونوع خطابه - عاديا كان أم أدبيا - بما يحمله من مضان وقضايا محددة، ذات أبعاد مختلفة يريد التعبير عنها، حيث يجب أن يكون النمط قادرا على استيعاب وإيواء ما يريده المنتج. ولا بد أن نشير هنا إلى حقيقة تعدد الأنماط في الخطاب الواحد وهو حال الخطابات الأدبية الحديثة؛ كالرواية مثلا حيث يمكن أن يجمع الروائي بين عدة أنماط: النمط الإخباري، والنمط الوصفي والنمط السردى. على أن لا ينفي ذلك وجود النمط الغالب (كالنمط السردى مثلا). وفي الواقع لقد ظهرت في العصر الحديث ظاهرة تداخل الأجناس وتداخل الأنماط.

5 - 3. انتقاء أسلوب الخطاب:

يسعى المنتج في الغالب إلى تقديم خطابه وفق طريقة معينة تكون خاصة، لا سيما إذا تعلق الأمر بهدف التأثير الإمتاعى أو الإقناعى الذى يقتضى خطابا نوعيا جديدا، وهذا ما يدخل في إطار الأسلوب المعتمد. و"يطلق على كل نهج في استعمال اللغة يتسم بالخصوصية وقدر كبير من الاستقلال. ولا تكمن هذه الخصوصية في المعجم فحسب، بل كذلك في باقى مستويات اللغة كالدلالة والتركيب والتداول"²، حيث يكون استعمال اللغة استعمالا وظيفيا بطريقة خاصة، فلكل خطاب دلالة وتركيب وسياق وظيفي يتميز به.

تتعلق مرحلة انتقاء الأسلوب في نظرية النحو الوظيفي بطريقة التعبير اللغوي، ولعل من أهم مميزاتا أنها مرحلة ذهنية؛ حيث تجري على مستوى الذهن أولا، إذ يقوم المنتج بعدة انتقاعات تعبيرية (معاني، كلمات،

¹ - ينظر: أحمد المتوكل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، ص 392

² - ينظر: المصدر نفسه، ص 490.

عبارات)، قبل التحقيق الفعلي الصوري لها (الصوتي أو الكتابي)، وهي مرحلة وظيفية ترتبط بالقصد وتكون موجهة بناء على خصائص السياق التواصلية بما في ذلك المتلقي. ويرتبط إنجاز هذه المرحلة ارتباطاً وثيقاً بنمط الخطاب. إذ يخضع الأسلوب للنمط الخطابي.

5 - 4. تحديد القصد التواصلية:

يتطلب استعمال أي خطاب وجود هدف معين يوجه ذلك الاستعمال ويحدد إستراتيجيته، وذلك بالمعنى الذي يكون فيه الخطاب تقنية لبلوغ المقاصد وحصول الإيجابية من خلاله. فلكل خطاب هدف ما يعبر عن مقصدية صاحبه، وبالنظر إلى ذلك وجب على المتكلم بناء خطابه على أساس مقصدي محدد يسعى لتحقيقه، حيث يعد مراعاة هذا الأمر من معايير الخطابية (تنظيماً ونجاحاً)؛ إذ "لا وجود للتواصل عن طريق العلامات دون وجود قصدية وراء فعل التواصل"¹، فخطاب بدون مقصدية (أو قصدية) يعني مجموعة من العلامات اللغوية المضطربة، التي تخرج عن المعقول وتدخل في إطار اللامعقول. فهي "الخاصية لكثير من الحالات والحوادث العقلية التي تتجه عن طريقها الأشياء وسير الأحوال في العالم أو تدور حولها أو تتعلق بها"²، إذ إن كل أعمالنا صادرة عن قصد ما.

لقد ربط جون سورل حصول النتيجة المبتغاة من الكلام بمعرفة المتلقي للقصد والغرض؛ حيث يقول: "عندما أتكلم، فأنا أحاول إيصال بعض الأشياء إلى مخاطبي بدعوته إلى التعرف على مقصدي من توصيل تلك الأشياء بالذات، وأتحصل على الأثر المنتظر عندما أدعوه إلى معرفة غرضي من تقديم هذا الأثر له، وما إن يتعرف على ما في غرضي الحصول عليه، حتى تتحقق النتيجة عموماً"³، فلكي يكون الفعل الكلامي (الخطابي) فعلاً كاملاً لا بد من تضمينه على قصد معين. وهذا بالإضافة إلى العناصر الأخرى (كالفحوى الدلالي مثلاً).

ركزت نظرية النحو الوظيفي على عنصر القصد وذلك باعتباره من أهم مكونات الفعل الخطابي الوظيفي الناجح، حيث إن المخاطب يعمل عبر ما يوجهه من معاني وأفعال لغوية لتوجيه مقصد ما، ولذلك عُدت عملية تحديد أو انتقاء القصد في إطار نموذج مستعملي اللغة الطبيعية من أهم مراحل إنتاج الخطاب. وهو ما يعمل المتلقي على استكشافه ومعرفته.

¹ - عبد الهادي بن ظافر الشهري، إستراتيجيات الخطاب، ص 30.

² - صلاح إسماعيل، فلسفة العقل، دراسة في فلسفة سيرل، دار قباء الحديثة، القاهرة، ط: 2007، ص 229.

³ - ينظر: جون سورل، الأعمال اللغوية بحث في فلسفة اللغة، تر: أميرة غنيم، مراجعة: محمد الشيباني، دار سيناترا، تونس، ط: 2015، ص 83 و 84.

5 - 6. انتقاء الفحوى الدلالي:

يتوقف تكوّن نسق الخطاب التعبيري في مرحلته الأولى على جانبه الدلالي، حيث يُعد هذا الأخير روح الخطاب إذ هو ما يؤدي إلى اشتغاله؛ ويتضمن شحنات ومضام دلالية متعددة تصب مجملها في إطار ما يعرف بالفحوى الدلالي، الذي يتماشى وقصد صاحب الخطاب؛ إذ يتحكم القصد في نوع الدلالة. فعلى المنتج أن يختار دائما الدلالة التي تخدم مقاصده وأغراضه وتعبر عنها أقوى تعبير قادر على التأثير في المتلقي.

يتحكم غرض المنتج في كيفية ورود المكون الدلالي الذي يحمل ذلك الغرض، وهو ما يكون في الأصل قضية ما يراد من خلالها إبلاغ (أو إخبار) المتلقي بأمر معين، أو حمله على القيام بفعل ما، ولذلك يشترط أن يكون الفحوى الدلالي **فحوى قضويا**، ويعد هذا الأخير الطريق الذي يهيم تمرير الحمولة الإنجازية التي يتأسس عليها الفعل الخطابي؛ ويتعلق الأمر هنا بـ **(القوة الإنجازية)** التي تعد المكون المحرك لذلك الفعل، إذ يدخل المنتج عبرها إلى مرحلة الإنجاز.

تعبّر القوة الإنجازية عن غرض المخاطب الذي يتضمنه الخطاب، وهو ما يعمل على تحقيقه من طرف المتلقي، وذلك ما يطابق الفعل الإنجازي في نظرية الأفعال الكلامية، وقد تم التفريق ضمن بحوث النحو الوظيفي بين القوة الإنجازية والنمط الجملي؛ حيث يعد هذا الأخير "الصنف الذي تنتمي إليه الجملة صرفيا وتركيبيا وتنغيميا، وقد ميز سيمون ديك بين أربعة أنماط، الجمل الخبرية والاستفهامية والأمرية والتعجبية"¹. إذ يرتبط كل نمط بسياق مقامي معين. وهو حال القوة الإنجازية التي توابكه، ويجب الإشارة هنا إلى أنه قد تحصل داخل الفعل الخطابي الواحد مطابقة بين النمط والقوة، وذلك في الحالات التي تكون فيها صريحة أو حرفية، إلا أنه قد يحدث في بعض السياقات أن يكونا مختلفين؛ حيث يدل النمط على غرض ما بينما تدل القوة الإنجازية على غرض آخر. وتعد هذه القوة مضمرة أو مستلزمة، وتأسيسا على ذلك ميزت نظرية النحو الوظيفي بين نوعين للقوة الإنجازية:²

أ - **القوة الإنجازية الحرفية**: قوة تطابق النمط الجملي مدلول عليها بطريقة مباشرة بصيغة العبارة اللغوية في

مختلف المقامات، التي يمكن أن ترد فيها مرتبطة. كالسؤال مثل: من حفظ قصيدة المتنبي؟

ب - **القوة الإنجازية المستلزمة**: قوة إنجازية غير مطابقة للنمط الجملي تتولد طبقا لمقتضيات المقام، مثل: الحر

¹ - ينظر: أحمد المتوكل، الخطاب وخصائص اللغة العربية، ص 50.

² - ينظر: محمد الحسين ملبطان، نظرية النحو الوظيفي الأسس والنماذج والمفاهيم، ص 117 و 118.

شديد خائق في هذه الحجرة. حيث يخرج غرض المتكلم هنا عن الإخبار إلى طلب فتح النافذة أو طلب إشعال المكيف مثلاً.

وتكون هذه القوة ناتجة عن نوعين مختلفين من الاستلزام: استلزام مقالي و استلزام مقامي.

- **القوة الإنجازية المستلزمة مقاليا:** وهي قوة "تنعكس بشكل من الأشكال في خصائص الجملة المعجمية أو الصرفية - التركيبية أو التنغيمية"¹، مثل: أو أنهيت كتابة الأطروحة؟! يعد التنغيم في هذه الجملة التي تحمل قوة إنجازية مستلزمة تتمثل في التعجب الذي يخرج عن السؤال، مؤشرا لتلك القوة. وهذا ما يتجلى صوتيا أي إذا كانت الجملة منطوقة. أما بالنسبة للمؤشرات التركيبية فتتمثل في حرف الاستفهام (أو)

- **القوة الإنجازية المستلزمة مقاميا:** وهي قوة "متولدة عن المقام، دون أن تؤثر إليها قرينة صورية داخل الجملة"²، مثل: الجو جميل رائع اليوم. تتعدى هذه الجملة الإخبار المحض إلى طلب الخروج في نزهة (مثلاً).

تعد ظاهرة تعدد القوى الإنجازية في نظرية النحو الوظيفي، من أهم المعايير التي يتم التفريق على أساسها بين الخطاب الذاتي والخطاب الموضوعي، حيث تم تبين أن "إمكانية ذلك لا تتأتى إلا حين يكون الخطاب من النمط الذاتي كالخطاب الحواري. أما في الخطاب الموضوعي، سرديا كان أم وصفيا، فإن قوة الجمل الإنجازية تكون واحدة ولا تكون إلا إخبارا. فلا استلزام إنجازيا في هذا النمط من الخطابات؛ إذ ترد فيه الجمل الإخبارية (الاستفهامية أو الأمرية) فقط؛ ومرد ذلك أن في السرد أو الوصف الموضوعيين تنقلص العلاقة بين المخاطبين، وقد تمنحي فتصبح عمليتا السرد والوصف عمليتين آليتين وكأن الأحداث تسرد نفسها"³، ولعل هذا ما يقود إلى حقيقة كون الخطاب الذاتي من أهم الخطابات الأكثر تواترا في المعاملات الوظيفية الاجتماعية التواصلية، لدى مستعمل اللغة الطبيعية، حيث يبتغي عبرها إنجاز فعل محدد من قبل المتلقي، وهذا ما لا نجده في الخطاب الموضوعي سواء السرد الذي يركز فيه على سرد وقائع وأحداث ماضية، أو الوصفي الذي يقوم على وصف أشخاص أو أشياء مادية أو حية معينة. وقد وضع الوظيفيون أن القوة الإنجازية المستلزمة قد تتعرض إلى ظاهرة التحجر.

¹ - أحمد المتوكل، الخطاب وخصائص اللغة العربية، ص 50.

² - المصدر نفسه، ص 51.

³ - ينظر: أحمد المتوكل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، ص 403.

5 - 6 - 1. القوة الإنجازية المستلزمة وظاهرة التحجر:

يتضمن الفعل الخطابي الذي يحتوي على قوة إنجازية مستلزمة معينين: معنى حرفي ومعنى مضمّر يشكل أصل ذلك الفعل، إذ هو ما يمثل المعنى الذي يعبر عن قصد المخاطب، وبين هذه الثنائية يكون عمل المتلقي، حيث ينتقل من المعنى الأول إلى المعنى الثاني. إلا أنه قد يمكن له أن يتعامل مع تلك القوة مباشرة، حيث تفقد صفة الإضمار من خلال عامل كثرة الاستعمال أين تلحقها ظاهرة التحجر وذلك ما يكون عبر مراحل¹:

1 - تلحق القوة المستلزمة في المرحلة الأولى بالقوة الحرفية على أساس أنها قوة ثانوية قابلة للإلغاء. وفي هذه المرحلة تكون الغلبة للقوة الحرفية.

2 - في المرحلة السابقة تظل القوة المستلزمة مرتبطة بالمقام بحيث يمكن أن ترد في مقامات وأن تعلق (أم تلغى) في مقامات أخرى، وتنتقل مع الاستعمال تدريجياً من وضع قوة ثانية إلى وضع قوة أولى فتصبح القوتان متساويتان من حيث الأهمية، حيث يمكن عدّها قوتين حرفيتين للعبارة الواحدة.

3 - لا تلبث القوة المستلزمة أن تغلب القوة الحرفية الأصلية فتتزعج إلى محوها فتصبح القوة الحرفية الوحيدة.

يمكن توضيح ذلك بالجملة الآتية: هل يمكن أن تعبرني هذا الكتاب ؟

- المرحلة الأولى: تتضمن الجملة قوة إنجازية حرفية تتمثل في: السؤال ومؤشره أداة الاستفهام (هل)، وقوة إنجازية مستلزمة تتمثل في: الطلب.

- المرحلة الثانية: لا تكون القوة الإنجازية المستلزمة عند المتلقي قوة ملتبسة، حيث يفهم أن قصد المتكلم من ذلك هو السؤال بغرض الطلب، وهذا ما يجعل الجملة تتضمن قوتين إنجازيتين حرفيتين: السؤال والطلب.

- المرحلة الثالثة: يصبح الطلب على أساس ذلك قصد المتكلم، حيث يتجاوز السؤال عن إمكانية المتلقي إلى تحقيق فعل إنجازي تتمثل في فعل الإعارة، وهو ما يمثل القوة الإنجازية الأصلية، وذلك ما يؤدي إلى انمحاء السؤال. ولا شك أن كثرة استعمال هذه التراكيب وغيرها؛ ما يعني الاعتياد عليها في ذهن المتلقي هو ما يؤدي إلى تحجرها، أي انتقالها من الوضع المستلزم إلى الوضع الحرفي الصريح.

5 - 7. انتقاء صورة الخطاب:

تتعلق هذه المرحلة بمستوى الخطاب الشكلي (الصرفي - التركيبي) - وتتمحور حول صياغة الفحوى - فعلى المنتج وفقاً لمبدأي الاختيار والمناسبة أن يختار بدقة مكونات القالب الصوري الخطابي، الذي يريد من خلاله

¹ - ينظر: قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، ص 134.

التعبير عن مقاصده؛ إذ يُشترط أن تكون العبارات والأساليب المصاغة مناسبة (ملائمة) للدلالات المقصودة، وهذا ما يفرض ضرورة مراعاة وحدة الاتساق والانسجام دلالة وتركيبا.

يقتضي نظام الخطاب احترام العلاقة التلازمية بين فحوى الخطاب وصورته، بشرط تبعية هذين الأخيرين لمكون القصد، إذ يعد الخطاب بناء تخطيطيا يقوم تشكيله على تسلسل تلك المكونات كما هو موضح في الصياغة الآتية:¹

قصد ← فحوى ← نطق

تبين نظرية النحو الوظيفي من خلال هذه المراحل أن مستعملي اللغة الطبيعية، ينتقلون في عملية إنتاج الخطاب من البناء الذهني إلى التحقيق الصوري، إذ تؤول تلك المراحل - حسب رأينا - إلى مرحلتين هما:

1- مرحلة ما قبل الإنجاز: تشمل مختلف الاستراتيجيات والاختيارات الضمنية، التي يقوم بها المنتج وهي ذات طبيعة ذهنية، وتعلق باختيارات المستوى البلاغي، والمستوى العلاقي، والمستوى الدلالي.

- مرحلة الإنجاز: وهي مرحلة النطق أو التحقيق الصوري للخطاب (صوتا أو كتابة)، وتعلق بالمستوى الصرفي - التركيبي.

6 - آليات إنتاج الخطاب في نظرية النحو الوظيفي:

تعكس تلك المراحل مستويات بنية الخطاب النموذج التي قدمها أحمد المتوكل في نحو الطبقات القالي، وذلك ما يمكن أن ينطبق أيضا على بنية الخطاب كما صيغت في نموذج مستعمل اللغة (ديك 1989) بمستوياتها الثلاثة، التي ينتقل فيها المنتج من المضمّر إلى السطحي الظاهر، إذ يتم الانتقال من المستوى التداولي (العلاقي) إلى المستوى السطحي - التي تمثله البنية المكونية - مروراً بالمستوى الدلالي (التمثيلي)، ويتطلب ذلك تحقيق اتساق وانسجام الخطاب.

تعد التراتبية التي تميز مراحل إنتاج الخطاب اتساقا وانسجاما يُستشف من خلال مرحلة التمثيل الصرفي - التركيبي، التي تتدافع وتصب في إطارها جل إستراتيجيات تلك المراحل، وذلك ما يشتغل عليه المنتج إذ يصبح اهتمامه متمركزا حول صورة الخطاب، أين يعمل على تجسيد مطالب مكونات طبقات المستوى الدلالي وطبقات المستوى التداولي، حيث يحرص على ترابط البنية بالوظيفة، وذلك ما يتأسس في إطار نموذج مستعمل اللغة

¹ - أحمد المتوكل، الخطاب المتوسط مقارنة وظيفية موحدة لتحليل النصوص والترجمة وتعليم اللغات، ص 43.

(الخطاب) على (اتساق داخلي) "تتضافر في خلقه وضمان استمراره العناصر القائمة بين بنية الخطاب"¹، و (اتساق خارجي) "يربط الخطاب بالعالم الذهني الذي يواكبه ويشكل مرجعيته (أيا كانت طبيعة هذا العالم الذهني)"².

1 - الاتساق الداخلي: ويقوم على آليات هي:

1 - أ. العلاقات الوظائف: وتتمثل في:

- الوظائف الدلالية: (منفذ، متقبل، مستقبل، مستفيد، علة ..).
 - الوظائف الوجهية (أو التركيبية): (فاعل، مفعول).
 - الوظائف التداولية: (داخلية (محور، بؤرة)، وخارجية (مبتدأ، ذيل، منادى)).
 - ربط البنية التحتية بالبنية المكونية: ويتم بين الوظائف الثلاث بحيث يختص كل نوع منها بجانب معين، وذلك على النحو الآتي³
 - تشكل الوظائف الدلالية الدخل الرئيس للقواعد المسؤولة عن إدماج الحروف.
 - تحدد الوظائف الوجهية الحالات الإعرابية التي تسند إلى الحدود الحاملة لها.
 - تحدد الوظائف التداولية رتبة المكونات.
- يضمن هذا الربط الذي تقوم به الوظائف على اختلافها، ترتيب عناصر البنية، وتنظيم العلاقات القائمة بينها، ليساهم ذلك في تشكيل خطاب سليم على مستوى التركيب والدلالة.

- الربط داخل البنية التحتية: وهو ثلاثة أنواع:⁴

- أ - ربط داخلي: يتم بين عناصر البنية التحتية.
- ب - ربط محلي (أو جزئي): يتم داخل وحدة خطابية واحدة، وتقوم به الوظائف الدلالية والوجهية، حيث تقوم برصد العلاقات التي تقوم بين عناصر الوحدة الخطابية وعلى الخصوص بين رأس الوحدة وتوابعه، موضوعاته، ولواحقه.

¹ - أحمد المتوكل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، ص 578.

² - أحمد المتوكل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، ص 578.

³ - ينظر: المصدر نفسه، ص 567.

⁴ - ينظر: المصدر نفسه، ص 569.

ج - ربط كلي: يتم بين وحدتين خطابيتين أو وحدات خطائية متعددة، وتتكفل به الوظائف الدلالية والتداولية حيث تقوم بخلق الاتساق وضمان استمراره.

والواضح أن الربط داخل البنية التحتية مراتب؛ إذ ينتقل من مستوى العناصر اللغوية فيكون محليا أو جزئيا، إلى مستوى الوحدات اللغوية الخطائية الكبرى حيث يكون ربطا كليا.

1 - ب. القيود:

تخضع بنية الخطاب في إطار نظرية النحو الوظيفي لمجموعة من القيود التي توضح للمنتج كيفية تشكيلها، وهذا ما ينطبق على قيود الانتقاء أو قيود التوارد، و"يتم بمقتضاها انتقاء الموضوعات الملائمة"¹، حيث تعنى بكشف "إمكانية ورود المكونات داخل الجملة بالنظر إلى العلاقات الدلالية على الخصوص"²، إذ تشرف على تنظيم العلاقات الدلالية القائمة بين مكونات الخطاب، والتي على أساسها تكون صحته الدلالية العقلية لدى المتلقي. مثل: (أ) قرأ الطالب رواية.

ينتج محمول الجملة الفعل (قرأ)، موضوعه الأول والثاني على أساس أنهما يتضمنان سمة إنسان، كما هو واضح في الإطار الحملي الآتي:

ق. ر. أ (فَعَلَ) ف [س1: إنسان] منف (س2: إنسان)) متق.

بمقتضى هذا القيد يمكن إنتاج جملا من قبيل الجملة (أ) باعتبارها جملة صحيحة غير مخالفة لنظام الربط الدلالي الذي يقره قيد التوارد، ولا يمكن إنتاج جمل من مثل:

ب - قرأ الكرسي رواية.

ج - قرأ الطالب خزانة.

فقد تم خرق قيد التوارد في هذين الجملتين وهذا ما يجعلهما لاحتين.

2 - الاتساق الخارجي: ومن أهم آلياته:

2-1. العلاقات الإحالية:

تعد الإحالة "علاقة تربط البنية بالعالم الخارجي (بتمثيل ذهني له)، إلا أن خارجيتها لا تنزع عنها كونها علاقة خاصة، ولهذه العلاقة تأثيرا (صرفيا وتركيبيا) في البنية"³، فلإحالة وظيفة تتمثل في ربط بنيتي الخطاب

¹ - أحمد المتوكل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، ص 595.

² - محمد الحسين ملبطان، نظرية النحو الوظيفي الأسس والنماذج والمفاهيم، ص 119.

³ - ينظر: أحمد المتوكل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، ص 414.

الداخلية والخارجية (العالم الخارجي)، وتقوم على عنصرين: (المحال والمحال عليه)، حيث يعد الأول تحقيقاً لغويا يدل على عنصر خارجي، وتشكل أي إحالة معينة واقعة في خطاب ما علاقة خاصة، وذلك بالنسبة لذلك الخطاب، إذ تتغير الإحالة من خطاب لآخر وهذا بالنظر إلى عوامل مختلفة، تكون بين بنية ودلالة الخطاب وسياقه الوظيفي، الذي يكون المخاطب أبرز عناصره. وقد عرّف ديك الإحالة بأنها "فعل تداولي يربط بين أربعة عناصر: الخطاب وما يحيل عليه حضوراً أو ذكراً والمتخاطبين والمخزون الذهني الذي يعتقد المتكلم توافره لدى المخاطب إبان التخاطب"¹، ولا بد أن ذلك يكون مختلفاً بين الخطاب الآني المباشر والخطاب غير المباشر؛ حيث يكون اعتقاد المتكلم عن المخزون الذهني عند المخاطب الحاضر، أقوى منه مقارنة بالمخاطب الغائب الذي يكون في الغالب مفترضا غير معروف. والإحالة عند ديك أنواع:

- **إحالة بناء:** تكون "حين يقصد بها حمل المخاطب على تمثيل ذات غير متوافرة لديه"²؛ أي ذات مجهولة نكرة مثل: رأيت بنتاً.

- **إحالة تعيين:** وتقوم على "حمل المخاطب على التعرف على ذات يتضمنها مخزونه الذهني"³؛ أي ذات يعرفها متوافرة في مخزونه الذهني المعرفي مثل: ضربت اليوم من ضربك البارحة.

- **إحالة الموضوعة:** وهي "الإحالة التي تحدد موقع المحال عليه بالنظر إلى المركز الإشاري"⁴، وهي نوعان: إحالة حضور وإحالة ذكر.

- **إحالة حضور:** وهي ما يحيل من خلالها المخاطب "على موقع في موقف التواصل"⁵، ومن أهم آلياتها المعتمدة الإشارة مثل:

- أعطني هذا المعطف.

- أعطني ذاك المعطف.

- أعطني ذلك المعطف.

- **إحالة ذكر:** وتتعلق بالسياق الداخلي (اللغوي)، إذ إنها "إحالة على وارد في خطاب سابق"⁶، ففي قول

¹ - أحمد المتوكل، الخطاب وخصائص اللغة العربية، ص 78.

² - المصدر نفسه.

³ - المصدر نفسه.

⁴ - ينظر: المصدر نفسه، ص 80

⁵ - المصدر نفسه، ص 81.

⁶ - المصدر نفسه.

الشاعر: إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإذا أكرمت اللئيم تمردا

يعد ضمير الهاء في كلمة (ملكته) إحالة ذكر تعود على الكريم، حيث تُمكن من عدم ذكره مرة أخرى.

نتبين من خلال ذلك أن من أهم خصائص الإحالة هو تبعيتها للوضع التخاطبي القائم بين المتخاطبين، إذ إن ذلك ما يتحكم في استعمالها وكيفية إيرادها، وعلى قدر احترام المخاطب لتلك التبعية يكون الاتساق الجيد لخطابه، وهو الأمر الذي يضمن له تحقيق غرضه - الذي يظهر في الغالب كفعل تداولي إنجازي، من قبل المخاطب - وإفهام المعنى بالإرسال.

7 - إنتاج الخطاب على أساس القوالب (نموذج توضيحي):

تتفاعل القوالب في عملية الإنتاج اللغوي الخطابي، وهذا ما توضحه الجملتين (أ) و(ب)، وهما عبارة عن حوار دار في المكتبة بين طالب وموظف.

(أ) الموظف: هل وجدت الكتاب الذي تبحث عنه ؟

(ب) الطالب: لم أتمكن من ذلك بعد، فهل تساعدني في العثور عليه ؟

أ - القالب المعرفي: يساعد هذا القالب في تقديم معلومات عن هذا السياق التواصلية من قبيل: معرفة أن المخاطب طالب في شعبة اللغويات (مثلا)، يبحث عن كتاب محدد من أجل إنجاز بحث ما، وأن الفهرس الذي بيده فهرس قديم وهناك فهرس آخر جديد لم يطلع عليه.

ب - القالب الاجتماعي: يحدد الحالة الاجتماعية القائمة بين المتخاطبين، التي تكون هنا من الأدنى إلى الأعلى حيث تفرض مثلا (احترام الطالب للموظف).

ج - القالب الإدراكي: يقدم معلومات مستمدة من المدركات الحسية.

د - القالب المنطقي: يتكفل بتحديد القوة الإنجازية التي تكون بين السؤال المحض أو المستلزم، وهي هنا مستلزم إذ تتمثل في: (الالتماس).

هـ - القالب النحوي: يستفيد هذا القالب (بالنسبة للموظف والطالب) من كل ذلك في صياغة الجملتين.

8 - تأويل الخطاب:

8 - 1. أهمية التأويل في الدراسات الغريبة:

لا يمكن أن تكتمل الممارسة الخطابية التواصلية - كما تحدثنا في الفصل الثاني - سيرا ونجاحا إلا من خلال مرحلة التفاعل بين الخطاب والمتلقي، وذلك باعتبارها المرحلة الثانية الأساس بعد مرحلة الإنتاج. وتجسد تلك المرحلة فعل التلقي الذي يعد فعلا كليا يتضمن أفعالا جزئية يمثلها: (فعل القراءة، فعل الفهم، فعل التأويل)، وهي في الأصل مراحل التعامل مع محتوى الخطاب (تركيبا ودلالة وتداول)، أين يتدرج المتلقي باعتماد أسس محددة وآليات عقلية من مرحلة لأخرى، وذلك ما يعني أن الخطاب ينتقل من علاقته بصاحبه إلى علاقة التفاعل القرائي، التحليلي، التأويلي؛ أي علاقته بالطرف المستهدف بالإرسال (المتلقي)؛ فنقف بذلك على مرحلة أخرى يصبح فيها ذلك الطرف منتجا (ومبدعا ثانيا) جديدا، من خلال كشفه لمعاني ودلالات الخطاب المضمر التي يعمل على استنطاقها وتأويلها.

تعد مرحلة التلقي بكل جوانبها من أبرز المحطات البحثية التي استوقفت النقد الغربي الحديث، فقد برزت طروحات كثيرة ركزت على معالجة قضايا تلك المرحلة، وهذا ما يمكن الوقوف عليه من خلال نظريات التلقي، التأويلية، والفينومينولوجيا، والتداولية، النقد الثقافي ..، وقد اجتمعت كلها حول التنبيه إلى أهمية فعل التلقي ووجوب حضوره في أي إنجاز لغوي أو إبداع أدبي؛ وبالتالي وجوب تقصي وجوده أثناء دراسة ذلك الأخير، فقد "نبهت نظرية الفينومينولوجيا بإلحاح إلى أن دراسة العمل الأدبي يجب أن تهتم ليس فقط بالنص الفعلي، بل كذلك وبنفس الدرجة بالأفعال المرتبطة بالتجاوب مع ذلك النص"¹؛ أي الأفعال التي تبين مدى مراعاة المنتج لمخاطبه وقد أشار ياكوس (Hans Robert Jauss) وآيزرر (Wolfgang Iser) من خلال نظرية أفق الانتظار، أن "النص الجديد يستدعي للقارئ (أو للسامع) مجموعة من الانتظارات والقوانين كان قد استأنس بها من خلال النصوص السابقة، وهذه الانتظارات والقوانين يمكن أن تنتظم أو تتعدل أو تتغير أو ببساطة تعاد كما هي وذلك أثناء عملية القراءة"².

وقد عرفت فكرة الاعتداد بأولوية القارئ وأهمية دوره انتشارا واسعا مع رولان بارت؛ إذ يمثل القارئ عنده العنصر الفاعل الرئيس الذي يشكل إبداعية النص ويبنى هويته، وهذا ما يؤدي إلى إبعاد المؤلف إبعادا يخرج من

¹ - ينظر: آيزر فولفغانغ، فعل القراءة نظرية جمالية التجاوب في الأدب، تر: حميد الحميداني، الجيلالي الكدية، مكتبة المناهل، فاس، د/ت، د/ط، ص 12.

² - Hans Robert Jauss, Pour une esthetique de la reception, Paris, Gallimard, 1978, P 51

بجال الإبداع، ويقيم حدا فاصلا بينه وبين نصه ليصبح بذلك القارئ هو وحده المبدع الحقيقي للنص، وحسب الطرح البارتي يبدأ دور القارئ حين ينتهي دور الكاتب (المؤلف) الذي يتوقف عند حدود الكتابة.

لقد ظهر الاهتمام بالمتلقي كرد فعل على إهمال السياق الخارجي والمناداة بفكرة انغلاق الخطاب /النص، وانعزاله على ذاته في إطار المقاربة اللسانية البنوية - معتقدة أن ذلك هو ما يضمن الحفاظ على هويته -، وهذا ما سعت إلى تجاوزه تصورات من داخلها؛ ف "إذا كانت البنيوية اللسانية قد أغفلت المؤلف والطبقة الاجتماعية والتاريخ، وكل ما يمت بصلة إلى المرجع، فإن البنيويين الجدد (التفكيكيون والشكلانيون الجدد)، مثل: تودوروف، وديريدا، وكريستيفا، ورولان بارت، قد أولوا أهمية بالغة للقارئ لما له من دور مهم في فهم النص وتفسيره وتأويله. وقد ظهرت نظريات كبرى تركز على أهمية القارئ، مثل: النظريات الاجتماعية، ونظريات التخاطب، ونظريات الاتصال"¹.

ويبدو أن هذا ما يفرضه سؤال: ماذا بعد إنتاج الخطاب؟، إذ تتجلى قيمة أي إنتاج لغوي (عاديا كان أم أدبيا) في نسبة التفاعل والحوار الذي تقوم بينه وبين المرسل إليه، خاصة حين يتجاوز المرسل وظيفة الإخبار؛ أين يحتاج الأمر إلى القراءة العميقة والتأويل، مما يجعل المرسل إليه منشئا ومبدعا ثانيا؛ "إذ يمارس حقه في قراءته وإدراك جماليته، فتمثل تلك القراءة إبداعا ثانيا لأنه سيبحث آنذاك في مناطق غيبية في المعنى تعينه على فهم المعطيات، وتقدم له الإمكانيات الدلالية القابعة وراء الدوال"². وذلك ما يتطلبه مبدأ التفاعلية الخطائية الذي يفرض متلقيا فاعلا، يوظف كفاياته التواصلية بطريقة مثالية في تعامله مع دلالات ومضان الخطاب، فيتمكن من فك شفراته المغلقة التي تقوده - أحيانا - إلى معرفة مقصدية منتجة عبر تأويلات، تخرجه من مجال التلقي السلبي إلى مجال التلقي الإيجابي.

يظل الخطاب المنجز قبل مرحلة التلقي التفاعلي في حالة سكونية لا يمكنه إحداث أي تأثير، إذ تكون دلالاته صامتة في حالة من الجمود، وذلك ما يتغير من خلال آلية القراءة والتأويل؛ حيث يسعى القارئ إلى استنطاقها وتحريك شحناتها التعبيرية، وأهم من ذلك الخروج ببعضها إلى آفاق تأويلية ذات أبعاد جمالية تكون أكثر إبداعية، تكشف عن أدبية الخطاب /النص، وهذا ما يؤكد أهمية القارئ وسلطته.

¹ - جميل عبد المجيد، أنواع المؤلف في النقد الأدبي، دار الريف للطبع والنشر، الناظور، تطوان - المملكة المغربية، ط2: 2020، ص 25.

² - ينظر: سعد الله محمد سالم، ما وراء النص، عالم الكتب الحديث، الأردن - إربد، ط: 2008، ص 88.

لقد قاد الاعتراف بسلطة القارئ القول بحريته في التأويل؛ وذلك ما ذهبت إليه نظرية جمالية التلقي عند ياكوبس وآيزنر. لكن لا يقصد "ب هذه الحرية، أن يكون القارئ غير ملزم بالضوابط الفنية، وإنما تريد أن يتحرر من الجبرية التي فرضها النقد الماركسي على الفن، فالقارئ الماركسي يستقبل النص في إطار وضعية إيديولوجية معينة، تتوقف عندها حرية فرديته بكل ذاتيتها وميوها ونشاطها الذهني، ليكون القارئ بذلك أسير نظام عقائدي أو ثقافي محدد قد يحجب الرؤية الكاملة في عملية الاستقبال"¹، وهذا ما عملت نظرية القراءة على تفنيده وتقويضه، إذ لا يجب على القارئ أن يلتزم بالسير وفق رؤية معينة يتقيد بها ترغمه على القيام بإسقاطات فكرية مسبقة، تحول دون ظهور القراءة الفنية البناءة، التي تجعله مبدعا ثانيا، ولعل القراءة الوسطية التي تكون بين (الرؤية الفنية) و(الرؤية الموضوعية) هي ما يُفترض الاعتماد عليها حسب هذه النظرية.

ومما لا شك فيه هو أن مقصدية المؤلف أهم ما تتطلبه تلك القراءة، إذ يسعى القارئ للبحث عنها من أجل فهم الخطاب وتأويله، فعلى الرغم من أنها تكون في الغالب شيئا مفترضا، فإنها من أهم المقومات التي تساهم في إضفاء المصدقية على عمله، إذ يذهب هيرش **Hirsch** في كتابيه: (المصدقية في التأويل) و (أهداف التأويل) بأنه "لا يمكننا التأويل ما لم نفترض سلفا قصدا للمؤلف يوجه ذلك التأويل ويبيّن مصداقيته"²، فلا ينبغي أن يتصرف القارئ بحرية ويمارس سلطته على النص فيفصله عن منتجه.

يجدر أن تكون عمليات القارئ التحليلية التأويلية ونتائجه التي يُكوّن عبرها خطابا ثانيا على علاقة دائمة بالخطاب الأصلي؛ فبين الإنتاج والتأويل نجد خطابان "الخطاب القارئ، والخطاب المقروء تكون بينهما علاقة تكشف قدرة أصلية على استعادة الخطاب لذاته بشكل متجدد. والتأويل هو النهاية الفعلية لهذه العلاقة، فإذا كانت القراءة ممكنة فلأن النص ليس مغلقا على ذاته، وأن تقرأ يعني أن تنتج خطابا جديدا تربطه بالنص المقروء"³، وهذا ما يقر بتعدد القراءات التأويلية بين القراء؛ حيث تكون في العادة متباينة رغم انطلاقها من مضمون واحد (الخطاب المقروء)، وذلك ما يؤدي إلى إحياء وتجديد الخطاب كل مرة.

تتباين طريقة القراء في تعاملهم مع الخطاب الواحد وذلك ما يؤول بالدرجة الأولى إلى نوع القارئ؛ حيث نجد القارئ العادي والقارئ الخاص، كما يرتبط ذلك أيضا بالهدف من القراءة التي تتوقف على نوع الخطاب (التاريخي، الصحفي، العلمي، الأدبي ..)، وعلى أساس هذه الأمور تكون القراءة أنواع أهمها:⁴

¹ - خالد علي مصطفى، مفهومات نظرية القراءة والتلقي، مجلة ديالي، جامعة ديالي، العراق، ع: 69، 2016، ص 125.

² - ينظر: روبرت شولز، السيميائية والتأويل، تر: سعيد الغانمي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1: 1994، ص 30 و 31.

³ - بول ريكور، النص والتأويل، تر: منصف عبد الحق، مجلة العرب والفكر العالمي، ع: 3، 1988، ص 38.

⁴ - ينظر: عبد الناصر حسن محمد، نظرية التوصيل وقراءة النص الأدبي، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، القاهرة، ط: 1999، ص 56.

أ - القراءة الإسقاطية: لا تركز على النص لكنها تمر من خلاله ومن فوقه متجهة نحو المؤلف أو المجتمع، وتعامل النص كأنه وثيقة لإثبات قضية شخصية أو اجتماعية أو تاريخية.

ب - القراءة الشارحة: تلتزم بالنص إلا أنها لا تأخذ منه إلا ظاهر معناه فقط، ويكون شرح النص فيها بوضع كلمات بديلة للمعاني نفسها.

ج - القراءة الشعرية: وتتمثل في قراءة النص من خلال شفرته في ضوء سياقه الفني، وتسعى إلى كشف ما هو في باطن النص، وتقرأ فيه أبعد مما هو في لفظه الحاضر.

يمكن توضيح اختلاف هذه القراءات كما يلي:

- تتناول القراءة الأولى النص من منظور مؤلفه حيث تعمل على ربطه بسياقاته (التاريخية، الثقافية، الإيديولوجية) التي تميزه؛ إذ ترى أن النص يعبر عن هدف شخصي أو اجتماعي أراده المؤلف، فتركز على استنباط سمات النص التي تؤكد ذلك.

- تعد الثانية قراءة سطحية تهتم ببعده الدلالي المعجمي.

- تعد الثالثة قراءة عميقة تتمحور حول النص الأدبي من أجل استجلاء خصائصه الفنية الجمالية، وذلك ما يتعلق بالدلالة الضمنية التي يعتمد فيها على التأويل، الذي يسمح بتقديم قراءات جديدة تخرج في الغالب عن نطاق الحرفي الصريح.

8 - 2. عملية تأويل الخطاب في نظرية النحو الوظيفي:

كشفت نظرية النحو الوظيفي عبر بحوثها المعرفية في هندسة العقل/ الدماغ البشري، أن التأويل عملية ذهنية وظيفية يتقضى من خلالها المتلقي المعاني والدلالات التي يحملها الخطاب المقصود بالتأويل، حيث يعرفها ديك بأنها: "العملية (أو مجموعة العمليات) الذهنية التي يقوم بها المتلقي (مخاطب، مستمع، قارئ...) لإدراك معنى عبارة لغوية ما (نص، جملة، جزء جملة...) منجزة في مقام معين"¹؛ إذ يجب أن تكون معالجة المتلقي الذهنية للخطاب المتعامل معه وفق منظور وظيفي تداولي، يربط الخطاب بسياقه الخارجي المنجز فيه بمكوناته وخصائصه المختلفة بما في ذلك ظروف منتجه.

يتوجه العمل الذهني التحليلي الذي يقوم به المؤول من بنية الخطاب السطحية إلى بنيته التحتية؛ حيث تمثل هذه الأخيرة مركز المكونات الرئيسة الدافعة إلى الفهم والإدراك، وذلك ما يتعلق في هذه النظرية بالمستوى العلاقي والمستوى التمثيلي، وهذا ما يجعل المتلقي مضطرا إلى إعادة ربط الخطاب بمنتجه وسياقاته الخارجية التي تُكوّن

¹ - أحمد المتوكل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، ص 388.

فضاءه المعرفي، ولعل ذلك ما يكون خاصة إذا كان الخطاب غير مباشر حيث يكون التلقي المتباعد، فقد ميز الوظيفيون على أساس زمن التعامل مع الخطاب بين نوعين من التلقي:¹

أ - **التلقي المتزامن:** التلقي الذي يتم إبان الإنتاج (البث) نفسه كما يحصل في الحوارات والمحادثات والمهاتفات.
ب - **التلقي المتباعد:** التلقي الذي يتم خارج زمن الإنتاج متأخرا عنه لاحقا به، وهو ما يحصل حين قراءة خطاب ما أنتج في زمن آخر قد يقترب وقد يبعد (رواية، قصيدة ..)

يشكل فهم دلالة الخطاب معيار نجاح عملية التأويل، ويحصل ذلك - حسب ما جاءت به نظرية النحو الوظيفي - من خلال تمكّن المؤول في خضم إستراتيجية الرجوع إلى البنية التحتية، من الوصول إلى الفحوى القضوي المضمّر الذي يستبطنه الخطاب، والسعي من وراء ذلك إلى محاولة تحديد ومعرفة مقصدية المنتج، عبر ما يمكننا تسميته بتقنية: **(التحديد التأويلي الافتراضي)** التي تعتمد على عمليات العقل التحليلية الاستدلالية، إذ لا يمكننا أن نتكلم عن تأويل قاطع على الإطلاق إلا إذا افترضنا مقصدية للمنتج لتحكم ذلك التأويل؛ فذلك أساس التأويل الناجح، حيث "يتوجب إدراك معنى العبارة اللغوية - بوجه عام - الوصول إلى فحوى العبارة ذاتها من جهة وإلى قصد المتلفظ من جهة ثانية. فعملية التأويل يجب أن تنصب، في الأحوال العادية، على المحتوى القضوي للعبارة وعلى القوة الإنجازية المواكبة له معا"²، إذ من خلالهما يمكن فهم معنى العبارة ومعرفة قصد المتكلم. فقد تمت صياغة قانون التأويل الناجح في هذه النظرية، بالنظر "إلى حصول المماثلة بين العناصر التالية: (أ) فهم المتلقي، (ب) دلالة العبارة، (ج) قصد المتكلم، وذلك ما يتبين في الشكل الآتي:

تأويل ناجح: فهم = دلالة العبارة = قصد"³.

نشير هنا إلا أن هذا القانون - حسب رأينا - ليس قانونا مطلقا إذ يصطدم بحقيقة كون معرفة القصد أمر نسبي؛ لا سيما إذا تعلق الحديث بالتلقي المتباعد الذي نجد من بين تجلياته الخطاب الأدبي المكتوب، حيث يتضمن دلالات بعيدة ترتبط بسياقات خارجية اجتماعية ذات أبعاد تاريخية ثقافية إيديولوجية، مما يجعل محاولة تحديد القصد متعلقا بالرجوع إلى كل ذلك، حيث يُفتح باب التأويل الذي تختلف من خلاله الرؤى المتصورة عن قصد المؤلف من مؤول إلى آخر.

يعتمد المخاطب حسب نظرية النحو الوظيفي على مصادر معينة تمدّه بالمعلومات التي يوظفها للتعرف على ذات ما، وتتمثل في:⁴

¹ - ينظر: أحمد المتوكل، الخطاب المتوسط، ص 83.

² - ينظر: أحمد المتوكل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، ص 143.

³ - ينظر: المصدر نفسه.

⁴ - ينظر: المصدر نفسه، ص 360.

- مخزون المخاطب المعلوماتي العام.

- السياق اللغوي.

- الموقف التخاطبي.

- عملية الاستدلال.

والواضح أن هذه المصادر ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالقوالب؛ حيث نجد القالب النحوي الذي يتعلق (بالسياق اللغوي)، والقالب الاجتماعي ويتعلق (بالموقف التخاطبي)، وهو ما يمكن أن يتعلق كذلك بالقالب الإدراكي، ونجد القالب المعرفي ويخص (مخزون المخاطب المعلوماتي العام)، والقالب المنطقي ويتعلق (بالاستدلال).

9 - القوالب وتأويل الخطاب (نموذج تطبيقي توضيحي):

تأخذ عملية التأويل عبر القوالب حالتين؛ حالة لا يحتاج فيها المؤول لقالب آخر غير القالب النحوي، وحالة يتطلب فيها التأويل قوالب أخرى إلى جانب القالب النحوي:

- **الحالة الأولى:** تمثل لها بالعبرة الآتية: قرأت رواية أحلام مستغانمي التي تحمل عنوان: (ذاكرة الجسد)، والتي نشرت عام 1993 في بيروت عن دار الآداب، فهذه العبارة "تمد المخاطب بكل المعلومات التي تمكنه من تأويلها تأويلاً كافياً ملائماً، بحيث لا يحتاج إلى معلومات أخرى"¹، خارجة عما تحيل عليه العبارة.

- **الحالة الثانية:** تمثل لها بالعبرة الآتية: هل لديك رواية أحلام مستغانمي الجديدة؟

أ - يمد القالب النحوي المؤول بالمعلومات اللغوية الصرف وهي: معلومات صرفية - تركيبية (صيغ المفردات التي تتكون منها العبارة والمقولات المعجمية، التي تنتمي إليها والعلاقات الدلالية والتركيبية والتداولية القائمة بين هذه المفردات...)، ومعلومات دلالية (معاني المفردات، معنى العبارة ككل)، ومعلومات تداولية (القوة الإنجازية التي تواكب العبارة ككل باعتبارها قوة إنجازية حرفية)². فبفضل هذه المعلومات يستطيع المخاطب أن يدرك "المعنى اللغوي" للعبارة المعنية بالأمر.

ب - يمد القالب المعرفي المؤول بالمعلومات التي تمكنه من التعرف على ما تحيل عليه العبارة "رواية أحلام مستغانمي الجديدة". ولا يستطيع أن يتوصل إلى ذلك إلا إذا توافرت لديه المعلومات التالية: أحلام مستغانمي روائية عربية جزائرية، وأن روايتها الجديدة قد صدرت سنة: 2018، وأنها تحمل عنوان: (شها كفراق).

¹ - أحمد المتوكل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، ص 33.

² - ينظر: المصدر نفسه، ص 33.

- ج- على اعتبار أن الجملة واردة في مقام الالتباس لا السؤال المحض. توكل مهمة اشتقاق القوة الإنجازية المستلزمة مقاميا (الالتماس) إلى القالب المنطقي. وتتم هذه العملية الاشتقاقية كما هو معلوم عن طريق قواعد استدلالية تربط بين البنية التحتية، الممثل لها في القالب النحوي والبنية التحتية التي مثل لها داخل القالب المنطقي.
- د- لكي يتوصل المؤول إلى إدراك أن المراد التماس، يجب أن يلجأ إلى القالب الاجتماعي، الذي يمدّه بالمبدأ القاضي بأن الطلب الصادر عن شخص ذي وضع اجتماعي مماثل (أو مساو)، يكون (التماسا لا أمرا أو دعاء). هذه المعلومة تستخدم في عملية اشتقاق القوة الإنجازية المستلزمة مقاميا، أي الالتماس وتمنع، في الوقت ذاته من أن تؤول العبارة على أساس أنها تحمل قوة إنجازية أخرى.
- هـ - يشارك القالب الإدراكي كذلك في تأويل تلك العبارة؛ حيث يمكن للمخاطب أن يستعين في عملية التعرف على الرواية المقصودة بالصورة التي تتوفر لديه مثل: (الغلاف الخارجي (اللون) والحجم...).

ثالثا - الخطاب الأدبي في نظرية النحو الوظيفي:

تمهيد:

استقطب الخطاب الأدبي اهتمامات البحوث الغربية القديمة منها والحديثة، حيث تنوعت وتباينت المذاهب التي تمخضت على إثر مناقشة خصائصه وأدواته التي تميزه مقارنة مع الخطاب العادي، وقد شكلت تلك المذاهب في مجملها ما يعرف بنظرية الأدب التي تؤول جذورها إلى تصورات سقراط وأفلاطون، والتي أخذت صورتها الواضحة من خلال أعمال أرسطو. وذلك ما يمكن العثور عليه أيضا ضمن مباحث البلاغة على اختلاف اتجاهاتها. حيث جاء تناول ذلك النوع من الخطاب تحت لواء الأدب تارة ولواء البلاغة تارة أخرى.

تُقابل لغة الخطاب الأدبي بلغة الخطاب العادي؛ حيث تعد اللغة الأولى اللغة الفنية الشعرية، التي تثير في النفس متعة التذوق ولذته، ففي خضم تأكيد ذلك نجد سارتر **Jean- Paul Sartre** (1905 - 1980) يقول: "ومع أنه من الصعب الاتفاق حول الهوية المحددة لموضوع الأدب، فمن المؤكد أن هذا الاسم أو ما يجري مجراه، استعمل دائما للدلالة على كلام يبعث اللذة أو يثير الاهتمام لدى سامعه أو قارئه، ويكون الخلود مصيره، وبناء على ذلك فهو قول أكثر صناعة من الكلام العادي"¹، وهو ما يتأسس على ظاهرة الانزياح القادرة على خلق الدلالات البعيدة الغامضة أين تكون الصورة الأدبية (كالاستعارة مثلا)، التي تولّد الاستعمال الخاص للغة. هذا ما أكدته دراسات الشكلايين الروس (الشعرية الأسلوبية)، واتجاهات البلاغة المختلفة.

¹ - تودوروف تزفيتان، الشعرية، تر: شكري المبحوت ورجاء بن سلامة، ط1: 1990، دار توبقال، الدار البيضاء، ص 10.

يعبر الخطاب الأدبي عن قدرة المبدع (المنتج) التعبيرية واحترافيته التي تجعل تعامله مع اللغة متميزاً، ولذلك عُرِف هذا النوع من الخطاب بأنه "صياغة مقصورة لذاتها، وصورة ذلك أن لغة الأدب تتميز عن لغة الخطاب العادي بمعطى جوهري، فبينما ينشأ الكلام العادي عن مجموعة انعكاسات مكتسبة بالمران والملكة نرى الخطاب الأدبي صوغاً للغة عن وعي وإدراك، إذ ليست اللغة مجرد قناة عبور للدلالات، إنما هي غاية تستوقفنا لذاتها، وبينما يكون الخطاب العادي شفافاً نرى من خلاله معناه ولا نكاد نراه في ذاته، نجد الخطاب الأدبي على عكسه ثخناً غير شفاف يستوقفنا هو نفسه قبل أن يمكننا اختراقه، فالخطاب العادي منفذ بلوري لا يقوم حاجزاً أشعة البصر، بينما الخطاب الأدبي حاجز بلوري طلي صورا ونقوشاً وألواناً تصد أشعة البصر عن اختراقه"¹. فهو خطاب غامض ذو إichات دلالية بعيدة تعتمد على التشكيل الفني الانزياحي التخيلي، الذي يكسر نمطية الواقعي المتداول، حيث يصعب الوصول إليه سواء بالنسبة للمبدع أو للمتلقى، إذ يفرض الخروج من مجال العادي مستهدفاً المثالي؛ وذلك ما يعني تطلبه لمبدع مثالي جريء وهو الأمر بالنسبة للمتلقى.

يتسم الخطاب الأدبي بعناصر وميكانيزمات إبداعية يستدعيها تحقيق البعد الجمالي الفني، مما يجعله مباناً للخطاب العادي، حيث يكون خطاباً ذو تشكيلي لغوي فني بالغ التأثير في نفسية المتلقي إذ تجدد فيه متعة التدقيق، أين تغوص في جدليات التأويل العميق باحثاً عن مخزونه الدلالي الصامت أو المسكوت عنه، الذي تحمله ظاهر العبارات والأساليب، مما يحرك مكبوتاتها التي تنفعل مع الطبيعة الأدبية الجمالية لدلالات الخطاب.

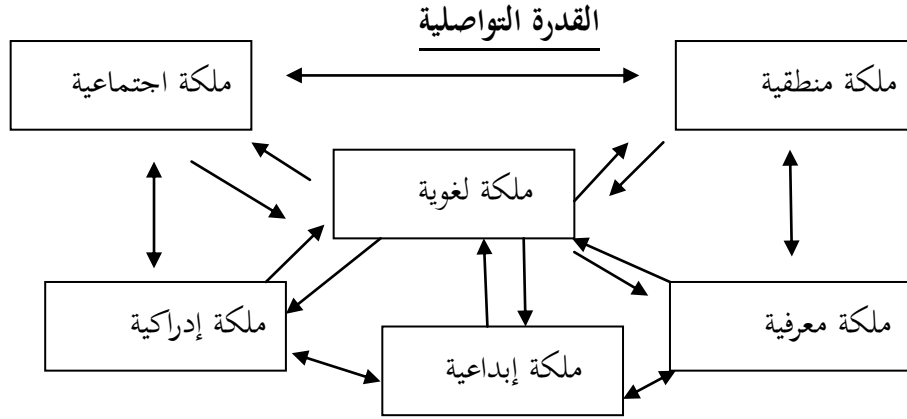
1- الخطاب الأدبي في نموذج مستعملي اللغة الطبيعية:

اهتمت نظرية النحو الوظيفي من داخل مسعى العمل على تطوير نموذج مستعملي اللغة الطبيعية، من أجل بلوغ الدراسة الكلية لموضوع التواصل بكل صوره وأنماطه، بالخطاب الأدبي وهو ما تطرقت له من خلال الحديث عن الخطاب الإبداعي، حيث عد هذا الأخير "نمطاً خطابياً خاصاً يشمل أساساً ما يسمى الخطاب الأدبي وهو خطاب تسخر له، ملكة تشكل أحد مكونات القدرة التواصلية وهي "الملكة الشعرية"²، أو الإبداعية، فقد تم إضافة هذه الملكة إلى الملكات الخمس (الملكة اللغوية، الملكة المنطقية، الملكة الاجتماعية، الملكة المعرفية، الملكة الإدراكية)، وهذا ما توضحه الترسيم الآتية:³

¹ - عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، الدار العربية للكتاب، تونس، ط: 1977، ص 112.

² - ينظر: أحمد المتوكل، الوظيفية بين الكلية والنمطية، ص 36.

³ - المصدر نفسه، ص 21.



تعني الملكة الإبداعية (أو الشعرية) بشكل دقيق ومباشر بذلك النمط من الخطاب على اختلاف أجناسه. ولعل أهم ما يجب على القارئ معرفته - بناء على ذلك - هو أن كلمة شعرية المضافة لكلمة ملكة، ذات بعد كلي واسع بحيث تحيل على اللغة الشعرية التي تأخذ مفهوم التشكيل الفني الإبداعي الأدبي الذي يمكن أن يتميز به خطاب ما؛ حيث تنطبق على جميع الأجناس الأدبية وليس على الجنس الشعري فقط. ويلتقي ما ذهبت إليه نظرية النحو الوظيفي في هذا الصدد بتصور جاكبسون عن الأدبية (والشعرية) التي تخص الشعر وغيره من الأجناس.

تكمن جدة ما جاءت به هذه النظرية في أن "الملكة الشعرية ليست إلا فرعاً من فروع القدرة التواصلية تتوافر بالقوة لدى جميع مستعملي اللغة الطبيعية، وإن كان تفعيلها يتم حسب سلمية تتفاوت درجاتها بين المتكلم العادي والأديب الشاعر وغيره. حيث إن الخطاب الفني (شعراً ونثراً) ليس وليد قدرة أخرى غير قدرة التواصل المشتركة وبذلك فهو جزء من موضوع النظرية اللسانية ذاتها"¹، إذ لا يمكن فصلها عن مباحث النظرية ودراساتها في إطار نظرية أخرى مستقلة، وهذا ما ركزت على استبعاده نظرية النحو الوظيفي ساعية إلى تحقيق الشمولية والكلية.

يعني القول بمبدأ اشتراك القدرة التواصلية اشتراك كل ملكاتها - أيضاً - بما في ذلك الملكة الشعرية، حيث تتميز بخاصية الوجود بالقوة أي أنها ملكة فطرية راسخة لدى مستعمل اللغة، يمكن توظيفها عند الحاجة إليها، وعلى أساس ذلك يكون الاختلاف بين الخطاب العادي والخطاب الأدبي.

ومما لا شك فيه أن سلمية هذه الملكة تكون أدناها درجة في خطاب المتكلم العادي، وأعلىها في خطاب المتكلم المبدع الذي يعمل على تفعيلها بدرجة كبيرة، حيث يركز لبلوغ أهدافه وتحقيق مطالب الإبداعية على التفعيل

¹ - أحمد المتوكل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، ص 501.

المثالي، فنقف على الفعل الإبداعي التداولي الذي تتجسد عبره تلك الملكة، وهو ما يظهر في خصائص وميكنزمات خطابه. على خلاف ما يتميز به المتكلم العادي الذي تكون عنده - حسب هذا الرأي - في حالة كمون جزئي وهذا ما يعني احتمالية توظيفها في معاملاته الخطابية إذا أراد ذلك.

يعد الإبداع حسب هذا التصور من أهم الخصائص التي تميز الذات الإنسانية حيث تعبر عن طبيعتها، وذلك ما يرتبط بنمط تفكيرها ويتجلى في استعمالها المتعددة المتباينة الأنماط التي تعد فنونا، إذ نجد (فن القول، فن الرسم، فن التشكيل المعماري ..)، ولعل هذا ما يبرر ثراء بعض خطاباتنا الطبيعية اليومية بظواهر شعرية كالمجاز والاستعارة والتي تكون غالبا دون قصد، ومما لا شك فيه أن هذا الأمر أهم ما يفسر - على سبيل المثال - ولادة الشعر الشاعر في الوسط النقدي العربي القديم دون تعلم.

يقترّب ما قدمته نظرية النحو الوظيفي حول الملكة الشعرية، من تصور النظرية التوليدية التحويلية فيما يتعلق بمفهوم الإبداعية، الذي وضعه تشومسكي في إطار حديثه عن الملكة اللغوية، والذي يعد الإبداع لدى المتكلم/ السامع المثالي خاصية كلية ملازمة للعقل البشري في حالته العادية.

يقر هذا التصور أن التفاوت يؤول إلى الممارسة أين تختلف درجة تفعيل الملكات، ذلك أن "لكل الكائنات البشرية نفس القدرة على إنتاج أنماط الخطاب وفهمها إلا أن بعضهم يفعل ويغذي جوانب معينة من هذه القدرة أكثر من بعض. فالأدباء مثلا يختلفون عن غيرهم من مستعملي اللغة الطبيعية في كونهم يفعلون الجانب الفني من القدرة اللغوية العامة ويغذونه في حين أن هذا الجانب من القدرة يظل كامنا عند الآخرين ولكنه غير منعدم يمكنهم من فهم وتأويل الخطاب الأدبي وإن لم ينتجوه"¹، وهذا ما يفضي إلى القول إن كل مستعملي اللغة الطبيعية - في حالاتهم العادية التي تستبعد الحالات المرضية - متكلمين/ متلقين مبدعين، سواء أكان ذلك بشكل واضح يظهر في استعمالهم إنتاجا وفهما، أو بشكل ضمني كخاصية من خصائص القدرة البشرية، وذلك ما يدعو إلى الحديث داخل هذه النظرية عن المتكلم/ المتلقي المبدع.

2 - قالب خاص للملكة الشعرية:

فرض إضافة الملكة الشعرية لملكات نموذج مستعملي اللغة الطبيعية ضرورة الضبط النمذجي الدقيق من خلال إضافة قالب خاص بها، وذلك ما ركز عليه أحمد المتوكل مقترحا تسميته بالقالب الإبداعي (أو الفني)، وهو

¹ - أحمد المتوكل، الوظيفية بين الكلية والنمطية، ص 20.

قالب عام يتضمن قوالب فرعية تختلف باختلاف الجنس الأدبي، حيث نجد (قويلب الشعر، قويلب الرواية، قويلب القصة ..). وقد بين في إطار ذلك أن "وظيفة هذا القالب تكمن في كونه مجموعة من المبادئ والأوليات التي يلجأ إليها نموذج مستعملي اللغة الطبيعية ويسخرها لوصف خصائص الخطاب الإبداعي"¹، وهذا ما يخدم مستعمل اللغة حيث يتمكن وفق رؤية وظيفية من معرفة وفهم ماهية ذلك النوع من الخطاب، من أجل استثمار ذلك في عمليات الاستعمال الوظيفي التداولي له على مستوى الإنتاج والتأويل، فيما يتعلق بمختلف وجوه وأمات العمليات التواصلية المباشرة منها، وغير المباشرة.

ينطبق مبدأ الترابط بين الملكات وعدم انفصالها - رغم استقلاليتها - في عملية استعمال الخطاب على القالب الإبداعي في علاقته مع بقية القوالب؛ فـ "بما أن الخطاب الإبداعي لا تبلغ به خصوصيته، وإن تناهت خصوصيته، حد الانقطاع عن الخطاب الطبيعي العام، وبما أن الملكة الشعرية على خصوصيتها لا تنفصل عن باقي الملكات التواصلية الأخرى، فإن القالب الإبداعي على استقلاليته يظل مرتبطاً بالقوالب الأخرى يفضي إليها وتفضي إليه ويمدها ويستمد منها"²، غير أن هذا لا ينفي حقيقة مركزية هذا القالب حين يتعلق الأمر بالخطاب الإبداعي، حيث تصبح القوالب الأخرى ثانوية مساعدة له، ذلك أن مستعمل الخطاب الأدبي (شعر، رواية، قصة وغيرها)، يركز على بلوغ الدرجة القصوى المثالية لتوظيف ذلك القالب سعياً لتحقيق الخصوصية الأدبية الفنية.

لقد أكد أحمد المتوكل من منطلق مبدأ كلية الملكة الشعرية حقيقة كلية قالبها كذلك، حيث يرى أنه قالب عام يشترك فيه الخطاب الإبداعي (الفني) مع الخطاب العادي؛ فحسب رأيه "يستخدم القالب الفني بامتياز في الخطاب الفني إلا أنه لا يمكن القول إنه ملغى إلغاء تاماً في الخطابات الأخرى. فالخطاب المسمى عادياً لا يخلو من "فنية" حتى في الحالات التي تقترب فيها فنيته من "الدرجة الصفر"³، ولا بد أن هذا التصور يعزز لشمولية خاصية الفنية، حيث تتاح إمكانية اعتبار الإنتاج العادي إبداعاً باعتباره إنجازاً دينامياً، يؤدي إلى حصول نتائج براغماتية معينة مقارنة بالجانب السكوني؛ ويمكن أن يكون تفسير ذلك حقيقة الحضور الدائم للملكات الست بما في ذلك قوالبها، واحتكاكها التفاعلي لدى مستعمل الخطاب (منتج/ مؤول)، وهذا إذا نظرنا إلى التشغيل الكلي لنموذج مستعملي اللغة الطبيعية (الإنتاج/ التأويل). مع الحرص من اقتراب ذلك من ماهية العقل البشري في إطار ما يفرضه مبدأ الكفاية النفسية.

¹ - أحمد المتوكل، الوظيفية بين الكلية والنمطية، ص 37.

² - المصدر نفسه، ص 37.

³ - المصدر نفسه، ص 220.

ينبغي الإقرار في هذا السياق بأنه لا يمكن بأي حال - حسب رأينا - تجاوز الحدود الفاصلة بين الخطاب الإبداعي والخطاب العادي، وتجاهل النشاط الخطابي الإبداعي الفردي الخاص، إذ تتفاوت الفنية بين الخطابات الأدبية - وما بالك إذا قارنا بينها وبين الخطاب العادي - على مستوى عدة مبدعين أو مبدع ما، حيث يختار المتلقي - مثلاً - من بين عدة روايات لروائي معين رواية دون أخرى، ولعل مرد ذلك راجع لقوة جانبها الإبداعي الذي يظهر في أساليب فنية ممتعة ومؤثرة.

وهذا ما ينطبق كذلك على الخطاب البلاغي السياسي المعاصر مثلاً حيث نحكم بنجاح هذا وفشل الآخر. أو ليس ذلك راجع إلى درجة توظيف الملكة الشعرية (قالبها) بقوة؟.

3 - خصائص الخطاب الإبداعي في نظرية النحو الوظيفي:

يحرص المخاطب على تحقيق فعالية التأثير عبر خطابه الوظيفي الذي يصيغه حسب المقاصد والأهداف المرجوة، وذلك ما يتطلب منه الصياغة الجيدة على مستوى الشكل والدلالة، فيعمل على إخراج أسلوب متميز. وحسب نوعية اللغة المستهدف إنتاجها التي تكون بين الطابع العادي والطابع الأدبي، يكون أسلوبه بين التصريح والإضمار؛ أي بين الاستعمال المباشر (الحرفي) والاستعمال غير المباشر (غير الحرفي)، وهو ما يكون في الغالب بين الحقيقة والتخييل الذي يعتمد فيه على المجاز، حيث يسعى عبر هذا الأخير لاستفزاز ذهن المتلقي وإعجابه، باعتبار ذلك من أهم آليات الخصوصية الفنية التي تميز خطابه الأدبي، فمن أهم الخصائص التي تسم ذلك النوع من الخطاب:¹

- الذاتية: حضور المتكلم في نصه حضوراً قوياً.

- الفنية: الصور البلاغية (الاستعارة، الكناية، المجاز)

يكون الاستعمال غير المباشر إضماراً للدلالة والمقصدية معاً، وهو ما يعد - في الواقع - انزياحاً تبرز عبره قوة الدلالة وشاعريتها في الغالب الكثير، وذلك خاصة إذا تعلق الأمر بالخطاب الأدبي، وقد وقفت نظرية النحو الوظيفي على هذا النوع من الاستعمال في ذلك الخطاب، من خلال ما يعرف بظاهرة الإلباس أو الالتباس المقصود.

¹ - نعيمة الزهري، تحليل الخطاب في نظرية النحو الوظيفي، ص 46.

3 - 1. الإلباس (الالتباس المقصود):

لقد وقف النحو الوظيفي على حقيقة تحول الغموض القائم بالالتباس، من الوضع السلبي إلى الوضع الإيجابي، وذلك حيث يعد من أهم مكونات الخطاب الأدبي، وأبرز مظاهر الفنية فيه، فيكون من أهم السمات الأسلوبية التي يسعى المبدع لإحداثها؛ إذ إنه "من غير النادر أن يلبس المتكلم (أو الكاتب) خطابه قصد تحقيق غرض تواصلية معين بل إنه يستخدم الوسائل الكفيلة بمنع رفع الالتباس وضمان استمراره . فليس كل التباس ... مصدر تشويش إذ منه ما يشكل مقوماً من مقومات التواصل البليغ"¹، وذلك حيث تنتقل من الالتباس العرضي إلى الالتباس المقصود؛ إذ يعتمد المنتج إلباس خطابه من خلال تمويه المعاني وتعميتها، حيث تتاح له حرية التصرف أين يلجأ عبر توظيف ملكات قدرته التواصلية، لا سيما الملكة الشعرية التي يسعى إلى تفعيلها الجيد إلى حيل كلامية، قصد خداع المتلقي من خلال تشتيت ذهنه وتضليل طريق الوصول إلى المعنى، وجعلها نوعاً ما طريقاً صعباً، ولعل هذا ما يجعله في إطار الاستعمال الفني له من مقومات التواصل البلاغي، ومن مظاهر الفردانية الإبداعية الأدبية.

يؤدي الإضمار الدلالي الذي يثيره الالتباس في ذهن المتلقي إلى تعدد احتمالات المعنى، وهذا ما ينطبق على الالتباس المقصود؛ حيث "يحصل في الحالات التي يستعمل فيها المتكلم العبارة الواحدة بأكثر من معنى واحد مع نية إيراد كل المعاني التي تحملها العبارة"²، إذ يركز على دقة إخفاء المعنى المقصود، فيعمل قصد تحقيق ذلك على انتقاء الآليات الكفيلة بإلباسه، من أجل إيهام المتلقي، الذي يضطر بناءً على ذلك لاقتراح تأويلات متعددة، يمكن له فيها أن يتعد، أو يقترب، أو يصل، لما يريده المخاطب.

لقد بين المتوكل في خضم توضيحه لتلك الظاهرة أن "من العبارات الملتبسة التباساً مقصوداً العبارات المتحجرة التي تسترد، في سياق معين، معناها الحرفي المفقود فيضاف إلى معناها الإجمالي التي تدل عليه عادة كعبارات متحجرة. مثال ذلك (كثير الرماد) التي تأخذ في السياق التالي معناها الإجمالي "مضيف" ومعناها الحرفي الذي فقدته: كنت أعلم أن هنذا كثيرة الرماد لكنني لم أكن أعلم أن بمطبخها هذا العدد الهائل من القدور"³، والواضح من ذلك أن العبارات الملتبسة في نظرية النحو الوظيفي عبارات مجازية بالدرجة الأولى، إذ يركز المتكلم عبر المجاز على تشكيل دلالة بعيدة تتسم بالغرابة والغموض التي يبتغي بها شدة المبالغة، وهذا ما يتطلب

¹ - أحمد المتوكل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، ص 129.

² - المصدر نفسه، ص 129.

³ - المصدر نفسه.

منه التصوير المجازي الفني العميق الذي يعتمد على آلية التخيل العقلي، حيث يمكنه ذلك من التلاعب بنظام الفحوى الدلالي، إذ يتطرق إلى توظيف تقنية الاستبدال الدلالي أين يلجأ إلى خرق الدلالة المعجمية المتداولة؛ وهذا ما يرتبط بالخطاب الأدبي؛ حيث تحضر مع وظيفة التواصل (الإبلاغ) وظيفة الإمتاع أين نقف على الفنية.

يلاحظ القارئ لما قدمه المتوكل عن ظاهرة الإلباس أنه استند في ذلك على الاستعمالات المجازية في بلاغتنا العربية (الكناية، الاستعارة، التشبيه ..)، ولعل هذا ما يؤول إلى دراسته لقضايا اللغة العربية في النحو الوظيفي، غير أن الأمر الذي ينبغي معرفته هو أن تلك الظاهرة تشمل كذلك المجاز في البحوث الغربية، حيث تتعلق بشكل عام بالجانب الخطابي التواصلية لمستعملي اللغة الطبيعية - اللغات - المتمثل في الاستعمال غير المباشر (غير الحرفي)، الذي يتوسل فيه الخيال، أين تصبح اللغة التخيلية التي تقوم على الطرفة والعبث من أجل صناعة المعاني الشعرية العميقة والبعيدة، الهدف الرئيس.

تتعدد أهداف المبدع عبر آلية الإلباس التي تسلك في الغالب طريقا خفية تروم الإمتاع أو السخرية، فقد "ميز آن ريبول وجاك موشلار ضمن الاستعمال غير الحرفي قسمين كبيرين من الوجوه البلاغية: الوجوه البيانية مثل الاستعارة والكناية، وصور التفكير مثل السخرية"¹، وهذا ما يمكن إدراجه في مجال (الانزياح) حيث يتوسل المبدع أفقعة التلاعب والتحايل التضليلي، الذي يمكنه من شد انتباه المتلقي وإيقاعه فيما يريد الوصول إليه، وهذا ما يجعل السخرية من أهم الآليات المتبعة في هذا الأمر، الذي استولى على حياة مستعملي اللغة تفكيراً وممارسة، فقد صار المتكلم مولعاً بتقنيات الدلالة الانزياحية الملتبسة أو الغامضة، التي يوفرها المجاز والاستعارة، لتصبح هذه الظواهر جزءاً من حياتنا ونمطاً لتصوراتنا العقلية التي تظهر كأفعال قولية، حيث تتولد الاستعارات التي نحيا بها تلك القدرة على تمويه الدلالات والمعاني وحصول التعمية والسخرية.

يفرض علينا كلام المتوكل ضرورة الوقوف - في هذا السياق - على العلاقة بين ظاهرة التحجر والعبارات الملتبسة في نظرية النحو الوظيفي، إذ ربما يتبادر إلى ذهن القارئ السؤال الآتي: هل كل عبارة ملتبسة عبارة متحجرة؟. وهذا ما تتبعه الإجابة التالية: ليست كل عبارة ملتبسة عبارة متحجرة؛ حيث يصيب التحجر العبارة الملتبسة، وذلك من خلال كثرة استعمالها، إذ يصير فهمها بطريقة مباشرة فيكون معناها لدى سامعها أو قارئها مرتبطاً بالمعنى الثاني (المعنى الضمني) أو (معنى المعنى)، الذي كان في مرحلة سابقة (إيراده أول مرة)، غير معروف أو بالأحرى غير مفهوم، وهو ما يمكننا التمثيل له - مثلاً - بكناية: (لسان طويل) التي أصبحت تغطي على

¹ - آن ريبول وجاك موشلار، التداولية اليوم علم جديد في التواصل، تر: سيف الدين دغوس ومحمد الشيباني، مرا: لطيف زيتوني، ص 183.

الاستعمال اليومي، وتوظف ككناية عن الكذب. ويعني ذلك أن التحجر يعبر عن (بلى الاستعمال الخاص)؛ إذ يتحول إلى استعمال عام، كما ينتقل من مجال (الإنجاز الفردي الخاص) إلى مجال (القدرة اللغوية).

لقد تطرق أحمد المتوكل للفصل بين نوعا الالتباس وذلك ما بينه في النقاط الآتية:¹

- يتولد الالتباس العرضي من تعدد إمكانات فهم العبارة نفسها من غير قصد المتكلم أما الالتباس المقصود ينتج عن قصد منه.

- الالتباس العرضي قابل لأن يرفع. ويتم ذلك إما عن طريق المقام أو عن طريق السياق فتترجح آنذاك إحدى القراءات على القراءات الأخرى. أما الالتباس المقصود فلا يرفعه المقام ولا السياق بل إن المتكلم يسخر المقام أو السياق (أو هما معا) لضمان استمرار الالتباس عبر خطاب كامل.

ج - نعثر على الالتباس العرضي في الخطاب التواصلية العادية، غالبا، في حين أن الالتباس المقصود يشكل سمة من سمات الخطاب الموسوم (الخطاب الأدبي، الخطاب الساخر...).

يمكننا القول على هذا الأساس إن الفصل بين الالتباس المقصود والالتباس العرضي، يؤول - حسب رأينا - إلى المعايير الآتية:

أ - معيار القصدية: وفيه يركز المتكلم على إلباس الدلالة بالنسبة للالتباس المقصود.

ب - معيار رفع الالتباس: يظهر مما قدمه المتوكل أنه يمكن رفع الالتباس العرضي بخلاف الالتباس المقصود، وهذا ما يجعلنا نقف عند هذا الرأي وقفة تفنيدية؛ حيث نرى أن إمكانية رفع الالتباس تكون من سمات الإلباس أيضا؛ فصحيح أن المتكلم يعمل بذكاء على دقة إخفاء الدلالة، إلا أن ذلك يقع قبل وصوله إلى ذهن المتلقي، حيث يقوم بعملية التأويل التي تمكنه من فك المضمهر وفهم المعنى المشقّر إلباسا، فبقاء الخطاب ملبسا من مؤشرات فشله مما يؤدي إلى رفضه. وهذا ما يعني عدم حصول الفائدة لا لمنتجه ولا لمتلقيه.

ج - معيار اللغة الأدبية: يعد الحديث عن الالتباس العرضي والالتباس المقصود من أهم العلامات الفاصلة، بين الاستعمال العادي والاستعمال الأدبي، حيث يقع الارتباط بين الثنائية الأولى والثنائية الثانية - في الغالب الكثير - على التوالي. وهذا ما يعني أن مستعمل الخطاب يعتمد في صياغة الإلباس المقصود على التفعيل القوي للملكة الشعرية، حيث تكون الملكة البارزة الرئيسة مقارنة مع تفعيل بقية الملكات، من أجل الخلق الإبداعي الفني المتميز، الذي تظهر عبره أدبية الأدب في هذه النظرية، وهي أمر مرتبط - هنا - (بالانزياح الدلالي) (المجاز خاصة)،

¹ - أحمد المتوكل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، ص 220.

الذي يتولد عبر الخيال (التخيل) من أجل وقوع التخيل والغربة لدى المتلقين. ولعل هذا ما جعل البوشيخي يطلق على الملكة الشعرية مصطلح (الملكة التخيلية).

4 - مراحل إنتاج الخطاب الأدبي في نظرية النحو الوظيفي:

توصل أحمد المتوكل في إطار نحو الطبقات القالي إلى تحديد المراحل الرئيسة التي يمر بها المبدع في إنتاج الخطاب الأدبي، وهي:¹

1 - قرار الدخول في الخطاب.

2 - انتقاء الخطاب الإبداعي من بين أنماط الخطاب الممكنة.

3 - انتقاء الأسلوب المناسب.

4 - تحديد طبقات المستوى العلاقي وقيمها الملائمة.

5 - تحديد طبقات المستوى التمثيلي وقيمها الممكنة.

6 - انتقاء الصيغة الملائمة فالصورة المحققة النهائية.

لقد بين أن الخطاب الأدبي يعتمد بدرجة كبيرة، على القالب التداولي، والقالب الدلالي، والقالب الإبداعي وكذا القالب النحوي. بحيث يتم ذلك عبر تفاعل القالب التداولي والدلالي، في حين يقدم كل من القالب الإبداعي والقالب النحوي وظيفته بطريقة مستقلة. ويمكن توضيح ذلك على النحو الآتي:

أ - القالب التداولي والدلالي:

يتم عبرهما تحديد البنية التداولية والبنية الدلالية، و"يكون ذلك تبعاً للتوجيه الصادر عن مؤشر نمط الخطاب (الخطاب الإبداعي وجنسه (شعر، رواية، أقصوصة)، الممثل له في الطبقة الثانية من المستوى البلاغي والذي يتحكم في تحديد طبقات هاتين البنيتين، وقيمهما، والعلاقات القائمة بين عناصرها"²، فكل ما يقتضيه تحديد تلك البنيتين يكون بمقتضى نمط الخطاب الأدبي الإبداعي (الذي يقصد به هنا جنسه). ولعل أهم ما يجب توضيحه هو أن تحقيق المستوى البلاغي الذي يأخذ المراحل الأولى الثلاثة، يكون أسبق من تحقيق البنية التداولية والدلالية الذي يكون تحقيقاً للمستوى العلاقي، والمستوى التمثيلي على التوالي، ويعني ذلك أن الخطاب الإبداعي يماثل

¹ - أحمد المتوكل، الوظيفة بين الكلية والنمطية، ص 42.

² - ينظر: المصدر نفسه.

الخطاب العادي حيث يضم كلاهما ثلاثة مستويات هي:

- المستوى البلاغي: (طبقة نمط الخطاب، طبقة الأسلوب، طبقة المركز الإشاري).
- المستوى العلاقي: (طبقة إنجازية، طبقة وجهية، طبقة استرعائية).
- المستوى التمثيلي: (طبقة وصفية، طبقة تسويرية، طبقة تأطيرية).

ب - القالب الإبداعي:

يضطلع بتحديد صيغة الخطاب الفنية وصياغة البنية الإبداعية، حيث "يدرج ناتج القالبان التداولي والدلالي في القالب الإبداعي، وفي القويلب المناسب على الخصوص المعد للجنس الإبداعي المنتقى الذي يسخر وإلياته لتحديد الصيغة الفنية للخطاب، ويكون الناتج البنية الإبداعية"¹، فبناء على تنوع الأجناس الأدبية (الشعر، الرواية، القصة ..)، تم افتراض وضع قويلبات خاصة بكل جنس داخل القالب الإبداعي، وحسب هذا التصور يتيح قويلب الرواية - مثلا - إمكانية اختيار السمات الفنية الملائمة للصيغة الفنية، وهو ما يعد في الوقت نفسه دخلا للبنية الإبداعية المناسبة. فكل قويلب مسؤول عن إمداد المبدع بخصائص البناء الأسلوبي الأدبي الفني الخاصة بجنسه.

يعني ذلك أنه يجب على المبدع أن يكون عارفا بخصائص الجنس الأدبي المروم تصميمه، وهذا ما يمكن توضيحه بالجنس الروائي مثلا؛ حيث ينبغي العلم "بأن الرواية نقل الروائي لحديث محكي؛ تحت شكل أدبي يرتدي أردية لغوية تنهض على جملة من الأشكال والأصول، كاللغة والشخصيات، والزمان، والمكان، والحدث، يربط بينها طائفة من التقنيات، كالسرد، والوصف، والحبكة، والصراع؛ وهي سيرة تشبه التركيب بالقياس إلى المصور السينمائي؛ بحيث تظهر هذه الشخصيات من أجل أن تتصارع طورا، وتتحاب طورا آخر؛ لينتهي بها النص إلى نهاية مرسومة بدقة متناهية، وعناية شديدة"²، فلكي يستطيع المبدع إنتاج رواية لا بد من التركيز الدقيق على خصائصها الفنية، التي تميزها عن بقية الأجناس: كاللغة، والشخصيات، والزمان، والمكان، والحدث، ولا شك في أن تحقيق البعد الشعري الفني يتمحور حول اللغة، غير أن ذلك يكون مؤسسا مع بقية العناصر، حيث تتضافر وتتداخل كلها من أجل بناء البنية الإبداعية بناء خاصا مميزا.

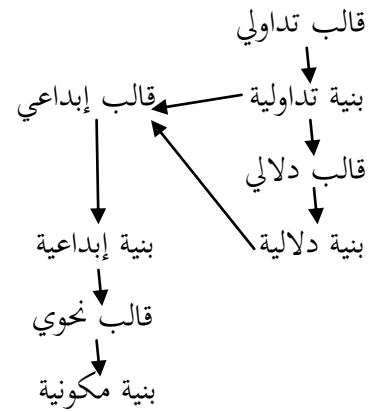
¹ - أحمد المتوكل، الوظيفية بين الكلية والنمطية، ص 42.

² - عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، ط: 2005، ص 30.

ج - القالب النحوي:

يتكفل بتمثيل البنية المكونية حيث "تضطلع قواعد القالب النحوي الصرفية والتركيبية والتطريزية، انطلاقاً من المعلومات الواردة في البنية الإبداعية، بتحديد البنية المكونية التي تشكل فيما بعد دخلاً للقواعد الصوتية التي تتكفل بتحقيقها صوتياً"¹، إن ما يتعلق بالقالب النحوي يمثل المرحلة النهائية التي يمر بها أي خطاب (عادي أو أدبي)، إذ تتم صياغة البنية المكونية من خلال التحقيق الصوري الشفوي أو الكتابي. ويأخذ ذلك الشكل الآتي²:

نموذج مستعملي اللغة الطبيعية



رابعا - العبارات المجازية في نظرية النحو الوظيفي:

ركز أحمد المتوكل في خضم الوقوف على العبارات المجازية في نظرية النحو الوظيفي، على مناقشة ما الذي يمكن المخاطب من إدراك العلاقات المجازية، وإعطاء العبارات التي يرد فيها هذا الضرب من العلاقات التأويل الملائم، وذلك على مستوى نموذج مستعملي اللغات الطبيعية. وقد قدم كمحاولة لتوضيح ذلك افتراضين. - **الافتراض الأول:** اقترح من خلاله "أن ما يؤهل المخاطب لذلك، التفاعل بين الملكات اللغوية والمعرفية والمنطقية. ويتم رصد العلاقة المجازية بواسطة القالب النحوي والقالب المنطقي"³، حيث يتم عبر ذلك تحليل مفردات العبارة المجازية بناء على طبيعة القيد الذي تم خرقه، وذلك على أساس المعلومات اللغوية والمعرفية التي تتوفر لديه.

¹ - أحمد المتوكل، الوظيفية بين الكلية والنمطية، 42.

² - المصدر نفسه، ص 43.

³ - أحمد المتوكل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، ص 344.

- **الافتراض الثاني:** ذهب فيه إلى "أن الظواهر المجازية بصفة عامة، من اختصاص قالب مستقل، وهو القالب الشعري الذي يتفاعل مع غيره من القوالب"¹، يمكن توضيح ذلك عبر الجملة الآتية: بدت أمينة قمرا في الحفلة.

- **القالب التداولي:** يتولى تتبع العلاقات التداولية المتمثلة في كون الجملة خبرية، وكون أمينة محورا، وقمرا بؤرة جديد.

- **القالب الدلالي:** يتكفل بتحقيق العلاقات الدلالية لمفردات الجملة؛ كون قمر محمولا دالا على الحالة، وأمينة تؤدي وظيفة الحائل، وكلمة الحفل لاحق مكاني.

- **القالب النحوي:** يقوم بإسناد قواعد التعبير المتعلقة بتحقيق رتب الكلمات، فيتم ترتيب كلمة (هند) قبل المركب الاسمي (قمر)، ويترتب هذا المركب قبل رتبة المكون اللاحق (الحفل). كما يساهم هذا القالب على تحقيق القواعد الصرفية بالصرفات اللازمة؛ المتمثلة في هذه الجملة في: زمن الماضي كان، وجهة التمام، وكذلك يعمل على إسناد القواعد التطريزية التي يتم بموجبها إسناد التنعيم وتحقيق النبر. ويمكن أن تتدخل في هذه العملية القوالب الأخرى أهمها:

- **القالب المعرفي:** يساعد هذا القالب في تحديد نوع الإحالة؛ وذلك بأنها ذكرية وليست عهدية.

وقد تم التطرق في هذا السياق لتوضيح دور القالب الاجتماعي، حيث يحتل "دورا في وصف الظواهر المجازية؛ إذ إن هذه الظواهر كباقي الظواهر اللغوية، تخضع إلى حد بعيد للعوامل الثقافية. فالاستعارات الممكن استعمالها في ثقافتنا العربية مثلا قد لا تستعمل في غيرها من الثقافات"². فالاستعارة الواردة في الجملة الآتية: كانت أمينة قمرا في الحفل. قد لا نجد لها نظيرا في الثقافة الإنجليزية حيث من المستبعد أن يشبه الإنسان بالقمر لجماله.

Amina was a moon at the party.

يتدخل (السياق الثقافي) في توجيه عملية الاستعمال الخطابية التداولية داخل مجتمع لغوي معين، حيث يعد من أهم العوامل التي تفرض طريقة توظيف اللغة لفظا ودلالة، ويعرف هذا السياق بأنه "النظام الاجتماعي الذي يسمح لخطاب ما بالظهور دون غيره من الخطابات، كظهور خطاب النقائض في العصر الأموي، وخطاب المعارضات في العصر الحديث"³، وهذا ما يجعل لكل مجتمع لغوي استعمالات خطابية معينة، ترتبط ارتباطا وثيقا

¹ - أحمد المتوكل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، ص 344.

² - المصدر نفسه، ص 80.

³ - ينظر: عبد الفتاح أحمد يوسف، لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1: 2010، ص 26.

بثقافته، فنجد بناء على ذلك ألفاظ وعبارات قد لا تتوافر في ثقافة مجتمع آخر، كما يصعب ترجمتها بدلالاتها إلى اللغات الأخرى، ويرجع ذلك إلى ما تتضمنه من حمولات فكرية ثقافية اجتماعية إيديولوجية، تعبر عن نمط تفكير اجتماعي خاص، وهو حال الاستعمالات المجازية (كلاستعارة)، التي تعد مدلولاتها جزءا من ثقافتنا التي ترتبط بحياتنا اليومية.

خامسا - تحليل الخطاب الأدبي في نظرية النحو الوظيفي:

يكون تحليل الخطاب الأدبي حسب ما بينته نظرية النحو الوظيفي - وتحديدًا من خلال ما جاء به أحمد المتوكل - عملية منظمة، إذ تكون عبر مستويات ثلاثة: المستوى البلاغي، والمستوى العلاقي، والمستوى التمثيلي، وفي ذلك يعتمد المحلل على القوالب بحسب ما يحتاجه. وهذا ما يمكن توضيحه من خلال البيت الشعري الآتي:

يقول المتنبي:

خميس بشرق الأرض والغرب زحفه وفي أذن الجوزاء منه زمازم
أ- المستوى البلاغي:

- طبقة نمط الخطاب: ينتمي هذا البيت إلى النمط الوصفي الأدبي، حيث أراد المتنبي هنا وصف قوة جيش الروم وضخامة عدده. هذا الجيش الذي استطاع سيف الدولة الحمداني القضاء عليه بعقله وحكمته.

- طبقة الأسلوب: أسلوب هذا البيت خبري.

- طبقة المركز الإشاري: يشيد المتنبي في قصيدته ببسالة وبطولة سيف الدولة، وذلك ما يجعلنا نقول بوجود مخاطبين؛ مخاطب مباشر وهو سيف الدولة الذي ركز على التعزيز من شأنه وقوته ومدحه بذلك، ومخاطب ضمني وذلك ما يحتمل وجود ثلاثة أنواع؛ يتمثل الأول في العدو ألا وهو (أهل الروم)، أما الثاني فهو (شعب الخليفة) حيث يشمل ذلك كل شخص يعرفه في ذلك الزمن، أما الثالث فيشمل (كل شخص سيسمع عنه) في أي زمن آخر (في المستقبل)، وزمان البيت - زمن القصيدة - زمان العصر العباسي، أما المكان الذي تم فيه التخاطب فإنه غير محدد.

ب - المستوى العلاقي:

- طبقة إنجازية: أراد المتنبي هنا الإخبار وفق طابع شعري من أجل غرض المبالغة والتعظيم، حيث يعبر في هذا البيت عن العظمة التي تميز بها سيف الدولة، من خلال قدرته على غلبة وقهر جيش العدو الضخم، الذي ملأ

الأرض بخيوله وعتاده المهيب، وقد اعتمد في وصف ذلك الجيش على التصوير الشعري الذي ركز على المبالغة، وهذا ما تدل عليه الكلمات الآتية: (خميس، شرق، غرب، زمازم، الجوزاء).

- **طبقة وجهية:** يصور المتنبي هنا جيش الروم بدقة وكأنه كان حاضرا مشاهدا للمعركة، ولهذا فإن موقفه من هذه الواقعة موقف ذاتي، يتميز بقيمة مدحية تسعى إلى إثارة الحماس، فالقصيدة التي ينتمي إليها البيت حماسية (غرض الشعر الحماسي).

- **طبقة استرعائية:** أراد الشاعر مخاطبا لسيف الدولة مادحا له، إخبار المتلقي وإقناعه بحماسة قائد جيش العرب حيث يتصور ضخامة جيش العدو، في مقابل ذلك عدم استسلام سيف الدولة وانتصاره. وقد أراد لشعره أن يكون سجلا تاريخيا لتحليل تلك المآثر.

ج - المستوى التمثيلي:

- **طبقة وصفية:** يدور الوصف الذي يتضمنه ذلك البيت الشعري حول معركة وهي حدث تام.

- **طبقة تسويرية:** يأخذ المخصص الجهي السوري آني.

- **طبقة تأطيرية:** يمكن القول إن تحديد هذه الطبقة تابع لعلاقة الشاعر بأحداث المعركة ووقائعها. هل كان حاضرا لها أم سامعا عنها؟ قد نقلت له من طرف شخص أو أشخاص كانوا حاضرين، فإذا كان الرأي الأول فتأطير الواقعة يأخذ سمة حاضر، أما إذا كان الرأي الثاني فيأخذ سمة مضي.

- **القالب النحوي:** يساهم هذا القالب في فهم المعنى اللغوي الذي يحمله هذا البيت الشعري، من خلال ما يتيح من إمكانيات فهم وحدات البيت على المستوى الصرفي والتركيب والصوتي والدلالي المعجمي؛ حيث نتمكن من معرفة معاني المفردات المعجمية.

- **القالب المنطقي:** نتمكن عبر هذا القالب من تحديد القوة الإنجازية التي يتضمنها البيت، حيث ركز الشاعر على الإخبار وفق آلية المبالغة، إذ اعتمد على التصوير الفني الدقيق الذي يدخل في إطار التخيل، وهذا ما نجده واضحا في كلمات من قبيل: شرق الأرض، غربها، الجوزاء، زمازم، وهذا ما أدخله في مجال البلاغة، مما عمل على إخراج الغرض من الإخبار إلى التعظيم وذلك ما يمثل القوة الإنجازية.

- **القالب المعرفي:** يتيح هذا القالب التعرف على ما يحيل عليه هذا البيت، وهو ما يتوقف على معرفة السبب الذي قيل فيه والذي يرتبط بمعرفة سبب القصيدة ككل، ويتطلب ذلك توفره على المعلومات الآتية: أن هذا البيت يتحدث عن المعركة التي وقعت بين جيش الروم وجيش سيف الدولة، ويصف ضخامة جيش العدو الذي لم

يرهب ويهز قوة محاربي جيش العرب بقيادة سيف الدولة، وأن الشاعر قد أراد الافتخار بذلك القائد الشهم ومدحه، حيث ركز على غرض المدح والحماسة.

- **القلب الإدراكي:** يسهم هذا القلب في "جعل القارئ يعيد بناء عناصر المقام باستحضار المشهد التبليغي العام، بتخيل عناصره العامة"¹، فيتصور أحداث المعركة، التي تضم خصمين جيش الروم الكبير وجيش العرب القليل، وهي معركة دامية مهولة، تضم عددا ضخما من المحاربين الذين تتعالى هتافاتهم، التي تتداخل وأصوات الخيول بين صهيلهم ووقع حداوتهم، وأصوات السيوف الحادة التي تخلف ضحايا كبيرة، أين تتدفق دماء القتلى والجرحى المروعة.

- **القلب الاجتماعي:** يمكن هذا القلب من تعيين علاقة المتنبي بالمخاطب الرئيس الذي أراده من وراء وصف جيش الروم؛ أي علاقته بسيف الدولة الحمداني، وهي علاقة الشاعر بسيدته التي سادت في العصر العباسي، وغيره من العصور التي عرفها العرب، حيث يسعى الشاعر إلى تأكيد المنزلة الرفيعة لسيدته، وعرض خصاله وبطولاته من خلال غرض المدح (وذلك ما كان عليه ذلك السيد حقا).

- **القلب الشعري:** تتداخل مختلف ما تتيحه تلك القوالب مع هذا القلب، الذي يساهم في توضيح ماهية المبالغة التخيلية، التي صنعها الشاعر ليصور بطريقة فنية ضخامة جيش الروم الذي وصفه بأنه خميس. وذلك (كناية عن العدد الكبير). الذي اكتسح الأرض عددا وصوتا وذلك ما تعبر عنه كلمة زمازم "أصوات لا تفهم لتدخلها"²، حيث خرج من خلال هذا الأخير لمجال الجوزاء*. وقد جعل الجوزاء على صورة إنسان وذلك ما تدل عليه قرينة الأذن، وهذا ما ينتمي إلى (الاستعارة)، وقد ساهمت هذه الظواهر في توليد المبالغة التخيلية الشعرية، حيث نلاحظ لمسة التصوير الفني الإبداعي البلاغي، الذي يجعل المتلقي يعيش الحدث، ويؤكد ما يريده الشاعر في ذهن المتلقي بطريقة ممتعة مقنعة.

سادسا - البلاغة في نظرية النحو الوظيفي:

يعد فعل التواصل حسب نحو الخطاب الوظيفي مصدر تحلي الملكة الشعرية لدى مستعمل اللغة الطبيعية، الذي يروم من خلالها تحقيق أغراض معينة؛ ويمكننا بالنظر إلى مخطط سيمون ديك السابق، القول إن **النمط التعبيري** (تعبير عن إحساس) و**النمط الاستشاري** (استشارة إحساس) النمطان الرئيسان، الذين تُفَعَّل على

¹ - يحي بعبطيش، نحو نظرية وظيفية للنحو العربي، أطروحة دكتوراه، جامعة منتوري قسنطينة، 2005، 2006، ص 541.

² - عبد الرحمن البرقوقي، شرح ديوان المتنبي، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر - القاهرة، ط2: 2014، ص 1315.

* - يقصد برج الجوزاء.

أساسهما تلك الملكة بدرجة كبيرة، وهذا ما يخدم المتكلم والمتلقي، وذلك تماشياً مع الأبعاد التواصلية التي تكون في الغالب نفسية وتداولية اجتماعية، محكومة بأهداف نفعية.

- الحالة الأولى:

يمكن أن يوظف المتكلم ملكته الشعرية قصد التعبير عن إحساس ذاتي معين، وهو ما يكون في الحقيقة تعبيراً عن حالته النفسية، حيث يحاول وصفها بدقة عبر صورة كلامية موحية، فيتولد الخطاب الفني الشعري المؤثر وهذا ما نجده مثلاً في الشعر الذاتي، الذي يعبر فيه عن حالته النفسية ومشاعره، التي يحس بها جراء موضوع معين وذلك ما نجده - مثلاً - في الخواطر النفسية والسيرة الذاتية.

- الحالة الثانية:

يمكن كذلك أن يشغل المتكلم تلك الملكة قصد استثارة إحساس، وهنا يتعلق الأمر بوجود طرف ثاني؛ متلق معين (أو مجموعة متلقين) بحيث يكون الطرف المقصود بما يصدره المتكلم في خطابه، وحسب ما توحى به كلمة استثارة التي تقول إلى الإثارة، يعد الجانب النفسي الجانب المستهدف للفعل الخطابي الاستثاري الذي يقوم على التأثير في المتلقي بضمان قبوله. وذلك ما يقتضي العناية بالخطاب؛ حيث ينبغي أن يتضمن إيجاءات ودلالات فنية تكون قادرة على الجذب والإيقاع. وهذا ما يستند على الملكة الشعرية (أو الإبداعية) التي تتميز بطابعها الفني التداولي الاجتماعي الذي يتماشى وذلك الفعل.

يتضح من خلال ذلك أن الملكة الشعرية تُوظف في سياقات ذات طبيعة وظيفية تداولية نفعية، تهتم بخلق الشعرية، ومما لا شك فيه أن ذلك يتطلب اللجوء إلى (التشكيل اللغوي الإبداعي الفني)، عبر استعمال أساليب بلاغية تتميز بقوة التأثير الدلالي. وذلك كالأاليب المجازية والاستعارية التي تتميز بقدرتها الإمتاعية الإقناعية التي يمكن أن توفرها للوظيفة التواصلية.

يمكننا أن نبنى هنا فكرة اقتران الحديث عن الملكة الشعرية، بناء على طبيعتها ومظاهرها تحليلاتها (مجالات وأبعاد توظيفها) بالبلاغة، ولعل مسوغ ذلك يكمن في لجوء مستعملي اللغة الطبيعية عبر ميزات القدرة التواصلية بملكاتها الست، إلى إنشاء خطابات بلاغية تجمع بين سمتي التواصلية والفنية. فقد ركز نحو الخطاب الوظيفي عبر نموذج مستعملي اللغة الطبيعية على الجمع بين الخطاب العادي والخطاب الأدبي، ولعل أساس إقرار ذلك راجع إلى

اعتبار كلاهما نشاطا خطائيا تواصليا (وظيفيا) فنيا. ويمكن من خلال هذا الافتراض القول إن أهم المبادئ التي استند عليها الوظيفيون في ذلك هي:

- أ - مبدأ الوظيفية: يكون استعمال أي خطاب مشروط بوجود سياق تواصلية معين يرتبط به.
- ب - مبدأ الخطابية: يكون أي فعل لغوي خطابا، من خلال تأديته لمعنى وغرض تواصلية محدد. ويرتبط هذا المبدأ مع المبدأ الأول ارتباطا وثيقا، ويتعلقان بالقدرة التواصلية بكل ملكاتها.
- ج - مبدأ الفنية: يتوفر كل خطاب ناجح عبر ملكة القدرة التواصلية الشعرية - في ترابطها مع الملكات الأخرى الخمس - على سمة الفنية، حيث تكون سمة قارة فيه، سواء بصورة مضمرة وذلك في الخطاب العادي أو بصورة ظاهرة في الخطاب الأدبي.

تأسيسا على ذلك يمكن القول من منظور وظيفي، إن الحديث عن الخطاب بمختلف خصائصه يرتبط بالبلاغة؛ حيث يمكن تحديد مفهوم الخطاب على أنه نشاط بلاغي، وذلك بأن تشمل البلاغة وظائف القدرة التواصلية بكل ملكاتها الست.

- 1 - البلاغة والملكة اللغوية: يكون الخطاب حسب هذه الملكة نشاطا بلاغيا تواصليا لغويا.
 - 2 - البلاغة والملكة المعرفية: يعد الخطاب حسب هذه الملكة نشاطا أو فعلا بلاغيا تواصليا معرفيا.
 - 3 - البلاغة والملكة الإدراكية: يعد الخطاب حسب هذه الملكة نشاطا بلاغيا تواصليا إدراكيا.
 - 4 - البلاغة والملكة المنطقية: يعد الخطاب حسب هذه الملكة نشاطا بلاغيا تواصليا منطقيًا.
 - 5 - البلاغة والملكة الاجتماعية: يعد الخطاب حسب هذه الملكة نشاطا بلاغيا تواصليا اجتماعيا.
 - 6 - البلاغة والملكة الشعرية: يعد الخطاب حسب هذه الملكة نشاطا بلاغيا تواصليا إبداعيا فنيا.
- يوضح ذلك أن البلاغة في نظرية النحو الوظيفي: (فعل خطابي وظيفي تواصلية) يعتمد على، اللغة، المعرفة، الإدراك، المنطق، البعد الاجتماعي، ويكون إما عاديا أو أدبيا شعريا.

سابعا - نحو بلاغة وظيفية عامة:

أفضى - بنا - البحث عن أهم خصائص الدراسة النظرية والإجرائية للخطاب داخل نظرية النحو الوظيفي، الوصول لنتيجة مفادها: أن هذه النظرية قد تناولت الخطاب من زاويتين؛ زاوية عامة ركزت على بعده الوظيفي، وزاوية خاصة ركزت بالإضافة إلى ذلك على بعده الأدبي الفني.

فقد وقفت هذه النظرية على مختلف حالات وأبعاد استعمال الخطاب، التي يُفَعَّل ويُوظَّف فيها مستعمله (المنتج/المؤول) ملكات قدرته الخطابية بدرجات متفاوتة ومتباينة، وذلك حسب ما يخدم - بالدرجة الأولى - أغراضه المستهدفة ويلبي ما يريد الوصول إليه - سواء أعلق الأمر بمستوى الإنتاج أو مستوى التلقي -، وهي ما تكون في الغالب بين بعدين خطابين: البعد الوظيفي التواصلي المحض والبعد الوظيفي التواصلي الفني، وذلك ما يعكس تحلي الخطاب في شكله العادي وغير العادي.

لقد قادنا تقصي حضور البلاغة في هذه النظرية، والعمل على تشخيص نوع الرؤية البلاغية فيها، ومن ثمة محاولة الإجابة عما إذا كانت هذه النظرية نظرية بلاغية بالإضافة إلى طبيعتها اللسانية؟، وإذا كانت كذلك فمع أي توجه غربي بلاغي يمكن تصنيفها؟، أم أنها تشكل توجهها بلاغيا قائما بذاته؟، التأكيد استنادا على كيفية تعاملها مع الخطاب، أن البلاغة قد تجلت في هذه النظرية من خلال بعدين خطابين وهما:

أ - البعد الوظيفي التواصلي:

يؤدي الوقوف عند حدود هذا البعد إلى جعل البلاغة - بالنظر إلى وظيفة الخطاب التواصلية - مرادفة للتواصل، وقد ركزت على ذلك نظرية النحو الوظيفي؛ إذ قادها الأصل المنهجي الإستيمولوجي التواصلي والتداولي، التأسيس للطرح القائل بأن الفعل الخطابي فعل تبليغي تداولي، فكان السعي لبناء نحو الخطاب الوظيفي من أجل ترسيخ ذلك الطرح، وإرساء نظرية في البلاغة الوظيفية من أهم مطامحها.

يجعلنا هذا الأمر نسلم بأن البعد البراغماتي (النفعي) لأي خطاب يرتبط - أولا وقبل كل شيء - بتحقيق وظيفة التواصل، حيث يعد تأدية هذه الوظيفة بنجاح مقياس المنفعة الرئيس في هذه النظرية؛ إذ يمثل ذلك الحرك الأول الذي يدفع مستعملي الخطاب (منتجين/ مخاطبين) إلى تشغيل قدرتهم الخطابية، وهذا ما يؤدي إلى ظهور البلاغة وذلك باعتبارها وظيفة تواصلية وعملية تداولية اجتماعية.

ب - البعد الفني الإبداعي:

يتمحور هذا البعد حول أسلوب الخطاب الفني الإبداعي أين يتجلى تميزه، فيكون مفهوم البلاغة بذلك مفهوما وظيفيا إبداعيا؛ وذلك حيث يعد الخطاب أداة للتبليغ والتأثير بطريقة فنية يركز فيها مستعمله (منتجين/ مؤولين) على الأدبية؛ عن مدى حضورها وكيفية تحقيقها وتحليلها.

يرتبط ذلك البعد - وكل ما يتعلق به - في إطار نظرية النحو الوظيفي، بالملكة الشعرية التي تختص ببلاغية (فنية)

الخطاب الأدبي إنتاجا وتأويلا.

ونشير هنا إلى أن التسليم بثنائية لغة عادية/ لغة فنية، باعتبار الأولى سمة الخطاب العادي والثانية سمة الخطاب الأدبي، هو ما ميز جميع الدراسات الغربية قبل نظرية النحو الوظيفي وهو ما أكدته هذه الأخيرة كذلك، ويعد البعد الأول البعد الرئيس الذي يميز استعمال أي خطاب وظيفي.

ينبغي العلم من منظور خطابي وظيفي كلي، يركز على مبدأ التكامل بين جميع أبعاد النشاط الخطابي التواصلية لمستعملي اللغة الطبيعية، وذلك باعتبار انتمائه إلى قدرة تواصلية واحدة، أن الحديث عن هذين البعدين ينتمي إلى إطار نظري ومنهجي واحد يوطره مبدأ الكلية، الذي تعمل به نظرية النحو الوظيفي في دراستها للخطاب، وهذا ما يجعل مشروع البلاغة فيها خاضعا لذلك المبدأ - أيضا - حيث يصبح الأمر متعلقا بنحو خطابي وظيفي بلاغي كلي؛ أي (بلاغة وظيفية عامة) تهتم بكل الخطابات الوظيفية على اختلاف نوعها، وذلك وفقا لقوانين نموذج مستعملي اللغة المتعلقة بالاشتغال النسقي الترابطي، للقدرة التواصلية (ملكاتها الست).

فقد عد التركيز على توحيد دراسة الخطاب من حيث الأقسام والأنماط أهم هدف، حيث بين المتوكل أن "رفع تجزيء القدرة التواصلية والسعي في توحيدها لا يخص أقسام الخطاب وإنما يمتد إلى أنماطه كذلك. فليست هناك، خلافا للمعتقد السائد، قدرات تختلف باختلاف أنماط الخطاب كأن تكون للخطاب الأدبي (الإبداعي، الفني) قدرة تخالف قدرة الخطاب العادي"¹، فكلها صادرة عن قدرة واحدة تعكس ماهية اشتغال العقل البشري، فلكل إنسان عقل واحد تصدر عنه مختلف استعمالاته الخطابية، وهو ما توضحه القدرة التواصلية. وهذا ما تم تجسيده تحت مسعى مبدأ الكفاية النفسية في إطار نموذج مستعملي اللغات الطبيعية، الذي يصف ويرصد استعمال الخطاب، وذلك بالعمل وفق مبدأ الكفاية النمطية الذي تم الانتقال فيه - كما سبق وأن بينا في الفصل الثالث - من تنميط اللغات إلى تنميط الخطابات.

كان إضافة الملكة الشعرية كمكون (ملكة) قار من مكونات القدرة التواصلية، طريقا مباشرا للفصل في إشكالية نوع الدراسة التي يجب أن تختص بالبحث في الخطاب الأدبي؛ حيث "عد بالدرجة الأولى، مرد إشكال الفصل بين لسانيات الجملة ولسانيات النص وانقسام الدرس اللساني"²، إذ لا يمكن للسانيات الجملة - حسب ممثلي لسانيات النص - بمنهجها الشكلي الضيق دراسة الخطاب الأدبي بكل خصائصه، ولذلك فهو من

¹ - أحمد المتوكل، الوظيفية بين الكلية والنمطية، ص 20.

² - المصدر نفسه، ص 45.

اختصاص دراسة كلية شاملة تتجاوز حدود الجملة وتهتم بالنص أو (الخطاب). وذلك ما فصلت فيه نظرية النحو الوظيفي؛ حيث عنيت بتأسيس نحو وظيفي خطابي كلي يتجاوز فكرة الفصل بين أقسام الخطاب. إذ تقول كلها إلى نظرية واحدة وذلك ما يتعلق بالأنماط أيضا.

حاول الوظيفيون - في خضم ذلك - الانكفاء على دراسة كل الخطابات، تماشيا مع هدف الوصف والتفسير الكافيين لنموذج مستعملي اللغة الطبيعية، والخضوع لحقيقة تعدد مظاهر تجلي القدرة التواصلية حسب تفعيل ملكاتها، تبعا لاختلاف الغرض والسياق، ومن منظور الاستعمال الوظيفي البراغماتي جعلوا من مهام النظرية صلاحية الدراسة التحليلية لكل خطاب وظيفي؛ لغوي أو غير لغوي عادي أو أدبي؛ أي جميع الأنساق التواصلية. وهذا ما جعل بحوثها تتداخل بل وتقترب إلى حد بعيد مع ما اكتسح التفكير البحثي الإنساني المعرفي الحديث والمعاصر، ونقصد بذلك (البلاغة) بالمفهوم الكلي، وتحديدًا ما يعرف باتجاه (البلاغة العامة السيميائية) و(التداولية كذلك). ومفهوم البلاغة الكلي هو ما يكون للبلاغة، التي تتداخل من خلالها العديد من العلوم الإنسانية.

لقد بات الاهتمام فيها مركزا حول جميع أشكال وأنساق التواصل العادية منها والأدبية، إذ إن ما يهم الإنسان الاجتماعي في وقتنا الراهن، هو الاستثمار الناجع الفعال لخطاباته (المكتوبة، المنطوقة، الصورية (الشكلية) الإشارية)، في استعمالات اجتماعية تأثيرية على مستويات عدة (تعليمية، سياسية، دينية، دعائية إخبارية، فنية، اقتصادية...). وقد وقفت على ذلك نظرية النحو الوظيفي من خلال ما جاء به سيمون ديك عن التواصل، وهو ما عمل أحمد المتوكل على صياغته في نظرية التواصل الوظيفية العامة.

1 - تصور أحمد المتوكل حول نظرية التواصل الوظيفية العامة:

اقترح أحمد المتوكل - في خضم مشروع النحو الوظيفي الكلي - وضع (نظرية التواصل الوظيفية العامة)، وهو ما حاول توضيحه من خلال تصوره عن البنية الخطابية النموذج؛ حيث عمل على توسيع مجال تطبيقها وتطوير إمكاناتها، وذلك عبر نقلها من الكلية اللسانية إلى الكلية التواصلية، فقد كشف بأنه "يمكن لتلك البنية أن تعد واردة لا بالنسبة للغات الطبيعية فحسب بل كذلك بالنسبة للأنساق التواصلية غير اللغوية (موسيقى، صورة، سينما، إيماء...)"¹، فهي بنية تواصلية كلية تتشاكل من خلالها تقنيات التواصل اللغوي وغير اللغوي، ويتحدد تصور الكلية فيها - حسب رأي المتوكل - في مدى قابليتها بمستوياتها الثلاث المستوى البلاغي، والمستوى

¹ - أحمد المتوكل، الوظيفية بين الكلية والنمطية، ص 33.

العلاقي، والمستوى التمثيلي (طبقات كل مستوى)، لإيواء كل نسق تواصلية وإن كان ذلك بدرجات متفاوتة، وكذا صلاحية تعميم ما أوضحته عن مراحل إنتاج وتأويل الخطاب اللغوي للخطاب غير اللغوي كذلك. فكلاهما عملية تواصلية تضم (خطاب، مخاطب، متلقي، وسياق تواصلية)، كما يمر تكوين الخطاب في كل نوع على المراحل نفسها التي تشمل: النمط الخطابية التواصلية، القصد التداولي، الفحوى الدلالي، الصياغة الصورية المناسبة.

عقد ديك مقارنة بين بنية النص اللغوي وبنية القطعة الموسيقية، فتوصل من خلالها إلى الرصد الأولي لنقاط الالتقاء الآتية:¹

أولاً: يحدد مؤلف القطعة الموسيقية النمط الموسيقي الذي سيؤطر القطعة الموسيقية ويرمز إلى ذلك بعنوان القطعة (الجرياس مثلاً)، على غرار ما يفعله مؤلف النص اللغوي حين يحدد نمط خطابه (سرد، محادثة، رواية). ثانياً: بعد تحديد النمط الموسيقي وطبقاً له تتحدد سمات أخرى للقطعة الموسيقية، مثل النغمة والإيقاع التي تناظر السمات الأسلوبية في النص اللغوي.

ثالثاً: تنقسم القطعة الموسيقية إلى أجزاء (كوبليهات مثلاً) تربط بينها روابط الاتساق شأنها في ذلك شأن النص اللغوي الذي ينقسم إلى قطع وجمل محكمة بقيود الاتساق والانسجام.

لقد تطرق المتوكل من خلال هذا التصور لتوضيح أنواع تقنيات التواصل غير اللغوية، وذلك من منطلق إمكانات استعمالها، إذ تختلف باختلاف نوع الإنسان (عادي/ غير عادي)، وكذا بحسب الضرورة الاستعمالية؛ ونعني بذلك الأغراض والسياقات، كما تختلف تبعاً لنوع القناة أو التقنية المعتمدة، وهي حسب ذلك نوعان:²

أ - البسيطة: التي تعتمد على قناة أو تقنية واحدة حيث نجد:

- اللغة: (كلام أو كتابة).

- الصورة: (رسوم، شرائط صامتة).

- الصوت: (موسيقى، صراخ، أنين).

- الإشارة: (الإيماء ..).

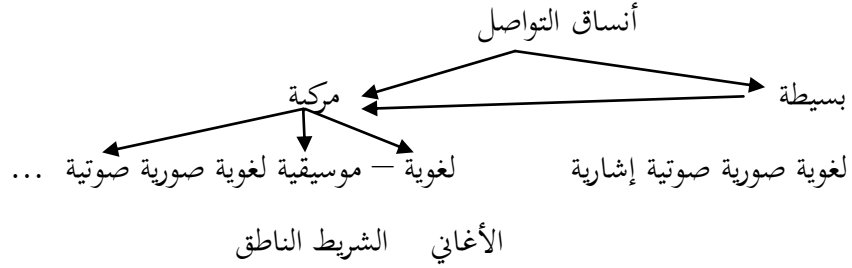
ب - المركبة: تتوارد فيها قنوات عدة، حيث يعتمد فيها المنتج على اللغة الطبيعية وآليات غير لغوية من بينها:

¹ - أحمد المتوكل، الوظيفة بين الكلية والنمطية، ص 74.

² - ينظر: المصدر نفسه، ص 51 و 52.

- الجمع بين الصورة والصوت: وأوضح مثال لهذه الفئة الشريط الناطق الذي يسخر اللغة الطبيعية والصورة المرئية والصوت (موسيقى ..).

وقد تم التمثيل لأنواع التواصل بالشكل الآتي:¹



ينبغي بالنظر إلى ما يفرضه الاستعمال الوظيفي البراغماتي المتباين لأنساق التواصل، قصد خدمة الإنسان المعاصر "تعميق البحث في توزيع الأدوار بين هذه الأنساق المختلفة حين تتوارد في نفس العملية التواصلية وكيفية تفاعلها فيما بينها لإنجاح هذه العملية"²، ولعل هذا ما دعت إليه مختلف التحولات التي اكتسحت العالم عبر ظاهرة التطور التكنولوجي، أين تغيرت مظاهر التفكير الإنساني الاجتماعي، حيث فرضت ثقافة التواصل الاجتماعي تعدد تقنيات التواصل وهذا ما يعني ضرورة مسايرة ذلك، وإلى جانب هذه الحقيقة فعلى البحث الإنساني المعرفي الشامل الوقوف على ما يخدم الإنسان العادي وغير العادي (نخص هنا فئة الأمراض اللغوية (الصم البكم مثلاً))، إذ لا بد من الاهتمام بجميع أشكال المعاملات الاجتماعية التواصلية لغوية كانت أم غير لغوية.

لقد غدا هذا الملمح - في الواقع - من أهم الأهداف العلمية التي ركزت عليها أغلب النظريات المعرفية الإنسانية، (الأنثروبولوجية، الفلسفية، التواصلية، اللسانية). حيث تم السعي لدراسة موضوع (التواصل البشري) دراسة شمولية. وقد اقتضى طابعه العلمي الشامل تضافر علوم ذات توجهات مختلفة لغوية وغير لغوية، لتكون النظرية الواحدة ذات أساس معرفي متداخل العلوم وهو ما ميز اللسانيات. ولعل هذا ما تجلّى في نظرية النحو الوظيفي عبر تصور البنية الخطابية النموذج، الذي أراد تجسيد تصور سيمون ديك فيما أسماه (النظرية التداولية الوسعي) أو (النظرية الوظيفية المثلى)، التي تعنى بمختلف أنماط الخطاب وأجناسه (البسيط، المركب، العادي،

¹ - أحمد المتوكل، الوظيفية بين الكلية والنمطية، ص 52.

² - المصدر نفسه.

الأدبي). ويمكن توضيح الرؤية الكلية الشمولية التي ميزت نظرية النحو الوظيفي في دراستها للخطاب التواصلية من خلال الجوانب الآتية :

أ - **الجانب الذهني**: فقد بينت أن الخطاب عملية ذهنية إنتاجية وتأويلية، وهو ما تمثله البنية التحتية ويرتبط هذا الجانب بالقلب المنطقي والقلب الإدراكي والقلب المعرفي.

ب - **الجانب النفسي**: يوضح مفهوم الوجه في هذه النظرية أن الخطاب تابع - بدرجة كبيرة - لعوامل نفسية سابقة، أو متواترة لإنتاج الخطاب وتأويله، وهذا ما نجده في الخطاب الذاتي خاصة، ويمكن - حسب رأينا - تخصيص قالب لهذا الجانب وهو ما يمكن - أن نقترح - تسميته بـ: (القلب النفسي).

ج - **الجانب الاجتماعي**: يعد الخطاب سيرة من السياقات الاجتماعية التداولية المترابطة، التي تتحكم في إنتاجه وتأويله، وهو ما يدخل في إطار السياق الخارجي (العام، الثقافي، الاجتماعي ..)، وذلك ما يخص القلب الاجتماعي.

د - **الجانب الشكلي**: يتعلق هذا الجانب بالتجسيد الصوري للخطاب، وذلك ما يتكفل به - حسب رأينا - قالب خاص نطلق عليه (القلب الإنجازي)، وهذا ما يتطلب ملكة خاصة وهي (الملكة الأدائية)؛ وهي ملكة عامة - تمثل القدرة التواصلية - تتضمن ملكات جزئية ألا وهي: (ملكة الأداء اللغوي (نطقاً أو كتابةً)) (وملكة الأداء غير اللغوي (رسم، موسيقى، إشارة))، وذلك سواء أكان الأداء الخطابي التواصلية عادياً أم فنياً حيث نجد (الملكة الشعرية).

2 - خصائص البلاغة في نظرية النحو الوظيفي:

تتجلى مظاهر البلاغة الوظيفية العامة التي ميزت نظرية النحو الوظيفي في تناولها الكلي لجميع جوانب الخطاب، وذلك ما نوضحه عبر الأبعاد الآتية:

أ - **بعد شكلي**:

لقد أكد الوظيفيون عبر طريقة اشتغال نموذج مستعملي اللغة الطبيعية أن الخطاب أولاً وقبل كل شيء، تخطيط تصوري ذهني، ينبغي تحقيقه صورياً أي بناؤه بناء سليماً تاماً (تركيباً ودلالة)، وهذا بمقتضى ما تستدعيه الوظيفة التواصلية، ويمكن أن يتضمن الخطاب إلى جانب هذه الوظيفة وظيفة بلاغية فنية وذلك في الخطاب

الأدبي، الذي يستند على اللغة الفنية الشعرية التي تتولد من خلال مظاهر الإلباس والانزياح الدلالي، الذي يتكفل به القلب الشعري، وهذا ما يجعل هذه النظرية تتشاكل مع التوجهات الآتية:

- الشعرية:

فقد ركز هذا التوجه على الوظيفة الشعرية التي تميز الخطاب الأدبي عن الخطاب العادي، وهو ما يقوم على اللغة الفنية التي ترتبط بالانزياح.

- الأسلوبية:

ألح هذا التوجه كذلك على جمالية الأسلوب في الخطاب الأدبي، وذلك ما جعلوا توفره قائما على ظاهرة الانزياح.

ب - بعد وظيفي:

حرصت هذه النظرية على تأكيد وجوب تبعية مختلف عمليات الخطاب العادي إنتاجا وتأويلا، لمبدأ ربط البنية بالوظيفة، وهذا ما ينطبق على الخطاب الأدبي إذ يكون توليد اللغة الفنية، بمظاهر الانزياح المختلفة على أساس ذلك المبدأ، وهو ما يجعلها تتداخل مع (الأسلوبية الوظيفية) من خلال تصور حلقة براغ بريادة جاكسون، وكذا (الاتجاه التداولي).

ج - بعد كلي شمولي:

فقد عنت بكل الخطابات الوظيفية التواصلية، التي يمكن أن يوظفها الإنسان في حياته لغوية، وغير لغوية، عادية أو أدبية، وذلك بتوضيح ما تتطلبه إنتاجا وتأويلا، وهذا الطابع الكلي يجعلها تتداخل مع:

- السيميائية:

لقد اهتم باحثوها بدراسة شاملة لجميع أنساق التواصل العادية والأدبية، وقد تمخض عن البحث في هذا النوع الاتجاه البلاغي السيميائي، الذي ولد (بلاغة تحليلية) تعنى (بتحليل الخطاب)، ويعد الوقوف على هذا الجانب أهم خاصية يتميز بها التصور البلاغي في نظرية النحو الوظيفي.

- نظرية التواصل:

انشغلت هذه النظرية بتوضيح كل أنواع التواصل وتحليلاته مبينة أن مختلف نشاطات الإنسان الخطابية

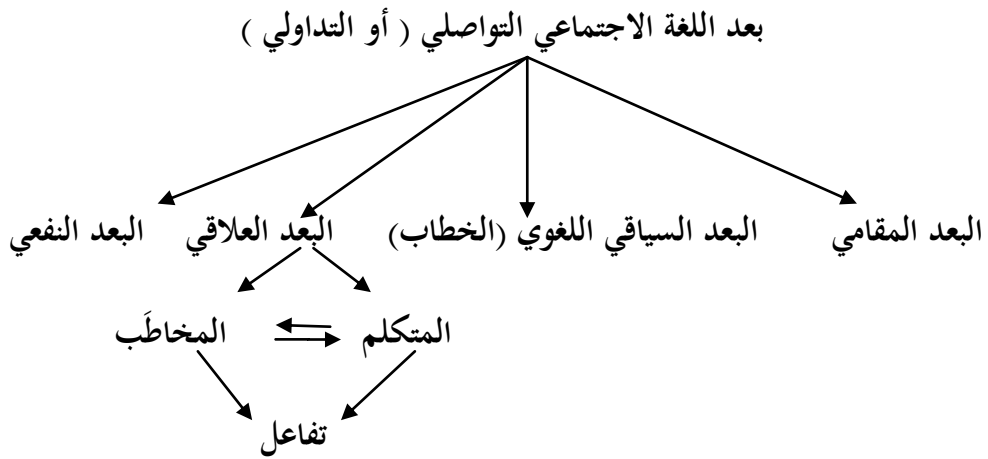
تواصلية، وذلك ما هو عليه الأمر في نظرية النحو الوظيفي، التي أكدت أن الفعل الخطابي بمختلف أجناسه وأنماطه فعل تواصلية.

نعثر على ما جاءت به السيميائية ونظرية التواصل في بلاغتنا العربية من خلال ما قدمه (الجاحظ) في (نظرية البيان)، وهذا ما يجعل نظرية النحو الوظيفي تتشاكل مع هذه النظرية أيضا، وذلك ما أكدته تصور أحمد المتوكل عن البنية الوظيفية النموذج، التي تعد أفكار تلك النظرية العربية من أهم أصولها الإستيمولوجية، وذلك ما ينطبق أيضا على أفكار وتصورات (نظرية النظم).

ثامنا - البلاغة بين نظرية النظم ونظرية النحو الوظيفي:

أثبتت الدراسات اللسانية العربية الحديثة أن المنهج الذي ميز نظرية النظم هو منهج وظيفي تداولي، وهو ما تلتقي من خلاله مع النظريات الوظيفية التداولية التي تعد نظرية النحو الوظيفي أبرزها. إذ تجتمع النظريتان من خلال خاصية الوظيفية التي يجسدها البعد الوظيفي التداولي الاجتماعي للغة، وذلك ما صاغه ممثلو النحو الوظيفي في مبدأ ربط بنية اللغة بوظيفتها التواصلية.

ويمكن توضيح بعد اللغة الاجتماعي التواصلية، الذي يتضمن بدوره - حسب رأينا - أبعاد فرعية: بعد مقامي، بعد سياقي لغوي، بعد علاقي، بعد نفعي، من خلال الشكل الآتي:



(أ) شكل يوضح: الأبعاد الفرعية لبعد اللغة الاجتماعي التواصلية (أو التداولي).

وهذا الأمر هو ما ركزنا عليه في مقارنتنا؛ إذ جعلنا هذه النقطة (خاصية الوظيفية)، الأساس والمنطلق الذي انطلقت منه المقارنة التي أجريناها. فحيث كان المنهج واحد، كان لابد حينها من وجود نقاط يتداخل أو يتشابه فيها التصور البلاغي داخل كل نظرية.

1 - أوجه التداخل أو التشابه:

ركزت كل من نظرية النظم ونظرية النحو الوظيفي على بعد اللغة الاجتماعي التواصلية، الذي يتعلق بالملكة التبليغية، وهو ما يعني الاهتمام بالنشاط اللغوي التواصلية الذي يجسده الفعل الخطابي، ليصبح الأمر مرتبطا بالملكة الخطابية. لتجتمع كلا النظريتان حول مسعى خدمة مستعملي اللغة متكلمين/ متلقين لتفعيل تلك الملكة بطريقة فعالة ناجحة، سواء في معاملاتهم (اليومية التواصلية العادية)، أين تحضر البلاغة؛ وذلك باعتبارها - أولاً

وقبل كل شيء - عملية أو ممارسة خطائية وظيفية تواصلية اجتماعية، (أو الأدبية الفنية) حيث تعد البلاغة ممارسة خطائية وظيفية اجتماعية إبداعية فنية. وهذا ما جعلنا نذهب إلى تقسيم ما جاءت به كل من تلك النظريتين إلى جانبين جانب نظري عام وجانب نظري خاص.

1 - 1. الجانب العام:

نقصد بالجانب العام الجانب الذي تمثله ما قدمته كل نظرية من مبادئ وقواعد استعمال الخطاب استعمالاً ناجحاً، والتي تجعل الباحث يقر بأن البلاغة عملية لغوية خطائية تواصلية، تتم بين طرفين في إطار سياق تواصلية معين، مداره الإبداع والتعبير عن مقاصد محددة، ويشمل مستعملي الخطاب متكلمين/ متلقين عاديين، وذلك قبل دخول مجال الإبداع. ولذلك فإن أهم ما يلاحظه الباحث هو أن كل من نظرية النظم ونظرية النحو الوظيفي؛ قد اهتمتا بالمنتج (المتكلم) والمتلقي؛ ما يعني الانشغال بعملية الإنتاج والتأويل على حد سواء؛ إذ عملتا على تبين مختلف متعلقات آليات نجاح كل عملية - في شكلها العام - حيث يكون مستعمل الخطاب ناجحاً.

أ - نظرية النظم:

فقد حددت هذه النظرية أسس النظم باعتباره صناعة كلامية تتطلب مراحل محددة؛ (التعلق النحوي، النظم النفسي، انتقاء معاني النحو، تخير الموقع، النظم الشكلي)، وتتعلق هذه المراحل بأي خطاب بغض النظر عن نوعه، وقد وُجهت النظرية إلى المتكلم الذي يشرف على عملية إنتاج الخطاب، والمتلقي الذي يعمل على تحليل الخطاب وفهم معانيه.

ب - نظرية النحو الوظيفي:

عُيّنت هذه النظرية بالخطابات التواصلية على اختلاف أنساقها وأنماطها، وقد بينت عبر نموذج مستعملي اللغات الطبيعية، أن الخطاب يركز على ثلاثة مستويات: مستوى دلالي، مستوى علاقي، مستوى صرفي تركيب، وأن عملية إنتاجه وتأويله تقوم على ملكات وقوالب محددة. ترتبط البلاغة حسب كل تصور بالخطاب بعده عملية تواصلية، تقتضي توفر منتج ومتلقي وسياق خارجي (المقام)، وقد ركزت النظريتان على هذه العناصر، ومن مظاهر تداخلهما نجد:

- تأكيد أهمية المنتج:

مثل الاهتمام بالمتكلم ومختلف ما يتصل به أحد أهم المسلمات والمبادئ الأولية التي أقرتها نظرية النظم وكذا نظرية النحو الوظيفي؛ حيث عنيّا بتأكيد فاعلية المنتج ودوره المركزي الرئيس، الذي يحتله في العملية الخطابية التواصلية، ومن خلال ذلك حرصت كلا النظريتين على تبيين وظيفته التبليغية، التي تقتضي ضرورة تحقيق وضوح الخطاب وسلامته. وأهم ما لاحظناه بخصوص ذلك هو اجتماع النظريتين حول وجوب التركيز في بناء الخطاب على الأسس الآتية:

أ - القصد التواصل (الغرض من الكلام).

ب - الفحوى الدلالي للخطاب.

ج - التحقيق الصوري للخطاب.

ويتم كل ذلك بمقتضى مراعاة (مبدأ المناسبة المقامية).

توضح لنا هذه الأسس أن النظريتين تلتقيان في النقطة الآتية:

- الخطاب من التصور الذهني إلى التحقيق الصوري:

نشير في هذا السياق إلى أن الرؤية العلمية خاصة طبعت كل من نظرية النظم ونظرية النحو الوظيفي، وذلك ما يتجلى في دقة توضيح مختلف متعلقات نباح مستعملي الخطاب متكلمين/ متلقين، في عملياتهم التواصلية، ومن بين تجليات ذلك تبيين أن الخطاب يمر عبر مستويين:

أ - مستوى ذهني: لقد بينت نظرية النظم أن الخطاب فعل ذهني تخطيطي وهو ما يوضحه النظم النفسي، وكذا التحليل الذهني العميق الذي يقوم به المتلقي المؤول؛ حيث يستند على آليات عقلية كالتفصيل والاستدلال. ونقف على ذلك في نظرية النحو الوظيفي من خلال مفهوم البنية التحتية التي هي بنية ذهنية، ترتبط بها الملكة المنطقية والقالب المنطقي، وتعلق بمستعمل الخطاب المتكلم/ المؤول.

ب - مستوى لغوي شكلي إنجازي: يوضح ذلك النظم اللغوي الشكلي (وهو جانب نحوي دلالي تركيبي)، يتعلق بالإنتاج والتلقي، أما في نظرية النحو الوظيفي فيمثله الإنجاز أو التحقيق الصوري (الصرفي التركيبي) ممثلاً في البنية المكونية.

- تأكيد أهمية المتلقي:

أولى عبد القاهر أهمية بالغة لعملية التلقي وهذا ما وجدناه عند ممثلي النحو الوظيفي كذلك. ومن هذا المنطلق شكل الإقرار بدور المتلقي مبدأ رئيساً، وثقت له كل من نظرية النظم ونظرية النحو الوظيفي، وهو ما أدى إلى تداخلهما؛ ومن أهم مظاهر هذا التداخل تبيين أن وظيفة المتلقي (وظيفة تحليلية تأويلية)؛ حيث يعمل على استكشاف مقصدية المنتج وفهم معنى الخطاب، وقد تبينا من خلال قراءتنا لما قدمته كلا النظريتين من توضيحات بخصوص آليات وصول المتلقي إلى المعنى، تداخلهما من خلال الإشارة إلى اعتماد المتلقي في ذلك على:

- الخطاب.

- السياق المقامي.

- آليات عقلية: وذلك نحو: (دقة التفكير، الاستدلال، التفصيل).

- تأكيد مركزية المقام:

شكل اعتبار المقام أو (السياق التواصلية) نواة العملية الخطابية التواصلية، مبدأ فاعلاً قاراً في الطرح البلاغي الجرجاني وهو ما يجسده مبدأ المناسبة المقامية، وكذلك الحال بالنسبة للطرح الوظيفي وهو ما يعبر عنه مبدأ الوظيفية، وهو ما يجسده مبدأ الكفاية التداولية. ومن مقتضيات ذلك أنه على المنتج والمتلقي ربط الخطاب بمختلف المكونات والعناصر الخارجية التي ارتبطت بإنجازه.

توصلنا من خلال ما جاءت به تلك النظريتين أن الإنتاج والتلقي، يتداخلان من خلال الأبعاد الآتية:

- البعد السياقي اللغوي: وهو ما يتعلق بالخطاب، الذي يكون واحداً على مستوى الإنتاج والتلقي؛ حيث ينتقل من منتجه إلى المتلقي إذ يعمل على تحليله وتأويله.

- البعد العلاقي: فقد عنيت كلا النظريتين بالمنتج والمتلقي؛ ليكون ذلك في الوقت نفسه تنبيهاً للمنتج على ضرورة العناية بالطرف المعني بإرسال الخطاب (المتلقي)، وكذا للمتلقي بضرورة ربط الخطاب بمنتجه والعناية بمعرفة مقصديته.

- البعد المقامي: وهو ما يتعلق بالسياق الخارجي.

- البعد النفعي: ويتمثل في مسعى كل من المنتج والمتلقي من تحقيق أهداف، ونتائج في إطار العملية التواصلية الخطابية.

1 - 2. الجانب الخاص:

نقصد بالجانب الخاص الجانب الذي يركز على استعمال اللغة استعمالاً إبداعياً خاصاً، وذلك حيث يعد الخطاب البلاغي خطاباً تواصلياً إبداعياً فنياً أو أدبياً. فيتحدد مفهوم البلاغة على أساس الوظيفة الفنية للغة، وهذا بطبيعة الحال إلى جانب الوظيفة التواصلية، ولعل أهم ما يجب على القارئ معرفته هنا هو أن المقصود تحديداً (البلاغة الأدبية)، فقد انشغلت نظرية النظم بهذه القضية التي شكلت أهم قضايا التفكير اللغوي التي طبعت بنية العقل العربي، فعملت على تبين آليات ومقاييس الإبداع البلاغي الأدبي، وهو ما كشفت عنه من خلال آليات (النظم والتصوير (اللفظ أو الصورة))، وهذا ما ناقشته نظرية النحو الوظيفي كذلك في إطار سيروية التطور النظري والمراسي، الذي ميز بحثها اللساني، عبر نموذج مستعملي اللغة الطبيعية - كما سبق توضيح ذلك - حيث دفعها ذلك إلى إضافة الملكة الإبداعية (الشعرية)، التي تتعلق بالخطاب الإبداعي الأدبي.

نؤكد من هذا المنطلق تداخل النظريتين من خلال التركيز على ذلك النوع من الخطاب، ومن تبعات ذلك سعي كلاهما إلى خدمة مستعمليه، وهو ما يتجلى في العناية بتوجيههم إلى أسس الاستعمال البلاغي الإبداعي الأدبي الناجح (المثالي)، حيث لاحظنا وجود فكرة التفريق بين الخطاب الأدبي والخطاب العادي في التصورين. لقد تبينا من خلال ذلك ارتباط البلاغة بأسلوب الخطاب؛ حيث تتطلب الأسلوب الجمالي الأدبي، الذي يعتمد على العدول أو الانزياح.

أ - نظرية النظم:

أوضحت هذه النظرية أن الخطاب البلاغي يتطلب أسس: وهي ما تحدث عنه عبد القاهر من خلال النظم واللفظ، ويقتضي ذلك الخطاب توفر مستعمله على المعرفة والذوق.

ب - نظرية النحو الوظيفي:

وقفت هذه النظرية على الخطاب الإبداعي، فبينت أن من أهم خصائصه آلية الإلباس (وهو ما ينتمي إلى الإضمار الدلالي)، كما أفردت له ملكة خاصة، وقد تطرق أحمد المتوكل إلى تبين مراحل تشكيله عبر نظام القوالب، الذي يتم الاعتماد فيها على ثلاث قوالب: قالب تداولي يفضي إلى بنية تداولية، وقالب نحوي يفضي إلى بنية تركيبية، وقالب إبداعي يفضي إلى بنية إبداعية.

نذهب من خلال وقوفنا على كل ما قدمته نظرية النظم ونظرية النحو الوظيفي بخصوص استعمال الخطاب، والمقارنة بين الجانب العام الذي يمثل الخطاب العادي، والجانب الخاص الذي يمثل الخطاب الأدبي، إلى

تأكيد التشاكل النظري بين الطرحين، حول فكرة أن كلا النمطين الخطايين نشاط لغوي تواصلية منظم، يركز على مجموعة من المبادئ. وقد حاولنا صياغتها على النحو الآتي:

- مبدأ العلاقة الاجتماعية: وهو ما يرتبط بالبعد العلاقي.

- مبدأ المناسبة: وهو ما يتجسد من خلال البعد المقامي، ويمثله (المناسبة المقامية) في نظرية النظم، و(مبدأ الوظيفية) في نظرية النحو الوظيفي.

- مبدأ الفائدة: وهو ما يتعلق بالبعد النفعي؛ حيث يسعى كل من المتكلم والمتلقي في تعاملاتهم اللغوية الخطابية إلى بلوغ أهداف معينة، فقد اعتبر عبد القاهر الخطاب عملية تبادلية نفعية، أساسها الفائدة بين منتجها ومتلقيه؛ حيث عدها وكأنها تجارة مدارها الربح الذي يتمحور حول رأس المال بين الطرفين، وهذا ما وجدناه في نظرية النحو الوظيفي الذي ركزت على الاستعمال الخطاب التواصلي البراغماتي.

- أسست نظرية النظم لبلاغة علمية تعنى بتمكين مستعمل الخطاب من تحقيق غايته المرجوة ومن ثمة إحراز المنفعة، التي يسعى إليها من وراء استعمال الخطاب في التواصل؛ أي من خلال علاقاته الاجتماعية التواصلية. حيث عملت على وضع المعايير والشروط اللازمة، التي يجب على المتخاطبين معرفتها والعمل بها، وقد تعرضت نظرية النحو الوظيفي لهذا الجانب كذلك، حيث ركزت على توضيح قوانين التخاطب التي من شأنها ضمان نجاحه وتحقيق المنفعة.

- غير أن مقياس المنفعة يتجاوز في بعض المواقف أو المعاملات الاجتماعية التواصلية وظيفة الإبلاغ، ليقف على وظائف أخرى؛ لعل من بينها التأثير في المخاطب: (إمناعه أو إقناعه) ليتطلب ذلك من المتكلم توظيف أدوات وتقنيات ناجعة، وهذا ما ناقشته نظرية النظم من خلال بحثها في بلاغة النص الأدبي (الشعر)، وهو ما يمثل صورة البلاغة الأدبية التي بلورت لها نظرية النظم، من خلال بحثها في النص الشعري، وذلك ما نجده في نظرية النحو الوظيفي من خلال بحوثها الحديثة التي ركزت على دراسة الخطاب أو النص الأدبي.

- تتداخل تصورات نظرية النظم مع تصورات نظرية النحو الوظيفي من خلال الإشارة الصريحة أو المضمرة، إلى أن البلاغة تظهر عبر إنجازات لغوية إبداعية، يمثلها استعمال اللغة بطريقة فنية خاصة، وهو ما يقود إلى تحديد ماهية البلاغة باعتبارها (ممارسة)، فتكون أولا (ممارسة خطابية تواصلية اجتماعية تداولية). وارتباطها بمجال الاستعمال الفني الإبداعي يجعلها ممارسة خطابية تواصلية اجتماعية إبداعية أدبية أو فنية؛ إذ يتمحور النشاط البلاغي إنتاجا وتلقيا حول جمالية التشكيل والتصوير الخطابي، حيث تكون شاعرية معانيه ودلالاته.

- تؤكد منهجية البحث الوظيفي التي طبعت نظرية النظم ونظرية النحو الوظيفي أن البلاغة في كلا النظريتين (بلاغة وظيفية)، حيث ركزت كلاهما على البحث في استعمال الخطاب البلاغي، على مستوى إنتاجه ومستوى تحليله، ومن أهم خصائص البلاغة التي استجلبناها من خلال البحث في النظريتين أنها (بلاغة خطاب وليست بلاغة جملة)، فقد عملت نظرية النظم على توضيح أسس بناء وتركيب الخطاب البلاغي تركيباً جيداً، وقد كان منطلق بحثها في البلاغة والنظم البلاغي، من الخطاب أو النص الديني القرآني، ثم انتقلت بعدها إلى النصوص البشرية الشعرية. وذلك ما يؤكد أن الخطاب أو النص محور بحثها ودراستها، وهو ما ينطبق على البلاغة العربية والتراث اللغوي العربي ككل؛ فقد "انطلق العرب في درسهـم اللغوي من النص - تنظيراً وممارسة - فجاءت علومهم في هذا الميدان تمثيلاً حضارياً له. وكانت نظرتهـم للأسلوب - في جملة تلك العلوم - أنه آثار من آثار النص، ونتيجة من نتائجه الدالة عليه، فأسسوا بذلك بنیان حضارة معرفية يمكن أن نصطلح عليها باسم حضارة النص"¹. ودراسة النص أو الخطاب هو ما ركزت عليه نظرية النحو الوظيفي، حيث سعى ممثلوها منذ سيمون ديك على جعلها نظرية خطاب، ونفي بعض الآراء التي اعتقدت أنها نظرية جملة.

2 - أوجه الاختلاف:

سبق وأن أكدنا بأن العمل على خدمة مستعملي اللغة (لخطاب) للنجاح في معاملاتهم الخطابية التواصلية، عبر استعمال خطابات وظيفية تواصلية بلاغية، هو ما سعت إليه كل من نظرية النظم ونظرية النحو الوظيفي، غير أن هذا المسعى نجده إذا ما تناولناه من منظور مبادئ كل نظرية وأصولها الإستمولوجية يتباين، وهو ما يعني في الوقت نفسه تباين خصائص التصور البلاغي في كل نظرية.

أ - نظرية النظم

1 - تعد نظرية النظم نظرية خاصة باللغة العربية وهي بذلك نظرية خاصة بمستعملي اللغة العربية فقط، وهو الهدف الذي تبلور على أساسه مشروع البلاغة فيها. وذلك ما يعبر في الوقت نفسه عن المشروع العام، الذي قام عليه البحث التراثي البلاغي العربي على اختلافه وتنوعه. حيث شكل العمل على رسم وضبط حدود النشاط الخطابي البلاغي وتوضيح مفاهيمه وشروط تحقيقه محور ذلك البحث.

¹ - منذر عياشي، الأسلوبية وتحليل الخطاب، ص 28 و 29.

2 - جاء مفهوم البلاغة في نظرية النظم مرتبطاً بمصطلح (الفصاحة، والبيان، والبراعة)، وذلك ما يعني أن البلاغة التي عنيت بها هذه النظرية، هي البلاغة التي تركز على فخامة الخطاب وقوته، والتي على أساسها تكون المزينة، إذ يتعلق الأمر باستعمال اللغة وفق أسلوب خاص مثالي يجسده النظم البلاغي. وهذا ما يحيل إلى ارتباط البلاغة بالخطاب الإبداعي الذي يجعل من التواصل إبداعاً، وهو التواصل البلاغي الفني وذلك كما هو الحال بالنسبة للخطاب الإبداعي الشعري الذي ركزت عليه هذه النظرية.

3 - تعد البلاغة في هذه النظرية مكوناً من مكونات الخطاب الفني الإبداعي الذي يعتبر استعمالاً خاصاً، ويتولد عبر آلية العدول التي تكون بين النحو والدلالة؛ حيث يرتبط بالأول العدول أو التحويل النحوي التركيبي القائم على معاني النحو، ومجاله النظم الذي يعتمد على الوجوه والفروق، أما الثاني فيرتبط بالعدول أو التحويل الدلالي ويعتمد على آلية التصوير والتخييل الفني، فنجد ضمنه: المجاز والاستعارة والكناية والتمثيل، وتُولد هذه الأنواع معنى المعنى حيث يحوي الخطاب البلاغي دلالة فنية، ويدل كل ذلك على طاقة اللغة العربية الإبداعية بصورها وأجناسها الكلامية المختلفة.

4 - أكدت نظرية النظم أن البلاغة استعمال لغوي خاص، وهو ما يعني أن الخطاب البلاغي الإبداعي خطاباً خاصاً متميزاً، ولذلك قامت هذه النظرية على (مبدأ التفاوت)؛ الذي يقول بتفاوت درجة الإبداع البلاغي بين الخطابات؛ حيث تكون البلاغة من الأدنى إلى الأعلى أين نقف على الخطاب البلاغي النوعي، فعلى أساس ما يتميز به كل خطاب تكون الجودة، وعلى هذا الأساس ركزت نظرية النظم على مسألة (الأثر البلاغي) الذي يقوم على القبول النفسي (الأريحية)، والإقرار العقلي. ونشير هنا إلى أن مبدأ التفاوت ينطبق على مستعملي الخطاب البلاغي كذلك؛ إذ يتعلق الحديث - في مجال البلاغة - بـ : (المبدع/ المتلقي المثالي)، وذلك ما يقابل (المتكلم/ المتلقي العادي) حيث يتعلق الأمر بالخطاب التواصلية العادي.

5 - يمكننا القول إن نظرية النظم قد بينت أن البلاغة:

أ - معرفة علمية:

تقوم على مجموعة من المبادئ أهمها: مبدأ المناسبة المقامية، ومبدأ الفائدة، وكذا على مجموعة من المفاهيم التي تصب إما في إطار النظم مثل: (معاني النحو، التقديم والتأخير، الحذف) أو اللفظ مثل: (التصوير، التخييل

الاستعارة، الكناية، التمثيل، التشبيه، المعنى ومعنى المعنى). ويدخل ما قدمه حول النظم واللفظ في ما عرف بعلم المعاني وعلم البيان على التوالي.

ب - ممارسة تواصلية إبداعية فنية:

إذ تتطلب الاستعمال الإبداعي اللطيف الخاص المتميز لعناصرها التي تتمثل في النظم واللفظ، حيث يتعلق الأمر بالتشكيل البلاغي النظمي والتشكيل التصويري، وباعتبار البلاغة ممارسة فهي مراتب من الأدنى إلى الأعلى، وكذا مراحل، وهو ما يجعل الباحث يدرك أن البلاغة مجموعة عمليات.

6 - أوضحت نظرية النظم أن الممارسة البلاغية إنتاجا وتلقيا تعتمد على أساسيين: (المعرفة) و(الدوق)، ويحيل هذا الأخير إلى (الجانب النفسي الروحي)، الذي يشرف - حسب توضيحات الجرجاني - على عملية صياغة ورصد واستنباط (المعاني البلاغية الروحانية) بعيدة المنال.

7 - أوضحت هذه النظرية أن البلاغة بالنسبة للمبدع والمتلقي (ملكة) تواصلية، ويمكننا أن نذهب تأسيسا على ذلك إلى القول إن البلاغة ملكات:

- البلاغة ملكة معرفية.

- البلاغة ملكة فنية ذوقية.

8 - تتميز البلاغة في إطار نظرية النظم (بالطبيعة البيئية) وهو ما ينطبق على البلاغة العربية بصفة عامة، حيث أنها معرفة تتداخل مع عدة معارف، وهذا ما يقود إلى القول إن البلاغة التي جاءت بها تلك النظرية ذات أصول إبستمولوجية متنوعة وهي:

- الأصل الإبستمولوجي النقدي:

فقد حرصت نظرية النظم على فكرة المزية، وهو ما يعني تركيز عبد القاهر على النقد التقييمي، الذي قامت عليه الموازنات الشعرية في تعاملها مع الإبداعات الأدبية البلاغية، وهذا ما يتأسس أولا على التذوق الفني وذلك ما تبنته هذه النظرية، ويوضح هذا الأصل بأن البلاغة عملية نقدية كما سبق وأن بينا في الفصل الأول.

- الأصل الإستيمولوجي اللغوي:

يتجلى ذلك في عمل نظرية النظم وفق مبدأ الربط بين النحو والبلاغة، وذلك ما توضحه عملية التعليق النحوي، التي تساهم في خلق اتساق الخطاب وسلامته، وإلى جانب ذلك فقد أكدت أن النحو أساس البلاغة؛ حيث يتعلق الأمر بالنحو البلاغي القائم على معاني النحو، فقد "تموّعت نظرية النظم .. في إطار علاقة جديدة هي مبعث جدتها، وهذه العلاقة تربط بين النظم والنحو، وفي ضوء هذه العلاقة النظم - النحو، يكون الطريق إلى استنباط القوانين الإبداعية متيسرا ومثيرا في الوقت نفسه، ومركز الإثارة - هنا - هو المعنى المتمخض عن تلك العلاقة، ولاسيما حين نتذكر المقولة البالية في جمود النحو ومعياريته"¹، ففهم علاقة النحو بالبلاغة ومعرفة كيفية استغلالها بحكمة هو ما يؤسس للخطاب الإبداعي المتميز.

- الأصل إستيمولوجي الديني:

لقد ارتبطت نشأة نظرية النظم بقضايا علم الكلام؛ أي ببحوث المتكلمين - خاصة منهم الأشاعرة - في النص الديني القرآني، وقد جعل ذلك عبد القاهر يؤسس نظريته وفق منظور ديني، ومن تجليات ذلك: (ربطه بين الإبداعي والأخلاقي). وهذا ما اتضح من خلال حديثنا عن التخيل بين الصدق والكذب، وكذلك حرصه على (تأكيد ضرورة العناية بمكون النفس)؛ فعلى المنتج مراعاة الجانب الروحي النفسي عند المتلقي وتحقيق الأريحية، وكأنه يدعو إلى العمل وفق ما يمكن تسميته بـ : (قاعدة الاحترام) التي تخرج إلى (مبدأ التأدب)؛ حيث يجب أن يكون تعامله الخطابي البلاغي الإبداعي متأدبا أو متخلقا، وذلك ما يمكن الوقوف عليه في الدراسات الحديثة من خلال ما تحدث عنه (طه عبد الرحمن) من خلال مفهوم (التخلق الإنساني) إذ "تجد المتكلم في هذه الرتبة من التعامل لا يتشاغل بظاهر استرضاء المخاطب واستدراخ خفي المنفعة من رضاه بقدر ما ينشغل بمراقبة مقاصده وأحواله حتى لا يشوبها شيء من دواعي الطمع الديني، كما ينشغل بمراقبة حركاته وسكناته حتى لا يلتبس بها شيء من أسباب التكلف الخفي"²، ونشير بأن تلك القاعدة عند عبد القاهر تشمل المتلقي كذلك، إذ يجب أن يكون تعامله مع الخطاب تعاملًا متخلقا، وهذا ما يوضحه (مبدأ الموضوعية)؛ حيث نبه المتلقي إلى ضرورة الالتزام به. وهذا ما يدعو إلى الإقرار بأن (البلاغة ممارسة أخلاقية)، وذلك ما يقوم على الجانب النفسي. لتعد البلاغة - أولا وقبل كل شيء - (ممارسة نفسية أخلاقية).

¹ - ينظر: حسن ناظم، مفاهيم الشعرية دراسة مقارنة في الأصول والمنهج والمفاهيم، ص 27.

² - طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1: 1998، ص 224

9 - تعد البلاغة في نظرية النظم (بلاغة خاصة)؛ حيث ترتبط باللغة العربية وتعكس بنية العقل العربي، وتعبّر عن الثقافة العربية بصفة عامة و(الثقافة العربية الإسلامية) بصفة خاصة، ورغم ذلك فإنها تتضمن بعض الجوانب التي تجعلها نظرية بلاغية عامة، وهو ما نوضحه في العناصر الآتية.

ب - نظرية النحو الوظيفي:

1 - ركزت نظرية النحو الوظيفي على خدمة مستعملي اللغة الطبيعية، وهو توجه عام يركز على تحديد المبادئ الكلية التي توحد استعمال الخطاب بين البشر على اختلاف ثقافتهم ولغاتهم، وهو ما يعكس مسعى الكلية أو الشمولية التي قامت عليه هذه النظرية. وذلك ما حاولت تجسيده من خلال نموذج مستعملي اللغة الطبيعية، وما تمخضت عنه من طروحات ومشاريع كالنظرية الوظيفية الواسعة، ونظرية التواصل الوظيفية العامة.

2 - تعد نظرية النحو الوظيفي ذات توجه كلي شمولي، وذلك ما ساهم في تطور بحوثها؛ حيث جمعت بين المجال اللساني والمجال السيميائي، وقد تمكنت عبر هذا الأخير من تكوين نموذج صالح لكل الخطابات الوظيفية التواصلية، التي يمكن أن يوظفها الإنسان في حياته لغوية وغير لغوية، عادية أم أدبية، وهذا ما يجعلها نظرية مهمة تتبوأ منزلة النظرية العالمية سواء مقارنة مع النظريات اللسانية السابقة لها، أو التوجهات البلاغية الغربية، ويمكن القول إن البلاغة التي يمكن أن تتبلور في إطار هذه النظرية هي: (بلاغة كلية شمولية).

3 - تستطيع تلك البلاغة الكلية الشمولية أن توجه وتحكم بلاغة البشر وصفا وتنظيما، حيث إنها تركز على التواصل البشري إذ تعمل على بناء نموذج مستعملي الخطابات الطبيعية، فتوضح ما تتطلبه تلك الخطابات من مستعملها إنتاجا وتأويلا. فقد ركزت على تنظيم العمل الخطابي العادي والإبداعي، من خلال تحديد متطلباته عبر (مراحل).

4 - تعمل نظرية النحو الوظيفي وفق مبدأ قابلية النتائج للتعديل ومن ثمة إضافة (افتراضات جديدة)، كما لاحظنا مع نموذج مستعملي اللغة الطبيعية، الذي أصبح يضم ست ملكات: (ملكة لغوية، ملكة منطقية، ملكة معرفية، ملكة إدراكية، ملكة اجتماعية، ملكة إبداعية)، وهذا ما يعني قدرتها على مواكبة مختلف تطورات مستعمل الخطاب المعاصر، حيث تولدت خطابات تداولية معاصرة تعتمد على اللغة (الصوت، والكتابة) واللون (الرسم) والرمز، ك (الخطابات الجدارية) و(الخطابات الرقمية) (الفائسبوكية) (الصوتية الموسيقية، الصورية) و(الخطابات الكاريكاتيرية). وهذا ما يجعل البلاغة التي يمكن أن تحتويها هذه النظرية (بلاغة تداولية معاصرة).

5 - يوضح نظام الملكات التي اعتمدته هذه النظرية في نموذج مستعملي اللغات الطبيعية، أن (البلاغة ملكة) تتوفر لدى مستعملي الخطاب؛ حيث يمكن الحديث عن الملكة البلاغية وهي ملكة عامة ترتبط بشكل وثيق بالملكة التواصلية، ولا شك أنها ملكة تدخل في إطار الملكة الإبداعية، وذلك بالنظر إلى علاقتها مع بقية الملكات، وذلك ما يقوم على تجاوز اللغوي والارتباط الشامل بالخطابي التواصلية.

6 - تؤول نظرية النحو الوظيفي إلى الفكر التداولي الغربي الذي تحكمه الفلسفة المادية البراغماتية، وهو ما توضحه التداولية وتوجهاتها المختلفة كنظرية الأفعال الكلامية، التي تركز على مبدأ: (تكلم أو نتخاطب لنفعل) حيث تركز على (الأثر المادي)، وهذا بخلاف ما نجده في نظرية النظم التي تهتم بالأثر النفسي الروحي بالدرجة الأولى.

نتوصل من خلال هذه المقارنة إلى تأكيد حقيقة أن الحديث عن البلاغة في نظرية النظم والبلاغة في نظرية النحو الوظيفي، إنما هو الحديث عن (بلاغة خاصة)، وهي بلاغة عربية تعنى بالخطاب البلاغي السامي، الذي يوضحه استعمال اللغة استعمالاً إبداعياً خاصاً، في مقابل (بلاغة كلية شمولية) تعنى بمختلف الخطابات البشرية وهي ذات منحى عالمي يركز على توحيد دراسة استعمالات البشر الخطابية في نظرية واحدة.

يمكننا القول إن افتراضات البلاغة الكلية في هذه النظرية، تستدعي التعامل مع نموذج سيميائي شامل حيث يصبح الأمر متعلقاً بنموذج مستعملي الخطابات التواصلية، بدل نموذج مستعملي اللغات الطبيعية، إذ يتعلق الأمر بالملكة الخطابية التواصلية، التي تتضمن عدة ملكات من بينها الملكة اللغوية التي ترتبط بالخطاب اللغوي.

ومما لا شك فيه أن الحديث عن بلاغة شمولية في مقابل بلاغة خاصة، يفرض الإقرار بنجاعة الأولى بخلاف الثانية، التي تكون بلاغة قاصرة أمام مختلف تطورات معاملات التواصل الخطابي، التي يوظفها مستعمل الخطاب في حياته المعاصرة، التي تستند على آليات خطابية متباينة متعددة؛ حيث توظف اللغة أو أنساق تواصلية غير لغوية كالرسم والموسيقى والإشارة والرمز، فتكون إما لغوية أو شكلية (غير لغوية)، أو تجمع بين الطابع اللغوي وغير اللغوي، فنجد الخطاب الإشهاري والخطاب الإعلامي والخطاب السياسي الساخر...، وغير ذلك من خطابات بلاغة البشر، التي يسعى مستعملوها إلى حصول الأثر الإيجابي الذي يركز على القبول والتأثير الإمتاعي أو الإقناعي.

ورغم شمولية ما قدمته نظرية النحو الوظيفي إلا أن ارتباطها الوثيق بالتداولية القائمة على إيديولوجيا التفكير الفلسفي البراغماتي، هو ما يؤثر بطريقة أو بأخرى على نجاعة تلك الشمولية، حيث تعد - من منظوره - "الممارسة اللغوية مجرد عمل نفعي، مصلحي، غائي. وذلك ما قد يقلل من شأن الوظيفة الإخبارية للغة، فأن نتكلم هو أن نفعل قطعاً، ولكن هو أن نقول ما نعتقد أنه صحيح، هو أن نطلب تركية الآخر لنا، ثم إن بعض الاستعمالات اللغوية مجانية، ذلك أنه إذا كان ممكناً أن نتكلم دون أن نقول شيئاً، فإنه من الممكن أيضاً أن نتكلم دون أن يكون لكلامنا مقصد عملي"¹، أجل فمن الممكن ذلك، وهذا ما يعني أن معيار التحقيق العملي معيار فاشل لا يصلح لجميع خطاباتنا، ثم إنه يشوه المعاملة الخطابية باعتبارها له مجرد أداة خاصة يستعملها المتكلم لتحقيق أهداف مادية، فتتولد البلاغة باعتبارها بلاغة مصالح ذاتية تتوسل الاجتماعي من أجل بلوغ النفسي الذاتي.

يجب علينا اقتراح نموذج بلاغي إنساني يستطيع كبح الفكر المادي، إذ ترى الباحثة أن بلاغة البشر التي يمكن أن يتبناه الجميع هي البلاغة التي تسير وفق طريقة إنسانية، فتستبعد ملذات الرؤية المادية وتدعو إلى طغيان الرؤية الروحية الأخلاقية التي تعزز للبعد الاجتماعي الأخلاقي التربوي، حيث لا يكون وجوب التنفيذ لما نريد من أهداف نفعية خاصة - لا سيما إذا كانت ذات أبعاد سفسطائية - من قبل من نتعامل معهم معيار نجاحنا.

ينبغي أن تكون معاملاتنا الخطابية البلاغية بمختلف أنماطها السياسية التعليمية، الإعلامية، الإشهارية .. ذات بعد إنساني أخلاقي. إذ تكون البلاغة مرادفة (للتواصل الفني الأخلاقي الاجتماعي البناء)، الذي يحقق التأثير والتأثر النفعي الناجح، لنعد الخطاب البلاغي - على أساس ذلك - آلية من آليات (التنمية البشرية).

يعد ذلك من أهم مميزات البلاغة في نظرية النظم وهذا ما قادها إليه الأصل الإستيمولوجي الديني الذي قامت عليه، فنجد عبد القاهر من منطلق منهج المتكلمين (الأشاعرة)، يربط البلاغة بالجانب النفسي الروحي، الذي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالجانب العقلي، وقد أكد من منظور الرؤية الدينية الأشعرية قيمة شرف المعنى باعتباره نواة الصناعة الفنية البلاغية، لفهم أن أساس البلاغة هو التعامل اللغوي الإبداعي المتخلّق، فقد دعا الجرجاني - حسب ما توصلنا إليه - إلى العمل وفق مبدأ (تخليق الإبداع البلاغي). إذ ينتج المبدع في عصرنا الراهن من

¹ - صابر الحباشة، مغامرة المعنى من النحو إلى التداولية قراءة في "شروح التلخيص" للخطيب القزويني، صفحات للدراسات والنشر، سورية - دمشق، ط1: 2011، ص 11.

خلال آليات التصوير التخيلي خطاباً مؤثراً، حيث يحوي - مثلاً - استعارات بناءة - وذلك بغض النظر عن الاستعارات التقليدية - إذ يصبح الأمر متعلقاً بـ: (الاستعارات التي نستقر بها).

لقد أكد عبد القاهر أن الأساس الأول الذي يولد قوة الأثر البلاغي هو الأساس الأخلاقي للبعد الدلالي الفني، وذلك حيث يجب أن تكون استعمالاتنا البلاغية - الاستعارية مثلاً - استعمالات شريفة صادقة، ولا شك أن ذلك ما يساهم في تعويد تصوراتنا على التفكير النفعي السليم، الذي يُكوّن خطابات تداولية (فنية سياسية تعليمية مفيدة، لنستطيع عبر ذلك تقويض الفكر المادي الغربي، الذي يحمل شعارات لغوية بلاغية مغربة كثيرة كشعار (الاستعارات التي نحيا بها)؛ إذ "فتح لايكوف وجونسون باب الاستعارة وبناء النسق التصوري الجديد، لتوعية المتلقي بالخطابات المنتجة التي تبدو حرفية لكنها تطرح استعارات خطيرة لها اقتضاءاتها، ومجازاتها تعبيرية مموهة لحقائق يقولها خطاب ما وتؤثر في تجاربنا وسلوكياتنا دون أن نعي سمومها، وهو باب في غاية الأهمية ربطاه بغزو بعض الاستعارات الجديدة لأنساقنا التصورية، لأنها تتردد في خطابات سياسية سلطوية طامحة لطمس حقيقة ما، تبنيتها من خلال الاستعارات المفروضة من قبل من لهم سلطة على العالم"¹، وهذا ما يعني أنها تعمل وفق مبدأ (الاستعارات التي نسيطر بها)، إذ تستطيع التأثير في الشعوب من أجل بلوغ السلطة العالمية. حيث تسعى هذه الرؤية الغربية إلى بناء الفكر العلماني من خلال انغماس مختلف الشعوب بتصوراته.

تعبّر البلاغة في نظرية النظم عن الثقافة العربية الإسلامية التي استمدت أصالتها من النص الديني القرآني، إذ تعكس آراء الجرجاني بنية العقل العربي المتشبع بالثقافة الدينية الإسلامية، وذلك ما جعل الصناعة الكلامية البلاغية صناعة أصيلة منظمة، إذ تجعلنا نسلم بأن (البلاغة ممارسة فنية أخلاقية)، وهو ما أتاحه التأثير بالنص الديني القرآني، ولذلك تمكن الطرح الجرجاني من الفصل العلمي في أمر المزية، التي يمكن أن تتميز بها خطاباتنا البلاغية، وهو ما يعتمد على النظم والتصوير الفني الأخلاقي الصادق، الذي يمكن أن يخرج إلى عدة أبعاد فكرية إنسانية. وهذا ما يجعلها بلاغة قيم حيث يمكن أن نستمد منها طريقة تفكيرنا، فنصنع على أساسها خطابات بلاغية تواصلية يومية ناجحة ذات فائدة، سواء أكانت عادية أم فنية شاعرية.

لا يمكن نفي أن البلاغة في نظرية النظم تخلو من الطابع الكلي الشمولي، من حيث عدم دراستها لكل الخطابات التداولية البشرية بمختلف أنساقها، لكنها ذات طابع (شمولي إنساني) وهذا ما أسست له من خلال

¹ - أم السعد حياة، الاستعارة التي نحيا ونستعمر بها المفهوم المعرفي للاستعارة، مجلة البلاغة بين النقد والأدب واللغة، دار كنوز المعرفة، عمان - الأردن، ط1: 2017، مج 1، ص 288.

الأصل المعرفي الديني، الذي تبنته عن النص الديني القرآني حيث يتضمن (البلاغة الصالحة لكل زمان ومكان). إذ ينبغي أن نستمد منه المنهجية العلمية القويمة الناجعة لخطاباتنا اللغوية أو الشكلية.

لقد اتبع الجرجاني ذلك حيث نجده في دلائل الإعجاز يؤكد على العمل وفق مبدأ إخلاص النية لله، إذ يقول "ونعود به أن ندعي العلم بشيء لا نعلمه، وأن نسدي قولاً لا نلحمه، وأن نكون ممن يغره الكذب من الشاء، وينخذع للمتجوز في الإطراء، وأن يكون سبيلنا سبيل من يعجبه أن يجادل بالباطل، ويموه على السامع، ولا يبالي إذا راج القول أن يكون قد خلط فيه، ولم يسدد في معانيه"¹، ولعل ذلك ما كان رسالة لمستعملي اللغة العربية - وهو ما يشمل كذلك مختلف مستعملي الخطاب الإنساني، الذي يحمل أبعاد فكرية تأسيسية تنموية بشرية، أو إمتاعية بغض النظر عن اللغة المعتمدة عربية أم لا - لاعتماد أساس ومنطلق ديني في خطاباتهم البلاغية، التي تتسم بقوة (الفصاحة)، حيث يتوفر (البيان) القادر على التأثير، الذي يركز على مبدأ أريحية النفوس وإقناع العقول، بعيداً عن التمويه والكذب والادعاء الباطل، ليؤدي كل ذلك إلى الإقرار الصادق (ببراعة) المبدع.

نؤكد من خلال ذلك ضرورة ربط البلاغة بقواعد أخلاقية تضبط حدود التعامل الناجح الجيد بين المبدع والمتلقي، ف "لما كان التخاطب يقتضي اشتراك جانبيين عاقلين في إلقاء الأقوال وإتيان الأفعال، لزم أن تنضبط هذه الأقوال بقواعد تحدد وجوه فائدتها الإخبارية أو فائدتها التواصلية، وتسمى "بقواعد التبليغ"، علماً بأن مصطلح التبليغ موضوع للدلالة على التواصل الخاص بالإنسان، كما لزم أن تنضبط هذه الأفعال بقواعد تحدد وجوه استقامتها الأخلاقية، أو التعاملية"²، وهذا ما يعني ضرورة تخليق الخطاب البلاغي، لنتمكن من تعزيز سلطة البلاغة لتكون سيدة معاملاتنا الاجتماعية، ف "من الخطأ اعتبار البلاغة جمالية اللغة، وإنما هي أيضاً فلسفة التفكير، ثقافة المجتمع، أيديولوجية الطبقات، أسلوبية الحوار، ومثال العقل البشري عموماً"³، ولذلك يجب أن تعكس عقلاً متخلقاً يعتمد على التفكير الإنساني السليم، المتحرر من الفكر المادي الذي يدعو إلى البلاغة الفاسدة. وتجدد بنا الإشارة هنا إلى أن التركيز على تخليق الخطاب عبر وضع مبادئ معينة، هو ما تطرقت له بعض التصورات التداولية، وذلك ما يمكن الوقوف عليه - مثلاً - من خلال: مبادئ غرايس، نظرية ماء الوجه لليفنسون وبراون ...، وهذا ما لم تتطرق له نظرية النحو الوظيفي.

¹ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص 3 و 4.

² - طه عبد الرحمن، الميزان أو التكوثر العقلي، ص 237.

³ - ينظر: عمر أوكان، ضمن مقدمة كتاب: قراءة جديدة للبلاغة القديمة، لرولان بارت، ص 9.

نشير هنا إلى أن البلاغة من خلال ذلك المنظور لا تقتصر على الاستعمال الخاص (الإبداعي) فقط، بل تشمل مختلف استعمالاتنا الفكرية الخطابية اليومية، حيث يمكن أن تكون - حسب رأينا - نظاما لتفكيرنا، لحياتنا الاجتماعية، فوظيفة البلاغة في المجتمع تظهر باعتبارها فنا اجتماعيا يساعد على تطوير وتنمية الفكر الإنساني، في المجتمعات البشرية عربية كانت أم غربية إذ تتجاوز بذلك حدود المجتمع الواحد الضيق.

لقد توصلنا من خلال هذه المقارنة أن نظرية النظم نظرية بلاغية كلية ليس من منظور الطابع الإنساني الاجتماعي الأخلاقي فقط، بل كذلك على المستوى النظري، وهذا ما أكده أحمد المتوكل من خلال البنية الخطابية النموذج؛ حيث يرى أنه "إذا أمعنا النظر في تكوين البنية ألفينا أنها تسير في نفس هذا الاتجاه الذي يمثله، على التباعد الزمني، الجرجاني وليفلت، فهي تعكس المرحلة (الأولى) و(الثانية) بواسطة المستويين العلاقي والتمثيلي إلا أنها تفترض مرحلة أخرى سابقة لهاتين المرحلتين وهي مرحلة قرار الدخول في عملية التخاطب وانتقاء إطارها النمطي والأسلوبي وهو ما يمثل له المستوى البلاغي"¹، ومما لا شك فيه أن هذا المستوى يدخل - حسب رأينا - في إطار التخطيط الذهني المتعلق بالخطاب، ويكشف توضيح المتوكل له عن الضبط النظري لتصوره، غير أن هذا لا ينفي أن عبد القاهر لم يكن مدركا به، أو لا يعد ذلك من جوانب النظم النفسي؟

ترى الباحثة أن ما قدمته نظرية النظم يتطلب تنظيما شكليا يبين أصالته وأهميته، ولذلك كان علينا اقتراح تصور يوضح مراحل تحليل الخطاب البلاغي في تلك النظرية، وهذا ما توضحه المستويات الآتية:

أولا- المستوى اللغوي: ويتعلق باللغة أو الأسلوب الذي يميز الخطاب البلاغي المروم تحليله ويشمل:

أ - الجانب النحوي التركيبي: ويتمحور حول (النظم) الذي نقف فيه على العدول أو التحويل التركيبي، بوجهه المتنوعة المختلفة من خطاب لآخر ونقصد بذلك: التقديم والتأخير، الحذف والذكر، الفصل والوصل ...، إذ نهتم ببعدها البلاغي.

ب - الجانب التركيبي الدلالي: ويرتبط بفحوى الخطاب الدلالي، وكذلك بدلالته التركيبية التي نقف من خلالها على الصورة البلاغية بأنواعها التي تمثلها: الاستعارة، الكناية، التمثيل، المجاز.

¹ - ينظر: أحمد المتوكل، الوظيفية بين الكلية والنمطية، ص 32.

ثانيا- المستوى التداولي : ويتعلق بسياق الخطاب الخارجي ويشمل:

أ - المقام: يركز المحلل على استقصاء الظروف المقامية التي أنجز فيها الخطاب، وحسب هذه النظرية يدور هذا الجانب حول العنصر الآتي:

- المنتج: يركز المحلل على ربط الخطاب بمنتجه، ويحاول حسب تصور عبد القاهر معرفة (الجانب النفسي) الذي ارتبط بالخطاب، ليتسنى له تحديد قصد أو مقصدية المنتج.

ونشير إلى الارتباط الوثيق بين المستويين، فلا بد أن يكون الوقوف التحليلي على المستوى الأول مرتبطا بالمستوى الثاني، من أجل تحليل بلاغي وظيفي تام وناجح.

خاتمة

خاتمة:

لقد أوصلتنا هذه الدراسة إلى أن: الحديث عن البلاغة يقتضي بحثا شاملا، يقف على تطوراتها ويرصد مختلف تصوراتها، التي تتميز بالتنوع والتباين بين الثقافة العربية والثقافة الغربية قديما وحديثا وحاليا. ولاشك أن ذلك ما يؤكد حقيقة أنه لا حدود للبلاغة، باعتبار طبيعتها المتطورة، وذلك ما يؤول إلى ارتباطها بالممارسة التواصلية الخطابية بكل تجلياتها وأجناسها وأنماطها، التي تختلف من عصر لآخر. فالبلاغة ليست مجرد زخرفة أسلوب أو تأكيد رأي، فهي طريقة تواصل وإيديولوجيا تفكير مجتمع معين، أو مجموعة أفراد، أو فرد ما. فالباحث في هذا الجانب سيدرك حتما أن بلاغة البشر بلاغات.

نذهب على أساس طبيعة البلاغة المتطورة إلى القول إن محاولة وضع مفهوم محدد لمصطلح البلاغة، أمر بغاية الصعوبة. ورغم ذلك يبقى مفهوم الممارسة التواصلية الاجتماعية، التي تكون بين الإنتاج والتلقي، أهم ما يعبر عن ذلك المصطلح، إذ لابد من توفر طرفان وهما المنتج والمتلقي، إذ يقوم الأول بعملية الإنتاج والثاني بعملية التحليل والتأويل، والتركيز على تلك العمليتين هو ما شكل أهم خصائص التصور البلاغي، في كل من نظرية النظم ونظرية النحو الوظيفي.

وبعد ما قدمناه توصلنا إلى النتائج الآتية:

- تشكل البلاغة مجالا حيويا رئيسا في حياتنا اليومية، حيث نبني من خلالها تفكيرنا ونعالج قضايا إنسانية متعددة، تنتمي إلى المجال الديني أو السياسي أو التعليمي أو الإعلامي أو الاقتصادي أو الفني الإبداعي...، إذ تُنظّم من خلالها أفكارا وتوجّه آراء ذات أبعاد وظيفية نفعية، على المدى البعيد، فتوظف آليات تأثيرية ناجعة إقناعية وفنية إمتاعية، ورغم أن البلاغة ثقافة وإيديولوجيا إنسانية خاصة، فذلك لا يمنع أن تحمل النظرية البلاغية في طياتها بعض الجوانب التي تتداخل من خلالها بلاغة المجتمعات البشرية المختلفة.

- تعد البلاغة ملكة وممارسة، حيث تظهر البلاغة باعتبارها ملكة من خلال آلية الممارسة، إذ تتجلى في الخطاب كمكنون، ليتمكن - على أساسه - القول إن هذا الخطاب - مثلا - ذو طابع بلاغي، ليتسنى الحكم على المنتج بالتميز.

- يتمحور الحديث عن البلاغة حول الملكة التواصلية الخطابية، التي تفعل في سياقات التواصل الاجتماعي، الذي يأخذ أشكالاً متنوعة، تكون بين الطابع العام والطابع الخاص وهو الطابع الفني الإبداعي، الذي يتولد عبره مفهوم البلاغة بمعنى الاستعمال الأدبي الجمالي، الذي يركز فيه المنتج على آليات التصوير الفني (التعبير المجازي كالاستعارة).

- عرفت البلاغة العربية نشأة ارتقائية عبر مراحل ارتبطت بظروف ثقافية وتحولات إبستمولوجية، شهدتها المجتمع العربي، وذلك ما أفضى إلى تنوع واختلاف مظاهر وصور النشاط البلاغي العربي القديم، الذي يرجع ظهوره إلى مصادر وأصول إبستمولوجية متنوعة، لعل أهمها على الإطلاق: الأصل الإبستمولوجي النقدي، والأصل الإبستمولوجي اللغوي، والأصل الإبستمولوجي الديني، فقد تبلورت معالم وأسس ذلك الصرح في خضم العديد من البحوث والمناقشات والأسئلة، التي ارتبطت بدراسة قضايا متباينة. بناء على ذلك يمكن القول إن البلاغة العربية قد شهدت عدة تأسيسات أبرزها:

أ - التأسيس النقدي

ب - التأسيس اللغوي

ج - التأسيس الكلامي

- أثار تقصي البلاغة ورصدها في الخطابات الإبداعية نقاشات وبحوث كثيرة لدى العرب، وهو ما بدأ عشوائياً غير منظم حيث كان ذلك في خضم مجالات أخرى لم تكن هي - البلاغة - المقصودة بالاهتمام؛ فقد ارتبطت نشأتها الأولى بحركات النقد التي قامت على الموازنات الشعرية، وبدأت ملامحها تتشكل جزئياً ضمن بحوث اللغويين والنحاة التي عنيت بضبط اللغة وتقعيدها، وتطورت ضمن قضايا علم الكلام. وهو ما قاد إليه الحدث الديني القرآني؛ حيث انشغل علماء الكلام بدراسة كلام الله (كتابه عز وجل)، فعلموا على تفسيره وتنزيهه من الشبهات وتأكيد إعجازه، وهو ما تولدت على إثره صورة البلاغة بوضوح؛ إنها البلاغة العلمية المنظمة حيث أصبحت مجالاً خاصاً يتضمن مواضيع ومصطلحات ومفاهيم وعلماء يمثلوه.

- لقد قدم علماء البلاغة تصورات بلاغية ناضجة، استطاعوا من خلالها تحديد شروط الخطاب البلاغي الناجح، التي يمكن على أساسها حصول الفائدة بين طرفي الخطاب؛ حيث يتعلق الأمر بعملية الإنتاج والتلقي، ولعل أهم تصور هو ما جاء به عبد القاهر الجرجاني، ونقصد بذلك نظرية النظم التي اتسمت البلاغة في إطارها بسمة العلمية، فقد عنيت النظرية بدراسة النشاط اللغوي التبليغي في بعده البلاغي، دراسة تركز على تنظيم العملية

الخطابية البلاغية، وتجاوز النقائص التي طبعت البحوث السابقة لها، وقد كان منطلقها النص الديني القرآني، لتنتقل بعدها إلى النصوص الأدبية، التي سادت في المجتمع العربي لا سيما منها الشعرية، موضحة أن البلاغة مراتب أعلاها ما تقوم على النظم البلاغي الذي يستطيع صاحبه تحقيق التأثير الإيجابي في مخاطبه.

- يعد الأصل الإستيمولوجي الديني الكلامي، الأصل الرئيس الذي تبلورت من خلاله نظرية النظم، وقد بدأت دراسة هذه النظرية من النص القرآني الكريم، باحثه عن أسرار بلاغته ودلائل إعجازه، لتنتقل في خضم ذلك إلى البحث في النصوص الكلامية البشرية الإبداعية (الشعرية منها خاصة)، حيث عنيت بتوضيح أسس وشروط البلاغة.

- حاول عبد القاهر من خلال الحديث عن النظم أن يبين لمستعمل اللغة الاستراتيجيات الناجحة، التي تمكنه من إحراز التبليغ البلاغي، ولعل أهم ما وضعه هو أن لكل أسلوب كلامي غرض ومقام ومعنى محدد، فيجب أن يكون لكل تحويل وعدول تركيبى علة تبررها حكمة بلاغية، يمكن أن تجلو للمتلقى من خلال القراءة الحصيفة العميقة للدلالة، وهذا ما يجده قائما عبر صورة التداخل القوي بين النحو والبلاغة، حيث يتعلق الأمر (بالنحو البلاغي)، الذي يؤسس حسب ما أوضحته هذه النظرية (لنظم البلاغي) باعتباره مظهر الإبداع.

- لقد كشف عبد القاهر عن حقيقة (بلاغة النحو) التي ترتبط بمعاني النحو، موضحا أن الأمر يخص طريقة النظم من خلال الانزياح عن الأصل العادي، بما يناسب الأغراض. وقد بين أن معرفة أن مدار أمر النظم، على معاني النحو، وعلى الوجوه والفروق التي من شأنها أن تكون فيه، تقتضي معرفة أن الفروق والوجوه كثيرة، ليس لها غاية تقف عندها، ونهاية لا تجد لها ازديادا بعدها، ثم إن المزية ليست بواجبة لها في أنفسها، ومن حيث هي على الإطلاق، ولكن تعرض بسبب المعاني والأغراض التي يوضع لها الكلام، ثم بحسب موقع بعضها من بعض، واستعمال بعضها مع بعض، فما ينبغي أن يعلمه مستعمل اللغة الساعي إلى تحقيق البلاغة، أن النظم يتأسس على معاني النحو، وتكون طريقة توظيفها بحسب المعاني والدلالات والأغراض. وبناء على مواقعها أي علاقاتها في الكلام يكون الاختلاف بين المتكلمين والمبدعين، وهذا ما يأخذنا إلى القول إن اللغة استعمال على أساسه يكون التفاوت بين أساليبنا الكلامية. وأن الفائدة من المعرفة اللغوية (خاصة النحوية في هذه النظرية)، تتمثل في الاستعمال الوظيفي لها وفق طابع تبليغي نفعي عادي أو فني بلاغي.

- وقف الجرجاني على قيمة الطبيعة الإبدالية أو التحويلية التي تتميز بها اللغة العربية؛ إذ ينتج بفضلها المتكلم العديد من الوجوه التركيبية التي تتباين دلالتها أين نقف على ما يعرف بخاصية الفروق الدلالية، ليؤكد في خضم ذلك أن الوصول إلى النظم المثالي من خلال استراتيجية الوجوه والفروق، أمر متوقف على اتباع ما يفرضه المقام.

- تتعدد وجوه استعمالنا التركيبية فتتباين دلالاتها، وهو ما يؤدي إلى تباين أنماط البلاغة ذلك أن هذه الأخيرة التي هي صفة في الكلام، تكون ذات مستويات ودرجات، حيث تكون من الأدنى إلى الأعلى أين تظهر الخصوصية والتميز حيث يكون قوة الأثر البلاغي.

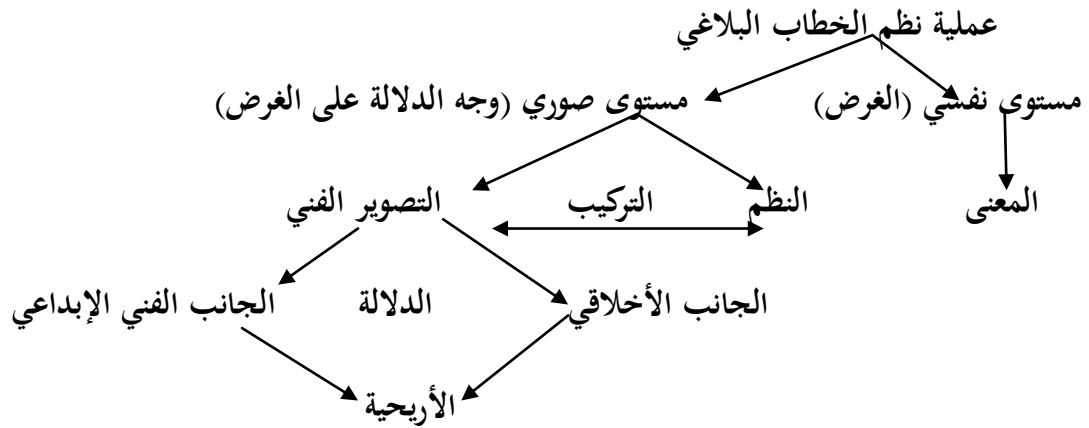
- تكون طبيعة اللغة الإبدالية أو التحويلية بين الجانب التركيبي والجانب الدلالي، حيث نقف على تقنية العدول التي يتبعها المنتج في بناء خطابه البلاغي، وهي نوعان: العدول التركيبي ويدخل في إطار النظم ويشمل: (التقديم والتأخير، والحذف والذكر، والفصل والوصل ..)، والعدول الدلالي ويدخل في إطار التصوير ويشمل (الاستعارة، الكناية، التمثيل ..).

- تتطلب البلاغة - حسب نظرية النظم - حرص المتكلم في بناء خطابه على جانبين: جانب السلامة والوضوح ويرتبط بالنحو، وجانب الجودة والإبداع ويتمحور حول الدلالة التي يشترط فيها القوة والفنية والشرف، وبين النحو والدلالة تتكون البلاغة لتعد ممارسة لغوية تواصلية إبداعية أخلاقية، إنها سمة الخطاب السامي المتميز الخاص الذي يختلف، ويرتقي عن الخطاب العادي، وقد عبر عنها بعدة مصطلحات أهمها: البيان، والفصاحة، والبراعة، وكلها تشترك في الإحالة على الجانب الإيجابي الذي يطبع الخطاب، حيث يكون مقبولا متميزا لدى المتلقي، إذ يعمل هذا الأخير على تقييمه والحكم عليه.

- عنيت نظرية النظم بالأثر البلاغي وهو الأثر الذي يتطلب خطابا بلاغيا متميزا، حيث يقتضي الأمر أن يكون منتجه مبدعا مثاليا، وذلك ما يقتضي - أيضا - أن يكون الطرف المتلقي خاصا مثاليا.

- بينت نظرية الجرجاني أن نظم الخطاب يمر بمرحلتين: مرحلة النظم النفسي وهي مرحلة ذهنية تقوم على مكون المعنى وتعلق بالغرض، ومرحلة النظم الصوري وتتعلق بوجه الدلالة على الغرض، وذلك ما ينطبق على كل الخطابات - الخطاب البلاغي في هذه النظرية - وقد وضحت، أن مدار المرحلة الثانية بالنسبة للخطاب البلاغي الإبداعي ثنائية النظم والتصوير، التي تقع على التركيب والدلالة. وتكون هذه الأخيرة ذات طابع فني أخلاقي،

حيث تتولد البلاغة باعتبارها إبداعاً فنياً أخلاقياً، يستوجب توفر الأريحية. ويمكننا توضيح كل ذلك في الشكل الآتي:



(أ) شكل يوضح أسس عملية نظم الخطاب البلاغي في نظرية النظم.

- يرتبط مفهوم الأريحية في نظرية النظم بالبعد النفسي، وهو المفهوم الذي يؤسس للبلاغة حسب الطرح الجرجاني؛ أي البلاغة الروحية ذات البعد الاجتماعي؛ حيث يتأسس مبدأ مراعاة تحقيق الأريحية في الخطاب البلاغي من قبل منتجه، على شرط مراعاة مبدأ مطابقة الكلام لمقتضى الحال، وهو المبدأ الذي يتعلق بمراعاة حال المتلقي (المتعلق بالجانب النفسي خاصة). وهنا يظهر البعد الوظيفي الاجتماعي للخطاب البلاغي الذي ركزت عليه النظرية.

- لقد توصلنا إلى أن مفهوم النظم بقسميه (النظم الذهني والنظم الصوري)، مفهوم كلي شمولي، حيث ينطبق على كل الخطابات التواصلية اللغوية وغير اللغوية سواء منها العادية أم البلاغية الأدبية، وذلك ما تفسره حقيقة أن بناء كل خطاب يمر بمرحلتين: مرحلة التخطيط الذهني، ومرحلة التجسيد الصوري. وذلك على الرغم من اختلاف الأداة والمادة؛ صوت/ كتابة، إشارة، نقش، تحبير، تفويغ، نحت، رسم. فعلى المستوى الخطابي البلاغي الإبداعي الفني العام، يمر المبدع على اختلاف نوعية خطابه بتلك المرحلتين، وتضم المرحلة الثانية التي تمثل مرحلة المزج والتفاوت، مراحل فرعية هي:

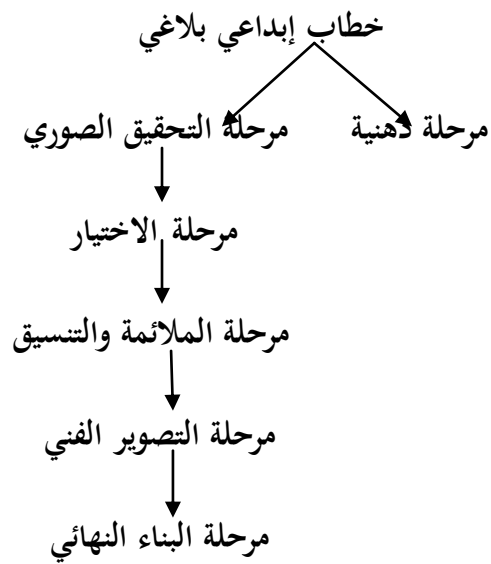
أ - **مرحلة الاختيار:** وتتعلق بالمادة التي من خلالها نكوّن الخطاب، حيث يعتمد المبدع على آلية الاختيار؛ فالنسبة للخطاب البلاغي اللغوي يتعلق الأمر بالألفاظ التي تناسب الدلالة، ونجد هذه المرحلة في الخطاب غير اللغوي أيضاً، ففي الرسم - مثلاً - يقوم الرسام باختيار الأصباغ والألوان التي يريد التعبير بها عن دلالة معينة.

ب - **مرحلة الملائمة والتنسيق:** وهنا يركز المبدع على دقة إحكام التنسيق بين لفظة وأخرى، و لون وآخر ..، ليسنى له تقديم عمل إبداعي قوي متقن الصنع.

ج - مرحلة التصوير الفني: إذ يلجأ المبدع إلى ابتداع أفكار ومعاني جديدة وفق أسلوب فني جمالي، وذلك ما يتعلق بتقنيات التخييل والتصوير الفني متعدد الاستعمال، كالجاز في الخطاب البلاغي اللغوي، والزخرفة في الخطاب غير اللغوي (كالرسم).

د - مرحلة البناء النهائي: وتتعلق بإخراج العمل الإبداعي في صورته النهائية.

ويمكننا توضيح مختلف تلك المراحل في الشكل الآتي:



(ب) شكل يوضح مراحل تشكيل الخطاب الإبداعي البلاغي.

- لقد اعتمدت نظرية النظم في مسألة تبين أسس الخطاب الإبداعي البلاغي (الشعري)، على الواقع وذلك ما نجده واضحاً في شروحات عبد القاهر، حيث يلجأ في الغالب الكثير إلى الاستدلال عن النظم بالنحت، والنقش، والتفوييف، والبناء، وقد شبه الجانب الجمالي في الخطاب بالوشى والمعرض، ويعبر ذلك عن الرؤية الكلية العامة التي قامت عليها النظرية.

- لم يركز عبد القاهر على الجانب الصوتي المتعلق بأصوات اللغة العربية، الذي عدّه بعض علماء البلاغة من أهم أسس فصاحة وبلاغة المتكلم وخطابه، كما هو الحال في نظرية البيان الجاحظية. والواقع يتميز ذلك الجانب بالطابع الخاص، حيث يرتبط ارتباطاً وثيقاً بثقافة المجتمع العربي، فقد اعتنى العرب بلغتهم فاهتموا اهتماماً بالغاً بجانب النطق وهو ما يدخل في إطار (البلاغة الشفوية)، وهي بلاغة ارتبطت - خاصة - بجنس الخطابة، وهذا ما غاب في نظرية النظم؛ حيث ركزت على الجنس الأدبي الشعري، ولا شك أن غياب ذلك لا ينقص من قيمتها بقدر ما يعبر - حسب رأينا - عن الرؤية الكلية التي طبعَت النظرية، حيث أراد عبد القاهر توجيه العربي وغيره من

الأجناس البشرية إلى أسس واضحة لبلاغة مثالية، مدارها (بلاغة المعنى) التي يستند تحقيقها على أسس تتمثل في: النظم والتصوير الفني الأخلاقي.

- تعددت بحوث الدراسات الغربية الحديثة وتباينت منطلقاتها، ووجهة نظرها إلى الخطاب الأدبي، فكانت العناية به عبر تطور بحوثها في الخطاب العادي؛ حيث برزت من داخلها تصورات جديدة انتقلت من اللغوي المحض إلى اللغوي الأدبي، وذلك ما اتخذ طريقين: دراسة مستقلة خاصة جعلت منه موضوعا لدراساتها (الشعرية، الأسلوبية)، ودراسة غير مستقلة وفيها تم التطرق إليه من خلال التطور الذي عرفته؛ عبر هدف توسيع مجال بحثها من أجل بلوغ الشمولية والكلية، وهذا ما نجده مثلا في (السيمائية، والتداولية ..)؛ إذ يمكن الوقوف في التداولية - مثلا - على (تداولية لسانية، وتداولية أدبية).

- عرفت البلاغة الغربية الحديثة عدة اتجاهات بلاغية، أهمها: الاتجاه اللساني (الأسلوبية والشعرية)، اتجاه البلاغة العامة، والاتجاه الحجاجي، والاتجاه السيميائي، والاتجاه التداولي.

- عنيت نظرية النحو الوظيفي بالبحث في موضوع الممارسة الخطابية التواصلية، ساعية إلى خدمة مستعملي الخطابات على مستوى عملية الإنتاج وعملية التأويل. وقد تم اقتراح نموذج مستعملي اللغات الطبيعية لتحقيق ذلك المسعى، وقد عملوا على تطويره وتقديم تعديلات ومقترحات، فبينوا أن مستعمل اللغة يملك ست ملكات، وهي: الملكة اللغوية، الملكة المنطقية، الملكة المعرفية، الملكة الإدراكية، الملكة الاجتماعية، الملكة الشعرية، وكلها ملكات عامة بين البشر.

- طور لغويو النحو الوظيفي مشروع مبدأ تحقيق الكفايات الثلاث، من الجانب اللغوي إلى الجانب الخطابي، وقد انتقلوا عبر ذلك من النظري إلى التطبيقي المتعلق بالخطابات التواصلية.

- يعكس تنوع النماذج التي عرفتتها نظرية النحو الوظيفي ميزة التطوير، التي يعمل بها القائمون عليها من أجل مواكبة مختلف تطورات حياة مستعمل الخطاب. ولا شك أن ذلك ما تولد عنه تصور أحمد المتوكل المتمثل في: نظرية التواصل الوظيفية العامة، التي تجلت من خلالها ملامح البلاغة في نظرية النحو الوظيفي، وهي بلاغة كلية شمولية تعنى بكل أنساق التواصل، حيث تدخل في إطارها شتى خطابات البشر التواصلية مختلفة الأنماط.

- يرتبط مفهوم البلاغة في إطار نظرية النحو الوظيفي بوظيفة التواصل، التي يشترك فيها جميع مستعملي الخطابات التواصلية، من خلال ملكاتهم، وتكون البلاغة بين الطابع العادي، والطابع الفني الذي يأخذ أعلى درجاته في الخطابات الإبداعية، التي يُفَعَّل فيها مستعملها الملكة الشعرية بدرجة قوية.

- تلتقي نظرية النظم بنظرية النحو الوظيفي من خلال بعد اللغة الاجتماعي التواصلية، الذي يتضمن أربعة أبعاد: بعد خطابي، وبعد مقامي (السياق غير اللغوي)، وبعد علاقي، وبعد نفعي. وتؤسس النظريتان للبلاغة الوظيفية، التي تقر بأن الخطاب البلاغي، يكون أولاً ذو وظيفة تواصلية اجتماعية، ومن خلال هذا البعد يستشف الباحث أن البلاغة وظيفة تواصلية عامة، قبل أن تكون وظيفة تواصلية خاصة تظهر في الخطابات الأدبية.

- ركزت كل من نظرية النظم ونظرية النحو الوظيفي على الملكة الخطابية، التي يتوفر عليها مستعمل الخطاب، وهي ملكة تنتمي إلى مجال الملكة التواصلية، التي نجد في إطارها البلاغة العامة، التي تشترك فيها جميع الخطابات التواصلية على اختلاف أنساقها وأنماطها.

- يعد مبدأ الفائدة الذي يدخل في إطار البعد التواصلية النفعية، المبدأ الرئيس الذي يوجه ممارسات مستعملي الخطابات التواصلية، وهو المبدأ الذي تقوم عليه البلاغة البشرية على اختلاف اتجاهاتها ونظرياتها، وفي إطاره يندرج مبدأ الوسيلة ومبدأ الغاية. ويشكل مبدأ الفائدة مدار التقاء كل من المنتج والمتلقي؛ حيث يحرص كلاهما على تحقيقه.

- ترتبط البلاغة بالنظر إلى طبيعة الخطاب البلاغي بالتواصلية التداولي الفني، وعلى هذا الأساس فإن الرؤية التداولية من أهم الأسس التي يمكن أن تقوم عليها النظرية البلاغية العامة، ورغم ذلك فإن فعالية تلك الرؤية تتطلب التركيز على البعد الاجتماعي الإنساني الأخلاقي، وذلك ما يستوجبه التعامل البلاغي الاجتماعي البناء.

- يعد البعد الأخلاقي - حسب رأينا - الأساس الأول، الذي يمكن أن تتأسس عليه النظرية البلاغية العامة، وهو ما توفرت عليه نظرية النظم. فعلى التركيز على هدف العمل بمبدأ تخليق الخطابات البلاغية الإبداعية، ليكون الخطاب البلاغي - أولاً وقبل كل شيء - الركيزة الأساس للتنمية البشرية، التي يمكن أن تخرج تفكير المجتمعات الإنسانية من بلاغة الثقافة المادية.

- تجعلنا حقيقة تأكيد نظرية النظم، على ضرورة توفر البعد الأخلاقي - التداولي الاجتماعي الفني - في الخطاب البلاغي نذهب إلى القول إن لتلك النظرية مقومات النظرية العامة، حيث بين عبد القاهر أسس البلاغة الناجحة، التي تقوم على انسجام وترابط تخطيطاتنا الذهنية النفسية، مع تعابيرنا النظمية الصورية، بشرط أن يكون ذلك في إطار رقابة الجانب الأخلاقي. واستنادا على ذلك يمكن القول إن ضرورة استثمار ما جاءت به تلك النظرية، أهم السبل التي تتيح إمكانية بناء نظرية عربية بلاغية جديدة ذات نجاعة وفعالية، حيث يمكنها خدمة الإنسان المعاصر في مختلف مجالات الحياة اليومية، ولعل إخراج نظرية النظم من المجال العربي الضيق، ونقلها إلى المجال الغربي عبر ترجمتها إلى اللغات الأجنبية، أهم ما يجب على الباحثين العمل عليه.

وقبل أن نختتم نأمل أن تكون هذه الدراسة خطوة للبحث في أسس البلاغة البشرية، كما نعتذر عن كل خطأ أو تقصير، فحسبنا الجهد الصادق، و الله ولي التوفيق.

قائمة المصادر والمراجع:

قائمة المصادر والمراجع:

﴿ القرآن الكريم برواية ورش عن نافع.

أ- المصادر:

- عبد القاهر الجرجاني:

1. أسرار البلاغة، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، د/ ت نشر.
2. دلائل الإعجاز، في علم المعاني، تح: ياسين الأيوبي، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، ط: 2002.

- أحمد المتوكل:

1. الوظائف التداولية في اللغة العربية، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط: 1: 1985.
2. دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفية، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، ط: 1: 1986.
3. اللسانيات الوظيفية (مدخل نظري)، منشورات عكاظ، الرباط، ط: 1: 1989.
4. البنية والوظيفة مقاربات وظيفية لبعض قضايا التركيب في اللغة العربية، منشورات عكاظ، الرباط، ط: 1: 1999.
5. الوظيفية بين الكلية والنمطية، دار الأمان، الرباط، ط: 1: 2003.
6. المنحى الوظيفي في الدرس الأصول والامتداد، دار الأمان، الرباط، ط: 1: 2006.
7. مسائل النحو العربي في قضايا نحو الخطاب الوظيفي، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت - لبنان، ط: 1: 2009.
8. الخطاب وخصائص اللغة العربية دراسة في الوظيفة والبنية والنمط، دار الأمان، الرباط، ط: 1: 2010.
9. اللسانيات الوظيفية المقارنة دراسة في التنميط والتطور، دار الأمان، الرباط، ط: 1: 2012.
10. قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، دار الأمان، الرباط، ط: 1: 2013.

ب - المراجع العربية والمترجمة:

1. ابتسام أحمد حمدان، الأسس الجمالية للإيقاع الجمالي في العصر العباسي، دار القلم العربي، ط: 1: 1997.
2. إبراهيم محمود خليل، في اللسانيات ونحو النص، دار الميسرة، عمان - الأردن، ط: 2: 2009.

3. أبو عبدة معمر بن المثنى، مجاز القرآن، ج1، إعداد: محمد فؤاد سيزيكن، مكتبة الخانجي، مصر، ط1: 1954.
4. ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، القسم الأول، قدمه وعلق عليه: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار نهضة مصر، ط2: 1973.
5. إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري، دار الثقافة، بيروت - لبنان، ط4: 1983.
6. أحمد الشايب، الأسلوب دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط8: 1991.
7. أحمد بن محمد بن إبراهيم ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: محي الدين، مكتبة النهضة، د/بلد نشر، ط1: 1949، ج5.
8. أحمد حساني، مباحث في اللسانيات (مبحث صوتي، مبحث دلالي مبحث تركيب)، منشورات كلية الدراسات الإسلامية العربية، الإمارات العربية المتحدة، ط2: 2013.
9. أحمد درويش، النص البلاغي في التراث العربي والأوربي، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط: 1998.
10. —، دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، د/ط.
11. أحمد عبد السيد الصاوي، النقد التحليلي عند عبد القاهر الجرجاني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، ط: 1979.
12. أحمد فهد صالح شاهين، النظرية التداولية وأثرها في الدراسات النحوية المعاصرة، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد - الأردن، ط1: 2015.
13. أحمد مصطفى المراغي، تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها، مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط1: 1950.
14. أحمد مطلوب، دراسات بلاغية ونقدية، دار الرشيد للنشر، الجمهورية العراقية، د/ط، د/سنة نشر.
15. أحمد مومن، اللسانيات النشأة والتطور، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط3: 2007.
16. أحمد يوسف، القراءة النسقية ومقولاتها النقدية، دار الغرب للنشر والتوزيع، الجزائر، ط: 2000 - 2001.
17. إدريس مقبول، الأفق التداولي، نظرية المعنى والسياق في الممارسة التراثية العربية، عالم الكتب الحديث، إربد - الأردن، ط1: 2011.

18. أدونيس، الشعرية العربية، دار الآداب، بيروت، ط 1: 1985.
19. أرسطو طاليس، فن الخطابة، ترجمه عن اليونانية وعلق عليه وقدم له: عبد الرحمن بدوي، طباعة ونشر دار الشؤون الثقافية العامة، آفاق عربية بغداد، ط.
20. _____، فن الشعر مع الترجمة العربية القديمة وشروح الفارابي وابن سينا وابن رشد، ترجمه عن اليونانية وشرحه وحقق نصوصه: عبد الرحمن بدوي، دار الثقافة، بيروت - لبنان، ط: 1973.
21. _____، منطق أرسطو، ج 3، حققه وقدم له: بد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات، الكويت، دار القلم، بيروت - لبنان، ط: 1980.
22. أفلاطون، فايدروس أو عن الجمال، ترجمة وتقديم، أميرة حلمي مطر، دار المعارف، مصر - القاهرة، ط1، د/ت نشر.
23. الآمدي الحسن بن بشر، الموازنة بين الطائيين، ج1، تح: السيد صقر، دار المعارف، مصر، ط: 1965.
24. أمين الخولي، فن القول، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ط: 1996.
25. _____، مناهج تحديد في النحو والبلاغة والأدب، دار المعرفة، ط: 1961.
26. آن رويول وجاك موشلار، التداولية اليوم علم جديد في التواصل، تر: سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني، مراجعة: لطيف زيتوني، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، ط: 2003.
27. ابن الأنباري كمال الدين أبو البركات عبد الرحمن، نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية، القاهرة، ط: 1961.
28. إينخباوم بوريس وآخرون، نظرية المنهج الشكلي، نصوص الشكلايين الروس تر: إبراهيم الخطيب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت - لبنان، ط: 1982.
29. آيزر فولفغانغ، فعل القراءة نظرية جمالية التجاوب في الأدب، تر: حميد الحميداني، الجليلي الكدية، مكتبة المناهل، فاس، د/ت، د/ط.
30. باتريك شارودو ودومينييك مانغونو، معجم تحليل الخطاب، ترجمة: عبد القادر المهيري وحماي صمود، مراجعة: صلاح الدين الشريف، دار سيناترا، تونس، 2008.
31. أبو بكر الباقلائي، إعجاز القرآن، تحقيق: أحمد صقر، دار المعارف، مصر، ط: 5، د/ت نشر.
32. البدرائي زهران، أسلوب طه حسين في الدرس اللغوي الحديث، دار المعارف، القاهرة، د/ط.

33. بدوي طبانة، البيان العربي دراسة تاريخية فنية في أصول البلاغة العربية، مكتبة الأنجلو المصرية، ط 2: 1958.
34. بن عيسى عسو أزابيط، الخطاب اللساني العربي - هندسة التواصل الإضماري - (من التجريد إلى التوليد)، مستويات البنية الإضمارية وإشكالاتها الأساسية، 2.
35. بهاء الدين السبكي، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، تح: عبد الحميد الهنداوي، دار السرور، بيروت، د/ط، د/ت نشر.
36. بول ريكور، البلاغة والشعرية والهرمونيقيقا، تر: مصطفى النحال، ضمن: مجلة فكر ونقد، عدد: 16، فبراير، الرباط، 1999.
37. _____، النص والتأويل، تر: منصف عبد الحق، مجلة العرب والفكر العالمي، ع: 3، 1988.
38. بول ريكور، نظرية التأويل الخطاب وفائض المعنى، تر: سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - المغرب، ط2: 2006.
39. بيير جيرو، الأسلوب والأسلوبية، تر: منذر عياشي، مركز الإنماء القومي، بيروت - لبنان، د/ ت نشر.
40. أبو حيان التوحيد، أخلاق الوزيرين، حققه وعلق عليه: محمد بن تاويت الطنجي، دار صادر، بيروت، ط1: 1992.
41. _____، الإمتاع والمؤانسة، ج1، قدم له وشرحه ووضع فهرسه: أحمد أمين وأحمد الزين، دار مكتبة الحياة، بيروت - لبنان، د/ ت نشر.
42. _____، المقابسات، تح: حسن السندوسي، دار سعادة الصباح، الكويت، ط2: 1992.
43. أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، 1 و2، تحقيق: هارون عبد السلام، مكتبة الخانجي، ط1: 1975.
44. _____، الحيوان، 3 و4، تحقيق: عبد السلام هارون، القاهرة، ط: 1948.
45. _____، الرسائل 1، تحقيق: عبد السلام هارون، القاهرة، د/ط.
46. جان سيرفوني، الملفوظية - دراسة -، تر: قاسم المقداد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، د/ بلد نشر، ط: 1998.
47. جان كوهن، بنية اللغة الشعرية، تر: محمد الولي ومحمد العمري، دار توبقال للنشر، المغرب، ط1: 1996.

48. جعفر دك الباب، الموجز في شرح دلائل الإعجاز في علم المعاني، نظرية الإمام الجرجاني اللغوية وموقعها في علم اللغة العام الحديث، مطبعة الجليل، دمشق، ط: 1980.
49. جفري سامسون، مدارس اللسانيات التسابق والتطور، تر: محمد زياد كبة، جامعة الملك سعود، د/ ط.
50. جلال الدين السيوطي، الأشباه والنظائر في قواعد وفروع فقه الشافعية، ج 1، دار الكتب العلمية، ط: 1983.
51. جميل حمداوي، اتجاهات الأسلوبية، د/ دار نشر، د/ بلد نشر، ط: 1: 2015.
52. ———، أنواع المؤلف في النقد الأدبي، دار الريف للطبع والنشر الإلكتروني، الناظور - تطوان/ المملكة المغربية، ط: 2: 2020.
53. ———، من الحجاج إلى البلاغة الجديدة، أفريقيا الشرق، المغرب، ط: 2014.
54. جميل عبد المجيد، بلاغة النص "مدخل نظري" و"دراسة تطبيقية"، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، كلية الآداب، جامعة جلوان، د/ بلد نشر، ط: 1999.
55. ابن جني أبو عثمان، الخصائص، ج: 3، تح: محمد علي النجار، طبعة مصورة عن دار الكتب المصرية، القاهرة، ط: 2: 1956.
56. ———، المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، ج: 2، تح: علي النجدي ناصف وعبد الفتاح إسماعيل شبلي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ط: 1969.
57. جورج لايكوف ومارك جونسون، الاستعارات التي نحيا بها، تر: عبد المجيد جحفة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء - المغرب، ط: 2: 2009.
58. جورج موان، علم اللغة في القرن العشرين، تر: غزاوي، مؤسسة الوحدة، دمشق، دت.
59. جوليا كريستيفا، علم النص، تر: فريد الزاهي، مراجعة: عبد الجليل ناظم، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء - المغرب، ط: 1995.
60. جون ستروك، البنيوية وما بعدها من ليفي شتراوس إلى ديريدا، تر: محمد عصفور، عالم المعرفة، الكويت، ط: 1996.
61. جون سورل، الأعمال اللغوية بحث في فلسفة اللغة، تر: أميرة غنيم، مراجعة: محمد الشيباني، دار سيناترا، تونس، ط: 1: 2015.

62. —، العقل واللغة والمجتمع: الفلسفة في العالم الواقعي، تر: سعيد الغانمي، الدار العربية للعلوم، الاختلاف، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1: 2006.
63. حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، دار الغرب الإسلامي، ط2: 1981.
64. حافظ إسماعيلي علوي، التداوليات علم استعمال اللغة، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إريد - الأردن، ط2: 2014.
65. حسان الباهي، الذكاء الاصطناعي وتحديات مجتمع المعرفة، حنكة الآلة أمام حكمة العقل، أفريقيا الشرق، المغرب، ط: 2012.
66. حسن ناظم، مفاهيم الشعرية، دراسة مقارنة في الأصول والمنهج والمفاهيم، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1: 1994.
67. حمادي الصمود، التفكير البلاغي عند علماء العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس. (مشروع قراءة)، منشورات الجامعة التونسية، طبع بالمطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، ط: 1981.
68. —، مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح، ضمن: أهم نظريات الحجاج في الثقايد الغربية من أرسطو إلى اليوم، تونس، د/ ت نشر،
69. الخطابي أبو سليمان حمد بن محمد إبراهيم، بيان إعجاز القرآن مطبوع ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط3: 1976.
70. ابن خلدون، المقدمة، ج 3، تح: علي عبد الواحد وافي، دار طبعة مصر للطبع والنشر، القاهرة، د/ تاريخ نشر، ط3.
71. خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1: 2009.
72. خليل أحمد عمارة، في نحو اللغة العربية وتراكيبها منهج وتطبيق، عالم المعرفة، جدة - السعودية، ط1: 1984.
73. دهمان أحمد علي، الصورة البلاغية عند عبد القاهر الجرجاني، منهجا وتطبيقا، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ج1، ط1: 1986.
74. ذهبية حمو الحاج، لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، المدينة الجديدة - تيزي وزو، ط2: 2012.

75. رايح بوحوش، الأسلوبيات وتحليل الخطاب، مديرية النشر، جامعة باجي مختار، عنابة، د/ت نشر.
76. رمان سلدن، النظرية الأدبية المعاصرة، تر: جابر عصفور، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط 1998.
77. رجاء عيد، فلسفة البلاغة، منشأة المعارف بالاسكندرية، د/ بلد نشر، ط2.
78. رشيدة العلوي كمال، النحو التوليدي بعض الأسس النظرية والمنهجية، دار الأمان، الرباط، ط1: 2014.
79. ابن رشيق القيرواني، العمدة في صناعة الشعر ونقده، ج1، حققه وعلق عليه ووضع فهرسه: النبوي عبد الواحد شعلان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1: 2000.
80. رمضان الصباغ، في نقد الشعر العربي المعاصر دراسة جمالية، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية - مصر، ط1: 1998.
81. روبرت دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، تر: تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ط1: 1998.
82. روبرت شولز، السيميائية والتأويل، تر: سعيد الغانمي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1: 1994.
83. روبنز، موجز تاريخ علم اللغة (في الغرب)، تر: أحمد عوض، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ط: 1997.
84. رولان بارت، درس السيميولوجيا، تر: عبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال، المغرب، ط3: 1993.
85. —، هسهسة اللغة، تر: منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، حلب - سورية، ط1: 1999.
86. رومان جاكبسون، قضايا الشعرية، تر: محمد الولي ومبارك حنون، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء - المغرب، ط1: 198.
87. ابن السراج، الأصول في النحو، تح: عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، د/ت.
88. سعد الله محمد سالم، ما وراء النص، عالم الكتب الحديث، الأردن - إريد، ط: 2008.
89. سعيد البحيري، علم لغة النص، المفاهيم والاتجاهات، دار نوبال للطباعة، القاهرة، ط1: 1997.
90. —، مناهج علم اللغة من هارمان باول حتى ناعوم تشومسكي، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة - مصر، ط1: 2004.
91. السعيد شنوفة، مدخل إلى المدارس اللسانية، الجزائر للنشر والتوزيع، ط1: 2008.
92. سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي (الزمن - السرد - التبيين)، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط3: 1997.

93. ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: 1982.
94. سيبويه أبو بشر عمرو بن عثمان، الكتاب، ج1، تح: عبد السلام هارون، دار الخانجي، القاهرة، ط3: 1988.
95. السيد إبراهيم محمد، الضرورة الشعرية، دار الأندلس، ط1: 1979.
96. شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف، القاهرة، ط: 9، د/ت نشر.
97. ———، في النقد الأدبي، دار المعارف، القاهرة، ط9، د/ت نشر.
98. صابر الحباشة، مغامرة المعنى من النحو إلى التداولية قراءة في "شروح التلخيص" للخطيب القزويني، صفحات للدراسات والنشر، سورية - دمشق، ط1: 2011.
99. صلاح إسماعيل، فلسفة العقل، دراسة في فلسفة سيرل، دار قباء الحديثة، القاهرة، ط: 2007.
100. صلاح الدين صالح حسنين، الدلالة والنحو، مكتبة الآداب، القاهرة، د/ت، ط1.
101. صلاح عيد، الأسلوب الأدبي بين الاتجاهين النحوي والبلاغي، مكتبة الآداب، القاهرة، ط: 1993.
102. صلاح فضل، علم الأسلوب مبادئ وإجراءاته، دار الشروق، القاهرة، ط1: 1988.
103. طه أحمد إبراهيم، تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري، د/ بلد نشر، د/ تاريخ نشر.
104. طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1: 1998.
105. عبد الجليل هنوش، التأسيس اللغوي للبلاغة العربية (دراسة في الجذور)، دار كنوز المعرفة، عمان، ط1: 2016.
106. عبد الراجحي، النحو العربي والدرس الحديث بحث في المنهج، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، د/ ط، د/ سنة نشر.
107. عبد الرحمان الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج 1، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، ط: 2007.
108. عبد الرحمن البرقوقي، شرح ديوان المتنبي، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر - القاهرة، ط2: 2014.
109. عبد الرحمن غركان، نظرية البيان العربي خصائص النشأة ومعطيات النزوع التعليمي (تنظير وتطبيق).

110. عبد الرحمن وهابي، القراءة العربية لكتاب فن الشعر لأرسطو طاليس، عالم الكتب الحديث، الأردن ط1: 2011.
111. عبد السلام إسماعيلي علوي، ما التداوليات ؟، ضمن كتاب: التداوليات علم استعمال اللغة، تنسيق وتقديم: حافظ إسماعيلي علوي، عالم الكتب الحديث، إربد - الأردن، ط 2: 2014.
112. عبد العزيز حمودة، المرايا المقعرة نحو نظرية نقدية عربية، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، عالم المعرفة، الكويت، ط: 2001.
113. عبد الفتاح أحمد يوسف، لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1: 2010.
114. عبد القادر الفاسي الفهري، اللسانيات واللغة العربية نماذج تركيبية ودلالية، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء - المغرب، ط3: 1993.
115. عبد القادر حسين، أثر النحاة في البحث البلاغي، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط: 1998.
116. ———، المختصر في تاريخ البلاغة، دار غريب، القاهرة، ط: 2001.
117. عبد القاهر الجرجاني، الرسالة الشافية ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، دار المعارف، القاهرة، 1968.
118. عبد القاهر المهيري وآخرون، أهم المدارس اللسانية، منشورات المعهد القومي لعلوم التربية، تونس، 1986.
119. عبد اللطيف عادل، بلاغة الإقناع في المناظرة، منشورات ضفاف، بيروت - لبنان، ط1: 2003.
120. عبد الله ابن المعتز، كتاب البديع، تح: إغناطيوس كراتشوفسكي، دار المسيرة، الكويت، ط3: 1982.
121. عبد الله بن عبد المجيد بن مسلم بن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، تح: السيد أحمد صقر، دار إحياء الكتب العربية، مصر، ط1: 1954.
122. عبد الله صولة، في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات، مسكيلياني للنشر والتوزيع، تونس، ط1: 2011.
123. عبد الناصر حسن محمد، نظرية التوصليل وقراءة النص الأدبي، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، القاهرة، ط: 1999.

124. عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ليبيا، ط: 2004.
125. عبد الواسع الحميري، الخطاب والنص المفهوم، العلاقة، السلطة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط: 2008.
126. عدنان بن ذريل، اللغة والأسلوب، دراسة، د/ دار نشر، د/ بلد نشر، ط: 2006.
127. عز الدين البوشيخي، التواصل اللغوي مقارنة لسانية وظيفية نحو نموذج لمستعملي اللغة الطبيعية، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت - لبنان، ط: 1: 2012.
128. عزيز السيد جاسم، دراسات نقدية في الأدب الحديث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط: 1995.
129. أبو هلال العسكري، الصناعتين الكتابة والشعر، تح: مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: 1981.
130. _____، تح: علي محمد البجاوي ومحمد أبي الفضل إبراهيم، منشورات المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، ط: 1986.
131. _____، الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة، القاهرة - مصر، د/ط.
132. علي بن بسام التغلبي الشنتريني، الدخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج1، تح: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت - لبنان، ط: 1997.
133. علي بن عيسى الرمازي أبو الحسن، النكت في إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تح: محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط: 3: 1976.
134. علي محمد حسن عماري، قضية اللفظ والمعنى وأثرها في تدوين البلاغة العربية (إلى عهد السكاكي 555 هـ - 625 هـ)، أميرة للطباعة، ط: 1: 1999.
135. عمارة ناصر، الفلسفة والبلاغة مقارنة حجاجية للخطاب الفلسفي، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط: 1: 2009.
136. عمر أوكان، اللغة والخطاب، أفريقيا الشرق، المغرب - الدار البيضاء، ط: 2001.
137. ابن فارس، الصحاحي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، تح: مصطفى الشومبي، مؤسسة بدران للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، ط: 1963.

138. فاطمة الطبال بركة، النظرية اللسانية عند رومان جاكبسون، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ط1: 1993.
139. فان دايلك، النص والسياق، تر: عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء - المغرب، ط1: 2000.
140. الفراء أبو زكريا، معاني القرآن، تح: محمد علي النجار وأحمد يوسف نجاتي، دار الكتب المصرية، ط: 1955.
141. فرانك بالمر، مدخل إلى علم الدلالة، تر: محمود خالد جمعة، مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع، الكويت، ط1: 1997.
142. فردينان دي سوسير، محاضرات في الألسنية العامة، تر: يوسف غازي ومجيد نصر، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر، 1986.
143. فكتور إيرليخ، الشكلائية الروسية، تر: محمد الولي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - بيروت، ط 1: 2000.
144. فوزي السيد عبد ربه، المقاييس البلاغية عند الجاحظ في البيان والتبيين، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط: 2005.
145. فيلي ساندريس، نحو نظرية أسلوبية لسانية، تر: خالد محمود جمعة، دار الفكر، دمشق، ط1: 2003.
146. فيليب بروتون وجيل جوتييه، تاريخ نظريات الحجاج، تر: محمد صالح ناجي الغامدي، مركز النشر العلمي، المملكة العربية السعودية - جدة، ط1: 2011.
147. فيليب بلانشيه، التداولية من أوستين إلى غوفمان، تر: صابر الحباشة، دار الحوار للنشر والتوزيع، سورية - اللاذقية، ط1: 2007.
148. القاضي عبد الجبار المعتزلي، المغني في أبواب التوحيد والعدل، ج 16، تح: أمين الخولي، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ط: 1960.
149. القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط: 1966.
150. ابن قتيبة عبد الله بن مسلم، تأويل مشكل القرآن، علق عليه ووضع حواشيه وفهارسه: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط2: 2007.

151. ———، الشعر والشعراء، ج1، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، .
152. قدامة بن جعفر، جواهر الألفاظ، تحقيق: محمد الديب عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر، ط1: 1932.
153. ———، نقد الشعر، تحقيق: عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، د/ت نشر.
154. كريب رمضان، بدور الاتجاه الجمالي في النقد العربي القديم، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران - الجزائر، ط: 2004.
155. كلاوس برينكر، التحليل اللغوي للنص، مدخل إلى المفاهيم الأساسية، والمنهج، تر: سعيد بحيري، مؤسسة المختار للنشر، القاهرة، ط1: 2005.
156. كمال بشر، التفكير اللغوي بين القديم والجديد، مكتبة الشباب، القاهرة، د/ ت.
157. لودفيك فتغنشتاين، تحقيقات فلسفية، تر: عبد الرزاق بنور، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1: 2007.
158. ماري آن بافو وجورج إلينا سرفاتي، النظريات اللسانية الكبرى من النحو المقارن إلى الذرائعية، تر: محمد الراضي، توزيع مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت - لبنان، ط1: 2012.
159. مانويل ماريا كاريلو، خطابات الحداثة، القسم السابع عن بلاغة بيرلمان الجديدة، تر: إدريس كثير وعز الدين الخطابي، منشورات ما بعد الحداثة، فاس، ط1: 2001.
160. محمد الحسين مليطان، نظرية النحو الوظيفي الأسس والنماذج والمفاهيم، دار الأمان، الرباط، ط1: 2014.
161. محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، أفريقيا الشرق - المغرب، ط1: 2005.
162. ———، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، أفريقيا الشرق، المغرب، ط1: 1999.
163. ———، البلاغة والخطاب، إعداد وتنسيق: محمد مشبال، دار الأمان، الرباط، ط1: 2014.
164. محمد الولي، الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي والنقدي، المركز الثقافي العربي، بيروت - لبنان، ط1: 1990.
165. محمد بن أبي بكر الدماميني، شرح الدماميني على مغني اللبيب، ج 2، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت لبنان، ط1: 2007.

166. محمد بن مريسي الحارثي، عمود الشعر العربي النشأة والمفهوم، نادي مكة الثقافي الأدبي، مكة المكرمة، ط1: 1996.
167. محمد بن يزيد المبرد، البلاغة، تح: رمضان عبد التواب، مطبعة المدني، مصر، ط2: 1984.
168. محمد خطابي، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، بيروت - لبنان، ط1: 1991.
169. محمد زغلول سلام، أثر القرآن في تطور النقد العربي إلى آخر القرن الرابع الهجري، قدم له: محمد خلف الله أحمد، مكتبة الشباب، ط1: 1991.
170. محمد عابد الجابري، نقد العقل العربي 2، بنية العقل العربي دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية، بيروت.
171. محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت - لبنان، ط1: 1994.
172. _____، قضايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجاني، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت - لبنان، ط1: 1995.
173. محمد عزام، النص الغائب، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ط: 2001.
174. محمد غاليم، النظرية اللسانية والدلالة العربية والمقارنة، دار طوبقال للنشر، الدار البيضاء - المغرب، ط1: 2007.
175. محمد كريم الكواز، البلاغة والنقد المصطلح والنشأة والتجديد، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت - لبنان، ط1: 2006.
176. محمد مشبال، البلاغة والأصول دراسة في أسس التفكير البلاغي العربي نموذج ابن جني، أفريقيا الشرق، المغرب، ط: 2007.
177. محمد مفتاح، التلقي والتأويل مقارنة نسقية، المركز الثقافي العربي، ط1: 1994.
178. محمد مندور، الأدب وفنونه، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، الفجالة - مصر، ط: 1980.
179. محمود أحمد نخلة، علم اللغة النظامي، مدخل إلى النظرية اللغوية عند هاليدا، د/ بلد نشر، ط2: 2001.
180. _____، مدخل إلى دراسة الجملة العربية، د/ دار نشر، بيروت، ط: 1988.
181. المرزوقي، شرح ديوان الحماسة، ج1، تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون، مصر، ط: 1967.

182. مسعود بودوخة، البلاغة العربية بين الإمتاع والإقناع، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1: 2018.
183. مصطفى غلفان، اللسانيات التوليدية من النموذج المعيار إلى البرنامج الأدنوي، مفاهيم وأمثلة، عالم الكتب الحديث، إربد - الأردن، ط: 2010.
184. _____، في اللسانيات العامة (تاريخها، طبيعتها، موضوعها، مفاهيمها)، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت - لبنان، ط1: 2010.
185. مصطفى مسلم، مباحث في إعجاز القرآن، دار المسلم للنشر والتوزيع، الرياض، ط2: 1996.
186. منذر عياشي، الأسلوبية وتحليل الخطاب، مركز الإنماء الحضاري للدراسات والترجمة والنشر، سوريا، ط1: 2002.
187. موسى سامح رابعة، الأسلوبية مفاهيمها وتحليلاتها، دار الكندي للنشر والتوزيع، الأردن، ط1: 2003.
188. ميشال زكريا، الألسنية التوليدية والتحويلية وقواعد اللغة العربية، (الجملة البسيطة)، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط2: 1986.
189. نايف الخرماء، أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ط1: 2000.
190. نايف خرما وعلي حجاج، اللغات الأجنبية؛ تعليمها وتعلمها، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ط: 1988.
191. نجيب بلدي، دروس في تاريخ الفلسفة، دار توبقال، الدار البيضاء - المغرب، ط 1: 1987.
192. ابن النديم، الفهرست، مكتبة خياط، لبنان، د/ دار نشر، د/ ط/ ت نشر،
193. نعمان بوقرة، المدارس اللسانية المعاصرة، مكتبة الآداب، القاهرة، د/ ت نشر.
194. نعيمة الزهري، تحليل الخطاب في نظرية النحو الوظيفي، دار الأمان، الرباط، ط1: 2014.
195. نواري سعودي أبو زيد، في تداولية الخطاب الأدبي المبادئ والإجراء، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، سطيف، الجزائر، ط1: 2009.
196. نوال عبد الرزاق سلطان، العلاقة بين البلاغة والنقد حتى نهاية القرن الرابع الهجري، قدم له: مازن المبارك وعبد القادر حسين، دار البشائر، سورية، ط1: 2008.
197. نور الدين السد، الأسلوبية وتحليل الخطاب، دراسة في النقد العربي الحديث، الجزء ، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط: 2010.

198. نوام تشومسكي، المعرفة اللغوية طبيعتها وأصولها واستخدامها، تر: محمد فتيح، دار الفكر العربي، مصر، ط1: 1993.
199. هشام الريفي، الحجاج عند أرسطو، ضمن: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إشراف: حمادي صمود، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية - تونس، كلية الآداب، د/ ت نشر.
200. هنريش بليث، البلاغة والأسلوبية، نحو نموذج سيميائي لتحليل النص، تر: محمد العمري، أفريقيا الشرق، المغرب، ط1: 1999.
201. وليد محمد مراد، نظرية النظم وقيمتها العلمية في الدراسات اللغوية عند الجرجاني، دار الفكر، دمشق - سورية، ط1: 1983.
202. يحيى بن حمزة العلوي، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ج 2، دار الكتب الخديوية، د/ بلد نشر، ط: 1914.
203. يوسف أبو العدوس، الأسلوبية الرؤية والتطبيق، دار الميسرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان - الأردن، ط1: 2007.
204. يوسف أبو العدوس، مدخل إلى البلاغة العربية، (علم المعاني - علم البيان - علم البديع)، عمان - الأردن، ط1: 2007.
- ج - المعاجم والقواميس:

1. جاك موشلر آن ريبول، القاموس الموسوعي للتداولية، تر: مجموعة من الأساتذة والباحثين بإشراف عز الدين المجدوب، مراجعة: خالد ميلاد، دار سيناترا، تونس، 2010.
2. ياقوت الرومي، معجم الأدباء، ج 19، دار المأمون، القاهرة، د/ ت. نشر.
- د- الموسوعات:

- عماد عبد اللطيف، بلاغة جديدة لعالم جديد، ضمن: موسوعة البلاغة، الجزء الأول، عدد: 2699، تحرير: توماس أ. سلوان، ترجمة: نخبة، إشراف وتقديم: عماد عبد اللطيف، مراجعة: عماد عبد اللطيف و مصطفى لبيب، ط1: 2016.

ه - المجالات والدوريات:

1. أحمد يوسف، السيميائيات والبلاغة الجديدة، مجلة علامات، عدد: 28، 2007.

2. أم السعد حياة، الاستعارة التي نحيا ونستعمر بها المفهوم المعرفي للاستعارة، مجلة البلاغة بين النقد والأدب واللغة، دار كنوز المعرفة، عمان - الأردن.
 3. جورج مولينيه، دراسة الأسلوب والبحث وأدوات الفن الأدبي، تر: بسام بركة، مجلة الفكر العربي، معهد الإنماء العربي، بيروت - لبنان، شتاء 1998، العدد: 94.
 4. خالد علي مصطفى، مفهومات نظرية القراءة والتلقي، مجلة ديالي، جامعة ديالي، العراق، ع: 69، 2016.
 5. السيد علي محمد خضر، البدايات النحوية لأصول البلاغة العربية، مجلة كلية التربية، جامعة المنصورة، العدد 79، الجزء الثاني، مايو 2012.
 6. عبد العزيز لحويديق، الاستعارة عند جماعة مؤ البليجية، مجلة علامات، ج 56، مج 14، يونيو: 2005.
 7. محمد العمري، المقام الخطابي والمقام الشعري في الدرس البلاغي، مجلة سال، العدد 4، 1991.
 8. محمد الولي، مدخل إلى الحجاج ... أفلاطون وأرسطو وشايم بيرلمان، مجلة عالم الفكر، الكويت، العدد 2، المجلد 40، أكتوبر 2011.
 9. محمد سالم ولد محمد الأمين، مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، مج: 28، مارس، 2000.
 10. محمد عمر الصماري، النظم والنحو عند عبد القاهر الجرجاني، عبد القاهر الجرجاني، أعمال ندوة، جامعة صفاقس، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس، 1998.
 11. مصطفى الغرافي، البلاغة بوصفها تفكيراً في قضايا الخطاب، مجلة الخطاب، عدد: 14.
- و - الرسائل الجامعية:

1. يحيى بعيطيش، نحو نظرية وظيفية للنحو العربي، أطروحة دكتوراه، جامعة منتوري قسنطينة، 2005، 2006.

ز - المراجع الأجنبية:

1. Chaim Perelman, l'empire rhétorique, Librairie Philosophique. J. Vrin, France, 2 ed, 1977, 2002.
2. chaim perleman et lucie olbrechts tyteca, traité de l'argumentation, éditions de l'université de bruxelles, Belgique, 6 édition, 2008.
3. Ducrot, Todorov, dictionnaire encycl. des science du langage, op. cit.
4. Eikhenbaume, théorie de la méthode formelle in T.Todorov, Théorie de la littérature paris, éd. Seuil, 1965.

5. Emile Benveniste, problemes de linguistique générale, T2, Gallimard, paris.
6. Emille Benveniste, problèmes de linguistique général, t1, 1966.
7. G.Genette, Fugure 1, Seuil, 1966.
8. Gérard Genette, fiction et diction, Edition du Seuil, Paris, 1991.
9. Gérard Genette, Introduction à L architexte, in théorie des genres, Edition du Seuil, Paris, 1986
10. Hans Robert Jauss, Pour une esthetique de la reception, Paris, Gallimard, 1978.
11. Jean Dubois et autre, Dictionnaire de linguistique, Larousse, paris, 1973.
12. Jean Dubois et autres, Dictionnaire de lingistique, Librairie Larousse, Paris, 1973.
13. Jean Michel Adam, Linguistique textuelles des genres de discours aux textes, Ed, Nathan, paris, 1999.
14. Michel Foucault, L'archéologie du savoir, Gallimard, Paris, 1969.
15. Noam chomsky, Aspect de la théorie Syntaxique, traduit de L'Anglais par jean claude Milner en 1971, Ed Seuil. Paris.
16. Perlman Chaïm, olbrechts tyteca, la Nouvelle rhétorique : traité de l'argumentation, t 1, éd, P. U.F, 1958.
17. Pierre Guiraud, La stylistique,PUF, Paris, 5 eme Ed, 1967.
18. Roman Jakobson, Huit questions de poétique, collection poelats, 1977.
19. Roman. Jakobson, Essais de linguistique général (1 - les fondations du langage), traduit par Nicolas Ruwet, Paris, les édition de Minuit, 1963, p 214, p 220.

فهرس الموضوعات:

فهرس الموضوعات:	
العنوان	الصفحة
● مقدمة	أ - ز
فصل أول: فصل تمهيدي في البلاغة العربية	
● تمهيد	2
أولاً: البلاغة دراسة في تحول المفهوم	2
- البيان	3
- البديع	5
- المجاز	7
- الفصاحة والبلاغة	8
ثانياً: الأصول الإستيمولوجية	9
1 - الأصل الإستيمولوجي النقدي	9
1 - أ تداخل النقد بالبلاغة	10
2 - الأصل الإستيمولوجي اللغوي	17
2 (أ) النص الشعري	19
2 (ب) النص القرآني	24
1 - مجاز القرآن لأبي عبيدة معمر بن المثنى	24
2 - معاني القرآن للفرء	27
2 - ج - علاقة النحو بالبلاغة	30
3 - الأصل الإستيمولوجي الديني القرآني	33
1 - ابن قتيبة	34
2 - الرماني	37
4 - العامل الأجنبي	40
ثالثاً: البلاغة العربية القديمة في العصر الحديث	42
(1) - منهجية إعادة قراءة التراث البلاغي قراءة داخلية	43
(2) - منهجية إعادة قراءة التراث البلاغي قراءة خارجية	44
مشروع تحديد البلاغة العربية	46
أ - أحمد الشايب	49

50	ب - أمين الخولي
52	رابعا: قضية الإعجاز القرآني ودورها في نشأة نظرية النظم
53	قضية الإعجاز القرآني بين البلاغيين
55	أ - إعجاز القرآن عند الجاحظ
55	ب - إعجاز القرآن عند ابن قتيبة
56	ج - إعجاز القرآن عن الرماني
57	د - إعجاز القرآن عند أبو سليمان بن محمد بن إبراهيم الخطابي
58	هـ - إعجاز القرآن عند أبو بكر بن الطيب الباقلاني
59	و - إعجاز القرآن عند القاضي عبد الجبار
60	ز - إعجاز القرآن عند عبد القاهر الجرجاني
62	خامسا - قضية اللفظ والمعنى عند عبد القاهر الجرجاني
62	أ - اللفظ بمعنى الكلمة المفردة في مقابل المعنى
64	ب - اللفظ بمعنى التصوير الفني البلاغي في مقابل المعنى باعتباره مضمونا للخطاب
72	سادسا - أصول نظرية النظم
73	1 - الأصول الكلامية
74	2 - الأصول النحوية
76	3 - الأصول البلاغية
77	سابعا - النظم عند عبد القاهر الجرجاني
77	- مفهوم النظم عنده
79	1 - أسس ومبادئ نظرية النظم
فصل ثان: البلاغة في نظرية النظم	
88	• تمهيد
91	أولا: إنتاج الخطاب البلاغي في نظرية النظم
93	1 - البعد الذهني (أو النفسي)
93	2 - البعد اللغوي
94	3 - البعد التواصلية أو التداولية
94	المستوى التداولي
95	المستوى الدلالي

97	المستوى النحوي
100	ثانيا: أسس بلاغة الخطاب في نظرية النظم
101	1 - النظم
106	1 - 1. التقديم والتأخير
107	أ - الرتب المحفوظة
108	ب - الرتب غير المحفوظة
110	1 - 1 - أ. التقديم مع الاستفهام
110	أ - الفعل الماضي
112	ب - المضارع
113	1 - 1 ب . التقديم مع النفي
115	1 - 1 ج. التقديم مع الإثبات
117	1 - 2. الحذف
117	1 - 2 - أ. حذف الفعل
118	1 - 2 - ب. حذف المبتدأ
119	1 - 2 - ج. حذف المفعول به
121	1 - 2 - هـ. الإضمار على شريطة التفسير
122	1 - 3 . الفصل والوصل
123	1 - 3 - أ مواضع الفصل والوصل
123	1 - الوصل في الجمل التي لها محل من الإعراب
123	2 - الوصل في الجمل التي لا محل لها من الإعراب
124	أ - ما يجري مجرى الشبيه والنظير
124	ب - ما يجري مجرى النقيض عن الخبر الأول
125	1 - 3 - ب. الفصل
125	1 - الاتصال إلى الغاية
126	2 - الانفصال إلى الغاية
130	2 - اللفظ (الصورة)
133	2 - أ. المجاز
134	أ - المجاز اللغوي

134	ب - المجاز العقلي
137	2 - ب. الاستعارة
145	2 - ج. الكناية
147	2- د. التمثيل
150	2 - هـ. فعالية التشبيه في نظرية النظم (الأنواع والاستراتيجيات):
158	ثالثا: أسس التصوير البلاغي الفني:
158	أ - الفائدة
158	ب - المناسبة المقامية
159	ج - النظم
160	رابعا: معايير التصوير البلاغي الإبداعي الخاص
163	خامسا: التخييل بين الصدق والكذب من منظور الطرح البلاغي الجرجاني
163	1 - النمط العقلي
163	2 - النمط التخيلي
165	أ - البعد النفسي الإبداعي
166	ب - البعد الأخلاقي
167	1- 1 - المعنى الشريف نواة الخطاب الإبداعي البلاغي
168	2 - منهج عبد القاهر الجرجاني البلاغي من خلال مقولة الصدق والكذب
171	سادسا: عملية التلقي (فهم وتأويل الخطاب) في نظرية النظم
174	1 - مجال عمل المتلقي في نظرية النظم
176	2 - مقومات الفهم والتأويل الناجح في نظرية النظم
177	أ - الجانب النفسي
177	2 - انتماء المتلقي إلى أهل الذوق والمعرفة
178	2 - أ. المعرفة
179	2 - ب. الذوق
181	3 - الموضوعية
181	2 - آليات المتلقي لاستكشاف معنى المعنى
181	أ - دقة التفكير
183	ب - التفصيل

184	ج - الاستدلال
184	3 - الشروط الوظيفية لفهم الدلالة وتحديد معنى المعنى
185	أ - ربط الخطاب بالمقام (السياق التواصلية)
185	ب - تحديد ومعرفة غرض المتكلم
فصل ثالث: اللسانيات الغربية من البنية إلى الوظيفة	
189	• تمهيد
189	أولاً: مراحل تطور الدرس اللساني الغربي
189	- مرحلة اللسانيات البنوية
190	1 - أ. اللسانيات البنوية الأوروبية
182	- حلقة براغ
193	- حلقة كوبنهاغن
195	1 - ب. اللسانيات البنوية الأمريكية
198	2 - مرحلة اللسانيات التوليدية التحويلية
200	1- القواعد التوليدية
201	2 - القواعد التحويلية
203	- الملكة اللغوية (compétence linguistics) والأداء اللغوي (performance)
203	- البنية السطحية (surface structure) والبنية العميقة (Deep structure)
204	- النحوية (Gramaticalité) والمقبولية (Acceptabilité)
205	3 - مرحلة اللسانيات الوظيفية التداولية
209	أ - حلقة براغ
213	ب - نظرية النحو النسقي
216	ج - نظرية البراكمانتاكس
218	ثانياً: نظرية النحو الوظيفي
219	1 - مبادئ وأسس نظرية النحو الوظيفي
230	2 - بنية النحو في نظرية النحو الوظيفي
245	ثالثاً - لسانيات الخطاب / النص
247	1 - الفرق بين مفهوم النص والخطاب
249	2- اتجاهات لسانيات النص / الخطاب

254	رابعا - النص والخطاب في نظرية النحو الوظيفي
258	1 - صيغة النموذج المعيار
259	2 - نحو الطبقات القالي
261	3 - نحو الخطاب الوظيفي
263	4 - نحو الخطاب الوظيفي الموسع
264	خامسا- الطاقة الإيوائية لأقسام الخطاب
264	أ- النص
265	ب- الجملة
266	ج - المركب الاسمي
267	د - الكلمة
فصل رابع: البلاغة في نظرية النحو الوظيفي	
272	● تمهيد
272	أولا: البلاغة الغربية بين القلم والحديث
272	1 - البلاغة الغربية القديمة
282	2 - اتجاهات البلاغة الغربية في العصر الحديث
282	2 - 1. - الاتجاه اللساني
285	2 - 1- أ. الشعرية
285	أ - جاكسون
287	ب - جون كوهن
288	ج - جيرار جينات
291	2 - 1- ب. الأسلوبية
295	2 - 1- ج. اتجاه البلاغة العامة
297	2 - 2. الاتجاه الحجاجي المنطقي
301	2 - 3. الاتجاه السيميائي
304	2 - 4. الاتجاه التداولي
310	ثانيا: الممارسة الخطابية التواصلية بوصفها موضوعا لنظرية النحو الوظيفي
310	● تمهيد
312	1 - إنتاج الخطاب وتأويله في نظرية النحو الوظيفي

317	2 - شروط الخطابية في نظرية النحو الوظيفي
317	2 - 1. البعد النفعي
320	2 - 2. البعد العلاقي
321	2 - 3. البعد السياقي اللغوي
325	2 - 4. البعد السياقي الخارجي
327	3 - المعارف الأولية عند مستعملي اللغة الطبيعية
328	4 - إنتاج الخطاب
330	5 - مراحل إنتاج الخطاب في نظرية النحو الوظيفي
336	5 - 6 - 1. القوة الإنجازية المستلزمة وظاهرة التحجر
337	6 - آليات إنتاج الخطاب في نظرية النحو الوظيفي:
341	7 - إنتاج الخطاب على أساس القوالب (نموذج توضيحي)
342	8 - تأويل الخطاب
342	8 - 1. أهمية التأويل في الدراسات الغربية
345	8 - 2. عملية تأويل الخطاب في نظرية النحو الوظيفي
347	9 - القوالب وتأويل الخطاب (نموذج تطبيقي توضيحي)
348	ثالثا - الخطاب الأدبي في نظرية النحو الوظيفي
349	1 - الخطاب الأدبي في نموذج مستعملي اللغة الطبيعية
351	2 - قالب خاص للملكة الشعرية
353	3 - خصائص الخطاب الإبداعي في نظرية النحو الوظيفي
357	4 - مراحل إنتاج الخطاب الأدبي في نظرية النحو الوظيفي
359	رابعا - العبارات المجازية في نظرية النحو الوظيفي
361	خامسا - تحليل الخطاب الأدبي في نظرية النحو الوظيفي
363	سادسا - البلاغة في نظرية النحو الوظيفي
365	سابعا - نحو بلاغة وظيفية عامة
368	1 - تصور أحمد المتوكل حول نظرية التواصل الوظيفية العامة
371	2 - خصائص البلاغة في نظرية النحو الوظيفي
374	ثامنا: البلاغة بين نظرية النظم ونظرية النحو الوظيفي
374	1 - أوجه التداخل أو التشابه

380	2 - أوجه الاختلاف
391	• خاتمة
401	• قائمة المصادر والمراجع
	• فهرس الموضوعات
	• ملخص

ملخص:

باللغة العربية:

يدرس هذا البحث البلاغة في نظرية النظم ونظرية النحو الوظيفي دراسة مقارنة، وذلك ما ينتمي إلى مشروع بحث حدائي ألا وهو: مشروع البلاغة العربية التراثية في ظل المقاربات اللسانية الغربية الحديثة. وقد ركزنا ضمن ذلك على نموذج بلاغي عربي تراثي محدد وهو نظرية النظم الجرجانية، مقابل نموذج غربي حدائي محدد وهو نظرية النحو الوظيفي. لقد عملنا من منطلق سلطة البلاغة باعتبارها ذلك المجال الاجتماعي البشري الحيوي، متعدد الجذور متنوع الأنماط، على تقصي خصائص التصور البلاغي في تلك النظريتين، وتحديد أسس البلاغة داخل كل نظرية، وتبيين أبعادها، ومن ثمة تبيين أي النظريتين أنجع بلاغياً بالنسبة لمستعملي الخطاب. ومن أجل بلوغ ذلك وقفت الدراسة على مقدمة وأربعة فصول وخاتمة.

ركزنا في الفصل الأول على تتبع أبرز الأصول الإبستمولوجية التي ميزت البلاغة العربية، لنتطرق من خلال ذلك لنظرية النظم الجرجانية؛ حيث عملنا على توضيح أسسها وأبرز أصول نشأتها، أما الفصل الثاني فخصصناه لبحث البلاغة في نظرية النظم الجرجانية، في حين عملنا في الفصل الثالث على تتبع أهم مراحل تطور اللسانيات الغربية، التي عرفت تطورات كثيرة أبرزها تطور البحث فيها من البنية إلى الوظيفة، وفي خضم ذلك تطرقنا لأسس ومبادئ نظرية النحو الوظيفي. وقد كان البحث في الفصل الرابع منصبا حول تتبع ورصد تجليات البلاغة في نظرية النحو الوظيفي، لنذهب بعد ذلك إلى إجراء المقارنة. وقد توصلنا من خلال كل ذلك إلى أن للتصور البلاغي في النظريتين نقاط تداخل فيما بينهما، ونقاط اختلاف وهو ما يمثل الجانب الخاص لكل نظرية.

باللغة الإنجليزية:

This research studies rhetoric in the theory of Al- jurjani and the theory of functional grammar as a comparative study, and this later belongs to a modern research project: the ancient Arabic rhetoric project in light of modern western linguistic approaches. In this research we focused on a specific traditional Arab rhetorical model, which is the theory of the Al - jurjani, in contrast to a specific modern western model, which is the theory of functional grammar.

We dealt with the subject from the point of view of the authority of rhetoric as that vital human social field, with multiple roots and diverse patterns, to investigate the characteristics of the rhetorical perception in those two theories, and to determine the foundations of rhetoric

within each theory, and to clarify its dimensions, and then to show which of the two theories is more rhetorical for users of discourse. In order to achieve this, the study consisted of an introduction, four chapters, and a conclusion.

In the first chapter, we focused on tracking the most prominent epistemological origins that characterized the Arabic language, to address systems theory; We worked on clarifying the foundations of linguistics and the origins of linguistics. In the second chapter on monitoring the foundations of rhetoric in theory of Al -jurjani. In the third chapter, we tracked the most important stages of development of western linguistics. There have been many developments, the most prominent of which is the evolution of research from structure to function. and in the process, we set out the principles of functional grammar.

The research in Chapter four has been focused on tracking and monitoring the manifestations of rhetoric in functional grammar theory, and then on making the comparison. Through all of this, we have come to the conclusion that the rhetorical imagination in the two theories has certain overlaps, and points of difference, which is the particular aspect of each theory.